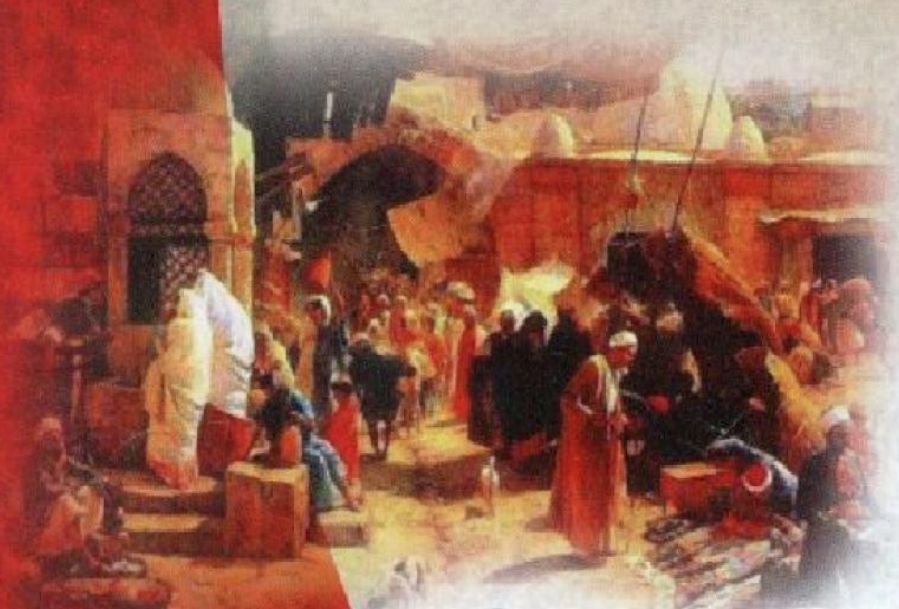


الفساد في الدولة الفاطمية

"سياسياً - إدارياً - إجتماعياً - اقتصادياً"



تقديم

الأستاذة الدكتورة

سحر عبد العزيز سالم

أستاذة التاريخ الإسلامي الحضارة الإسلامية

كلية الآداب - جامعة دمنهور

تأليف

تيسير محمد محمد شادي

مدرس مساعد التاريخ الإسلامي الحضارة الإسلامية

كلية الآداب - جامعة دمنهور



مؤسسة شباب الجامعة

40 شارع / مصطفى مشرف

تليفاكس 48338656 الإسكندرية

www.shabab.com

الفساد في الدولة الفاطمية

«سياسياً – إدارياً – اجتماعياً – اقتصادياً»

الدكتورة

تيسير محمد محمد شادي

مدرس التاريخ والحضارة الإسلامية

كلية الآداب – جامعة دمنهور

تقديم

أ.د/ سحر السيد عبدالعزيز سالم

أستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية

كلية الآداب – جامعة الإسكندرية

٢٠١٥

مؤسسة شباب الجامعة

٤٠ شارع الدكتور مصطفى مشرفة

إسكندرية – تليفاكس : ٤٨٣٩٤٩٦

Email:Shabab_Elgamaa2@yahoo.com

إهداء

إلي كل من يحمل مشعلا يضيئ به الظلام
، ويحارب الفساد، كل من عاش لنصرة الحق ، أو مات
علي مبدأ ، إلي كل صاحب فكرة أو رأي غير أو أثر
في حياتي.....

إلي روح والدي العزيز
طيب الله ثراه وأسكنه فسيح جناته..
إليهم جميعا حبي وامتناني وتقديري

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ
وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي
النَّاسِ لِيَذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي
عَمِلُوا عَلَيْهِمْ لِيَرْجِعُونَ ﴾

سورة الروم، الآية (٢١)

تقديمهم....

نجح الفاطميون في حكم مصر لفترة زمنية تزيد على الفسرين (٣٥٨هـ - ٥٦٧م / ٩٦٩هـ - ١١٧١م) فكان هدفهم بعد إقامة خلافتهم في بلاد المغرب، نقل مقر هذه الخلافة التي تعرضت لانقراضات شعبية في هذه المنطقة اثنائية والمتطرفة من العالم الاسلامي الي منطقة أكثر امانا واستقرارا ورخاءا ،ومن هنا جاءت محاولات الفاطميين لنقل مقر خلافتهم اما الي الاندلس او الي مصر ونجحوا في نهاية الامر في التركز في مصر، وجعل الفاطميون من مصر مركزا لدولة كبرى ،حمنت بدورها مسمى الخلافة شأنها في ذلك شأن الخلافة العباسية المسنية في بغداد.

ولم يختلف نظام الحكم في هذه الخلافة الفاطمية عما كان الوضع عليه في كل من الخلافة الاموية والعباسية ،فنظام الحكم فيها جميعا كان مطلقا يتأثر فيه الخليفة بالسلاطين الدينية والزمنية معا ، إلا ان الخلافة الفاطمية قد خصت نفسها بقدسية الامام -الخليفة- وعصمته من الخطأ وقد تصور الامر الي حد تأليه أحد خلفاء الفاطميين ،وهو الحاكم بأمر الله ،وقد ترك هذا الامر أسوأ الأثر في نفوس المصريين لدرجة ان كثيرا من كبار المؤرخين قد اعتبروا ان ألوهية الحاكم كانت بمثابة المسمار الاول الذي نق في نعرش الخلافة الفاطمية، وكان ذلك بل شك مظهرا قويا من مظاهر الفساد للفكري ، ويرى الكثير انه ناتج من التأثير بالمعتقدات الفارسية القديمة مما دفع الي تعدد وتباين الآراء في صحة نسب الفاطميين لأل رسول الله ،ودفع البعض الي نسبهم الي أصول فارسية مجوسية.

ولإيماننا للمطلق بأن الدول الكبرى والإمبراطوريات في مختلف أنحاء للعالم ،وفي جميع الأزمنة ،انما تنهار لأسباب متعددة ومتراكمة وقد تبدأ هذه الأسباب منذ بداية هذه الدول ،وتتضافر جميعها معا لتسقط فسي للنهاية هذا الكيان الكبير بعد فترة من الزمن ،ومن هذا المنطلق جاء اختيار الباحثة لهذا الموضوع ،وحاولت أن تتبّع الأسباب المتباينة التي تضافرت عقدا وراء عقد لتؤدي في النهاية للإهيار لدولة الفاطمية ،وكان

في رأيها أن مظاهر الفساد المختلفة من فساد سياسي وإداري وإقتصادي وإجتماعي، قد تضاعفت جميعها لتسقط هذه الدولة.

ولا يعني هذا أن الدولة الفاطمية لم يكن لها إيجابيات أو مزايا، فقد شهدت الدولة مظاهرا مختلفة من الرخاء والإزدهار ولا سيما في المجال الإقتصادي، حيث حرص الفاطميون علي بسط نفوذهم علي طريق الحرير لتوصولهم إلي مصادر التوابل الرئيسية في الهند والسند وجزر جنوب شرق آسيا والقارة الهندية، وأرسلوا دعوتهم الإسماعيلية الذين عملوا بتجارة البهار للإتجار، وايضا لنشر مذهبهم الشيعي في هذه الاماكن في محاولة من الفاطميين لترويج اقتصادهم من جهة، وبسبب نفوذهم السياسي من خلال نشر مذهبهم الشيعي هناك من جهة ثانية، ولمنافسة الخلافة العباسية وضربها في إقتصادها من جهة ثالثة، وقد نجح الفاطميون في ذلك إلي حد كبير، حيث تفوقت تجارة البحر الأحمر في عهدهم في مجال للكارم علي تجارة الخليج العربي، حيث تجمع كثير من الدراسات التخصصية الي بداية تراجع تجارة الخليج العربي أمام البحر الأحمر بدأ من القرن الرابع الهجري.

وقد انعكس هذا الإزدهار التجاري علي المجتمع المصري، وبدأت مصر تشهد رواجاً لا مثيل له فبدأت السفن تكد الي الثغور المصرية ولا سيما الإسكندرية حاملة معها ملح الشرق والغرب، وارتبطت هذه المدينة الساحلية المصرية مع الأقطار الأوربية مثل مالفي والبنديقية وجنوة، وكان لهذه المدن الإيطالية فنانين كثيرة في الإسكندرية، وشكل تجارها جالية من أكبر الجاليات الأجنبية في ذلك الوقت كما تهافت تجار المشرق والمغرب الإسلامي علي مصر في ذلك الوقت.

أيضا ازدهرت مصر علميا وذاع صيت الجامع الأزهر الذي تحول الي جامعة علمية، وكان الخلفاء الفاطميون يجرؤون للرواتب لعلماء الأزهر ولتلاميذه أيضا ويوفرون أساكنا لسكانهم، وتحوّلت أروقة الأزهر الي مدارس علمية وحلقات بحث وحمل كل رواق اسم طائفة وقد ابناها وأفردها الي هذا للجامع العظيم فأصبح هناك رواق للروم ورواق للهنود ورواق للسودانيين ورواق للصعايدة.

وليامان الباحث بأنه لا يكفينا كشعوب وأمم تسعى لإعادة كتابة تاريخها بصدق وإمانة علمية إن نكتفي بإظهار الإيجابيات ومدح الماضي، بل أنه علينا أيضاً أن نواجه أنفسنا بنقد الذات وتسايط الضوء على المظاهر السلبية إسوة بالمظاهر الإيجابية حتى نتجنب هذه السلبيات في تاريخنا الحديث والمعاصر، لأن التاريخ كما ذكر ابن خلدون: هو العظة والعبرة والدروس المستفادة من الماضي.

لذلك ارتأت الباحثة أن تتجنب الحديث في دراستها عن المظاهر الإيجابية في التاريخ والحضارة الفاطمية لأنها حانت ببرامات لا حصر لها، والتمت الباحثة بالطريق الأصعب وهو جلد انذات للإفادة من دروس الماضي في المستقبل، لذلك أخذت تتبع أهم مظاهر الفساد المختلفة في الدولة الفاطمية والتي أدت في نهاية الأمر لسقوطها.

وهذه الدراسة المقدمة إلى القراء، هي عمل علمي أكاديمي محكم وجاد وقيم وأصيل وهي تنبئ عن مولد باحثة متميزة وأعدة، لديها القدرة على النقد والتحليل والإستنتاج، من خلال رجوعها الى المصادر الأصلية، وأتت الباحثة بعدد من الحقائق التاريخية التي لم يسبقها إليها أحد من اندارسين لتاريخ الدولة الفاطمية فهذا العمل بحق وشهد على مولد مؤرخ متعمق وأعد.

ولهذا فإن هذه الدراسة المتأنية، إنما تعد بحق إضافة جديدة للمكتبة العربية والإسلامية في مجال يخص فترة زمنية تاريخية مهمة سادت فيها الخلافة الفاطمية ذات الصبغة الدينية بمكانتها التاريخية وموقعها المهم على مسرح الأحداث، وإمكاناتها الاقتصادية والسكانية والعسكرية وما حققته من إنجازات حضارية متعددة إلا أن تاريخها إعتره كثيراً من مظاهر الفساد المختلفة.

الأستاذة الدكتورة/

سحر السيد عبد العزيز سالم

أستاذة التاريخ الإسلامي

والحضارة الإسلامية

كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

فهرس المحتويات

الصفحة	الموضوع
١١	الفهرست
١٥	مقدمة
٢٩	الفصل الأول الدراسة النقدية والتحليلية لأهم مصادر ومراجع الموضوع
٦٧	الفصل الثاني مظاهر الفساد في مصر الإسلامية من الفتح العربي حتى قيام الدولة الفاطمية (٣٠ - ٢٥٨ هـ / ٦٤١ - ٩٦٩ م)
٦٩	أولاً: تعريف ظاهرة الفساد وأبرز أنواعه
٧٧	ثانياً: أبرز مظاهر الفساد في مصر الإسلامية قبل العصر الفاطمي
١٠٩	الفصل الثالث مظاهر الفساد السياسي والإداري في مصر الفاطمية
١١١	أولاً: تمهيد:
١١١	١- بداية التشيع
١١٢	٢- أصل الفاطميين ونسبهم
١١٦	٣- إقامة الدولة الفاطمية في مصر
١٢٠	ثانياً: فساد الخلفاء السياسي:
١٢٠	١- التساهل في أمور العقيدة الإسماعيلية وتغيير تعاليمها لأغراض سياسية
١٣٥	٢- إدعاء معرفة الغيب والأكروية لأغراض سياسية
١٤٣	٣- الإمعان في القتل والتعذيب وإرهاب العامة
١٥٦	٤- تدخل للتماء في أمور الدولة

الصفحة	الموضوع
	٥- كثرة اللسناس والمؤامرات والاعتيالات داخل القصر
١٦٨ الفاطمي
١٨٤	ثالثاً: فساد الوزراء والوسطاء وصراهم من أجل التوصل للوزارة..
٢٠٤ رابعاً : الفساد الإداري في مصر تحت الحكم الفاطمي
٢٠٨	١- الفساد الإداري للوزراء.....
٢١٩	٢- الفساد القضائي.....
٢٣٠	٣- فساد صاحب الشرطة والمحاسب.....
	الفصل الرابع
٢٣٧	مظاهر الفساد الاجتماعي في العصر الفاطمي
	أولاً : التمايز الطبقي وأثره في فساد المجتمع المصري في العصر
١٢٩ الفاطمي :
٢٣٩	١- المغالاة في مظاهر البذخ والترف.....
٢٤٢	أ- القصور الفخمة.....
٢٤٣	ب- ثروات الخلفاء.....
٢٤٥	ج- الأميرات والأمراء.....
٢٥٢	د- الوزراء وإحداث الخلل الاجتماعي.....
٢٥٨	هـ- الخدم والجواري.....
	و- الأعياد والاحتفالات وما يصاحبها من مظاهر
٢٦٢ البذخ والترف.....
	ثانياً : مظاهر الفساد الاجتماعي بين طوائف الجنود وأثره على
٢٦٩ المجتمع المصري :
٢٧١	١- الصراع بين المغاربة والأتراك.....
٢٧٥	٢- الصراع بين الأتراك والمبيد.....

الصفحة	الموضوع
٢٧٧	٣- صراع الأتراك فيما بينهم.....
٢٨٠	٤- ظهور الأرمن وأثرهم في فساد المجتمع.....
٢٨٣	٥- تجدد الصراع بين العبيد والأتراك.....
٢٨٤	٦- ظهور الأكراد والغرنجة.....
٢٨٧	ثالثًا : انتشار الأمراض الاجتماعية بين طبقات المجتمع المختلفة :..
٢٨٧	١- انتشار شرب الخمر.....
٢٩٦	٢- ثراء الدولة وتفشي الفاحشة واللبغاء.....
٣٠٦	٣- انتشار السرقة والنصوصية.....
	رابعًا : سياسة الدولة الدينية وأثرها في فساد العلاقة الاجتماعية
٣١١	بين المسلمين وأهل الذمة.....
٣١١	١- فساد العلاقة بين الشيعة والسنة.....
٣١٩	٢- تمييز أهل الذمة وأثر ذلك في فساد المجتمع.....
	الفصل الخامس
٣٤١	الفساد الاقتصادي ومدى تأثره
	بالتواحي السياسية والإدارية والاجتماعية
٣٤٤	أولًا : أسباب الانهيار الاقتصادي :.....
٣٤٤	١- الأسباب الإدارية والسياسية.....
٣٤٤	٢- الأسباب الدينية والاجتماعية.....
٣٤٥	ثانيًا : مظاهر الانهيار الاقتصادي في مصر الفاطمية :
٣٤٥	١- فرض الضرائب غير الشرعية (المكوس).....
٣٦٢	٢- المصادرات.....
٣٧٠	٣- القرض والاستدانة.....
٣٧٠	٤- أسلفا.....

الصفحة	الموضوع
٣٧٦	٥- ارتفاع الأسعار واحتكار السلع.....
٢٩٦	٦- انخفاض قيمة العملة.....
٤٠٩	ثالثاً : النتائج التي تترتب على الفساد والانهيار الاقتصادي :.....
٤٠٩	١- خراب مدينة القسطنطينية وتدميرها.....
	٢- ضياع ممتلكات الدولة الفاطمية وأثر ذلك على
٤٢٢	الاقتصاد.....
٤٤١	٣- الانهيار الاقتصادي التام وزوال الدولة الفاطمية..
٤٤٥	الخاتمة.....
٤٥٧	المخاتمة.....
٤٦١	المصادر والمراجع.....

المقدمة

إن الوجدان المصري يعيش اليوم مرحلة جديدة بكل ما فيها من خير وشر، بكل إيجابياتها وسلبياتها، مرحلة تمتدعي ذكريات تاريخية عديدة مرت بنا من قبل في العصر الإسلامي والعثماني والحديث أسهمت في تشكيل الأشعور الجمعي للمصريين حيث باتوا يقولون ما أشبه أنثوية بالبارحة . ولأننا نشرف بالانصب لنقسم التاريخ ونردد مع المردين بأن الإنسان حيوان له تاريخ، بمعنى أنه يدرس التاريخ لا حيا في انقصاص والحكايات، بل بحثا عن حنون لما يحيط بنا من قضايا ومشكلات فرغبت في تفتيش متاح البارحة بحثا عن اجلاء لهموم الليلة.

والجميع يتفق على أن ثورة يناير تفجرت بسبب طغيان مظاهر الفساد في المجتمع المصري وليس لمجرد وجود أزمة اقتصادية وخلل اجتماعي. إن الفساد طغى وانتشر في كل وجوه الحياة فما معنى الفساد الذي اصبح محورا رئيسا لحديث اليوم.

إن مصطلح الفساد يستخدم للتعبير عن المخاطر الحقيقية التي تهدد الدولة، ويوصف به أشد حالات الانهيار والتفكك في السنظم السيامية، إنه مجموعة من الأفعال الضارة بالمجتمع والتي تتم بغطاء قانوني، وانتهاك للقوانين السماوية والأرضية بهدف تحقيق مصالح خاصة على حساب المصالح العامة. وهو ظاهرة مركبة ترتبط بسبق اجتماعي في فكرة تاريخية معينة تساعد على وجودها أسباب كثيرة متنوعة ومختلفة.

ولأن الإنسان كائن لا يعيش بمعزل عن مجتمعه ويحتاج إلى قيادة وقوانين تحكم تصرفه وسلوكه، ومن هنا ينقسم الناس في تصرفهم وسلوكهم إلى أنماط متعددة، فمنهم من يبغى الكمال والصلاح وهو السوي من البشر، ومنهم الملتحف المريض الذي يسعى لإشباع رغبات مكبوتة فيسعى إلى للتسلط والفساد.

وعامة الناس موزعون بين الفريقين يتأثرون بالأقوى منهم، ففي عهد الرسول (ﷺ) والخلفاء الراشدين حبيت الأخلاق الحسنة وتمكنت الفضائل من قلوب كثيرين. ثم جاء من بعد ذلك من أجب الدنيا وشهواتها،

نبغي وتجبر وأفسد وتسلط فأرغم الأخيار كما يقول الكواكبي على ألفة الزبلاء والنفاق، وأعان الأشرار على نشر الفساد بكل صورة فلا اعتراض من أحد ولا انتقاد ولا افتضاح لشرور أحد..

وظاهرة الفساد ظاهرة عامة تنتشر في كل بقاع الأرض لا تخص عصرًا دون عصر أو رجلاً دون امرأة أو جنساً دون جنس، إنه جرثومة تنتشر في جسد المجتمع فتفجر ثورة لا تنتهي حتى يتم التخلص من بقاياها. ولقد عرفت الشريعة الإسلامية الفساد على أنه المعصية لله ولرسوله (ﷺ)، ومن ثم فكل خروج على للقوانين الإلهية يعد فساداً من الناحية الشرعية. أما القوانين البشرية فعرفت الفساد على أنه كل فعل يتعارض مع السلوك الطبيعي للإنسان ويسبب خرقاً أو تهديداً لقيم المجتمع ومصالح أفراد.

ولأهمية الأمر، ولتشعبه، ولما كان يحيط بنا في الأمن القريب و البعيد واليوم المشهود من تنام للاتجاهات الدينية ولما عرّفه المفسدون من قبل من سيمفونيات تخريب وترهيب عن هذه الاتجاهات، فقد تناولت هذه الدراسة مظاهر الفساد في الدولة الفاطمية في مصر في الفترة من (٣٥٨ - ٥٦٧/٩٦٩-١٧١٠م) .

تبوأَت الدولة الفاطمية مكانة متميزة في تاريخ مصر الإسلامية، واحتلت أهمية خاصة لدى المؤرخين قديماً وحديثاً، ويرجع ذلك إلى عدة أسباب، منها :

كُون الدولة الفاطمية أول دولة مستقلة استقلالاً تاماً وحقيقياً تحكم مصر، بلا تبعية للخلافة العباسية، وتجعل من القاهرة مركزاً لدولة مترامية الأطراف شملت الشام والحجاز وشمال أفريقيا وبعض جزر البحر المتوسط، كذلك كانت الدولة الفاطمية أول دولة شيعية تحكم مصر الإسلامية، وآخر دولة حتى وقتنا الحاضر، وقد أثار مذهبهم الشيعي، وحقيقة انتسابهم إلى بيت النبي (ﷺ) جدلاً كثيراً من المؤرخين الذين حاولوا إثبات أو نفي حق الفاطميين في خلافة المسلمين، وهذا ما جعل الدولة تتعرض لهجوم عنيف من جانب المؤرخين الذين انتموا لمذهب أهل السنة، لاسيما أن الدولة الفاطمية كانت مسبوقة في حكمها لمصر بقوة سنية، وتلتها في حكم مصر أيضاً قوة سنية.

وقد نجح الفاطميون في حكم مصر ما يزيد على القرنين (٣٥٨هـ - ٥٦٧هـ / ٩٦٩هـ - ١١٧١م)، فكان هدفهم بعد إقامة خلافتهم في بلاد المغرب، هو وراثة الخلافة العباسية وحكم العالم الإسلامي، لذلك انتقلوا إلى مصر فجعلوا منها مركزاً لدولة كبرى، شملت معظم ممتلكات الدولة العباسية، ولم يقتصر الأمر على هذا فحسب، بل وصلوا إلى بغداد - عاصمة الخلافة العباسية - ونودي باسم خلائفهم على منازرها. وقد حاول الفاطميون استغلال موقع مصر المتميز وثرواتها الوفيرة وكسب ود المصريين إلى جانبهم في تحقيق أهدافهم ومشاريعهم في الشرق الإسلامي.

وقد تحقق لهم الأمران الأولان لكنهم فشلوا في اجتذاب المصريين السنة إلى جانبهم لما كان لديهم من تعاليم خالفت التعاليم الإسلامية ولاسيما في الميراث، ولما أظهره الفاطميون من سياسة معادية للصحابة رضي الله عنهم، ولمجاهرة بسبهم. هذا الأمر الذي أدى إلى وضع حدار بين أهل السنة والشيعة، فلجأ الشيعة إلى اجتذاب أهل الذمة، وتفريتهم حتى انعزلوا بهم داخل عاصمتهم 'القاهرة'، بينما ظل السنة في مدينة الفسطاط بعيداً عما تمتعت به العاصمة من ثراء وبذخ وترف، ظهر جلياً في رسومهم وأنظمتهم وحفلاتهم التي فاقت الوصف، ومن ثم أصبح المجتمع المصري ذا قطبين: أحدهما بالغ الثراء والآخر بالغ الفقر، وبالرغم من هذا التمايز، إلا أن المجتمع المصري بقطبيه قد تأثر تأثراً بالغاً بالسياسة الفاطمية سلباً وإيجاباً وذلك لكونهم يُسيرون نفة الحكم والأمور بداخل مصر.

والشيء اللافت للنظر هو التناقضات التي عمت الدولة الفاطمية، تلك التي أثارت دهشة الباحثين، فكون الدولة الفاطمية دولة دينية فالمنوط بها أن تعتمد على عقيدة ثابتة وقوية، إلا أنها قد تلاعبت بتلك العقيدة مع مصالحها الشخصية، فجعلت البنيت توث إذا انفردت جميع الإرث دون

العصية أو هبت المال^(١)، مخالفين بذلك التعاليم الإسلامية ومذهب أهل السنة والجماعة، وهذا في محاولة منهم لإثبات أحقية فاطمة الزهراء - رضي الله عنها - في ميراث أبيها حتى يكون لهم الحق في حكم العالم الإسلامي بدلاً من العباسيين، كذلك جعلوا الإمامة في الأعراب، وبالرغم من ذلك فقد خالفوا تلك العقيدة لتحقيق أغراض ميساسة تصل ببعضهم إلى كرسي الحكم، كما أنهم أحاطوا لفهمهم بهالة من التقديس حتى يباهم الناس، غير أن هذا الأمر قد وصل بهم إلى حد التكليف، وهو ما لم يقبله المسلمون، سواء من جانب بعض الشيعة أنفسهم أو السنة أو أهل مصر على اختلاف أصنافهم.

فكانت دولتهم دولة ذات حكم ومرجعية دينية نكبتا منسلطة شعارها الغاية تبرر الوسيلة وخطت كافة الأمور بعضها بعضاً لأجل تحقيق مصالحها الشخصية وأهدافها القومية فعم أرجاءها الفساد.

وقد أدى البذخ والترف الذي انتهجه الفاطميون وإهمال بعض خلفائهم شئون البلاد، وكثرة الصراعات والنزاعات بين كبار رجال الدولة وجنودها، من أجل الحصول على المزيد من المكاسب، كما أدى صغر سن الخلفاء الفاطميين وتدخل النساء في شئون الدولة أدت إلى دخول مصر عصرًا جديدًا سمي بعصر الوزراء، لم يكن للخلفاء الفاطميين منه سوى الاسم فقط ثم ففحوا الاسم والمكان وزلزلت دولتهم.

وقد تبينت وتداخلت الأحوال الاقتصادية للدولة الفاطمية لدرجة جعلت الدارم لها يعجز عن وضع حد فاصل بين فترة الازدهار فيها وسلوات الانهيار، فالدارم لسنوات انهيارها يشعر بأن البلاد لم تحظ بشيء من الازدهار إطلاقاً، والشيء نفسه عند دراسة مظاهر الازدهار،

(١) للقاضي النعمان أبو حنيفة النعمان أبي عبد الله بن أحمد بن حيون، دصائم الإسلام في ذكر الحلال والحرام والقضايا والأحكام عن أهل بيت رسول الله عليه وعليهم أفضل السلام، تحقيق: آصف بن علي بن أصغر فيضي، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٥، ص ٣٧٩، ٣٨٠ للمجالس والمعارف، تحقيق: الحبيب النقي، إبراهيم شجوح، محمد البعلوي، بيروت، ١٩٩٩م، ص ٩٧.

فإن المدارس يشعر أن هذه البلاد تعيش عيشة متصلة من انترف وانرخاء الذي لا يماقنه رخاءه على الرغم من حياة الزهد والشكف التي كان يعيشها الفاطميون في أفريقية قبل مجيئهم مصر، لذلك كان هذا التدخل الشديد بين هذه المراحل هو السمة السائدة لهذا العصر.

تناول الكتاب موضوع مظاهر الفساد في مصر بيان الحكم الفاطمي، وقد حاولت أن أرصد ظاهرة الفساد السياسي والإداري والاجتماعي للدولة الفاطمية أثناء حكمها نمصر محاولة أن أتزم الموضوعية والحياد وروح العصر آنذاك، فحاول أن يكون حكمه على انفساد متوافقاً مع الزمان والمكان وفترة الدراسة؛ لأن أسباب انفساد تكاد تكون واحدة في كل العصور ولكن قد تختلف مظاهره باختلاف الزمان.

أما عن أهمية الموضوع : فتكمن في إلقاء الضوء على مظاهر الفساد في مصر أثناء فترة الحكم الفاطمي والتركيز عليها وعلى تأثيرها في المجتمع المصري، لاسيما أن معظم المؤرخين كان اهتمامهم منصباً على النواحي السياسية والحضارية ولم تلق مظاهر انفساد القدر الكافي من الاهتمام.

وكذلك إظهار الوجه الآخر للدولة للفاطمية والذي لا يعرفه إلا النخب، حيث شغل المؤرخون بحروب الدولة الفاطمية وتوسعاتها ومذهبها الديني وصفات الفاطميين وطباعهم وعاداتهم وتقاليدهم، وتشتتتهم الاجتماعية اضمحلال دولتهم، ولم يتطرق المؤرخون إلى الفساد الذي بدأ يفتش في كيان الدولة، وتغلغل في كل مناحي الحياة حتى قضى في النهاية على الدولة الفاطمية، وهذا ما دفعني إلى إلقاء الضوء على هذا الوجه متتالاً لأسباب الفساد ومظاهره ونتائجه على المجتمع المصري. وتتجلى أهمية هذا الموضوع في كونه يتطرق إلى فكرة التحولة الدينية التي قامت عليها التحولة الفاطمية؛ فالدین والمذهب هما المحركان الأساسيان لها في تحقيق أهدافها، لكن هدفها السياسي طغى على فكرها الديني، وتم استخدام الدين لخدمة السياسة، وتوظيف السياسة لأغراض دينية. وفي هذا مظهر من مظاهر الفساد الديني والسياسي وخط في الأوراق.

أما عن أسباب اختيار هذا الموضوع، فهناك عدة أسباب منها ما يأتي :

• لما كان الانتقال السريع بين الشيء ونقيضه سبباً رئيساً في ظهور الفساد، لذا فقد كان هو الدافع الأول للباحث في اختيار موضوع البحث، والذي يتحدث عن أبرز مظاهر الفساد التي ظهرت في مصر في هذا العصر (العصر القاطمي)، ولم يتعرض لها المؤرخون القدامى أو الجند بصورة مباشرة، اللهم إلا بين ثانياً مؤلفاتهم لاستكمال موضوع دراستهم، فقد اقتصرت مكتبة العربية والإسلامية إلى دراسة مفصلة عن هذا الجزء المهم من تاريخ مصر الفاطمية.

• كذلك الوقوف على الأسباب الحقيقية التي أدت إلى فساد الدولة، ونهبها بعد ازدهار بهر العالم كله، فضلاً عن الصمود الذي تمتع به أهل مصر سنة رغم ما تعرضوا له من ضغوط، على مذاهبهم السني، وعدم تحولهم للمذهب الشيعي والذي كان سبباً هاماً من أسباب اختيار هذا الموضوع ليكون موضوع الدراسة.

• هذا إلى جانب ما يعثقه الفاطميون وتاريخهم السياسي والحضاري من أهمية، فضلاً عن أسباب وعظاير ونتائج الفساد وما حل بهم من قدر كبير وما يسببه من أهمية تشغل ذهن أي باحث بالإضافة إلى ضرورة التعرف على جذور هذا الفساد وكيف ظهر وتغلغل داخل المجتمع المصري، وهل أسباب ومظاهر ونتائج الفساد واحدة مع تغير الأزمان والعصور والأماكن، وكيف يمكن التصدي لهذه الأشكال من الفساد.

أما عن اختيار الفترة الزمنية : فيرجع سبب اختيار هذه الفترة الزمنية التي تبدأ من عام ٣٥٨هـ / ٩٦٩م وتمت حتى ٥٦٧هـ / ١١٧١م إلى أهمية هذه الفترة حيث شهد التاريخ الأول قيام هذه الدولة بمصر بعد عدة محاولات مستميتة ومقاومة عنيفة من الدولة الإخشيدية والخلافة العباسية، إلى أن انتهى الأمر بسقوط مصر في قبضة الناظميين عام ٣٥٨هـ / ٩٦٩م، وجاء التاريخ الثاني ٥٦٧هـ / ١١٧١م يحمل معه نبأ سقوط الدولة الفاطمية ونهاية الخلافة الفاطمية وزوالها عن مصر بعد رحلة

إنجازات تخللتها مراحل فساد سياسي وإداري واجتماعي واقتصادي أرفقت الدولة وساعدت على سقوطها.

وقد شكنت هذه الفترة الزمنية بداية قيام الدولة الفاطمية بمصر حتى نهاية هذه الدولة وزوالها عن مصر والشام وحلت محلها للدولة الأيوبية السنية وعاد المذهب السني ليسود العالم الإسلامي من جديد.

وقد كان سبب اختيار الباحث لفترة حكم الدولة الفاطمية بمصر هو أن الدولة قامت داخل المجتمع الإسلامي بالشرق، وكانت ذات مذهب شيعي وصارت خلافة شيعية بجانب الخلافة العباسية السنية، وكان لفسادها أثر كبير في تغيير مجريات الأمور وخريطة العالم الإسلامي. غير أن هذا لا يعني أن حكم الخلافة الفاطمية كان سبباً على الدوام، فهناك العديد من الجوانب الإيجابية التي ميزت الدولة الفاطمية أثناء فترة وجودها في مصر.

أما عن الصعوبات التي واجهت الباحثة فهي عديدة ولعل من أهمها، ضرورة توخي الحيطة والحذر في تناول هذا الموضوع، حيث إن مفهوم الفساد يختلف كلياً وجزئياً باختلاف الزمان والمكان، فما هو متعارف عليه في وقت ما بأنه فساد، ربما يكون في وقت آخر ليس بفساد، أو أنه مفهوم (نسبي / متغير)، لذلك كان لا بد من تحديد مفهوم الفساد بمعنى شامل وعمام، ثم التطرق إلى تحديده في الفترة موضوع الدراسة، وما ترتب على هذا الفساد من نتائج سلبية، عانى منها الشعب المصري في القاهرة والقسطنطينية على السواء.

كذلك كان من أهم الصعوبات التي واجهت الباحث، ندرة المصادر والمراجع التي تتحدث بشكل مباشر عن هذه الظاهرة في ذلك الوقت، مما استدعى التنقيب في بؤن مصادر عن تلك الفترة، وأدى إلى البحث عنها بين ثنايا الأحداث لتحليل الأحداث السياسية والاجتماعية والمظاهر الاقتصادية، خلال تلك الفترة موضوع الدراسة لإبراز جوانب الموضوع بصورة جلية واضحة.

وثمة صعوبة أخرى قد واجهت الباحث في بحثه، ألا وهي أن معظم المصادر والمراجع تصب جُل اهتمامها في الحديث عن الدولة

الفاطمية، على عاصمتها القاهرة وما فيها من أحداث سياسية أو حضارية، مع إغفال القسطنطينية التي لم تلق حظها اللازم مع الفاطميين وكذلك المؤلفين، بالرغم من أن القسطنطينية كانت تحوي العند الأكبر من المصريين على مذهب أهل السنة، اللهم إلا مع ذكر الأهداف والثورات التي تدور بين القادة، أو حالات التمرد التي - كانت تظهر بين الحين والآخر - وكانت الإسكندرية والقسطنطينية مسرحاً لها، وكذلك عن المجاعات وموت أهلها مرضاً وجوعاً.

أيضاً كان على الباحثة التعامل مع المصادر والمراجع بشيء من التدقيق واتمحيص لتكون للدولة الفاطمية شيعية، فيجب التأكيد من هوية المصدر والمرجع حتى نصل إلى الحقيقة العلمية بحياد وموضوعية.

وقد اقتضت طبيعة الموضوع أن يقسم إلى مقدمة يعقبها خمسة فصول في نهايتها، خاتمة تتضمن أهم ما توصل إليه الباحث من نتائج خلال البحث، ثم تأتي الملاحق والصور والخرائط وتذييل الرسالة بغائمة المصادر والمراجع.

وقد تضمنت المقدمة العديد من الأمور أهمها سبب اختيار الموضوع والمنهج المتبع في الدراسة، وأهم الدرامات السابقة، وكذلك الإشكاليات التي واجهت الباحث، مع عرض موجز لأهم عناصر البحث.

ثم يأتي الفصل الأول: ويشتمل على عرض وتحليل لأهم مصادر ومراجع الدراسة، السني منها والشيعة.

ويأتي الفصل الثاني: وقد تعرضت خلاله إلى:-

أولاً: التعريف للثغري والديني والقانوني لمصطلح وظاهرة الفساد، وأهم الأسباب المؤدية لها، مع ذكر أبرز أنواعه (الفساد السياسي، الفساد الإداري، الفساد الاجتماعي، الفساد الاقتصادي)، مع ذكر بدايته التي كانت مع بدء الخليقة، وما جاء في فساد النبي آدم عليه السلام عندما قتل قابيل أخاه هابيل.

ثانياً: أهم مظاهر الفساد التي سبقت الدولة الفاطمية في مصر الإسلامية، حيث عصر الولاة، وعصر الدولة الطولونية وكذلك الإخشيدية، إلى

أن جاء جوهر انصقلي ودخل مصر، وبينما أن السبب الرئيس لتمكن الفاطميين من دخول مصر بسهولة ويسر، هو تقشي الفساد الذي عم الدولة الإخشيدية وجعل بعض أهل مصر يستنجدون بالفاطميين.

أما الفصل الثامن وعنوانه : أبرز مظاهر الفساد السياسي والإداري في مصر في العصر الفاطمي.

وقد تحدثت فيه خلال نقاط بسيطة عن نشأة الحزب الشيعي العلوي، وأصل الفاطميين ونسبهم الذي أثار الجدل وانتفاش حول ترفيقهم في خلافة المسلمين ومن ثم خلافة مصر وأحققتهم فيها، كذلك إقامتهم في مصر، ثم تناولت الباحثة أبرز مظاهر الفساد السياسي في الدولة الفاطمية في مصر تفصيلاً.

وقد ذكرت الباحثة: أن من أهم تلك المظاهر الثلاثة بالعقيدة الفاطمية التي هي أساس دعوتهم من أجل أغراض سياسية للوصول عن طريقها إلى سدة الحكم في الدولة، مثلما فعل للمعز لدين الله، وللحاكم بأمر الله، وكذلك الأفضل بن بدر الجمالي، وابنه أبو علي كتيفات. كذلك ومن أجل الوصول إلى حالة التقديس والإجلال، فلم يتهاون الفاطميون في ادعاء معرفة الغيب وادعاء الألوهية، هذا الأمر الذي أثار حفيظة المسلمين وبات يقضي على الدولة بأكملها. ومن أجل تلك العقيدة، كان لا بد لمن يتولى الإمامة أن يكون من الأعقاب، ولهذا فقد كان عديد من الخلفاء الذين تولوا الحكم في زمن الفاطميين من الأطفال الذين تحكمت فيهم أطماع الوزراء والوسطاء، وتدخلت نساء العصر في الحكم حتى تولي من ترعب من أبنائها، فسدت الدولة وكثرت الحروب بين أطرافها.

كذلك فقد ألفت الباحثة الضوء على تعمد الخلفاء الفاطميين في إرهاب عامة الشعب، وللتفتن في وسائل تعذيبهم، دون أنظر إلى أدميتهم، فقد لجأ بعضهم إلى اتباع السليخ، والحرق، والصلب، والتسهير، وكذلك قطع اليد واللسان، وغير ذلك الكثير من وسائل التعذيب التي مارسها بعض الخلفاء لمن يخضبون عليه من الرعية، أو من يعارضهم، وقد وصل حد التعذيب إلى انتقام الخليفة للحاكم من شعب بأكمله، عندما أمر جنوده من السودان بحرق مدينة القسطنطينة، وذلك بعد تدميرها، واغتصاب نساها.

كذلك كانت السمة الواضحة في العصر الفاطمي الثاني، هي صراع الوزراء فيما بينهم للوصول إلى منصب الوزارة، الذي كان بمثابة الخلافة، حيث أصبح الخليفة اسمًا فقط وأصبح الوزراء أرباب السيوف متحكمين في أمور الدولة الدينية والجنوية، فكثر الصراعات، وقد نجأ بعض هؤلاء الوزراء إلى الاستعانة بقوة خارجية، دون اعتبار لأي شيء حتى بلغ بهم الأمر للاستعانة بالصليبيين أعداء الدولة الإسلامية من أجل الوصول إلى الحكم، ففسدت أحوال البلاد والعباد، وأصبحت الدولة مضطحة للظالمين، حتى سقطت نهائيًا على يد صلاح الدين الأيوبي.

ونظرًا للتمايز الذي كانت تتبعه الدولة بين أهل مصر، فقد حرصت أيضًا على اصطناع الرجال الذين يحققون لها سياستها المالية، ومثلما وجد الخلل الطبقي، فاختلفت الطبقة الوسطى، ووجد الخلل أيضًا في توزيع العمل، فأصبحت الدولة الفاطمية تُولي ثقتها لنفر من الناس، وربما للشخص بعينه، يتولى جميع شؤون الدولة الإدارية، مثلما كان يعقوب بن كلس زمن المعز والعزیز، والذي جمع بين الشراطين والحسبة، والخراج، والأعشار، وغير ذلك من أمور الدولة، وتحقق هؤلاء ثراء كبير، وتحكموا في كل شيء حتى وصلوا إلى منصب للوزارة التي قضت على سطة الخلافة نهائيًا.

ولعل القضاء في أي دولة هو ميزان صلاحها، لذلك فإننا نجد في الدولة الفاطمية منصب القضاء يشويه الفساد والرشوة، ويتوارثه الأبناء عن الآباء فكان هذا نذيرًا بسقوط الدولة وزوالها.

أما الفصل الرابع من الدراسة جاء بعنوان : أبرز مظاهر الفساد الاجتماعي في الدولة الفاطمية. ومن أهمها، تلك السياسة التي اتبعتها الدولة الفاطمية في التمييز الطبقي بين فئات المجتمع، والذي أعطى الخليفة وحاشيته ومن يقوم بخدمته، كل الامتيازات التي تضمن له عيشة ثرية مترفة، بينما حرّم من تلك الامتيازات المصريون أهل البلاد السنة، الذين عانوا أشد المعاناة بسبب فقرهم، ومن جراء هلاك الطبقة الحاكمة وراثتها. ثم قام الباحث بإلقاء الضوء على ثراء الدولة الفاحش، ومصادر هذا الثراء، وأوجه إنفاقه على مظاهر مبالغ فيها من البذخ والترف.

كما تعرضت الباحثة لأبرز مظاهر الفساد الاجتماعي الذي ظهر بين طوائف الجند على اختلافهم، سواء بين المغاربة والأفراك، أم بين الأتراك والعبيد الذين أكثر منهم الحاكم بأمر الله، ذلك الصراع الذي نشأ بين الأتراك فيما بينهم، كما تم إلقاء الضوء على طائفة الأرمين وظهورها الذي زامن ظهور بدر الجمالي، وظهور ما عرف باسم العصر الفاطمي الثاني، الذي ساد فيه الوزراء، كما ساد فيه الأرمين وكثر فسادهم، حيث تولوا العديد من مناصب الدولة وتحكموا في المصريين السنة، وعاملوهم أسوأ معاملة، وقد بلغ من مطوتهم أن وصل بعضهم إلى منصب الوزارة، فزاد فسادهم وطغيانهم.

وقد أدى ثراء الدولة الفاحش، مع كثرة فسادها والصراعات بين جندها ووزرائها، وكذلك فقر أهل البلاد، إلى تعشي الفاحشة والبغاء، فقد أدى الثراء الفاحش وعدم المبالاة وكثرة الخدم في القصور الفاطمية، إلى تعشي البغاء، وظهور العديد من مظاهر الفساد التي عمت الغنى لغناه الفاحش والفقير لفقره المدقع، فانتشر في الأوساط الغنية شرب الخمر، والتسري، وكذلك الشذوذ الجنسي؛ الذي عم النساء والرجال على السواء، من المسلمين وأهل الذمة، والخليفة والرعية، فكان منهم تعميم ابن المعز لدين الله^(١)، والظافر لدين الله، كما شمل بعض التجار وغيرهم، ولم تسلم النساء من ذلك فقد وصل الأمر إلى حد اتهام الحاكم بأمر الله لأخته ست الملك بارتكاب الفحشاء وإدخال الرجال عليها، وهددها بإحضار القابلات لاكتشاف أمرها. (١)

(١) الجوزي [أبو علي منصور العزيمي] سيرة الأستاذ جوائز وبه توثيحات الأئمة الفاطميين، حققه وقدم له، محمد كامل حسين، ومحمد عبد الهادي شعيرة، القاهرة، ١٩٥٤، ص ١٢٠٤.

(٢) المقرئ [تقي الدين أحمد بن علي]، اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الخلفاء، ج ٢، تحقيق : محمد حلمي محمد أحمد، المجلس الأعلى للثنون الإسلامية، القاهرة، ١٩٦٧م، ص ١١٧.

كذلك فقد لجأت بعض النساء الفقيرات التي عنعت قوت يومها إلى ارتكاب الفاحشة وبيع جسدها لكي تقوى على حياتها، ولجأ البعض الآخر إلى أعمال السرقة واللصوصية.

وقد اتبع الفاطميون سياسة غير عادلة، جعلتهم يميزون بين أهل الذمة والمصريون السنة، وبين السنة والشيعية، مما كان له أثره في فساد العلاقة فيما بينهم، واضطهاد من يصل إلى الحكم - من الشيعة وأهل الذمة - للمسنين، كما أن تعرض الفاطميين بالمسب واللعن للصحابة (رضي الله عنهم)، ومحاولة إجبار أهل السنة على اعتناق المذهب الشيعي كان له من الأثر السيئ في نفوس السنة، الذين تمنوا زوال الخلافة الفاطمية وعودة الخلافة السنية.

أما الفصل الخامس وهو بعنوان: الفساد الاقتصادي ومدى تأثيره بالنواحي السياسية والإدارية والاجتماعية. وقد تناولت في هذا الفصل عدة نقاط، وهي أسباب الانهيار الاقتصادي التي تمثلت في الفساد السياسي للقادة والفساد الاجتماعي الذي غم مصر وأهلها، وقد تجلت مظاهر هذا الانهيار فيما قد اتبعته الدولة من إجراءات بغرض الحصول على الأموال للإنفاق على هذا الترف والبلذخ الذي عاشته في مصر وأرادت الحفاظ عليه.

وقد تمثلت تلك المظاهر في فرض الدولة الضرائب غير الشرعية على جميع رعاياها وعلى كل شيء، يمكن فرض الضرائب عليه، أو لا يمكن، حتى أنها فرضت ضرائب على المواريث، والموتى، فلم يبق شيء دون ضرائب إلا الهواء كما قال المقرئ سائحاً من ذلك. كذلك لجأت الدولة إلى ما عرف بالمصادرات، التي اتبعتها في تأديب رعاياها وكنوع من أنواع زيادة دخلها، كذلك استغل التجار ضعف الدولة وكثرة الصراعات فيها، وحاجة الشعب إلى الغذاء، فقاموا برفع الأسعار واحتكار السلع، هذا الأمر الذي أدى إلى انخفاض قيمة العملة، وظهور عملات رديئة طرقت العملات الجيدة من التعامل، كما أدى إلى دخول البلاد إلى أزمات اقتصادية، فأنت إلى مجاعات لم يكن للنيل سبب في حدوثها، وقد أدت هذه المجاعات إلى وفاة العديد من أهل مصر.

وقد ترتب على هذه المظاهر الفاسدة التي عمت مصر سياسيًا وإداريًا واجتماعيًا انهيار الاقتصاد المصري، كما أدى إهمال الخلفاء وسوء تدبيرهم إلى دخول البلاد في مجاعات أودت بها وبأهلها، ولم تكن المجاعات وحدها هي التي قضت على مصر وأهلها، بل كانت القرارات الفاسدة للحكام والوزراء سببًا آخر في ذلك حيث تعرضت القسطنطينية للحرق والتدمير لأكثر من مرة زمن الفاطميين حتى أصبحت أنثرا بعد عين، ودفع أهلها ثمنًا ما كان يجب أن يدفعوه، وذاقت الدولة الفاطمية نتائج ما قد زرعت طيلة وجودها في مصر، حيث تقلصت أملاكها وتار عنها ولائها، والتابعون لها، فانحصرت في مصر، ثم لم تتحمل مقاومة الفساد الذي تغلغل في كافة جوانبها، فأخذ يفقدها هيبتها وثراءها وعظمتها شيئًا بعد شيء حتى زال أمرها في نفس الهدوء والسكون الذي قد ظهرت فيه في مصر، تاركة الشعب المصري إلى مذهبه السني مرة أخرى. غير أن زوال الخلافة الفاطمية لم يعن زوال آثارها، فقد تأثر الشعب المصري إلى حد كبير بالمظاهر الفاطمية المتعددة والتي تمارس حتى الآن.

ثم جاءت الخاتمة في نهاية البحث متضمنة أهم النتائج التي تم التوصل إليها خلال الدراسة، وقد أعقب الخاتمة مجموعة من الملاحق التي تخدم الدراسة وتوضح أصل الفاطميين، و خلفائهم ومدة خلافتهم، وكذلك من عاصروهم من الخلفاء في بغداد والأندلس، مع مجموعة من الجداول التي تبين مقياس النيل في سنوات حكم الفاطميين في مصر، وكذلك المجاعات التي عمت مصر في تلك الفترة، مصروفات الدولة على أعيادها، وحاشيتها مقارنة بالشعب المصري المغلوب على أمره، كذلك العديد من الأشكال والصور التي أوضحت الشكل التقريبي للخلفاء للفاطميين طبقًا لما ظهر خلال نقودهم، ومظاهر ترفهم وبنخهم، وبعض مظاهر اللهو حياتهم، كذلك بعض الأشكال لمدينتهم القاهرة، وجامعهم الأزهر، وأيضًا جامع عمرو بن العاص بوصفه مركز المقاومة السنية.

المؤلف

تيسير محمد محمد شادي

مدرس بمساعد التاريخ الإسلامي

والحضارة الإسلامية

الفصل الأول

دراسة تحليلية ونقدية لأهم مصادر ومراجع الكتاب

أولاً : الوثائق المنشورة.

ثانياً : الكتب العربية (المصادر العربية) :

- ١- كتب التاريخ.
- ٢- كتب الجغرافيا.
- ٣- كتب الرحلات.
- ٤- كتب الطبقات والتراجم.
- ٥- كتب الأدب.
- ٦- كتب الحسبة.

ثالثاً : المراجع العربية الحديثة.

رابعاً : المراجع الأجنبية.

عرض لأهم مصادر ومراجع الدراسة

تعددت وتعددت المصادر التاريخية، وكذلك الأدبية التي تتعلق بتاريخ الفاطميين في مصر، ولاسيما تلك التي كتبت عن طريق الفاطميين أنفسهم، وكذلك ما كتب عن طريق السنة المعارضين لحكمهم، كذلك تعددت المصادر التي تحدثت عن الدولة الفاطمية، والتي كانت قريبة منها سواء كان ذلك في الفترة الأيوبية (٥٦٧ - ٦٤٨ هـ / ١١٧٢ - ١٢٥٠ م) أو الفترة المملوكية (٦٤٨ - ٩٢٣ هـ / ١٢٥٠ - ١٥١٧ م) والتي كان لها من الأهمية في إبراز كل ما يتعلق بالدولة الفاطمية سواء في مصر أو في المناطق التابعة لها، والتي أفادت الباحث في شتى مجالات بحثه. وقد تم تقسيم تلك المصادر إلى مجموعات روعي فيها - قدر الإمكان - الترتيب التاريخي لتلك المصادر ومن أهم هذه المصادر الآتي :

أولاً : الوثائق المشهورة :

[١] السجلات المستنصرية^(١) :

وهي تشتمل على وثائق (سجلات) صادرة إلى ملوك الصالحين في اليمن، عن ديوان الإنشاء الفاطمي بالقاهرة^(٢)، أثناء الحكم التاريخي الطويل للخليفة المستنصر بالله (٤٢٧ - ٤٨٧ هـ / ١٠٣٥ - ١٠٩٤ م) وأوائل حكم ابنه المستعلي بالله (٤٨٧ - ٤٩٥ هـ / ١٠٩٤ - ١١٠١ م)، وتعرف باسم "سجلات وتوقيعات وكتب لمولانا الإمام المستنصر بالله،

(١) السجلات المستنصرية، سجلات وتوقيعات وكتب لمولانا الإمام المستنصر بالله، أمير المؤمنين - صلاة الله عليه - إلى دعاة اليمن وغيرهم قدام الله أرواح جميع للمؤمنين، تقديم وتحقيق : عبد المنعم ماجد، دار الفكر العربي، القاهرة، بدون تاريخ.

(٢) تم العثور على هذه السجلات في الهند عند أحد الإسماعيليين، على هيئة مخطوطة تحمل رقم (٢٧١٥٥)، وهي مخطوطة وحيدة، أهديت إلى مكتبة الدراسات للشرقية بلندن، وربما يعود انتقالها إلى الهند إلى أن مركز الدعوة الفاطمية قد انتقل من اليمن إلى الهند بعد موت السيدة لحررة. راجع : عبد المنعم ماجد، السجلات المستنصرية، ص ١١، ١٧.

أمير للمؤمنين - صلوات الله عليه - إلى دعاة اليمن وغيرهم، قدس الله أرواح جميع المؤمنين. وهي عبارة عن ستة وستين سجلاً تضمن معلومات مهمة عن الفاطميين في اليمن وأثناء الجزيرة العربية.

فضلاً عن تناولها الحياة السياسية الداخلية والخارجية في مصر في عهد المستنصر بالله (٤٢٧ - ٤٨٧ هـ / ١٠٣٥ - ١٠٩٤ م)، وابنه المستعلي بالله (٤٨٧ - ٤٩٥ هـ / ١٠٩٤ - ١١٠١ م) أثناء فترة أربعة وأربعين عامًا هجريًا من (٤٤٥ هـ / ١٠٣٥ م إلى ٤٨٩ هـ / ١٠٩٦ م). ففي الخارج تلك السجلات ضياع سيطرة الفاطميين على إفريقيا نتيجة لتمرد ابن باديس، وما يتبع ذلك من إرسال القبائل العربية إلى هذه البلاد مما يوضح مدى ضعف الخلافة في تلك الفترة، وعدم قدرتها على حماية ممتلكاتها في إفريقيا. (١)

لما في الدخول، فقد أظهرت هذه السجلات العديد من الثورات التي اندلعت في مصر، وما تم من نهب خزائن الخليفة الفاطمي المستنصر بالله، الذي حرّم من كل نفوذ منذ سنة ٤٦٧ هـ / ١٠٧٤ م (٢)، في المقابل ارتفع شأن وزرائها الذين سيطروا على الأمور الدينية، والدنيوية معًا، فأصبح بدر الجمالي أمير الجيوش، وكافل قضاة المسلمين، وهادي دعاة للمؤمنين، وأيضًا باب الخليفة المستنصر بالله. (٣)

كذلك تبرز هذه السجلات أن الوزارة أصبحت كالمك الذي يورث، وأصبح الوزراء متصرفين في أمور الدولة، وكذلك اختيار الخليفة، مثلما فعل الأفضل شاهنشاه بن الوزير بدر الجمالي في تولية الابن الأصغر للخليفة المستنصر بالله، وهو المستعلي بالله، وإقصاء الابن الأكبر تزار (٤)، ومدى حرص الفاطميين في ذلك الوقت على تأكيد دعاة اليمن على هذا الأمر.

(١) لسجلات قمستصرية، سجل رقم (٥).

(٢) المصدر السابق، سجل رقم (٥٦).

(٣) المصدر السابق، سجل رقم (٢١).

(٤) المصدر السابق، سجل رقم (٤٣، ٣٥).

كذلك تشير السجلات إلى سيادة الفاطميين المالكية، وتذكر بعض الضرائب المذهبية التي لم تكن موجودة من قبل والتي أضافها الفاطميون ضمن ضرائب عدة أنهكت قوى للشعب المصري منها ضريبة النجوى، وضريبة الفطر، والتي لم تكن اختيارية، وإنما فرضت كواجب على المؤمنين، والمؤمنات حسب مذهب الفاطميين.^(١) كذلك تبين تلك السجلات حرص الفاطميين الشديد على تحصيل الضرائب، وضرورة إرسالها في حالة تأخرها^(٢)، وتشير هذه السجلات إلى أن هذه الضرائب كانت توضع في بيت مال الخليفة^(٣)، أي أنها لم تذكر بيت مال المسلمين مما يدعو للشك في طبيعة بيت المال في تلك الفترة، غير أن هذه السجلات لم توضح إذا ما كان يفرض في مصر من رسوم هو ما يفرض بالفعل في اليمن بصفتها تابعة للخلافة، أم أن هناك رسوماً أخرى غير تلك الرسوم.

[٢] مجموعة الوثائق الفاطمية^(٤) ووثائق الخلافة وولاية العهد والوزارة:

جمعها، وحققها، وعلق عليها الدكتور جمال الدين الشيبان، وهي عبارة عن ثلاث وعشرين وثيقة، عشر ووثائق منها تتحدث عن نظام الخلافة، وولاية العهد، وثلاثة عشر منها تتحدث عن نظام الوزارة، والوزراء في مصر، وقد قسم المجلد إلى قسمين: القسم الأول، عبارة عن دراسة تحليلية مقارنة لكل وثيقة، مع شرح المصطلحات الفاطمية، والقسم الثاني، عبارة عن نصوص تلك الوثائق، وقد حملت تلك الوثائق بين طياتها العديد من المعلومات القيمة التي استفاد منها الباحث في بحثه. حيث أشارت تلك السجلات إلى معرفة فاسقة بالحكم عند الفاطميين، والتي بنيت على أساس مذهبي، شيعي، إسماعيلي، يعترف فيه

(١) المصدر السابق، سجل رقم (٢، ٢٣).

(٢) المصدر السابق، سجل رقم (٢١).

(٣) المصدر السابق، سجل رقم (٢٦).

(٤) جمال الدين الشيبان؛ الوثائق التاريخية لمصر الإسلامية، مجموعة لوثائق الفاطمية، م ١، ٢٤، ووثائق الخلافة وولاية العهد والوزارة، دار المعارف بمصر، ١٩٦٥.

الفاطميون "بالإمام" الذي يعين بوصية ممن قبله، والذي لا بد أن يكون في الأعقاب ؛ لذلك فقد أوضحت تلك السجلات السبب في عدم استخدام الفاطميين للفظ "خليفة" وتفضيلهم للقب الإمام في سجلاتهم^(١)، كذلك أظهرت هذه السجلات مخالفة الفاطميين تلك العقائد والمبادئ الشيعية، وظهور الفساد في هذه العقائد، ويتضح هذا جلياً في تلك السجلات التي أصدرها للحاكم بأمر الله الفاطمي (٣٨٦ - ٤١١ هـ / ٩٩٦ - ١٠٢٠ م)، لتعيين ابن عمه عبد الرحيم بن إياس للإمامة من بعده.^(٢)

كذلك احتوت هذه السجلات على تبرير فساد الحاكم بأمر الله وقتله لوزيره بروجوان^(٣)، والذي أصبح من بعد هذه الحادثة لا يعرف سوى القتل وللتعذيب لمن حوله دون تفرقة بين العامة والخاصة، كذلك أبرزت تلك السجلات كيف تتخلى نساء القصر في أمور الدولة، وفي تعيين الخلفاء، مما كان له عظيم الأثر في انهيار الدولة الفاطمية بأسرها، وانقسام عقيدتها، ويتضح هذا من الوثيقة المعروفة باسم "الهداية الأمرية" في إبطال الدعوة للزارية^(٤) التي صدرت لإثبات أحقية الأمر بأحكام الله (٤٩٥ - ٥٢٤ هـ / ١١٠١ - ١١٣٠ م) المزعومة في الحكم، وإبطال دعوة أخيه الأكبر نزار، ومحاولة إثبات ذلك عن طريق أم المستعلي التي سارعت بإرسال ذلك الأمر إلى ملكة اليمن للاعتراف به، وبالرغم من نجاح الأمر ومن خلفه من المفسدين في تولي الإمامة، إلا أن العقيدة الفاطمية قد انقسمت إلى ما عرف بالمتعلية، نسبة للمستعلي، وأخرى نزارية، نسبة لنزار.

(١) نفسه، ص ١١ - ١٢.

(٢) نفسه : لوثيقة للرابعة (الرسالة - أو السجل - المعروف باسم لهداية الأمرية في إبطال الدعوة للزارية) والذي أشار إلى ما فعله للحاكم بأمر الله من مخالفة للعقائد الإسماعيلية بتعيينه بن عمه عبد الرحيم بن إياس] ص ٤٧ - ٦٧.

(٣) نفسه : وثيقة الثمانية عشرة [سجل تبرير قتل الخليفة الحاكم بأمر الله وزيره بروجوان]، ص ١٢١ - ١٣٥.

(٤) نفسه، ص ٢٠٥ - ٢٣٠.

ثانياً : الكتب العربية (المصادر والمراجع العربية) :

١- كتب التاريخ :

[١] تعد كتب الكندي (ت ٣٥١هـ / ٩٦٦م) من أهم المؤلفات التي اهتمت بتاريخ مصر الإسلامية.

- يعد كتابه **ولاية مصر**^(١) من أقدم المصادر المصرية المهمة وأشهرها في كتابة تاريخ مصر، حيث تناول فيه الكندي أخبار الولاة الذين تولوا مصر منذ الفتح الإسلامي، وحتى عام ٣٣٥هـ أي ولاية مؤسس الدولة الإخشيدية، ولاية محمد الإخشيد، وقد حرص الكندي على تحديد اليوم، والشهر، والسنة في مؤرخه، ورتب الولاة الذين تولوا حكم مصر ترتيباً دقيقاً، ذكر فيه أهم الأحداث التي وقعت في عهد كل واحد منهم، وتاريخ ولايته، وعزله، وكذلك من ولي الشرطة في عهده. مما كان له من الأهمية الكبرى في تحديد مظاهر انقراض التي كانت في تلك الفترة، والتي سبقت بداية الدولة الفاطمية.

كما تعرض الكاتب لمحاولات الفاطميين الأولى لغزو مصر، والتي استمرت من عام ٣٠١ - ٣٢٤هـ / ٩١٣ - ٩٣٦م) فكان بمثابة شاهد عيان على تلك الأحداث.

- كذلك كان كتابه **أخبار قضاة مصر**، والذي ضم كتاب الولاة، وكذلك القضاة، وقد ترجم فيه الكندي لمن ولي القضاء في مصر، ورتبه حسب تسلمهم للتاريخي في ولاية للقضاة، إلا أنه قد انتهى به إلى عام ٢٤٦هـ / ٨٦٠م نون سبب ظاهر بالرغم من استكماله لكتاب الولاة إلى سنة ٣٣٥هـ / ٩٤٦م. غير أن هذا الكتاب قد ذُيّل صنّعه أبو الحسن أحمد بن عبد الرحمن بن برد، وبلغ به إلى عام ٣٦٦هـ / ٩٧٦م. وعلى تذييل ابن برد ذُيّل أيضاً صنّعه مجهول من سنة ٣٤٧هـ حتى ٤٢٤هـ / ٩٥٨ - ١٠٣٢م، وقد استوعب ابن حجر معظم مواد كتاب القضاة في

(١) الكندي (أبو عمر محمد بن يوسف الكندي المصري)، ولاية مصر، تحقيق : حسين نصار، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، ١٣٧٩هـ / ١٩٥٩م.

كتابه رفع الأصر^(١)، الذي كان نيلاً لكتاب القضاة الذي أعده الكندي^(٢) وقد ضم للكتابين ولاية مصر، وقضاة مصر في كتاب سُمي "الولاية وكتاب القضاة"^(٣).

ولذلك فإن للقضاة الذين ذكروا في نهاية كتاب "الولاية وكتاب القضاة" نقلوا عن ابن حجر في كتابه "رفع الأصر"، والتي استمرت حتى فترة قضاة عبد الحاكم بن سعيد الفارقي (٤١٩ - ٤٢٧هـ). ويعد هذا الكتاب في فترته الأولى التي ذكرها الكندي، أو ما قد ذُيل به من غيره، له من الأهمية الكبرى في موضوع البحث، حيث استدل منه علي بعض مظاهر الفساد التي حمت القضاء في مصر الفاطمية، وما وصل إليه للقضاة من تشدد، وقسوة، وقبول رشوة وأكل مال اليتامى، هذا الأسر الذي عكس ما كانت تعالیه مصر في تلك للفترة من فساد في شتى مناحي للحياة، حتى وصل إلى القضاء.

[ابن] كتب النعمان بن حيون^(٤) (ت ٣٦٣هـ / ٩٧٤م)، وهو من المعاصرين للدولة الفاطمية، والمؤرخين لها، وأحد قضاتها المتعصبين،

(١) ابن حجر العسقلاني [شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي]، رفع الأصر عن قضاة مصر، جزءان، تحقيق: حامد عبد المجيد وآخرون، قدم نشر التراث القديم، القاهرة، ١٣٧٦هـ / ١٩٥٦م.

(٢) حاجي خليفة مصطفى بن عبد الله السلمي بكريت شلبي: كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، م١، دار الفكر للطباعة والنشر، بون تاريخ.

(٣) الكندي، الولاية وكتاب القضاة، مهندبا ومصححا بقلم رفن كمت، طبع بمطبعة الأباء اليسوعيين، بيروت، ١٩٠٨م.

(٤) النعمان بن حيون: هو أبو حنيفة النعمان بن أبي عبد الله بن محمد بن أحمد بن حيون ينسب إلى قبيلة تميم ويسميه الإسماعيلية سيدنا القاضي للنعمان: تميزوا بينه وبين أبي حنيفة للنعمان صاحب المذهب الجنفي الشيعي، عاصر الفاطميين في بلاد المغرب، ودخل خدمة عبيد الله الفاطمي حوالي عام ٣١٣هـ / ٩٢٠م، كثن النعمان مالكي المذهب كسائر أسرته، ثم دخل المذهب الإسماعيلي، لتخذه المنصور والمفرقا خيالهما، فف أكثر من أربعين كتابا. للمزيد راجع: ابن خلكان [أحمد بن محمد]: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ج٢، تحقيق: إحسان عيسى، دار صادر، بيروت، بعت، ص١٥٦.

والمدافعين عن المذهب الشيعي. نقد ألف النعمان العديد من أنواع العلوم، فكتب في الوعظ، والتاريخ، والأخبار، والسميّز، والعقائد، والتأويل، ومن أهم مؤلفاته الذي اعتمد عليها الباحث :

- كتاب "افتتاح الدعوة"، وبالرغم من أن هذا المؤلف من كتب الدعوة، إلا أنه يحتوي على العديد من المسائل وثيقة الصلة بالناحية الإدارية؛ فضلاً عن اهتمامه بالناحية الدينية، وكذلك العقائدية للنسوة الفاطمية، وقد تميز هذا الكتاب بتقديمه صورة واضحة عن الأسس الأولى للسياسة المالية التي اتبعها الفاطميون في بلاد المغرب، والتي اتبعوها في مصر، وأضافوا إليها الكثير.

- كتاب "المجائس والمعابر"^(١) الذي يوضح سياسة الفاطميين الجائزة في جمع الضرائب، كما يقدم صورة تبريرية لتلك السياسة المالية الجائرة، مع حرص الخلافة الشديد على جمع تلك الضرائب، وضرورة تأديتها مقابل مجاهدة العدو، ويوضح أن المطالبة بها يرجع إلى حرص الدولة على العمل من أجل الرعية، وإصلاح ما فسد من أمور الدولة من منشآت، ومرافق صحية، كذلك لإقرار الأمن فيها، كما يوضح معاناة أهل أفريقية من وطأة هذه الضرائب، وشكواهم المتكررة منها، كذلك يشير إلى إجبار أهل البوادي على بيع محاصيلهم إلى الخليفة المهدي، ثم دفع ضرائب على ما يبيعونه، ويبيّن الكاتب أن الفاطميين قد حرصوا على تحصيل تلك الضرائب في أفريقية حتى بعد انتقالهم لمصر، هذا الأمر الذي انتقل للمصريين بعد ذلك.

- كذلك كتاب "دعائم الإسلام"^(٢) ويذكر فيه أهل الخراج، والصناع، والتجار خلال تصنيفه لطبقات الناس، ويبين أن الحياة الاجتماعية تقوم على هذه الفئات الثلاث، يضع ابن خيرون في كتابه هذه

(١) تحقيق الحبيب الفقي، إبراهيم شيوخ، محمد ليلعاري، بيروت، ١٩٩٦م.

(٢) دعائم الإسلام ونكر الحلال والحرام واقتضائها والأحكام على أهل بيت رسول الله عليه وعليهم أفضل السلام، ١ - ٢، تحقيق: أسف بن علي بن أصغر قبضي، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٥م.

الضوابط التي يجب أن تكون بين الوالي، وأهل الخراج، وما عليه من ولجيات إصلاحية من شأنها زيادة الخراج. كذلك يُبَيَّنُ كَيْفِيَّةَ اخْتِيَارِ العمال، وعدم المجاباة في ذلك حتى لا يدخل الجور، والنظم على الرعية. (١) ومن المبادئ التي دعا إليها الشيعة في كتب الدعوة الخاصة بهم، وما فعلوه بما هو مخالف لها استقى الباحث العديد من مظاهر الفساد التي هي موضوع بحثه.

[ج] أما كتاب 'أخبار مصر في سنتين' (١١٤ - ٤١٥ هـ) للمسيحي (٢)، وهو الجزء الأربعون من كتاب أخبار مصر، وفضائلها، وعجائبها، وطرفاتها، وغرائبها، وعجائبها من البقاع، والآثار، وسير من حلها، وحل غيرها من الولاة، والأمراء، والأئمة الخلفاء آباء أمير المؤمنين

- صلوات الله عليهم أجمعين -، والمعروف باسم 'أخبار مصر' كما عرف بأسماء أخرى، كـ 'تاريخ المسيحي'، أو 'كتاب التاريخ' (٣)، ويعد هذا الجزء (٤٠) هو الجزء الوحيد المتبقي من هذا المؤلف الضخم، الذي

(١) نفسه، ص ٤٢٣ - ٤٢٤.

(٢) المسيحي [محمد بن عبيد الله المسيحي]، أخبار مصر في سنتين (٤١٤ - ٤١٥ هـ)، (ج ٤٠)، تحقيق: وليم ج، سلورد، الهيئة المصرية للعلماء للكتاب، ١٩٨٠.

(٣) المسيحي: هو الأمير للمختار عز الملك أبو عبيد الله بن أحمد بن إسماعيل بن عبد العزيز الكاتب للمسيحي، ولد في مصر سنة (٣٦٦ هـ / ٩٧٦ م)، كان أجداده قد هاجروا من حران بسورية إلى مصر، تربي في بيت علم ودين، التحق بخدمة للخليفة الحاكم بأمر الله سنة ٣٩٨ هـ / ١٠٠٧ م، وهو في الثانية والثلاثون من عمره، سرعان ما نال الخطوة عند الحاكم بأمر الله الذي جعله صديقاً شخصياً له، وولاه إقليم لبهنسا وأعمال الصعيد، ثم شغل فيما بعد ديوان الترتيب في الإدارة المركزية، مما أتاح له حضور مجالس الحاكم بأمر الله ولجتماعاته بصفة دائمة، كذلك فقد تمتع بتلك المكاتب عند الخليفة الظاهر لإعزاز الدين، توفي (٤٢٠ هـ / ١٠٢٦ م). راجع: ابن خلكان: وفيات الأعيان، ص ٣٧٧.

(٤) للمسيحي: أخبار مصر، ص ١٠٠، نقلًا عن ابن سعيد.

عَدَّةُ المؤرخون من أعظم الكتب التاريخية المعاصرة للدولة الفاطمية، وأوقعها، وأوقعها.

وينقسم هذا العمل إلى قسمين متساويين تقريباً، أحدهما تاريخ والأخر أنب، يذكر فيه المؤلف أشعاراً لأصدقائه ومعاصريه، وشيئاً من شعره، وبعض الرسائل انثوية المتبادلة بين معاصرين، وهي إما مدح، أو وصف، أو خمريات، وينتهي العمل بفصل خاص بالوفيات التي حدثت في عام ٤١٥هـ دون ٤١٤هـ، أما الجزء التاريخي منها، فيتعرض بالدراسة إلى أحداث مصر في عامي ٤١٤هـ و ٤١٥هـ، أي تلك الأحداث التي تمت في عهد الظاهر لإعزاز دين الله الفاطمي، وقد اقتصر المسيحي على عامين فقط لذلك ؛ ولقصر المدة المؤرخ لها فقد حرص المؤلف على وصف كل ما يتعلق بتلك الفترة بالتفصيل للدقيق.

كان المسيحي معاصراً للأحداث شاهداً لها ؛ لذلك فقد عُدَّ من الوثائق الأصلية التي تناولت تاريخ الفاطميين في مصر، والتي تعرضت لجميع المعلومات الخاصة بالحياة الاجتماعية، والاقتصادية، والدينية، والشخصية للمصريين في ذلك الوقت، وعلى الرغم من أن المسيحي كان قريباً من الخليفة الظاهر لإعزاز دين الله، فإن أخباره جاءت أشد قرباً من الرعية، ولاسيما أنه كان يسكن مدينة القسطنطينية.

وبين سطور هذا المؤلف عثر الباحث على مادة علمية لا بأس بها، وتعرف على العديد من مظاهر الفساد التي تخدم بحثه، وإلى جانب الأخبار السياسية للخليفة الظاهر لإعزاز دين الله، كان للأوضاع الاقتصادية نصيب وبخاصة ما عم مصر من بلاء، وفساد، ومجاعة شديدة كادت تقضي على ما تبقى من أهلها، بالإضافة إلى ما قد أصاب التجار من جشع، وطمع فسعوا إلى احتكار السلع، ورفع سعرها مستغلين حاجة الناس، كما أشار للمسيحي إلى سياسة الدولة في فرض الضرائب التي أثقلت كاهل الناس، ومن بينهم للتجار، ومن بين الحياة اليومية للمصريين، ظهرت بعض الأمراض الاجتماعية والفساد الاجتماعي الذي تمثل في بعض حالات السرقة، والغش، والقتل.

[د] كذلك يأتي كتاب الأنطاكي^(١) أو (تاريخ الأنطاكي)^(١)، المعروف بصلته تاريخ أوتبخا، للمؤلف يحيى بن سعيد الأنطاكي، يعد الكتاب من أهم المصادر المعاصرة للدولة الفاطمية في مصر، وقد تناول هذا المؤلف تاريخ القبط، وكتبهم بإسهاب، وذلك في أيام الخلفاء الأوائل، ويتقدم هذا الكتاب دراسة نصيبية لفترة حكم الخليفة الحاكم بأمر الله، وأحكامه، وكذلك سياسته الداخلية والخارجية، وأهم الأحداث التي تمت في عصره، مبيناً القيود الاجتماعية التي فرضها الحاكم بأمر الله، والتي عانى منها شعب مصر، كذلك تعرض الكتاب للثورات التي قامت في ذلك الوقت، وقد اهتم الأنطاكي أيضاً بذكر اضطهاد أهل الذمة زمن الحاكم بأمر الله، وأوامره بشأن هدم الكنائس، حتى أن الأنطاكي قد اتهم الحاكم بأمر الله بالجنون.

وقد ذكر الأنطاكي أيضاً قصة تأليه الحاكم بأمر الله، مبيناً عقيدة النور، وتطويرها في مصر، ومدى معاونة الحاكم بأمر الله لأصحابها، وما طرأ من سواد للعلاقة بين الحاكم، والرعية لما بدر فيه من تصرفات غريبة، ومتناقضة. غير أن أهم ما يميز هذا المؤلف أنه يورد معلومات قيمة عن علاقة الروم بالفاطميين، ويعطي مع تلك تواريخ هجرية مقابل تواريخ مسيحية، مما كان عوناً للباحث في بحثه.

[هـ] أما كتاب تاريخ بطريركة الكنيسة المصرية^(٢) المعروف باسم سير البعثة المقدسة، لساويرس، أسقف الأشمونيين، المعروف بابن

(١) الأنطاكي يحيى بن سعيد بن يحيى الأنطاكي؛ تاريخ الأنطاكي المعروف بصلته تاريخ أوتبخا، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، جروس برس، طرابلس، لبنان، ١٩٩٠.

(٢) ساويرس بن لمقع: (توفي أولخر القرن للرابح الهجري / العاشر للميلادي)، تاريخ بطريركة الكنيسة المصرية المعروف باسم سير البعثة المقدسة، ج ١، ج ١، طبعة باريس، مطبوعات جمعية الآثار القبطية، قسم النصوص والوثائق، بدون تاريخ، ج ٢، ج ٢، ج ٢، ج ٢، نشر يس عبد المسيح وآخرون، القاهرة، ١٩٥٩م؛ ج ٣، ج ١، ج ٣، ج ٢، نشر أنطون خاطر وآخرون، القاهرة، ١٩٦٨، ١٩٧٢م.

المقفع^(١)، الذي عاش زمن الخليفة الفاطمي المعز لدين الله وكان كاتباً في دولتين الدولة الفاطمية، ثم صار أسقفًا، وقد كتب ساويرس الكثير من المعلومات عن الكنيسة القبطية، وأحوالها، وقد استكمل هذا المؤلف بواسطة مؤلفين قبط آخرين^(٢)، إلا أنه ظل يحمل هذا الاسم، وظل ينسب لساويرس، وعلى الرغم من أن الكتاب يحمل في ظاهره الحياة الدينية الخاصة بسير بطريرك الكنيسة المصرية في هذا العصر، فإن الكتاب قد حمل في طياته الكثير من الأحداث السياسية المعاصرة للدولة الفاطمية،

(١) ساويرس بن المقفع : لمحروف باسم أبي الفتح بن المقفع الكاتب، وهو غير عبد الله بن المقفع صاحب 'كيلة ومنة' الذي عاش في القرن الثامن الميلادي، والذي اتهم باختلاس مال الخراج لعوقب بالضرب على يديه حتى تقطعا، وقد ذكر لبعض أن المقفع يعني 'منكس الرأس أبيض' غير أنها على الأرجح تعود إلى الكلمة المصرية 'قفة' التي حُرِفت إلى 'قفعة' ولكنها مزالت حتى الآن تنطق في لفظها الأول 'قفة'، التي تنطق على أنواع للذي صنع من الخوص، أو حبال الشجيل للذي يصنعه الفلاحون في الريف، وكذلك الرهبان والمتصوفات، وكان ولد ساوري يمتن ببيده المهينة فاشتهر بالمقفع 'أي صانع القفص' أما السنين المضافة إلى ساوري فهي من اللؤلؤ المقدونية. وقد أخذ ساويرس يتدرج في الوظائف أيام للدولة الإخشيدية حتى أصبح كاتباً ماهراً، ثم نال ثقة المعز لدين الله زمن الفاطميين، وكذلك ربطته علاقة طيبة بالبطرك إبرام 'أفراهيم' حتى حصد الوزير اليهودي 'يعقوب بن كلس'. من أهم كتبه تاريخ بطريرك الكنيسة الذي أتمه مجموعة من الكتاب والأساقفة حتى وصلوا به إلى حياة البطرك كيرلس الخامس البطرك رقم (١١٢) الذي توفي في عصر للخشيدوي عباس حلمي الثاني. للمزيد راجع :

- إيرمين حبيب المصري : قصة الكنيسة القبطية، مكتبة كنيسة مارجرس بأسيوط، الإمبراطورية، الكتاب الرابع، ص: ١١٤.

- http://www.coptichistory.org/new_page_941.htm.

- <http://www.copts.mashaheer.com/nb17/p10.htm>.

(٢) أمثال الأنبا ميخائيل الذي تناول تاريخهم في عهدي الحاكم وللظاهر، وبين منصور بن مفرج الإسكندراني الذي تناول تاريخهم في عصر المستنصر بالله، كذلك الأنبا غريمال بن تريك الذي عمل في ديوان المكاتبات، ثم في بيت المال إلى أن أصبح بطريركاً وألف لخليفة الحافظ لدين الله، والأب يوحنا الذي عاصر الحافظ وللظاهر وللناظر.

قبل ثورة بن حمدان ضد الخليفة المستنصر بالله^(١)، وثورة الأوحى بن بدر الجمالي ضد والده بدر الجمالي بالإسكندرية سنة ٤٧٧هـ / ١٠٨٤م، وثورة نزار بن المستنصر ضد الأفضل بن بدر الجمالي بالإسكندرية سنة ٤٨٨هـ / ١٠٩٥م، وغيرها من الأحداث والمرتبطة بهذا الأمر.

كذلك انفرد هذا المؤلف بذكر خروج حسن بن الحافظ لدين الله على أبيه، وطمعه في الخلافة دون أبيه، وقد كَوَّنَ حسن طائفة تابعة له سميت "بالزرد" وهي خليط من الأجناس من جميع لطوائف، استطاعت هذه الطائفة أن تشر الفساد في أرض مصر لرضا للأمر حسن، فكان الناس يصبحون كل يوم ويجدون منطقة بين القصرين بالقاهرة مليئة بالقتلى، أعوان الحافظ لدين الله، كذلك فقد احتوى هذا المؤلف على العديد من المعلومات التي تظهر علاقة الفاطميين بأهل الذمة، ومعاملاتهم، وكذلك لضهادهم من قبل بعض الخلفاء الفاطميين، ولاسيما الحاكم بأمر الله، مما كان له من الأهمية في موضوع الدراسة، وإبراز مظاهر الفساد.

[و] ويعد كتاب "سيرة المؤيد داعي الدعوة" للشيرازي^(٢)، من الكتب القيمة، والمعاصرة أيضًا للدولة الفاطمية، وعلى الرغم من أن الشيرازي قد تعرض لترجمة للمؤلف نفسه، فإن الكتاب له من القيمة والأهمية التي لا تقل عما سبقها من الكتب للمعاصرة، حيث عاش المؤلف في مصر زمن الخليفة الفاطمي 'المستنصر بالله'، وتعرض هذا المؤلف لمرحلة مهمة من تاريخ الفاطميين، وقد زاد من أهمية هذا المؤلف أن الشيرازي نفسه قد تكفل بين العديد من الوظائف المهمة في الدولة إلى أن عمل بوظيفة داعي الدعوة، وقد كان الشيرازي نفسه على رأس الحملة التي أرسلت للباسيري في العراق لإخماد ثورته ضد الدولة الفاطمية^(٣).

(١) ماويرم بن المقفع: سير النبوة للمقمة، ج ٣، ٢م، ص ١٨٣.

(٢) المؤيد في الدين حبة الله بن موسى الشيرازي؛ سيرة للمؤيد في الدين داعي الدعوة - ترجمة حياته بقلمه تقديم وتعقيق: محمد كامل حسين، دار الكتاب المصري، القاهرة، ١٩٤٩م.

(٣) نفسه، ص ١٧٨ - ١٨٠.

وقد نجح الشيرازي في هذا الأمر، واستطاع نشر الدعوة الشيعية هناك، ذلك الحلم الذي سعى إليه الفاطميون كثيرا، غير أن هذا الأمر قد تم في فترة كانت الدولة الفاطمية تعاني فيها من الضعف والفساد، كذلك تميز كتاب الشيرازي بتضمنه العديد من الرسائل التي كان قد أرسلها للوزراء، والولاة والقادة الفاطميين والتي تعد من الوثائق المهمة للباحث في تلك الفترة.

[ز] ومن المؤلفات المعاصرة المهمة، كتاب الاعتبار^(١) أو حياة أسامة بن مكنة، الذي عاصر خلفاء الفاطميين الأواخر، فوصف المكائد التي كانت تتم في القصور الفاطمية، وأهمها الصراع بين الوزير ابن مصال، ووالي الإسكندرية، والبحيرة علي بن السلاخ سنة ٥٢٤هـ / ١١٤٩م، وما ظهر من انقسامات داخل الدولة الفاطمية^(٢)، كما شهد أسامة الفترة التي احتل فيها الصليبيون بلاد الشام، وقد عدّه الأستاذ الدكتور السيد عبد العزيز سالم من الكتب لتاريخية التي تعد بمثابة المنكرات.^(٣)

[ح] ومن المصادر المهمة أيضا : كتاب كنائس وأديرة مصر، لأبي صالح الأرمني (ت ٦٠٥هـ / ١٢٠٩م)^(٤)، الذي زار مصر وقت سيطرة الأرمن على دولة الفاطميين، بتولية بدر الجمالي لوزارة المستنصر بالله، وهو أرمني، ويظهر هذا جليا من عنوان الكتاب. لقد عاصر أبو صالح نفوذ الوزراء، وتسلطهم في أواخر حكم الدولة الفاطمية، وذلك بعزل بهرام الأرمني من وزارة المحافظ لدين الله، وهو أيضا أرمني، وقد ذكر أبو صالح الأرمني في كتابه، الكنائس، والأديرة الموجودة بالقاهرة، والنصعيد، وغيرها من الأماكن المهمة مع ذكر

(١) أسامة بن مكنة الشيرازي : الاعتبار، تحقيق : فيليب حتى، مطبعة جامع بونستون، للولايات المتحدة، ١٩٢٠م.

(٢) نفسه، ص ٨١٧.

(٣) السيد عبد العزيز سالم : التاريخ والمؤرخون العرب، دار كتاب العربي للطباعة والنشر، الإسكندرية، ١٩٦٧، ص ١٢٣.

(٤) أبو المكارم جرجس مسعود : تزيخ أبي المكارم المعروف بكنائس وأديرة مصر، طبعة أكسفورد، ١٨٩٥.

الأحداث التاريخية المرتبطة بها. كذلك أشار إلى التقسيم الإداري لمصر في عصرها الثاني "عصر الوزراء" فكان له من الأهمية السياسية، وكذلك الإدارية للبحث موضوع الدراسة.

[ط] كذلك كتاب ابن حماد [أبو عبد الله محمد بن علي] "أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم"^(١) والذي اهتم بعرض حياة الفاطميين منذ بداية دولتهم، وحتى سقوطها، وقد اعتمد المؤلف على أن تسم الفاطميين يعود إلى عبد الله المهدي (٢٩٧ - ٣٢٢هـ / ٩٠٩ - ٩٣٤م) مؤسس دولتهم، وليس لفاطمة وعلي - رضي الله عنهما - ، ويبدو هذا جلياً من عنوان الكتاب.

[ي] كذلك كتاب "أخبار الدول المنقطعة" لابن ظافر^(٢) والذي يعد من المصادر المهمة، والدقيقة في تاريخ لدولة الفاطمية، فعلى الرغم من صغر حجم الكتاب، والاختصار في ذكر أحداثه فإنه يحتوي على العديد من المعلومات المهمة، كما يضم صفحات واقعية تحثُ تراجم للخلفاء الفاطميين من بداية حكمهم، وأهم الأحداث التي حدثت فيها، ويستمر المؤلف في ذكر هذه الأحداث حتى وفاة صاحب الترجمة، إضافة إلى ذلك ما تميز به هذا المؤلف في آخر سيرة كل خليفة، مما سهل على الباحث الفصل بين الأحداث السياسية، وكذلك الإدارية.

[ك] وكتاب أبي شامة، (ت ٦٦٥هـ/١٢٦٧م) "الروضتين في أخبار الدولتين"^(٣) يعود هذا المؤلف إلى الفترة الأيوبية، وعلى الرغم من

(١) ابن حماد [أبو عبد الله محمد بن علي] : أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم، تحقيق ودراسة : التهامي نقرة، عبد الحليم عويس، دار الصحوة، القاهرة، بدون تاريخ.

(٢) جمال الدين علي بن ظافر : أخبار لدول المنقطعة، دراسة تحليلية للقسم الخاص بالفاطميين مع مقدمة وتعليق أندريه فريه، للمعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة، ١٩٧٢م.

(٣) أبو شامة [شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل المقتضي] : (الروضتين في أخبار الدولتين التورية والصلاحية)، الجزء الأول، من قسمين، تحقيق : محمد حلمي محمد أحمد، مراجعة : مصطفى زيادة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية العامة، القاهرة، ١٩٥٦ - ١٩٦٢م.

أن الكتاب يتناول تاريخ الدولتين النورية، والصلاحية، فإنه يعرض كثيرا من أخبار للدولة الفاطمية، ولاسيما الفترة الأخيرة التي شملت سقوط الدولة، والنزاع بين وزرائها، واستعانة كل منهم بقوى خارجية كذلك تولى صلاح الدين السني الوزارة، وسقوط الدولة الفاطمية على يديه، ويتميز هذا المؤلف بأنه يفلح عن مؤرخين كثيرين عاصروا للفاطميين، ولاسيما القاضي الفاضل الذي عمل في ديوان الإنشاء الفاطمي في عهد الوزير طلائع بن رزيق.

[ل] وكذلك كتاب المؤرخ المصري ابن ميسر، ت (٦٧٧هـ / ١٢٧٨م) : "تاريخ مصر"^(١) وهو من أهم المصادر للتاريخية التي أرخت للفاطميين، واعتمد عليها الباحث اعتمادًا كليًا، فعلى الرغم من أن ابن ميسر يعتبر من مؤرخي الفترة الأيوبية فإن كتابه قد بدأ بسرد الأحداث التي تمت في مصر منذ عام ٤٣٩هـ / ١٠٤٦م، وانتهى بأحداث سنة ٥٥٣هـ / ١١٥٨م، وقد تميز كتاب ابن ميسر بأنه كُتِبَ بطريقة الحوليات، مما كان له عظيم الأثر في تتبع الأحداث، واستنباط مظاهر الفساد من بين مسطورها.

[م] وكتاب ابن واصل^(٢)، ت (٦٩٧هـ / ١٢١٧م) 'مفرج الكروب في أخبار بني أيوب'، الذي يتناول تاريخ دولة الأيوبيين، إلا أنه قد حوى أخبارًا كثيرة عن الدولة الفاطمية في أخبار أيامها، كذلك من المصادر المهمة في موضوع البحث :

-
- (١) ابن ميسر إنتاج الدين محمد بن علي بن يوسف بن جلب راجع: أخبار مصر - المنتقى من، حققه وكتب مقدمته وحواشيه : أيمن فوزك سيد، المعهد العلمي الفرنسي للأثار الشرقية، القاهرة ١٩٨٧م.
- (٢) جمال الدين محمد بن سالم الحموي : مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، ١ - ٣، تحقيق : جمال الدين لُقَيْبَال، للقاهرة، ١٩٥٣ - ١٩٦٠م، ٤ - ٥، تحقيق : حسين محبت ربيع، القاهرة، ١٩٧٢ - ١٩٧٧.

[ن] كتاب "لذرة المضيئة في أخبار الدولة الفاطمية" لـ
الدواداري^(١)، والذي تحدث عن الخلفاء الفاطميين في تراجم وافية من
سني ميلادهم، وحكمهم، ووفاتهم، وما تخلل ذلك من أحداث مهمة للبحث
موضوع الدراسة، ولاسيما معاملة الحاكم بأمر الله لأهل الذمة.

[س] أما المقرئزي^(٢) (ت ٨٤٥هـ / ١٤٤١م) الذي عاش في
الفترة المملوكية من تاريخ مصر الإسلامية، قد أمدنا بالعديد من المؤلفات
التي تختص بالحديث عن الدولة الفاطمية، والتي لها من الأهمية العظيمة
في تلك الفترة، فعلى الرغم من أن المقرئزي بعيد زمنياً بعض الشيء عن
الفترة موضوع الدراسة، فإنه قد اعتمد في مؤلفاته على مؤلفين معاصرين
لتلك الفترة، ولعل هذا من حسن الحظ؛ لأن المقرئزي قد حفظ لنا ضمن
مؤلفاته العديد من المعلومات التي فُقدت بشكل، أو بآخر لبعض
المؤرخين المعاصرين لتلك الفترة من أمثال ابن زولاق، والممبهي، وابن
للمأمون، وغيرهم. بالإضافة إلى أنه يعد من للمؤرخين القلائل الذين
تعصبوا للدولة الفاطمية، لذلك فإنه وُصف بمؤرخ الدولة الفاطمية. وقد
استفاد الباحث من العديد من تلك المؤلفات لعل أهمها على الإطلاق في
موضوع الدراسة هو :

(١) الدواداري [أبو بكر عبد الله بن أبيك] : (ت ٧٣٦هـ / ١٣٣٥م) : لذرة المضيئة
في أخبار الدولة الفاطمية، الجزء الثامن، من كتاب كنز الأثر وجامع الغرر،
تحقيق : صلاح الدين المنجد، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر،
١٣٨٠هـ / ١٩٦١م.

(٢) المقرئزي : هو نقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر بن محمد بن إبراهيم بن
ميم بن عبد الصمد بن تميم التلي بن لعلاء الصبيحي العبيدي البعلبكي الأصل،
القاهري المولد أبو العباس، المعروف بالمقرئزي نسبة إلى حارة في بعلبك
تعرف بحارة المقارزة، انتقلت عائلته إلى القاهرة في حياة أبيه الذي كان يعمل
بالوظائف المتعلقة بالقبضاء، ولد في ٧٦٦هـ، رحل إلى مكة وكذلك الشام من
أجل طلب العلم، ثم استقر في مصر وتفرغ للدراسة والتأليف، ثم انقطع في داره
للعبادة، تفقه في شيابه المذهب الحنفي تبعاً لجدّه لأمه، ثم تحول إلى الشافعية
وهو في العشرين من عمره واستقر عليها. للمزيد راجع : السخاوي [شمس
الدين محمد بن عبد الرحمن بن محمد] : الصنوع اللاحق لأهل القرن التاسع،
ج ٢، مكتبة القدس : القاهرة، ص ٢١ - ٢٤.

- النزاع والتخاصم فيما بين بني أمية، وبني هاشم :^(١)

والذي أظهر فيه تعصبه الشديد لبني هاشم، ومدى أحقيتهم في الخلافة، وما تعرضوا له من لاذي من قِبل بني أمية، كما تعرض لبني أمية بالسب، والسخرية لما اقترفوه في حق بني هاشم. ويبدأ المقرئ مؤلفه بذكر للجنود الأولى لهذا العدا، وما كان قائماً من كراهية، وعداء بين هاشم بن عبد مناف بن قصي، وبين ابن أخيه أمية بن عبد شمس بن مناف، وقد تبادت العداوة حتى انتقلت إلى رسول الله (ﷺ)، وقد ظهر هذا في موقف أبي سفيان، ثم انتقل إلى الإمام علي (عليه السلام)، ومعاوية بن أبي سفيان، وبعده إلى الحسين بن علي، ويزيد بن معاوية، هكذا أخذ العدا ينتقل من بيت إلى بيت، ومن رجل إلى رجل حتى توثقت أسنابه على مر الأيام، وتجدت تلك الأحداث على مسرح التاريخ، وظهرت على هيئة ظلم، وعداء من البيت الأموي إلى البيت الهاشمي، ولم يقتصر المؤلف على موقف الأمويين من الهاشميين فحسب، بل تعرض لما نالوه من ظلم، واضطهاد على يد العباسيين حتى نهاية دولتهم.

وقد استفاد الباحث من هذا المؤلف في معرفة الجذور الأولى للهاشميين، ومدى أحقيتهم في الخلافة، مما ساعده على التعرف على ذكر بقية الأحداث في يسر، وسهولة.

- اتعاط الحنفا بأخبار الأئمة الحنفا^(٢) :

يبدأ فيه المقرئ بالحديث عن الأميرة العلوية، فبدأ بعرض نسل الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام)، ثم يتعرض لذكر ما قيل في صحة نسب الفاطميين من عدمه، كما يتحدث المقرئ عن نشأة الدولة الفاطمية في بلاد المغرب وكذلك عن الخلفاء الفاطميين الأربعة الأوائل (المهدي،

(١) للمقرئ [تقي الدين أحمد بن علي] : النزاع والتخاصم فيما بين بني أمية وبني

هاشم، إعداد وتعليق صلاح الورداني، الهدف للإعلام والنشر، بدون تاريخ.

(٢) للمقرئ : اتعاط الحنفا بأخبار الأئمة الحنفا : ١ - ٣، الأول تحقيق : جمال

الدين الشجال، والثاني وثالث تحقيق : محمد طمي محمد أحمد، المجلد الأعلى

للتشؤون الإسلامية، القاهرة، ١٩٦٦ - ١٩٧٣م.

والتائم، والمنصور، والمعز)، كما تحدث فيه عن الفتح الفاطمي لمصر، وكذلك تأسيس مدينة القاهرة، ويعتمد الكتاب على طريقة الحوليات في سرد الأحداث التاريخية حتى سقوط دولة الفاطميين على يد صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٦٧هـ / ١١٧١م، لذلك يُعدُّ هذا المؤلف من الموسوعات الكاملة لتاريخ الفاطميين، وقد عرض هذا المؤلف للعديد من الأحداث السياسية، والاجتماعية، والاقتصادية، بالإضافة إلى السياسة الخارجية للدولة، مما كان له عظيم الأثر في معرفة مظاهر القوة، ومظاهر الضعف، والفساد في تلك الفترة، ولاسيما في عهد المستنصر بالله، وما أطلق عليها بـ "الشدة العظمى"، والتي لستاء لها المقرئزي نفسه، وأوجز أسبابها في كلمات شاملة كاملة جامعة.

- إغاثة الأمة بكشف الغمة^(١) :

ويعد هذا المؤلف أيضًا من أهم أعمال المقرئزي التي احتوت على العديد من المعلومات الاقتصادية المهمة التي أفادت الباحث كثيرًا في بحثه، ولاسيما الجانب الاقتصادي منه، فقد تعرض للمقرئزي في هذا المؤلف لذكر المجاعات التي حدثت في مصر منذ بداية سيننا يوسف - عليه السلام -، مرورًا بالفترة الإسلامية وصولًا للعصر الفاطمي، وما بعده، ويُعد المقرئزي المؤرخ المصري للوحيد الذي تعرض بالبحث لتلك الناحية الاقتصادية من تاريخ مصر، ولعل هذا يعود إلى أن المقرئزي قد تولى أمر الحسبة في القاهرة (٨٠١ - ٨٠٢هـ / ١٣٩٨ - ١٣٩٩م)^(٢) فاكتمب من الخبرة ما يعينه على معرفة خبايا الدولة الاقتصادية، ولم يقتصر المقرئزي على سرد للمجاعات فحسب، بل كان يحاول أن يقضي

(١) المقرئزي : إغاثة الأمة بكشف الغمة، تحقيق : محمد مصطفى زيادة وجمال

الدين الشيبان، القاهرة، ١٩٥٧م.

(٢) نفسه، تصدير الكتاب، ص ١٠٤، من الأخوة [محمد بن محمد بن أحمد القرشي]

(ت ٧٢٩هـ / ١٣٢٩م) : معالم القرية في أحكام الحسبة، تحقيق د/ محمد

مصمود شعبان وصديق أحمد عيسى المطوعي، الهيئة المصرية للعلمة للكتاب،

١٩٧٦م، ص ٤٠.

على أسبابها، ويقترح العلاج الصحيح، ولعل أهم الأسباب التي طرحها المقريري في مؤلفه هو النيل الذي عدّه العامل المشترك لحدوث تلك المجاعات، كذلك فساد الحكام، وغفلتهم عن رعاياهم، وسوء تدبيرهم، وطمعهم في المزيد من المال، كما فعل المستنصر بالله عندما غير في طبيعة المتجر^(١) السلطاني الذي كان يُعين العباد وقت الأزمات، فتحول لمتجر يدر المال الكثير للخليفة، كذلك ذكر المقريري ما ترتب على تلك المجاعات التي هي في الأصل ناتجة عن فساد الحكام، من احتكار للسلع، وارتفاع للأسعار، وانخفاض قيمة العملة، ولجوء الدولة للتسعير^(٢)، وليست التسعيرة، وما أصاب الناس من أويئة وأمراض وموت، ولاسيما في ظل عدم بخل النيل عليهم بمائه.

وعلى الرغم من تعصب المقريري للدولة الفاطمية الشيعية، فإنه كان مؤرخاً عادلاً مجازداً في وصف أحداثه، فلم يعبا بما سيلاقه من عقاب المماليك، وكذلك لم يتهاون في ذكر مساوئ الخلفاء الفاطميين، وفسادهم على الرغم من جبهه الشنيد لهم، ولعل الحادث الأليم الذي تعرض له من فقدان وحيدته ٨٠٦هـ نتيجة إصابتها بالطاعون الذي حل بمصر بين عامي ٧٩٦ - ٨٠٨هـ^(٣)، جعله شاهداً عياناً أيضاً على معاناة الناس، وجعل مؤلفه من أعظم المؤلفات الحية ليس فقط في عصره بل في كل العصور.

- المواعظ، والاعتبار بذكر الخطط، والآثار^(٤) :

والمعروف بالخطط المقريرية، والذي اهتم بذكر تاريخ القاهرة عاصمة الفاطميين، وكل ما يتعلّق بها بشكل تفصيلي لم يسبق له مثيل، حيث يعرض حارات، ودروب، وأزقة القاهرة تصويلاً مع رد لأحداث

(١) المقريري : إغاثة الأمة، ص ٢٥ - ٣٦.

(٢) يتمّ للتحديث عنه في الفصل الاقتصادي من هذه الدراسة تفصيلاً.

(٣) المقريري : إغاثة الأمة، مقدمة الكتاب، (د).

(٤) المقريري : "المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار" ١ - ٢ برلاق، ٢٧٠م.

التاريخية للخاصة بكل موضوع، مما أفاد الباحث في معرفة المواضيع المهمة التي وردت في كثير من الأحداث السياسية، وكذلك الاجتماعية، والإدارية، وما طرأ على القاهرة من تغير طوبوغرافي نتيجة للفساد الذي عمَّ بها خلال الأشدة للمستصرية، كذلك ذكر للمقريري في خطته أرض مصر، وترعها، وتجسورها، ونظام الإقطاع، والضمان، كما ترك للباحثين قائمة بالمكوس التي قررها الفاطميون على المصريين، والتي كانت من النقل حتى ذكر عنها "أنه لم يبق إلا للهواء جراً طليقاً لم يفرض عليه ضرائب".^(١)

- شهور العقود في ذكر العقود^(٢) :

كان هذا الكتاب فصلاً من فصول كتاب "إغاثة الأمة بكشف الغمة"، ثم ألفه المقريري بعد ذلك في كتاب مستقل بذاته، وقد أشار فيه المقريري إشارةً واضحةً إلى خطة للفاطميين التي اتبعوها في سبيل تحقيق سحب الدينار الراضي، وإحلال الدينار المعزي، كما يشير إلى مشكلة تزايد اندرامهم خلال عصر الحاكم بأمر الله، والاختلاف في مقدار الدرهم من بعده، غير أن أخباره عن الفترة موضوع للدراسة، ربما يعود ذلك لأسباب سياسية وجدت في عصر المقريري نفسه.^(٣)

- العقدي الكبير^(٤) :

أو التاريخ الكبير والذي وصف فيه معيشة الأمراء، والمشاهير للذين أقاموا بمصر، وقد رتبته المقريري على الحروف الأبجدية، وقد استغرق هذا المؤلف ثمانين مجلداً، لم يبق منهم سوى (١٦) مجلداً، منها

(١) المقريري : الخطط، ج ٤، ص ١٩٦.

(٢) المقريري : دراسة وتحقيق : محمد عبد العتار عشاوي، القاهرة، ١٩٩٠م.

(٣) حيث ألف المقريري هذا المؤلف، بأمر من السلطان المملوكي المؤيد شيخ المحمودي، لإقناع الناس بالندرام الموزنية، لذلك فقد ذكر ما فعلته للدولة الفاطمية، ليكون دليلاً للدولة السلوكية.

(٤) المقريري : العقدي الكبير (١ - ٨)، تحقيق محمد السبعلاوي، دار المغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩١م.

ثلاثة مجلدات في لندن، ومجلد في باريس كتبها بخط المؤلف^(١)، تحتوي هذه المؤلفات على العديد من المعلومات القيمة التي أفادت الباحث في موضوع الدراسة.

[ع] أما كتاب "النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة"^(٢) لابن تغري بردي^(٣)، وهو أحد مؤرخي العصر المملوكي أيضاً، وأحد تلاميذ المقرئزي، فهو من المصادر المهمة التي استعان بها الباحث، والتي اهتمت بموضوع الدراسة، وما سبقه من دراسة تمهيدية عن الدولة الطولونية (٢٥٤ - ٢٩٢ هـ / ٨٦٨ - ٩٠٥ م)، والدولة الإخشيدية (٣٢٣ - ٣٥٨ هـ / ٣٩٤ - ٩٦٨ م)، وقد تميز هذا المؤلف بسرد الأحداث بطريقة حولي أيضاً، يتضمن ترجمة لكل خليفة، وأهم الأحداث في عهده سواء في مصر، أو الشام، كذلك فقد انفرد ابن تغري بردي بتسجيل أحوال الليل من زيادة، أو نقصان في نهاية كل عام؛ مما ساعد الباحث على معرفة أسباب حدوث المجاعات في مصر، وهل كان سببها الحقيقي

(١) للمقرئزي: النزاع والتخاصم فيما بين بني أمية وبني هاشم، ص ١٤.

(٢) جمال الدين أبو المحاسن يوسف [ت ٨٧٤ هـ / ١٤٧٠ م]: النجوم الزاهرة في أخبار ملوك مصر والقاهرة، ١ - ١٦، نسخة مصورة من طبعة دار الكتب مع استراكت وفهارس جمعة القاهرة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، القاهرة، بدون تاريخ، تم الاستعانة بالأجزاء ٣، ٤، ٥.

(٣) ابن تغري بردي: هو أبو المحاسن جمال الدين يوسف بن الأمير سيف الدين تغري بردي الأتابكي للشعباوي الظاهري، ولد بالقاهرة سنة ٨١٣ هـ / ١٤١٠ م، (وتغري بردي، محرفة من تكري بردي، ويروى بالتركيب تعني عطاه الله)، وهو مؤرخ مصري كان أبوه من كبار أمراء للمماليك في عهد السلطان الظاهر سيف الدين برقوق، وابنه الناصر فرج بن برقوق، تقلد على يد أكابر مشايخ عصره، أمثال زوج أخته القاضي للقضاة جلال الدين البلقيني، وابن حجر السقلائي، وبنر الدين العيني، وابن ظهيرة وابن عريشاه، ثم لازم مجلس شيخ للمؤرخين تقي الدين المقرئزي، فتعلم منه حب التاريخ والتأريخ، وكان يستقن اللغتين العربية والتركية، توفي في (٨٧٤ هـ / ١٤٧٠ م)، للمزيد راجع: المقرئزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ١، دار الكتب، القاهرة، ١٩٩٦ م، مقامة للكتاب، ص ٣٤.

نقص منسوب التيل أو زيادته، أم فساد القائمين على الأمر، وإهمالهم شؤون البلاد؟ ويتعرض المؤلف للعديد من الأحداث التي تمت في عهد كل خليفة؛ معتمداً في ذلك على غيره من مؤرخين آخرين.

٢- كتب الجغرافيا:

[أ] من أهم للكتب الجغرافية التي اعتمد عليها الباحث في بحثه هو كتاب "نزهة المشتاق في اختراق الآفاق" للعلم الشريف الإدريسي^(١)، ت (٤٨٧هـ / ١٠٩٤م)، الذي يصف القسطنطين وكذلك الإسكندرية وصفاً دقيقاً، ويشتمل كتابه على الكثير من المعلومات المهمة التي تعطي وصفاً لبعض الخصائص الاجتماعية التي تميز أهل مصر بصفة خاصة.

[ب] وكذلك "معجم البلدان" لياقوت الحموي^(٢) ت (٦٢٦هـ / ١٢٢٨م)، وهو من المعاجم للجغرافية، والتاريخية المهمة لكل باحث، وقد اعتمد عليه الباحث في ضبط وتشكيل لسماء بعض المدن المهمة لموضوع الدراسة، وقد امتاز هذا المعجم بتضمنه بعض المعلومات التاريخية المهمة عن تلك المدن، وتحديد أماكنها.

٣- الرحلات:

[أ] احتوت كتب الرحلات على العديد من المعلومات النقية التي دونها في رحلاتهم، ومشاهداتهم، فكان لها من الأهمية التي تفيد للباحثين في شتى مجالاتهم، ومن أهم كتب الرحلات التي أفادت الباحث بشكل خاص والتي ارتبطت بفترات معينة من حكم الفاطميين كتاب "سفرنامه" للرحالة ناصر خسرو علوي^(٣)، ت (٤٨١هـ / ١٠٨٨م) والذي كُتب باللغة الفارسية، ونقله إلى العربية يحيى الخشاب، وقد زار ناصر خسرو

(١) أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن إدريس الشريف: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، المجلد الأول، مكتبة الثقافة الدينية، بدون تاريخ.

(٢) شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت الرومي البغدادي: خمسة أجزاء، تحقيق: فريد عبد العزيز الجدي، دار الكتب العلمية، بيروت، بدون تاريخ.

(٣) أبو معين الدين ناصر خسرو علوي: سفرنامه، ترجمة يحيى الخشاب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٣م.

مصر زمن الخليفة المستنصر بالله الفاطمي، وقد استغرقت زيارته هذه ثلاث سنوات هجرية من (٤٣٩هـ - ٤٤٢هـ / ١٠٥٠ - ١٠٥٢م)، وقد وصف في مؤلفه مصر، وغيرها من الدول، غير أن حديثه عن مصر قد استغرق نحو ثلث كتابه.

يعد هذا المؤلف من المؤلفات المهمة التي وصفت الحياة الاجتماعية، والاقتصادية للزاهرة في مصر في عهد الفاطميين، حيث تحدث عما قام به الفاطميون من حفر للترع، والجسور، والذي ارتبط بوجود قرى جديدة، كما تحدث عن بعض الصناعات، ودور الطراز، وأسامها (مصانع السلطان)، كذلك تحدث عن مظاهر الفن، والبذخ، والترف الذي تمتع به الفاطميون، والذي ظهر على موانئهم، وقد وصف لنا ناصر خسرو كيف اشتاقت نفسه لرؤية سماط الخليفة، وكيف ذهب عقله عندما رأى ما يضمه هذا السماط. (١)

[ب] وكذلك ابن جبير (٢)، وهو من الرحالة الذين زاروا مصر وهم في طريقهم لأداء فريضة الحج، وقد وصف ابن جبير في كتابه "رحلة ابن جبير" حالة الميناء التجاري الأول لمصر على البحر المتوسط (الإسكندرية)، وذكر الضرائب، وطريقة جمعها، ومدى التضد في جبايتها، وما يحدث من إجراءات التفتيش، فضلا عن الرسوم الإضافية الذي كان يدفعها التجار الأوروبيون، مثل السمسة، ومقابل الترجمة، مما كان لهذه المعلومات من أهمية في إبراز انفساد الاقتصادي للمنتحل في إرهاب كاهل للشعب المصري بالضرائب.

(١) ناصر خسرو: سفرنامه، ص ١٢٢ - ١٢٣.

(٢) أبو الحسين محمد بن أحمد الكفائي الأندلسي البليسي: (ت ٦١٤هـ / ١٢١٧م)، رحلة ابن جبير، بغداد، ١٣٥٦هـ / ١٩٣٧م.

في الطبقات والتراجم:

يعد كتاب الإشارة إلى من نال الوزارة^(٢)، لعلي بن منجب المعروف بابن الصيرفي^(٣) من المصادر المهمة والمعاصرة للبحث موضوع الدراسة، وقد اعتمد الباحث عليه في الترجمة لكثير من وزراء العصر الفاطمي، ومن ثم الحصول على العديد من المعلومات التي تبرز مظاهر الفساد الذي عمّ مصر في تلك الفترة، وكذلك تبين فترة حكم هؤلاء الوزراء، أو طريقة عزلهم أو التخلص منهم، وكذلك فترة توليتهم لفترات أخرى، كما تميز بذكر كل وزراء كل خليفة على حدة، وقد زخر هذا المؤلف بألقاب للوزراء الذين حصلوا عليها، ولاسيما في العصر الفاطمي الثاني (مصر الوزراء)، والذي يتضح خلالها مدى ما وصل إليه هؤلاء الوزراء من سيطرة، ونفوذ، وقوة فاقت قوة الخليفة نفسه، وسلبته سلطاته، وقد وقف ابن الصيرفي عند وزراء الأمر بأحكام الله، ومن المؤسف أن هذا المؤلف لم يستكمل من قبل أحد آخر لاستكمال الفترة للقصيرة الباقية.

في الأدب:

[١] يعد ديوان تميم بن المعز لدين الله الفاطمي^(٤) وثيقة شعرية معاصرة، أضافت لونا جديدا من ألوان الحياة في مصر في العصر الفاطمي، فقد ولد تميم في المهديّة سنة ٣٣٧هـ بتونس، ثم انتقل مع والده المعز لدين الله إلى القاهرة، وهو في الخامسة والعشرين من عمره.^(٥) سكن القصر الكبير في القاهرة، جعله المعز لدين الله بعيدا عن اشتئون المهمة في الدولة، وعهد بها إلى أخيه الأوسط (عبد الله) ، وذلك لما رآه من فساد وسوء أخلاق في ابنه تميم منذ أن كان في بلاد المغرب.^(٦)

(١) ابن الصيرفي إنتاج للرئاسة أمين الدين أبو القاسم علي بن منجب، (ت ٥٤٢هـ / ١١٤٢م)، الإشارة إلى من نال الوزارة، تحقيق: أيمن فؤاد مسود، ط ١، الدار المصرية للطباعة، ١٤١٠هـ / ١٩٩٠م.

(٢) تميم بن المعز لدين الله الفاطمي: ديوان تميم بن المعز لدين الله الفاطمي، دار الكتب المصرية، مطبعة دار الكتب لمصرية، القاهرة، (١٣٧٧هـ - ١٩٥٧م).

(٣) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ١، ص ٨.

(٤) الجوزري: سير الأستاذ جوزر، ص ٦٧، ١٢٠.

وجد تميم في القاهرة من المنتزهات، والديار ما يوافق مزاجه،
وهواه، ولاسيما في الأعياد الكثيرة التي شهنتها الدولة الفاطمية، وما
تميزت به من بنخ، وعبث، واتخذ له مجموعة من الأصدقاء شاركوه
لهوه، وعبثه، ومجونه، وخمره. حتى توفي سنة ٣٧٥هـ، وهو في
الثامنة والثلاثين من عمره، ودفن في تربة للزعفران (خان الخليفي الآن)
مع آبائه، وأجداده. (١)

ومن ديوان تميم بين المعز ظهرت صورة مختلفة تبين مظاهر
للفساد التي جلبها اللثراء الشديد، والحياة الرخدة، التي عاشها الخنقاء،
وذووهم في مصر، فنقلت لنا مدى فساد تميم، وأصدقائه الذين عاشوا في
الحياة، وعشقوا النماء، وأمنوا شرب الخمر، كذلك فقد كان لهذا الديوان
الفضل في معرفة أماكن المنتزهات، وكذلك طريقة الاحتفالات التي كانت
تقام في ذلك الوقت، وما كان يتم فيها من مظاهر اللهو، والعبث، والفساد.
مما كان له أثره في البحث موضوع الدراسة، ولاسيما لفساد الاجتماعي
منه.

[ب] كذلك يُعدُّ كتاب عمارة اليعلمى (٥٦٩هـ / ١١٧٤م)
"النكت العصرية في أخبار الوزارة المصرية" (٢)، الذي ألفه عن وزراء
مصر من المصادر المهمة، والمعاصرة للعديد من الأحداث التي دارت
في مصر الفاطمية؛ حيث رسمت قصائده صورة حية من حياتهم،
ونفوذهم، وسيطرتهم على الخلافة، كما تعرض في كتابه إلى العديد من
الثورات التي دارت في أواخر العصر الفاطمي، وقد زار عمارة مصر
في أواخر حكم الفاطميين في سنة (٥٥٠هـ / ١١٥٥م) وتشيع لهم حتى
قتل في سبيلهم على يد صلاح الدين الأيوبي (٥٦٩هـ / ١١٧٤م)، وذلك
لاتهامه بالامتراك في المؤامرة التي قام بها بعض رجال الدولة الفاطمية
لمودة الخلافة إلى مصر مرة أخرى، وقد عدَّ كتابه من المنكرات. (٣)

(١) ابن المعز: ديوان تميم بن المعز، تصدير للكتاب، (ف).

(٢) نجم الدين أبو محمد عمارة بن أبي الحسن علي العمري: تحقيق: مرتويج
درنبرغ، طابون، ١٨٩٧.

(٣) السيد عبد العزيز سالم: فتاريخ والمؤرخون العرب، ص ١٢٦.

[ج] كذلك كتاب تهاية الإرب في فنون الأدب^(١)، والذي يعد من الموسوعات الأدبية، والتي أفادت للباحث كثيراً في بحثه، ولاسيما الجزء (٢٨)، والخاص بتاريخ الخلافة الفاطمية منذ قيامها، وحتى سقوطها في مصر، وقد أورد التويري في مؤلفه العديد من الأحداث السياسية، والاقتصادية، كما تعرض للإقطاع، وعملية تحويل السنة الشمسية إلى سنة هلالية عام (٥٠١هـ / ١١٠٧م)؛ وهي فترة وزارة الأفضل بن بدر الجمالي، كذلك تعرض لذكر الأجناس، والضياع، والدواوين، فكان عوناً للباحث في إبراز للفساد الاقتصادي الذي عم تلك الفترة.

[د] أما كتاب 'صبح الأعشى في صناعة الإنشاء'، والذي ألفه الفلكنندي^(٢)، والذي عنده الدكتور / السيد عبد العزيز سالم من أهم الموسوعات، وأعظمها، والتي كتبت في عصر المماليك^(٣)، فقد حوى معلومات مهمة ارتبطت بكافة النواحي السياسية، والاقتصادية، والثقافية، والاجتماعية التي أفادت الباحث في الحصول على العديد من المعلومات القيمة في مجال بحثه، ولاسيما أن للفلكنندي قد عمل في ديوان الإنشاء بمصر في العصر المملوكي؛ مما أدى إلى تسهيل استكناه المعلومات التي ساعدته على تأليف موسوعته، وبراعة إعداده، وقد اهتم المؤلف بتقسيم مصر، وأنواع الأراضي فيها، وطبيعة الإقطاع التي تعود للعصر الفاطمي، وكذلك الأجناس والجوالي والموارِيث، فضلاً عن الضرائب المختلفة وطريقة جمعها.

(١) التويري إسهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (ت ٧٣٣هـ / ١٣٣٣م)؛ ج ٢٨،

تحقيق: محمد محمد أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٢م.

(٢) شهاب الدين أبو العباس أحمد بن علي بن عبد الله بن الجمال؛ (ت ٨٢١هـ /

٤١٨م)، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ١ - ١٤، طبعة دار الكتب،

قاهرة، ١٩١٢ - ١٩٣٠م.

(٣) السيد عبد العزيز سالم؛ التاريخ والمؤرخون العرب، ١٩٩٧م، ص ١٩٧.

١- الحسبة :^(١)

تعد كتب الحسبة من الكتب المهمة التي استعان بها في بحثه ؛ حيث ضمت بين صفحاتها العديد من المعلومات الاقتصادية، وكذلك الاجتماعية، فكان 'النظر في الأسواق' أحد المهام المنوط بها عمل المحتسب، كذلك كانت الحسبة في أصلها تقوم على أساس الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، ذلك فقد شملت مهام المحتسب انواعي الإدارية أيضا. قال تعالى : 'الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة، وأمروا بالمعروف، ونهوا عن المنكر وش عاقبة الأمور'^(٢) وقد كان الرسول (ﷺ) يقوم بدور المحتسب في صدر الإسلام ؛ ونظرا لأهمية الحسبة، والمحتسب في الدولة الفاطمية، فقد كان بعض الخثاء يمارسون مهام المحتسب بأنفسهم، وعلى رأسهم الحاكم بأمر الله^(٣)، لهذا استعان الباحث ببعض هذه المؤلفات نظرا لأهميتها في موضوع الدراسة، ومنها :

-
- (١) الحسبة : للحسبة بضم الحاء يكون سنا من الاحتساب بمعنى لدخار الأجر، أو الاحتساب بمعنى حسن التدبير والنظر فيه ومن ذلك قولهم فلان حسب الحسبة في الأمر أي حسن التدبير، والحسبة مصطلح من مصطلحات القانون الإداري، معناه الصواب أو وظيفة المحتسب، ثم اكتسبت الكلمة معنى خاصا وهو الشرطة، ثم أصبحت تدل على الشرطة المتوكله بالأسواق والأديب العامة. والحسبة نظام إسلامي شأنه الإشراف على المرافق العامة، وتنظيم عقلب المدنيين وهو اليوم من اختصاص النيابة العامة والشرطة، كما أنها وظيفة دينية شبه قضائية تقوم على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كانت الحسبة اسما نذار التحجبل التي يسجل فيها الوفيات والمواليد وتدار فيها تركات البناء وأموالهم، كذلك فقد استعمل لفظ الحسبة للدلالة على المولزين وللمكاييل.
- لمزيد راجع : ابن الأخوة : معالم القرية في أحكام الحسبة، ص ٢٣ - ٢٤.
- (٢) سورة تحج، آية رقم (٤١).
- (٣) مهام مصطفى ليو زيد : الحسبة في مصر الإسلامية من الفتح العربي إلى نهاية العصر المملوكي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٦، ص ٧٥.

[أ] كتاب تهوية الرتبة في طلب الصبة للشيزري^(١)، وقد عُدَّ هذا الكتاب أساساً لما قد ألف من بعده، خلال ما عرضه من لصوص خاصة بمهام المحاسب الاقتصادية، الذي كان - ولا بد - للمحاسب أن يكون ملماً بها، كما أنه كان ملماً بجميع أوجه النشاط الاقتصادي الخاصة بأرباب الحرف، والمهين، وكذلك العملة، والأسعار، والموازن، والمكاييل، وغيرها، وقد عاصر الشيزري آخر عصر الفاطميين؛ لذلك أمد الباحث بالكثير من المعلومات الاقتصادية والاجتماعية التي تفيد للبحث، كما أوضح بياناً مفصلاً عن أصحاب الحرف في القاهرة، والفسطاط، وما على المحاسب من تدبير السلع، ومنع الغش في العملة، وبمقارنة ما ذكره الشيزري بما يجب أن يكون، وبما كان كائناً من بعض مظاهر الفساد التي خالفت عمل المحاسب نفسه، وكذلك الشريعة الإسلامية.

[ب] وكذلك كتاب 'معالم القرية في أحكام الحمية' لابن الأخرى، الذي لم يترك عملاً إلا حدد واجباته ونظامه، وما يترتب على المحاسب من مناظرة، وتدقيق فيه؛ لذلك فقد كان لهذا المؤلف فوائد شتى في الحياة الاجتماعية في الإسلام، وتنظيمها، فكان أوضح دليل على ما كانت عليه العادات، والتقاليد في ذلك العهد. ومن الجدير بالذكر أن المحاسب ظل يؤدي وظيفته في مصر الإسلامية حتى عام ١٨٠٥ م.^(٢)

ثالثاً: المراجع العربية الحديثة:

لقد اعتمد الباحث على العديد من المراجع العربية الحديثة التي زخرت بالعديد من المعلومات والاستنتاجات، وقد تعددت هذه المراجع من حيث اهتماماتها في التركيز على جانب بعينه من الجوانب المختلفة للحياة في مصر الفاطمية، ومن هذه المراجع:

(١) الشيزري [عبد الرحمن بن نصر]: تهوية الرتبة في طلب الصبة، نشر: السيد الباز العربي، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، للقاهرة، ١٣٦٥م / ١٩٤٦م.

(٢) ابن الأخرى: معالم القرية في أحكام الحمية، ص ٤١.

كتاب د/ عطية مصطفى مشرفة : نظم الحكم بمصر في عهد الفاطميين^(١)، فهو من الكتب المفيدة التي ساعدت في البحث خلال تلك الفترة التاريخية، وقد تم الاستفادة منه في دراسة الجوانب الإدارية، والقضائية في العصر الفاطمي، مما ساعد على توضيح العديد من الأمور لخدمة هذا البحث.

وكذلك مؤلفات د/حسن إبراهيم حسن 'الفاطميون في مصر، وأعمالهم السياسية، والدينية'^(٢)، وكذلك كتاب 'تاريخ الدولة الفاطمية في المغرب، ومصر'^(٣)، فكان لهما من الأهمية في البحث، حيث تتبع تاريخ الفاطميين في المغرب، ومصر، وكذلك نظمهم السياسية، والدينية.

ومن أهم المراجع التي اعتمد عليها الباحث أيضًا مؤلفات د/ عبد المنعم ماجد، والتي تناولت العديد من مظاهر الحياة على اختلافها في الدولة الفاطمية، فكان كتاب 'نظم الفاطميين ورسومهم في مصر'^(٤) بجزئيه ؛ حيث تحدث في الجزء الأول عن كل ما يتعلق بالنظم الفاطمية من الإمامة، والوزارة، والإدارة، وكذلك النظم الدينية، والحربية، وأما الجزء الثاني فقد تحدث فيه عن نظام القصر، والبلاط، والرسوم، والأعياد على اختلافها، فكان مائة علمية زخرفة أفادت الباحث كثيرًا. وكذلك كتابه 'الحاكم بأمر الله الخليفة المفترى عليه'^(٥)، والذي قام فيه بدور المدافع عن الحاكم بأمر الله، وتصرفاته، فمثل الجبهة المعارضة للعديد من المؤرخين الناقمين على الحاكم بأمر الله، وتصرفاته بكتابته 'الظهور

(١) عطية مصطفى مشرفة : نظم الحكم بمصر في عهد الفاطميين، ط١، دار الفكر العربي، ١٣٦٧هـ / ١٩٤٨م.

(٢) حسن إبراهيم حسن : الفاطميون وأصائلهم السياسية والدينية، للطبعة الأميرية، القاهرة، ١٩٣٢م.

(٣) عبد المنعم ماجد : تاريخ للدولة الفاطمية في المغرب ومصر وبلاد العرب، ط٢، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٨م.

(٤) عبد المنعم ماجد : نظم الفاطميين ورسومهم في مصر، جزهان : ط٣، مكتبة الأجلو المصرية، القاهرة، ١٩٧٨م، ١٩٨٥م.

(٥) عبد المنعم ماجد : الحاكم بأمر الله الخليفة المفترى عليه، للقاهرة، ١٩٥٩م.

الخلافة الفاطمية، وسقوطها في مصر (التاريخ السياسي)^(١)، والذي أقاد بشكل كبير في استقاء العديد من المعلومات المهمة للبحث.

كذلك مؤلفات الدكتور / محمد جمال الدين سرور، "الدولة الفاطمية في مصر"^(٢) والذي تناول أهم الأحداث التاريخية للفاطميين في تلك الفترة، وكذلك كتابه "سياسة الفاطميين الخارجية"^(٣)، والذي تحدث فيه عن علاقة الفاطميين بخيرهم من الدول الخارجية، وما طرأ عليها من تغيرات نتيجة لضعف الدولة الفاطمية. وأيضًا كتابه "التفوق الفاطمي في بلاد الشام، والعراق"^(٤) في القرنين الرابع، والخامس بعد الهجرة.

كذلك كتاب "الدولة الفاطمية في مصر" للدكتور / أيمن فؤاد سيد^(٥)، والذي تناول فيه تاريخ الدولة الفاطمية بشكل جديد، حيث تناول نقاطًا عديدة، وقد تحدث فيه أيضًا عن نظم الفاطميين، وحضارتهم؛ فكان من للمراجع المهمة للدراسة.

كما اعتمدت الدراسة على العديد من الكتب التي اهتمت بأهل الذمة في مصر، سواء كان ذلك في العصر الإسلامي بصفة عامة، أو في العصر الفاطمي بصفة خاصة، وقد تم الاستفادة من هذه الكتب في معرفة القيود والاجتماعية التي فرضت على أهل الذمة، أو التسامح الذي منحوا إياه في الفترة محل الدراسة، كذلك الأعياد، والاحتفالات الخاصة بهم، ومن هذه للكتب : كتاب للدكتورة/ لمخطة محمد عامر "تاريخ أهل الذمة

(١) عبد المنعم مازن : ظهور الخلافة وسقوطها في مصر (التاريخ السياسي)، ط٤، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م.

(٢) محمد جمال الدين سرور : الدولة الفاطمية في مصر، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٦٥م.

(٣) محمد جمال الدين سرور : المرجع السابق، ط٤، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٣٩٢هـ / ١٩٧٣م.

(٤) محمد جمال الدين سرور : سياسة الفاطميين الخارجية، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٣٧٦هـ / ١٩٥٧م.

(٥) أيمن فؤاد سيد : الدولة الفاطمية في مصر تفسير جديد، للهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٧م.

في مصر الإسلامية^(١)، وكتاب الدكتور / سلام شافعي : "أهل الذمة في مصر في العصر الفاطمي الأول"^(٢)، و"أهل الذمة في مصر في العصر الفاطمي الثاني والأيوبي" (٤٦٧ - ٦٤٨هـ / ١٠٧٤ - ١٢٥٠م)^(٣)، وكتاب الدكتور / قاسم عبده قاسم "أهل الذمة في مصر في العصور الوسطى"^(٤) وكتاب "اليهود في مصر"^(٥)، وكذلك كتاب الدكتورة / سيدة إسماعيل كاشف "مصر الإسلامية وأهل الذمة"^(٦).

كذلك هناك الكثير من المراجع المهمة للبحث في الحياة الاقتصادية في عهد الفاطميين، والتي اعتمد عليها الباحث في معرفة الحياة الاقتصادية، من زراعة، وصناعة، وتجارة، وكذلك ما يتعلق بالأزمات الاقتصادية، والمجاعات مع ذكر أسبابها، ونتائجها، وكذلك السياسة النقدية التي اتبعتها الفاطميون مع المصريين، ونظام القبالة، والضعمان، مما كان له أثره الواضح على البحث. ومن هذه الكتب : كتاب د/ أحمد السيد الصلوي "مجاعات مصر الفاطمية : أسباب، ونتائج"^(٧) وكتاب الدكتورة / أمينة الشوربجي "رؤية الرحالة المسلمين للأحوال

(١) فاطمة محمد عامر : تاريخ أهل الذمة في مصر الإسلامية (من الفتح العربي إلى نهاية العصر الفاطمي)، ١ - ٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٠م.

(٢) سلام الشافعي : أهل الذمة في مصر في العصر الفاطمي الأول، للهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة تاريخ المصريين، عدد (٧٥)، ١٩٩٥م.

(٣) سلام شافعي : أهل الذمة في مصر في العصر الفاطمي الثاني والأيوبي : دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٢م.

(٤) قاسم عبده قاسم : أهل الذمة في مصر في العصور الوسطى (دراسة وثائقية)، ط٢، دار المعارف، ١٩٧٩م.

(٥) قاسم عبده قاسم : اليهود في مصر من الفتح للعربي حتى الغزو لعثماني، ط١، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٨٧م.

(٦) سيدة إسماعيل كاشف : مصر الإسلامية وأهل الذمة، سلسلة تاريخ المصريين، عدد (٧٥)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٣م.

(٧) أحمد السيد الصلوي : مجاعات مصر الفاطمية، أسباب ونتائج، ط١، دار النضال للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٨٨م.

المالية، والاقتصادية لمصر في العصر الفاطمي" (٣٥٨ - ٥٦٧ هـ / ٩٦٩ - ١١٧١ م)^(١)، وكتاب الدكتور / راشد البراوي "حالة مصر الاقتصادية في عهد الفاطميين"^(٢).

كما اعتمدت الدراسة على العديد من المراجع التي تناولت الجانب الاجتماعي في هذه الفترة، والتي تحدثت عن طبقات المجتمع، وأعياده، وتناولت المرأة بشكل خاص، ومن هذه المراجع: كتاب الدكتور / عبد المنعم سلطان "المجتمع المصري في العصر الفاطمي"^(٣)، وكتاب للدكتورة / ناريمان عبد الكريم أحمد " المرأة في مصر في العصر الفاطمي"^(٤)، وكتاب الدكتورة / هويدا عبد العظيم رمضان "للمجتمع في مصر الإسلامية"^(٥).

كذلك استناد الباحث في بحثه بمجموعة من كتب القانون الحديثة، والتي أفادت في تعريف بظاهرة الفساد، ومفهومها، وكذلك أنواع الفساد، والأسباب، والعوامل المساعدة له، وكذلك أثره على الفرد والمجتمع. ومن هذه الكتب : كتاب اللواء / محمد الأمين البشري "الفساد، والجريمة المنظمة"^(٦)، وكتاب الدكتور / السيد عوض "الجريمة في مجتمع

-
- (١) أمينة الشوربجي:- لرحالة للمسلمين والأحوال الاقتصادية لمصر في العصر الفاطمي، الهيئة المصرية العامة، سلسلة تاريخ المصريين، عدد (٧٧)، ١٩٩٤م.
 - (٢) راشد البراوي : حالة مصر الاقتصادية في عهد لفاطميين، ط١، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٣٦٨ هـ / ١٩٤٨م.
 - (٣) عبد المنعم سلطان : المجتمع المصري في العصر الفاطمي (دراسة تاريخية وثائقية)، دار المعارف، القاهرة، ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥م.
 - (٤) ناريمان عبد الكريم أحمد : المرأة في مصر في العصر الفاطمي، سلسلة تاريخ المصريين، عدد (٦٦)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٣م.
 - (٥) هويدا عبد العظيم رمضان : المجتمع في مصر الإسلامية من الفتح العربي إلى العصر الفاطمي، للهيئة المصرية العامة للكتاب، للقاهرة، ٢٠٠٦م.
 - (٦) محمد الأمين البشري : الفساد والجريمة المنظمة، جامعة نجف للموسم الأمنية، الرليض، ٢٠٠٧م.

متغير^(١)، وكتاب الدكتور / مصطفى عبد المجيد كاره 'مقدمة في الانحراف الاجتماعي'^(٢)، وكتاب الدكتور / محمد عاطف غيث 'المشاكل الاجتماعية، والسلوك الانحرافي'^(٣)، كذلك كتاب الدكتور / فرانسيس هينسون 'المرأة، والجريمة'^(٤)، وكتاب الدكتور / لاکوم 'الفساد'^(٥)، وغيرهم.

كما استفاد الباحث من بعض الرسائل العلمية في بحثه هذا، ومنها رسالة الدكتور / حسن إبراهيم زویل 'الفساد الإداري وعلاقته بالتغير الاجتماعي'^(٦)، حيث سلط الضوء على أوجه الخلل الإداري في الدولة، وفساد الإداريين، وأنواعه، وكذلك طرقه، وعلاقة هذا الفساد بالتغيرات الاجتماعية، وعلى الرغم من أن هذه الدراسة تتعلق بالعصر الحديث، فإنها تطابقت وموضوع الدراسة. وكذلك رسالة الدكتور / عصام أنور جمعة 'الآثار الاجتماعية لجريمة البغاء ودور الرعاية اللاحقة في مواجهتها من منظور الممارسة العامة للخدمة الاجتماعية'^(٧)، وكذلك

(١) السيد عوض : الجريمة في مجتمع متغير، المكتبة المصرية، الإسكندرية، ٢٠٠١م.

(٢) عبد المجيد كاره : مقدمة في الانحراف الاجتماعي، معهد الإتمام العربي، بسون ذابو.

(٣) محمد عاطف غيث : المشاكل الاجتماعية والسلوك الانحرافي، دار المعرفة للخارجية، الإسكندرية، ١٩٨٢م.

(٤) فرانسيس هينسون : المرأة والجريمة، ترجمة ريهام حسين إبراهيم، المجلس الأعلى للثقافة، ١٩٩٩م.

(٥) لاکوم : الفساد، ترجمة سوزان ظول، ط١، عين للدراسات والبحوث الإسلامية، القاهرة، ٢٠٠٣م.

(٦) إبراهيم زویل : الفساد الإداري وعلاقته بالتغير الاجتماعي، دراسة سوسيولوجية سوسيولوجية في المجتمع المصري فترة ما بعد ١٩٧٠م، تحت إشراف د/ سامية محمد جابر، د/ عبد الله محمد جابر، الإسكندرية، ٢٠٠٦م.

(٧) عصام أنور جمعة : الآثار الاجتماعية لجريمة البغاء ودور الرعاية اللاحقة، تحت إشراف د/ سهير محمد خيرى، ود/ لبتسام محمد رشاد، جامعة حلوان، غير منشورة، ٢٠٠٥م.

رسالة لماجستير للباحث / هشام عبد القادر عطية "إقليم الحوف الغربي
البحيرة حالياً" في العصر الفاطمي دراسة سياسية وحضارية من الفترة
(٣٥٨ - ٥٦٧ هـ / ٩٦٩ - ١١٧١ م)^(١)، والتي تعرضت للعديد من
الأحداث السياسية محل الدراسة والتي أفادت بالبحث.

رابعاً : المراجع الأجنبية :

- Lane-Pool, Stanley.
- A History of Egypt in the Middle Ages.
- Saladin and the Fall of the Kingdom of Jcrusalem.
- O'Leary : A Short History of the Fatimid Khalifate, London.
- Mann (J) : The Jews in Egypt and Palestine Under the Fatimid Chaliphs, Oxford.

لقد استفاد الباحث كثيراً من هذه المراجع الأجنبية، والتي حملت
وجهة نظر أخرى بجانب المراجع والمصادر العربية المغربية منها
والمشرقية حتى تتاح للباحث القدرة على الحكم الجيد، وقد أسهبت هذه
للمراجع في ذكر الأوضاع الاجتماعية التي عاشها الفاطميون وحالات
البدخ، والتurf التي عمت أرجاء قصورهم، كما أوردت وصفاً للعديد من
مناحي الحياة السياسية، والإدارية، والاقتصادية، واللائت للنفتر أنها
جاءت في معظمها مطابقة لما أوردته للمصادر، والمراجع العربية، وقد
تأول O'Leary وصف مظاهر البدخ، والتurf التي رأها عند زيارته
لبيت المقدس، وكذلك ذكر Mann حياة الجوارى، وبعض المظاهر
الاجتماعية، واتفق المؤلفان مع ما أورده المقريري في كتابه "تعاض
الحنفا"، وكذلك الخطط كما هو مبين داخل متن الرسالة.

(١) هشام عبد القادر عطية : إقليم الحوف الغربي "البحيرة حالياً" في العصر الفاطمي،
دراسة سياسية وحضارية في الفترة (٣٥٨ - ٥٦٧ هـ / ٩٦٩ - ١١٧١ م)،
تحت إشراف : أ.د / عصام الدين عبد الرؤوف لفقى، وأ.د / علي أحمد السيد،
و.د / أحمد محمد إسماعيل الجمال، جامعة الإسكندرية، فرع دمهور، ١٤٦٩ هـ
/ ٢٠٠٨ م.

وفضلاً عن هذه المجموعة من المصادر، والمراجع المشار إليها داخل هذه الدراسة النقدية، فهناك العديد منها مثبت في قائمة المصادر والمراجع في نهاية الرسالة تم الرجوع إليها بشكل متفاوت، وعنى حسب احتياج الدراسة وفقاً لأهمية كل منها، حيث تمت الإشارة إليها في موضعها داخل الرسالة.

الفصل الثاني
مظاهر الفساد في مصر الإسلامية
من الفتح العربي حتى قيام
الدولة الفاطمية
(٢٠ - ٣٥٨هـ / ٦٤١ - ٩٦٩م)

أولاً : تعريف ظاهرة الفساد وبعض من أنواعه.

ثانياً : بعض مظاهر الفساد في مصر الإسلامية قبل العصر
الفاطمي.

أولاً : تعريف ظاهرة تدهور السلوك :

مما لا شك فيه أن الإيمان اجتماعي بطبعه، لا يستطيع العيش إلا خلال مجتمعات بشرية يتفاعل معها، ويتأثر بها، ويعتمد على بني جنسه؛ لكي يتمكن من الاستمرار في حياته، وتحقيق رسالة الله على أرضه، ألا وهي إعمارها، غير أن هذا الإعمار لم يكن ليتم إلا بوازع يدفع بعض الناس عن بعض، وذلك لما في غرائزهم الطبيعية من ظلم وعنوان^(١)، وقد يختلف هذا الوازع باختلاف الزمان والمكان، غير أنه قد يتمثل في تشريع إلهي، أو نص قانوني، أو ملطلة بعينها، وفي كثير من الأحيان يتمثل هذا الوازع في تلك القوة الخفية الخارجة من الإنسان نفسه والتمثلة في "السلوك"^(٢).

وقد قام علماء الاجتماع بتقسيم السلوك البشري إلى نوعين، أحدهما سويّ : وهو ذلك السلوك الذي يتوافق مع معايير، وقيم المجتمع المتعارف عليها، والآخر منحرف وهو الذي لا يتوافق مع تلك المعايير والقيم، غير أن ثمة اختلافاً بينهما ينحصر في التقدير والدرجة، فالسلوك الذي يعد سويّاً في مجتمع ما يشكل منوفاً منحرفاً في مجتمع آخر، والسلوك الذي كان منحرفاً في الوقت الماضي قد يكون سويّاً في الوقت الحاضر، إذا فإن تحديد السلوك السوي من نقيضه يعد قضية تختلف نسبياً من مكان إلى آخر ومن زمان إلى آخر طبقاً للمعايير المعمول بها في هذا المكان وذلك للزمان، ولكن هذا لا يعني أن اشتراك الغالبية العظمى من الناس في رذيلة معينة يجعل من هذه الرذيلة فضيلة مهما اختلف الزمان والمكان.^(٣)

(١) ابن خلدون [ولي الدين أبو زيد عبد الرحمن بن محمد الحضرمي الأشبيلي] : المقننة، ج ١، تحقيق : علي عبد الواحد والفي، دار نهضة مصر، القاهرة، ١٩٧٩م.

(٢) محمد عاطف غيث : المشاكل الاجتماعية والسلوك الانحرافي، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٨٢م، ص ٧.

(٣) السيد عوض : الجريمة في مجتمع متغير، للمكتبة المصرية، الإسكندرية، ٢٠٠١، ص ٢٦٩.

وتعد ظاهرة الانحراف السلوكي ظاهرة من الظواهر التي ترتبط بكافة المجتمعات والأمم، توجد في كل المجتمعات، كما أنها لم تقتصر على طبقة اجتماعية معينة دون الأخرى داخل المجتمع الواحد، فلم يكن الفقر في ذاته مصدرًا من مصادر الانحراف السلوكي، في حين لم يكن الثراء مصدرًا للفضيلة، بل في كثير من الأحيان يكون للثراء أسوأ أثرًا من الفقر وهذا ما أشار إليه في نظريته "الوثيرة الاقتصادية" التي تشير إلى أن الإجرام لا يعود إلى الفقر أو الثراء، غير أنه يؤكد على أن انهبوط المفاجئ نحو الفقر، أو الصعود المفاجئ نحو الثراء هما الدافعين الحقيقيين وراء ظهور ظاهرة الانحراف.^(١)

كذلك ظاهرة الانحراف السلوكي لم تقتصر على نوع دون آخر، حيث لم يستطع الرجل بقوة أن يفرد بتلك الظاهرة متجاهلاً دور المرأة، فقد اختلفت الصورة التقليدية القديمة التي أخذت عن المرأة والتي أحاطتها بسياج حصين يتمثل في طبيعتها البيولوجية التي تعرض عليها نوعًا معينًا من الجرائم دون غيره، وكذلك العادات، والتقاليد التي كانت تقف حائلًا بينها وبين الانحراف، (غير أن هذه النظرة قد تغيرت بشكل يجعل المرأة تقف حائلًا بينها، وبين الانحراف)، غير أن هذه النظرة قد تغيرت بشكل يجعل المرأة تخرج من حصانتها إلى المجتمع العادي الذي نعيش فيه، وتتساوى بالرجل حيث أصبحت المرأة قادرة على ارتكاب جميع الجرائم دون استثناء، وبراءة.^(٢)

وهناك شبه اتفاق على أن الفعل المنحرف قديم قدم الإنسان نفسه؛ حيث عُدَّ ظاهرة اجتماعية تلازمت مع وجود الإنسان على الأرض، وتمثلت هذه الظاهرة أول ما تمثلت في قتل قابيل لأخيه هابيل فظهر أول

(١) رمسيس بهنام : الجريمة والمجرم في الواقع الكوني، منشأة للمعارف، الإسكندرية، ٢٠٠١، ص٣٣٩ السيد عوض : مرجع سابق، ص٩٠.
(٢) فرانكسون هيدسون : المرأة والجريمة، ترجمة : ريهام حسين إبراهيم، المجلس الأعلى للقافة، ١٩٩٩، ص٨٠، ١٩ سهير لطفي : نوبة الجرائم الاقتصادية المستحدثة من ٢٠ - ٢١ أبريل، ١٩٩٣، ج١، للقاهرة، ١٩٩٤، ص٣٢.

سلوك إجرامي عرفته البشرية، ثم أخذت تلك الظاهرة في النمو والتطور فتفرعت أشكالها وكذلك لاختلافت مسمياتها. (١)

ويعد الفساد شكلاً من أشكال هذا الانحراف الذي تعددت تعريفاته بتعدد أنواعه ومجالاته^(٢)، وقد زخر مصطلح الفساد في اللغة العربية بانثراء والتعدد في تعريفاته، فالكلمة مصدر، فلعلها فسد ويقال : فسد الشيء يفسد فسداً، وفسدَ (بضم السين) فهو فاسد،^(٣) والفساد تقييض الصلاح، والمفسدة هي الضرر ويقال : استفسد الشيء أي عمل على أن يكون فاسداً وتفسد القوم أي تباعدوا وقطعوا أرحامهم^(٤)، أما فيعرف الفساد على أنه القصور الأخلاقي عند الأفراد الذي يجعلهم غير قادرين على تقديم الالتزامات الذاتية المجردة التي تخدم المصلحة العامة، وهو كذلك يعد انتهاكاً لمبدأ النزاهة.^(٥)

كما أن هناك العديد من أنواع الفساد المتعارف عليها بين الباحثين والمفكرين وهي جميعاً تشترك في كثير من الصور، والأشكال المعروفة في الشريعة الإسلامية، والوارد ذكرها. في القرآن الكريم^(٦)، فقد عرفت

(١) مصطفى عبد المجيد كزارة : مقدمة في الانحراف الاجتماعي، معهد الإنماء العربي، ص٢٤٩.

(٢) لاكم : للفساد، ترجمة : موازن خليل، ط١، عين للدراسات والبحوث الإسلامية، القاهرة، ٢٠٠٣، ص٥٢٧.

(٣) الرزقي : [محمد بن أبي بكر عبد القادر]، مختار الصحاح، ترتيب محمود خاطر، دار الكتب المصرية، القاهرة، باب (ف.س.د).

(٤) ابن منظور : [جمال الدين محمد بن مكرم]، لسان العرب، ط١، المجلد الثالث، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، دار صادر، بيروت، ١٩٩٠، باب (ف.س.د)؛ إبراهيم نخس وآخرون، المعجم الوسيط، ج٢، ط٢، باب الفاء.

(5) Merriam Webster Dictionary – Definition Corruption.

(٦) لفظ الأيات : للبقرة (١١، ٢٧، ٣٠، ٢٠٥، ٢٥١)، آل عمران (٦٣)؛ المائدة (٣٣، ٦٤)، الإسراء (٤)، قلم (٤، ٨، ١٤)، الأعراف (٥٦، ٥٨، ٨٦، ١٠٣، ١٤٢)، غافر (٢٦)، الشعراء (١٥٢، ١٨٣)، العنكبوت (٣٠، ٢٦)، ص (٢٨)، الروم (٤١)، يونس (٤٠، ٨١، ٩١)، الأنفال (٧٣)، القصص (٤، ١٧، ٨٣)، الأنبياء (٣٢)، هود (٨٥، ١١٦)، المؤمنون (٧١)، النحل (٨٨).

الشريعة الإسلامية أفساد على أنه "المعصية" أو العمل بها وعدت كل من عصى الله على أرضه أو أمر بمعصيته فقد أفسد فيها والفساد هنا يعني العمل بما نهى الله عنه، إذاً فإن كل خروج عن القانون الإلهي يُعد فساداً من الناحية الشرعية، وتتجسد صور هذا الفساد لتظهر في قتل النفس، ولكل مال اليتيم، وأكل الربا، وقذف المحصنات، وشهادة الزور، ومُسرب الخمر، والرشوة، والسرقه، وغير ذلك للكثير مما حرم الله تعالى، ونتيجة لكل ما سبق يظهر انقحظ ويقل للضعام وتذهب البركة، وينتشر الظلم في كل مكان، ومثلما حددت لنا الشريعة الإسلامية بعضاً من مظاهر الفساد على الأرض، حددت لنا أيضاً طريقة التخلص منه والتي أجملتها في "الطاعة"، واليعد عن المعصية، كما حددت لنا أيضاً العقاب والذي تعمل في الحد، أو القصاص، أو الدية، أو التقرير حسب نوع، وحجم للمعصية. (١)

أما القانون فبالرغم من أنه لم يصرح لنا "لفظاً" بكلمة الفساد في تشريعاته، إلا أنه عدّ كل فعل يتعارض مع السلوك الطبيعي للإنسان، ويسبب خرقاً، أو تهديداً لقيم المجتمع ومصالح أفراده جريمة يعاقب عليها المشرع من واقع القوانين المعمول بها. حيث أكد على أنه لا جريمة بدون نص قانوني، فالجريمة إذاً من الناحية القانونية تعد صورة أخرى من صور الفساد على الأرض طالما يشكل صورة من صور عدم الانضباط، والعنوانية، والفسجور (٢)، غير أننا إذا نظرنا للفساد نجده أشمل، وأعم من

(١) الطبري: [أبي جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن غالب الأعملي]، جامع البيان في تفسير القرآن، ج١، ط١، تحقيق: أحمد محمد شاكل، مؤسسة الرسالة، اسكندرية الحربية للمعونة، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م، ص٤ - ٥، ج٢١، ص٥٨ - ٦١؛ إبراهيم عبد الله رفيدة وآخرون: معاني القرآن الكريم، تفسير لغوي موجز، جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، ط١، ليبيا، طرابلس، ص١٠٠.

(٢) سليمان عبد المنعم سليمان: أصول علم الإجرام القانوني في إشكالات تأصيل علم الإجرام، للتحويل الوصفي لظاهرة الجريمة، التحليل التفسيري لظاهرة الإجرام، دار الجامعة الجديدة، الإسكندرية، ٢٠٠١، ص٥٩، ٦٠.

الجريمة، فهناك الكثير من السلوك المنحرف الذي يشكل انتهاكاً للمبادئ الأخلاقية لا يعده المشرع جريمة، كما أنه ليس من الضروري أن تكون جميع الجرائم متناقضة مع المبادئ الأخلاقية.^(١)

وعلى الرغم من ذلك فلم يتعرض المشرع لتعريف الجريمة تعريفاً دقيقاً واضحاً، واكتفى بذكر أنواعها؛ حيث قسّمها من حيث الخطورة، وكذا العقوبة إلى جرائم جنائية، وجرائم مدنية، وأخرى تأديبية^(٢)، وقد ظل للكثير من السلوك المنافي للأخلاق خارجاً عن نطاق العقوبة القانونية إلى أن جاءت المادة الثامنة من اتفاقية الأمم المتحدة لمكافحة الجريمة المنظمة، والتي تم اعتمادها ٢٠٠٣م بتجريم كل أنواع الفساد، ووضعته تحت طائلة القانون، ومن ثم عدّ كل فعل منافي للأخلاق السوية جريمة يُعاقب عليها^(٣)، ولمزيد من الإيضاح سيتمّ التعرض بإيجاز على أبرز أنواع ذلك الفساد.

[١] الفساد السياسي:

يرجع بعض الباحثين قضية الانحراف بشكل عام إلى العامل السياسي؛ حيث إن تعريف الانحراف ذاته يرتبط بأهداف إستراتيجية هي في أساسها سياسية^(٤)، وقد عرف الفساد السياسي على أنه جميع الممارسات غير المشروعة الناتجة عن صانعي القرار السياسي - الصفوة - الذين يستندون على الأسس الشرعية، والقانونية للسلطة التي يركزون عليها؛ وذلك لتحقيق أهداف شخصية أكثر من تلك التي أتاحت لهم، فمضى

(١) محمد خلف : مبادئ علم الإجرام، دار الجماهيرية للنشر والتوزيع، الجماهيرية العربية الليبية، ١٩٨٦، ص ٢١، ٢٢.

(٢) المادة التاسعة من قانون العقوبات المصرية رقم (٥٨) لسنة ١٩٣٧م، الوقاتع المصرية، العدد رقم (٧١) للصادر في ٨/٥/١٩٧٣م.

(٣) محمد الأمين البشري : الفساد والجريمة المنظمة، جامعة نايف للعلوم الأمنية، الرياض، ٢٠٠٧، ص ٥١.

(٤) سامية محمد جابر : الانحراف الاجتماعي بين نظرية علم الاجتماع والواقع الاجتماعي، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ٢٠٠٠، ص ٥.

تم تقديم المصالح الخاصة لصانعي القرار من المصلحة العامة لباقي أفراد المجتمع كان هذا دليلاً على وجود الفساد السياسي الذي اتخذ لقب "فساد القمة" أو "فساد القوة".^(١)

ومن هذه القوة تتبثق قوة أخرى، تستند على تلك الصفوة السياسية وتسمى بالسلطة المشتقة، وهي على صلة وثيقة بالقوة سابقة الذكر، هذا الأمر الذي يتيح لها القيام بالعديد من الأفعال المنحرفة، كذلك وتتيح لها قدرة التستر عليه رغم مخالفته للقانون، وقد تتمثل هذه الفئة في الوزراء، والنظار، والحجاب، وغيرهم من المقربين للسلطة العظمى، ويتكون فساد "القوة" ونظيرتها المشتقة - الفساد السياسي - في عدة صور؛ منها: اغتصاب سلطة سياسية بكل طرقها المشروعة، وغير المشروعة، والوساطة، والمحسوبية، ومراقبة الأموال العامة، والاستبداد بأنواعه، والابتزاز، ومحاباة الأقارب، والظلم، والاضطهاد لفئة بعينها.^(٢)

[٧] الفساد الإداري:

لا يختلف الفساد الإداري كثيراً عن الفساد السياسي، لأنهم إلا في مركبيه، وموقعهم الوظيفي، فبينما تقوم السلطة العليا، والسلطة المشتقة منها بأعمال منافية للقانون، والأخلاق في مجال سلطتها ويسمى هذا فساداً سياسياً، يقوم أيضاً موظفو الحكومة بالدور نفسه؛ لكنه على نطاق أقل في التأثير والتأثر، حيث يقوم الموظف في وظيفته العامة، أو للخاصة باستغلال سلطته الإدارية، وما لديه من سلطات تعود عليه، وتتوخ هذه الطرق من موظف إلى آخر فنذكر منها، طلب الرشوة، والاختلاس،

(١) دعاء محمد أبو نور : التحولات الاجتماعية وظاهرة الفساد في المجتمع المصري دراسة لجمعية على أبعاد لظاهرة وتناولها الإعلامي، رسالة دكتوراه، تحت إشراف : عبد الهادي محمد والي، وحيد سيد أحمد خليفة، جامعة طنطا، ٢٠٠٣، غير منشورة، ص ٤٨ - Ronald, Klitgaard, Lespares, CH, 2000, p. 2.

(٢) سهير لطفي : ندوة الجرائم الاقتصادية، ص ٢٩؛ عبود السراج : قسطنطين العقوي، القسم للعام، جامعة دمشق، ص ١٢٣.

والاحتيال، وقبول الهدايا، والتلاعب الوظيفي، وما إلى ذلك من الأعمال المخلة بالشرف، والأخلاق، والقانون. (1) وربما يجانبنا انصواب إذا قلنا : إن الفساد السياسي هو فساد الصفوة، أو السلطة، والفساد الإداري هو فساد صغار الموظفين في وحدات الدولة المختلفة، وأن انغماس الوحدات الإدارية العليا في الأعمال غير المشروعة مع عدم تعرضها لتعاقب القانوني الواجب في مثل هذه الحالات، يؤدي بالضرورة إلى ازدياد تلك الأفعال في المستويات الإدارية الدنيا.

[٢] الفساد الاقتصادي :

يقصد بالفساد الاقتصادي كل ما يمس الاقتصاد بصفة عامة، ويلحق به ضرراً مباشراً، أو غير مباشر، أو يتسبب في تهديد النظام الاقتصادي، ويرى البعض أن العوامل الاقتصادية السيئة هي أساس انتشار ظاهرة الفساد، وعلى الرغم من أن المال هو عصب الحياة فإن الفقر والحاجة إلى المال، وللظروف الاقتصادية السيئة عجزت أن تكون الدافع الوحيد لارتكاب الجريمة الاقتصادية، ويؤكد رمسيس بهنام أن الجريمة الاقتصادية ليست رهينة لضغط الظروف الاقتصادية السيئة بقدر ما يكون الاستمرار في تلك الظروف هو السبب القوي لذلك، ولم تقتصر الجرائم الاقتصادية على حد العدوان على المال فقط (السرقه والنصب)، بل إنها شملت أيضاً التهريب الضريبي، والغش التجاري، وفرض المغارم الباهظة، وتزوير العملة، واحتكار المبلغ الغذائية وقت الحاجة، وإهمال شؤون البلاد الاقتصادية، وغير ذلك من الجرائم التي تسير بالمجتمع إلى عالم المجاعة، والثورات. (٢)

(١) حسين إبراهيم زويل : الفساد الإداري وعلاقته بالتغير الاجتماعي دراسة مومبيولوجية في المجتمع المصري فترة ما بعد ١٩٧٠، رسالة دكتوراه تحت إشراف : سامية محمد جابر، عبد الله محمد جابر عبد الرحمن، الإسكندرية، ٢٠٠٦، غير منشورة، ص ٨٦.

(٢) علي عبد القادر تهبوجي وآخرون : علم الإجرام وعلم تعاقب، دار المطبوعات الجامعية، الإسكندرية، ١٩٩٩، ص ١٢٨؛ رمسيس بهنام : مرجع سابق، ص ٣٤٢.

[٤] الفساد الاجتماعي :

أما الفساد الاجتماعي، فهو المحصلة النهائية بمجموعة الجرائم السياسية، والإدارية، والاقتصادية التي تتفاعل مع بعضها البعض لتخرج لنا فساداً من نوع آخر ينتشر بشكل مريع إلى بقية أفراد المجتمع، والفساد الاجتماعي صورة من صور الفساد الأخلاقي الذي يبدأ بصورة صغيرة من الأفراد، وما يلبث أن ينتشر ليعم المجتمع كله ناشراً أعراضه الجانبية التي تتمثل في سوء الأخلاق، الرذيلة، والقواش، وجرائم الاختصاص، والإتجار في البشر، وانتشار بيوت البغاء، والصراع الطبقي، وكذلك العرفي.^(١)

لم يتوقف الفساد عند هذا الحد من أنواعه، فهناك العديد من أنواع الفساد الأخرى^(٢)، التي لم يتعرض لها للباحث في تلك الأنداسة، ولكنه اكتفى بإلقاء الضوء على بعض أنواعها كـ: السياسي، والإداري، والاقتصادي، والاجتماعي؛ نظراً لأهمية هذه الأنواع فسي أي مجتمع؛ ولكي يتضح هذا الأمر بصورة أفضل لابد من دراسته خلال فترة زمنية محددة، لذلك فإننا في الصفحات القادمة سنتناول ظاهرة الفساد في مصر الإسلامية زمن الخلافة الفاطمية (٣٥٨ - ٥٦٧ هـ / ٩٦٩ - ١١٧١ م)، ولما كان الفساد من الظواهر الاجتماعية صعبة الجنور التي تنشأ بين ليفة وضحاها، فإنه سيتم التعرض بإيجاز لأهم تلك المظاهر في مصر قبل فترة الدراسة المحددة، وهي فترة الفتح العربي لمصر وحتى نهاية الثورة الإخشيديّة (٢١ - ٣٥٨ هـ).

-
- (١) محمد الأمين البشري : الفساد والجريمة المنظمة، ص٥٠٠؛ عصام أنور جمعة : الآثار الاجتماعية لجريمة البغاء ودور الرعاية اللاحقة في موجهتها من منظور الممارسة العامة للخدمة الاجتماعية، رسالة بكثراؤه، تحت إشراف : سهير خيرى، فكتسام محمد راشد، جامعة حلوان، غير منشورة، ٢٠٠٥، ص٤٨.
- (٢) أنواع للفساد الأخرى : مثل الفساد الأخلاقي، للفساد الفضلاني. للمزيد، راجع : محمد الأمين البشري، للمرجع السابق، ص٤٧.

[١] الفساد السياسي :

خرجت الدولة الإسلامية من نطاقها الضيق البسيط المتمثل في شبه الجزيرة العربية بفضل الفتوحات الإسلامية لتشمل العديد من الدول، والأقطار، مثل العراق، والشام، ومصر، وأفريقية فتحوّلت من دولة المدينة البسيطة إلى دولة كبيرة ممتدة الأطراف تضم العديد من العناصر الاجتماعية المختلفة، هذا الأمر الذي أدى إلى حتمية تطوير نظم الحكم، وربما تعيره، ولما كان الاختلاف سمة من سمات التطوير، والتغيير فقد ظهرت العديد من مظاهر الفساد المختلفة التي اتخذت أشكالاً عدة تنوعت، واختلفت من ولاية لأخرى داخل الولايات الإسلامية التابعة لدولة الخلافة، وعلى رأسها مصر. (١)

وقد انقسم تاريخ مصر الإسلامية منذ أن فتحها العرب المسلمون (٢٠هـ / ٦٤١م) حتى بداية الخلافة الفاطمية (٣٥٨هـ / ٩٦٨م) إلى مرحلتين متميزتين، تبدأ الأولى من الفتح العربي، وتنتهي حتى قيام الدولة الطولونية، وفيها كانت مصر مجرد ولاية تابعة للخلافة الأموية ثم العباسية، يحكمها وال من قبل الخليفة؛ لذلك عرفت تلك الفترة بعصر الولاية (٢٠هـ - ٢٥٤هـ)، أما الفترة الثانية فقد تمتعت فيها مصر لأول مرة بشخصية مستقلة لا يربطها بدولة الخلافة سوى العلاقة الروحية فقط، وفي تلك الفترة قامت الدولة الطولونية (٢٥٤هـ - ٢٩٢هـ)، ثم الإخشيدية (٣٢١ - ٣٥٨هـ). (٢)

(١) إبراهيم أحمد العديوي : تاريخ العلم الإسلامي، مطبعة جامعة القاهرة، القاهرة، ١٩٨٦م، ص ٣٣.

(٢) ابن عبد الحكم : أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله؛ فتوح مصر وأخبارها، تحقيق : محمد صبيح، دار التعاون للطبع والنشر، للقاهرة، ١٩٧٤م، ص ١١٧
علي حسني الخربوطلي : مصر العربية والإسلامية السوية والحضارة في مصر في العصر الإسلامي منذ الفتح العربي إلى الفتح العثماني، مكتبة الأنطون المصرية، القاهرة، ١٩٨٨.

لم تكن مصر في عصرها الأول - عصر الولاة - بمعزل عن الأحداث التي تدور في حاضرة الخلافة، فقد كان لموقعها الجغرافي المتميز، وثروتها المتعددة دوراً في تلك الأحداث، وقد بدأت أولى هذه المشاركات أثناء خلافة عثمان بن عفان (رضي الله عنه)؛ حيث تمت في عهده البذور الأولى لحركة التطوير، وللتجديد، وذلك عندما قام بعزل ولاية الأقاليم الذين قد ولاهم الخليفة السابق عمر بن الخطاب (رضي الله عنه)، واتخذ من أقاربه من بني أمية بدلاً منهم، فابتعد بذلك عن مبدأ انشوري الذي اعتادت عليه دولة المدينة من قبل، ولما كان بنو أمية ينطلقون منذ زمن بعيد إلى السلطة، والاحكم فقد سارعوا إلى السيطرة على مقاليد الأمور فسي تسبى الولايات الإسلامية، وأخذوا في جمع المال بشتى الطرق المشروعة، وغير المشروعة حتى نالوا الثراء لفاحش، وامتلكوا الضياع، وشيدوا القصور، وابتعدوا عن بساطة الإسلام الأولى فانغمسوا في حياة اللهو، والترف، والمجون، وأفسدوا في الأرض مما أثار سخط العامة عليهم في كل مكان. (١)

ففي مصر تشدد واليها عبد الله بن أبي السرح - أخو عثمان فسي الرضاع - في جمع الأموال من الأهالي، وعاملهم بقسوة فسخطوا عليه، ولاسيما في ظل رفضهم لعزل عمرو بن العاص، وأبهم السابق، ومن ثم عم الفساد في أرض مصر، وانتشرت الفوضى، والاضطرابات التي أنت في النهاية إلى إشعال نار الثورة التي انتهت بمقتل الخليفة نفسه (٢).

(١) المقرئزي: [تقى الدين أحمد بن علي]: النزاع والتخاصم فيما بين بني أمية وبني هاشم، تعليق: صالح الورداني، الهدف للإعلام والنشر، ص ٣١؛ السيد عبد العزيز سالم: دراسات في تاريخ للعرب [تاريخ الدولة العربية]، مؤسسة شبان الجامعة، الإسكندرية، ١٩٩٧م، ص ٣٣٤.

(٢) لمسعودي: [أبي الحسن علي بن الحسين بن علي]، مسروج الذهب ومعلان للجوهر، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، ج ١، المكتبة العصرية، بيروت، ص ٣٥، ١٣٦، السيوطي: [جلال الدين عبد الرحمن]، حسن للمحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، ج ١، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، ص ٥٨٠.

وعندما تولى علي بن أبي طالب (عليه السلام) الخلافة قام بعزل الولاة الأمويين ضئاً منه أن هذا الأمر سيصلح ما قد أقصده هؤلاء القوم، ويهدأ من روع الناس، غير أن هؤلاء القوم - بنو أمية - كَوَّنُوا حزباً معارضاً لعلي تزعمه معاوية بن أبي سفيان والي الشام الذي رفض تنفيذ قرار العزل، وقد انضم إليه مجموعة من أصحاب الثراء، والمصالح الشخصية انذين ظهروا زمن عثمان، وبدأت حرباً ضروس بين الطرفين كانت مصر مسرحاً لبعض أحداثها. (١)

عمل معاوية بن أبي سفيان على إثارة شيعة عثمان بن عفان في مصر؛ للمطالبة بدمه مما أدى إلى اضطراب الأمور في مصر، وعمت الفوضى التي أدت إلى ظهور سلسلة من الاغتيالات بدأت بوالي مصر من قبل علي، وهو محمد بن أبي حذيفة، كما عمل معاوية على استخدام المكر، والخديعة لإبعاد والي مصر الجديد سعد بن عبادة الأنصاري عنها بعد أن فشل في السيطرة عليه فأشاع أن قيس بن سعد قد خان الخليفة علي، وتعاون معه ضد علي، وقد أفلح معاوية عندما أتت هذه الشائعة بثمارها، وقام علي بعزل قيس بن عبادة بعد أن تسرب إليه الشك في إخلاصه، كما لم يتردد معاوية، وحزبه في بذل الأموال لمن يضع السم في النعل نلأشتر بن مالك الذي اختاره علي ليكون والياً على مصر، فمات قبل أن يصل إليها، وعندما سادت الأحوال في مصر، واضطربت أمورها وكثر فسادها، فاستغل معاوية هذا الأمر وبعث عمرو بن العاص على رأس جيش كبير استطاع أن يهزم واليها محمد بن أبي بكر، ويمتل به، ويغتصب مصر من حوزة الخلافة. (٢)

(١) ابن تغري بردي : جمال الدين أبو العباس الأتابكي : فتوح الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، نسخة مصورة من طبعة دار الكتب مع استكراكت وفهراس جامعة القاهرة، ج ١، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، القاهرة، بدون تاريخ، ص ٣٢؛ ميعة إسماعيل كاشف : مصر في فجر الإسلام من الفتح العربي لى قيام لدولة الطولونية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٤م، ص ١١٦.

(٢) ابن تغري بردي : فتوح، ج ١، ص ١١٠ - ١١٣، محر عبد العزيز سالم :

كذلك كان لمصر نصيباً من النزاع الذي دار بين الأمين (١٩٣ - ١٩٨هـ)، والمأمون (١٩٨ - ٢١٨هـ) على ولاية العهد ففي ولاية الأمين عمت الفوضى، والاضطرابات جميع الولايات الإسلامية، ومن بينها مصر التي لتقسم الناس فيها إلى فريقين : أحدهما يؤيد الأمين، والآخر يؤيد المأمون؛ كذلك انقسم الولاة أنفسهم بين مؤيد، ومعارض لكل منهم فكثر فيها الفساد، ولاسيما في ظل تغير الولاة المستمر، ولم تهدأ الأمور في مصر بنهاية هذا الصراع الذي انتهى بمقتل الأمين (١٩٨هـ / ٨١٣م)؛ بل اشتدت وطأته عندما لتنقلت عدواه إلى الطامعين في مصر الذين سولت لهم أنفسهم بالاستقلال بها بعيداً عن الخلافة، وقد تجحوا في ذلك إلى حد بعيد. (١)

لقد نجح السري بن الحكم بن يوسف (٢) الذي ولى مصر بمبايعة الجند (٢٠٠هـ / ٨١٥م) أن يستقل بالوجه القبلي من مصر، كما استطاع

الشائعات وأثرها في المجتمع والدولة في مصر منذ الفتح الإسلامي وحتى نهاية عصر الدولة الفاطمية (٢١ - ٥٦٧هـ / ٦٤١ - ١١٧١م)، بحث منشور في ندوة لانتور / سعد زغلول عبد الحميد، كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، ٢٠٠١م، ص٤٩؛ ناريمان عبد الكريم أحمد : دراسات في تاريخ مصر الإسلامية، سلسلة تاريخ المصريين، العدد رقم (٢٦٦)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٢م، ص٤٨.

(١) ابن تغري بردي : المصدر السابق، ج٢، ص١٥٧؛ للجهيناري [أبو عبد الله محمد بن عبدوس] : لوزراء والكتاب، ط١، تحقيق : مصطفى السقا وآخرون، القاهرة، ص٢٩.

(٢) السري بن الحكم بن يوسف : أصله من بلخ، تولى لمرة مصر عام (٢٠٠هـ) لسماء أمر الجيش والرعية فقبض عليه الجند بأمر من الخليفة وحبسوه، غير أنه استطاع بمساعدة لجروري أن يخرج من السجن ويقنع المصريين أنه قد تولى أمر مصر بأمر من الخليفة، ولكن سرعان ما عاد النزاع بين السري ولجروري على الاستقلال بمصر. للمزيد، راجع : ابن تغري بردي : مصدر سابق، ج٢، ص١٦٧؛ سيدة إسماعيل كالنبا : مصر في فجر الإسلام، ص١٦٦.

عبد العزيز الجروي^(١) أن يستقل بشرفي الدلتا؛ بينما جاءت مجموعة من الأندلسيين^(٢) وسيطرت على الإسكندرية وكونت فيها شبه جمهورية مستقلة، وقد ظلت هذه القوى للثلاث تتصارع فيما بينها ما يقرب من العشر سنوات توارث فيها أبناؤهم هذا النزاع، ونفع شعب مصر ثمنه، حتى انتبه المأمون أخيراً فسارع بإرسال جيش كبير بقيادة طاهر بن الحسن استطاع أن يعيدها مرة أخرى إلى حوزة الخلافة، ويفضي على الطامعين فيها، غير أن ثورة الأهالي في مصر لم تهدأ بعد؛ مما اضطر الخليفة المأمون للمجيء بنفسه لتهدئة الأمور سنة (٢١٧هـ/٨٣٢م).^(٣)

ظلت مصر تتأثر سلباً وإيجاباً بالأحداث الإيجابية التي تدور في حاضرة الخلافة حتى شغل عنها الخلفاء للعباسيون بالفتن، والثورات التي أثارها الأكراد ضدهم، وبدأت تساء القصر يتكئنان بشكل مباشر في

(١) عبد العزيز جروي : هو أحد القادة الذين طمعو في مصر مستغلاً انشغال الخليفة بحربه مع أخيه، استعان بالمصري بن الحكم في القضاء على أعداءه مقابل مساعدته في الخروج من السجن، ولكن سرعان ما تغير الأمر وتلزع الاتيين على الاستئثار بمصر، حتى جاء طاهر بن الحسين الخليفة من قبل المأمون وخلص مصر من طمع الطامعين فيها. للمزيد، راجع : مبدية إسماعيل كاشف : مصر في فجر الإسلام، ص١٦٢ - ١٦٩.

(٢) الأندلسيين : هم مجموعة من الأندلسيين يبلغ عددهم ١٥.٠٠٠ باستثناء الأطفال والنساء، خرجوا من الأندلس مطرودين زمن الخليفة الحكم بن هشام الربيضي إثر ثورة قاموا بها عرفت بثورة الربيضون بقرطبة عام ١٩٨هـ، نزل فريق منهم إلى بلاد المغرب - مدينة فاس - والفريق الأخر احتل الإسكندرية إلى أن أخرجهم طاهر بن الحسين. للمزيد، راجع : السيد عبد العزيز سالم : في تاريخ وحضارة الإسلام في الأندلس، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ١٩٨٥م، ص٣٥١ - ٣٥٨؛ سيدة إسماعيل كاشف : مصر في فجر الإسلام، ص١٦٧.

(٣) ابن طباطبا [محمد بن علي] : للفقري في الأدب السلطانية والتول الإسلامية، تحقيق : عبد القادر مايو، دار القلم العربي، ١٩٩٧م، ص٦١؛ المقريزي [عفي الدين أحمد بن علي] : الخطط المقريزية للمعروفة بالمواضع والاعتبار - بذكر الخطط والأثار، ج٢، بولاق، ١٢٧٠هـ، ص٤٩٩؛ ابن تعري بردي : النجوم، ج٢، ص١٩٢؛ مبدية إسماعيل كاشف : المرجع السابق، ص١٦٩.

تولية، وعزل الخلفاء، وكذلك الولاة مقابل مزينة من المال، أو بعض من الهدايا، فأصبحت الولايات الإسلامية تمنح كإقطاعات للمقربين إليهم الذين آثروا البقاء بجانب الخليفة حتى يأمنوا المكر، والدسائس التي تقوم ضدهم، وفي ظل هذه الاضطرابات، ولقنن استطاع أحمد بن طولون الذي أرسله باكباك التركي نيابة عنه في ولاية مصر أن يستقل بها بعيداً عن الخلافة، ويؤسس دولة جديدة يحكمها هو، ولينأوه من بعده، عرفت بالدولة الطونونية، وقد استمرت هذه الدولة ثمانية وثلاثين عاماً. (١)

وعلى الرغم من تمتع مصر بالازدهار، والتقدم في تلك الفترة للقصيرة من عمرها، فإنها لم تتج من لعنة الملوطة، وعبث الثراء، حيث خرج العباس بن أحمد بن طولون على أبيه سنة ٢٦٥هـ؛ طمعاً في السلطة، واستولى على جميع الأموال، والسلاح متوجهاً إلى إفريقية - تونس الحالية - هو ومجموعة من أصحابه الذين زينوا له الأمر، وأعلن نفسه ملكاً عليها بعد أن ادعى أن الخليفة قد فوضه في أمرها.

وفي إفريقية فعل العباس وصحبه بأهلها العديد من مظاهر التمسق، والفساد، فأرسل إليه أحمد بن طولون جيشاً استطاع أن يهزمه، ويعود به إلى مصر؛ حيث زجَّ به في السجن بعد أن صُرد بالسياط هو ومن كان معه. (٢)

ثم جاء خماروية بن أحمد بن طولون مفتتحاً عهده بقتل أخيه العباس وهو في سجنه بعد أن رفض مبايعته، ومن ثم ضمن بذلك عدم منازعته له في الحكم، ثم استدار على الثروة التي تركها والده؛ لينفق منها دون حساب لشعب مصر، وقد تجلّى هذا الإنفاق فيما قد أعده من جهاز

(١) البلبوي [أبي عبد الله محمد بن أحمد]: سيرة أحمد بن طولون، تحقيق: محمد كرد علي، للهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ٢٠٠٣، ص ٤٤٥، سيده إسماعيل كاشف: أحمد بن طولون، المؤسسة العامة للتأليف والنشر، القاهرة، بدون تاريخ، ص ١١٠.

(٢) البلبوي: سيرة أحمد بن طولون، ص ٢٦٤، ٢٦٨؛ سيده إسماعيل كاشف: أحمد بن طولون، ص ١٨.

لابنته قطر الندى تزوجها من الخليفة العباسي المعتضد. هذا الأمر الذي طالما وصفته المصادر العربية بما لا يصدق عقل، والذي أدى بالخزائفة المصرية إلى ما لا يصدق عقل أيضاً، حتى قيل : إن الخليفة العباسي أراد بتلك الزيجة إفقار الخزائفة المصرية، وبالفعل لم تستطع الدولة الطولونية البقاء أكثر من عشر سنوات بعد مقتل خماروية؛ حيث ساءت الأحوال الاقتصادية، وعمت الفوضى، والأضطرابات، وتنافس المتنافسون على السلطة، وأصبح الجند يتدخلون في تولية، وعزل الخلفاء، فكثر الفساد في الأسرة الطولونية، وبدأت سلسلة أخرى من الاغتيالات السياسية. (١)

تولى أبو العساكر جيش بن خماروية المملطة، وكان طفلاً صغيراً، أهمل الجيش، والرعية، وانغمس في اللهو، والشراب، ولم يحسن إدارة البلاد، قتل عمه مضر بن أحمد بن طوئون فثار عليه الجند، وقتلوه، ونهبوا داره، ثم تولى هارون بن خماروية، فقتله عماء شيبان، وعددي، فظل الفساد ينخر في الجسد الطولوني فطمعت الخلافة العباسية في استعادة مصر إلى حوزتها مرة أخرى، وقد نجح محمد بن سليمان الكاتب في ذلك ودخل مصر على رأس جيش كبير استطاع أن يقضي على ما تبقى من أطلال الدولة الطولونية، ويسعى في مصر فساداً دون رحمة، أو خجل، حيث قام وجنده بنهب الدور المصرية، واستباحة حرماتها، والاعتداء على نسائها، كما أسروا العديد من الرجال، والنساء بعد أن جردوهم من أموالهم، كما أجبروا الناس على الخروج من ديارهم كرفاء، وغير ذلك الكثير من اللطائف التي وصفها لنا المقرئ في مأساة مروعة عاشها أهل مصر. (٢)

ظل الوضع في مصر يسير من سيئ إلى أسوأ تحسب ظلم، واستبداد وفساد الولاة العباسيين حتى استقل بها محمد بن طنج الإخشيد،

(١) للكندي : ولاة مصر، ص ٢٤٧، ٢٤٨؛ المقرئ : الخطط، ج ٢، ص ٣٢١،

٣٢٢؛ مخر السيد عبد العزيز سالم؛ للشائعات، ص ١٣.

(٢) للمقرئ : الخطط، ج ٢، ص ٣٢٢؛ ابن تاري بردي : النجوم، ج ٣، ص ٨٠.

وأسس الدولة الإخشيدية التي لم تكن أحسن حظاً من الدولة الطولونية بمجرد وفاة مؤسسها محمد بن طنج الإخشيد، الذي وقع ابنائه أنجسور - محمود - ، وعلي فريسة لأطماع كافور الإخشيد معلمهم وصاحب الوصاية عليهم، والذي لم تبراأ يذاه من تهمة قتلهم تباعاً بالسم لينفرد بالسلطة نونهم، وذلك بعد أن سيطر على مقاليد الأمور في مصر، وأصبح الحاكم الفعلي لها، وقد كان كافور هذا محباً للمال يقبل الرشوة، ففي نهاية عهده أخذت النكبات، والكوارث تتوالى على مصر، وكأن الطبيعة أرادت أن تعبر عن غضبها من ظلم، وفساد الحكام، وبمجرد وفاة كافور انفرط عقد الدولة الإخشيدية، وتصارح الطامعون في السلطة، والحكم؛ مما أدى إلى زوال الدولة الإخشيدية كسابقتها، وقيام أخرى على أنقاضها. (١)

[٢] الفساد الاقتصادي:

كان الاقتصاد في مصر يعتمد في المقام الأول على الزراعة التي كانت، ومازالت المحرفة الرئيسة لأهلها، وقد اعتمدت الزراعة في مصر على نهر النيل؛ لذلك كان من الطبيعي أن يهتم العرب منذ فتحهم لمصر بمقاييس النيل لمعرفة مقدار الزيادة، والنقصان فيه، وعلى هذا الأساس تتم للزراعة، وكذلك تقرر نسبة الخراج، وكان وجوب الخراج في مصر يستلزم وصول مقياس النيل إلى سنة عشر ذراعاً، وهو المقدار المناسب الذي يلزم لري الأراضي المصرية حتى تصل إلى حد الاستكفاء، فإن زاد عن ثمانية عشر ذراعاً أدى ذلك إلى حدوث فيضان، وبالتالي غرق الأرض الزراعية، وإن قل عن أربعة عشر ذراعاً أدى ذلك إلى جفاف الأرض، وحدثت "مجاعة" بين البشر (٢)، لذلك اهتم العرب بتوفير كل ما

(١) للكندي : ولاة مصر، ص٣١٢، ٣١٤؛ المقريزي : الخطط، ج٢، ص٣٢٩؛

سيده إسماعيل كاشف : مصر في عهد الإخشيديين، مطبعة جامعة فواد، القاهرة،

١٩٥٠م، ص٩٦، ٩٧؛ سحر السيد عبد العزيز سالم : للشاملات، ص١٦٠.

(٢) ابن ظهيرة : الفضائل الباهرة في مجلس مصر والقاهرة، تحقيق : مصطفى

المعيا وآخرون، مطبعة دار الكتب، القاهرة، ١٩٦٩، ص١٦٠؛ المقريزي :

المصدر السابق، ج١، ص٩٦؛ ابن تغري بردي : النجوم، ج١، ص١٥٤؛

سحر السيد عبد العزيز سالم : المرجع السابق، ص٧.

يستلزم الزراعة، والري، فناموا بحفر الترعة، وإقامة الجسور، وبناء القناطر؛ لضمان وصول الماء لكل رقة في الأرض سواء في حالة ارتفاع منسوب النيل أو انخفاضه. (١)

و نظراً لثروات مصر العديدة فقد عادت للجزية مصدراً مهماً من مصادر الدخل التي ترسل إلى الخلافة؛ وكذلك الخراج الذي كان يرسل جزء منه إلى بيت مال الخلافة، والآخر يمتأثر به الولاة؛ لذلك، فكثيراً ما كان يتم اختيار الولي بناءً على قدرته على توفير أكبر قدر من الخراج؛ لذا حرص الولاة على إرضاء الخليفة في حاضرتهم، ومن ثم عملوا على استنزاف موارد مصر دون النظر إلى أهلها، وربما كان هذا سبباً مباشراً لعزل عمرو بن العاص من ولاية مصر - لرفضه زيادة الخراج عن الحد المألوف - وتولية عبد الله بن أبي السرح بدلاً منه، فزاد عبد الله في جمع الضرائب، غير أنه قد أرقق للمصريين فناروا عليه، وكرهوا ولايته. (٢)

وقد تعرضت مصر في عصورها الإسلامية المختلفة للكثير من الأزمات (٣) الاقتصادية التي أدت بدورها إلى ظهور الفساد الاقتصادي بشكل كبير، حيث ارتفعت أسعار السلع الغذائية بشكل واضح نتيجة

(١) هويدا عبد العظيم رمضان : المجتمع في مصر الإسلامية من الفتح العربي إلى العصر الفاطمي، تحقيق : عبد العظيم رمضان، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠١، ص ١٤٩.

(٢) ابن تغري بردي : النجوم، ج ١، ص ١٦٦، لفريد. ج. بيلتر : فتح العرب لمصر، تعريب : محمد فريد أبو حديد بك، مكتبة مجبولى، القاهرة، ١٩٩٠، ص ٤٨١.

(٣) الأزمات : هي جمع لكلمة أزمة والأزمة تعني الشدة أو التحط، تتنوع الأزمة بين مالية، سياسية، اقتصادية، وعادة تعدت الأزمة نتيجة لعوامل طبيعية وربما تقتصر في فئة بعينها وهي الفئة للمحدودة من المجتمع، للمزيد، راجع: ابن منظور : لسان العرب، تحقيق : عبد الله علي الكبير وآخرون، دار المعرف، القاهرة، ص ٧٤، ٧٥؛ عثمان علي محمد عطا : الأزمات الاقتصادية في مصر في العصر للمملوكي وأثرها السياسي والاقتصادي ٦٤٨ - ٩٢٣هـ / ١٢٥٠ - ١٥١٧م، للهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ص ١٥.

لاحتكار بعض للتجار لها، هذا الأمر الذي أدى إلى حدوث مجاعة^(١) بين المصريين، وكانت هذه الأزمات تحدث في الغالب نتيجة لاختلاف منسوب النيل سواء بالزيادة أو النقصان عن الحد المطلوب، وكثيراً ما كان يحدث بسبب إهمال الولاة لشؤون الأراضي الزراعية، ومن ثم يعجز الوالي عن حل تلك الأزمة فيلجأ إلى زيادة الضرائب على المصريين؛ مما يضطرهم للقيام بثورة ضد ظلم الوالي غير أن تلك الثورات في كثير من الأحيان لم تأت بشاها. (٣)

لقد كانت أولى الأزمات الاقتصادية التي تعرضت لها مصر في العصر الإسلامي في ولاية عبد الله بن عبد الملك بن مروان (٨٦م - ٧٠٥م)، وفيها وصل منسوب النيل إلى ثلاثة عشر ذراعاً؛ مما تسبب في عدم وصول الماء إلى الأرض الزراعية، فجفت الأرض، وانعدم الزرع، وارتفعت الأسعار، وعاش الناس في شدة لم يعهدها من قبل، ووقف والي مصر مكتوف الأيدي دون أن يتخذ أي إجراء لحل تلك الأزمة، إضافة إلى أنه قد عُرف بين المصريين بقول الرشوة فكهوه وتشاءموا منه وأطلقوا عليه مكيساً وقال فيه أحد شعراء ذلك العصر :

إذا سار عبد الله من مصر خارجاً فلا رجعت تلك البغال الخوارج

أتى مصر والمكبان واقف مغربين فما سار حتى للمذ قالمج. (٣)

وفي عهد خماروية بن أحمد بن طولون حدثت أزمة اقتصادية أخرى (٢٧٨هـ / ٨٩١م) حيث بلغ منسوب النيل حد الوفاء، ثم انخفض فجأة، فلم تستوف الأرض حاجتها من الماء، فتأزمت الأمور، وفسدت

(١) المجاعة : هي ندرة المواد الطبيعية وربما انعدامها وهي مأخوذة من الأصل جاع أي خنت معدته من الطعام وتحدث المجاعة بسبب عوامل طبيعية أو بشرية وتعم كل المجتمع بعكس الأزمة. راجع : عثمان علي محمد عطا: المرجع السابق، ص ١٥.

(٢) هويدا عبد العظيم : المجتمع في مصر الإسلامية، ص ٢٠٣.

(٣) المقرئ بن إني الدين أحمد بن علي : إضاءة الأمة بكلف الغمة، تحقيق : جمال الدين الضلال، ط ١، مكتبة الثقافة الدينية، بورسعيد، ٢٠٠٠، ص ٢١.

الأحوال، وارتفعت الأسعار، ولم يجد الناسُ مائةِ شربونَه فلجأوا إلى الحفائرِ شربونَ منها، غير أن خماروية قد تغلب على تلك الأزيمة، وفرض عقوبات شديدة على التجار الذين استغلوا هذه الظروف، وتلاعبوا بالأسعار، واحتكروا السلع، وقد تكررت هذه الأزيمة عام ٢٩٠هـ / ٩٠٢م حيث قلَّ منسوب النيل إلى ثلاثة عشر ذراعاً، وأربع أصابع، وقد استمرت هذه الأزيمة ثلاث سنوات عانت مصر فيها أشد العناء، ولم تجد للدولة الطولونية من يتصدى لها، ولاسيما بعد مقتل خماروية، واضطراب الأحوال، وكثرة الفتن والفساد؛ مما عَجَلَ بزوال الدولة الطولونية. (١)

وقد أدى اضطراب الأحوال الإدارية، والتصارع على السلطة في الدولة الإخشيدية إلى اتساع خطر الأزمات الاقتصادية، حيث حدث هبوط في منسوب النيل استمر تسع سنوات متتالية بدأت من ٣٥٢هـ (٢)، عاصرت عهد أبو لقاسم أنجور. واستمرت حتى بعد وفاة كافور الإخشيد؛ مما أدى إلى حدوث مجاعة أدت إلى صراخ الناس من غلو الأسعار، وانعدام التقمح، فسارعوا إلى الفسطاط، واقتحموا انجماع العتيق، وكان ذلك يوم الجمعة فمات رجل وامرأة من كثرة الزحام، ولم تصل الجمعة يوماً، وازدادت الأمور سوءاً وعمَّ قحطٌ شديد، أعقبه وباء شديد أصيب فيه الناس بالطاعون (٣) فمات منهم للكثير حتى عجز الناس عن دفن موتاهم،

(١) نفسه، ص ١٢٢. أحمد السيد الصاوي: مجاعات مصر للفاطمية، لسياب ونساج،

ط ١، دار التضامن للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٨، ص ٢٥.

(٢) الطاعون Black death: وباء خفي سمي بالموت الأسود، يظهر على شكل ورم شديد يصاحبه قتهاب شديد الإغم، يبدأ باللون الأحمر ثم الأخضر ويصل إلى الأسود وهذا أسوأ درجاته، يظهر تحت الإبط وخلف الأذن، ينتقل عن طريق اللتفص أو السعال وكذلك عن طريق الدم، ينتشر في الأماكن القفرة والملوثة، لم يكن له علاج معروف من قبل حتى تم التوصل إلى علاجه المتمثل في مركبات السلفا ولفنترامبيكين والاستريلوماسين. للمزيد، راجع: بول ديكرويف: قصة فمكروب، ترجمة: أحمد زكي، مطبعة لجنة التأليف والترجمة، ١٩٦٩م، ص ٣٦٦.

(٣) يذكر الصاوي أن هذه الأزيمة قد سبقها أزمة مماثلة استمرت نفس المدة (تسع

=

فألقوا بالجنث في النيل، فازداد الأمر سوءاً، وعمَّ السلب، والنهب في قرى مصر بحثاً عن الطعام. (١)

ولم يتوقف الفساد الاقتصادي عند هذا الحد من إهمال الولاة لشؤون مصر، وانشغالهم عن أزماتها، وعدم مبالاهم بصراخ أهلها، بل تعدى ذلك بكثير عندما وقف الوالي عاجزاً أمام حل تلك الأزمة التي حلت بأهل مصر، وراح يبحث عن البديل الذي يوفر له، وللخليفة المال بعيداً عمّا يعانيه أهلها، وقد تمثل هذا البديل في المغارم التي فرضها على المصريين، والذي كان جمعها في تلك الظروف الاقتصادية السيئة يستلزم المزيد من القوة، والعنف، والتسوية، ولم يكتف الولاة بجمع المغارم الشرعية فحسب، بل سارعوا إلى فرض مغارم غير شرعية أزهقت كاهل المصريين؛ حيث لجأ أحمد بن المدير الذي تولى خراج مصر (٢٤٧هـ - ٢٥٥هـ) إلى فرض ضريبة على النطرون بعد أن كان مباحاً للجميع، كما حجر على الملح، وأقر ضريبة على الكحلأ التي كانت ترفعها لبهاثم أسماها ضريبة للمراعي، كما قرر ضريبة أخرى على صيد البحر سميت بضريبة المصائد، وقد ظلت هذه الضرائب تجمع لفترة طويلة بعد عزل ابن المدير، ولم يجد المصريون أمامهم سوى المقاومة السلبية التي تمثلت في هروبهم من الأرض الزراعية. (٢)

ولم يقف الوالي عاجزاً عن البحث عن طرق أخرى للحصول منها على الأموال، فلجأ بعضهم إلى غش العملة (٣) المستخدمة في عملية

سنوات) بدأت من (٣٤١هـ) واستمرت حتى (٣٤٩هـ) كثرت فيها الفتران وقضت على المحاصيل ثم عقبها انخفاض منسوب النيل، للمزيد، راجع : أحمد العبد الصلوي : المرجع السابق، ص ٢٠، ٢١.

(١) المقرئزي : إغائة الأمة، ص ٢٤ - ٢٦.

(٢) المقرئزي : الخطوط، ج ١، ص ١١٨ سيدة إسماعيل كاشف : مصر في عهد الإخشيديين، ص ٦٤.

(٣) العملة : يعتبر عبد الملك بن مروان أول من ضرب النقود في الإسلام، أي جعلها نقداً واحداً في كل البلاد وكان نقداً عربياً خالصاً نقش بدمشق وعرف بالدينار

البيع، والمراء، والمداولة بين الناس؛ حيث استطاع لولاة العباسيون غش العملة، وذلك بالعمل على إنقاص وزنها التشريعي، والاستفادة بفارق الوزن لصالحهم الخاص، وكان هذا قبل مجيء الدولة الطولونية^(١)، ويؤكد لنا د/ العبادي أن فساد الحكام، وتصارعهم على الحكم كان سبباً مباشراً تقاسم المسؤولية مع الأزمات الطبيعية في حدوث المجاعات الاقتصادية، وتبعاتها التي عانى منها شعب مصر لفترة طويلة، وإن كان السيوطي قد أكد منذ زمن بعيد أن خراب مصر قد انحصر في جفاف نيلها، فقد أضافت الأحداث فساد أهلها إلى جانب جفاف نيلها.^(٢)

[٢] الفساد الإداري:

كانت مصر قبيل دخول العرب مباشرة تنقسم إدارياً إلى قسمين رئيسيين، هما: مصر العليا، ومصر السفلى، وقد انقسم هذان القسمان بدورهما إلى عدة أقسام، أطلق على الواحد منها اسم "كورة"، وكانت مصر تضم ثمانين "كورة"، كل كورة تحتوي على عدة "قرى"، وبكل من هذه الأقسام مسؤول إداري، وقد حرص العرب منذ دخولهم مصر على بقاء هذا النظام الإداري المحكم كما هو دون تغيير، أو تبديل، فضل أهل مصر هم الذين يقومون بإدارتها^(٣)، أما العرب فقد اكتفوا لأنفسهم بشغل

الخضنة. للمزيد، راجح : عبد المتعال محمد الجبري : أصالة النواوين والنقود العربية، ط١، مكتبة وهبة، القاهرة، ١٩٨٩، ص١٨٣ فوزي عطوي : في الاقتصاد السيلسي والنقود والنظم النقدية، ط١، دار الفكر للعربي، بيروت، ١٩٧٩، ص٧٣.

(١) ضيوف الله محمد يحيى الزهراني : زيف النقود الإسلامية من صدر الإسلام حتى نهاية العصر المملوكي، ط١، مكة المكرمة، ١٩٩٣، ص٢٦.

(٢) أحمد مختار العبادي : في التاريخ العباسي والقاسمي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ١٩٩٣م، ص٢١.

(٣) ابن دقاق إبراهيم بن محمد بن (تتمر العلاتي) : الانتصار لوسط عقد الأماص في تاريخ مصر وجغرافيتها، القسم الأول، تحقيق : لجنة إحياء التراث العربي، دار الأفاق الجديدة، بيروت، ص٣.

بعض المناصب للرئاسة التي توهمهم بالإشراف على الإدارة بوجه عام، على أن هذه المناصب لم تكن طويلة الوقت في بسد للعرب، بل تخير متولوها طبقاً لسياسة الدولة، فشغلها الفرس حيناً، والترك حيناً آخر، على أن هذا التخير لم يكن بمؤثر ملحوظ على مصر. ^(١) وإن كان هذا النظام على ما يبدو من الوهلة الأولى محكماً في شكله إلا أنه لم يكن طيلة الوقت محكماً في عمله فقد انتشرت بعض مظاهر الفساد بين أهم أعضائه كالآتي:

(١) الوالي :

كان للوالي هو رأس النظام الإداري، وكبير موظفي الولاية؛ حيث كان بمثابة نائب الخليفة في ولايته؛ لذلك فقد كان يختار من قبل الخليفة نفسه، وكانت وظيفة الوالي في المقام الأول وظيفة اقتصادية الغرض منها جمع الخراج، وإرساله إلى قصر الخلافة؛ لذلك فقد كان اختيار الوالي في كثير من الأحيان يتم بناء على قدرته على جمع الخراج، وقد أطلق على الوالي في بعض الأحيان لقب 'أمير'، ويقال للدار التي يكون فيها دار الإمارة، وقد حكم مصر منذ أن فتحها العرب حتى قيام الدولة الناطمية مائة واثنا عشر أميراً، لم يكن واحد منهم من أهلها، وقد حرص هؤلاء الولاة على أن يكون الحكيم في مصر حكماً مركزياً، وذلك لعنم إعطاء الفرصة لعمال الأقاليم المختلفة بالاستقلال محلياً بعيداً عنهم، ومن ثم أصبحت كل الأمور كبيرة كانت، أم صغيرة تعود إلى الوالي. ^(٢)

كما كان الوالي يقوم بإمامة المسلمين في الصلاة، وكذلك قيادة الجيوش؛ لذلك فقد جمع بين المنطقتين المياسية، والدينية، وكان بعض الولاة يستغلون مناصبهم في جمع المال، ولاسيما في ظل قصر مدة

(١) سيدة إسماعيل كاشف : مصر في فجر الإسلام، ص ٢٠، هويدا عبد العظيم : المجتمع في مصر الإسلامية، ص ٢٢٦.
(٢) ابن تغري بردي : النجوم، ج ١، ص ٢١٩، هويدا عبد العظيم : نفس المرجع، ص ٢٣٩.

ولايتهم، وإن كان عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - يقوم بتسجيل أموال الولاية قبل توليهم للولاية، ثم بحاسبتهم بعد ذلك فيما يزيد عليها - بيان ذمة مالية في عصرنا للحالي - إلا أن هذا الأمر لم يستمر طويلاً في ظل انشغال الخلفاء بولاياتهم، فتضخمت ثروة الولاية بدون وجه حق، ولم يجد الخليفة بدءاً من تجريد هؤلاء الولاية من أموالهم، وذلك عن طريق المصادرة؛ حتى لا تكون هذه الأموال قوة مضادة تستخدمها الوالي ضد الخليفة لاستقلال بالولاية بعيداً عنه، وفي كثير من الأحيان كان يصاحب هذه المصادرة عزل الوالي، مثلما حدث مع عبد الله بن عبد الملك بن مروان الذي ولى مصر (٨٥ - ٩٠ هـ / ٧٠٤ - ٧٠٨ م) والذي أشيع عنه أنه محب للمال، ومرئش؛ يأخذ من مال الخراج، فعزله الوليد بن عبد الملك بعد مصادرة أمواله. (١)

وفي كثير من الأحيان كان الخليفة يفشل إدارياً في السيطرة على الوالي، مما كان سبباً في استقلال هؤلاء الولاية بمصر بعيداً عن الخلافة، وهذا ما حدث في ولاية المصري بن عبد الحكم وأبنائه، وعبد العزيز الجروي وابنه، الذين استقلوا بمصر ما يقرب من العشر سنوات بعيداً عن النزاع الذي كان دائرة بين الأمين والمأمون، فكانوا بمثابة اللجنة الأولى لظهور الدول المستقلة في مصر فكانت الدولة الطولونية ولحقت بها الدولة الإخشيدية^(٢)، كذلك كان بعض الولاة يهملون في شؤون الولاية ويقفون مكتوفي الأيدي أمام الأزمات التي تتعرض لها مصر؛ مما أدى إلى قيام العديد من الثورات ضد ظلم وفساد الولاة؛ هذا الأمر الذي أدى إلى عدم الاستقرار في نشر الفساد في باقي أعضاء الجهاز الإداري. (٣)

(١) للكهدي : ولاية مصر، ص ١٨٠ ابن كثير يردني : النجوم، ج ١، ص ٢١١.

(٢) مدينة إسماعيل كاشف : مصر في فجر الإسلام، ص ١٦٢، ١٦٣.

(٣) المقرئزي : الخطوط، ج ٢، ص ٩٩.

(٢) متولي الخراج :

يرى بعض المؤرخين^(١) أن متولي الخراج هو الرجل الثاني في الولاية من حيث الأهمية، والمكانة بعد الوالي، وإن كان من الواضح أن متولي الخراج لا يقل أهمية، ولا مكانة عن الوالي، بل إنه في كثير من الأحيان يفوق الوالي في الأهمية، والمكانة؛ لذلك حرص الكثير من الولاة على ضم الخراج إليهم؛ وذلك لدعم قوتهم، في المقابل حرص الخلفاء على فصل متولي الخراج عن الوالي، وذلك كما رأينا لإضعاف قوة الوالي، هذا الأمر الذي أدى إلى عدم قبول بعض الولاة الولاية مباشرة بدون السيطرة على الخراج، وهذا ما فعله عمرو بن العاص عندما أركب الخليفة عثمان بن عفان -رضي الله عنه- أن يوليه الحرب، ويولي عبد الله بن أبي العجاج الخراج فرفض عمرو، وقال مقولته المشهورة: "أنا إذا كمنك البقرة بقرئها، وآخر يحلبها، وترك الولاية."^(٢)

وكان متولي الخراج - إن لم يكن الوالي نفسه - يتشدد في كثير من الأحيان في جمع الأموال من المصريين، هذا الأمر الذي تطلب منه اتباع كافة الأنساب المشروعة، وغير المشروعة في ذلك، ولم يكن متولي الخراج في هذه الحالة هو الوحيد المسؤول عن اتباع هذه الطرق، بل كان ما يتدرج تحته من الإداريين، والموظفين يتبعون هذا الأسلوب، بما لمصالحهم الشخصية، أو إرضاء للوالي؛ بل إننا نرى أن متولي الخراج نفسه كثيرًا ما يفعل ذلك؛ إرضاء لما هو أعلى منه، وهو الخليفة؛ بل لم يكن يأمر من الخليفة نفسه، ولا عجب!! فنحن نرى الخليفة سليمان بن عبد الملك يكتب إلى والي مصر أسامة بن زيد التتوخي (٩٦ - ٩٩ هـ / ٧١٤ - ٧١٧ م)، (١٠١ - ١٠٥ هـ / ٧١٩ - ٧٢٣ م) يأمره بزيادة الضرائب، وجمع لكبر قدر من المال دون النظر لأهل مصر، فكان أسامة

(١) هويدا صيد العظم : المجتمع في مصر الإسلامية، ص ٢٤٢.

(٢) ابن عبد الحكم : فتوح مصر، ص ٣٣٣؛ ابن تغري بردي : المعجم، ج ١، ص ٦١.

يتشدد مع الناس حتى ضاقوا به^(١)، كذلك كان يفعل عبد الله بن الحجاب (١٠٥ - ١١٦ هـ / ٧٢٣ - ٧٣٥ م) الذي ولي خراج مصر منذ زمن الخليفة هشام بن عبد الملك، وقد ضاق به القوم حتى قاموا لأول مرة بثورة عبروا فيها عن مدى ظلم، وتعسف متولي الخراج معهم، ثم تولت الثورات بعد ذلك حتى وصلت لذروتها في عهد أحمد بن المديبر (٢٤٧ - ٢٥٥ هـ / ٨٦١ - ٨٦٨ م) الذي ابتدع ضرائب لم تكن موجودة من قبل، مما اضطر الناس للهروب من أراضيهم في محاولة منهم لرفع الظلم عنهم.^(٢)

(٢) صاحب البريد :

تعد وظيفة صاحب البريد من الوظائف للرئاسة في الدولة الإسلامية، ثم تكن هذه الوظيفة قائمة في عهد الخلفاء الراشدين، وإنما بدأت في عصر الدولة الأموية، ثم تطورت في عهد الدولة العباسية نظراً لانتساع رقعة الدولة وكثرة مهامها، وكان صاحب البريد يلعب دوراً مهماً في نقل الأخبار من الولايات الإسلامية إلى الخليفة، والعكس، أي أنه كان عيناً للخليفة في ولاياته المختلفة؛ لذلك حرص خلفاء على الاهتمام بعمارة للطرق المؤدية إلى بغداد، وتوفير كل وسائل الراحة لصاحب البريد حتى تتم عملية نقل وتلقي الأخبار بسرعة حتى أصبحت كل الطرق تؤدي إلى بغداد مثلما كانت كل الطرق تؤدي إلى روما.^(٣)

لم تستطع هذه الوظيفة أن تحافظ على عفافها طوال الوقت؛ بل أصابها ما أصاب غيرها من مظاهر الفساد، فأصبحت مهمة صاحب البريد الأولى هي التجسس على ولاة الأقاليم، وعمالها لصالح الخليفة، ثم تطور الأمر ليصل إلى التجسس على الخليفة نفسه، وذلك في فترة ضعف

(١) ابن تغري بردي : المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٥٩ سيدة إسماعيل كاشف :

مصر في فجر الإسلام، ص ٢١٠.

(٢) المقرئبي : الخطوط، ج ٢، ص ١٩٩ فاطمة مصطفى عامر : تاريخ أهل الذمة في مصر الإسلامية، ج ٢، الهيئة العامة للكتاب، للقاهرة، ٢٠٠٠، ص ٥٩.

(٣) سيدة إسماعيل كاشف : مصر في فجر الإسلام، ص ٢٦ - ٢٧.

للخلافة، ولم يقتصر الأمر على هذا فحسب؛ بل أصبح صاحب البريد بما لديه من معلومات يستطيع التحكم في سير الأمور في الولاية، وقد ظهر هذا واضحاً في فترة ولاية أحمد بن طولون عندما اتفق شقيق الخادم - صاحب البريد - مع أحمد بن المدير - صاحب الخراج - للتخلص من أحمد بن طولون تفضيلاً لمصالحهم الشخصية، فأرسل شقيق برسالة للخليفة يبلغه فيها بأن أحمد بن طولون قد بادر برفع راية العصيان في محاولة منه بالاستقلال عن الخلافة، فتوجس الخليفة منه خيفة، وأرسل إلى أحمد بن طولون يستدعيه على الفور، غير أن أحمد بن طولون اكتشف هذه الحيلة، وتغلب عليها بإرسال الهدايا، والمال (الرشوة) للخليفة قاطمأنت نفسه. (١)

أما أحمد بن طولون مؤسس للدولة الطولونية فقد أيقن من البداية أهمية صاحب البريد، لذلك فقد اعتمد عليهم اعتماداً كبيراً لإدارة شؤون دولته، وكان يختار لذلك المقربين له، كذلك عمل على وجود عامل للبريد ينقل له الأخبار من حاضر الخلافة نفسها، ولاسيما في ظل الخليفة مع أبي أحمد الموفق أخي الخليفة المعتمد، كذلك كان يوافيه بالمؤامرات التي تنور هناك، ولم يكتف أحمد بن طولون بذلك بل إنه على ما يبدو عثق للتجسس، وسأل إلى خذعه، فأحتفظ بنظام للبريد، واحتل الديار المصرية، إضافة إلى الجواسيس المحترفين، وترى ميده كاشف أنه ربما كان يوكل الأمور الأقل خطورة إلى صاحب البريد، أما الأمور الأكثر خطورة فكان يتركها لجواسيسه المحترفين. (٢)

وعلى ما يبدو أن عمل صاحب البريد في ذلك الوقت جعل التشبهات تحوم حوله حتى كرهه الشعب، وتوجسوا منه خيفة على الرغم

(١) ابن تغري بردي : فنجوم، ج ٢، ص ٤ محمد ماهر حمادة : الوثائق السياسية والإدارية للعائنة للعباسيين المتتالية (٢٤٧ - ٦٥٦م) - ٨٦١ - ٢٥٨م)، دراسة ونصوص، ط ٢، مؤسسة للرسالة، ١٩٨٥، ص ٣٣٢.
(٢) البلوي : سيرة أحمد بن طولون، ص ٤٢، ٥٦، ١٥٧ ميده إسماعيل كاشف : أحمد بن طولون، ص ١٧٢.

من أن هذه الوظيفة كانت فاصرة على الخليفة، وعماله أي أن الشعب لم يكن له علاقة بها، غير أن هذه الصورة تتضح من تلك الواقعة التي رواها البلوي، حيث إنه كانت هناك امرأة أعرفية لها حظوة عند ابن طولون، فتصدته في إيجاد عمل لابنها، فأمر ابن طولون الحسن بن مهاجر صاحب البريد بذلك، فعينه للحسن في البريد فعادت المرأة شاكية إلى ابن طولون ترجوه بإبعاد ابنتها عن هذا العمل الذي سيجلب عليه العار، وذكرت له أنها تفضل للجوع للشريف، عن الكسب المشبوه، فعزله أحمد عن هذه الوظيفة، كذلك كان لمحمد بن الإخشيد صاحب بريد قسيم في بغداد يأتيه بأخبار الخليفة نفسه. (١)

(٤) صاحب الشرطة :

يعتبر نظام "العسس" الذي يتولى صاحبه حراسة الناصر ليلاً، وحمائيتهم هو الأساس الأول لوجود نظام الشرطة في الدولة الإسلامية، وقد وجد هذا النظام في عهد الرسول (ﷺ)، ثم أبي بكر، وتوطدت دعائمه في عهد الخليفة عمر بن الخطاب الذي كان يقوم بهذا الدور بنفسه، وقد اختفى هذا النظام مع ظهور الشرطة التي أصبحت تقوم بالدور نفسه، بالإضافة إلى بعض المهام الأخرى التي من شأنها حماية المواطنين ليلاً، ونهاراً، وقد اختلفت الآراء حول نشأة الشرطة، ويرى البعض أنها نشأت زمن عثمان بن عفان، ويرى البعض الآخر أنها نشأت في ولاية عمرو بن العاص على مصر^(٢)، ويرى البعض الآخر أنها ظهرت في زمن للخليفة الرابع علي بن أبي طالب الذي قام بتنظيم نظام العسس في صورة هيئة متخصصة أطلق عليها اسم الشرطة. (٣) ولذا كان الأمر قد بدأت

(١) بلوي : سيرة أحمد بن طولون، ص ٤٣؛ سيرة كاشف : أحمد بن طولون، ص ١٧٢؛ محمد جمال الدين سرور : العولة لفاطمية في مصر سياستها الداخلية ومظاهر الحياة فيها، دفر الفكر للعربي، القاهرة، ص ٣٨.

(٢) فتحة للتبرلوي : تاريخ النظم والحضارة الإسلامية، ط ١، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨١م، ص ١٢٣، ١٢٤.

(٣) محمد إبراهيم الأصيبي : الشرطة في النظم الإسلامية ولقوانين الوضعية دراسة مقارنة بين الشريعة والقانون، للمكتب العربي الحديث، الإسكندرية، ص ١٣،

الشرطة كغيرها من الأنظمة بشكلها البسيط الذي أخذ في التطور مع اتساع رقعة الدولة الإسلامية، كما عرفوا القاتمين عليها : أنهم طائفة من أعوان اللوائي عرفوا بعلامات مميزة، وعملوا على حفظ الأمن، والنظام داخل الولاية. (١)

لقد كانت وظيفة صاحب الشرطة من الوظائف المهمة، والجليلة، فقد كان الوالي يتولاها بنفسه في كثير من الأحيان، وكان صاحب الشرطة بمثابة نائب الوالي في الولاية يوم الناس في الصيالة في حالة مرض للوالي، وكذلك يحكم الولاية في حالة غياب الوالي، لذلك كان يتم اختياره عن طريق الوالي نفسه، إلا في حالات نادرة كان الخليفة يقوم بهذا الدور - كما فعل المأمون عام ٢١٧هـ عندما حضر لمصر لقمع ثورة القبط -، كذلك كان الخليفة يقوم بتعيين صاحب الشرطة بدلًا من الوالي في حالة وفاة الوالي، أو عزله، وعلى الرغم من أن وظيفة صاحب الشرطة كانت تقتضي عليه نشر الفضيلة، وتحقيق الأمن بين الناس، فإنه في كثير من الأحيان كان مثارًا للجدل، وعنوانًا للفساد؛ لذلك كان يتعرض للعزل، وربما للضرب، والعقاب. (٢)

وفي ولاية حاتم بن هرثمة على مصر ١٩٤ - ١٩٥هـ جعل على شرطته لبنة، ثم عزله بعلي بن المتكبي، ثم عزل عليًا أيضًا بعبد الله الطرطوشي، واستمر علي حتى أقر أمورها، كذلك في ولاية سليمان بن غالب على مصر (٢٠١هـ - ٨١٦م) تشدد صاحب شرطته على المصريين فعزله عن الشرطة بالعباس بن لهيب الحضرمي غير أن عباس بن لهيب قد تشدد هو الآخر على للرعية، والجند الذين وثبوا عليه، وقتلوه فعزله للوالي عن إمرة مصر، كذلك في ولاية نصر بن عبد الله الشهير بكيدر الذي ولي مصر من قبل المأمون ٢١٧هـ، كان بن بسطام صاحب شرطته غير أن كيدر سرعان ما عزله عن الشرطة لمؤامراته وارشوة لرتشاهاء، وذلك بعد أن ضربه بالمسطح في صحن الجامع. (٣)

(١) ابن منظور : لسان العرب، طبعة دار المعارف، جزء شرطة.

(٢) سيدة إسماعيل كاشف : أحمد بن طولون، ص ١٦٣.

(٣) ابن تغري بردي : النجوم، ج ٢، ص ١٤٥، ٢١٨.

(٥) المحتسب :

الحسبة - بكسر الحاء - هي نظام إسلامي ديني، تقوم فكرته على الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، ويعود نظام الحسبة إلى عصر النبوة حيث كان يقوم به الرسول (ﷺ)، إلا أنها قد وجدت بشكل رسمي كأحدى وظائف الدولة في أواخر العصر الأموي - عصر الخليفة هشام بن عبد الملك (١٠٥ - ١٢٥ هـ / ٧٢٤ - ٧٤٣ م) - ثم أصبحت ذات شأن عظيم بعد ذلك، وقد أطلق على من يقوم بأمرها اسم المحتسب، ومن أهم اختصاصاته : مراقبة أحكام الشرع فيما هو حادث بين أفراد عني اختلاف طبقاتهم، كما أنه يقوم بالإشراف على الأسواق، والطرق، والباعة، والعمال كما يعمل على حماية الناس من غش التجار، وجشعهم، ولم تكن وظيفة المحتسب في مصر الإسلامية حتى للعصر الطونوني ووظيفة مستقلة، بل كان يقوم بها الولي، أو صاحب الشرطة، أو متولي الخراج، والقبضة، وكان من المفترض في المحتسب للعفة وللقاء حتى لا تسقط هيئته. (١)

ولما كان دوام الحال من المحال، ضاعت هيئة المحتسب، ولاسيما بعد أن أصبح يُختار وفقاً للأهواء، والمصالح الشخصية، فأصاب هذه الوظيفة انفساد الذي أصاب غيرها من وظائف الدولة الإدارية، وأصبح المحتسب تستغل أعماله في جمع المال بأي طريقة غير شرعية فاختل ميزان عدله، ويكفي قولاً ما قاله سيويو المصري من كلمات جمع فيها الحالة التي وصل إليها المحتسب في عصر الدولة الإخشيدية، فقد مر

(١) الماوردي (أبو الحسن علي بن حبيب البصري البخاري) : الأحكام السلطانية والولايات الدينية، مراجعة : محمد فهمي السرجاني، المكتبة التوفيقية للطباعة، القاهرة، ١٩٧٨م، ص٥٠، من الأخوة : معالم القرية في أحكام الحسبة، ص١٥٠، من تيمية [نقي الدين لؤي] : الحسبة في الإسلام ووظيفة الحكومة الإسلامية، ط١، دار للكتاب العربي، القاهرة، ١٩٨٣، ص٤٩، سهام مصطفى أبو زيد : الحسبة في مصر الإسلامية من الفتح العربي حتى نهاية العصر المملوكي، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٦م، ص٧١.

مببويه على المحتسب، وأعوانه، وهم جالسون فقيل لهم : 'ما هذه الأجراس يا لنجاس، والله ما ثم حق لقمتموه، ولا شعراً أصلحتموه، ولا جان لديتموه، ولا نبي حسب وقرتموه، وما هي إلا أجراس تسمع لباطل يوضع، وأفقاه تصفع، وبراطيل تقطع ! لا حفظ الله من جعلك محتسباً، ولا رحم لك ولاية أبداً....'، ولما كان المحتسب هو مقياس صلاح الدولة، وفسادها، فقد وضع مما سبق مدى ما وصل إليه الجهاز الإداري في مصر في تلك الفترة من فساد. (١)

مما سبق يتضح لنا أن صلاح الخليفة، وقدرته الإدارية هي التي تحدد صلاح الولي من فساد، وكذلك للوالي في ولايته بما يمتلك من سلطات يحدد أيضاً صلاح أو فساد من دونه من باقي للجهاز الإداري، وإن كان الولي في كثير من الأحوال كما هو واضح يقوم بجميع هذه المهام سواء كانت وظيفة متولي الخراج، أو صاحب الشرطة، أو المحتسب، وربما القاضي أيضاً، هكذا كان صلاح الرعية مرتبطاً بصلاح الراعي في أغلب الأحيان.

كذلك نلاحظ أن الجهاز الإداري بجميع مستوياته لم يوجد منفرداً، أو قائماً بذاته، وإنما وجد في المقام الأول ليقدم نظام آخر يفوقه في السيادة، والأهمية، ألا وهو "النظام الاقتصادي".

[٢] الفساد الاجتماعي :

(١) طبقات المجتمع المصري وفساد العلاقة بينها :

لم يكن هناك خط فاصل يفصل للحياة الاجتماعية عن بقية جوانب الحياة الأخرى، بل إننا نجد للحياة الاجتماعية هي المحصلة النهائية للتفاعل السياسي، والاقتصادي الذي يدور في مجتمع ما، فإن صلح الأساس السياسي، والاقتصادي صلح للبناء الاجتماعي، وإن فسدت هذا الأساس انهار البناء، وكان للمجتمع المصري وقت الفتح العربي يتألف من عدة عناصر مختلفة تضم العديد من الروم، والأقباش، والأكراد،

(١) سهام مصطفى أبو زيد : للحبة في مصر الإسلامية، ص٧٢.

والديلم، الذين أصبحوا أقلية بعد الفتح ولم يكن لهم تأثير واضح في سير الأحداث مثلما كان تأثير القبط أهل البلاد الأصليين وكذلك العرب الفاتحين. (١)

أ. العرب :

على الرغم من أن العرب للفاتحين قد مثلوا أقلية بالنسبة لأهل البلاد الأصليين فإنهم حرصوا منذ الوهلة الأولى على إقامة مدينة عربية وسط المحيط المصري، فأصبحت لفسطاط حاضرة لها، وقد اتخذت كل قبيلة من القبائل التي فتحت مصر خطة تحمل اسم هذه القبيلة، وقد ظل العرب محتفظين لأنفسهم بالسيادة العليا حيث انصرفوا إلى السياسة، والحرب، وتنفيذ أحكام الله، فاكثفوا بشغل المناصب الرئيسية، مثل الإمارة على مصر، ورئاسة المالية، والشرطة، والقضاء، فابتعدوا عن الزراعة، وسائر المهن الأخرى الذين تركوها في أيدي أهل مصر من القبط، وكونوا طبقة اجتماعية مستقلة، لها شخصيتها التي حتمت عليها عدم الانتماء، أو الامتزاج مع غيرها من الطبقات الاجتماعية الأخرى، وقد انفردت هذه الطبقة بميزات لم تملح لطبقات المجتمع الأخرى، ولا سيما في العصر الأموي، مما أدى إلى ظهور الضغينة، والفتنة بينها، وبين أهل البلاد الأصليين. (٢)

ولم تكن العلاقة بين العرب أنفسهم تسير في خط مستقيم، بل ظهرت روح العصبية القبلية فيما بينهم، وانقسموا على أنفسهم بين بمينة، وقيسية، مما أدى إلى فساد العلاقة فيما بينهم، وقد ظهر هذا واضحاً في الأيام الأخيرة من عمر الدولة الأموية، وقد انعكس هذا بشكل واضح على الحياة الاجتماعية في مصر، ولا سيما في ظل تغيير الولاة المستمر،

(١) علي حسني للخربوطلي : مصر العربية الإسلامية، ص ٥٣.

(٢) البلاذري [أحمد بن يحيى بن جابر] : فتوح البلدان، مراجعة وتحقيق : رضوان محمد رضوان، دار للكتاب العلمية، بيروت، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م، ص ٢٧٦، علي إبراهيم حسن : مصر في العصور الوسطى من الفتح العربي إلى الفتح العملي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٤٧م، ص ٤٤٦.

ومساسة كل وال حسب ميوله قيسياً كان أم يمينياً مما أدى إلى وجود حالة من الفوضى، والاضطراب عمت أنحاء مصر. (١)

وفي ظل تلك الفوضى بدأ العرب يتخلون تدريجياً عن سياسة عدم الاندماج بالمصريين، فأقبلوا على العمل بالزراعة، وامتلاك الأراضي، وقد زاد هذا الاندماج في عصر الخليفة العباسي المعتصم ٢١٨ - ٢٢٧هـ الذي أمر بإسقاط العرب من ديوان الجند، وقطع أعطياتهم، هذا الأمر الذي أدى إلى حدوث تقارب شديد بين العرب، والمصريين صعب من خلاله التمييز بينهما، وقد أدى هذا الاندماج إلى ظهور عنصر جديد يحمل الجينات المصرية والعربية، كما أدى إلى انتشار العربية، والإسلام على نطاق أوسع مما كان عليه فكانت كما يقال : الضارة النافعة. (٢)

بد الأقباط :

لما الأقباط فقد شكلوا الغالبية العظمى من سكان مصر، وتولوا معظم الوظائف الإدارية في مصر كما تولى بعضهم مناصب ولاية الأقاليم المصرية، وكانوا محل عطف الولاة المسلمين، وكانوا يعاملونهم معاملة حسنة؛ وذلك لانضمام بعضهم إلى العرب وقت الفتح، والتزام البعض الآخر بالحياد، غير أن سياسة بعض الولاة قد أدت إلى قيام انقباط بالثورة في بعض الأحيان، وذلك لتشدد هؤلاء الولاة معهم في جباية الضرائب - الخراج -، وكذلك لإقصائهم من مناصب الدولة الكبرى، ولأسيما أن أصبحت الكتابة في الدواوين. منذ عهد عبد الملك بن مروان ٨٧هـ باللغة العربية بعد أن كانت بالقبطية، هذا الأمر الذي جعلهم يرحبون بالعباسيين؛ لأننا منهم أن حياتهم ستكون معهم أحسن حالاً، غير

(١) سيده إسماعيل الكاشف : مصر في فجر الإسلام، ص١٣٧ - ١٣٩؛ جمال الدين

الشيال : تاريخ الدولة العباسية، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٩٣م، ص٩.

(٢) المقرئزي : الخطوط، ج١، ص٣١ - ٣٢، علي حسن الخربوطلي : مصر

العربية الإسلامية، ص٥٥، ٥٦؛ علي إبراهيم حسن : مصر في العصور

الوسطى، ص٢٤٧.

أن العباسيين لم يختلفوا كثيراً عن الأمويين مما جعلهم يعودون مرة أخرى إلى تلك الثورات. (١)

وكانت أول ثورة قام بها القبط ضد الضرائب في الوجه البحري عام ١٠٧هـ / ٧٢٥م في خلافة هشام بن عبد الملك، وفي ولاية عبيد الله بن الحبحاب على الخراج (٢)، ثم تابعت ثورات المصريين لتشمل الوجه البحري أيضاً، ولم تقتصر هذه الثورات على القبط وحدهم؛ بل شاركهم فيها العرب أيضاً بعد أن اندمجوا في المجتمع المصري، وكان ذلك في خلافة المهدي عام ١٦٧هـ؛ حيث تشدد واليه موسى بن مصعب في جمع الخراج، ورفع مقدار الضريبة إلى الضعف كما فرضت ضرائب أخرى جديدة على الأسواق، ولانولب، ظل تعسف الولاة في جمع الضرائب يقابله ثورة من الأهالي حتى قضى المأمون على آخرها ٢١٧هـ، فماد القبط للمقاومة السلبية مرة أخرى. (٣)

وكان أهل النعمة في مصر أهل كتاب من اليهود، والمسيحيين الذين تمتعوا بقدر كبير من الحرية في ظل الإسلام، والتسامح الديني، مما مكنتهم من ممارسة حياتهم الخاصة، وإقامة شعائرهم الدينية دون قيود، أو تدخل إلا في ظروف خاصة ولفترات محددة، وكانت العلاقة بسين أهل النعمة، والمسلمين تفتقر، وتتراخي في دار الإسلام؛ وذلك لأسباب سياسية، أو اقتصادية، وليست دينية؛ حيث كان أهل النعمة في مصر يدفعون الحد الأدنى من الجزية، فلم تكن الجزية متساوية أو محددة للمقدار، حيث ترك تقديرها أو الإغفاء منها للحاكم أو والي على أن ألا يكلف نسبي فوق طاقته. (٤)

-
- (١) السيد عبد العزيز سالم : دراسات في تاريخ العرب (العصر العباسي الأول)، ج٣، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ص٩٢؛ مدينة إسماعيل كاشف، مصر في فجر الإسلام، ص١٢٨.
 - (٢) ابن تغري بردي : النجوم، ج١، ص٢٥٩؛ هويدا عبد العظيم : للمجتمع في مصر الإسلامية، ص٢٠٢.
 - (٣) المقريزي : الخطط، ج٧، ص١٢٧؛ ابن تغري بردي : للمصدر السابق، ج٢، ص٢١٦.
 - (٤) فاهم عبده قاسم : أهل النعمة في مصر في الحصور الوسطى (دراسة وثائقية)،

وقد فرضت الجزية على أهل مصر من الذميين بمقدار دينارين لكل حالم، وأعفى منها النساء، والصبغيين، والعيبد، وكذلك الخنثى، والمجنون، كما أعفى من دفعها للرهبان، ورجال الكنيسة، لذلك كان الكثير من القبط يلجأون إلى الأكير، وحياة للرهبنة في حيلة منهم للتخلص من دفع الجزية، وغيرها من الالتزامات المالية الأخرى التي فرضها عليهم للعرب، غير أن للعرب قد انتهوا لذلك، فقرروا فرض الجزية على الرهبان أيضاً، ففضى بذلك على النافع المادي الذي كان يشجع الذميين على الرهبنة، فظل القبط يلجأون إلى الحيلة، والمرادغة، ثم الثورة التي قوبلت بالعنف، والشدة من جانب الولاة مما أثار الفوضى، والاضطراب، وفساد العلاقة بين للمسيحيين، والمسلمين غير أنه من الواضح جلياً أن تلك الثورات لم تكن بسبب الجزية بقدر ما كانت بسبب كثرة الضرائب، والأعباء المالية، ولاسيما في ظل تضاول قيمة الجزية؛ نظراً لسدخول الكثير من الذميين في الإسلام. (١)

وإن كانت للصورة قد بدت مظلمة لبعض الوقت، فإنها لم تكن ظالمة طوال الوقت، فلم يلجأ الولاة إلى استخدام لشدة، والعنف إلا عندما سارع القبط باستخدام الوسائل المتعددة لتخلص من الالتزامات التي فرضت عليهم، والتي لم تكن تخص القبط دون غيرهم، بل شملت الجزية أهل أئمة جميعاً، كما شملت الضرائب العرب المسلمين. وليس هنالك أكثر من شهادة الأقباط أنفسهم بالمعاملة الحسنة، والتسامح الذي منحه للمسلمون لهم، وليكن بوحنا اليفتوسى الذي عاصر تلك الفترة بمثابة شاهد عيان على ذلك. (٢)

ط٢، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٩م، ص٢٢٣ سيدة إسماعيل كاشف : مصر الإسلامية وأهل للأمة، سلسلة تاريخ المصريين، عدد (٥٧)، الهيئة المصرية للعلمة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٣م، ص٤٠.

- (١) المقريزي : الخطوط، ج ١، ص١٢٢؛ ابن تغري بردي : النجوم، ج ١، ص١٧٧؛
فاطمة مصطفى عامر : تاريخ أهل للأمة في مصر الإسلامية، ص٤٩.
- (٢) سيدة إسماعيل كاشف : المرجع لسابق، ص٤٠؛ عمر صابر عبد الجليل :
مخطوط بوحنا للفتوسى تاريخ العالم وثيقة شاهد عيان على الفسح الإسلامي

جد اليهود :

ظل اليهود يمثلون نسبة مهمة من نبات المجتمع المصري على الرغم من كونهم أقلية عرقية مقارنة بأهل البلاد الأصليين، فعملوا بالتجارة، والصرفية، والأعمال السالية، وكانت الإسكندرية هي المركز الرئيسي لتجمعهم، ويبدو أن هذا كان أمرًا منطقيًا لكون الإسكندرية هي العاصمة قبل الفتح، ولم يتغير ذلك الأمر بعد الفتح العربي لمصر بل إن شروط صلح بابليون ٦٠هـ / ٦٤١م، قد نصت على أن يساح لليهود بالإقامة في الإسكندرية، وانقسموا فيما بينهم إلى ثلاث طوائف مذهبية مختلفة وهم: للربانيون^(١)، والقرلويون^(٢)، والسامرة^(٣).

مضرم، من كتاب أثر الإسلام في مصر وأثر مصر في الحضارة العربية الإسلامية، دراسات لجنة من الأساتذة، بإشراف قاسم عبيد قاسم، الهيئة العامة لتصور الثقافة، القاهرة، ٢٠٠٣، ص ٣٥.

(١) الربانيون : هم أشهر الطوائف اليهودية وأكثرها عددًا، اشتق اسمها من كلمة "رَبِي" أو "رباني" العبرية، جاء ذكرها في القرآن الكريم في سورة المائدة الآية ٤٤ "كان رئيس اليهود يختار من هذه الطائفة نظرًا لكثرة عددها وقوتها، انقسموا إلى قسمين فلسطينيين وعراقيين. للمزيد : راجع : قاسم عبيد قاسم : اليهود في مصر من الفتح العربي حتى انزوا العثماني، ط١، دار الفكر العربي، بيروت، ١٩٧٩م، ص ٢٢، ٣٤.

(٢) القرلويون : اشتق قسمهم من الكلمة العبرية (قرل) ومعناه "عسا"، أو "نادي"، وذلك لأنهم لم يحترقوا بغير القرا أي ما يقرأ فيه وهو التوراة، أي أنهم لم يتقيدوا بالتعمود، عرفوا (بأهل الدعوة). للمزيد : راجع : قاسم عبيد قاسم : المرجع السابق، ص ٣٥.

(٣) السامرة : هم أتباع السامري الذي أخبر الله تعالى عنه في سورة طه، الآية (٢٩)، "ولصلبهم السامري"، ويقال إن السامري هو الذي صنع العجل الذي عبده بنو إسرائيل عندما ذهب موسى عليه السلام للقاسية، لم يكن الربانيون أو القرلويون يعدونهم من اليهود، غير أن المصريين عدوهم أهل ذمة، للمزيد راجع : المقرئزي : شخطط، ج ٤، ص ٤٧٦؛ قاسم عبيد قاسم : المرجع السابق، ص ٣٧.

و قد زعمت كل طائفة منهم أن المذهب الذي تعتقده هو المذهب الأقرب إلى أصول الديانة اليهودية وقد شكل الريانيون أكثرية عديدة بين يهود مصر، وذلك حتى عهد سلاطين المماليك، بينما كان للقرائون أكثر ثراء، وقد قام بينهم وبين الريانيين نزاع وصل إلى حد اتهام القرائين لهم بالكفر، فحرموا الزواج منهم، كما حرموا الاتصال بهم.

أما للسامرة فكانوا أقلية، وبعثوا عن اليهود الريانيين، وكذلك القرائين، صار اليهود باختلاف طوائفهم بعد للفتح من أهل الذمة، وعوملوا معاملة حسنة، مثلما عومل أهل الذمة، كما تعرضوا لمثل ما تعرض له أهل الذمة من مضايقات في بعض الأحيان غير أنها لم تكن مضايقات مذهبية. (١)

(٢) الانحلال الأخلاقي :

لم يخلُ المجتمع الإسلامي من ظهور بعض مظاهر الانحلال الأخلاقي الذي نتج عن دخول المجتمع الإسلامي في مرحلة جديدة تبدلت فيها أوضاعه بشكل سريع ومفاجئ، فمئذ وقت مبكر من عمر أندولة الأموية ظهرت مسحة قوية من الترف أدت إلى تسرب تيار من الإمراق، والبعث الذي بعد عن روح الإسلام، وديانته، فانغمس بعض الخلقاء في اللهو، والشراب، وفعل المجون، وكان بعضهم لا يظهر للندماء إلا من وراء حجاب حتى لا يطلع الندماء على ما يفعله الخليفة، وهو سكران، في حين كان البعض الآخر لا يبالي من ذلك، ويغالي من فعل المجون بحضرة الندماء كما كان يزيد بن عبد الملك، وكذا الوليد بن يزيد الذي وصف بأنه صاحب شراب ونهو، ومجون. (٢)

(١) المقريزي : المصدر السابق، ص ٤٧٦؛ قاسم عبد قاسم : المرجع السابق، ص ٣٣.

(٢) سعيد عبد الفتاح عثمان وآخرون : دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٩٩م، ص ٢٥٥.

لم يقتصر للشراب، والمجون على الصفة من الرجال فحسب، بل نرى بعض النسوة يخرجن عن المألوف، ويدمن الشراب، فكانت أم حكيم بنت يحيى بن العاص أم الخليفة يزيد بن هشام لا تكاد تفارق كأسها التي عرفت بين الناس بكأس أم حكيم حتى عُير بها ابنها الخليفة يزيد، ومجاه الوئيد بن يزيد قانلاً :

إن كأس العجوز كأس رواء	ليس كأس ككأس أم حكيم
إنها تشرب الرماطون ^(١) صرفاً	في إفاء من الزجاج عظيم
له به يشرب اليمير ^(٢) أو الفيسل	يظل في سسكرة وعموم
ولفته سكرى فمّل تحسن أطلق	فوان لذلك غير حلِيم ^(٣)

ولما كان الثأب على دين ملوكهم، حاكى الولاء، وبعض العامة خلفاءهم، فكان الوالي قرّة بن شريك والي مصر يتصف بالفسق، والفجور حتى قيل : إنه كلما انتهى من بناء مسجد دشنه بالخمر، وقال : لنا الليل، ولهم النهار، كما كثرت مجالس الغناء التي لقرنت هي الأخرى بالشراب، والتي لم تقتصر على مجتمع القصور فحسب بل شملت بقية طبقات المجتمع الذي شغف بها أيضاً؛ وذلك مع فارق نوعية الحضور، ومستوى انعقاد للمجلس. (٣)

(١) الرماطون : هو شراب ليمن بعربي اتخذ أهل الشام وهو مزيج من الخمر والعلل. للمزيد راجع : الأصفهاني [أبو الفرج علي بن الحسين بن محمد القرظي] ت ٣٥٦هـ : الأغاني، المجلد السادس عشر، ط ١، نشره وكتبه هوامشه : عبد أ. علي مهنا، دار للكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٦م، ص ٢٩٢.

(٢) نفسه، ص ٢٩١، ٢٩٢.

(٣) ابن تغري بردي : النجوم، ج ١، ص ٢١٧، سيده إسماعيل كاشف : مصر في فجر الإسلام، ص ١٢٥، سعيد عبد الفتاح عاشور : دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية، ص ٢٧٩.

لم تقتصر مظاهر الفساد الإداري إلى حد شرب الخمر فحسب بل عمّ الفساد أرض مصر، حتى إنه في ولاية يحيى بن داود الخرمي (١٦٢ هـ - ١٦٤ هـ / ٧٧٨ - ٧٨٠م) الشهير بأبن مسنود كثر المفسدون، وقطاع الطرق فأخذ في إبانتهم، وقتل العديد منهم، وفي ولاية مزاحم بن خافسان (٢٥٣ هـ / ٨٦٧م) ساءت الأحوال، وانتشر الفساد، فأخذ فسي نشر الأخلاق الحميدة، وأمر صاحب شرطته باتخاذ اللازم لتحقيق ذلك، فتشدد أرخوز صاحب الشرطة، ومنع للنساء من الخروج من بيوتهن. كما منعهن من التوجه إلى الحمامات، أو المقابر، كذلك نهي عن شق الثياب، والنواح على الميت، ومنع حلق الشعر، وسواد الوجه على للميت. (١)

ولم يمنع الثراء الاقتصادي التي عاشته مصر زمن أحمد بن طولون من انتشار الأخلاق غير الحميدة، فمثلما كان الثراء سبباً فسي الوفوع في الرذيلة، كان الفقر أيضاً سبباً لذلك، ففي زمن أحمد بن طولون ثم العتور على حمال بسيطٍ يحمل قتيمةً يذهب بها إلى الصحراء بعيداً عن العمران؛ لكي يقوم بنفسها هذا مقابل دينار واحد أغراه به القتل، وقد قيل الحمال ذلك؛ نظراً لضيق حاله، كما وافقت بعض السيدات العمل بالتجسس لصالح الخلفاء، والولاء، وتسربن إلى البيوت لمعرفة أخبارها، ثم نقلها للولاء، ولم يقف الأمر عند هذا الحد من فساد الأخلاق بل وصل إلى حد الفسق، والزنا، فقد حملت إحدى الفتيات سفاحاً من رجل غير زوجها بعد أن أفسدتها صدقاتها، واستولين على عقلها، ولم تتردد تلك الفتاة في محاولة إجهاض نفسها حتى لا يفضح أمرها. (٢)

-
- (١) ابن تغري بردي: المصدر السابق، ج٢، ص٤٤، للمقريزي: للخطاط، ج١، ص٤٠٢، ٤٠٣؛ محمد عبد القادر خريسات: للمرأة والمشاركة المسيحية في ظل الدولة المملوكية (دراسة تطبيقية منذ العصر الجاهلي حتى سقوط الخلافة المملوكية في بغداد)، ٦٥٦ هـ / ٢٥٨م، ط١، الأرن، ١٩٩٨م، ص١٨٥.
- (٢) الليثي: سيرة أحمد بن طولون، ص١٣٠، ١٦٩؛ محمد عبد القادر خريسات: المرجع السابق، ص١٨٥.

ويؤكد سعيد عاشور أن هناك العديد من الأمراض الاجتماعية الأخرى التي انتشرت في شتى الولايات الإسلامية شرقاً وغرباً في تلك الفترة، غير أن التمسك بالدين، والحرص على إحياء شعائره حال دون ظهورها مثل الشؤون الجنسية، وكذلك تعاطي المخدرات.^(١)

وخلال سير الأحداث يتأكد أن الفساد بأنواعه، ولاسيما الاجتماعي منه قد ارتبط ارتباطاً وثيقاً بعملية التحول، ولاسيما المفاجئ منه بغض النظر عن تحديد مجتمع بعينه أو عملية تحول بعينها، فإن افتراضنا أن مجتمعاً ما قد تحول إلى مجتمع مثالي يتمسك بالقيم والأخلاق، فإننا لابد أن نجد للفساد يحاول جاهداً للبحث عن مكان له في ذلك المجتمع حتى لو قاومه هذا المجتمع بكل ما يملك من قوى.^(٢)

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور: دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية، ص ٢٧٩.
(٢) دعاء محمد أنور: التحولات الاجتماعية وظاهرة الفساد في المجتمع المصري، ص ٦٥.

الفصل الثالث

مظاهر الفساد السياسي والإداري في مصر تحت الحكم الفاطمي

أولاً : تمهيد :

- ١-بدالية التشيع.
- ٢-أصل الفاطميين ونسبهم.
- ٣-إقامة الدولة الفاطمية في مصر.

ثانياً : فساد الخلفاء السياسي :

- ١-التساهل في أسس العقيدة الإسماعيلية، وتغيير تعاليمها لأغراض سياسية.
- ٢-دعاء معرفة الغيب، والألوهية لأغراض سياسية.
- ٣-الإمعان في القتل، والتعذيب، وإرهاب العامة.
- ٤-تدخل للنساء في أمور الدولة.
- ٥-كثرة المعائن، والمؤامرات، والاعتيالات داخل القصور.

ثالثاً : فساد الوزراء والوسطاء وصراعاتهم من أجل الوصول للحكم.

رابعاً : الفساد الإداري في مصر تحت الحكم الفاطمي.

أولاً : تمهيد :

[١] بداية التشيع :

تعدُّ بداية التشيع أولَ حزبٍ سياسيٍ نيني يظهر على مسرح الأحداث التاريخية الإسلامية، فبمجرد وفاة النبي (ﷺ) ١٢ هـ / ٣٦٢ م، اختلف الصحابة فيما بينهم على من يتولى أمر المسلمين، وقد اجتمع بعضهم على أن أحق الناس بذلك هم آل بيت النبي (ﷺ)، ولاسيما ابن عمه، وزوج ابنته علي بن أبي طالب، غير أن الأمر قد آل لأبي بكر الصديق (رضي الله عنه)، ومن بعده عمر بن الخطاب، ثم عثمان بن عفان، الذي انحاز إلى بني أمية التي طالما حدثتهم أنفسهم بالسلطة، فأخذوا يتصرفون في الولايات الإسلامية، وكأنها ملكاً خاصاً بهم، هذا الأمر الذي أدى إلى وقوع فتنة بين المسلمين أدت إلى قتل عثمان بن عفان ٣٥ هـ، وتولى علي بن أبي طالب الخلافة. (١)

غير أن بني أمية لم يقبلوا بهذا الواقع، وأبت أنفسهم ترك السلطة، والمجد، فاتهموه بالمشاركة في دماء عثمان، ومن ثم دخلوا معه في حروب كثيرة، أدت في النهاية إلى مقتل علي، وفوز بني أمية بالخلافة فجعلوها إرثاً يتوارثونه فيما بينهم، فعز ذلك على أنصار علي، وشيعته فوقوا في وجه بني أمية كحزب مضاد، وتعرضوا من أجل ذلك للقتل، والصلب، والتعذيب، والتنشريد، ثم استعانوا بأبناء عمومتهم من بني العباس للوقوف في وجه الأمويين، وما أن تم لهم النصر عليهم حتى حل العباسيون محل الأمويين. وشعر العلويون أنهم خدعوا للمرة الثانية، وما تم من تحالف بينهم، وبين العباسيين ما هو إلا مجرد استبدال سيد بمسيد آخر أشد قسوة، ومن ثم بدأ صراع مريـر بين شيعة علي (رضي الله عنه)،

(١) ابن هشام : السيرة النبوية، ج ٤، ط ١، تحقيق كامل حمد عويضة، دار الشعلان، القاهرة، ٢٠٠٢، ص ١١٩٢. ابن الأثير: [عز الدين أبو الحسن بن علي بن محمد]، لتكامل في التاريخ، ج ٣، دار صادر، بيروت، ص ١٧٩. أحمد مختار البادي : في التاريخ العباسي والفاطمي، ص ٢١٩. السيد عبد العزيز سالم : تاريخ الدولة العربية، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ١٩٩٧، ص ٢٧٩ - ٣٠١.

والعباسيين الذين دافعوا عن أحقيتهم في الخلافة، ودارت الدائرة من جديد، ولكنها كانت أشد وطأة، وأحمى وطيمنا حتى قال أحد الشعراء المجهولين:
تالله ما فعلت أمية فيهم معشر ما فعلت بنو العباس^(١)

هذا الأمر الذي جعل شيعة علي (ع) يلجأون إلى سياسة 'التقية' أي التخفي، والتستر عن أعين العباسيين، وقد استطاعوا بفضل دعواتهم أن ينشروا دعواهم في كثير من أنحاء العالم الإسلامي، إلا أن حلم إمامة للعالم الإسلامي، واسترداد ما يسمونه حقهم المملوب في الخلافة ظل يراودهم دون انقطاع، وأخيرًا وبعد ما يقرب من مائة وخمسين عامًا من التخفي، والمعاناة، استطاع الحزب الشيعي العلوي أن يصل إلى بلاد المغرب بإفريقية، ويعطن عن نفسه، وعن قيام دولة شيعة جديدة بعيدًا عن الخلافة العباسية، عرفت هذه الدولة بالدولة الفاطمية (٢٩٧هـ/٩٠٨م).^(٢)

[٢] أصل الفاطميين، ونسبهم :

لقد انقسمت الشيعة فيما بينها منذ أول عهدا إلى عدة فرق، وكان أشهر هذه الفرق فرقة الإمامية التي انقسمت بدورها إلى طائفتين، طائفة الإمامية الاثني عشرية^(٣)، وطائفة الإمامية الإسماعيلية التي نسبت إليها

(١) المقرئبي : النزاع والتخاصم فيما بين بني أمية وبني هاشم، ص ٢٢٢، حسن إبراهيم حسن : عبد الله المهدي إمام الشيعة الإسماعيلية ومؤسس لدولة الفاطمية في بلاد المغرب، مكتبة النهضة للمصرية، القاهرة، ١٣٦٦هـ / ١٩٤٧م، ص ١٨٨، جرجي زيدان : تاريخ الثمن الإسلامي (يشتمل سياسة الدولة وتنازع رجالها على السيادة في عهد الراشدين، فالأمويين، فالعباسيين، فالأندلسيين، فالفاطميين، وسياسة كل دولة منها في تأكيد سلطاتها)، ج ٤، مراجعة وتعليق : حسين مؤنس، دار الهلال، القاهرة، ١٩٧٣م، ص ٥٧.

(٢) المقرئبي : تعاضد الخلفاء، ج ١، علي حسني الخريوطي : أبو عبد الله الشيعي، ص ١٩، أحمد مختار العبادي، في لتاريخ العباسي والفاطمي، ص ٢٢١، ٢٢٠.

(٣) الإمامية الاثنا عشرية : هي التي قامت بإمامة موسى الكاظم بن الإمام جعفر الصادق ومن بعده موسى بن الإمام علي الرضا ثم أبنائه من بعده حتى وصلوا إلى الإمام محمد المنتظر الذي يمثل عندهم الإمام الثاني عشر الذي دخل مسردابًا ثم اختفى ٢٦٠هـ، وهم ينتظرون عودته. لذا قد أطلق عليهم أيضًا الواقعة ومذهبهم

الدولة الفاطمية، التي قامت في المغرب، ومصر، وقد حرص الخلفاء الفاطميون منذ البداية على تمسكهم بصلة القرابة بأسرة النبي (ﷺ)، لذلك فهم يحرصون على ذكر اسم دولتهم في السجلات الرسمية باسم الدولة الفاطمية^(١) نسبة إلى السيدة فاطمة ابنة النبي (ﷺ)، وزوجة الإمام علي بن أبي طالب (ﷺ)، وكذلك في أحيان أخرى يسمونها بالدولة العلوية^(٢)، نسبة إلى علي بن أبي طالب الجد الشرعي لسلالة خلفائهم، ولما كانوا أنصار علي وشيعته منذ أمر السقيفة المعروف فقد عرفوا أيضًا بالشيعية.^(٣)

ولكن هذا ما قد سجلته لنا السجلات الرسمية المختلفة، وعرف في كتب التاريخ كأمر واقع دلم أكثر من مائتين وستين عامًا، ومع ذلك فقد ظلت قضية نسب الفاطميين إلى علي بن أبي طالب، وزوجته فاطمة مثارًا للجدل، والخلاف بين المؤرخين، وقضية تتأرجح بين ما هو مؤيد، وما هو معارض، ولم يتم البت فيها، أو إغلاق ملفها حتى الآن.

فمنهم من يؤيد هذا النسب، ويدافع عنه بشدة ويرجع نسبهم إلى إسماعيل بن جعفر الصادق بن محمد الباقي بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب، ومن إسماعيل فنقلت الإمامة إلى ابنه

هو مذهب أهل إيران اليوم. للمزيد راجع : البغدادي [عبد القادر بن طاهر بن حمد البغدادي] ١٣٧/٤٢٩، للفرق بين الفرق، تحقيق : حمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة المصرية، بيروت، ١٩٩٥، ص ٢١؛ قصص بن موسى : الفرق الشيعية، تحقيق : عبد المنعم الحفني، دار الرشاد، القاهرة، ١٩٩٢، ص ٥٧؛ أحمد مختار العبادي : المرجع السابق، ص ٢٢١.

(١) عبد المنعم ماجد : السجلات للمستعصرية، دار الفكر العربي، القاهرة، سجل رقم (٣٢)، (٣٤)، ص ١٠٤، ١٠٩.

(٢) نفسه، سجل رقم (٣٤)، ص ١٠٧.

(٣) ابن خلدون أولي الدين أبو زيد عبد الرحمن بن محمد الحضرمي الإشبيلي : المعبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والمجم والذريز ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ج ٤، بولاق، ١٢٨٤م، ص ٣٤٨؛ عبد المنعم ماجد : نظم الفاطميين ورسومهم في مصر، ج ١، ط ٣، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٨٥م، ص ٩.

محمد (المكتوم) - وهو أول الأئمة للمستورين، والإمام السابع عندهم - الذي رحل إلى سلمية^(١)، وأمن في التخفي من العباسيين، وقد اعتمد محمد، ومن بعده ابنه عبد الله الرضي في نشر دعوته على رجل يدعى عبد الله بن ميمون، كما اعتمد أحمد بن عبد الله الرضي على عبد الله بن ميمون القداح، ومن أحمد انتقلت الإمامة إلى ابنه الحسين، وفي عهده خرجت الدعوة إلى كثير من أرجاء للعالم الإسلامي، إلى أن وصلت إلى المغرب بفضل عبد الله الشيعي^(٢)، داعية في بلاد المغرب إلى أن استقرت الأمور، فبعث إلى عبد الله المهدي بن الحسين الذي قدر له أن يكون أول للخلفاء الفاطميين فيها.^(٣)

وللبعض الآخر يذكر هذا السبب، ويرجع الفاطميين إلى أصل مجوسي، نسبة إلى ميمون القداح سابق الذكر، وهو فارسي مجوسي من سبي الأهواز، ويذكرون أنه قد تظاهر بالإسلام، والتشيع، وغالي في

(١) سلمية : هي بلدية من أعمال حماه وكانت تعد من أعمال حمص، قيل أنها كانت قرب الموثقة، ولما نزل العذاب بأهل الموثقة للذين ذكروا في القرآن، نجا منهم مائة، فعسروها وسكنوها، وسميت سلم مائة، ثم حرفت إلى سلمية، يقال أن نسبتها لقبول التابعين وفي طريقها إلى حمص قيل لثعمان بن بشير. للمزيد راجع : بالقوت العموي : معجم للبلدان، ج ٥، ص ٩٦٩.

(٢) أبو عبد الله الشيعي : هو أبو عبد الله بن أحمد بن محمد بن زكريا المعروف بالشيعي، من أهل صنعاء باليمن، اشتهر بالذكاء والدهاء ومهارته في القتال، كما اشتهر بالثبوت والزهدي حتى أطلق عليه (الصوفي) كما كان ذا علم بفروع الدين وهو صاحب البذور الأولى للدعوة الفاطمية في بلاد المغرب، غير أن جزاءه كان نفس الجزاء الذي وفاه أبو مسلم الفرساني مع فرق شيعته حيث قتله المهدي المعنفي به الأمور في بلاد المغرب بعد ما وصل إليه أبو عبد الله من سكلته. للمزيد راجع : ابن خلكان : وفيات الأعيان، ج ٢، ص ٢٢٢ المقريزي : اتعاط الحنفاء، ج ٢، ص ٩٦٦، علي حسني لخربوطلي : أبو عبد الله الشيعي، ص ١٢.

(٣) ابن خلكان : للمصدر السابق، ص ٤٠٥ ابن خلدون : تاريخ بن خلدون، ج ٤، ص ٥٥٠ المقريزي : للفظ، ج ٢، ص ٣٤٨ اتعاط الحنفاء، ج ٢، ص ٤٠٥ عبد المنعم ماجد : المرجع السابق، ج ٢، ط ١، مكتبة الأنجلو المصرية، للقاهرة، ط ١، ١٩٨٥، ص ٩.

دعوته، وتنادى بوجود إلهين إله النور، وإله الظلمة، وقد درس الفقه، والأساطير، والجنل للفلسفي، وبحث بدعائه في كل مكان معتمدين على الشعر الذي أجادوه، وجاء ابنه عبد الله الذي كان أمكر منه، كما ينكرون أن عبد الله المهدي نفسه من أصل يهودي يعود إلى أن الحسين بن أحمد بن عبد الله القداح لما أتى مسلمية تزوج من امرأة رجل يهودي مات عنها زوجها، وكان لها ولد يُدعى سعيد أحبه الحسين، وأدبه، وأعطاه أسرار الدعوة حيث لم يكن له عتب، وسعيد هذا في اعتقادهم هو عبد الله المهدي أول الخلفاء الفاطميين. (١) والبعض الآخر من المؤرخين وقف محايداً بين ما هو مؤيد، وما هو معارض. (٢)

ومع ذلك فإننا نميل إلى الرأي القائل بثبوت نسب الفاطميين إلى علي، وفاطمة، ولا ترى بُدّاً لما قد قيل في الشك في نسبهم سوى أنه وسيلة من وسائل الحرب القائمة بين العباسيين، والعلويين، ولاسيما في ظل انتشار المذهب الشيعي في كثير من أرجاء العالم الإسلامي (٣)، حتى وصل إلى بغداد - عاصمة العباسيين - نفسها، مما أدى إلى استخدام هذه الوسيلة لوقف هذا للزحف الشيعي، ولاسيما أن الفاطميين قد اعتموا كما ذكر في إقامة دولتهم على هذا النسب، فصدرت عدة محاضرات تدوين

(١) المقرئزي : المخطوط، ج ١، ص ٢٤٨؛ للقرماني [أحمد بن يوسف القرماني] : أخبار الدول وأثر الأول في التاريخ، تحقيق : أحمد حطيط، وفهمي سعد، المجلد الثاني، ط ١، بيروت، ١٩٩٢م، ص ١٢٢٩ محمد عبد الله عتقن : الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة لفاطمية، ط ٣، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٨٣م، ص ٢٨١ - ٢٨٢.

(٢) أبو الفداء [الملك المؤيد صاه الدين بن علي صاحب حماة] : المختصر في أخبار البشر، ج ٢، تحقيق : حسين مؤنس، ص ٩٣.

(٣) نجح الزيدون في إقامة دولة شيعية حاكمة في طبرستان ٢٥٠هـ/٨٦١م، وفي اليمن ٢٨٤هـ/٨٩٧م. كما تولى القرامطة طلي جنوب للعراق والشحرين والإحسلن، ونجح البوهيون للشيعية في فرض سيطرتهم على بغداد، راجع : أيمن فؤاد سيد : الدولة الفاطمية في مصر تفسير جديد، مكتبة الأسرة، ٢٠٠٧، ص ١٢٢ محمد جمال الدين سرور : الدولة الفاطمية، ص ٢٧.

للفاطميين، وتتهمهم بالكفر، والزندقة - كعادة العباسيين فيمن يعضبون عليهم - وقد وقع على هذه المحاضر عند من الأشراف، والأعيان، والقضاة. كما أطلقوا عليهم اسم "العبيدين" مخزية، واحتقاراً لهم. (١)

ولكن أيًا كان الأمر، ومواء كان انتساب الفاطميين إلى علي بن أبي طالب، وزوجته فاطمة حقيقة، أو ادعاء فإن هذا لا يغير من الأمر شيئاً لأن الفاطميين اعتمدوا على هذا النسب ليكون الدعامة الأساسية لإثبات أحقيتهم في الخلافة، وقد نجحوا بفضل، وبعد جهود كبيرة في إقامة دولة فاطمية شيعية في بلاد المغرب تعتمد كغيرها من الدول الإسلامية الأخرى على الدين والتولية معاً. وهذا يتفق مع ما ذكره ابن خلدون في أن الدولة لا تقام إلا بالدين، والسياسة معاً. (٢)

[٢] إقامة الدولة الفاطمية في مصر :

لم يكن هدف الفاطميين هو إقامة دولة شيعية في بلاد المغرب فحسب، بل كان هدفهم الأساسي هو إمامة العالم الإسلامي، ومن ثم القضاء على الخلافة العباسية في بغداد ؛ لذلك عدوا مدة إقامتهم في بلاد الغرب بمثابة الفترة التمهيدية التي يعدون فيها للعدة ؛ لكي ينطلقوا منها نحو الشرق الإسلامي ؛ لذلك كان للحلم الذي يراودهم باستمرار هو كيفية الحصول على مصر، ولاسيما أنه لم يخب عنهم أن الوصول إلى مصر معناه السيطرة على الشام، وفلسطين، والحجاز، ومن ثم السيطرة على ثلاثة من أهم المراكز الإسلامية الكبرى ألا، وهي : الفسطاط، ودمشق، والمدينة المنورة، إضافة إلى ذلك ما تتميز به مصر من ثروات متعددة تساعد على تحقيق أهدافهم ؛ لذلك أخذ الفاطميون يبتون دعواتهم في مصر في محاولة منهم لتهيئة أهلها لتقبل مذهبهم الشعبي الجديد، وقد نجح هؤلاء الدعاة إلى حد كبير، وأصبح للفاطميين أعوان وأنصار يتعاطفون معهم داخل للنيار المصرية. (٣)

(١) محمد ماهر حمادة : فوثائق للسياسية والإكلوية، ص ٩، ١٠.

(٢) ابن خلدون : المقننة، ج ١، ص ٣٩٣.

(٣) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسي والديني والاجتماعي، ج ٢، العصر العباسي في الشرق ومصر والمغرب والأندلس ٢٢٢ - ٤٤٧ هـ / ٨٤٧ -

وقد اتخذ الخليفة المهدي أول خلفاء الدولة الفاطمية، أول خطوة في تحقيق حلم الفاطميين وكان ذلك في عام إحدى وثلاثمائة، عندما أرسل جيشاً كبيراً إلى مصر. قاده ابنه أبو القاسم، وسار أبو القاسم إلى بركة، واستولى عليها، ثم سار إلى الإسكندرية، والقيوم فضيق على أهلها، فأرسل للخليفة العباس المقتدر (٢٩٥ - ٣٢٠هـ / ٩٠٨ - ٩٢٩م) جيشاً عظيماً استطاع أن يحلهم عن مصر، فعادوا إلى المغرب مرة أخرى، ويذكر المقرئ أن سبب تحرك أبا القاسم بن المهدي على رأس هذه الحملة أنه قد وجه إلى بغداد قصيدة يفرح فيها بنفسه، وبما فتح من بلاد، فأجابها أحد الشعراء بقصيدة على وزنها ورويها، ومنها :

فلو كانت الدنيا مثلاً تطهر
لكان لكم منها بما حرّم الذنوب

فأثاره هذا البيت، وقال :

والله لا أزال حتى أملك صدر الطائر، ورأسه أن قدرت، وإلا

أهلك دونه^(١).

ومن أجل ذلك فقد حاول أبو القاسم غزو مصر مرة أخرى، وكان ذلك في عام ست وثلاثمائة، وفي هذه المرة وصل إلى الإسكندرية، واتجه إلى صعيد مصر، وملك الأشمونيين، غير أن جيوش الخلافة العباسية قد تغلبت عليه في هذه المرة أيضاً، غير أن هذا الحلم ظل يروده طويلاً، ولكنه لم يمهده للخط في تحقيقه، وهلك دون أن يحققه، وقد أباح لابنه المنصور (٣٢٤ - ٣٤١هـ) بذلك وأوصاه بتحقيقه، غير أن المنصور قد شغل بثورات البربر المتتالية، والحركات الخارجية التي أبداها أهل السنة

١٠٥٥م، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ص١٥٢؛ أيمن فؤاد سيد : الدولة

الفاطمية في مصر، ص١٢٦، ١٢٠؛ حمدي عبد المقدم حسين : محاضرات في

تاريخ مصر الإسلامية، دار المعرفة العلمية، الإسكندرية، ١٩٩٩، ص١١٦.

(١) أبو القاسم [الملك لمؤيد عماد الدين بن علي صاحب حماة] : المختصر في أخبار

النفس، ج٢، ط١، تقديم حسين مؤنس، ص١٩٨ للمقرئ : الخطوط، ج٢،

ص٣٥١؛ لعاطف الحنفاء، ص٦٩، أيمن فؤاد سيد : الدولة الفاطمية في مصر،

ص١٢٦.

في بلاد المغرب، ومن ثم فقد انقطعت للعلاقات بين مصر، وبلاد المغرب خلال فترة خلافة المنصور، وكانت هذه الاضطرابات تصسرفهم عن تحقيق أهدافهم في الوصول إلى مصر.^(١)

وجاء للمعز لدين الله الفاطمي - رابع الخلفاء الفاطميين - (٣٤١ - ٣٦٥هـ) ليحقق أحلام أسلافه في امتلاك مصر، وجعلها مقراً للخلافة الفاطمية، وقد جاءت الظروف لتساعد المعز على تحقيق هذا الحلم، وكان المعز من الذكاء الذي جعله يستفيد من الضعف للسني أسباب الخلافة للعباسية في المشرق، وسيطرة الشيعة البوهيين عليها، وانقسامها إلى عدد كبير من البويات المتناحرة، كذلك استغل ما أصاب مصر من وهن، وضعف نتيجة لكههور الأحوال الاقتصادية المتناحرة بها مسع استمرار نقص مياه النيل، وتزايد الغلاء، واضطراب الأسعار، وانتشار الفساد في كل مكان فضاق المصريون بما أصابهم، ولم يجدوا أمامهم سوى الاستجداء^(٢) بالدولة الفاطمية كقولة تستطيع السيطرة على ما حل

(١) قفطنسي للنعمان أبو حنيفة النعمان أبي عبد الله بن أحمد بن حيون، رسالة افتتاح الدعوة (رسالة في ظهور الدعوة العبيدية)، تحقيق: وداد القفاضي، دار الثقافة، بيروت، ١٩٧٥م، ص٣٦٦؛ ابن عذاري [أبو عبد الله محمد المراكشي] تاريخ ٦٩٥هـ / ١٢٩٥م؛ البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ج ١، تحقيق: ج.س.كولان ولينين يروفنسال، لندن، ١٩٤٨، ص١٧٠ - ١٧٢، ١٨١ - ١٨٢؛ أبو الغداء، للمصدر السابق، ص١٠١؛ المقرئزي: الخطط، ج ١، ص٣٢٧ - ٣٢٩، ٣٥١؛ عماد الدين إرفيس ابن الحسن بن عبد الله الأسنفي، تاريخ ٨٧٢هـ / ١٤٦٧م؛ تاريخ الخلفاء بالمغرب، تحقيق: محمد الليلاوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٥م، ص١٧٦ - ١٨٩؛ حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي والديني والاجتماعي

(٢) حاول بعض المصريون الاستجداء بالفاطميين وكان علي رأسهم الوزير يعقوب بن كلس الذي اعتنق المذهب الإسماعيلي الذي استوزره كالفور وقد تمكن من الهروب في ظل تلك الأحوال السيئة حتى وصل إلى المغرب وكان له دوراً كبيراً في وصف ما وصلت إليه مصر من فساد وضعف، مما شجع المعز عزز مصر سريعاً، هذا بالإضافة إلى مجموعة أخرى من المصريين كانوا المعز لتجدتهم. راجع: سولومس بن المقفع: تاريخ بطرركة الكنيسة المصرية المعسرف بمسجر

بمصر من فساد، ولاسيما بعد موت كافور الإخشيدي، وعدم وجود شخصية قوية تسيطر على الأحوال في مصر، وبالفعل سارع المعز، وأرسل فائده جوهر الصقلي، على رأس جيش استطاع خلاله احتلال مصر دون مقاومة.^(١)

وهكذا كان فساد مصر سلاحًا ذا حنين، أدى الأول منه إلى قطع دابر الإخشيديين وانهيار دولتهم نهائيًا من مصر، وأدى الثاني إلى قيام الدولة الفاطمية فيها، ومن ثم بناء عاصمة جديدة عرفت بالقاهرة التي قدر لها أن تصبح منذ ذلك للزمان إحدى أعين المدن الرئيسية في دنيا الإسلام، والعروبة حتى وقتنا الحاضر.^(٢) ومن القاهرة الفاطمية يبدأ الباحث رحلة

البيعة المتقدمة، نشره : يس عبد المسيح : عزيز سوربال عطوة، أسوند برمسقر، ج ٢، م ٢، ج ٢، م ٢، ص ١٩٥٩، ج ٢، م ٢، ص ١٨٧، ابن خلكان : وفيات الأعيان، ج ١، ص ٣٧٦؛ للصفدي [صلاح الدين خليل بن أبيه] ت ٧٥٤هـ / ١٣٦٢م، الوافي بالوفيات، ج ١١، تحقيق : مجموعة من العلماء، استانبول، بيروت، ص ٢٢٤؛ التوكلاري [أبي بكر عبد الله بن أبيه] كنز الثرر وجامع المغرر (أندرة المضينة في أخبار الدولة الفاطمية)، ج ٦، تحقيق : صلاح الدين المنجد، القاهرة، ١٩٦١م، ص ٢٢١؛ ابن تغري بردي : النجوم، ج ٤، ص ٣٠؛ ابن ياسر أبو البركات محمد بن أحمد بن إيس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور، ج ١، القسم الأول، تحقيق : حمد مصطفى، القاهرة، ١٩٧٥م، ص ١٨٤.

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان، ج ١، ص ٣٧٥؛ ابن عبد الظاهر [محي الدين أبو الفضل عبد الله الظاهر المصري] (٦٢٠ - ٦٩٢هـ / ١٢٢٣ - ١٢٩٣م)، الروضة البهية الزاهرة في خطط المعزية القاهرة، تحقيق : أيمن فؤاد سيد، اذار الحريية للكتاب، القاهرة، ص ٩؛ النويري [شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب] نهاية الأرب في فنون الأدب، ج ٢٨، تحقيق : حسين نصار ومحمد أمين ومحمد عبد الهادي شعير، الهيئة المصرية للعبسة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٠م، ص ٥٩ - ٦٠؛ المغريزي [عفي الدين أحمد بن علي] : المقسي الكبير، ج ٣، تحقيق : محمد اليمثري، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩١م، ص ١٣٤؛ ابن تغري بردي : النجوم، ج ٤، ص ٢٨؛ محمد ماهر حمادة : لوثائق السياسية والإدارية، ص ٢٠ - ٣١.

(٢) محمد ماهر حمادة : المرجع لسبق، ص ٣٠ - ٣١.

الكشف عن مظاهر الفساد المختلفة، ولتكن البداية الفساد السياسي "فساد القمة".

ثانياً : فساد الخلفاء السياسي :

[١] التساهل في أسس العقيدة الإسماعيلية، وتغيير تعاليمها لأغراض سياسية :

قامت فلسفة الحكم عند الفاطميين على أسس متبعة من تعاليم المذهب الإسماعيلي، الذي عد نظام الإمامة^(١) هو النظام الرئيس الذي قامت عليه الدولة الشيعية، والإمام الفاطمي في نظر الشيعة يقع في مرتبة دون النبي (ﷺ)، وفوق البشر.^(٢) وهو خليفة لمن سبقه بموجب الحق الإلهي يُختار ليكون وصياً للنبي (ﷺ)، ولعلي بن أبي طالب (ﷺ)، ويشترط في الإمامة أن تكون في الأعقاب أي تنتقل من الأب إلى الابن ؛ لأن الابن في مفهومهم يحمل علوم الإمام السابق، وكذلك صفاته الإلهية التي تنتقل إليه بالوراثة ساعة موت الخليفة السابق^(٣)، كذلك يكون الإمام

(١) الإمامة : يفضل الإسماعيليون لفظة إمامة ولا يفضلوا لفظة خلافة، والإمام الأول عندهم هو "علي بن أبي طالب" (ﷺ)، وقد تشبهوا في ذلك بإمام للصلاة الواجب اتباعه والالتزام به، والخلافة عندهم هي الإمامة الكبرى تميزاً لها عن الإمامة الصغرى وهي الإمامة في الصلاة. لذلك فلم يظهر لقب خليفة في مسجلاتهم الرسمية، بل ظهر باسم الإمام أو أمير المؤمنين. للمزيد راجع : جمال الدين اثنيال : مجموعة الوثائق الفاطمية، ص ١١٧ عبد المنعم ماجد: نظم الفاطميين ورسومهم، ج ١، ص ٥١.

(٢) القاضي النعمان : المجالس والمساريف، ص ١١٣ عبد المنعم ماجد : ظهور الخلافة الفاطمية وسقوطها في مصر (التاريخ السياسي)، ط ٤، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م، ص ٢٨٣.

(٣) القاضي النعمان : مصدر السابق، ص ٤٤٥ جمال الدين اثنيال : مجموعة الوثائق الفاطمية، ص ١١٧ عبد المنعم ماجد : السجلات المستعصرية، سجل (٢٥)، ص ١١١ عبد المنعم ماجد : نظم الفاطميين ورسومهم، ج ١، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٨٥م، ص ٥٣.

الشيعة في العقيدة الشيعة معصوماً من الكبائر، والصغائر^(١)؛ لذلك فإن طاعة الفاطميين للإمام كانت طاعة معتقة، ومقدسة.^(٢)

ولا يوجد شرط في الإمامة الإسماعيلية سوى ما عُرف لديهم باسم "الوصية"، وهي بمثابة التعيين الذي يحتم على الخليفة القيام به قبل موته لمن يخلفه، ولا يشترط أن تكون هذه للوصية مكتوبة، أو معلنة، فغالباً ما كانت شفوية، أو معروفة لبعض الأشخاص الموثوق بهم لدى الخليفة، الذين يقومون بإعلانها في الوقت المناسب^(٣)، وحفاظاً من الشيعة على إظهار صفتهم للروحانية، وسلطتهم الدينية، كان، ولا بد لولي العهد أن يلقب بولي عهد المؤمنين.^(٤)

ويذكر الدكتور/ جمال الدين الشيبان: أن نظام ولاية العهد كان عاملاً من عوامل استقرار الدولة الفاطمية إلى حد كبير، حيث جنب الأسرة الفاطمية، والدولة عوامل المنازعة، والتزاع، والتخاصم في سبيل ولاية العرش^(٥)، غير أن هذا الاستقرار لم يستمر طويلاً، حيث تعرض هذا النظام للعديد من المخالفات، وكذلك عمّ التماهل، والتخاذل أركانه، فانقسمت العقيدة الفاطمية على نفسها، ودبّ للنزاع بين أصحاب البيت الفاطمي، وظهر الفساد في أنحاء مصر، ولاسيما في ظلّ تولي العديد من

(١) ابن الطوير [أبو محمد المرتضى عبد السلام بن الحسن الفهري التسرغني]، ت ٦١٧هـ / ١٢٢٠م؛ نزهة المقلتين في أخبار النولتين، تقديم: أمين فؤاد سيده ١٩٩٢م، ص ١٢٣ للمقريزي؛ اتعاظ الحنفاء، ج ٣، ص ١٣٧؛ جمال الدين الشيبان: المرجع السابق، ص ١٧ - ٢٠؛ عبد المنعم ماجد: ظهور الدولة الفاطمية، ص ٢٨٣.

(٢) القاضي النعمان: المصدر السابق، ص ٤٧٨؛ عبد المنعم ماجد: نظم الفاطميين ورسولهم، ص ٦٢.

(٣) أمين فؤاد سيده: الدولة الفاطمية في مصر، ص ٣١٧.

(٤) لقاضي النعمان: دعائم الإسلام وذكر الحلال والحرام والتضايح والأحكام عن أهل بيت رسول الله عليه وعليهم أفضل السلام، ج ٨، تحقيق: أصغر بن علي بن أصغر بن فيضي، دار المعرف، القاهرة، ١٩٦٥م، ص ١٥.

(٥) جمال الدين الشيبان: المرجع السابق، ص ٢٠.

الخلفاء الفاطميين الإمامة في سنن صغير^(١)، مما أدى إلى كثرة المؤامرات، والدسائس، وكذلك تسلط الوزراء، والوسطاء، وتدخل نساء القصر في الحكم.^(٢)

وقد كان المعز لدين الله الفاطمي (٣٦٢هـ - ٣٦٥هـ) (٩٧٢م - ٩٧٥م) أول من اخترق المذهب الإسماعيلي، وخالف شروط العقيدة الفاضمية، وذلك عندما عين لولاية عهده ابنه الثالث "نزار" الذي عُرف بالعزيز بالله (٣٦٥هـ - ٣٨٦هـ) (٩٧٥م - ٩٩٦م)^(٣)، على الرغم من أنه ليس صاحب الحق في ذلك، تبعاً للمذهب الإسماعيلي الذي ينص بضرورة أن تكون الإمامة في الأعقاب كما تم ذكره، وقد كان المعز لدين الله - وهو ما زال في إفريقيا - قد قام بتعيين ابنه الأوسط عبدالله لولاية عهده من بعده^(٤)، متخطياً ابنه الأكبر تميم؛ لأن تميمًا كان يحيا حياة عابئة بعيدًا عما يجب أن يكون عليه الإمام.^(٥)

(١) حيث تولي الحاكم بأمر الله للخلافة وعنده إحدى عشر سنة وخمسة أشهر وستة أيام، وتولى الظاهر لدين الله وهو في السادسة عشر من عمره، والمستنصر بالله السابعة من عمره، والأمر لدين الله خمس سنوات، والظاهر سبع عشرة سنة، وقفايز خمس سنوات، والعاقد إحدى عشر سنة. للمزيد راجع: الذهبي [شخص الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد] ت ٧٤٨هـ / ١٢٤٧م سير أعلام النبلاء، ج ١٥، تحقيق: شعيب الأرنؤوطي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م، ص ٢٠٧، ٢٠٨ المقريزي: المعاد الخفاء، ج ٢، ص ٣١٧، ٤٤٩؛ ابن تفرج بري: التنجيم، ج ٤، ص ١٧، ٢٤٧، ج ٥، ص ١، ٧٦؛ تفرماني: اختيار للنول وأثار الأول، ص ٧٤٤ - ٧٤٥؛ عبد المنعم ماجد: نظم الفاطميين ورسومهم، ج ١، ص ٥٧.

(٢) أيمن فؤاد سيد: الدولة الفاطمية في مصر، ص ١٥٧.

(٣) ابن حماد [أبو عبد الله محمد بن علي]: أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم، تحقيق: أنهامي نكرة، عبد الحليم عويس، دار الصحوة، القاهرة، ص ٩٣.

(٤) نفسه، ص ٩٣.

(٥) أيمن فؤاد سيد: المرجع السابق، ص ١٥٦ - ١٥٧.

ويذكر ابن حماد أن المعز قد ألقى ابنه تميم عن الإمامة لأنه كان لا يولد له. أخبار بني عبيد، ص ٩٣.

ظل عبد الله بعد انتقال الفاطميين إلى مصر هو وني عهد المعز لدين الله، حتى توفي فجأة في حياة أبيه^(١)، هذا الأمر الذي أدى إلى انقلاب في نظام الحكم، حيث كان ابن عبد الله هو صاحب الحق الشرعي في الإمامة، إلا أن المعز لدين الله قد تخطأه كما تخطى العقيدة نفسها، وقام بتعيين نزار، على الرغم من حرص الشيعة الشديد على أن الإمامة لا تنتقل من الأخ إلى أخيه بعد أن انتقلت من الحسن لحسين^(٢)، وأنها يجب أن تكون في الأعقاب.

وعلى الرغم من صمت المصنر عن السبب الرئيس لتجاهل المعز لدين الله عن القاعدة الأساسية في العقيدة الفاطمية، وعلى الرغم من أن ما فعله المعز لدين الله لم تظهر تبعاته في ذلك الوقت؛ نظراً لقوة الخليفة، وقوة الدولة في ذلك الوقت. فإن محاولة تكرار هذا الأمر، والاقتضاء به، أدى إلى ظهور العديد من مظاهر الفساد التي أثرت على الدولة الفاطمية نفسها.

وفي عهد الخليفة الحاكم بأمر الله الفاطمي (٣٨٦ - ٤١١هـ) (٩٩٦ - ١٠٢٠م) ازدادت الاضطرابات، والفتن، وكثرت مظاهر الفساد سواء كان ذلك في مرحلة حكمه الأولى التي تحكّم فيها وسطاؤه، ووزراؤه، أو في مرحلة حكمه المتأخرة التي تشمت بالشدة، والعنف، والاضطراب في الأحكام، والقرارات^(٣)، ففي عام ٤٠٤هـ / ١٠١٤م،

(١) ابن ظفار [جمال الدين] : أخبار الدول المنقطعة (دراسة تحليلية تنقسم للخصائص الفاطميين)، المجلد (١٢)، تقديم وتعليق : أندريه فريه، المعهد العلمي الفرنسي للأثار الشرقية، القاهرة، ص ٢٦؛ ابن عيسر [إتاج الدين محمد بن علي بن يوسف بن حلب رابع]، أخبار مصر - المنكتى من، حققه وكتب مقدمته وحولته : أيمن فؤاد سيد، المعهد العلمي للقرشي للأثار الشرقية، القاهرة، ١٩٨٢م، ص ١٦٦ المقريزي : لتعاظ الحنفاء، ج ١، ص ٢١٦.

(٢) أيمن فؤاد سيد : الدولة الفاطمية في مصر، ص ١٥٧.

(٣) ينكر الدكتور / جمال الدين الشيبان : أن هذه محاولة تخطي العقيدة الإسلامية، غير أن هذه المحاولة قد سبقها محاولة المعز لدين الله الفاطمي الذي سبق ذكرها، مجموعة الوثائق الفاطمية، ص ٢٠.

قرر الحاكم بأمر الله للخروج على العقيدة الإسماعيلية، وعدم الاهتمام بها،
 وبذلك عندما حرم ابنه الظاهر لدين الله (٤١١ - ٤٢٧ هـ) (١٠٢٠ -
 ١٠٣٥ م) من ولاية الحكم، وعهد به إلى بن عمه عبد الرحمن بن إياس -
 وهو من امرأة مسيحية - حيث جمع سائر الجند على اختلافهم بالقصر،
 وقرأ عليهم، بأن أبا القاسم عبد الرحمن بن إياس "ولي عهد المسلمين" في
 حياته، والخليفة من بعده، كما أمر الناس بالسلام عليه، وأن يقولوا له في
 سلامهم عليه: "السلام علي ابن عم لمير المؤمنين، وولي عهد المسلمين"،
 كذلك عين له محلاً يجلس فيه في القصر، كما أرسل بسجل آخر إلى
 إفريقية، قرئ في جامع القيروان، وغيره من الجوامع. (١) كما نقس اسمه
 على السكة، ودعا له على المنابر (٢)، وولاه ولاية دمشق. (٣) وفي العام
 نفسه أصدر مرسوماً آخر يقضي فيه بعدم مخاطبته بـ "الإمام" مكتفياً
 بلقب "أمير المؤمنين" (٤)، بعد أن زهد في الدنيا، ولبس لباس الزهد،
 والتشرف. (٥)

- (١) ابن عذاري: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ج ١، ص ٢٦٠؛
 القويري نهاية الأرب، ج ٢٨، ص ١٩٢؛ القلقشندي إنبواب الدين أبو العباس أحمد
 بن علي: صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ج ٩، دار الكتب المصرية، القاهرة،
 ١٩١٢ م، ص ٢٩٥ - ٢٩٦؛ المقريزي: الخطط، ج ٧، ص ٢٢٨.
- (٢) ابن الصيرفي إنتاج قرينة أمين الدين أبو القاسم علي بن منجب بن سليمان
 للكاتب، ت ٥٤٢ هـ / ١١٤٨ م، القانون في ديوان الرسائل والإشارة في من نال
 الوزارة، حفظها وكتب مقدمتها وحواشيها ووضع لها رسماً: أمين فؤاد سيد، ط ١،
 الدار المصرية اللبنانية، ١٩٦٠ هـ / ١٩٩٠ م، ص ٦٤؛ المقريزي: إعطاء الحنفاء،
 ج ٢، ص ٣١٧؛ ابن تغري بردي: النجوم، ج ٤، ص ١٩٣؛ جمال الدين الشيال
 : مجموعة الوثائق الفاطمية، ص ٢١.
- (٣) المقريزي: للمصبر السابق، ص ١١٩؛ ابن تغري بردي: المصبر السابق،
 ص ١٩٣.
- (٤) المقريزي: الخطط، ج ٢، ص ٢٨٨؛ إعطاء الحنفاء، ج ٢، ص ٩٦.
- (٥) ابن ظفر: أخبار الدول، ص ٥٠.

عدوا أن ولاية عبدالرحمن بن إياس غير شرعية، وانتقلوا على الحاكم بأمر الله، واضطربت الأمور في مصر، وتزعزعت أمور العقيدة الإسماعيلية فيها. ولم ينقذ الأمر سوى تدارك ست الملك أخت الحاكم بأمر الله للموقن واختفاء الحاكم بأمر الله نفسه من مسرح الأحداث في ظروف غامضة يحيطها اللغز، والريبة حتى أنه لم يعثر على جيشه. (١)

على الرغم من أن محاولة الحاكم بأمر الله لمخالفة العقيدة لم يكتب لها النجاح، فإن هذا القرار أدى إلى فساد المجتمع في ذلك الوقت، ولم يكن قرار الحاكم بأمر الله ذا صلة بسبب مباشر أو معالجة لبعض الأمور، ولكنه نتج عن فساد في قراراته السياسية، وعلى الرغم من عدم معرفة السبب الأمام الذي جعل الحاكم بأمر الله يفعل ما فعل، إلا أنه قد تم في العام نفسه الذي أمر فيه الحاكم بأمر الله التخلص من حظاياها، وأسماه أولاده من القصر - على الرغم من شغفه بالجماع - بما فيهم أم الظاهر لدين الله التي أخذتها ست الملك، وأخفتها عن العيون. (٢)

ظلت أمور الإمامة تسير بشكل طبيعي إلى أن توفي المستنصر بالله الفاطمي في عام ٤٧٧هـ / ١٠٩٤م، فأصبح أمر الدولة، وعقيدتها في يد وزرائها الأقوياء (أرباب السيوف) الذين أصبحوا أصحاب السلطة الفعلية بعد انقسام الدعوة الإسماعيلية، فأصبح هؤلاء الوزراء هم الذين يتحكمون في اختيار الإمام نفسه دون شرط، أو قيد حتى لو لم يكن له الحق في الإمامة حسب العقيدة الإسماعيلية، عقيدة الدولة الفاطمية.

(١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ، ج ٩، ص ٣١٥؛ ساويرس بن المقفع : سير نبيمة المتقدمة، ج ٢، ص ٢١٣٧؛ أبو صالح الأرمي : تاريخ الشيخ أبو صالح الأرمي، (تذكر فيه أخبار من نواحي مصر وإقطاعها)، تحقيق : رزق الله مغريوس لصديقي، المطبعة المدرسية، أكسفورد، ١٨٩٣، للمسيحية، ص ٦٦؛ ابن خلدون : تاريخ بن خلدون، ج ٢، ص ٦١؛ المقرئزي : تعاليف الحنفيا، ج ٢، ص ١١٥ - ١٢١؛ ابن تغري بردي : المصدر السابق، ص ١٨٥، ١٩٣.

(٢) الأنطاكي [يحيى بن سعيد] : تاريخ الأنطاكي المعروف بصله تاريخ أوتيا، حققه ووضع فهرسه : صهر عبد السلام تدعري، جروس برس، طرابلس، ليبيا، ١٩٩٠، ص ٣٠٤.

فبمجرد وفاته أراد للوزير الأفضل بن بدر الجمالي التلاعب بالعقيدة الفاطمية، فرفض جعل الإمامة لنزار^١ الابن الأكبر للخليفة المستنصر بالله، وصاحب الحق الشرعي في الخلافة بعد أبيه، حيث أقره المستنصر بالله للإمامة بعده، والذي كان يبلغ من العمر في ذلك الوقت خمسين عامًا، حيث ولد في عام ٤٣٧هـ.^(١) وتولى بالابن الأصغر للمستنصر بالله (أبا القاسم أحمد) الملقب بالمستعلي الذي ولد في عام ٤٦٧هـ / ١٠٧٤م^(٢)، وابن أخته - حيث إن المستنصر بالله كان قد تزوج من ابنة بدر الجمالي، وأنجب منها أبا القاسم أحمد - ، وأجلسه على كرسي الخلافة. ولم يكتف الأفضل بذلك بل أتى بنزار، وأمره بتقبيل الأرض بين يدي الخليفة الجديد، ومبايعته.^(٣)

رفض نزار^١ هذا الأمر، وطالب بحقه في الخلافة، ويذكر المقرئزي^(٤) أنه كان بين الأفضل شاهنشاه بن بدر الجمالي، ونزار^١ ولي العهد الشرعي، ثمة خلاف قديم أدى إلى إقصاء الأفضل لنزار من الإمامة خشية منه على منصبه، ويعود هذا الخلاف إلى تعمد نزار إهانة الأفضل شاهنشاه، وسبه أمام الجند عندما وجده يدخل القصر الملكي، وهو راكب دون أن يترجل، فصاح به نزار^١ : "ترجل يا أرمني يا نجس" فأسرها الأفضل شاهنشاه في نفسه، ولم يبدها إلا بعد وفاة للمستنصر بالله ؛ لأنه علم أن الخلافة لو آلت لنزار لم يستقم له أمر بعد. بالإضافة إلى ذلك فإن الخليفة الجديد "المستعلي" كان صغير السن، ومن ثم لم يستطع الأفضل شاهنشاه السيطرة على جميع أمور الدولة من خلاله.^(٥)

(١) المقرئزي : أتعاط للحفا، ج ٢، ص ١٠.

(٢) ابن ميسر : أخبار مصر، ص ١٦٢ للمقرئزي : للمصدر السابق، ص ١٠.

(٣) المقرئزي : المصدر السابق، ص ٤٣٥ ابن تغري بردي : للنجوم، ج ٥، ص ١٤١، ١٤٢.

(٤) المقرئزي : المصدر السابق، ص ٤٤٩.

(٥) نفسه، ص ٤٤٩ ابن تغري بردي : المصدر السابق، ج ٥، ص ١٤٢ جمال الدين الشبل : مجموعة الوثائق الفاطمية، ص ١٤٠ أحمد مختار لعبادي : في التاريخ العباسي والفاطمي، ص ٣٠.

لقد أدى إقصاء نزار من الخلافة - على الرغم من أحقيته لها - وتولية "المستعلي" (٤٨٧ - ٤٩٥هـ) (١٠٩٤ - ١١٠٦م) إلى حدوث انقلاب سياسي، وعقائدي، نتج عنه اضطراب، وفساد الأمور السياسية، والعقائدية في بعض البلاد المصرية، حيث اختلف الدعاة فيما بينهم على من يتولى الخلافة، "بركات" لمون الدعاة "عبد الله" الابن الأوسط لمنتصر بالله، ونعته "بالموفق"، وعندما علم الأفضل شاهنشاه بذلك ذهب إليه، وقتله. (١)

أما أهل الإسكندرية فقد خرجوا عن طاعة الخليفة الفاطمي الجديد، وانحازوا إلى نزار، وابعوه بالخلافة، ولقبوه بالمصطفى لدين الله، وذلك بعد أن قُتِم إليهم نزار هارياً من ظلم الأفضل، وقد رحب به واليها أفتكين عندما وعده نزار بالوزارة بدلاً من الأفضل، وعندما علم الأفضل بتلك الفتنة التي أثارها نزار سار إلى الإسكندرية على رأس حملة كبيرة ودارت بينه، وبين أهل الإسكندرية معركة انتهت بهزيمة الأفضل، الذي لم ييأس، وعاد مرة أخرى ٤٨٨هـ / ١٠٩٥م، حاصر فيها الإسكندرية ما يقرب من المئتين شهر، ارتكب خلالها الكثير من دروب القسوة، ولقتل حتى اضطر نزار، وأفتكين لطلب الأمان، وعلى الرغم من أن أعطاه إياهم الأمان، فإنه قام بقتل أفتكين بمجرد وصوله إلى القاهرة. أما نزار فقد بالغ في الانتقام منه حيث قام بحبسه ثم بنى عليه حائطاً حتى مات. (٢)

على أن قتل نزار لم يضع حداً للخلاف الذي قام بين الفاطميين ؛ حيث لتسعت الدعوة الفاطمية إلى نزارية - نسبة إلى نزار -، ومستقلية

(١) المقريزي : المصدر السابق، ج ٣، ص ٤٢٨.

(٢) ابن ميسر : أخبار مصر، ص ١٦٣ للمقريزي : أتماظ الحنفاء، ج ٣، ص ٤٢٨، على حمضي الخربوطلي : مصر العربية الإسلامية، ص ١٦٧؛ أمينة الشوريجي : رؤية الرحالة المسلمين للأحوال المالية والاقتصادية لمصر في العصر الفاطمي، سلسلة تاريخ للمصريين، عدد رقم (٧٢)، الهيئة المصرية للعلمة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٤م، ص ٥٠٣.

- نسبة للمستعلي - ، وجرى بين الاثنين نزاع حربي، وجنل مذهبي أدى إلى ضعف الدولة للفاطمية، وقد ظهر هذا الخلاف واضحا في الرسالة التي أرسلتها أم المستعلي إلى خلفاء الدعوة في اليمن، وأخرى بعث بها للمستعلي نفسه ؛ وذلك لتبرير أحقيته في للخلافة، كذلك الرسالة الصادرة عن الأمر بأحكام الله بن المستعلي والمعروفة باسم "الهداية الأمرية في إبطال الدعوة الفزارية" ؛ لتبرير شرعية حكم والده، ودحض حق دعوى عمه نزار. (١)

واستغل العباسيون اضطراب الدولة الفاطمية، وفساد عقيدتها، وانقسامها بين حكامها، وأعادوا الهجوم على أعدائهم الفاطميين، وذلك عن طريق للشك في نسيبهم، وأحقيتهم للخلافة، فقاموا بتحرير محضر آخر (٢) ٤٨٨هـ / ١٠٩٥م اتهمهم فيه بالخروج عن لمة الإسلامية ؛ مما كان له عظيم الأثر على زعزعة قوة الدولة للفاطمية، واضطراب أمورها. (٣) أصبحت الأمور جميعها في يد الأفضل شاهنشاه، الذي استبد بالأمر دون الخليفة "المستعلي" الذي لم يكن له من الأمر شيء، ولم تكن له سيرة تذكر، وبعد وفاة المستعلي ٤٩٥هـ / ١١٠١م، وكان يبلغ من العمر سبعة عشر عامًا، قام الأفضل شاهنشاه بتصيب ابنه "المنصور" بالخلافة، ولقبه "بالأمر لأحكام الله" (٤٩٥ - ٥٢٤هـ). (٤) وكان طفلاً لم يتجاوز خمس سنوات.

-
- (١) ابن خلدون : المقدمة، ج ١، ص ٣٦٢؛ المقرئزي : للمصدر السابق، ص ٤٤١ - ٤٤٩؛ ابن تغري بردي : النجوم، ج ٥، ص ١٤٢ - ١٤٥؛ محمد ماهر حمادة : الوثائق السياسية والإدارية، ص ٤٧؛ عبد المنعم ماجد: نظم الفاطميين وزمومهم، ج ١، ص ٦١؛ جمال الدين الشيباني : مجموعة الوثائق الفاطمية، ص ٤٧ - ٦٧.
- (٢) كان للمحضر الأول الذي أقره العباسيون ضد أعدائهم الفاطميين في عهد الحاكم بأمر الله الفاطمي، حينما كثرت الاضطرابات والفتن ومظاهر الفساد التي وصلت إلى حد تأليه للحكم بأمر الله نفسه.
- (٣) ابن ميسر : أخبار مصر، ص ٦٣؛ المقرئزي : للمصدر السابق، ص ١٧.
- (٤) للمقرئزي : التماظ للحفقاء، ج ٣، ص ٤٤٩؛ للقرماني : أخبار الدول وأثار الأول، ص ٣٤٤ - ٣٤٥.

تولى الوزير محمد بن فاتك البطاحي^(١) الوزارة بعد تتصلل الأفضل شاهنشاه (٥١٥هـ / ١١٢٢م)، وقد نعته الأمر و'المأمون'، سار بالمأمون البطاحي على سياسة ملفه بالاستبداد بالسلطان، والاستهانة بالخليفة، وحل الفساد محل الود بينهما، ولاسيما بعد أن أدعى المأمون البطاحي الخلافة، وأدعى أنه ولد 'نزار' بن المستنصر بالله من جارية خرجت من القصر، وهي حامل به، عندما خرج نزار إلى الإسكندرية، وقد بعث للمأمون البطاحي برسول من قبله إلى اليمن لتحقيق نسبه هناك، وأمر الرسول أن يدعو الناس إلى بيعته، فانزعج الخليفة 'الأمر' وأخذ يتحامل لاستدعائه إلى القصر بحجة إكرامه، ثم اعتقله وخمنا من إخوانه في خزانة البنود^(٢)، ثم أرسل يستدعي للرسول من اليمن، وقتلهم جميعاً صلينا ٥٢٢هـ / ١١٢٨م.^(٣)

(١) محمد بن فاتك البطاحي : هو أبو عبد الله محمد بن الأمير نور فدولة، البطاحي نسبة إلى قبيلاتج موضع بين 'واسط' و'البصرة'، قام بتدبير الأمور زمن الأفضل شاهنشاه ثم وزر للأمر، وقد نعته الأمر بالمأمون لأنه تسلّم أموال الأفضل كلها بعد وفاته وأحضرها كاملة للخليفة الأمر، فقال له : إنك المأمون حقاً مالك في هذا التعت شريك، يقال أن أول أمره كان فرأشاً. راجع : ابن الصيرفي : الإنسارية، ص٦٢ - ٦٤ ابن المأمون فبطاحي [الأمير جمال الدين أبو علي موسى] ت٥٨٨هـ/١١٩٢م، نصوص من أخبار مصر، تحقيق : أيمن فؤاد سيد : المعهد العلمي للآثار الشرقية، القاهرة، ص١٣ المقريزي : المصدر السابق، ص٦٤، ٦٥ ابن تفرى بردي : اللجوم، ج٥، ص١٧٠.

(٢) خزانة البنود : تعرف باسم خزانة الرفيات والأعلام، بناها الظاهر لإعزاز دين الله الفاطمي، كان موضعها خارج عن القصر، وكانت أيضاً تستخدم كمسجن ينقل فيه الأمراء والوزراء، ظلت حتى نهاية فدونة الفاطمية كذلك الأيوبية ثم الملوكية، كما لمكن فيها جماعة من أسرى الفرنج. راجع : المقريزي : الخطط، ج١، ص١٤٤ - ١٤٤.

(٣) ابن ميسر : أخبار مصر، ص١٠٧، للتوري : نهاية الأرب، ج٢٨، ص٣٩١؛ المقريزي : المصدر السابق، ص١١٢ - ١١٥، ١٢٢؛ ابن تفرى بردي : المصدر السابق، ص١١٧، أيمن فؤاد سيد : فدونة الفاطمية في مصر، ص٣٣٨.

=

قَبْلَ الأَمْرِ (٢٤هـ / ١١٣٠م) (١)، ويقتله دخلت مصرُ مرحلةً أخرى من مراحل الفوضى السياسية، والعقائدية، وذلك لأن الأمر قد قتل، ولم يخلف ولياً للعهد، فاضطرب الناس، ولاسيما الشيعة منهم، وقالوا: لا يمت أحد من أهل البيت إلا ويخلف ولذا نكرنا منصوصاً عليه الإمامة، وبدلت مشكلة للبحث عن وريث. غير أن الأمر قد أشار قبل موته بشأن إحدى جهاته حاملاً، ومن ثم كان، ولا بد من انتظار المولود لمعرفة إذا كان نكرًا، ووليًا للعهد أم أنثى. وانتظاراً لهذا المولود فقد تم تولية الإمامة - لأول مرة في تاريخ الدولة الفاطمية - "إمام مستودح" وفقاً للمصطلح الإسماعيلي وهو ابن عمه أبو الميمون عبد المجيد أكبر الأقارب سناً، ولقب بالحافظ لدين الله (٥٢٤ - ٥٤٤هـ) (١١٣٠ - ١١٤٩م) غير أن الحافظ لدين الله لم يهتأ بالخلافة سوى يوم واحد، حيث حجر عليه الوزير أبو علي أحمد بن الأفضل شاهنشاه الملقب بـ"كثيفات"، واستولى على مقاليد الأمور كأبيه، وجده من قبل. (٢)

شهدت مصر في تلك الفترة التي سيطر عليها أبو علي أحمد بن الأفضل الذي تلقب بلقب "الأكمل" (٥٢٤ - ٥٢٦هـ / ١١٢٩ - ١١٣١م) وضعاً قريداً لم يشهد من قبل، حيث كان الأكمل يعتنق مذهب

وذكر النويري سبباً آخر لقتل للمأمون البطاحي، ويقول أن المأمون راسل الأمير جعفر - أخا الأمر - وأغراه بقتل الأمر، ولأن يقم مكانه في الخلافة. نهاية الأرب، ج٢٨، ص٣٩١.

(١) ابن الأثير: الكامل، ج١، ص٤٦٤؛ ابن ميسر: المصدر السابق، ص١١٣؛ ابن كثير: إصعاد الدين أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشي: البدلية والندبية، ج١، ط١، ص٢١٥؛ النويري: المصدر السابق، ص٢٩٤ - ٢٩٥؛ المقرئزي: تعاضد الحنفاء، ج٣، ص١٥١٧؛ فخطط، ج٢، ص١٢٠٤؛ ابن تغري بردي: المصدر السابق، ج٥، ص١٨٤، ١٨٥.

(٢) ابن تغري بردي: النجوم، ج٥، ص٢٣٧ - ٢٣٩؛ النويري: نهاية الأرب، ج٢٨، ص٢٩٨؛ جمال الدين لثميال: مجموعة لوثائق الفاطمية، ص٩٢؛ أمين فواد سيد: الدولة الفاطمية في مصر، ص٢٤٢ - ٢٤٣.

الإمامية الاثنا عشرية، فأعلن نهاية الأسرة الفاطمية، ودعا للإمام المنتظر الاثني عشري، ونقش اسمه على المسكة ككاتب عنه، ثم أخذ يعمل على إضعاف المذهب الإسماعيلي في مصر، فأوجد ملة لم يسمع عنها من قبل. ففي سنة ٥٢٥هـ / ١١٣١م قام بتعيين أربعة من القضاة، منهم اثنان من الشيعة أحدهما إمامي، والآخر إسماعيلي، واثنان من السنة أحدهما شافعي، والآخر مالكي، وكان كل منهم يحكم بمذهبه، ويورث بمذهبه، فوصلت مصر إلى قمة فسادها، وقد أثارت تلك السيادة غضب دعاة الفاطميين فسوا له من قتله، وهو خارج للهو ٥٢٦هـ / ١١٣٢م. (١)

ثار غلمان الأمر في ظل تلك الفوضى، وتمكنوا من إخراج الحافظ من المعتقل، وبايعوه بالإمامة للمرة الثانية - وأثناء تلك الفترة ما بين قتل الأمر، وتولية الحافظ كانت زوجة الأمر قد أنجبت طفلاً، والذي أكد بعض المؤرخين على أنه نكر، وخالفهم للبعض الآخر^(٢)، غير أن هذا المولود قد هرب من القصر، وكتم أمره، ويقول بعض ابن الحافظ طمع في الخلافة فأمن في البحث عنه فلما انتهى إليه قتله^(٣)، ولم تهدأ الأمور بتولية الحافظ فقد توالى الأزمات، والاضطرابات داخل صفوف الدعوة الإسماعيلية من جديد، عندما أثار الناس أن الأمر قد أنجب ولذا ذكراً قبل وفاته بثمانية أشهر ٥٢٤هـ / ١١٣٠م أسماه أبا القاسم الطيب، وجعله ولياً للعهد، ويقال إن الحافظ كتم لمر هذا الطفل أيضاً بعد وفاة الأمر،

(١) ابن ميعر : أخبار مصر، ص١١٥؛ للتويري : للمصدر السابق، ص٢٩٧؛ ابن كثير : البداية والنهاية، ج ١٠، ص٢٣؛ المقرئ : الخطط ج ٢، ص٣٤٣؛ تعاليف الحنفا، ص٥٢٧؛ ابن تغري بردي : للنجوم، ج ٥، ص٢٣٩؛ علي حسني الخريوطي : مصر للعربية الإسلامية، ص١٧٢.

(٢) التويري : المصدر السابق، ص٢٩٨؛ ابن تغري بردي : المصدر السابق، ج ٥، ص٢٣٧.

(٣) ابن ميعر : المصدر السابق، ص١٠٩، ١١٠؛ محمد جمال الدين الشبل : المرجع السابق، ص٤٩؛ محمد جمال الدين سرور : لدولة الفاطمية، ص١٢٢؛ علي حسني الخريوطي، المرجع السابق، ص١٧١ - ١٧٢.

ويؤكد وجود هذا اللطيف سجلٌ قد بحث به الأمر إلى السيدة الحرة في اليمن
بيشرها بميلاد ابنه الطيب. (١)

وبناء على هذا السجل فقد أصبح الإمام الطيب رأساً لدعوى
إسماعيلية جديدة اعترف بها الإسماعيليون في اليمن، وغرب الهند،
بالإضافة إلى النزارية في الشام، وإيران، أما في مصر فقد انقسمت بين
حافظية - نسبة للحافظة - وطيبة تنادي بحق الطيب بن الأمر تمركز
أصحابها في الإسكندرية، ونقشوا دنائير تحمل اسمه (٢)، كما نلاحظ أن
نفوذ الفاطميين قد انحصر بهذا الشكل في مصر فقط بعد أن انفسن عنها
أتباعها الذين لم يعترفوا بأحقية الحافظ، وخلفائه في الخلافة؛ لذلك فإن
بعض المؤرخين (٣) يعدون خلافة الحافظ لتين الله هي البداية الحقيقية
لانهيار الدولة الفاطمية. وقد عدت إمامة الحافظ خروجاً على أسس العقيدة
الإسماعيلية تماماً، وتجاهل شرط وجودها في (الأعتاب، متلما كان الأمر
من قبل مع عبد الرحيم بن إلياس زمن للحاكم، غير أن عبد الرحيم قد قتل
قبل وصوله للحكم، بينما استمر الحافظ لدين الله، وأصبح خليفة
للمصريين، وتنازع أبناؤه من بعده على ولاية العهد. (٤)

وقد أدى هذا الضعف السياسي للخلفاء إلى تولي الوزراء الأقرباء،
وتحكمهم في الأمور، أيًا كان مذهبهم. هذا الأمر الذي أدى إلى انهيار
العقيدة الفاطمية، وزولها تماماً، ففي خلافة الظاهر لدين الله (٤٤٤ -
٥٤٩ هـ / ١١٤٩ - ١١٥٤ م)، تولى الوزارة "ابن السلاز" والتي
الإسكندرية، والبحيرة، الذي أجبر للخليفة الظاهر على قبوله في منصب

-
- (١) عمارة اليماني إنجم فنين أبو محمد بن أبي الحسن علي الحكي، تاريخ اليمن،
نشره حسن سليمان محمود، القاهرة، ١٩٥٧ م، ص ١٢٧ - ١٢٨ للمقريزي :
اتعاط للحقن، ج ٢، ص ١٥٢ ابن تغري بردي : الفجوم، ج ٥، ص ٢٢٨؛ جمال
الدين الشيبان : مجموعة الوثائق الفاطمية، ص ٧٦ - ٧٨.
(٢) أيمن فؤاد سيد : الدولة الفاطمية في مصر، ص ٢٥٢.
(٣) محمد ماهر حمادة : للوثائق السياسية والإدارية، ص ٤٤.
(٤) المقريزي : اتعاط للحقن، ج ٢، ص ٥٣٤ - ٥٣٦ ابن تغري بردي : المصنوع
السابق، ص ٢٤٦؛ جمال الدين الشيبان : المرجع السابق، ص ١٠٣.

الوزارة بعد حروب دارت بينه، وبين ابن مصلح الوزير السابق، وقد وافق الخليفة للظافر أدين الله رغماً عنه، على الرغم من كون ابن السلار "سني" للذهب. (١)

وأبدى ابن السلار عداوة للمذهب الشيعي فوعدت الفتنة بين كل من الشيعة، والسننة، ولاسيما بعد أن استجد بنور الدين محمود صاحب بسام، وكان نور الدين محمود منياً متعصباً، وقد شعر الخليفة بخطورة ابن السلار على الدولة، وكذلك مذهبيها الشيعي، فعمل على التخلص منه نهائياً.

وقد تم ذلك في عام ٥٤٨هـ / ١١٥٣م. (٢) هذا الأمر الذي أغضب أهل السنة في مصر؛ ولكتهم خشوا التعبير عن غضبهم خشية بطش الخليفة، وفي ظل هذا الفساد الذي عم مصر وأنحاءها، تمكن الفرنج من الاستيلاء على مدينة عسقلان (٣) (٥٤٨هـ / ١١٥٣م)، وقد الفاطميون آخر ممتلكاتهم في بلاد الشام. (٤)

(١) ساويرس بن المقفع، سير البيعة المقدسة، م ٣، ج ١، ص ٤٤٤؛ ابن بطويع: نزهة المقلتين، ص ٥٩؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج ١١، ص ١٤٢؛ ابن ميسر: أخبار مصر، ص ١٤٢؛ النويري: نهاية الأرب، ج ٢٨، ص ٩٢.

(٢) ابن الفلاس: أبو حمزة بن أسد قنبري، ذيل تاريخ دمشق، تحقيق: أسدروزي، بيروت، ١٩٠٨، ص ٣١٩ - ٣٢٠؛ ابن ظاهر، أخبار مصر، ص ١٠٣.

سبط بن الجوزي [أمن الدين أبو العظفر يوسف بن قزوغلي]: مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، م ٨، حيدرآباد الركن، الهند، (١٣٣٧ - ١٣٣٩م)، ص ٢١٤ - ٢١٥؛ أبو شامة [شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي]: الروضتين في أخبار الدولتين، ج ١، ص ٢٢٦ - ٢٢٧؛ ابن ميسر: أخبار مصر، ص ١٤٦ - ١٤٧؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٣، ص ٤١٨؛ المقرئ: لحاظ اللغات، ج ٣، ص ٥٦٦ - ٥٦٨؛ ابن تغري بردي: النجوم، ج ٥، ص ٢٩٥؛ محمد جمال الدين مرور: للدولة الفاطمية، ص ١٢٤.

(٣) مدينة عسقلان: بفتح أوله وسكون ثلثيه، وهي اسم عجمي يعني أعلى الرأس، وهي في العربية معناها أعلى للشام، وهي مدينة بالشام من أعمال السليمان، على ساحل البحر، يقال عنها محروس الشام، مثلما قيل عن دمشق، استولى عليها للفرنج ٥٤٨هـ / ١١٥٣م، وبقيت في أيديهم ٣٥ عاماً، ثم استردها صلاح الدين الأيوبي ٥٨٣هـ. للمزيد راجع: ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٦، ص ٥٩.

(٤) ابن الفلاس: المصدر السابق، ص ٣٢٠ - ٣٢٢؛ أبو شامة: المصدر السابق،

وفي أواخر عهد الفاطمية، ازدادت مظاهر الفساد، وكثرت الصراعات بين كبار رجال الدولة، لتولي منصب الوزارة، واستعان كل من المنتازعين بقوى خارجية تطلعت على عورات مصر، ومراكز ضعفها، حتى آل الأمر في النهاية إلى تولي صلاح الدين الأيوبي المنصب المذهب وزيراً للخليفة العاضد، نيابة عن نور الدين محمود حاكم الشام. (١)

أخذ صلاح الدين في تصفية الدولة الفاطمية، والقضاء على مذهبها الشيعي نهائياً، وقد تم هذا بطريقة تدريجية، حيث قام بعزل قضاة مصر الشيعة، وقلد قضاة من السنة الشافعية، والمالكية، كما أنشأ مدرسة لتدريس المذهب الشافعي، وأخرى لتدريس المذهب المالكي، فاستعاد المذهب السني قوته، وبدأ للمذهب الإسماعيلي في الاختفاء تدريجياً. (٢) كذلك عمد صلاح الدين إلى التشكيك في نسب الفاطميين للسيدة فاطمة الزهراء، فأشيع أنهم من أصل يهودي أو مجوسي، مما جعل الناس في مصر يتحدثون، وينتظرون زوال تلك الدولة، وفي عام ٥٦٧هـ / ١١٧١م أسقط صلاح الدين الأيوبي الخطبة للفاطميين، وأمر بالدعوة للخليفة العباسي المستضيء بأمر الله، فكانت نهاية للدولة الفاطمية، وكذلك عقيدتها الشيعة في هدوء تام. (٣)

ص ٢٧٣ - ٢٥٥ ابن قاضي شبيهة إيدر الدين محمد بن أبي بكر بن أحمد الأندلسي للمدني الشافعي، الكواكب الدرية في السيرة النورية، تحقيق محمود زاهد، بيروت، ١٩٧١م، ص ١٢٩ - ١٤٤.

(١) أبو شامة : المصدر السابق، ص ٤٠٦؛ ابن واصل إجمال الدين بن سالم الحموي، مغرَج الكروب في أخبار بني أيوب، ج ١، تحقيق : جمال الدين الشيبان، القاهرة، ١٩٥٢م، ص ١٦٨ - ١٦٩ للتويري : نهاية الأرب، ج ٢٨، ص ٣٥٨ - ٣٥٩، المقرئزي : اتعاط الطفا، ج ٢، ص ٦٤٠.

(٢) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان، ج ٨، ص ٢٨٣؛ أبو شامة : لروضتين، ج ١، ص ٤٨٦؛ ابن واصل : مغرَج الكروب، ج ١، ص ١٩٨؛ المقرئزي : الخطط، ج ٢، ص ٢٧٣؛ ابن هيس : بذائع الزهور، ج ١، ص ٢٣٣.

(٣) ابن الأثير : الكامل، ج ١١، ص ٣٦٩؛ أبو شامة : المصدر السابق، ص ٤٩٣.

كذلك جاء المذهب الشيعي مصر ، واختلفى دون أن يعتقه أغلبية
الشعب المصري، اللهم إلا القلة القليلة التي تعاونت مع الخلافة الفاطمية.

[٢] ادعاء معرفة الغيب، والألوهية لأغراض سياسية :

كان خلفاء الفاطميين شديدي الشغف بالغموض، والسرية^(١)،
كذلك شغفوا بعلم النجوم. وكان هذا الغموض في كثير من الأحيان سبباً
من أسباب قوتهم، وظهورهم في نظر العامة، والخاصة بالمقدرة الخارقة.
ويبدو أن شغف الفاطميين بالنتجيم، ومعرفة غيب الأمور، قد هباً لهم
أموراً عدة خالفت الشريعة الإسلامية، وكذلك المبادئ الإسماعيلية نفسها.
وأدت إلى ظهور لقلل، ولغناد داخل المجتمع المصري.

وقد أدى شغف المعز لدين الله الفاطمي بعلم النجوم، إلى اختفائه
في سرداب أربعة أشهر^(٢)، حتى يمنع مكروه نله عليه طلعه، كذلك
اختلفى عن الأعين حتى يمر هذا المكروه بسلام دون أن يجهده، وعندما
عاد انتشر بين الناس أنه قد رفع إلى السماء ثم عاد مرة أخرى، ولا تعلم
كيف كانت تدار أمور البلاد في تلك الفترة التي اختلفى فيها المعز لدين
الله، ولا سيما أن المقرئى قد ذكر أن مدة اختفائه عن الأعين كانت عاماً
كاملاً^(٣).

أما العزيز بالله تزار* فقد ادعى أنه يعلم الغيب، هذا الأمر الذي
أغضب العامة في كل مكان، ولا سيما السنة منهم، فاتهموه بالكفر، واستغل

محمد ماهر حمادة : الوثائق السياسية، ص ٤٩٦؛ محمد جمال الدين سرور : الدولة
الفاطمية، ص ١٣٤ - ١٣٥.

(١) قامت الدولة الفاطمية في بلاد المغرب في ظروف غامضة، فكانت ثمرة لدعوة
سرية مليئة بالغموض والأسرار، وكان عبد الله الشهدى أول خلفائها شخصية
غامضة لم يستطع التاريخ أن ينف على حقيقتها، كذلك كان الفاطميين في مصر
يحيطهم نفس الغموض والشك. محمد عبد الله عنان : الحاكم بأمر الله، ص ٣٤٥.

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية، ج ١١، ص ١٢٨٤؛ ابن إياس : المصدر السابق،
ص ٣٧.

(٣) المقرئى : المعلط الخفاء، ج ٢، ص ١٤٥.

بعضهم صغوده يوماً على المنبر للصلاة، وألقوا إليه بورقة كتبوا فيها :

بالظلم والجور قد رضينا وليس بالكفر والحماقات

إن كنت اطاعت على الغيب فقل لنا كاتب البطاقة. (١)

لم يهتم العزيز بالله "نزار" بالأمر، وظل شغولاً بهذه الأمور، حتى إنه قد أوصى ابنه الحاكم بأمر الله بضرورة الاهتمام بالنجوم، وطالعهما في كتاب عتيق أسماه 'وصية الإمام العزيز بالله لولده الحاكم بأمر الله'. (٢)

أما للحاكم بأمر الله الفاطمي فلم يكن في حاجة إلى وصية من والده العزيز 'نزار'، فقد كانت فترة خلافته محاطة بانفيوم، والأسرار، كما كانت شخصيته مزيجاً من المتناقضات، فقد وصف بأنه يجمع بين الشيء، ونقيضه في آن واحد، فقد جمع بين الشجاعة، والإقدام، والجبن، والإحجام، أحب للعلم، وانتقم من العلماء، مال للإصلاح، وقتل الصلحاء، كما وصف بأنه مبنئ الاعتقاد، سريع التنقل من حال إلى حال، متذبذب الأفكار، مضطرب للشخصية، وصفه البعض بالجنون، وبالشنود أحياناً، كان عاشقاً للدماء، وقتل العديد من المقربين إليه، ولاسيما للزعماء، والقادة، والوزراء، والكتّاب، وللتجار، حتى للعامة لم يملوا من طغيانه فكثرت ضحاياه، وكثر غموضه. (٣)

أدت تصرفات الحاكم بأمر الله المرعبة، إلى مبالغة الناس في تقديرهم لشخصه، فظهرت أقوال كثيرة تبين أن الحاكم بأمر الله إمام مثل الأئمة، إنما بشرت به الأنبياء؛ بينما اعتقد بعض الناس أنه قد يكون المسيح - عليه السلام -، الذي يأتي آخر الزمان؛ لإقامة العدل، حيث كان

(١) محمد عبد الله عنان : للحاكم بأمر الله، ص ٢٤٦.

ويذكر الأنطاكي : أن هذه الأبيات قد كتب للحاكم بأمر الله وليس للعزيز بالله، تاريخ الأنطاكي، ص ٣٣٦ - ٣٣٧.

(٢) محمد عبد الله عنان : المرجع السابق، ص ٢٤٦.

(٣) ابن خلدون : أخبار الدول، ص ٥٠؛ المقريزي : لمعاظ الحفاظ، ج ٢، ص ١٤٦؛ ابن تغري بردي : للنجوم، ج ٤، ص ١١٧٦؛ محمد عبد الله عنان : المرجع السابق، ص ١٠٥؛ محمد ماهر حمادة : الوثائق السياسية، ص ٣٦.

الحاكم بأمر الله يعد نفسه مسؤولاً عن الأمر بالمحروف، والنهي عن المتكر، كما كان يقوم بقتل المخطف، كذلك أشاروا إليه بالرمز في التوراة ويأنه يأتي بأعمال باهرة،^(١) وقد مال الحاكم بأمر الله إلى مثل هذه الأقاويل التي أحاطته بهالة من الإجلال، والتقديس الذي كان يسعى إليهما دائماً كغيره من الفاطميين، وعلى ما يبدو أن الحاكم بأمر الله قد صدق هذا الأمر حتى إنه كان ينفرد بنفسه في الجبل يتعوث إلى الله تعالى أن ينجيه، ويوحى إليه كما نوحى لموسى، وأرصى إليه، وإلى غيرهم ممن أنبيأته - عليهم السلام -.^(٢)

وقد أدى هذا الاتجاه الذي نهجه الحاكم بأمر الله، وهذه الاضطرابات التي عمت مصر، إلى محاولة بعض الطوائف الفارسية لإحياء مجدها القديم، فوفدوا إلى مصر لنشر مذهبهم، وأفكارهم الهدامة^(٣)، تمهيداً منهم لسقوط الدولة الفاطمية، وإعادة مجد الفرس القديم، ففي عام ٤٠٩ هـ / ١٠١٨ م، ظهر رجل يقال له حسن بن حيدرة الغرشاني الأخرم^(٤)، يروي حلول الإله في الحاكم بأمر الله، ويدعو إلى ذلك، ويتحكم في إبطال الثبوت، ويتأول جميع ما في الشريعة، فاستدعاه الحاكم بأمر الله، وخلق عليه خلقاً سيئاً، وحمله على فرس بسرج في

(١) عبد المنعم ماجد : ظهور الخلافة الفاطمية، ص ٢٨٤، ٢٨٤.

(٢) الأنطاكي : تاريخ الأنطاكي، ص ٣٣٠.

(٣) لقد اختلفت الروايات في تواريخ ظهور هؤلاء تدعاة، يتكبر الأنطاكي أن للدرزي هو أول من ظهر منهم، وكان ذلك في سنة ٤٠٨ هـ / ١٠١٧ م، وهو أول من قاتل بألوهية الحاكم بأمر الله وأتباعها، وعلى هذا سميت جماعتهم بالدروز ويوافقته نسي ذلك عبد المنعم ماجد، ثم ظهر حمزة الزورني، بينما يذكر ابن ظافر أن حسن بن حيدرة الأخرم هو أول من ظهر بمصر في هذا التوقيت وتبعه حمزة اللباد، ثم الدرزي الذي هرب إلى القلم وكون جماعة للدروز. راجع : الأنطاكي، المصدر السابق، ص ٣٣٤ - ٣٤٢؛ ابن ظافر : أخبار الدول، ص ٥١ - ٥٤؛ عبد المنعم ماجد؛ المرجع السابق، ص ٢٨٣.

(٤) الأنطاكي : المصدر السابق، حاشية (٤)، ص ٣٤٠ - ٣٤١؛ ابن ظافر :

المصدر السابق، ص ٥٠؛ الدوادري : كنز الدرر، ج ٦، ص ٢٩٤.

موكبه، بينما هو يسير في بعض الأيام تقدم إليه رجل من الكرخ، وفتكه بعد أن ألقاه من فرسه، وقد سُر أهل السنة لذلك. (١)

وفي عام ٤١٠ هـ / ١٠١٩ م، ظهر رجل من دعاة حسن بن حيدرة، يدعى حمزة بن أحمد الزوزني (٢) يقال له حمزة اللباد، وهو أعجمي من الزوزون، لازم الجلوس في المجالس، وأظهر للدعاة إلى عبادة الحاكم بأمر الله، وأن الإله حل فيه، واجتمع إليه جماعة من شلاة الإسماعيلية، وكثر جمعه، وأشاعت دعوته، وتلقب بهادي المستجيبين. وكان الحاكم بأمر الله ينفرد به، ويحادثه، وقد ادعى الحاكم أنه قد خاف على نفسه، وأن قوماً من الجند قد توعده بالقتل، وأنهم سيفعلون به مثلما فعلوا بالأخرم الفرغاني، فأفخذ له الحاكم بأمر الله أسلحة كثيرة، علقها على باب المسجد، وقد ارتفع شأنه، وأصبح له خواص، وتقبهم بالقباب، كان منهم رجل لقبه بسفير القدرة، وجعله رسولاً له فكان يرسله لأخذ البيعة على رئيس رئيس، وكبير كبير على تأليه الحاكم بأمر الله، ولم يكن هناك من يخالفه خشيبة بطشه. (٣) وقد دعا إلى الرخصة والإباحة، وحل نكاح الأمهات، والأخوات، والبنات، وأسقط جميع التكليفات من الصوم، والصلاة، والحج، وقد استجاب له خلق كثير. (٤)

ثم تبع شاب من الأتراك يدعى أنوشتيكن البخاري يعرف بالدرزي (٥)، ملك نفس طويق الزوزني، والفرغاني، وكان الدرزي حليفاً

(١) ابن ظاهر : المصدر السابق، ص ٥٢. محمد عبد الله عنان : الحاكم بأمر الله، ص ١٩٧ غير أن محمد عبد الله عنان، يذكر أن حمزة اللباد ظهر في عام ٤٠٨ هـ / ١٠١٧ م.

(٢) حمزة بن أحمد اللباد : وهو فارسي من مقاطعة زوزون كان يعمل في بدء أمره بصنع اللباد، وأنه وفد إلى القاهرة في عام ٤٠٥ هـ. محمد عبد الله عنان : المرجع السابق، ص ١٩٧.

(٣) الأنطاكي : تاريخ الأنطاكي، ص ٣٤٢؛ ابن ظاهر : أخبار النول، ص ٥٢.

(٤) ابن ظاهر : المصدر السابق، ص ٥٢.

(٥) الدرزي [محمد بن إسماعيل الدرزي] : هو رجل أعجمي، ربما يكون تركي، وذلك لأن اسمه "لنوشتيكن" قدم مصر في عام (٤٠٨ هـ / ١٠١٨ م) ولتصل

لحمزة، وداعيته، ولكنه لتقرب عليه، وخاصمه، وبدأ دعوته منفرداً، وسمى نفسه سيد الهادين، وحامي المستجيبين، وكان من الباطنيين القائلين بالتناسخ، اجتمع بالحاكم بأمر الله وماعده على ادعاء الزبوية^(١)، فقربه الحاكم بأمر الله إليه، وفوض الأمور إليه، وبلغ منه أعلى المراتب؛ حيث إن الوزراء، والنواد، والعلماء كانوا يقضون بداية، ولم ينقض شغل إلا على يده، فكان بعض العامة كلما مر عليهم الحاكم بأمر الله قالوا له: "يا واحد يا أحد يا سحبي يا مبيت"^(٢).

بالحاكم بأمر الله، وكان للدرزي من الباطنية الثنتين بالتناسخ، فاجتمع بالحاكم بأمر الله وماعده على ادعاء الزبوية، وصنف له كتاباً ذكر فيه أن روح آدم عليه السلام انتقلت إلى علي بن أبي طالب، وأن روح علي انتقلت إلى أبي الحاكم بأمر الله، ثم انتقلت إلى الحاكم نفسه، فقربه الحاكم بأمر الله إليه وفوض الأمور إليه، وبلغ فيه أعلى المراتب، بحيث إن الوزراء والنواد والعلماء كانوا يقفون على بابيه، وقد كان له أعواناً وأصحاباً يساعونه على نشر دعوته، وكان منهم الحسن بن حيدر بن الفرغاني الأخرم، وحمزة بن أحمد الهادي الزوزني. ويذكر بن ظافر: أن الدرزي قد ظهر في عام ٤١٤هـ، وأنه كان من رجال حمزة هلياد وأنه كان رسولا له يرسله لأخذ البيعة للحاكم على أنه إله من رسله وكبار الدولة، فثار الناس عليه وقصدوا قتله، وقتله أحد الأتراك وهو في موكب الحاكم بأمر الله، وقامت الفتنة في مصر واستمرت ثلاثة أيام خلقت فيها جوارب القاهرة، وقتل العديد من جماعة الدرزية.

العزید راجع : الأقطاكي : المصدر السابق، ص ٣٣٤، ٣٤٠ ابن ظافر : أخبار فلول، ص ٥٢، ٥٣؛ فنويري : نهاية الأرب، ج ٢٨، ص ١٩٦ - ١٩٨ المتريزي : اعطاء الخفاء ج ١، ص ١١٣؛ ابن تغري بردي : النجوم، ج ٤، ص ١٨٤؛ عبد المنعم ماجد : ظهور الخلافة الفاطمية، ص ٢٨٣؛ محمد عبد الله علقم : الحاكم بأمر الله، ص ٢، ٣، ٣٠٣؛ أيمن فؤاد سيد : الثورة الفاطمية في مصر، ص ١٧٥، ١٧٥؛ عبد الرحمن بدوي : الدرور، ملحق بكتاب مذاهب الإسلاميين، المجلد الثاني، ط ١، بيروت، ١٩٧٢م، ص ٥١٨.

(١) لم تكن فكرة تأليه الأئمة قريبا على الفاطميين، فقد نادى المغالين منهم ولاسيما الشيعة بتكليه علي بن أبي طالب، راجع : علي حسني للخربوطلي، مص العربية الإسلامية، ص ١٥٧.

(٢) الأقطاكي : تاريخ الأقطاكي، ص ١٣٤، ابن ظافر : أخبار الدول، ص ١٥٤، ابن تغري بردي : النجوم، ج ٤، ص ١٨٤؛ ابن إلهام : بدائع الزهور، ج ١، ص ٢٠٨ - ٢٠٩.

وقد حاول هؤلاء الدعاة، الذين كثر عددهم إلى فرض عقيدتهم الجديدة على أهل القسطنطينة فدخلوا مسجد عمرو بن العاص (مركز المقاومة السنية) وأجبروا السنة على اتباع مذهبهم، فأنكر للناس ما سمعوه، وجحوا بالتكبير، والتهليل، والتناد على الله عز وجل. (١)

وحدثت فتنة عظيمة في مصر لم يرض عنها سوى الحاكم بأمر الله، ومن تأثر بهؤلاء الدعاة، حتى إن بعض رجال الدعوة الشيعية قد رفضوا مثل هذه الادعاءات، فرفضوا عقد مجالس للحكمة، والبعض الآخر أتبع هذا، وبعضهم قد تزعمت عقائده، وأدى ذلك إلى ظهور بعض الدعاة، ومنهم أحمد حميد الدين الكرمانلي، الملقب بحجة للعراقيين الذي قدم إلى مصر في ٤٠٨هـ / ١٠١٧م، بوضع رسالته المعروفة "الرسالة الواضحة في الرد على الأخرم لفرغاني" يمحض فيها فكرة تأليه الحاكم بأمر الله، ويثبت عقيدة الإسماعيلية في الله الذي لا إله إلا هو. (٢)

لم يقبل المصريون هذه الادعاءات فأجتمعتهم، وسائر الجند الأتراك الذين لم يرضوا ما دعاه جماعة الدرزي، وقصدوا دار الدرزي، وأحاطوا بها، وقد فر الدرزي، ودخل القصر الحاكم، حيث أخفاه الحاكم بأمر الله، وأنكر وجوده خوفاً من الرعية، وادعى أنه قتل، غير أن الجند، والرعية قد ثاروا عليه، ولاسيما بعد أن انضم إليهم بقية الجند، واستطاع الحاكم بأمر الله أن يهد الدرزي بالمال، والسلاح فهرب إلى الشام، ونزل ببنداس، وهناك استطاع بماله، وأفكاره نشر دعوته بين أهلها، ونسأدى بالزهرية الحاكم، وأباح لهم المحظورات كما أباح لهم شرب الخمر، والزنا، وقد استباح أعوان الدرزي دماء من خالفهم في عقيدتهم. (٣)

(١) الأنطكي : المصدر السابق، ص٣٤٢؛ ابن ظافر : المصدر السابق، ص٥٢.

١٥٣ المقرئبي : للخط، ج١، ص٣٥٤؛ تماط للحفنا، ج٢، ص١١٣.

(٢) محمد عبد الله عنان : الحاكم بأمر الله، ص٢٩٨.

(٣) الأنطكي : المصدر السابق، ص٣٤٨؛ ابن ظافر : المصدر السابق، ص٥٤.

ابن تغري بردي : النجوم، ج٤، ص١١٨؛ محمد جمال الدين سرور : الدولة

الفاطمية، ص١٩٢؛ أيمن فؤاد سيد : الدولة الفاطمية في مصر، ص١٧٤.

تزايد أمر الدرزية إلى أن لعنوا آدم، ونوحًا، وجميع الأنبياء، ومحمدًا، وعليا، وتغوطوا في المساجد، ولطخوا القبلة بالأقذار، وبالوا على مصاحف القرآن، وعملوا كتابًا في معنى القرآن، وسوء الدستور، وكان الحاكم بأمر الله منذ بدء أمرهم قد قطع ما جرى به رسمه من صلواته، وخطبة الجمعة وعطل على ذلك الحج إلى مكة كما انقطع كل الكسوة التي جرت بها العادة بتجهيزها إلى للكعبة. (١) بل إنه فكر في نقل الحج إلى مصر، ولكن محاولته باءت بالفشل. (٢)

هكذا عمّ الفساد في بلاد الشام أيضًا كما عمّ مصر، وأخذ الحاكم بأمر الله في الانتقام من الجند، والرعية، هذا الأمر الذي أدى إلى حرق القسطنطين بأهلها، بعد أن استباح حرمانها، وأضر بأهلها. ولم يجدوا من يغيثهم فنضروا إلى الله طالبين منه أن ينجيهم مما ألوا إليه (٣)، ولم يكتف الحاكم بأمر الله بما حدث بل استمر في طغيانه، وادعى أنه يعلم الغيب، مثلما فعل ولده العزيز من قبل، فكان يضع جواسيسه من العجائز اللاتي يدخلن في بيوت الوزراء، والأمراء، والأعيان، ويأتينه بما يحدث فيها، ويبيت هو قائلًا لهم ما قد حدث دخل بيوتهم فيصدقوا أنه يعلم الغيب. (٤)

ظل الحاكم بأمر الله يدعي الغيب، ويهتم بأمر النجوم حتى قيل إنه عرف من طالعه أنه هالك في هذه الليلة، وقد أخبر أمه بذلك، ولكنه لم يفعل مثلما فعل جده المعز لتبين الله من قبل، فاختفى حتى يمر الخطر، بل خرج الحاكم بأمر الله لمصيره حتى اختفى تمامًا دون رجعة. (٥)

(١) الأبطلي: تاريخ الأبطال، ص ٣٤٤، ٣٤٥.

(٢) البكري (أبو عبيد الله بن عبد العزيز)، جغرافية مصر في كتاب المسالك والممالك، تحقيق عبد الله يوسف الخديم، الكويت، ١٩٨٠، ص ٥٧.

(٣) ساويرس بن المقفع: سير النبوة المقسمة، ج ٢، م ٢٧، ص ١٢٦ - ١٢٧؛ الأبطلي: المصدر السابق، ص ٣٤٥ - ٣٤٦؛ انويري: نهاية الأرب، ج ٢٨، ص ١٩٢ - ١٩٤؛ ابن تقي بريدي: النجوم، ج ٤، ص ١٨٢ - ١٨٣؛ ابن ياسين: يدع الزهور، ج ١، ص ٢٠٨ - ٢٠٩.

(٤) الأبطلي: المصدر السابق، ص ٣٣٧؛ ابن ظافر: أخبار الدول، ص ٤٥، ابن ياسين: المصدر السابق، ص ٢٠٨.

(٥) ساويرس بن المقفع: المصدر السابق، ج ٢، م ٢٧، ص ١٣٧؛ أبو صالح الأرمني:

وعلى الرغم من موت الحاكم بأمر الله، وانتهاء أمره، فإن مظاهر الفساد التي عمقت عصره لم تنته بوفاته؛ حيث أشاعت جماعة للدرزية أن الحاكم لم يموت، وأنه سيعود إذا زالت المغامد المنتشرة في العالم فهو الإمام المنتظر^(١) من وجهة نظرهم^(٢)، ولم يقتصر الأمر على ذلك؛ بل امتد حتى خلافة المستنصر بالله الفاطمي، ووسط جو مليء بالفساد، والاضطرابات، وصراعات الجند، ظهر رجل يدعى "سليمان" كان يشبهه الحاكم بأمر الله^(٣)، ادعى أنه الحاكم بأمر الله، وبث دعاءه سرا في البلاد، واستغل خلو القصر من الحساكر، وذهب إلى القصر، وقال للحكام: قولوا هذا الحاكم "فحدثت ضجة كبيرة، وهرج الناس لعودة الحاكم بأمر الله، وانتمرت للفوضى في البلاد إلى أن قبض عليه، وصلب كما قتل أصحابه.^(٤) وكانت بداية للنهاية للدولة الفاطمية.

تاريخ أبو صالح الأرمي، ص ٦٦، ابن ظافر: المصدر السابق، ص ٥٨، ٥٩، ابن الأثير: التكملة في التاريخ، ج ٩، ص ٣١٥، ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ١، ص ٢٩٧ - ٢٩٨، ابن خلدون: المقدمة، ج ٢، ص ٦١، المقريزي: تعاقب الخلفاء، ج ٢، ص ٦١٥ - ١٢١.

(١) يوجد لكل طائفة من طوائف الشيعة إمام منتظر، فبعضهم يعتقد اختفاء بن الحنفية في جبل رضوى، وأنه سيعود ليبدل الجور عدلاً، راجع: إسمن ليمان: سداع الزهور، ص ٤٤٥؛ علي حسني الخريوطي: مصر العربية الإسلامية، ص ١١٩.

(٢) سلويزن بن المقفع: المصدر السابق، ج ٢، م ٢، ص ١٣٨؛ الملبخج [الأمير المختار عز الملك محمد بن صيد الله بن أحمد]: أخبار مصر في سنتين (٤١٤ - ٤١٥ هـ)، ج ٤، تحقيق: وإيم. ج. سيلورد، طهينة المصرية للعمارة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٠م، ص ٢٧ - ٢٨؛ المقريزي: المصدر السابق، ص ١٤٠.

(٣) ينكر الأقطاكي^(٤) أن هذا لم يكن الشبه الوحيد للحكم بأمر الله، حيث قال: إنه ورد من الشام إلى مصر رجل من أهل عكا مقري بزي الأمراء من ولد المهدي العلوي وجلس في جوار قصر للحاكم بأمر الله يبيع المواد والأقلام، وكان شبيهاً بالحاكم بأمر الله، فوقف به فلحكم ومأله عن أمره، فنكر له أنه أخوه من جارية أخرجت من القصر حبلى من التعزير بالله وولدتها، وذهب له للحاكم بأمر الله وأعطاه ما يقوم بحاله. راجع: الأقطاكي: تاريخ الأقطاكي، ص ٣٣٢ - ٣٣٣.

(٤) المقريزي: تعاقب الخلفاء، ج ٢، ص ٣٢٥.

[٢] الأمان في القتل والتعذيب وإرهاب عامة الشعب :

دخل جوهر الصقلي مصر (٣٥٨هـ / ٩٦٩م) حاملاً معه وثيقة جديدة تحمل بين طياتها للسياسة الفاطمية الجديدة، وقد تمثلت هذه الوثيقة فيما عرف بـ 'كتاب الأمان'، الذي لقيه جوهر على المصريين ليؤمنهم فيه على أنفسهم، وأموالهم، وأهلهم، وقد بين هذا الأمان ما يتصف به جوهر من ذكاء، ودهاء، وحسن سياسته، حيث أكد جوهر في أمانه أن الجيوش الفاطمية لم تأت إلا لنجدة، وحماية أهل مصر مما قد تعرضوا إليه من ظلم، وفساد. مستغنياً من الأحوال السيئة التي آلت إليها مصر زمن الإخشيديين، لذلك فقد جاء برنامجه الإصلاحى يعكس، ويعدد سبليات الحكم السابق، ويظهر مميزات الحكم الحالي (الفاطمي).^(١)

وقد جاء في هذا الأمان : 'هذا كتاب من جوهر عبد الله أمير المؤمنين لجماعة أهل مصر... أنكم للتمسكم كتاباً يشتمل على أمانكم في أنفسكم، وأموالكم، وبلادكم، وجميع أحوالكم ... إذا نخطفتكم الأيدي، واستطاع عليكم المستنل، وأطعمته نفسه بالافتداء على بلدكم، والتغلب على من فيه، والاحتواء على نفعكم، وأموالكم ... ولكم على أمان الله التام العام الدائم على مر الأيام، وكزور الأعوام في أنفسكم، وأموالكم، ونعمكم، وضياعكم، ورباعكم، وعلى أنه لا يعترض عليكم معترض، ولا يتجنى عليكم متجن'.^(٢)

استقبل المصريون هذا الأمان في استكانة، واستسلام للأمر الواقع.^(٣) فلم يكن هناك ما يخشاه المصريون من الفاطميين، وقد أدرك

(١) النويري : نهاية الأرب، ج٢٦، ص١٢٢ - ١٢٨، ابن خلكان : وفيات الأعيان، ج١، ص١٣٧٧ للمقريزي : للمصنف السابق، ج١، ص١٠٣، ابن تغري بردي : النجوم، ج٤، ص٢٢ - ٢٢، ناريمان عبد الكريم : مصر الإسلامية، ص١٢٥ - ١٢٦.

(٢) النويري : نهاية الأرب، ص١٠٤ - ١٠٥، ناريمان عبد الكريم : مصر الإسلامية، ص١٢٦.

(٣) ابن تغري بردي : النجوم، ج٤، ص٣٦.

للمصريون أن تنتقل السلطة من خليفة عباسي سني إلى خليفة فاطمي شيعي لن يغير من أوضاعهم شيئاً، ولن يكون أسوأ مما هم عليه، بل ربما يكون أفضل حالاً من سابقه، فقد أدرك معظم المصريين أن أي حكم جديد يكون مثاليًا في بدايته ثم يتحول تدريجيًا حتى يصل إلى غايته.

ولم يلتزم الفاطميون فيما عقده على أنفسهم من أمان للمصريين، حيث تنحلت الأهواء، والمطامع، والصراعات، وحب السلطة، والرغبة في للظهور بمظهر القداسة، والإجلال في نقد هذا الأمان، فعانى الشعب المصري من العديد من مظاهر الإرهاب، والتعذيب، والقتل بحق، أو بغير حق، ولم تكن عقوبة القتل في حد ذاتها من العقوبات التي تلي إليها الألفس، ولا سيما إذا كان هذا القتل عقابًا على جرم قد لاقترب بالفعل، ولكن الإسماع في هذا القتل، وللتعفن في عمليات التعذيب التي سبق هذا القتل عدت من الجرائم الإرهابية التي خالفت الشريعة الإسلامية، والتي عانى منها الشعب المصري في ظل الحكم الفاطمي.

وقد افتتح المعز لدين الله عهده في القاهرة بتعذيب للشيخ أبي بكر النابلسي، الذي أحضره بين يديه، وقال له : بلغني عنك أنك قلت : لو أن معي عشرة أسهم لرميت الروم بسهم وفيما تسعة، فقال النابلسي : ما قلت هذا، فظن للمعز لدين الله أن النابلسي قد رجع في قوله ففرح، وقال له : كيف قلت؟ قال بكل قوة، وحزم : قلت لو أن معي عشرة أسهم، لرميتكم بتسعة ثم بالعاشر أيضًا، قال المعز لدين الله : لو لم ؟ قال النابلسي بحزم أشد ؛ لأنكم غيرتم دين الأمة، وقتلتم للصالحين، وأطفأتم نور الإلهية، وادعيتم ما ليس لكم، وكان للنابلسي من علماء السنة الذين أجبروا على سب الصحابة على المنابر، وأتباعهم، فغضب المعز لدين الله فأمر بإشهاره، ثم أمر بضربه ضربًا مبرحًا بالسياط في اليوم الثاني، ثم أمر بسلخه في اليوم الثالث، وقد أمر جزاءً يهوديًا بإتمام هذا الأمر بعد أن رفض الجزاؤون المسلمون. فسُلخ مفرق رأسه حتى بلغ وجهه، وهو بصير، ويقول قول الله - تعالى - (وكان ذلك في الكتاب

مسطورًا^(١)، واستمر في السلخ حتى بلغ صدره فرجمه السلاخ، ووخره بالسكين في موضع صدره فقضى عليه، وقتل^(٢)، فرجمه لليهودي، ولم يرجمه الخليفة الفاطمي.

أدى فساد برجوان الخادم^(٣) أحد وسطاء الحاكم بأمر الله، واستثنائه بالسلطة تونه، إلى تفكير الحاكم بأمر الله في قتله، وقد تم له ذلك في عام (٣٩٠هـ / ١٠٠٠م)^(٤)، هذا الأمر الذي أثار الجميع فاجتمعوا حول انقصر يطالبون الحاكم بتفسير ما حدث، إلا أن الحاكم بأمر الله كان من الشجاعة، والذكاء، والفطنة ما جعله يكسب حب للناس، وودهم، وذلك بما قدمه من تبرير مقنع لقتل برجوان، ومن ثم أخذ الناس في الدعاء له، وتقبيل الأرض بين يديه، فزادت ثقته بنفسه، وبدأ مرحلة جديدة من مراحل حكمه الذي استخلصه لنفسه بعد غناء استمر أربع سنوات تولى فيها برجوان الوساطة.^(٥)

(١) سورة الأحزاب، الآية رقم (٦).

(٢) ابن الأثير : الكامل، ج٧، ص١٣٤٤ ابن كثير : البداية والنهاية، ج١١، ص١٢٨٤ ابن قتيبة : معجم الصحابة، ج٣، نشره : جمال الدين القاسم، مكتبة القدس، ص١٥٣ الذهبي : سير أعلام النبلاء، ج١٦، ص١٤٨.

(٣) برجوان للخادم : الأستاذ أبو الفتح برجوان الخادم، كان خصيًّا أبيض، مشا في بلاط العزيز بالله وأوصاه على ولده منصور الذي خلف ولده باسم الحاكم بأمر الله كانت للسلطة في يده بعد صرف بن حمزة، فاستأثر بالحكم مع كاتبه أبو العلام فهد بن إبراهيم النصراني، فلقتب عليه للحاكم بأمر الله، وقتله على يد ريدان الصفدي، وإليه تنسب حادثة برجوان بالقاهرة، ابن طاهر : أخبار الدول، ص٤٣ ابن الأثير : المصدر السابق، ج٩، ص١١٨ - ١٢٢ ابن خلكان : وفيات الأعيان، ج١، ص١٧٠ - ١٧١ الصفدي : الوافي، ج٢، ص١١٠ ابن تخرى بردي : النجوم، ج٤، ص٤٨.

(٤) ساويرس بن المقفع : سير فليمة المقدسة، ج٢، م٢، ص١٢٣ ابن الصيرفي : الإشارة، ص٥٧ - ٥٨ ابن طاهر : أخبار الدول، ص٦٠ ابن خلكان : المصدر السابق، ج١، ص١٢٧ المقرئ : المغلطة، ج٢، ص٤٠٣ ابن تخرى بردي : المصدر السابق، ج٤، ص١٤٨ جمال الدين الشيبان : مجموعة الوثائق الفاطمية، ص١٣٢.

(٥) المقرئ : اتعاظ الحنفاء، ج٢، ص٢٧ - ٢٩ جمال الدين الشيبان : المرجع

وكان الحاكم بأمر الله في ذلك الوقت يبلغ من العمر خمسة عشر عاماً، وكان قتل برجوان الخادم نقطة تحول في حياة الحاكم بأمر الله حيث أصبح منذ هذا التاريخ طاعية مطلقاً لا تصدر قراراته إلا من هواه وتقليباته المزاجية، ومبرراته التي لا يعرفها سواه، وأصبح القتل، والإمعان فيه هو الوسيلة البسيطة التي يتبعها الحاكم بأمر الله للتخلص من معارضيه، أو من يغضب عليهم، ففي العام التالي من تخلصه من برجوان الخادم (٣٩١هـ / ١٠٠١م)، اتفق الحاكم بأمر الله مع علمائه الترك للتخلص من مؤدبه أبي التميم بن سعيد الفارقي، وهو يسامره في مجلسه ؛ لأن أبا التميم قد تدخل في شؤون الدولة، واطلع على الرقاع دون إذن للخليفة. (١)

وفي عام ٣٩٢هـ / ١٠٠٢م، قتل الحاكم بأمر الله بن أبي نجدة متولي الحسبة الذي أساء معاملة الناس، وتدخل فيما لا يعنيه من شؤون، فأمر الحاكم بأمر الله باعقاله ثم قطع يده، ولسانه ثم ضرب عنقه (٢)، وفي عام ٣٩٣هـ / ١٠١٣م، قتل أبا علي الحسن بن عسلوج، وأمر بإحراق جثته، وفي العام نفسه أمر بقتل وزيره فهد بن إبراهيم للنصراني، وذلك ؛ لأنه أبى أن يعتنق الإسلام، وأمر بإحراق جثته، وقد جعل النصراني منه شهيداً، وزعموا أن جثته لم تحترق (٣)، كذلك قتل الكثير من زعماء كتامة دون وجه حق.

وقد تزايدت الجرائم في القتل لكل من في دولته، وبذل سيفه في مقدمي أهل المملكة من الكتّاب، ولقواد، والجند، والرعايا، وقطع أيديهم،

السابق، ص ١٣١ - ١٣٥) أيمن فؤاد سيد : الدولة لفاطمية في مصر، ص ١٦٣.

(١) محمد عبد الله عنان : الحاكم بأمر الله، ص ١٠٦ - ١٠٧، أيمن فؤاد سيد : المرجع السابق، ص ١٦٣.

(٢) محمد عبد الله عنان : الحاكم بأمر الله، ص ١٠٧.

(٣) ابن الصوري : الإشارة، ص ٥٨، المقرئ : تعاليف الحنفيا، ج ٢، ص ١٤٤. محمد عبد الله عنان، المرجع السابق، ص ١٠٧.

ولفرط في ذلك، كما قتل العديد من الخدم، والصفالية داخل القصر بعد أن قطع أيديهم بالساطور على خشبة من وسط الذراع، كما فعل ذلك بالجوارري في قصوره، فلخنت بلادهم، وفلى رؤساء رجاله، فتخوف الحسين بن جوهر قائد القواد على نفسه، وهرب، وأخذ معه أولاده، وصهره عبد العزيز بن محمد بن الضمان، غير أن الحاكم أعطاه الأمان، وبعد عودته قتل، وصهره في مذبحه مروعة. (١)

وثلا مصرع الحسين مذبحه أخرى رُهِق فيها عدد كبير من الخاصة، والعامّة، يربى عددهم على مائة، قتلوا، وأحرقوا، كما قتل جماعة من الأعيان المقربين من الحاكم نفسه. (٢)

لما خانمه غبن الذي شمله بعطفه، وثقته، وولاه الشرطة، والحسبة، فقد استدار عليه عندما سطع نجمه، وعلت مكانته بين الناس، فأمر يقطع يده في سنة (٤١٠هـ / ١٠١٠م)، وصرفه عن الشرطة، والحسبة، ثم أمر يقطع اليد الثانية فجملت له على طبق، وبعد قليل أمر الحاكم بأمر الله بقطع لسانه فصل له على طبق آخر، ولم يستطع غبن تحمل الجراح فتوفي في العام نفسه، وكذلك فلم يسلم كاتبه أبو القاسم للجرجاني الذي قطعت يده الاثنتان، كانت الأولى قبل الثانية بثلاث سنولت، وشهر. (٣) وأخذ للحاكم بأمر الله يسير في حلقة مفرغة من القتل، وسفك الدماء حتى عجز المؤرخون عن تحديد عدد ضحاياه. (٤)

(١) الأنطاكي : تاريخ الأنطاكي، ص٢٨٤ - ٢٨٧، ابن ظافر : أخبار الدول،

ص٦١، ابن خلكان : وفيات الأعيان، ج١، ص٣٨٠، للمقريزي : المصدر

السابق، ص٧٩، محمد عبد الله عنان : مرجع السابق، ص١١٣ - ١١٤.

(٢) الأنطاكي : المصدر السابق، ص٢٨٧، ابن حنبل : أخبار بني عبيد، ص١٩٧،

المقريزي : الخطط، ج٤، ص٦٩.

(٣) الأنطاكي : تاريخ الأنطاكي، ص٣٠٩ - ٣١٠، ابن الصوري : الإشارة،

ص٦٨، ابن خلكان : وفيات الأعيان، ج٣، ص٤٠٧ - ٤٠٨، المقريزي :

اتعاظ الحنفاء، ج٣، ص١٠١ - ١٠٢، جمال الدين الشيباني : مجموعة الوثائق

الفاطمية، ص١٣٨، محمد عبد الله عنان : للحاكم بأمر الله، ص١١٠.

(٤) ابن ظافر : أخبار الدول، ص٥١. وينظر ساويرس بن قنقغ أن هدمه من بلغ

كانت هناك العديد من وسائل للتعذيب التي يتبعها الحاكم بأمر الله، غير قطع اليدين، ولللسان، وحرق الموتى، فقد كان يأمر بمن يوقع عليه عقوبة الموت بأن يسلم جلدته، وهو حي، ويحشى جلده بالثبن، ويصلب.^(١) ويذكر المقرئ في خطبه أن الحاكم بأمر الله عندما أظهر الزهد في الحياة، ومال إلى التصوف، تخلص من بعض خطاياها، وأمها أولاده، وذلك بأن وضعهن في صناديق سميت عطين، وثقلت بالحجارة، وألقيت في النيل، وكان هؤلاء النسوة على قيد الحياة التي سلبها منهن الحاكم بأمر الله.^(٢) كذلك قام الحاكم بأمر الله بتتبع جماعة من المصريين قتل منهم سبعين رجلاً ممن عارضوا فكرة تأليهه، ورفضوا مبادئ الدرزية.^(٣)

ويبدو أن الحاكم بأمر الله أصبح مغرماً بمسك الدماء، والقتل، حتى سار ضريباً من ضروب لهوه، أو رياضيته، ففي ذات يوم قتل الحاكم بأمر الله ركابياً "بحرية" كانت في يده على باب جامع عمرو ابن العاص، ثم تولى شق بطنه بيده^(٤)، كما أنه كان يواصل أثناء طوافه الوقوف بحانوت ابن الأزرق الشواء، ويحانته، وييدي عطفه عليه، وفي ذات يوم استدعى للحاكم أحد الركابية من السودان المصطنعة بحضرة حانوت بن الشواء، وأوقفه بين اثنين من زملائه، ورماه برمح، ثم أضجعه، واستدعى سكيناً فذبحه بيده، ثم استدعى ساطوراً ففصل به رأسه، وجسده، ثم استدعى ماء فغسل يده، ثم أمر بغسله، ودفنه، وعمل جنازة حافلة له.^(٥)

ثمانية عشر ألف نفس من مختلف الشخصيات، إمبر للبعثة المقدسة؛ ابن حماد : أخبار بني عبيد، ص ٩٧؛ عبد المنعم ملحد : ظهور الخلافة الفاطمية، ويقدرهم بعشرة آلاف قتيل، ص ٢٨٤.

(١) المقرئ في : المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٥ - ٢٦، ١٢٠ - ١٢١.

(٢) الأنطاكي : المصدر السابق، ص ٣٠.

(٣) نفسه، ص ٣٤٤؛ المقرئ في : المصدر السابق، ص ١١٨.

(٤) محمد عبد الله عنان : المرجع السابق، ص ١٠٧.

(٥) الأنطاكي : المصدر السابق، ص ١٣١١؛ محمد عبد الله عنان : المرجع السابق، ص ١٠٧.

استمر للحاكم بأمر الله في القتل بالزعماء، ورجال الدولة من الوزراء، والكتّاب، والموقعين، والعلماء، ورجال القصر من الأساتذة، والخدم الصقالية، ومن إليهم من الحشم حتى أباد معظمهم، عدا من قتل من التجار، والصناع، والكافة، خلال هذه الأعوام الرهيبة، وهم أنوف عديدة، بالإضافة إلى عمليات الإرهاب التي عانى منها للشعب المصري على جميع طبقاته.

ويروي للمسيحي صديق للحاكم بأمر الله، ومؤرخه فيما بعد، أن الجميع كان يرتعد خوفاً من الحاكم بأمر الله، وقراراته، فيذكر أن الحاكم بأمر الله أمر بعمل شونة كبيرة مما يلي الجبل ملئت بالنسط، والبوص، والحلفاء، فارتاع للناس، وظن كل من له صلة بالحاكم، من رجال القصر أو الدواوين، أنها أعدت لإعدامهم، وانتشرت عن ذلك إشاعات مخيفة، فاجتمع سائر الكتّاب، وأصحاب الدواوين، والمتصرفين من المسلمين، والنصارى، في أحد ميادين القاهرة، ومازلوا يقبلون الأرض حتى وصلوا إلى القصر، فوقفوا على بابه يضجون، ويتضرعون، ويسألون العفو عنهم، فصدر سجل بالعفر عن المسلمين، وآخر للنصارى، وآخر لليهود. (١)

واشد الذعر بالغلتمان، والخاصة على اختلاف طوائفهم فضجوا، واستغاثوا، وطلبوا العفو، والأمان فأجيبوا إلى ما طلبوا، وتبعهم في الاستغاثة التجار، وأرباب المهن، والحرف، وتولى صدور الأمانات لمختلف الطوائف، حتى خدم القصر قلم يطعن قلبهم من جهة الحاكم إلا بعد أن أخذوا أمانهم منه، وذلك بعد أن اجتمعوا، وهرعوا إلى بكر العزيز بالله، وضجوا بالكاء، والاستغاثة. (٢) فأصبح القتل، والتعذيب وسيلة الحاكم بأمر الله لإخضاع جميع من حوله.

(١) محمد عبد الله طغان : الحاكم بأمر الله، ص ١١٠.

(٢) ابن ظفر : أخبار الجول، ص ٥٣.

انتقل الحاكم بأمر الله من القتل الفردي إلى القتل الجماعي، دون اهتمام، حيث لم يتردد الحاكم ولو للحظة واحدة في سحق كل من تسول له نفسه بالتمرد عليه حتى، ولو كان فئة يعينها، أو شعباً بأكمله، فقد أمر الحاكم بأمر الله بحرق حارة الجودرية على أهلها من اليهود الذين كانوا يجتمعون بها، ويسخرون من المسلمين. (١) كذلك ما فعله بأهل القسطنطينية هذا ما حدث بالفعل، عندما شعر الحاكم بأن أهل مصر يسخرون منه، وينكرون أفعاله، ويسبونونه، وأسلافه، لدرجة أنهم وضعوا في طريقه تمثال امرأة من ورق تحمل في يدها رقعة كأنها ظلامه، تحمل في برائيتها بعض عبارات الشقاء، ثم يطون إلى كل قببح، وسبب، هذا الأمر أنذر غضب الحاكم فقرر الانتقام من شعب مصر، ولكن لم يكن بوسع في هذه المرة قتل جميع أهلها لذلك فقد قرر حريق مصر، وإعمال الفساد بها، فكثر أعمال السلب، والنهب، والقتل بها، وحلت عليهم نقمة الحاكم كما حلت على من قبلهم، واحترق من مصر مقدار ثلثها، ونهب نصفها. (٢)

مكذا كان- الحاكم يقتل بطريقة منظمة، يصحبها إرهاب شروخ، كان للغرض منه خشوع، واستكانة، وإرهاب كل من حوله، إلا أن وسائله في القتل، والتعذيب وصلت من البشاعة إلى حد الاستكثار، والخروج على الشريعة، والرحمة الإلهية، لذلك، فلم يكن الله به رحيمًا حيث قتل أبسع قتله، وقطعت جثته قطعًا قطعًا، فتفرغ من نفس الكأس الذي سقاه لشعبه، وقد وصفه الأقطاكي بفساد فكره. (٣)

أما المستنصر بالله فعندما توجس خيفة من وزيره أبي محمد الحسن الليازوري، الذي اتهمه بالتعاون مع عدوه طغرلبيك السلجوقي الذي أحسن له المعية إلى مصر، وأمر بقتله، وكان ذلك في سنة ٤٤٠هـ /

(١) المقرئزي : الخطوط، ج ٢، ص ٦٠، ابن ظافر : المصدر السابق، ص ٥٣.

(٢) الأقطاكي : تاريخ الأقطاكي، ص ٢٤٦ - ٢٤٧ ابن ظافر، أخبار الدول،

ص ٥٥، ٥٦، الثوري : نهاية الأرب، ج ٢٨، ص ١٩٣ ابن تغري بزدلي :

النجوم، ج ٤، ص ١٨١.

(٣) الأقطاكي : المصدر السابق، ص ٢٤٧.

١٠٥٨م، فصلت رأسه إلى المستنصر بالله، وأقيمت جثته في مزبلة ثلاثة أيام، ثم أعيدت، ثم تم دفنه^(١)، وقد أنشأ المستنصر بالله سجناً لأرباب الجرائم السياسية من الوزراء والأمراء، والأعيان بخزانة "البنود"، التي عرفت بعد ذلك بخزانة "الرووس"^(٢)؛ وذلك لكثرة ما قُطع فيها من رؤوس، أو ما نقل إليها من رؤوس لتحتفظ بها.^(٣)

كانت خزانة البنود سجناً للسياسيين حشد فيه للكثير من الناس لأسباب سياسية، وقد شاعت الصدفة أن يلقي الوزير أبو منصور الفلاحى القبض على أبي علي الحسن بن علي الأنباري وزير الحاكم بأمر الله، فاعتقله في خزانة البنود ثم أمر بقطع رأسه، ودفنت للرأس فيها سنة (٤٣٨هـ / ١٠٤٦م). وبعد مدة ألقى للخليفة المستنصر بالله القبض على أبي منصور الفلاحى نفسه، واعتقله في المكان نفسه، ثم أمر بقطع رأسه سنة ٤٤٠هـ / ١٠٤٨م، ودفنها فوق رفات الوزير الأنباري.^(٤)

أما العامة، فقد أعد الفاطميون لهم ما يشبه المعتقل، فيذكر المقرئ أن السجن كان في تلك الفترة غير جائز من الناحية الإسلامية؛ لأنه يجمع العديد من السجناء في مكان واحد لا يستطيعون فيه الوضوء، أو الصلاة، يؤذيهم الحر في الصيف، والبرد في الشتاء، ويخرجون للأعمال الشاقة، وهم مكبلون بالحديد، ويصرخون في الطرقات جوعاً؛ لأن جميع ما يجمع لهم من صدقات الناس كان يأخذه السجناء؛ وأعلن الولي، وكان نوعاً آخر من أنواع العذاب، واحتقار النفس البشرية.^(٥)

(١) ماوريس بن المقفع: سير البيعة المقتسة، ج٢، ص٣، ص١٧٧ - ١٧٨؛ ابن

الصيرفي: الإثارة، ص٧٣ - ٨٠؛ ابن ظاهر: المصدر السابق، ص١٧٨

ابن ميسر: أخبار مصر، ص١١، ١٦.

(٢) المقرئ: الخطط، ج٢، ص١٨٧ - ١٨٨.

(٣) ابن ظاهر: المصدر السابق، ص١٧٨ عطية مصطفى مشرفة: نظم الحكم

بمصر في عصر الفاطميين، ط١، دار النكر العربي، ١٣٦٧م / ١٩٤٨م،

ص٢٥١ - ٢٥٢.

(٤) ابن الفلتاسي: ذيل تاريخ دمشق، ص١٨٤؛ ابن ميسر: المصدر السابق، ص١٨

المقرئ: المصدر السابق، ج١، ص٤٤ - ٤٢٥.

(٥) المقرئ: الخطط، ج٢، ص١٨٧.

بدأ بدر الجمالي إصلاحاته بتكبير مؤامرة شبيهة بمذبحة القلعة التي دبرها محمد علي بعد ذلك بنحو سبعمائة عام ؛ ليخلص من المماليك^(١)، فقد استطاع بدر أن يخدع الأمراء الأتراك بمحبته، وأنه لم يأتي؛ ليفعل بهم سوءاً، فأنزلوه، وبألغوا. في إكرامه حتى انقضت أيام ضيافتهم، حتى دعاهم إلى صنع قد أجدد لهم، فلما أضمتوا، وسكروا جعل كل واحد منهم يخرج من باب، وقد اتفق مع قواده أن يخرج كل واحد منهم مع أمير إلى داره على أن يأتيه برأسه على أن يكون له ماله، وداره، فلم يصبح الصباح إلا ورؤوس للجميع حول يده، كما تتبع الأتراك فقويت شوكتهم، وعظم أمرهم.^(٢) ثم سار إلى الوجه للبحري، والإسكندرية، واسترد من الأعمال ما كان قد استولت عليه لوائه أو للملحية، وأسرف بدر في قتلهم حتى قُتل منه عشرين ألفاً، كما استولى على أموالهم، وكذلك توجه إلى الصعيد، وقاتل قبائل السودان فقتل الكثير منهم إلا من استطاع الهروب، ثم أحاط بأموالهم، فحاز منها ما تجاوز الوصف.^(٣)

استبدَّ بدر بأموال الدولة، وأسرف في قتل كل من يقف لسانه، فقتل من أمثال المصريين، وحكامهم، ووزرائهم فكان منهم الوزير الحسن بن ثقة الدولة المجلي بن أسد المعروف بابن كدينة الذي ضربه بسيف كليل

- (١) ابن ميسر : أخبار مصر، ص ٤٠؛ ابن خلكان : وفيات الأعيان، ج ٢، ص ٤٤٩؛ عبد المنعم ماجد : ظهور الخلافة الفاطمية، ص ٣٢٦؛ صلاح أحمد هريدي : دراسات في تاريخ مصر الحديث والمعاصر، ط ١، ج ٢، ص ٥٦؛ الدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، ١٤٢٧هـ / ٢٠٠٦م، ص ٤٨؛ أيمن فؤاد سيد : الدولة الفاطمية في مصر، ص ٢١٠.
- (٢) ابن ظافر : أخبار الدول، ص ٧٦؛ ابن ميسر : المصدر السابق، ص ٤٠ - ٤١؛ عبد المنعم ماجد : المجلات المستنصرية، سجل رقم (٥٦، ٥٧، ٥٨)؛ ظهور للخلافة الفاطمية، ص ٣٢٨.
- (٣) ابن الصيرفي : الإشارة، ص ٩٦؛ ابن ظافر : المصدر السابق، ص ٧٦؛ ابن ميسر : المصدر السابق، ص ٤١؛ ابن تغري بردي : النجوم، ج ٥، ص ٢١ - ٢٢؛ عبد المنعم ماجد : ظهور الخلافة الفاطمية، ص ٣٢٦.

عشر ضربات حتى بانث رأسه، والوزير أبو المكارم أسعد بن عقيل، والوزير أبو شجاع محمد بن الأشرف أبو علي محمد بن علي، والوزير أبو العلاء عبد اللّخني بن نصر بن سعيد، وغيرهم الكثيرون^(١)، كما قبض على قاضي الإسكندرية، وجماعة من قضائها، وأعيانها، وأخذ منهم أموالاً عظيمة^(٢)، بالإضافة إلى قتله من يعارضه، أو يجاهر له انعداء، فقد عصف بالشريف حيدر بن إبراهيم أبو طاهر اللطوي، وقد بالغ بدر في الانتقام منه حتى قيل إنه قد قتله ثم ملّخه، وقيل أيضاً إنه قد قام بسلخه حيّاً^(٣)، وعلى اللقبض كان بدر يشمل بعطفه، وكرمه كل من يتقرب منه، ولو كان رياءً، فقد جاء إليه المتصدرون بالمساجد، وكان من بينهم ابن للعجمي، الذي قرأ عليه لقد نصرصكم الله بيدر^(٤)، وسكت عن تمام الآية، فقال له بدر، والله لقد جاءت في مكانها، وجاء مكوتك عن تمام الآية أفضل، ولنعم عبده. ^(٥)

وإن كان بدر الجمالي قد استطاع أن يقضي على المقسدين، ويقر قواعد البلاد، ويصلح من أمورها بعد أن فسدت، إلا أن ما فعله بدر من وحشية مبالغ فيها كان عليها أكثر مما كان ليا من عواقب، وقد كان بإمكان بدر الجمالي، وبما يمتلك من قوة عسكرية أن يقوم بتأديب هؤلاء المقسدين، ومعاقبتهم، أو بسجلهم، أو حتى مصادرة أموالهم دون التعرض لإبانتهم بهذا الشكل، غير أن بدر أراد أن يخلو له، ولجئته الطريق دون مناقس، أو معارضه، وإن كان بدر قد تشبه في فعله هذا بالحاكم بأمر

(١) ابن ميسر : المصدر السابق، ص ١٤١ للمقرئزي : اتعاط الحنفاء، ج ٢، ص ٤٢٠ عهد المنعم ماجد : المرجع السابق، ص ٢٢٦.

(٢) ابن ميسر : أخبار مصر، ص ١٤١ للمقرئزي : اتعاط الحنفاء، ج ٢، ص ٤٢٠.

(٣) ابن القلائسي : ذيل تاريخ دمشق، ص ١٩٤، ابن ميسر : المصدر السابق، ص ١٢٤، ابن تغري بدي : النجوم، ج ٥، ص ٨٠، ١٨٥ سحر السيد عبد العزيز سالم : الثقات، ص ٢٨.

(٤) سورة آل عمران : الآية (١٢٣).

(٥) ابن ميسر : المصدر السابق، ص ٤٠، المقرئزي : المصدر السابق، ص ٤٢٢.

الله للفاطمي الذي أراد أن يتخلص من العارضين، والمفسدين دون معاناة، غير أن المؤرخين قد وصفوا الحاكم بالامتداد، والوحشية، والجنون ؛ بينما أخذوا في تمجيد بدر الجمالي مع إبه الغاية والوسيلة قد اتفقتا. إضافة إلى تلك أن حال الخلافة مع بدر الجمالي لم يتغير كثيراً، فقد ظل الخليفة في قصره كالمحجور عليه، وأصبحت الكلمة الأولى، والأخيرة لبدر، ومن جاء بعده من الوزراء الأقباط، فأنهى ببدر عهد الخلفاء، وبدأ عهد الوزراء الذين تلقوا بالقباب الملوك، وبقيت الغلبة للأرمن الذين سيطروا على العصر الفاطمي الثاني سواء من بلغ منهم الوزارة، أو من نال تحيز الوزراء. (١)

لما الأفضل بن بدر الجمالي الذي وزر للأمر بأحكام الله، وكان له الأمر، والنهي، فقد أمر بحرق جوهر خادم أخيه المظفر الذي توفي في سنة (٥١٥هـ / ١٢١١م)، بعد أن نكر أن جوهر هذا هو الذي قتله، وقد قيل إن هذا تم بأمر من الأمر نفسه، وقد عارض المأمون البطانحي تنفيذ هذا الأمر، وقال : معاذ الله هذه عقوبة لا يضرب بها إلا الله تعالى. (٢) أما المأمون البطانحي نفسه فقد قتله الأمر (٥٢٢هـ / ١١٢٨م) ؛ صلباً هو وخمسة من إخوته، ثم أومل رؤوسهم إلى خزنة البنود. (٣)

-
- (١) المقرئبي : الخطط، ج١، ص٤٤٠؛ ابن تغري بردي : المصنوع السابق، ص٢٣؛ عبد المنعم ماجد : ظهور الخلافة الفاطمية، ص٣٢٥.
- (٢) المقرئبي : للمصدر السابق، ج٢، ص١٣٣ - ١٣٤.
- (٣) ابن خلنفر : أخبار الدول، ص٩٢؛ ابن بطون : نزعة المقلتين، ص١٥ - ١٦؛ ابن ميسر : أخبار مصر، ص١٠٢؛ النويري : نهاية الأرب، ج٢٨، ص٢٩١؛ ابن خلنفر : وفيات الأعيان، ج٥، ص٢٩٩؛ ابن الفرات إناصر الدين محمد بن عبد الرحيم، تاريخ الدول والملوك، ج٢، تحقيق : حسن محمد الشماخ، البصرة، ص٩٢ - ٩٥؛ الذهبي : العبر في خبر من عبر، ج٤، ص٤٤.

كذلك قام الأفضل بقتل جماعة من رؤساء الإسكندرية، ووجهائها
 ؛ لأنهم أظهروا التبعة لـ "نزار"، وكان من بينهم قاضيهما ابن عمار. (١)
 اختلفت الوسائل التي اتبعتها الخليفة الحافظ لدين الله، وذلك عندما
 غضب على وزيره يأنس الأرميني، قسمة في ماء المستراح، فانفتح دبره،
 ولم يعد يتزر على الجلوس، وقد علم من طبيبه أن راحته في السكون،
 وهلاكه في الحركة، فقرر زيارته فلما رآه يأنس قام من فراشه احتراماً
 له، فأطال الحافظ جلوسه معهما، فلم يقم يأنس حتى سقطت أعضاه،
 ومات. (٢)

وعندما خرج الأمير حسن علي والده لتحاظف لدين الله، وطمع في
 الخلافة، واحتمى بمجموعة من الأجناد من مختلف الطوائف - أسماهم
 صبيان الزرد - قوى بهم فأدعم عليهم، وقدمهم، وأقطعهم البلاد، وولاهم
 الولايات، وجعلهم أمراء دولته فكانوا يقبضون بأمره من أمراء والده
 للحافظ، ويحضرهم بالليل بين يده، ويضرب رقابهم، ويدفع أموالهم،
 ودورهم بصبيان الزرد، كما سار في قتل خلق كثير من جميع الناس،
 فوجد في كل يوم جماعة مقتولة بين القصرين^(٣)، حيث تلقى بأجسادهم

(١) ابن ظافر : للمصدر السابق، ص ٨٤، ٨٥.

(٢) سلاوي بن المقفع : سير النجعة المقتسة، ج ١، م ٣، ص ٢٨٨ ابن تغري بردي :
 النجوم، ج ٥، ص ٢٤٠.

(٣) لم يكن مسمى بين القصرين مقصوراً على المكان المعروف في القاهرة، ولكنه
 عرف منذ الفتح الإسلامي في مدينة لفسطاط فكان هناك مكان يعرف بين
 القصرين. وهو ما بين دار عمرو بن العاص للصغرى والموضع المقابل لخواجة
 الأستيلين، وإنما قيل لذلك بين القصرين، لوجوده بين قصر عبد الله بن عمرو
 بن العاص الذي بناه في الدار للصغرى على تزيح الكعبة الأركسية، والقصر
 الآخر منهما هو قصر عمر بن مروان بن الحكم وهو فسي السدار المعروفة
 بإسرايلين، للمزيد راجع : ابن تقيماق [إبراهيم بن محمد بن أيسنم للعلاسي] :
 الانتصار بواسطة عقد الأمصار (في تاريخ مصر وجغرافيتها)، القسم الأول،
 تحقيق : لجنة إحياء التراث العربي، دار الأفاق الجديدة، بيروت، بدون تاريخ،
 ص ٧٠.

بنون رؤوس حتى لا يعرفوا، مما كان له أثره في ترويع، وإرهاب الناس. (١)

وفي نهاية الدولة الفاطمية، أثناء خلافة العاضد، ثم يترد وزيره شاور بن مجير السعدي في إعطاء أوامره بحرق القسطنطين، وذلك قبل نزول قوت الفرنج إلى القاهرة بيوم واحد، فأمر أهلها بالانتقال إلى القاهرة، كما أمر جنوده بنهب القسطنطين، فهجرت، ونهبت، وبقيت النمل تعمل فيها أربعة وخمسين يوماً^(٢)، ولقد لجأ شاور إلى ذلك حتى لا يتخذ الفرنج من القسطنطين قاعدة لهم يغيرون منها على القاهرة، على الرغم من أن القاهرة بأسوارها، وأبوابها كانت قادرة على مقاومة هذا الغزو إن تم.

هكذا تعددت وسائل القتل، والتعذيب، والإرهاب الذي عانى منه أهل مصر في ظل الحكم الفاطمي لها، فاشتملت على جميع الوسائل المباحة، وغير الشرعية فكان منها، القتل، وقطع أجزاء من الجسم، ولاسيما الأيدي، أو اللسان، وشق البطن، والسرقمة، والاعتصاف، والنفن على قيد الحياة، وكذلك الملح، والصلب، والحرق، بالإضافة إلى وسائل التعذيب التي مورست داخل المسجون، وكذلك الاغتيالات السياسية، وفوق هذا وذاك الإبادة الجماعية عن طريق حرق القسطنطين بأهلها.

[٤] تدخل النساء في أمور الدولة :

أد زوجة العزيز بالله، وابتنتها "ست الملك" :

تزوج الخليفة العزيز بالله من جارية مسيحية رومية - من أصل بيزنطي -، وكانت هذه السيدة تفتخر دائماً بهذا الأصل، وعلى الرغم من العداء القائم بين الفاطميين، والبيزنطيين، فإن الخليفة العزيز قد أحبها حباً شديداً، وتمتعت بنفوذ كبير في مصر، حتى أصبحت صانعة القرار في

(١) سلاويين بن المقفع : للمصدر السابق، ص ٢٨.

(٢) ابن ظفر : أخبار الدول، ص ٤١٦٦ ابن الأثير : الكامل، ج ١١، ص ١٣٣٠ أبو شامة : للروضتين، ج ١، ص ٢٢١، ١٤٣٢ للسوري : نهاية الأرب، ج ٢٨، ص ٣٢٩ - ٣٤٠ المقرئ : الخطط، ج ١، ص ١٣٨٦ ابن تغري بردي : النجوم، ج ٥، ص ٣٥.

عهد، وكان لها السلطان، ولكن من وراء ستار. (١) وكان لهذه السيدة الفضل في ازدياد نفوذ أهل الذمة في عصره، فقد استطاعت أن تولي أختوها في مناصب كترسية مهمة، يتولى أحدهما بطريقاً على بيت المقدس، وتولى الثاني مطراناً على للقاهرة، ومصر. وتحيز إلى أهل الذمة. (٢)

كانت روحاً للنضال التي حظى بها أهل الذمة في عهد العزيز بالله بالأناضول العكسية على المسلمين الذين شعروا بالاستياء لتسلط الذميين على شؤون الدولة، وقد شعر العزيز بذلك، وأراد إرضاء المسلمين، وكان أول قراراته هو القبض على وزيره يعقوب بن كلثوم الذي أساء معاملته للمسلمين، غير أن العزيز بالله قد ضعف أمام شفاعته زوجته، وأمنية بنت للملك التي كانت تتفخر بهويتها المزدوجة، وحبها لأهل الذمة، والتي كانت أثيرة عن والدها، ولا يرد لها شفاعته. (٣)

وعندما سادت الأحوال، وكانت مصر تدخل في فترة طائفية، استبدل العزيز بالله بن كلثوم بعيسى بن بطورس النصراني، كما ولي على الشام منشا بن إبراهيم لليهودي، فاستولى أهل هاتين المملكتين على الدولة، وشاعوا الفساد بين للمسلمين. فارتفعت أصوات المسلمين بالشكوى التي وصلت إلى حد السخرية من الخليفة نفسه، الذي أمر بالقبض على هذين الرجلين، وجميع النصراني، واليهود من الكتاب في مصر، والشام، وإعادة مناصبهم للكتاب للمسلمين. (٤)

- (١) الأناطلي : تاريخ الأناطلي، ص ٢٠٣؛ ابن خلكان : وفيات الأعيان، ج ٥، ص ٣٧٢؛ محمد عبد الله عنان : تراجم إسلامية، دار المعارف، مصر، ١٩٤٧م، ص ٣٤ - ٤١، غير أن عنان ينكر أن أصل زوجة العزيز بالله "بطي"، عبد المنعم سلطان : المجتمع المصري في العصر الفاطمي (ترجمة تاريخية وثقافية)، دار للمعارف، القاهرة، ١٤٠٥هـ، ص ٩٨.
- (٢) عبد المنعم سلطان : المرجع السابق، ص ١٢٠٣؛ جلال تاجر : لياض ومسلمون ضد لفتح العربي إلى عام ١٩٢٢م، تقديم : سمير مرقص، د/ محمد عفيفي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠١٠م، ص ١٣٨، ١٣٩.
- (٣) ابن ظفر : أخبار الدول، ص ٤١، الأناطلي : تاريخ الأناطلي، ص ١٢٠٣؛ عبد المنعم سلطان : المجتمع المصري، ص ٩٨.
- (٤) ابن ظفر : المصدر السابق، ص ٤١؛ الأناطلي : المصدر السابق، ص ٢٠٣.

غير أن العزيز بالله قد ضعف مرة ثانية أمام تدخل ست الملك في الأمر، وذلك عندما أدرك عيسى بن نظورس تأثيرها على الخليفة، وتوسل إلى شفاعتها، فأعاد العزيز بالله إلى الوزارة مرة أخرى.^(١) فظهر الفساد بين المسلمين، وأهل الذمة مرة أخرى.

وبوفاة العزيز بالله ٣٨٦هـ / ٩٧٥م، وتولية ابنه الحاكم بأمر الله حدث تغير شديد في علاقة الدولة الفاطمية بأهل الذمة، وقد ظهر هذا في القرارات للعنف التي أصدرها الحاكم بأمر الله ضد أهل الذمة، بعد أن تخلص من سيطرة والدته المسيحية، وأخته 'ست الملك' التي كانت تظهر عطفًا شديدًا، وتأييدًا للنصارى.^(٢)

وعلى الرغم من تحليل المؤرخين لاشتراك ست الملك في قتل الحاكم بأمر الله بسبب للتضييق عليها، واتهامها في شرفها^(٣)، فإن البعض الآخر ينكر أن سبب اغتيال ست الملك لأخيها الحاكم بأمر الله هو معاملته العنيفة لأهل الذمة الذين كانوا موضع حب، وتقدير لها، والدليل على ذلك أنها ما كادت تتخلص من الحاكم حتى ألغت جميع قراراته ضد النصارى، وأعدت إليهم نفوذهم.^(٤)

حكمت ست الملك مصر أربع سنوات بت مقتل الحاكم بأمر الله، استطاعت بما تميزت به من حنكة، ودهاء أن تحافظ على الدولة، وتعيد إلى الملك نصارته، كما أعادت للخليفة الظاهر لإعزاز دين الله حقه المسلوب في الخلافة^(٥)، وعلى الرغم من نجاح ست الملك في تسيير أمور الدولة، فإن رغبتها في السلطة جعلتها تهمل شأن الظاهر لإعزاز

(١) ابن طاهر : المصدر السابق، ص ٤١.

(٢) الأملاني : المصدر السابق، ص ١٨٥.

(٣) ابن طاهر : المصدر السابق، ص ١٦٤، المقريزي : فتاوى الحنفيا، ج ٢، ص ١١٧.

(٤) الأملاني : المصدر السابق، ص ٢٦٧.

(٥) وذلك قبل ولي العهد عبد الرحيم بن إيس الذي ولاه للحاكم بأمر الله ولاية العهد، سبق نكره.

دين الله، فعاش محجوباً في بيتها، وانشغل بملاذاته، ولهوه بعيداً عن شؤون الدولة، فاضطربت أحوال الديار المصرية، وكذلك الشامية^(١)، وعم الفساد في ظل تنازع كبار رجال الدولة إلى أن توفي (٤٢٧هـ / ١٠٣٥ م)، وتولى بعده ابنه أبو نعيم الذي لقب بالمستنصر بالله.

هدام المستنصر بالله :

كان للمستنصر بالله حين تولى أمر الدولة في المباحة من عمره، وسبعة أشهر^(٢)، وكان الوزير أبو القاسم علي بن أحمد الجرجاني^(٣) هو صاحب السياسة في مصر خلال الفترة الأولى من خلافة المستنصر، حتى توفي سنة ٤٢٦هـ / ١٠٤٥ م، وبوفاته بدأ انحلال عقد الدولة الفاطمية، وبدأت أم المستنصر تتحكم في أمور الدولة حتى أشعلت نار الفتنة بين طوائف البد المختلفة، وقادت الدولة للخراب، فبعد وفاة الجرجاني تولى منصب الوزارة أبو منصور صدقة بن يوسف الفلاح^(٤) وكان يهودياً غير أن أم المستنصر عمدت إلى تقريب أبي سعد

(١) المقرئ: اتعاض الخنفاء، ص ٣١٧؛ ابن تغري بردي: للنجوم، ج ٤، ص ٢٤٨.
 (٢) ابن ظهير: أخبار الدول، ص ١٧٧؛ الفوري: نهاية الأرب، ج ٢٨، ص ١٦٢؛
 النويري: كنز قدر، ج ٦، ص ١٣٤٢؛ المقرئ: المصدر السابق، ص ١٨٤؛ ابن تغري بردي: المصدر السابق، ج ٥، ص ١.

(٣) أبو القاسم علي بن أحمد الجرجاني: للوزير الأجل الأوحدي أمير المؤمنين وخالصة أبو القاسم علي بن أحمد الجرجاني، من أهل جزّيريا قرية بسواد العراق، بروف مصر ثم بصعيدا كثرة الشكاية في زمن الخليفة الحاكم بأمر الله، فقبض عليه واعتقل في (٤٠٣هـ) وفي (٤٠٤هـ) أمر للحاكم بقطع يده، (٤٠٦هـ) ولى ديوان الفتوحات، في (٤١٣هـ) تولى الوساطة، وفي (٤١٨هـ) تولى الوزارة، توفي في (٤٣٦هـ).

لمزيد راجع: ابن الصيرفي: الإثارة، ص ٦٨، ٦٩ المؤيد في الدين: سيرة المؤيد في سنتين وأعي الدعاء، تحقيق: محمد حسين كامل، دار الكتاب المصري، ١٩٤٩ م، ص ٨٦؛ المقرئ: المصدر السابق، ص ١٩٠؛ المبهي: أخبار مصر، ص ٣٢.

(٤) صدقة بن يوسف الفلاح: أبو منصور [أبو نصر في بعض المصانير]، وكان صدقة بن يوسف يهودياً ثم ألب، تولى الوزارة للمستنصر بالله سنة ٤٣٦هـ، كان

الشمسري^(١) اليهودي أيضا، ولتي كانت أمه في بيته قبل زواجها بالظاهر، في محاولة منها لرد الجميل، فعهدت إليه بتولي نظارة خاصتها^(٢)، وكان الشمسري يخاف الوزير للجرجرائي فلم يبد ما في نفسه إلا بعد وفاته، حيث استأثر بأمور الدولة دون الفلاحي حتى لم يبق للفلاحي أمر، ولا نهي، وأصبح لا يملك من الوزارة سوى الاسم فقط. ففكره الفلاحي ذلك، وأسرها في نفسها إلى حين.^(٣)

بدأ الشمسري في استمالة المخاربة فزاد من واجباتهم، ونقص من لرزاق الأتراك، هذا الأمر الذي أدى إلى نشوب القتال بين الفريقين غير مرة، كذلك تقرب من بني جلسه من اليهود فأثرهم بالكثير من المناصب المهمة أدى إلى إثارة مشاعر المسلمين، وتقليبهم عنيه، وقد تحين أوزير الفلاحي هذه الفرصة، وتحول إلى دين الإسلام ليستميل المسلمين إليه، كذلك اصطنع طائفة من الأتراك، وزاد في لرزاقهم، وقربهم إليه،

==

موصوفاً بالبراعة في صروف الكتابة وكان ناظراً على الشام، نكل في ٤٤٠ هـ. راجع : ابن الصيرفي : المصدر السابق، ص ١٧١ ابن ظافر : المصدر السابق، ص ١٧٨ ابن ميسر : أخبار مصر، ص ٣.

(١) أبو سعد الشمسري : أبو سعد (وفي بعض النسخ أبو سعيد) إبراهيم بن سهل الشمسري، كان أخوه أبو نصر يهودين يشتغلان بالتجارة، فاستخدم الخليفة الظاهر أبا سعد في إتياع ما يحتاج إليه من صنف الأمعة وتقدم عنده، فباع له جارية سوداء، تحفل بها الظاهر ولولدها ابنه للمستنصر بالله فحفظت ذلك لابن سعد فلما انقضت الخلافة إلى ولدها، فوضت إليه أمر ديوانها. راجع : ابن الصيرفي : الإشارة، ص ٧١ ابن ميسر : أخبار مصر، ص ٤٤ ابن نخري بردي : للنجوم، ج ٥، ص ١٩.

(٢) ابن الصيرفي : المصدر السابق، ص ١٧١ ابن ميسر : المصدر السابق، ص ٣ - ١٥ المقرئزي : اتعاظ الحنفاء، ج ٢، ص ١٨٤ ابن نخري بردي : المصدر السابق، ج ٥، ص ١٩٩ ناريمان عبد الكريم : المرأة في مصر في العصر الفاطمي، الهيئة العامة للكتاب، ١٩٩٣، ص ٢٠٩.

(٣) ابن الصيرفي : المصدر السابق، ص ١٧١ ابن ميسر : المصدر السابق، ص ٤٤ المقرئزي : أخبار مصر، ص ٣٢٢ ابن ميسر : المصدر السابق، ص ٢٩ ابن نخري بردي : المصدر السابق، ص ١٩.

وحرضهم على قتل التستري، وقد نجحت خطته حيث اجتمع بباب القصر ثلاثة من الجند الأتراك، وانقضوا عليه ليلاً، وقتلوه، وقطعوه قطعاً تناولت الأيدي، والأعضاء، وحاول أهله شراء ما تبقى من جثته لدفنها، وكان ذلك سنة (٤٣٩هـ / ١٠٤٧م)، وعندما طلب الخليفة قاتليه، أقر الجميع أنهم القتل، فلم يتمكن الخليفة من معاقبتهم.^(١)

لم ترض أم المستنصر عما فعله الأتراك بالتستري، وكذلك لم ترض بموقف ابنها، فعملت على للتخلص من الوزير الفلاحي الذي ظن أن الدنيا قد خلت له، وأنه آمن ما يكرهه غير أنه ما لبث أن قبض عليه، واعتقل، وقتل سنة (٤٤٠هـ - ١٠٤٨م)، أما الأتراك فقد أخذت تدبر في الانتقام منهم؛ لتعاونهم مع الفلاحي على قتل التستري، فعملت على ضربهم بالعبيد السود أبناء جنسها التي تحببت لهم، وأكثرت منهم، وجعلتهم طائفة خاصة بها، ثم أخذت في إغراء الوزراء للواحد تلو الآخر للتخلص من الأتراك غير أنهم كانوا يخشون الفتنة فيتعللون لها، وظلت أم المستنصر على هذا للعزم حتى استطاعت إغراء الوزير أبي الفرج البجلي^(٢) بما ترغبت، فأخذ في أسباب ما أمرته به، ونجح في للوقعة بينهم فقامت الفتنة بين السود، والأتراك، وكان بدء الخراب.^(٣)

(١) ابن الصيرفي؛ المصدر السابق، ص ٧٠ - ١٧٢ ابن ميسر؛ المصدر السابق، ص ٣ - ١٧ النويري؛ نهاية الأرب، ج ٢٨، ص ٢١٦ المقرئزي؛ الخطط، ج ١، ص ٣٥٥، اتعاظ الحنفا، ج ٢، ص ٣٣٠.

(٢) أبو الفرج البجلي؛ أبو الفرج عبد الله بن حمد البجلي، كان يكتب عن صدي الدولة حسن بن صالح، وكتب عن الوزير علي بن أحمد التبرجاني، ولما تولى اليازوري الوزارة رفعه وولاه جموور نوابين الأموال، ثم ولي هو الوزارة ثلاث مرات، مرة عند القبض على اليازوري سنة (٤٥١هـ) وصرف بعد شهرين ونصف، ومرة سنة (٤٥٢هـ) ومكث أربعة أشهر، ومرة أخرى عام (٤٥٤هـ) ولقام خمسة أشهر، اعتقل، ثم لزم دفره إلى أن مات. للمزيد راجع: ابن الصيرفي؛ الإشارة، ص ٨٣.

(٣) ابن ميسر؛ لأخبار مصر، ص ٢٥٠ للنويري؛ نهاية الأرب، ج ٢٨، ص ٢٢٧ المقرئزي؛ الخطط، ج ١، ص ٢٧٧ اتعاظ الحنفا، ج ٢، ص ٣٣٧ أيمن فؤاد سيد؛ الدولة الفاطمية في مصر، ص ١٩٩.

بدأت الفتنة في (٤٢٨هـ) عندما خرج المستنصر كعادته من كل عام للنزهة مع النساء، والحشم خارج القاهرة، واهماً الناس أنه خارج للتحج على سبيل الهُزء، والمجانب، ومعه من الضم، والروايا : عوضاً عن الماء، ويسبقه الناس كما يفعل في طريق مكة، وقد اتفق أن بعض الأتراك جرد ميفاً في سكره منه على بعض عبيد لشراء، فاجتمع عليه طائفة من العبيد، وقتلوه، فاجتمع الأتراك، وقتلوا جماعة من العبيد بعد أن حصل بينهم قتال شديد في كوم شريك^(١) ، وانهزم العبيد من الأتراك، وكانت أم المستنصر تعين العبيد بالأموال، والسلاح في الخفاء، وعندما علم الأتراك بذلك اجتمعت طائفة منهم، ودخلوا على المستنصر، وقاموا عليه، وأغلظوا له في القول، فحلف لهم أنه لم يكن على علم بما ذكروا، وصار إلى أمه فأكرمت ما فعلت فصار السيف قائماً بينهم، حتى اجتمعوا، وخرجوا من شبرا دمنهور^(٢) في بعض المصادف شبرا دمنهور - فقتل منهم خلائق كثيرة، وفسدت الأمور بينهم، وطمع كل منهم فيما ليس من حقه. (٣)

(١) كوم شريك : هو موضع بالقرب من الإسكندرية، عرف بشريك بن مسمي ابن بغوث أحد صحابة الرسول (ﷺ)، للذين كانوا في مقدمة عمرو بن العاص عند فتح الإسكندرية، وهو اليوم إحدى قرى مركز كوم حمادة بمحافظة البحيرة. راجع : ابن الصبوري : المصدر السابق، ص١٧٩، ابن ميسر : المصدر السابق، ص٤٣٥ الذهبي : العبر في خير من عبر، ج٣، ص١٢٥٧ ابن تغري بردي : النجوم، ج٥، ص١٨٥.

(٢) شبري دمنهور : هي القرى التي تعرف اليوم باسم شبرا الخيمة، إحدى ضواحي مصر بمديرية القليوبية، وهي والعة على فم الترعة الإسماعيلية في الشمال الغربي للقاهرة على النيل، كانت تسمى قديماً شبري دمنهور، حيث يجورها من الشمال قرية دمنهور شبري التي تشب إليها. وهذه اليوم أيضاً من ضواحي القاهرة. وشبري للخيمة المذكورة تعرف عند سكان القاهرة باسم شبري البلد تمييزاً لها عن قسم شبري أحد أقسام مدينة القاهرة. راجع : ابن تغري بردي : المصدر السابق، ص١٩٠، حاشية رقم (١).

(٣) أبو الفداء : المختصر في أخبار البشر، ج٤، ص٢٧٠، ابن ميسر : أخبار مصر، ص١٢٥، المقرئزي : الخطط، ج٢، ص١٣٢٧، اتحاط أتحفاً، ج٢،

وتعمك الأتراك بضرورة إبعاد السوادنيين عن القاهرة، فاضطر الخليفة مجبراً إلى موافقتهم على طلبهم، وذلك بعد أن قويت شوكتهم، وأصبح الحكم الحقيقي في أيدي قوادهم، وتنفيذاً لأوامر الأتراك رحل بعض العبيد إلى الصعيد، والبعض الآخر إلى الوجه البحري حيث عاثوا فيها الفساد، وأعمال السلب، والنهب، فتعالت صيحات الفلاحين تستجير بما يحدث لهم، فسار ناصر الدولة بن حمدان قائد الترك بجماعة من قواده لمحاربتهم في الصعيد، فقاتلهم قتالاً شديداً، حتى انتصروا عليهم، وقضوا على دولتهم، ولم يبق فيهم إلا القليل المستضعف، وعظم أمر ناصر الدولة بن حمدان بعد أن أصبحت مصر، وصعيداً مسرحاً للقتال بين العبيد، والأتراك، لقد عاد ابن حمدان إلى القاهرة فأساء معاملة الخليفة، وتجرأ عليهم، وطلبه بزيادة مقررات الأتراك زيادة بالغة، وعندما عجزت خزينة الدولة عن الوفاء بما طلب، عاث الأتراك فساداً في القاهرة، واستولوا على ذخائر المستنصر، وما كان بالقصر، والتربة المغرية من كنوز، وتحف، وكتب بعد أن أتلقوا الكثير منها، ولعل المقريري يعلن أسفه عما نال تلك الكتب من إتلاف. (١)

على الرغم من أن المستنصر قد عجز عن مقاومة ابن حمدان، فإن أم المستنصر لم تيأس، وحاولت اغتيال ابن حمدان، ولكن محاولتها باءت بالفشل، ففي إحدى الليالي لسنة ٤٦١هـ، هب حمدان إلى الوزير أبي عبد الله الماسكي، وعقد خروجه وثب عليه رجل صيرفي، وضربه بسكين فقبض على الصيرفي في الحال، وتم شنقه في وقتها، وحمل ابن

ص ٣٩٢، ٣٩٥؛ ابن تغري بردي : النجوم، ج ٥، ص ١٧ - ١٩؛ أمين فولاد سيد : الدولة الفاطمية في مصر، ص ٢٠٠.

(١) ابن الصيرفي : الإشارة، ص ٢٧ - ٧٨؛ ابن ميسر : المصدر السابق، ص ٣١ - ٣٨؛ النويري : نهاية الأرب، ج ٢٨، ص ٢١٧؛ المقريري : لخط، ج ١، ص ٢٣٥ - ٢٣٦؛ المعاط للحنفاء، ج ٢، ص ٣٩٢، ١٢٩٥؛ ابن تغري بردي : المصدر السابق، ص ١٢ - ١٥؛ علي حسني الخربوطلي : مصر العربية الإسلامية، ص ١٦٤.

حمدان إلى داره جريخاً، وعلج من جروحه بعد مدة^(١)، وعندما علج من جروحه استبد بالأمر دون الخليفة الذي كان مشغولاً بالهوء والشراب، والطرب، فأسقط اسمه من الخطبة، وقام بمحاصرة القاهرة، حتى عدم ما بخزائن المستنصر من أموال، واستغاث الناس من الجوع، واستسلم المستنصر، وقبض ابن حمدان على أمه، وعاملها معاملة سيئة، وصادر أموالها، غير أنها تمكنت من الهروب إلى بغداد، كما تفرق عن المستنصر جمع أقاربه، وأولاده، فصار بعض منهم إلى العراق؛ والبعض الآخر إلى المغرب، وانتشر الفساد في مصر.^(٢)

اشتعلت للدولة العباسية بما آلت إليه للخلافة الفاطمية من ضعف، واستسلام، وعاودت إلى حملتها الأولى ضد الخلافة الفاطمية، والتي قد بدأها منذ زمن للحاكم بأمر الله، وأصدرت محضراً آخر حمل في طياته سباً، وقذفاً، واتهاماً للفاطميين في تمسبهم لعلي بن أبي طالب، ولما كان المستنصر شديد التأثر بمثل هذه الشائعات، والشائيات، فقد أدى هذا إلى اهتزاز الأوضاع السياسية، وتدهورها أكثر مما هي عليه هذا الأمر الذي ضاق به العامة حتى خرجوا من ثباتهم، وأعلنوا رفضهم لتلك السياسة.^(٣) وقد ساجت أحوال مصر، ولاسيما بعد أن اجتمعت تلك النقوضى السياسية بالأزمة الاقتصادية التي كادت أن تقضي على البلاد، فعهد الخليفة المستنصر بالوزارة إلى أبي محمد الحسن اليازوري^(٤)، الذي انفرد

(١) ابن تغري بردي : المصدر السابق، ص ٨٢؛ سحر عبد العزيز سلم : للشائعات، ص ٢٧.

(٢) ابن ظافر : أخبار الدول، ص ٧٥؛ أبو الفداء : المختصر، ج ٢، ص ٢٧٠؛ المقرئزي : اتحاف الحففاء، ج ٢، ص ١٣٩؛ ابن تغري بردي : للنجوم، ج ٥، ص ١٥.

(٣) سحر عبد العزيز سالم : للشائعات، ص ٢٨.

(٤) أبو محمد الحسن اليازوري : هو أبو محمد الحسن بن علي بن عبد الرحمن اليازوري، كان أبوه القاضي قرية "يازور" من أعمال الرملة، تولى القضاء بعده ثم عزله، فعلق بخدمة أم المستنصر بالله، قرئ مجله في الوزارة سنة ٤٤٢ هـ، سمي به أنه قد حمل أول الدولة إلى الشام في التواييت، وشجع سبكه وأنفذه إلى

بالحكم ما يقرب من تسع سنوات، وقد نجح اليازوري إلى حد كبير في تخفيف تلك الأزمات، فبِن الخليفة سرعان ما اتهمه بالتعاون مع عدوه طغرنيك السلجوقي الذي أحسن له المحيـه إلى مصر، فقتله ٤٥٩هـ، وحملت رأسه إلى المستنصر، وألقيت جثته في عزيلة ثلاثة أيام ثم أعيدت، وتم دفنه، وكانت نهاية هذا الوزير هي بداية لظهور الفوضى، والاضطراب. (١)

وبقتل الوزير اليازوري (٤٥٠هـ / ١٠٥٨م)، دخلت مصر في حروب أهلية، ووقع الخلاف بين عبيد الدولة، وضعف قوة الوزراء عن تسيرهم، وذلك لقصر مدتهم؛ حيث تولى الوزارة فيها أربعة وخمسون وزيراً، واثنان وأربعون قاضياً إلى سنة (٤٦٦هـ / ١٠٧٣م) فكان للوزير بلي الوزارة أشهره، أو أياماً. (٢) فخرت أعمال الدولة، ولم تر صلاحاً، ولا استقام لها أمر. (٣)

وعلى الرغم من هروب أم المستنصر، فإن مظاهر الفتنة في مصر لم تنته بعد، وظلت أعمال الفساد قائمة بين الجنود، وظن المستنصر بأنه مغترباً على أمره مهاناً في قصره.

انفلس وإلى الخليل، وقد حول إلى الهروب إلى بغداد فقبض عليه ٤٥٥هـ / ١٠٥٨م وسُير إلى تيس، وقتل. للمزيد راجع: للمؤيد في الدين حبة الله شيرازي، سيره المؤيد في الدين وداعي الدعوة، ترجمة: حياته بقلمه، تقديم وتحقيق: محمد كامل حسين، دار الكتاب المصري، القاهرة، ١٩٤٩م؛ ابن الصيرفي؛ الإشارة، ص٧٣، ٨٤؛ ابن ظافر: المصدر السابق، ص٧٨؛ ابن ميسر: أخبار مصر، ص١٦؛ المؤيد في الدين: سيرته، ص٨٦.

(١) ابن ميسر: المصدر السابق، ص١٦؛ التويري: نهاية الأرب، ج٢٦، ص٦٥؛ المقرئ: الخطط، ص٣٥٦.

(٢) ابن ميسر: أخبار مصر، ص٢٤ - ٢٦؛ المقرئ: إيالة الأمة، ص١٨ - ٢٧؛ ناريمان عبد الكريم: تمرأ في مصر في العصر الفاطمي، سلسلة لتاريخ المصريين، العدد رقم (٦٠٦)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٣م، ص٢١٠ - ٢١٧.

(٣) المقرئ: إيالة الأمة، ص٢٢ - ٢٣.

ووقع انخلاف بين الأتراك أنفسهم، وابن حمدان الذي استغل الفرصة، وبالف في إهانة المستنصر، وأراد أن يقيم الدعوة لبني العباس في مصر، ويسيطر على الأمور دون الخليفة، وقد أيقن بفعله الذكر أحد الأمراء الأتراك الذي وقع مع ابن حمدان في العديد من المشاهدات، فاجتر الأمير بلنكوس، وكان من أكابر الأتراك، وأنكروا ما يتفق من ابن حمدان وتخوفوا عاقبته، فاجتمعوا بباقي الأتراك، وأعظمهم بأنه لو تم لناصر الدولة ما يريد فلم يبق على أحد منهم، فاتفقوا جميعاً على قتله، فذهبوا إلى داره فبادره أحدهم بسيفه، وتبعه، وخز رأسه، ثم قطعوه قطعاً، وجعلوا كل قطعة في بلد، كذلك قتلوا أخويه فخر الدولة، وتاج المعالي، وتبعوا جميع من بقي من بني حمدان فقتلواهم عن آخرهم. (١)

وذهب بلنكوس، والذكر، وانضم إليهم للوزير ابن كدينة (٢) برووس اتقنى إلى الخليفة الفاطمي يطالبون بالأموال وقالوا له أنهم خلصوه من ابن حمدان، وشهدوا في ذلك، وتم يستطع الخليفة التصدي لهم فاضطر مرغماً إلى بيع بعض جواهره - قطع من المرجان - وأعطاهم ما طلبوا من أموال، وقتل ابن حمدان ازدادت الأمور اضطراباً، وأيقن الخليفة أنه تخلص من ابن حمدان ازدادت الأمور

(١) ابن ميسر : المصدر السابق، ص ٣٥ - ٣٦؛ أبو القداء : المختصر، ج ٢، ص ٢٧١؛ ساويرس ابن المقفع : سير البيعة المتكلمة، ج ٢، ص ٣٠، ص ٢٠؛ ابن خلدون : تاريخ بن خلدون، ج ٤، ص ٢٤؛ ابن نغري بردي : النجوم، ج ٥، ص ٢١ - ٢٣.

(٢) أبو كدينة : هو أبو محمد الحسن بن ثقة الدولة مجلي بن أمت ابن أبي كدينة المرادي، تولى الوزارة خمس دفعات، وعندما دخل أمير الجيوش بتر الجمالي مصر، كان اسم الوزارة ولقاً عليه، كان أول وزارته سنة ٤٥٥ هـ ثم شغل فيها الدفعات المذكورة، كان ثقي الخلق قاسي القلب، ويقال أنه من بلد عبت اترحمين بن منجم، سيرة أمير الجيوش إلى ثمواط فقتله بها وقتل ولده ومعاه. راجع : ابن الصيرفي : الإبلورة، ص ٩٠، ابن طاهر : أخبار الملوك، ص ٨٠؛ ابن ميسر : للمصدر السابق، ص ٢٧، ٢٨. (ينكر بن طاهر أن لقبه كدينة وليس كدينة، أخبار الملوك، ص ٨٠).

اضطراباً، وأيقن للخليفة أنه تخلص من ابن حمدان ؛ ليقطع في يد الأمراء الأتراك اللذين ضيقوا عليه الخناق ضمات أحواله، وأصبح الموبية في أيديهم، وتقلص نفوذه، وانحصر في قصره ؛ بينما قسمت مصر، وأفانيمها بين فرق الجند^(١)، ولم يجد المستنصر بالله من نجاه إلا بالاستعانة بوالي "عكا" بدر الجمالي ؛ ليخلصه من مظاهر الفساد التي آلت إليها مصر، فرحب بدر الجمالي بهذه الدعوة التي مستحق ظموحاته، فدخل مع من دخل من جنوده الأرمن. وأعاد للبلاد قوتها بعد أن قضى على المنفذين فيها.^(٢)

هكذا كان تدخل أم المستنصر بالله نثيراً بالضياغ، والهلاك، فأنت رغبته في السيطرة مع قوة شخصيتها إلى تحكمها في أمور للدولة، وقد تيسرت لها جميع العوامل التي جعلتها تتدخل بهذا الشكل، إلا أن فقدانها للصفات التي تؤهلها للحكم أدت إلى فساد الدولة، حتى إن الوزراء الذين تولوا الوزارة في ذلك الوقت كانوا يتقربون منها عن طريق الإساءة لمن قبلهم، أو من حولهم، ففسدت أمور للدولة، وأوشكت البلاد على الخراب، والدمار.^(٣) ، ودخلت مصر في فترة جديدة تميزت بالضعف، وأصبحت خلافة المستنصر بالله هي للتقطعة الفاصلة في تاريخ الدولة الفاطمية، وتحول أمور الحكم فيها من عصر الخلفاء إلى عصر الوزراء الذين تحكموا في أمور الدولة دون الخليفة نفسه حتى نهاية الدولة.

لم يلقه الأمر عند هذا الحد، فلم يرحل المستنصر بالله الفاطمي، إلا بعد أن تزوج من ابنة الوزير بدر الجمالي، وقد أسفر هذا الزواج

(١) ابن الصيرفي : الإثارة، ص ٩٥، ابن ظافر : أخبار الدول، ص ٧٤؛ المقرئ : اتعاط الحنفاء، ج ٣، ص ٤١٩ - ٤٢٠؛ ابن تغري بردي : النجوم، ج ٥، ص ٢٢٢؛ أمين فؤاد سيد : الدولة الفاطمية في مصر، ص ٢٠٧.

(٢) ابن الصيرفي : المصدر السابق، ص ٩٥ - ٩٦؛ اللويري : نهاية الأرب، ج ٢٨، ص ٢٣٦ - ٢٣٨؛ ابن تغري بردي : المصدر السابق، ص ٢١ - ٢٢؛ عبد المنعم ماجد : السجلات للمستنصرية، مجل رقم (٥٦)، (٥٧).

(٣) نازمان عبد الكريم : للمرأة في مصر، ص ٢١٢.

صراخاً جديداً على العرش لصالح الابن الأصغر للمستتصر بالله من زوجته الأرمنية ابنة بدر الجمالي، فعلى الرغم من عدم أحقيته فيه، فقد دخلت الدماء الأرمنية في تكوين الخلفاء الذين تولوا الحكم بعد ذلك (مثل : المستعلي بالله، والأمر بأحكام الله)، وإن كان هذا تدخلاً غير مباشر من ابنه بدر الجمالي، فإن مصر قد تأثرت بهذه الزيجة.

أدت الظروف للمحيطة بمصر من اضطرابات سياسية، وضاد بين الوزراء في الداخل، ووجود الفرنجة على حنود البلاد، والأزمات الاقتصادية المتلاحقة فضلاً عن ضعف شخصية الخلفاء، واستبداد للوزراء بهم، إلى تدخل النساء في أمور الدولة، ولكن بصورة تنسم بالضعف، وذلك عن طريق الاعتماد على رجل قوي ضد رجل آخر ؛ للإيقاع بالوزراء، فكثرت النساء، والمؤامرات داخل القصر الفاطمي، ولكن في هذه المرحلة كان من أجل الحفاظ على الدولة من الانهيار. (١)

[كثرة المحاسن والمؤامرات والإغتيالات داخل القصر]

اختفي الحاكم بأمر الله (٤١١هـ / ١٠٢١م) بطريقة يكتبها الغموض، حيث خرج من المقطم، وطلب إلى المكاريين اللذين صحباه بانتظاره، وابتعد عنهما في الجبل، ولم يره بعد ذلك أحد. وقد عثر على ثيابه، وبها طعونات بعد خمسة أيام من غيابه (٢)، ولم يتدارك الناس هذا الأمر، وظلوا يقرّبصون ظهوره، ويتبعون آثاره إلى أن تحققوا عدمه، فاضمأنت قلوبهم. (٣)

(١) نفسه، ص ٢٢٥.

(٢) ابن ظفر : أخبار الدول، ص ٥٨، ٥٩؛ ابن الأثير : الكامل، ج ١، ص ١٣٥؛ ابن خلكان : وفيات الأعيان، ج ٥، ص ٢٩٧ - ٢٩٨؛ النويري : نهاية الأرب، ج ٢٨، ص ١٩٤ - ١٩٦؛ ابن خلدون، تاريخ بن خلدون، ج ٤، ص ٦١؛ ابن تغري بردي : النجوم، ج ٤، ص ١٩٠.

(٣) الأنبلكي، تاريخ الأنبلكي، ص ١٣٦؛ ابن تغري بردي : المصدر السابق، ص ١١٨؛ المقريزي : تلعلط الخفاء، ج ٢، ص ١١٥ - ١١٦؛ ابن أبيس : دفاع الزهور، ج ١، ص ٤٥، محمد عبد الله عنان : الحاكم بأمر الله، ص ٢١٩.

وتوجه أصابع الاتهام أن ست الملك أخت الحاكم بأمر الله الكبرى، التي اتصفت بالذكاء، ورجاحة للعقل، واتساع الإدراك، والتي رأت في تصرفاته المثبته، وادعاءه الأكوهية، وهتكه ناقوس الشريعة الإسلامية هلاكاً للنوالة الفاطمية، فخشيت من ثورة أهل مصر عليه، ومحاولة قتله، وقتل أهل بيته، وراء عملية اغتيال الحاكم بأمر الله، وذلك بالاشتراك مع سيف الدولة الحسين بن علي بن دواس الكتامي.^(١)

وكانت ست الملك قد نالها ما نال غيرها من المقربين للحاكم بأمر الله حتى إنه قد اتهمها في شرفها، ورمأها بالفجور، وأسمعها أغلظ الكلام، وقد عزم علي إدخال القوايل عليها لكشف حالها^(٢)، وعلمت ست الملك أنها هالكة لا محالة، فببرت لقتله خضية من بطشه^(٣)، أما ابن دواس فكان يتوجس خيفة من غدر للحاكم، وابتظر هلاكه منه يوماً بعد يوم، ولاسيما بعد أن عاتبه الحاكم بأمر الله بسبب تأخيره عليه في يوم الموكب^(٤)، لقد أشغلت ست الملك ذكاءها، وأعرت ابن دواس بقتله، بعد أن استعطفته كأنثى، ووعدهت بالأموال، والخلق، وقد استعان ابن دواس بعبدين وثق فيهما ؛ لتفديت تلك الحادثة^(٥)،

(١) الأضحاكي : المصدر السابق، ص ٣٦١ - ٣٦٢ ابن تغري بردي : المصدر السابق، ص ١٨٥ - ١٩٠.

(٢) ابن ظفار : المصدر السابق، ص ٥٧، ٥٨ عبد المنعم سلطان : المجتمع لمصري ١٩٨٥ م، ص ١٠٣.

(٣) ابن ظفر، للمصدر السابق، ص ٥٧، المقريزي : اتعاظ للحق، ج ٢، ص ١١٥ - ١١٦.

(٤) ابن ظفار : المصدر السابق، ص ٥٨، ابن تغري بردي : المصدر السابق، ص ١٨٥ - ١٨٦.

(٥) لقد كمن الجنان الأسودان له، وعندما قرب للصباح وثيا عليه وطرحاه على الأرض فصاح ويلكما ما تريدان ؟ فقطعا يديه من رأسه وكفقه وشقاه جرفه وأخرجوا ما فيه ولفاه في كساء، وحملاه إلى ابن داورس، فحمله بن داورس مع العبدن إلى ست الملك فتلغته في مجلها وكتمت أمره، ثم أرسلت للوزير خطيسر الملك، وأبلغته بالأمر واستكتمته على أمرها. راجع : المقريزي : اتعاظ للحق، ج ٢، ص ١١٥ - ١١٦ ابن تغري بردي : النجوم، ج ٤، ص ١٨٨ - ١٨٩ محمد عبد الله عنان، للحاكم بأمر الله، ص ٢١٥ - ٢١٦.

وقد نجحاً في ذلك. (١)

وبعد أن تخلصت ست الملك من للحاكم بأمر الله، أرادت للتخلص من زين دالوس نفسه، وقد مكرت لذلك، فبعد موت الحاكم بأمر الله، أمرت للأعيان بمال كثير، ومراكب ذهب، وفضة، وأمرت ابن داوس أن يشاهدها في الخزانة، وقالت له : غذا تخلع عليك، فقبل ابن داوس الأرض، وفرح، وأصبح من الغد يحبس عند الستر ينتظر الإذن حتى بأمر، وينهي، وكان للحاكم بأمر الله مائة عبيد يختصون بركابه، ويحملون السيوف، ويقتلون من يأمرهم بقتله، فبعث بهم يدت الملك لابن داوس ؛ ليكونوا في خدمته، فوقفوا بين يديه، ثم أمرت صاحب الستر أن يقول لهؤلاء العبيد : يا عبيد، مولانا نقول : لكم هذا الرجل قاتل مولانا الحاكم بأمر الله فاقتلوه، فانهاهال العبيد على ابن داوس، وقتلوه بالسيوف كما قتلوا العبيد الذين قتلوا الحاكم بأمر الله. (٢)

أصبحت ست الملك منذ نهاية عام ٤١١هـ / ١٠٢١م في الحقيقة هي الحاكمة الفعلية للبلاد ؛ حيث تولى الظاهر لدين الله بن الخليفة الحاكم لدين الله بعد مقتل والده، وكان الظاهر لدين الله في سن صغيرة، فتولت ست الملك الوصاية عليه، واعتمدت ست الملك في أول أمرها على رئيس الرؤساء الوزير خطير الملك أبي الحسن بن صمار (٣) بن محمد، التي

(١) الأتطاكي : تاريخ الأتطاكي، ص ٣٦٣؛ ابن ظافر : أخبار الدول، ص ٥٧ - ٥٨؛ ابن تغري بردي : المصدر السابق، ص ١٨٥ - ١٨٩؛ ابن العماد : شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ج ٣، ص ١٩٣؛ محمّد عبد الله عنان : المرجع السابق، ص ٢١٤ - ٢١٧.

(٢) ابن عذاري : لبيان المغرب، ج ١، ص ٢٧١؛ النويري : نهضة الأرب، ج ٢٨، ص ٤١٤؛ المقرئزي : المعظم الكبير، ج ٢، ص ٥٦٢ - ٥٦٣؛ ابن تغري بردي : المصدر السابق، ج ٤، ص ١٩١ - ١٩٢.

(٣) الوزير خطير للملك ؛ الأمير للخطير رئيس الرؤساء أبو الحسن صمار بن محمد، آخر وسائط الحاكم بأمر الله، تولى بيعة الإمام الظاهر لإعزاز دين الله، ثم قتل. رابع : زين العموري : الإشارة، ص ١٥٥؛ ابن ظافر : المصدر السابق، ص ١٦٥؛ المقرئزي : اتعاظ الحنفا، ج ٢، ص ١١٢٨؛ النويري : المصدر السابق، ص ١٩٢؛ ابن تغري بردي : المصدر السابق، ص ١٩٢.

أطلعته على أمرها فيما يخص قتل الحاكم بأمر الله، وكان خطير الملك قريباً جداً من الظاهر لدين الله، شغوفاً به ملازماً له، كما كان الظاهر لدين الله يحبه حباً شديداً، فخشيت ست الملك من تأثير خطير الملك على الظاهر بأمر الله، كما خشيت على افتضاح أمرها، فذيرت لمصرعه، وكذلك كل من اطلع على أمرها، ثم باشرت أمر الدولة بنفسها.^(١)

تُيَقَنَّت ست الملك أن بقاء ولي العهد عبد الرحمن بن إلياس - الذي قد ولاه الحاكم بأمر الله ٤٠٤هـ مخالفاً للشريعة الإسماعيلية - يمثل خطراً على العرش؛ لذلك فقد أرسلت لاستدعائه من الشام؛ لتولي أمور الدولة، وعندما وصل إلى تميم حبسه صاحبها، وكان ذلك بالاتفاق مع ست الملك ثم أرسله إليها؛ فقامت بحبسه في القصر، ثم دنت عليه من قتلها، ويقال إنه مات مسموماً من فاكهة مسمومة أرسلت إليه، غير أنها عملت على أن يظهر هذا القتل على أنه محاولة انتحار من ولي العهد نفسه، وقد نجحت في ذلك، وأقرت عليه الشهود، ولم تثبت ست الملك بعدها سوى ثلاثة أيام، وماتت سنة ٤١٣هـ/١٠٢٢م.^(٢)

وفي ٤٢٧هـ / ١٠٣٦م توفي الظاهر لإعزاز دين الله، وتولى ابنه المستنصر بالله أبو تميم بن علي، وكان في السابعة من عمره، لم يكن كأجداده قد تنبأ بالغيب بعد، فقد كان المستنصر بالله أطول الخلفاء الفاطميين حكماً على الإطلاق، حكم مصر ستين عاماً، وأربعة أشهر

(١) ابن الصيرفي: الإثارة، ص ٦٥؛ ابن ظفر: أخبار الدول، ص ٦٥؛ النويري: نهاية الأرب، ج ٢٨، ص ٦٢؛ ابن تغري بردي: النجوم، ج ٤، ص ١٩٢؛ أمين فؤاد سيد: الدولة الفاطمية في مصر، ص ١٨٢؛ محمد عبد الله عنان: الحكم بأمر الله، ص ٢٢٦ - ٢٢٧.

(٢) الألفاسي: تاريخ الألفاسي، ص ٣٦٨؛ النويري: المنصور السابق، ج ٢٨، ص ٢٠٤ - ٢٠٥؛ المقرئ: انعاظ الحنفاء، ج ٢، ص ١١٤؛ ابن تغري بردي: المنصور السابق، ص ١٩٣ - ١٩٤؛ جمال قدين اثريال: مجموعة الوثائق الفاطمية، ص ٢١؛ محمد عبد الله عنان: المرجع السابق، ص ٢٢٦؛ أمين فؤاد سيد: المرجع السابق، ص ١٨٢.

(٤٢٧ - ٤٨٧ هـ / ١٠٣٦ - ١٠٩٤ م)^(١)، عُنهدت تلك السنوات أحداثًا جسامًا في تاريخ الدولة الفاطمية، تخللتها فترات قصيرة من الاستقرار، والرخاء، وفترات طويلة مليئة بالاضطرابات، والفتن، والمشاكل العيانية، والاقتصادية، والإدارية التي زعزعت كيان الدولة، حتى تعرضت القاهرة، وقصر الخلافة نفسه للعديد من للصراعات الدامية التي اجتاحت طوائف الجند على اختلافها، ثم جاءت الأوبئة، والأزمات الاقتصادية الواحدة تلو الأخرى حتى ضعفت قوى الدولة، وضاع نفوذها.^(٢)

لقد ساءت أحوال مصر بعد أن اجتمعت القوضى السياسية بالأزمات الاقتصادية التي كانت نقضي على البلاد، وساءت أحوال الخليفة الذي أصبح للعبية في يد للجند الأتراك، وأصبح كالمحجور عليه داخل قصره، بعد أن لقتسم الجند أقاليم مصر فيما بينهم^(٣)، ولم يجد الخليفة أمامه سوى الاستعانة بقوة خارجية تخلصه من مظالم الفساد التي عمت البلاد، وقد تعطلت تلك القوى في بدر الجمالي^(٤) والي عكا الذي

(١) ابن عسافر : أخبار الدول، ص١٧٧ الدواداري : كثر الدور، ج٦، ص١٣٤٢، المقرئزي : المصدر السابق، ص١٨٤، ابن تغري بردي : المصدر السابق، ج٥، ص١.

(٢) ابن الأثير : الكامل، ج١٠، ص٨١ - ٨٢؛ ابن ميسر : أخبار مصر، ص٢٥ - ٢٦؛ التويري : المصدر السابق، ص٢١٧ - ٢٢٥؛ المقرئزي : الخطط، ج١، ص٢٣٥ - ٣٣٦.

(٣) استولى اللواقيون والملجية على البحيرة والإسكندرية وملكوا جميع أسفل الأرض، واستقر الصعيد في أيدي المغاربة والمموندن، وتحكم الأتراك في القاهرة والفسطاط. راجع : ابن الصيرفي : الإشارة، ص١٩٥؛ المقرئزي : الخطط، ج١، ص١٧، المقفي الكبير، ج٢، ص٣٩٧.

(٤) بدر الجمالي : هو مملوك أرمني من أصل مسيحي، وهو من معاليك جمان الدولة أبي الحصن حتى بن عمار صاحب "طرابلس"، يتميز بشدة العزم، وقوة الجش، ظل يتقل في الخدم ويتخرج في الرتب ويأخذ نفسه بالجد فيما يباشره، حتى ولي "مشق" ومائر الشام كعنين، كانت الأولى سنة ٤٥٥ هـ، وظل وقيًا لسيه كن خرج منها هارياً سنة ٤٥٦ هـ، والثانية كفت في سنة ٤٥٨ هـ، وفيها حدثت

أرسل إليه الخليفة عمراً يستدعيه للقيام لتجديده، وإعانتته، ويعدده بتملك البلاد. (١)

استطاع بدر الجمالي بمن معه من الجند الأرمن، أن يقضي على المفسدين، ويقر قواعد البلاد، ويصلح من أمورها بعد أن فسدت (٢)؛ وقد حفظ الخليفة المنتصر بالله لبدر الجمالي فضله على الدولة، والخلافة فلم يخلُ سجل من السجلات (٣) التي أرسلها المنتصر بالله لدعائه في اليمن، والمكتوبة بعد سنة (٤٦٧هـ / ١٠٧٤م) من انتوويه بفضله على الدولة؛ لذلك ففي سنة ٤٦٨هـ ألبسه خلعاً الوزارى - وزارة الكفويض -، وأضاف إلى ألقابه "السيد الآجل أمير الجيوش"، وفي (٤٧٢هـ / ١٠٨٠م) أضيف إلى ألقابه لقب "كافل قضاة المسلمين، وهادي دعاة المؤمنين" (٤)، فأصبح بدر الجمالي الحاكم القملي للبلاد، وأصبح الخلفاء

فتنة وثار عليه أهل البصرة فخرج منها واستقر بعد خروجه بغير "عكا" إلى أن استدعاه الخليفة المنتصر بالله لإفقاد مضر مما آلت إليه.

المزيد راجع : ابن الصيرفي : المصدر السابق، ص ٩٤، ٩٥ ابن قلائسي : ذيل تاريخ دمشق، ص ١٢٧ - ١٢٨ ابن ميسر : أخبار مصر، ص ٢٨ - ٣٠ ابن خلكان : وفيات الأعيان، ج ٢، ص ٤٤٨ الصفي : الوافي بالوفيات، ج ١، ص ٩٥ - ٩٦ ابن تغري بردي : الفجوم، ج ١٥، ص ٢٠.

(١) ابن الصيرفي : المصدر السابق، ص ٩٥، ٩٦ أبو صالح الأرمني : كتابس وأخبار مصر، ص ٦١ ابن ظافر : أخبار الدول، ص ٢٦ ابن ميسر : أخبار مصر، ص ٤١ ابن خلدون : تاريخ بن خلدون، ج ٤، ص ٦٤ المقرئزي : الخطط، ج ١، ص ٣٨٢ تعاض الحنفاء، ج ٢، ص ٤١٩، ٤٢٠ للمقري الكبير، ج ٢، ص ٣٩٦ ابن تغري بردي : المصدر السابق، ص ٢١، ٢٢.

(٢) عبد المنعم ماجد : السجلات المنتصرية، سجل رقم (١٥، ١٦، ٣١، ٣٢) فيمن لواد سيد : الدولة الفاطمية في مصر، ص ٢١٣.

(٣) ابن الصيرفي : المصدر السابق، ص ٩٥ - ٩٦ ابن ميسر : المصدر السابق، ص ٤٠ - ٤٥ المقرئزي : الخطط، ج ١، ص ٤٤٠ ابن تغري بردي : المصدر السابق، ص ١٠١ السجلات المنتصرية، سجل رقم (٥٦، ٥٧، ٥٨)، ص ٨١ - ٩٤.

(٤) ابن ميسر : المصدر السابق، ص ٤٥ - ٥٠ التويري : نهاية الأرب، ج ٢٨،

الفاطميون منذ ذلك التاريخ رؤساء رمزيين لسلسلة من الملغاة العسكريين الذين لم يخلوا عهدهم من بعض مظاهر الفساد المختلفة، والذي سمي عصرهم بعصر الوزراء، أو العصر الفاطمي الثاني.

بدأ العصر الفاطمي الثاني بسلسلة من الصراعات، والفتن، والحماض، ففي عام ٤٧٧هـ / ١٠٨٤م خرج الأوحى بن أمير الجيوش بدر الجمالي على أبيه، حيث قرر التمرد عليه، وقتله بالاتفاق مع جماعة العسكري، والعريان، وقد تحصن، ورفأقه بالإسكندرية، غير أن بدر الجمالي قد فطن لتلك المؤامرة، وسار إليه، وحاصر الإسكندرية حتى طلب أهلها الأمان، فقام بدر بقتل أصحاب ولده، الذي اختفى أثره بعد ذلك، وقد قيل إن بدرًا قد قتله حيًا، كما قيل إنه جوعه حتى مات. (١)

وترجع إحدى الدراسات التاريخية لحنيفة أن هذه الأقاويل ربما يكون مبالغًا فيها من قبل الشعب الذي ارتعد خوفًا من ذلك الوزير الذي اشتهر بقوته، وجبروته (٢)، على أن هذا الحادث كان له أثره على سير الأمور فقد استتاب بدر ولده للأفضل شاهنشاه، وجعله ولي عهده.

وقد أقر الخليفة المستنصر بالله "المغلوب على أمره" هذا الأمر، وأوكل للأفضل شاهنشاه سياسة الملك، وما يختص بمظاهر السلطان، وأمور الجند، وقد أصدر المستنصر بالله سجلاً بذلك إلى دعائه (٣) على أن

ص ١٢٣، المقرئزي : المصدر السابق، ص ٣٨٢، عبد المنعم ماجد : المرجع السابق، سجل رقم (٥٩).

(١) ساويرس بن المقفع : سير البيعة المقدسة، ج ٢، ص ٢١٧ - ٢١٨، ابن ميسر : أخبار مصر، ج ٢، ص ٤٦٦، للتوري : نهاية الأرب، ج ٢٨، ص ٢٢٨، المقرئزي : لمعاظ للحفأ، ج ٣، ص ٤٢٧، ابن تنوي بردي : النجوم، ج ٥، ص ١١٩، جمال قدين للثيال : تاريخ مدينة الإسكندرية في العصر الإسلامي، دار للمعارف، القاهرة، ١٩٦٧م، ص ١٢٢.

(٢) سحر عبد العزيز سالم : الشامات، ص ٢٩.

(٣) عبد المنعم ماجد : السجلات المستنصرية : سجل (١٥، ٢٧)، ص ٦٣ - ٦٦، ٩٤ - ٩٦.

يتفرغ بدر للجمالي إلى الإشراف على الدعوة، هذا الأمر الذي لم ينظر له بعين الارتياح من قبل أتباع الدعوة^(١)، على أن هذا أصبح أمراً واقعياً، كما تحولت بذلك الوزارة إلى ما يشبه "الملك" الذي يورث.

نجح الأفضل شاهنشاه في إقصاء الخلافة عن "نزار" الابن الأكبر للمستنصر بالله، وولي عهده، وتولية الابن الأصغر - ابن أخت الأفضل - المستعلي بالله، ولكي يتم له هذا الأمر بسلام، فقد عمل على قتل "نزار"؛ ليتخلص منه نهائياً، فبعد حروب شديدة دارت بينهما، طلب "نزار" الأمان من الأفضل شاهنشاه، وقد أعطاه إياه، ولكنه نكث هذا الأمان، وبلغ في الانتقام منه، ثم عمل على قتله شر قتله، حيث حبسه ثم بنى عليه حائطاً حتى مات.^(٢)

أصبحت الأمور جميعاً في يد الأفضل شاهنشاه، الذي استبد بالأمر دون الخليفة للمستعلي الذي لا نجد ما نقوله في سيرته أفضل مما قاله المقرئ حيث قال: "لم يكن للمستعلي ميرة تذكر فإن الأفضل كان يدبر أمر الدولة تدبير سلطنة، ومالك لا تدبير وزراء"^(٣)، وكان ذلك طوال خلافة المستعلي حتى توفي في ٤٩٥هـ/١١٠١م، وكان يبلغ من العمر سبعة عشر عاماً، وقيل إنه مات مسموماً، أو ربما قتل مراً، وتدبير أصابع الاتهام إلى أن الأفضل هو الذي دبر لمقتله، وذلك عندما بدأ يطالب بحقه في السلطنة، وبمجرد وفاته قام الأفضل بمبارحة ابنه المنصور بالخلافة، وثق به بالأمر لأحكام الله.^(٤)

-
- (١) أمين فؤاد سيد: الدولة الفاطمية في مصر، ص ٢١٧.
(٢) ابن ظافر: أخبار الدول، ص ١٨٨؛ ابن ميمر: أخبار مصر، ج ٢، ص ١٦٢؛ لدوادري: كنف الدرر، ج ٦، ص ٤٤٧؛ المقرئ: المقفى الكبير، ج ٢، ص ٢٢٢؛ ابن تغري بردي: النجوم، ج ٥، ص ١٤٤، ١٤٥.
(٣) ابن ظافر: المصدر السابق، ص ١٨٨؛ المقرئ: تعالظ الحنفاء، ج ٣، ص ١٤٤٩؛ ابن تغري بردي: المصدر السابق، ص ١٢٤، ١٢٥.
(٤) المقرئ: المصدر السابق؛ القرطبي: أخبار الدول وأثار الأول، ص ٢٤٤ - ٢٤٥.

كان الأمر لأحكام الله طفلاً لم يتجاوز خمس سنوات، فحجر عليه الأفضل عندما فعل مع ولده، واستقل هو بتدبير أمور الدولة^(١)، وقد أخذ الأفضل يجرّد الخليفة من سلطاته تدريجياً فنقل مقر الحكم الفاطمي - لأول مرة في تاريخ الدولة الفاطمية - من القاهرة إلى القسطنطينية كما نقل ثوابين الدولة من القصر إلى موضع أعدد بالقرب من الدار التي ابتناها لنفسه بالقسطنطينية - دار الملك - ثم قام بمنع الخليفة من الركوب في المواسم، والأعياد، وشار يتصرف هو كالمملوك والسلاطين، فحجر عليه محمد ابن فاتك البطائحي، وسلم إليه جميع أموره، واعتمد عليه في تصريف أمور الدولة فسار منه مكان الوزير من الخليفة، ظل الأفضل على هذه الصورة حتى قتل ٥١٥هـ / ١١٢٢م، تاركاً وراءه ثروة ضخمة ظل الأمر شهرين، وأياماً في حصرها، ونقلها^(٢)، ويتهم المؤرخون الأمر بأنه قد تأمر على الأفضل شاهنشاه بالاتفاق مع محمد بن فاتك البطائحي؛ ليخلص منه بعد أن سلبه أن جميع حقوقه مقابل توليته الوزارة.^(٣)

وقد تولى المأمون البطائحي الوزارة (٥١٥هـ / ١١٢٢م)^(٤) بعد الأفضل شاهنشاه، وسار إلى ما سار إليه الأفضل من سيطرة، واستبداد

(١) ابن ميسر : المصدر السابق، ص ٧٠؛ ابن ظفر : المصدر السابق، ص ٨٧؛ ابن خلكان : وفيات الأعيان، ج ٢، ص ٤٤٨؛ ابن تغري بردي : المصدر السابق، ص ١٧٠.

(٢) ابن المأمون البطائحي : أخبار مصر، ص ٤٦؛ ابن ظفر : المصدر السابق، ص ٤٥٤، ٤٦٨؛ ابن ميسر : المصدر السابق، ص ٨٠؛ ابن تغري بردي : المصدر السابق، ص ١٧٠ - ١٧١؛ جمال الدين الشيال : مجموعة الوثائق الفاطمية، ص ١٤١.

(٣) ساويرس بن المقفع : سير لبيعة المعقمة، م ٣، ج ١، ص ٢٢ - ٢٣؛ النويري : نهاية الأرب، ج ٢٨، ص ٢٧٩ - ٢٨٠؛ السولدري : كنز السرر، ج ٦، ص ٤٨٥؛ ابن تغري بردي : اللجوم، ج ٥، ص ١٧١؛ أحمد مختار العيادي : في التاريخ العباسي والفاطمي، ص ٣٠٧؛ أيمن مؤيد سيد : الدولة الفاطمية في مصر، ص ٢٢٩.

(٤) ابن القلتاسي : ذيل تاريخ دمشق، ص ٢٠٤؛ ابن ميسر : أخبار مصر، ص ٨٧.

بالخليفة، فأيقن الخليفة الأمر بأحكام الله، أنه قد استبدل سيد بسيد آخر، ولا سيما بعد أن علم الأمر بأن للمأمون البطشاحي يريد الاستقلال بالبلاد دونه، فعمل على قتله ٥٢٢هـ / ١١٢٨م. (١) وفي ٥٢٤هـ / ١٣٠م، قتل الأمر نفسه، بواسطة عثمان الأفضل شاهنشاه الذين أرادوا الانتقام له، ويقال أن الذي قتله هم جماعة من أتباع عمه نزار، وقد فرح الناس لقتله. (٢)

وفي خلافة الحافظ لدين الله، سيطر على أمور الدولة أبو علي أحمد بن الأفضل شاهنشاه من بدر الجمالي الذي لقب بـ 'بالأكمل' ٥٢٤هـ - ٥٢٦هـ فاستبد كأبيه وجده بالحكم، وسيطر على كل شيء.

ثم ضيق على الحافظ لدين الله، وحجر عليه، ومنعه من الظهور، وقام باعتقاله في خزنة للبنود لا يدخل عليه أحد إلا بإذن من 'الأكمل' نفسه، واستبد بالحكم، وسيطر على كل شيء ثم انقض على التقصر، وأخذ جميع ما فيه من زخائر بحجة أن ذلك مال أبيه، وجده. (٣) ، فسدت أمور الدولة، وكذلك العقيدة في عهده، حتى تأمر عليه دعاة الفاطميين، ودسوا له من قتله، وهو خارج لتهو (٥٢٦هـ/١١٣٢م). (٤)

(١) ابن الطوير : نزعة المعتكفين، ص ١٥ - ١٦ ابن ميسر : المصدر السابق، ص ١٠٣ - ١٠٧ : الثوري : المصدر السابق، ص ٢٩١ : المقرئ : المقفي الكبير، ج ٦، ص ٤٩٩ : أتماظ الحنفاء، ج ٧، ص ٥٠٧ ابن تغري بردي : المصدر السابق، ج ٥، ص ١٧٠.

(٢) ابن ظافر : أخبار الدول، ص ٩١ : ابن الأثير : الكامل، ج ١٠، ص ٦٤٤ ابن ميسر : المصدر السابق، ص ١١٠ : ابن خلكان : وفيات الأعيان، ج ١، ص ٢٩٩ - ٣٠٠ : المقرئ : أتماظ لطفاء، ج ٢، ص ٥١٧ ابن تغري بردي : المصدر السابق، ص ١٧٣، ١٨٤، ١٨٥.

(٣) المقرئ : أتماظ الحنفاء، ج ٣، ص ٥٢٧ - ٥٣٠ ابن تغري بردي : المصدر السابق، ص ٢٢٩ : علي حيني الخربوطلي : مصر العربية الإسلامية، ص ١٧٢.

(٤) ابن ظافر : المصدر السابق، ص ٩٥ ابن ميسر، المصدر السابق، ص ١١٥ - ١١٦ : المقرئ : المصدر السابق، ابن تغري بردي : المصدر السابق، ص ٢٣٩.

ثار غلمان الأمر بأحكام الله في ظل تلك الفوضى التي تعرضت لها مصر، وأخرجوا الحافظ لدين الله من المعتقل، وبايعوه بالخلافة للمرة الثانية^(١)، وكان الحافظ كما تم ذكره أباً "مستودعاً"، ينتظر ميلاد الطفل الجديد - ابن الأمر - . وفي تلك الفترة أنجبت زوجة الأمر طفلها الذي عمل الحافظ على الاجتهاد في طلبه، وقلته ؛ طمعاً في الخلافة.^(٢)

لم يتعظ الخليفة الحافظ مما حدث له على يد الأكمّل الأرمني، فعندما استقامت له الخلافة اتخذ من يأنس الأرمني وزيراً له، وكان يأنس من غلمان الأفضل بن أمير الجيوش، وقد تخوف يأنس من خاصة الخليفة، واستنارهم به، فعمل على التخلص منهم الواحد تلو الآخر دون أن يستأنن الخليفة في ذلك؛ مما أغضب الحافظ فتوجس منه خيفة، وأصبح يخشاه، فقرر للتخلص منه، غير أنه لم يكن رحيماً به فقد سمه في ماء الممتزج فأنفتح دبره، ولم يعد يقدر على الجلوس، وقد علم من ضيقه أن راحته في السكون، وهلاكه في الحركة، فقرر زيارته قلماً رآه يأنس قام من فراشه احتريماً له، فأطال الحافظ جلسة متعمداً، فلم يقم يأنس حتى سقطت أمعاؤه وماتت، وتولى شؤون الوزارة بنفسه حتى يستريح من غدر الوزراء.^(٣)

في (٥٢٨هـ - ١١٣٣م) عقد الحافظ بولاية العهد لابنه الأكبر أبي الربيع سليمان، غير أن سليمان قد توفي بعدما بشهرين، فأصدر سجلاً آخر بثولية لابنه الأوسط حسن، غير أنه أعدل عن هذا الترشيح، وجعله لابنه الأصغر أبي تراب حيدرة، وذلك لسوء أخلاق حسن، وعرقه لوالده، فشق ذلك على حسن، فأعلن العصيان على أبيه، وأخيه، وعلى أثر

(١) المقريزي : الخطط، ج١، ص٣٥٧ - ٣٥٩.

(٢) المقريزي : اتعظ الحنفا، ج٣، ص٥٢٠، ابن تغري بردي : النجوم، ج٥، ص٢٣٨؛ جمال الدين الشيبان : مجموعة الوثائق الفاطمية، ص٧٦ - ١٧٨
أيمن فؤاد سيد : للدولة الفاطمية في مصر، ص٢٤٩، ٢٥٠.

(٣) ابن ميسر : أخبار مصر، ص١٢٦؛ ابن تغري بردي : للمصدر السابق، ص٢٣٨ - ٢٤٠، أيمن فؤاد سيد : المرجع السابق، ص٢٥٦.

هذا العصيان انقسم الجيش أيضًا إلى فريقين، فريق يساند حيدرة صاحب الحق، وفريق يساند حسن، وقامت بينهما حروب شديدة كانت بين القصريين بالقاهرة مسرحًا لها، وعندما ياس حيدرة، فر هاربا من أخيه، واحتمى بقصر أبيه، غير أن حسن قد حاصر القصر بالنيران، ولم يجد للخليفة وسيلة لإيقاف تلك المهزلة إلا بإقضاء حيدرة عن ولاية العهد، وإصدار سجل آخر بتولية حسن مرة أخرى، وكان ذلك في سنة ٥٢٨هـ/ ١١٣٤م، هذا الأمر الذي لم يرض به حيدرة، فدخل في صراع أخرج أخيه كان النصر فيه لحسن، وهلك أخوه حيدرة، كذلك قتل الكثير من الطرفين. (١)

على الرغم من حرص الحافظ على البعد عن سيطرة الأمراء فإنه قد وقع رغبًا عنه تحت سيطرة ابنه حسن الذي استبد بالأمور دونه حتى لم يبق له معه حكم، فقد سجنه، وعمل على التخلص منه، كما عمل على التخلص من أمراء أبيه، فلما علم الأمراء بذلك قرروا خلع الحافظ، وابنه فاجتمعوا حول القصر بالنيران؛ ليحرقوه، فلم يجد الخليفة من ينصره عليهم؛ لأنهم أنصروه، وحاول الحافظ احتواء الموقف، وتهذنة الأمراء، ولكن دون جدوى؛ حيث أصروا على قتل الحسن، وأذروه بسوء العاقبة إن لم يستجب لهم. فاضطر الحافظ إلى سم ابنه عن طريق مقيه شربها لتهدأ الفتنة فهدأت الأمور، ولكن بعد أن قتل العنيد من الرجال، والعساكر، واضطربت جميع أمور مصر. (٢)

(١) المعريزي: اتعاظ الحنفاء، ج ٣، ص ٥٢٤ - ٥٣٦ ابن تغري بردي: النجوم، ج ٥، ص ٢٤١، ٢٤٦ جمال الدين اللطيفي: مجموعة للوشائق لفاطمية، ص ١٠٣.

(٢) ابن ظفر: أخبار الدول، ص ٩٦ - ٩٧، ماويرس بن المقفع: مسير البيعة للمقنعة، ج ١، ص ٢٨ - ٣٠ ابن الأثير: الكامل، ج ١، ص ١٦٧٣ ابن ميسر: أخبار مصر، ص ٩٩ - ١٠٢ ابن تغري بردي: المعصر السابق، ص ٢٤٢ - ٢٤٣.

هكذا اضطربت أمور مصر، وفسد حالها لدرجة جعلت الأبن يحجر على والده، ويحاول التخلص منه، وتجعل الأب يسم ابنه، كذلك جعلت الجند يتحكمون في تولية، أو عزل الخلفاء، والوزراء كما سنرى. وفي خلافة الظاهر، ووزارة ابن السلار، وقعت الغيرة، وأعمال الفساد بين ابن السلار، وبين عباس الصنهاجي - ابن زوجته - الذي طمع في الوزارة، وقد استغل عباس هذا علاقة ابنه نصر بالخليفة الظاهر، فأبدى نصر للخليفة برغبة والده في ذلك، فرحب بذلك شريطة التخلص من ابن السلار الذي كان الخليفة كارهاً له، وقد نجح نصر في تلك المهمة، وقتل عمه الوزير ابن السلار (٥٤٨هـ / ١١٥٣م). فوعدت الفتنة بين أهل مصر من السنة، والشيعية؛ لأن ابن السلار كان سني المذهب. (١)

تولى ابن عباس للوزارة فاستبد بالأمور، واستولى على الخليفة، وقد ساعده في ذلك صغر سن الخليفة، وانشغاله بالهوى، واللعب، فانغمس في حياة الترف، وترك الدولة لمن يقدر عليها، ظن ابن عباس أن الأمور قد استقرت له، غير أنه كان واهماً؛ حيث أتت إليه الضربة من أقرب الناس إليه، حيث طمع ابنه نصر في مكان أبيه، فأراد التخلص منه، ولكنه فشل، وعندما علم أبوه بذلك أخذته باللين، والطف حتى أقنعه بقتل الظاهر عوضاً عنه، بعد أن أثار غضبه عندما أبلغه بأن الناس يتحدثون عن علاقته غير الشرعية بالظاهر، حيث كان الظاهر ينادم نصرًا، ويعاشره فينزل في الليل متخفياً إلى داره، فاستغل نصر ثقة الخليفة به، وقتله في ذات ليلة، وهو سكران في داره بعد أن فعل معه ما يفعل مع النساء، ثم حفر له تحت لوح من الرخام، ودفنه. (٢)

(١) ابن الأثير: المصدر السابق، ص ١٨٤ ابن ميسر: المصدر السابق، ص ١٤٦ - ١٤٧؛ الدواداري: كنز الدرر، ج ١، ص ٥٥٢؛ المقرزي: المصدر السابق، ص ٥٦٦ - ٥٦٨؛ ابن تفرج يردى: المصدر السابق، ص ٢٩٥؛ محمد جمال الدين سرور: الدولة الفاطمية، ص ١١٢؛ علي حنفى الخربوطلي: مصر العربية الإسلامية، ص ١٢٥.

(٢) ساويرس بن لمقعق: سير البيعة المقدسة، م ٣، ج ١، ص ١٤٥؛ ابن ظافر:

وهكذا وصل الفساد بالدولة الفاطمية الدينية التي قامت على أسس عقائدية ثابتة إلى انغماس خلفائها في حياة اللهو، والترف، والتفرد بالجواري، حتى زهدوا فيهن، وراحوا يبحثون عن مئة أخرى حتى، ولو كانت غير شرعية، فلجأ خليفة المسلمين إلى ممارسة "الشذوذ الجنسي" Homosexuality فكان من الطبيعي أن ينتهي بتلك النهاية، ولكن لم يكن الخليفة مسؤولاً عن نفسه فحسب، بل كان يحمل في عنقه مصير دولة كاملة، وقد هناك عنقه فماذا يكون مصير دولته ؟

قتل للظافر، وجاء الوزير عباس يرسم على وجهه آثار حزن زائفة، يحاول خلالها إقناع الجميع بأن يوسف، وجبريل أخوى الظافر هما اللذان تأمرا لقتله، ثم أحضر طفلاً صغيراً للظافر يدعى "عيسى"، وأقامه مقام أبيه، ولقبه "بالفائز" ثم مَهَّم بقتل عمه أمام عينه، فأصيب الطفل بالذعر من منظر الدم الذي ملأ القصر، وكاد يموت رعياً، فظل طوال حياته القصيرة مريضاً بالصرع Epilepsy⁽¹⁾، وانفرد عباس، وابنه بكل شيء، فلم يعد هناك خليفة يحكم الأمور - ولو صورياً - فسُرعت سبت لتصور أخت الظافر - ويقال الخدم - بالكتابة إلى الأمير طلائع بن رزيق والي قوص، وأسوان، والصحيد - وكانت ولاية الصحيد أكبر المناصب بعد

أخبار الدول، ص ١٠٥ ابن الأثير : الكامل، ج ١١، ص ١٩١-النويري ؛ نهاية الأرب، ج ٢٨، ص ٣١٦؛ الصفي : لواقى، ج ٩، ص ١٥١ - ١٥٢ ؛ سحر عيد للعزیز سالم : الثامات، ص ٣٠.

(١) الصرع Epilepsy : هو حالة عصبية تحدث من وقت إلى آخر لاختلاف وقتي في النشاط الكهربائي الطبيعي للمخ، يكون لهذه الشحنات تأثير عكسي وعي الإنسان وحركة جسمه وأحاسيسه لمدة قصيرة من الزمن وهذه للتغيرات الفيزيائية تسمى تشنجات صرعية، لذلك يسمى للصرع أحياناً بالاضطراب التشنجي" ليس نه سن محدد كما أنه يصيب الإنسان وبعض الحيوانات مثل الكلاب، القطط، الأرانب، للقران.

لمزيد راجع :

<http://www.elazagem.com>.

<http://www.epilepsyfoundation.org>.

للوزارة تستجد به لإنفاذ للخلافة من فساد عباس، وابنه، وما أن وصل ابن رزيق إلى القاهرة حتى فر عباس، وابنه إلى الشام فثار العامة، وقاموا بنهب دورهم، ونشبت المعارك في طرقات المدينة. (١)

وفي خلافة الفائز استبد الوزير طلائع بن رزيق بالأمر، وسيطر على الخليفة، وقبض على السلطة بيد من حديد، حتى لو يصبح للخليفة من الخلافة سوى الاسم، وقد حاولت عمه الفائز للتخلص منه، ولكنه علم بذلك المؤامرة، ومثلها. (٢) ظل هذا الأمر في خلافة العاضد لدين الله (٥٥٥هـ - ٥٦٧هـ / ١١٦٠م - ١١٧١م)، غير أن سيدات القصر لم ترض بهذا الأمر؛ حيث استبد الوزير طلائع بن رزيق بكل شيء في الدولة، وقام بإخراج كثير من الأمراء، وفرقهم في البلاد؛ ليؤمن نفسه، ثم عمل على تزويج ابنته من الخليفة العاضد؛ كي يظل الملك في بني رزيق. (٣)

ولم ترض سيدات القصر عن ذلك، فأرسلت عمه العاضد إلى والي قوص للقيام على ابن رزيق، وأخذ الوزارة منه، غير أن ابن رزيق قبض على الأمير عندما علم بالأمر، وقد عاودت عمه العاضد على هذه المحاولة، وانتفعت مع أحد أمراء القصر، وكذلك صاحب الباب، على التخلص منه، غير أن ابن رزيق قد أصيب فقط، ولم يموت، وعندما طلب ابن رزيق عمه العاضد كان العاضد من الضعيف، والتخاذل، فأرسلها له لينفي ملاقاته بذلك للمؤامرة، فما كان من ابن رزيق إلا أن خنقها. (٤) ،

(١) ساويرس بن المظفر: سير البيعة المقدسة، ج ١، ص ٣٠٣، ص ٤٥ - ٤٦؛ ابن ظافر: أخبار الدول، ص ١٠٨ - ١٠٩؛ المقريزي: اتعاظ الخلفاء، ج ٣، ص ٥٧٦ - ٥٩٠؛ ابن تغري بردي: النجوم، ج ٥، ص ٢٩٢ - ٢٩٦؛ محمد جمال الدين سرور: الدولة الفاطمية، ص ١٢٤ - ١٢٥؛ أيمن فؤاد سيد: الدولة الفاطمية في مصر، ص ٢٧٩.

(٢) ابن تغري بردي: المصدر السابق، ص ٣١٤.

(٣) ابن ظافر: المصدر السابق، ص ١١٢؛ ابن الأثير: الكامل، ج ١٩، ص ٤٤٩ - ٤٥٠، ج ١، ص ٢٥٥؛ ابن تغري بردي: المصدر السابق، ص ٣١٤.

(٤) يذكر للمؤرخون أنه قد توفي علي أثر تلك الطعنات في اليوم التالي لها. راجع: عمارة اليميني إنجم الدين أبو محمد بن أبي مسن علي الحكيم، النكت المصرية

وقد توفي الصالح طلائع بن رزيق على إثر هذه المؤامرة متأثراً بجروحه.

ظلت الفتن، والمؤامرات، والدماسيس تحاك داخل القصر الفاطمي لتولي منصب الوزارة الذي أعد بمثابة الخلافة في العصر الفاطمي الثاني، وظل شعب مصر يعاني من تلك للفتن، وللصراعات إلى أن تولى الوزارة صلاح الدين الأيوبي السني المذهب للخليفة العاضد، فكانت آخر تلك المؤامرات، هي التي قام بها الخدام السودان داخل القصر، الذين شعروا بأن عصر الدولة الفاطمية أصبح في يد وزير سني ليس له من الأمر شيء، وبالتالي فلم يستقم لهم أمر، فبادروا بالخيانة، وأرسلوا إلى حاكم الفرنج؛ لتمكينه من السيطرة على مصر، غير أن صلاح الدين قد كشف المؤامرة، وقبض عليهم، ثم قام بحرق للحجارة المخصصة لهم "حارة المنصورية"^(١)، فأصبح أمرهم كأن لم يكن. ^(٢) كذلك كانت وزارة صلاح الدين هي النهاية للدولة الفاطمية نفسها.

==

في أخبار الوزارة المصرية، تحقيق: هرتويج درينرغ، ثالون، ١٨٩٢، ص ٤٨٤، ١٠١؛ ابن ظافر: أخبار الدول، ص ١١٢؛ سؤيرس بن انمقح: المصدر السابق، م ٢، ج ١، ص ٤٧؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٧، ص ٥٢٨؛ الصفتي: الوافي، ج ١٧، ص ٦٨٦؛ ابن تغري بردي: المصدر السابق، ص ٣٤٥؛ نعيمان عبد الكريم: المرأة في مصر، ص ٢٢٢.

(١) حارة المنصورية: كان للسودان حارة تعرف بهم تسمى المنصورية، وكانت كبيرة متسعة، وكان نهم بديار مصر كل قرية محطه وضيعة مكان خاص بهم لا يدخله غيرهم، احترماً لهم وكانوا يزيدوا عن خمسين ألفاً، وكانوا إذا ثاروا على وزير قتلوه، وكان لضرر بهم عظيم حيث امتد أيديهم إلى أموال الناس حتى اقتنم صلاح الدين. راجع: المقرئزي: الخطط، ج ١، ص ١٩.

(٢) أبو شامة: الترويضتين، ج ١، ص ٥٦٠ - ٥٦٢؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج ١، ص ٢٤٣ - ٢٤٧؛ المقرئزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ١، دار الكتب، القاهرة، ١٩٩٦م، ج ١، ص ٥٢ - ٥٤؛ ابن تغري بردي: النجوم، ج ٥، ص ٣١٠؛ عطية مصطفى مشرفة: نظم الحكم بمصر في عهد الفاطميين، ص ١٠٧ - ١٠٨.

ثالثاً : فساد الوسيطى، والوزراى، وصراعهم من أجل الوصول للوزارة :

اطمان المعز لدين الله الفاطمي إلى أن دعائم ملكه في مصر قد توطدت - بفضل جوهر الصقلي - ، فقرر الرحيل إليها، وصل المعز لدين الله إلى قصره بالقاهرة (٣٦٢هـ / ٩٧٢م) مع كثير من رجالات دولته، ومن بينهم أولادهم، وأعمامه، وحاشيته، وخدمه، وعبيده، وكذلك وفات أبياته، المهدي (٢٩٧ - ٣٢٢هـ / ٩٠٩ - ٩٣٤م)، والقائم (٣٢٢ - ٣٣٤هـ / ٩٣٤ - ٩٤٦م)، وكذلك كان محملاً بالخزائن، والأموال، وقد استقبله أعيان مصر، وعلى رأسهم جوهر الصقلي الذي أخذ يقبل الأرض بين يديه، وفي اليوم التالي لقدومه خرج أعيان مصر، وأشرفها لتقديم الهدايا له، وأخذ جوهر الصقلي يقدم له الناس لطائفة تلو الأخرى.^(١)

وبقدوم المعز أصبحت مصر دار خلافة للفاطميين بعد أن كانت دار إمارة تابعة لهم، وبدأت السياسة الفاطمية الجديدة في الظهور، وأول ما فعله المعز هو استبعاد جوهر للصقلي عنها لما كان يتمتع به من سطوة، ونفوذ مستأثراً هو بكل شيء، ولم يعد لجوهر من السيادة سوى الاسم فقط، فقد رأى المعز لدين الله أن نور جوهر الصقلي قد انتهى عند هذا الحد، ليتدو أن المعز ملك في ذلك مسلك غيره من الخلفاء مع عظماء قوادهم من ذوي الشخصيات البارزة^(٢)، وكانت عادة بعض السياسيين عدم

(١) ابن نوناق : [أبو الحسن بن إبراهيم بن الحسين الليثي]، فضائل مصر وأخبارها، ص٢٤٧؛ النويري : نهج الأرب، ج٢٦، ص٤٣؛ المقرئ : الخطط، ج١، ص٣٥٣؛ ج٢، ص١٧٧؛ ابن تغري بردي : المصدر السابق، ج٤، ص٣٣٤؛ ابن ياس : بدائع الزهور، ج١، ص١٨٧ - ١٨٨.

(٢) مثلما فعل أبو العباس السفاح بأبي مسلمة الفخار، وأبو جعفر المنصور بأبي مسلم الخرساني، الذي قامت على أكتافهم الدولة العباسية، وكذلك فعل أبو عبد الله الشيعي بعد أن انتشرت على يده الدعوة الشيعية في بلاد المغرب. للمزيد، راجع : أبو الفداء : المختصر، ج٢، ص١٩٥؛ علي حسني الخربوطلي : أبو عبد الله الشيعي، ص٦٧؛ علي إبراهيم حسن : تاريخ جوهر الصقلي قائد المعز لدين الله الفاطمي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ٢٠٠٠، ص٢٩.

الاعتراف بحميل لأحد، ولكن جوهرًا، وإن جازاه المعز جزاء سمنار^(١) إلا أنه كان أكثر حظًا من القواد الفاتحين على شكلته.

فضل المعز لدين الله ألا يفوض سلطاته إلى أحد، وأن يباشر الزبير بنفسه، ولا يعول فيه على غيره^(٢)، ولا سيما أن الفاطميين لم يعرفوا منصب الوزارة في المرحلة الإفريقية^(٣)، ولكن المعز قد أوجد ما أطلق عليه لقب "الوساطة"؛ لأن صاحبها كان يتوسط بين الخليفة والرعية، ولم يظهر لقب الوزير في مصر الفاطمية إلا في سنة (٢٦٨هـ / ٩٧٩م) عندما فتح الخليفة الفاطمي الثاني العزيز بالله ليعقوب بن كلس لقب "الوزير الأجل"، وأصبح بذلك أول وزراء الدولة الفاطمية^(٤)، غير أن هذا اللقب لم يثبت رسميًا إلا زمن الخليفة الفاطمي الرابع الظاهر لإعزاز دين الله، فأصبحت الوزارة منذ هذا التاريخ ٤١٨هـ / ١٠٢٨م منصبًا وتكليفيًا^(٥)، وما بين العزيز بالله، والظاهر لإعزاز دين الله، ظهر منصب الوساطة مرة أخرى زمن الحاكم بأمر الله.

وقد تولى للحاكم بأمر الله الخلافة بعد وفاة والده، وهو مازال حديثًا لم يبلغ الثانية عشرة من عمره - أحد عشر عامًا، وخمسة أشهر، وستة أيام -، هو كان الحاكم في هذه الفترة ٣٨٦ - ٣٩٠هـ لا يملك من

(١) جزاء سمنار : سمنار رجل رومي بنى قصر الخورنوق بظهر الكوفة، للنعمان بن لمريث ألقين كي يستضيف فيه ابن ملك الفرس، الذي أرسله ليوجه إلى الحيرة والتي اشتهرت بطبيب هوائها، وذلك لينشأ بين للعرب ويتعلم الفروسية، وعندما تم بناءه، وقف سمنار والنعمان على سطح القصر، فقال النعمان له : هل هناك قصر مثل هذا القصر ؟ فأجاب كلا، ثم قال : هل هناك بناء غيرك يستطيع أن يبنى مثل هذا للقصر ؟

<http://www.gassimy.com/vb/showthread.php?t=48059>.

(٢) ابن الصيرفي : الإشارة، ص-٤٧.

(٣) المقرئزي : للخطوط، ج ١، ص-٤٣٩.

(٤) ابن الصيرفي : المصدر السابق، ص-٤٩؛ ابن ظافر : أخبار الدول، ص-٣٨.

المقرئزي : المصدر السابق، ص-٨٢.

(٥) أمين فواد سيد : الدولة الفاطمية في مصر، ص-٣٢١.

لمور السلطان شيئاً حيث كانت السلطنة في يد ابن عمار^(١)، ثم في يد برجوان الخادم^(٢) معلمه، وأستاذه، وقد استأثر الأمستاز برجوان بتكبير الأمور دونه، كما عمل على حجبته عن رجال دولته، وأخذ يعمل على الزج به في مجال للهوى، والعبث، ووقفت أم الخليفة عاجزة عن حماية ابنها من تلك الوصاية الخطرة، ولم يجد برجوان من يقف أمامه فإزدادت قوته، وطغيانه، وفساده، واعتقد برجوان أن الأمر قد خلص له فأخذ يفعل ما يشاء دون مراجعة، أو محاسبة؛ مما أدى إلى زيادة أعداده داخل القصر، فأضمروا له العداة.^(٣)

لم يهتم برجوان بما يحدث حوله، وانكب على ملذاته، وقضى معظم أوقاته في مجالس الأتس، والغناء، والطرب فكان ينسى نفسه، ويفعل ما يفعلونه دون دراية، وقد بلغ فساد برجوان إلى درجة أنه قد أساء إلى الحاكم نفسه، وأخذ يتجاهل أوامره، وازداد به الفجور فتذكر له،

(١) ابن عمار: هو أبو الحسن بن عمار بن أبي الحسين، أمين الدولة، أحد شيوخ كتامة وميدها، لما أمضت الخلافة للحاكم بأمر الله رد إليه أمور الدولة وتبويرها، كان للناس على اختلافهم يترجلون إليه.

راجع: ابن الصيرفي، الإشارة، ص ٤٥٦، ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٥، ص ٣٥٤، المقرئزي: الخطط، ج ٢، ص ٣٦ - ٣٧، ابن تغري بردي: النجوم، ج ٤، ص ١٢٢.

(٢) برجوان الخادم: أبو الفوح برجوان الخادم، كان خصيماً أيضاً نقياً في بلاط العزيز، أوصاه على ولده منصور الذي خلف ولده باسم للحاكم بأمر الله، أصبحت السلطنة في يده بعد ابن عمار، استأثر بأمر الدولة فقتله الحاكم بأمر الله على يد ريسان الصقلي وإليه تسبب حرب برجوان بالقاهرة. راجع: ابن ظفر، أخبار الدول، ص ٤٢٢؛ ابن ميسر: أخبار مصر، ص ١٧٤، المقرئزي: الخطط، ج ٢، ص ٣ - ٤؛ ابن تغري بردي: المصدر السابق، ص ٥٨.

(٣) ساويرس بن العققع: سير البيعة المقتسة، ج ٢، ص ١٢٦، ابن الصيرفي: المصدر السابق، ص ١٥٧، ابن الأثير: الكامل، ج ٩، ص ١١٨٨، ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ١، ص ٢٧١، المقرئزي: الخطط، ج ٢، ص ٣ - ٤، انماؤه الحنفا، ج ٢، ص ٢٠٣، ابن تغري بردي: المصدر السابق، ص ٤٨، محمد عبد الله حنان: للحاكم بأمر الله، ص ٩٨.

وتعمد إهانتته. هذا الأمر الذي أثار في نفس الحاكم فقرر استعادة هيئته، وحقه المملوب من ذلك الطاغية ؛ لذلك فقد قرر التخلص من تلك الوصاية، بل أتخلص من الوصي نفسه قيل أن يتخلص هو منه، وقد ساعده على ذلك خصوم برجوان للذي زاد عددهم داخل القصر، ولأسميا ريدان الصقلبي حامل المظلمة، وخصمه القوي داخل البلاط، وبالتالي اتفق الحاكم مع ريدان على قتل برجوان، وقد نجح ريدان في ذلك ٣٩هـ / ١٠٠٠م، واستعادة الحاكم حقه المملوب.^(١)

وربما يكون برجوان أراد أن يتشبهه بكافور الإخشيد، إلا أن الحاكم بأمر الله لم يكن كأبناء الإخشيد، حيث استطاع القضاء على برجوان، واستعاد ملكه.

وكان انخلفة الظاهر على عكس والده تمامًا بعيدًا عن الاشتغال بشؤون الدولة، فقد نشأ محجوبًا في بيت عمته بنت الملك، وانشغل بمذاقته، ولهوه، وسماع العناء بعيدًا عن شؤون الدولة التي تركها لأصحاب الوصاية.

بدأت لفترة للتبعية من ولاية الظاهر لإعزاز دين الله بعد موت عمته بنت الملك، ولم يكن منصب الوساطة واضحًا تمامًا، حيث تولاه الأمير شمس الملك أبو الفتح المسعود بن طاهر الوزان^(٢)، ولكنه لم يعمر

(١) ساويرس بن المعيق : للمصدر السابق، ص ١٢٦ ابن الصيرفي : للمصدر السابق، ص ٤٥، الأقطبي: تاريخ الأقطبي، ص ١٨١ عماد الدين إدريس بن عبد الله الأقف : عيون الأخبار وفنون الأثر، ج ١٦ تحقيق : مصطفى غالب، بيروت، دار الأندلس، ١٩٨٤، ص ٢٥٤ - ٢٥٧ جمال الدين الشيال : مجموعة الوثائق الفاطمية، ص ١٣٢.

(٢) أبو الفتح المسعود بن طاهر الوزان : الأمير شمس الملك المنكين الأمين أبو الفتح المسعود بن طاهر الوزان، خلع عليه في ذي الحجة من سنة ٤٠٩هـ وجعل واسطه فنك جميع التواوين إلى داره، وجعل له يومًا يركب فيه للقصر لمطالعة ما يحتاج إليه، وقد استمر على ذلك إلى أن صرف ٤٠١هـ ثم رد إليها مسرة ثانية وكان له النظر في لرجال والأموال في ٤١٤هـ، فكان يتولى لشكك للوساطة في خلافة الحاكم بأمر الله وكذلك الظاهر لإعزاز دين الله، ثم اجتمع بعد ذلك النظر في فوساطة مجلس في داره في ٤١٥هـ.

فيه كثيراً، حيث وقع للفساد بينه، وبين الطامعين في هذا المنصب، وأخذت اختصاصاته تسحب منه تدريجياً، وذلك لتدخل بعض الشيوخ العلويين في الأمور دونه، مما اضطره للامتناع من الوساطة فأقام في داره ثلاثة أيام، إلا أن الظاهر قد استدعاه، وأمره بالعودة، ثم حل محله مجلس وساطة تكون من ثلاثة أفراد، وهم الشريف أبو طالب العجمي، والشيخ العميد محسن بن بدوس، والشيخ نجيب الدولة أبو القاسم علي بن أحمد الجرجاني، وقد قرروا هؤلاء الثلاثة بالاتفاق مع القائد أبو الفوارس معضاد الخادم أن يكفوا الظاهر أمر الاهتمام بالدولة، لينكب على ملذاته، وينفروا هم بتدبير الأمور دونه؛ ليكون كالمحجور عليه في قصره مرة أخرى. (١)

يؤكد ابن تغري بردي أن الغالبين على الظاهر لإعزاز دين الله كانوا كثيرين جداً، ويعتل ذلك بأن للظاهر لإعزاز دين الله كان صغير السن ضعيف البدن، غلب عليه الاستمقاء ascites، الذي ظل يأكل في بدنه حتى توفي ٤٢٧هـ / ١٠٣٥م، وعنده من العمر أحد وثلاثون عاماً، ونتيجة لكثرة الغالبين عليه، وكثرة صراعاتهم، اضطربت أحوال مصر، والشام، وعمَّ فيها الفساد. (٢)

بلاخظ مما سبق أن الشعب المصري قد تعرض لقرارات قاسية زمن الحاكم بأمر الله الذي تحول إلى طاغية بعد قتل برجوان الخادم، وتوليته زمام الأمور، وقد أصابت قرارات الحاكم بأمر الله الشعب

راجع : المسبحي : أخبار مصر، ص٤١٨ ابن الصيرفي : الإشارة، ص٦٤ - ٦٧ ابن ظافر : أخبار النور، ص٦٥.

(١) سوليرس بن المنقذ : سير البيعة المقتضية، ج٢، ص١٣٥ المسبحي : المصدر السابق، ص٤٥ - ٤٦ ابن الصيرفي : المصدر السابق، ص٦٦ - ٦٧ ابن ظافر : المصدر السابق، ص٦٥ النويري : نهاية الأرب، ج٢٨، ص٢٠٨ المقرئ : الخطط، ج١، ص٣٥٥ تعاضد الحنفا، ج٢، ص٢٩٥. (٢) ابن تغري بردي : النجوم، ج٤، ص٢٤٨ المقرئ : تعاضد الحنفا، ج٢، ص٣١٧.

المصري بالخوف، والرغبة، والذعر، ولكنها ألزمته إلى حد ما بالحرص على عدم الخطأ، وجاء للظاهر لإعزاز دين الله لاغياً لتلك القرارات متساهلاً في أمور الدولة لدرجة جعلت المصريين يتجرؤون عليه، ويطالبون بخلعه، وبين قرارات الحاكم بأمر الله القاسية، وإلغاء للظاهر لإعزاز دين الله لها مع تساهله الشديد، تعرض المصريون لصنمة كبيرة أخذتهم فجأة من الشيء إلى نقيضه دون تدرج فكثرت مظاهر الفساد بشئى أنواعه.

تولى المستنصر بالله الخلافة بعد موت أبيه الظاهر لإعزاز دين الله، وكان في السابعة من عمره، سيطرة أمه على أمور الدولة، فكثرت الصراعات، والدسائس بين الجنود، وكذلك الوزراء، الذين كانوا يتقربون إليها بصراعاتهم مع بعضهم بعضاً، فثارت فتنة كادت يفضي على مصر بأمرها^(١)، لولا تدخل الوزير أبي محمد الحسن البازوري الذي لقر أمورها نسبياً، غير أن الفساد ظهر بينه، وبين المستنصر بالله فقتله^(٢)، وكان الوزير البازوري آخر وزراء التنفيذ الأقباط، حيث كثر الفساد، وتصارع الوزراء، حتى تولى بعد عزله ٤٥٠هـ / ١٠٥٨م، أربعة وخمسين وزيراً حتى استجد الخليفة الفاطمي بوالي عكا بدر الجمالي^(٣) بمجرد أن انتهى بدر الجمالي من إعادة النظام إلى الدولة، والقضاء على معارضيتها فوضه للخليفة المستنصر بالله جميع سلطاته، ومنحه إشرافاً عاماً على شؤون الدولة، فأصبح بدر الجمالي أول قائد عسكري يولييه الفاطميون الوزارة، وأصبحت الوزارة منذ ذلك الوقت ٤٦٧هـ / ١٠٧٤م، تقوم مقام السلطة، وفي ذلك يقول المقرئزي : إن

(١) ابن ميسر : أخبار مصر، صص ٢٤ - ٢٦؛ النويري : نهاية الأرب، ج ٢٨، صص ٢٣٣.

(٢) ابن الصيرفي : الإنبارة، صص ١٧٣؛ ابن ظافر : أخبار الدول، صص ٧٨.

(٣) ابن ميسر : المصدر السابق، صص ٥٥ - ٥٦؛ المقرئزي : إغلاة الأمة، صص ٢٢ - ٢٣؛ المقفي للكبير، ج ١٣، صص ٤٤٥ - ٤٤٦؛ علي حسني للخريوطي، مصر تحرية الإسلامية، صص ١٦٤ - ١٦٥.

الوزارة صارت وزارة تفويض، يقال لمتوليها "أمير الجيوش" وبطل اسم الوزارة. (١) ، وأصبح للوزير يجمع إلى جانب قيادة الجيش جميع الإدارات المدنية، والقضائية، وكذلك الدينية، أي جميع شؤون الدولة دون استثناء، ولم يعد للخليفة منهم أي سلطة. (٢)

ومنذ ذلك الوقت أصبح صراع الوزراء، وكبار رجال الدولة هو طابع العصر الفاطمي الثاني (٤٦٦هـ - ٥٦٧هـ / ١٠٧٣ - ١١١٧م)، وقد ساعد هذا الصراع على نهاية الدولة نفسها. (٣) وكان أول هذه الصراعات هو ما حدث بعد موت الخليفة الممتصر بالله الفاطمي، وأخذ البيعة لأخيه أبي القاسم أحمد الملقب بالمستعلي بالله تون أخيه نزار، وكان هذا بتخطيط من الأفضل شاهنشاه بن بدر الجمالي، الذي بغض نزاراً في حياة أبيه، فعاقبه بعد موته بأن أبعدته عن الخلافة، وأخذ البيعة بونه، وأجبر رجال القصر على إعلان البيعة للمستعلي. (٤)

هرب نزار إلى الإسكندرية، ومعه أخوه عبد الله، وأحد رجاله المخلصين الملقب بابن مصال (٥)، وقد ساعده أفتكين والي الإسكندرية على

- (١) المقرئزي : الخطط، ج ١، ص ٤٤٠.
- (٢) ابن الصيرفي : الإقارة، ص ٩٦، المقرئزي : تعاظ الحنفا، ج ٣، ص ٤٣٢
- ابن تغري بردي : للنجوم، ج ٥، ص ١٠١، عبد المنعم ماجد : السجلات الممتصرية، مجل رقم (٥٦، ٥٧، ٥٨)، ص ١٨١ - ١٩٤، أيمن فوز سيد : الدولة الفاطمية في مصر، ص ٢١٤ - ٢١٦.
- (٣) أمينة الشوريجي : رؤية للرحالة، ص ٥٠٢.
- (٤) ابن ميسر : أخبار مصر، ص ٩٩، ابن خلكان : وفيات الأعيان، ج ١، ص ١٨٠، المقرئزي : المصدر السابق، ص ٤٤٩، ابن تغري بردي : المصدر السابق، ص ١٤٢، جمال الدين الشيبان : مجموعة وثائق الفاطمية، ص ١٤٠، أحمد مختار العبادي : في التاريخ العباسي والفاطمي، ص ٣٠٦.
- (٥) ابن مصال : الأمير نجم الدين أبو الفتح سليم (سليمان) بن محمد بن مصال الفكي المغربي، نسبة إلى "لك" كان ناظرًا في أمور لدولة لبتداء من ٥٣٩هـ، ولكنه لم يطلق عليه اسم الوزارة، لقبه للخليفة الظاهر بالمسيد الأجل للمقتصد أمير الجيوش سعد الملك لقب للدولة، وهو يومئذ من كبار الدولة وأمرائها، ابن قطوير : نزهة المقتنين، ص ٥٥٥، ابن ظافر : أخبار الدول، ص ١٠٢، ابن ميسر : المصدر السابق، ص ١٤١، الفويري : نهاية الأرب، ج ٢٨، ص ٣٦١.

الاستقرار بها، ومحاربة الأفضل منها، وكان ذلك طمعا منه في تولي منصب الوزارة بعد الأفضل شاهنشاه، ولاسيما أن نزاراً قد وعده بذلك، وعندما علم الأفضل شاهنشاه بذلك سار إلى الإسكندرية على رأس حملة كبيرة، ودارت بينه وبين نزار معارك شرسة عملت على إشاعة الفوضى، والاضطراب داخل البلاد، وتعرضت منطقة الدلتا، والإسكندرية له لنهب، وفساد الجند من الطرفين، إلى أن انتهى الأمر بالقبض على نزار، ومجنته، والقضاء على أتباعه، وهروب ابن مصال. (١)

أصبحت الأمور جميعاً في يد الأفضل شاهنشاه الذي استبد بالأمر دون الخليفة المستعلي، حتى قتل بتدبير من الأفضل سنة ٤٩٥هـ / ١١٠٠م، وله من العمر سبعة عشر عاماً، وبمجرد موته أقام الأفضل بن الأمر الأصغر "المنصور"، ولقبه "بالأمر بأحكام الله".

كان الأمر بأحكام الله طفلاً لم يتجاوز خمس سنوات، فحجز عليه الأفضل مثلما فعل مع والده، واستقل هو بتدبير أمور الدولة، وقد أخذ الأفضل يجرد الخليفة من سلطاته تدريجياً ففقد مقر الحكم الفاطمي - لأول مرة في تاريخ الدولة الفاطمية - من القاهرة إلى القسطنطينية كما نقل دواوين الدولة عن القصر إلى موضع أعده بالقرب من الدار التي ابتناها لنفسه بالقسطنطينية - دار الملك - ثم قام بتحريم الخليفة من الركوب في المولائم والأعياد، وسار يتصرف هو كالمملوك، والسلطين، ففقد إليه محمد ابن فاتك البطائحي، وسلم إليه جميع أموره، واعتمد في تصريف أمور الدولة، فسار منه مكان الوزير من الخليفة، ظل الأفضل على هذه الصورة حتى قتل ٥١٥هـ / ١١٢٢م، تاركاً وراءه ثروة ضخمة، ظل الأمر شهرين، وأياماً في حصرها ونقلها. (٢)

(١) ابن ميسر : المصدر السابق، ص ٦٠ - ٦١؛ للمقريزي : قمصير السابق، ص ٤٢٨؛ ابن تقي بردي : للنجوم، ج ٥، ص ٣؛ أميلة الشوريجي : المرجع السابق، ص ١٥١٣؛ علي حسني الخريوطي : مصر العربية الإسلامية، ص ١٦٢.

(٢) سلويروس بن المقفع : سير البيعة المقدسة، ج ٢، م ١، ص ٢٢ - ٢٣؛ ابن

تولى المأمون البطائحي الوزارة بعد قتل الأفضل، ففعل بالأمر بأحكام الله مثلما فعل الأفضل فلاقى نفس المصير الذي لقيه الأفضل، وظل الأمر بأحكام دين الله بدون وزير غير أنه لم يتمكن من سياسة الدولة وحده، فقد ظل بعيداً عن أمور الدولة طيلة الخمسة والعشرين عاماً المباشرة التي سيطر فيها الأفضل، والمأمون، فانشغل بالفسق، والنجور، وارتكاب الفواحش^(١)، وأوكل أمر الدولة لراهب متصوف يعرف بأبي نجاح بن قنأ، وقد استبد ذلك الراهب بأمور البلاد، ونشر فيها الفساد، فعم البلاد على جميع الرؤساء، والقضاة، والكتّاب، والسوقة، ولم يبق أحد إلا، وناله مكروه منه، إما من ضرب، أو نهب، أو أخذ مال. هذا الأمر الذي أدى إلى حدوث فتنة كبيرة بين المسلمين الذين تجرعوا من ظلمه، خاف الأمر بأحكام الله من تلك الفتنة فأمر بقتله بعد أن ضرب بالتحال، ومنمّر على لوح عند كرسي الجسر ثم طرح في النيل، أما الأمر بأحكام الله فعلى الرغم من الإجراءات المشددة التي أحاط بها نفسه خوفاً من التزارية - أتباع نزار - فقد وصل إليه أحد منهم وقتله ٥٢٤هـ / ١١٣٠م، كما قتل بن غلمان الأفضل هم الذين قتلوه، وقد فرح الناس لقتله.^(٢)

تولى للخليفة الحافظ لدين الله الخلافة - كإمام مستودع - يقوم

-
- المأمون، أخبار مصر، ص ١٥ - ٢٠، ٤٦؛ ابن ظفر : أخبار السدول، ص ٨٧؛ ابن ميسر : أخبار مصر، ص ١٧٠؛ ادواداري : كنز الدرر، ج ٦، ص ٤٨٥ - ٤٨٧؛ المقرئ : اتعاط الحفأ، ج ٣، ص ١٤٥٤؛ ابن تغري بردي : النجوم، ج ٥، ص ١٧٠ - ١٧١؛ جمال الدين الفسيال : مجموعة الوثائق الفاطمية، ص ١٤١؛ أحمد مختار العبادي : في التاريخ العباسي والفاطمي، ص ٣٠٧؛ مصر لمعيد عبد العزيز سالم : الثمانينات، ص ٢٩.
- (١) ابن ظفر : المصدر السابق، ص ٩١؛ ابن خلكان : وفيات الأعيان، ج ٥، ص ٣٠؛ المقرئ : الخطط، ج ٢، ص ٢٩١؛ ابن تغري بردي : المصدر السابق، ج ٥، ص ١٧٣.
- (٢) ابن ظفر : أخبار الدول، ص ٨٨، ٨٩؛ ابن كثير : البداية والنهاية، ج ١، ص ٢١٥؛ للفتشدي : صبح الأعشى، ج ١٣، ص ٣٦٩ - ٣٧٠؛ للمقرئ : اتعاط الحفأ، ج ٣، ص ٥١٧؛ ابن تغري بردي : النجوم، ج ٥، ص ١٧٣.

بتدبير شؤون الدولة نحين قدوم ولي العهد، غير أن هذا الأمر لم يطب لأبي علي بن الأفضل شاهنشاه الملقب بكتيقات، فاستولى على مقاليد الأمور، وحجر على الحافظ، ومنعه من الظهور، وكان ذلك بعد يوم واحد من تولي الحافظ لدين الله الخلافة، استهان أبو علي بأمر الدولة، وعقيدتها، حتى قتله ٥٢٦هـ / ١١٣١م، وهو خارج للهو بتدبير من غلمان الأمر^(١)، وأعيد الحافظ للخلافة.^(٢)

وأثناء صراع الحافظ لدين الله مع ابنه حسن الذي طمع في الخلافة دون أبيه، استعان حسن بوالي الغربية 'بهرام الأرميني' النصراني، ليعزز موقفه بمن معه من الأرمن ضد أبيه، وأخيه حيدر غير أن الحسن قد قتل قبل وصول بهرام، وعندما اقترب بهرام من القصر تمسكت به طائرة الأجناد، وأدخلوه على الحافظ لدين الله، وألزموه أن يوليه الوزارة؛ عوضاً عن ابنه، فاستجاب الحافظ لدين الله على الرغم من كون بهرام نصرانياً، فكانت كارثة أصابت مصر الإسلامية، وأصبح بهرام بذلك أول وزير نصراني يتولى وزارة التقييض للفاطميين، وكان من شروط الوزير أن يرقى المنبر في الأعياد، وغير ذلك من الشؤون الخاصة بالمسلمين، ومن الجدير بالذكر، والغريب أيضاً أنه نعت 'بسيف الإسلام' تارة و'بسيف للدولة' تارة أخرى.^(٣)

(١) ابن ظفر : المصدر السابق، ص ١٩٤؛ ابن كثير : المصدر السابق، ص ٢١٥ - ٢٢٠؛ المقرئزي : المصدر السابق، ص ٥٢٧ - ٥٣٠؛ ابن تغري بردي : المصدر السابق، ص ٢٣٩.

(٢) ابن ضاهر : المصدر السابق، ص ٩٥؛ ابن الأثير : للكامل، ج ١٠، ص ٦٧٢ - ٦٧٣؛ ابن الطوير : نزهة المقلتين، ص ٣٤ - ٣٥؛ سبط بن الجوزي : مرآة الزمان، ج ٨، ص ١٤٧ - ١٤٨؛ ابن تغري بردي : المصدر السابق، ص ٢٤٧ - ٢٤٨.

(٣) ساويرس بن المقفع : سير البعثة المقدسة، ج ٣، م ١، ص ٢٩؛ ابن ظفر : المصدر السابق، ص ٢٨٤، ١٤٤؛ ابن ميسر : أخبار مصر، ص ١٢١؛ النويري : نهاية الأرب، ج ٢٨، ص ٣٠١؛ المقرئزي : لتعاظ الحفناء، ج ٣، ص ١٥٣٩؛ حسن حبشي : تاريخ العالم الإسلامي، ج ٢، ص ١٤٩؛ لمينة الشوربجي : رؤية الرحالة، ص ٥٠٦.

أحاط بهرام نفسه بهالة من الأرمن بني جنسه الذين استقدمهم من تل باشر^(١) (مسقط رأسه) بلغوا حوالي ٣٠ ألف شخص، استطاع خلائهم أن يسيطر على شؤون البلاد، ويطلق أيديهم في كل شيء، وقد تناول هؤلاء على المصريين، ولاسيما المسلمين، كما استكثروا من بناء الكنائس، فكان لكل رئيس منهم كنيسة، أخذ بهرام يوليهم المناصب الرئيسية في البلاد، فأصبح أغلب الولاة من النصارى أيضاً، فظهرت النصرانية في أيامه حتى كان المسلمون يحلفون بحق السيدة مريم، فحاف أهل مصر من أن يغيروا ملة الإسلام، فكثرَت اشكاكات فيه، وفي أهله.^(٢)

ضاق أهل مصر بتلك الأوضاع، واستكثروا ما ينعنه بهم النصارى، ولم يجدوا أمامهم بعد أن بأسوا من الخليفة سوى والي الغربية، رضوان الولخشي^(٣) الذي كان كغيره من الولاة يتربص الأمور، وبنظر الفرصة، فسارع رضوان، وجمع حشداً كبيراً من أتباعه، ودخل في

(١) تل باشر : هي قلعة حصينة وكورة واسعة من شمال 'حلب' بينها وبين 'حلب' يومان، أهلها نصارى وأرمن، ولها ربض وأبواق. للمزيد، راجع : ياقوت الحموي : معجم البلدان، ج ٦، ص ٤.

(٢) ابن الطوير : نزهة المقلتين، ص ٤٥٥، في ميسر : أخبار مصر، ص ١٢٤ - ١٢٩، فنويري : نهاية الأرب، ج ٢٨، ص ٣٠١ - ٣٠٢، المقرئزي : تعاليف الحنفاء، ج ٢، ص ٥٤٢، حسن حبشي : تاريخ للعالم الإسلامي، ج ٢، ص ٤٩٤؛ جمال الدين النبال : مجموعة الوثائق الفاطمية، ص ١٤٤ - ١٤٦؛ أمينة الشوربجي : رؤية لرحالة، ص ٥٠٦.

(٣) رضوان الولخشي : ولد في ٤٨٧هـ، ترقى في الخدم إلى أن ولى 'قبوص' وأخميم' في ٥٢٨هـ، كان شجاعاً مقداماً، ولكنه كان طائف الحقل قليل النبات، كما كان سنياً حسن الاعتقاد، تخوف بهرام منه فابعدَه عن مصر وولاه 'عسقلان' في ٥٢٩هـ غير أنه قد علقه بأن صرفه عنها وأعادَه إلى القاهرة، عندما اعترض رضوان جماعة من الأرض كانوا قاصدين مصر، وقد ولاه أمر 'الغربية' في ٥٣٠هـ ظناً من بهرام أنه قد أبعدَه عن التعرض للأرمن - بني جنسه - للمزيد راجع : ابن ميسر : المصدر السابق، ص ١٢٥ - ١٢٦، المقرئزي : المصدر السابق، ص ١٨٤.

معركة كبيرة مع بهرام كانت نتيجتها هروب بهرام إلى إحدى أديرة الصعيد، وانتصار رضوان، فقام العامة، وتهيوا دور الأرمن، كذلك امتدت أيديهم إلى الكنائس الخاصة بهم فاضطربت أمور مصر، أما رضوان فقد تولى وزارة الفاطميين بمجرد دخوله مصر ٥٣١هـ / ١١٣٧م. (١)

وكان رضوان أول وزير سني يتولى منصب الوزارة، فانتقلت مصر، والحافظ من النقيض للنقيض فجأة، ودون سابق إنذار، اشتد رضوان في معاملة الأرمن، واستولى على أملاكهم، كما عمل على إحياء المذهب السني، ومقاومة المذهب الشيعي، وقام بخلع الحافظ بحجة أنه ليس إماماً بل هو كفيل لغيره، فاستاء منه الحافظ، ودخل في صراع استعان فيه ببهرام الأرمني مما اضطر رضوان للخروج إلى الشام إلى أن اعتقله الحافظ ثم قتل ٥٤٢هـ / ١١٤٨م. (٢) ، ولم يول الحافظ بعد رضوان أحداً بعد أن عانى الكثير، وضاعقت هيئته بين وزرائه، وأولاده، وجنده، والطامعين من ولاة الأقاليم، ظل الحافظ حتى توفي بالقولنج (٣)،

(١) ساويرس بن المقفع : سير البيعة المتقدمة، ج ١، ص ٣٠، ص ٣٠، ابن ظافر : أخبار الدول، ص ٩٨؛ ابن الطوير : المصدر السابق، ص ٤٥ - ٤٤٧ ابن ميسر : المصدر السابق، ص ١٢٤ - ١٢٥؛ القلقشندي : صبيح الأعشى، ج ٨، ص ٢٦١؛ حسن إبراهيم حسن : تاريخ لدولة الفاطمية، ص ٢١٣.

(٢) ساويرس بن المقفع : المصدر السابق، ص ٢٤٢؛ ابن ظافر : المصدر السابق، ص ٩٩؛ ابن ميسر : المصدر السابق، ص ١٢٦، ١٢٧؛ ابن تغري بردي : النجوم، ج ٥، ص ٢٨١.

(٣) القولنج : عبارة عن اضطراب مزمن في وظائف القناة الهضمية (الأعضاء الغليظة) وتسمى القولون، يفتح عنه انتفاخ وآلام بالبطن ليس له سبب عضوي، أغلب الأسباب تكون نفسية تزداد أعراضه مع فتور النفسي، كما تختلف أعراضه من شخص لآخر أهمها : شعور بالإرهاق والتعب، الرغبة في عدم الأكل وفقدان الشهية، الآم أسفل البطن وأثناء للتبول، الآم أثناء الجماع، آلام شبيهة بالوخز في الصدر وللكتفين، لتعلم هناك العديد من الأمراض الأخرى التي تتلق معها نفس الأعراض. للمزيد، راجع : ابن تغري بردي : النجوم، ج ٥، ص ٣٣٨.

٥٤٤هـ / ١١٤٩م. فتدخلت مصر مرحلة أخرى من الصراعات التي أودت بها في النهاية. (١)

بوع المنصور إسماعيل الابن الأصغر للخليفة الحافظ بالإمامة في اليوم نفسه الذي انتقل فيه والده، وتلقب بالظافر بالله، دون سجل معين^(٢)، وقد اتخذ الظافر الأمير نجم الدين أبا للفتح سليم بن محمد بن مزار النكي وزيراً له، وخلع عليه خلعة الوزارة، وكان ذلك بوصية من أبيه، وهو بذلك يعد آخر وزير فاطمي يتم تعيينه بهذه الطريقة، حيث استغل ولاية الأمايم ضعف الخليفة، وأخذوا يتنازعون فيما بينهم للوصول إليه، حتى أصبحت للوزارة لمن يغلب، فلم يررض ابن السلار^(٣) والي الإسكندرية، والبحيرة شيخاً مثل ابن مزار النكي، فاتفق مع والي الغربية - ابن زوجته - الأمير عباس الصنهاجي، على التوجه إلى القاهرة، وإجبار الخليفة على توليته الوزارة، وبالفعل إستطاع ابن السلار أن يولي الوزارة، وذلك بعد حرب دارت بينه، وبين ابن مزار، قتل فيها ابن

(١) ابن القلامي : نيل تاريخ دمشق، ص٢٢٦؛ ابن ظنفر : أخبار الدول، ص٤٩٦؛ ابن مؤسر : أخبار مصر، ص١٤٠؛ السفيزي : تهافت الحنفاء، ج٣، ص٥٦٢.
(٢) لم يصدر الحافظ سجل بتعيين الخليفة الإمام بعد السجلات لثلاث التي أعسرها في سنتي ٥٢٨ - ٥٢٩هـ، والتي عهد فيها لأبنائه بالولاية على التوالي (سليمان - وحيدة - وحسن)، غير أن ما فعله ابنه حسن معه من عقوق جعله يعرض عن كتابة سجل آخر، لذلك اضطر إسماعيل إلى إصدار هذا السجل يوضح فيه أن والده قضى بولاية المهدي له. ليمن فواد سيد : الدونة الفاطمية في مصر، ص٢٧٣.

(٣) ابن السلار، أبو الحسن علي بن السلار وقيل : أبو منصور علي بن نسحاق الملقب بالعدل، وزير للظافر بأمر الله، كان سنياً شافعيًا، وكان والده رجلاً كردياً قدم إلى مصر فأكرم وسمى حنيف للثروة، وكان ابن السلار أحد الصعيان "للحجرية" الذين كانوا يربون في أيام الفاطميين في حجر بجرار باب النصر، ويتلقون تدريبات عسكرية، وكان ابن السلار ذو إقدام وشجاعة، بعيداً عن اللهو وللخلاعة، تقلبت به الأحوال حتى ولى للبحيرة والإسكندرية. للمزيد راجع : ابن الطوير : نزعة المقلتين، ص١٥٧ ابن خلكان : وفيات الأعيان، ج٢، ص٤١٨؛ الذهبي : العبر، ج٢، ص٦، ٧.

مصالح، وطيف برأسه في شوارع القاهرة، فاضطر للخليفة إلى تعيينه وزيراً بعد حصاره للقصر الملكي. (١)

كان الخليفة الظاهر كلوفا لابن السلار، ولأسميا أنه كان من مذهب، فاتب سياسة بعض أسلافه في إيداء عدائه للمذهب الشيعي؛ لذلك فقد كانت حربه مع ابن مصالح هي في الحقيقة حرباً بين الشيعة، والمنعة استتجد فيها ابن السلار بدور الذين محمود صاحب الشام؛ وكان منياً متعصباً؛ لذلك فقد شعر الخليفة بخطرورة ابن السلار على الدولة الفاطمية فعمل على التخلص منه (٤٨٤هـ / ١٠٥٣م). (٢)

و انفرد عباس، وابنه بكل شيء، فلم يعد هناك خليفة يحكم الأمور - ولو صورياً - فسارعت بنت القصور أخت الظاهر - ويقال أنخدم - بالكتابة إلى الأمير طلائع بن رزيق والي قوص، وأسوان، والصحيد - وكانت ولاية الصحيد أكبر المناصب بعد الوزارة تستجد به لإنقاذ الخلافة من فساد عباس، وابنه، وما أن وصل ابن رزيق إلى القاهرة حتى فر عباس، وابنه إلى الشام فثار العامة، وقاموا بنهب دورهم، ونشبت المعارك في طرقات المدينة. (٣)

(١) أسامة بن مفضل [مؤيد الدولة بن مظفر أسامة بن مرشد الكشي الشيزري]، الاعتبار، تحقيق: فليب حتى، مطبعة جامعة برينستون، الولايات المتحدة، ١٩٣٠، ص٧ - ١٨ النويري: نهاية الأرب، ج٢٨، ص٣١١ - ١٣١٢ الدواداري: كنز الدرر: ج٦، ص١٥٥٣ لين خلدون: تاريخ بن خلدون، ج٤، ص٢٧٧ ابن تغري بردي: النجوم، ج٥، ص٢٩٥ علي باشا مبارك: الخطط التوفيقية الجديدة لمصر والقاهرة، ج١، ط٢، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٠، ص٦٠؛ أمين فؤاد سيد: الدولة الفاطمية في مصر، ص٢٧٣.

(٢) ابن خالفر: أخبار لدول، ص١٠٣؛ ابن بطويع: نزهة للعقائين، ص٥٨، ٦٢ - ابن ميسر: أخبار مصر، ص١٤٧؛ ابن خلكن: وقيلت الأعيان، ج٣، ص٤١٨؛ النويري: نهاية الأرب، ص٣١٥؛ حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، ج٤، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٦٦هـ / ١٩٩٦م، ص١٧٦.

(٣) أسامة بن مفضل: الاعتبار، ص٤٥٥؛ ابن ميسر: أخبار مصر، ص١٤٩؛ ابن

كان دخول ابن رزيق القاهرة نذير سوء، حيث دخل مرتدياً الثياب السود، ومعه أعلام سود، وقد علق المقرئزي على ذلك قائلاً : "فكان فألاً عجيباً ؛ حيث دخلت أعلام بني العباس السود من بغداد إلى القاهرة بعد خمس عشرة سنة لما مات العاضد"^(١)، تولى طلائع الوزارة، ولقب بالملك الصالح، ولم يكن طلائع أفضل مما سبقوه في الوزارة، فما أن تولى الأمر حتى استولى على مقاليد الأمور مستغلاً صغر سن الخليفة - مثلما فعل الأفضل من قبل من الخليفة الأمر - ، وأصبح هو الحاكم الحقيقي للبلاد، غير أن طلائع كان يخشى أن يظهر من يناقسه في منصبه، فأخذ في تتبع كبار رجال الدولة، وأعيانها، وأهائهم، وصنادير أموالهم، مما اضطر بعضهم لمغادرة مصر هرباً منه. لستن سنة جديدة لم تكن موجودة من قبل حيث كان شرفاً حريصاً على تحصيل المال، فأخذ في بيع ولايات الأعمال للأمرء بأسماعار مقرررة عرفت "البراطيل"^(٢)، جعل لكل ولاية سعراً، وحدد مدة كل متول بسنة أشهر فقط؛ خوفاً من أن يثوروا عليه، كما لصطنع له عدداً من المماليك، والغنمان، وقتمهم حتى صار لكل واحد منهم نحو مائتي مملوك، فطغوا في أيامه حتى ضجج الناس منهم^(٣) ويقال :

خلكان : المصدر السابق، ج ٣، ص ١٤٩٢، المقرئزي : اتعاظ للحنفا، ج ٣، ص ٥٧٦، ٥٩٠؛ ابن تغري بردي : المصدر السابق، ص ٢٩٢ - ٢٩٦؛ محمد جمال الدين سرور : الدولة الفاطمية، ص ١٢٤، ١٢٥.

(١) المقرئزي : الخطط، ج ٢، ص ١٣٠؛ ابن تغري بردي : المصدر السابق، ص ٢٩٧.

(٢) البراطيل : الرشاوي في عصرنا الحالي، ويرطل للشخص أي رمى ... راجع : الزمخشري : أساس البلاغة، ص ٢١؛ ابن منظور : لسان العرب، ص ١٣٣؛ أحمد عبد العزيز : اللبذ والبرطلة زمن سلاطين المماليك، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٩، ص ١١٠.

(٣) ابن طاهر : أخبار الدول، ص ١١١؛ ابن خلكان : وفيات الأعيان، ج ٣، ص ١١٠؛ المقرئزي : اتعاظ للحنفا، ج ٣، ص ٥٨٢، ٥٩٩؛ ابن تغري بردي : النجوم، ج ٥، ص ٣١١، ٣٣٩؛ محمد جمال الدين سرور : الدولة الفاطمية، ص ١٢٥.

إنه كان بخيلاً جداً، وعلى ما يبدو أن بخله هذا قد وصل أيضاً إلى شعره حيث قال :

فكيف بقاء عمرك وهو كثر وقد أنفقت منه بلا حساب. (١)

هكذا لم يقتصر النزاع على منصب الوزارة فحسب، بل تعدى إلى النزاع على ولايات الدولة كذلك، فصارت مصر تباع، وتشتري لمن يدفع الثمن، ومن ثم أصبح الأمراء حريصين على أن يحققوا ما يتنون عليه من مكاسب لصغر مدنة، ولا يتهمن لذلك فقد استجار شعب مصر من ظلم الولاة، وكثرة فسادهم مع كثرة ترددهم عليهم، وعانوا كثيراً من ظلمه، واستبداده.

ويبدو أن طلائع قد تطلع إلى ما هو أكثر من ذلك، فعندما توفي الفائز ٥٥٥ هـ / ١١٦٠ م، وعنده إحدى عشرة سنة - دون وريث، طمع في أن يجعل الخلافة في عقبه، فجاء بالأمير عبد الله حفيد المحافظ، وهو أصغر الأقارب سناً، وبعثه "بالعاضد" لدين الله، وزوجه من ابنته عسى أن ترزق منه بولد فيجمع لثني رزيك الخلافة، والملك، لم ترض سيدات القصر بمثل هذه الزيجة، ولا مثل هذا التسلط، فحاولن التخلص منه، وقد خلفه في الوزارة ابنه رزيك ٥٥٦ هـ / ١١٦١ م، الذي لقب بالملك العادل. (٢)

كان الملك العادل زريك يتوجس خيفة من والي الصعيد شاور بن مجبر، فلم يعأ بنصيحة والده قيل قتله بأن يهوننه، ويحترس سنه، بل سارع بعزله من ولاية قوص، فجن جنون شاور، وأعد جيشاً كبيراً، ذهب به إلى القاهرة ٥٥٨ هـ / ١١٦٣ م استطاع خلاله أن يتغلب على العادل، ويحتله، ويتولى مكانه في الوزارة، لم يكن شاور يتولى الوزارة حتى نفسه عليها أبو الأشبال ضرغام بن عامر (٣) - مقدم أمراء الزميمة،

(١) ابن تغري بردي: المعصر السابق، ص ٣١٤.

(٢) ابن الأثير: الكامل، ج ١١، ص ١٢٩، ابن تغري بردي، المعصر السابق، ص ١١٢ جمال الدين الشيبلي: مجموعة الوثائق لفاطمية، ص ١٥٧ - ١٥٨.

(٣) أبو الأشبال ضرغام بن عامر: ابن سوار المنذري، كان كبير أسراء "البرقوة"

وصاحب الباب، وهي رتبة نلي الوزارة مباشرة - واستبد بسطة مصر، فكانت من العجائب المضحكة، والمحزنة في نفس الوقت ؛ حيث إن مصر كانت تحكم خلال ثلاث وزارات في وقت واحد؛ شاور، وضرغام، والعدل، وهي بذلك تنهي الفوضى، والفساد السياسي، لقد ظل العدل في سجنه حتى قتل طي بن شاور، أما شاور، وضرغام فدخلوا معا في صراع عنيف أخذ كل منهم يبحث عن قوى خارجية تستعين بها على الآخر. (١)

نجح شاور في أن يقر إلى الشام بعد هزيمته أمام ضرغام، واستنجد بالمسلطان العدل نور الدين محمود ؛ لاستعادة منصبه، ووعده مقابل ذلك بثلاث خراج مصر بعد إقطاعات العساكر، وأن يتصرف هو بأمر نور الدين، واختياره أي يكون نائباً له في مصر، لا نائباً للعاقد (٢)، وكانت لاستعادة شاور بالدول المجاورة نذيراً بنهاية الدولة الفاطمية ؛ حيث

-
- التي قد أنشأها "زريك" ولاء شاور الباب، كان فارساً وشجاعاً، ناهض شاور نسي الوزارة، تولى الوزارة بعد قتال انتهى بقتل طي بن شاور، وقد خضع عليه العاضد خلع الوزارة وبقية الملك المنصور. راجع : عمارة اليمنى [نجم الدين أبو محمد عمارة بن أبي الحسن علي الحكمي] : النكت المصرية في أخبار الوزارة العصرية، تحقيق : هرتويج درنبرغ، شالون، ١٨٩٧م، ص ٦٨، ٦٩؛ ابن ظافر : أخبار الدول، ص ١١٤؛ ابن الطوير : نزهة المقلتين، ص ١٢٢؛ ابن تغري بردي : النجوم، ج ٥، ص ٣٣٨.
- (١) عمارة ليملي : للمصدر السابق، ص ٦٦ - ٦٧؛ ابن ظافر : المصدر السابق، ص ١١٢؛ ابن كثير : البداية والنهاية، ج ١١، ص ١٧٨؛ الفيدي : نهاية الأرب، ج ٢٨، ص ٣٢٩؛ المقرزي : الخطط، ج ٢، ص ٣٣٨؛ تعاليف الحنفيا، ج ٢، ص ٥٩٩ - ٦٠٤؛ جمال الدين الشبلان : مجموعة الوثائق الفاطمية، ص ١٥٥.
- (٢) ابن ظافر : للمصدر السابق، ص ١١٤؛ ابن شداد : إنباه الدين ليو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم، للنوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، أو 'سيرة صلاح الدين'، تحقيق : جمال الدين فهديان، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، ١٩٦٤، ص ٣٦؛ أبو شامة : الفروضتين، ص ٣٣١ - ٣٣٢؛ ابن واصل : مفرج الكروب، ج ١، ص ١٣٧ - ١٣٨؛ ابن تغري بردي : المصدر السابق، ج ٥، ص ٣٣٨؛ جمال الدين الشبلان : لمرجع السابق، ص ١٥٦؛ ليمان فؤاد سيد : الدولة الفاطمية في مصر، ص ٢٨٨.

ولت أمراء الشام ثم ملوك الفرنج على مواطن الضعف في الدولة الفاطمية، وأغرثهم بالطمع فيها، والاستيلاء عليها. أما ضرغام فبعد أن يش من الاستعانة بنور الدين محمود قرر الاستعانة بمحموري ملك بيت المقدس، وعرض عليه مبلغاً من المال نظير مساندته، وبالفعل استطاعت قوات نور الدين أن تصل إلى القاهرة بعد مراوغة للفرنج، ودخلت في حروب مع ضرغام كانت نتيجةها قتل ضرغام (٥٥٩هـ - ١١٦٤م)، وعودة شاور مرة أخرى للوزارة، ليكون بذلك أول وزير يغلب بعودة مرة أخرى^(١)، واضطر الخليفة لعمل سجل آخر بتولية شاور الوزارة للمرة الثانية، وقد حملت تلك الوثيقة في طياتها أن سبب انتصار شاور على الفاسق ضرغام هو تخلي العاضد عن ضرغام، وهذا لم يحدث قط. ولا عجب فقد بلغ الفساد كل مناحي الحياة في مصر، فليس من الغريب أن يكون في وثائقها أيضاً.

بمجرد عودة شاور للوزارة استبد بالأمور مرة أخرى، وتراجع عن وعده لنور الدين محمود وطمع في مصر فطلب من أسد الدين شيركوه قائد حملة نور الدين أن يعود بقواته إلى الشام، فدخل شاور في صراع حربي مع شيركوه، وجنوده الذين رفضوا الرحيل، فلم يجد شاور أمامه في هذه المرة إلا الاستعانة بالفرنج فوعدهم بألف دينار يومياً، غير أن هذا العرض يجعلهم يطمعون في امتلاك مصر لأنفسهم، فأصبحت مصر مسرحاً للحرب بين الفرنج، ونور الدين محمود، أما شاور فقد فحش أمره، وساءت سيرته، وكثر تجرؤه على الدماء، وامتلاكه للأموال، أنت تصرفات شاور المهينة إلى عدم ثقة الخليفة في تصرفاته، ولأنه بعد أن سمح لبعض قوات الفرنج بالبقاء في مصر فعاثوا فيها فساداً

(١) عمارة اليماني : النكت، ص ٤٧٧ أبو شامة : الروضتين، ج ١، ص ٣٢٢ - ١٣٣٤ التويري : نهاية الأرب، ج ٢٦، ص ١١٠٠ ابن تغري بردي : النجوم، ج ٥، ص ٣٣٨ القلقشندي : صبح الأمشي، ج ١٠، ص ٣١٠ - ١٣١٨ جمال الدين الشيبان : مجموعة الوثائق الفاطمية، ص ٣٦٩.

(٢) جمال الدين الشيبان : المرجع السابق، ص ١٥٦ - ١٥٧.

فكره الشعب، واستنكروا أفعاله، فاستتاب الخليفة معه ابنه الكامل شجاع في الوزارة -، وكانت المرة الأولى التي عين فيها نائبًا للوزير علي الرغم من وجوده. (١)

أرسل الكامل شجاع إلى نور الدين محمود يعرض عليه التدخل في طاعته، ويضمن له، ولأجمع المصريين في الوقت الذي كان والده قد اتفق مع الفرنج، غير أن الكامل أدرك أطماع الفرنج في مصر فأثر أن يربط سياستها بأميز ممثل أهون من انتقالها إلى أيدي الفرنج، وعندما علم الفرنج بذلك الاتفاق بادروا بالمجيء إلى مصر، وحاصروا بلبس^(٢)، وأكثروا فيها الفساد فأسروا جماعة من المسلمين، ونهبوا أموالهم فتلاشى أمر الديار المصرية من الظلم، والجور، أما الخليفة فلا حول له، ولا قوة فلم يبق منه سوى الاسم، والخطبة، شعر شاور بجزءه أمام التصدي للفرنج، وأيقن أنهم قادمون إلى القاهرة، فقرر دون تفكير في أهل مصر بإحراق الفسطاط فأمر أهلها بالانتقال إلى القاهرة، وقد ماج الناس، واضطربوا لتلك النقلة فتركوا أموالهم، وأمتعتهم، ونجوا بأنفسهم كأنما أخرجوا من ديارهم إلى الحشر. (٣)

(١) أبو شامة : للروضتين، ج ١، ص ١٣٩، المعريزي : الخطط، ج ٢، ص ٢٣٨؛ ابن تعري بردي : قمصن السابق، ج ٥، ص ٣٢٨؛ جمال للدين النبال : المرجع السابق، ص ١٥٧.

(٢) بلبس : بكسر الباءين وسكون اللام، وهي مدينة في حدود الصحراء الشرقية، بينها وبين الفسطاط عشرة فراسخ، وهي على طريق الشام، فتحت سنة ١٨ أو ١٩ هـ على يد عمرو بن العاص، كانت قاعدة الأعمال الشرقية زمن الفاطميين حتى آخر عهد الحكم الجركسي. راجع : ياقوت الحموي : معجم البلدان، ج ٢، ص ٣٤٦؛ محمد رمزي : قاموس الجغرافيا في الجلاء الحالية، ق ٢، ج ١، ص ١٠١.

(٣) أبو شامة : للروضتين، ج ١، ص ٣٩٠؛ ابن واصل : مفرج للكروب، ج ١، ص ١٣٩ - ١٤٠؛ المعريزي : الخطط، ج ٢، ص ١٣٣٩؛ ابن تعري بردي : النجوم، ج ٥، ص ٣٥.

نزل الناس بمساجد القاهرة، وحماماتها، ومأثروا جميع الشوارع، والأزقة، وصاروا مطروحين بأولادهم في الطرق، وهم في تلك ينتظرون هجوم الفرنج على القاهرة، وقتل، وسبى من بها من حريم، وصبيان، وأصيب الجميع بالزعر، والامية من هول ما وصلت إليه الفسطاط من خراب حيث ظلت النيران تعمل فيها أربعة وخمسين يوماً حتى أصبحت أتراباً بعد عين، فكتب العاضد إلى نور الدين برسالة عودة تحمل في طياتها ذوائب النساء أهل القصر، ويرجوه بنجدة مصر، فاستجاب نور الدين مسرعاً، وأرسل حملة ضى رأسها شيركوه، وابن أخيه صلاح الدين، استطاعت تلك الحملة أن تهزم الفرنج، وتتخذ مصر، فخرج العاضد شكرًا إلى شيركوه، وطلب منه رأس شاور، فقتل، وحملت رأسه للعاضد الذي خلع عليه خلع الوزارة، ولقبه بالملك المتصور سلطان أمير الجيوش^(١) فاستقرت له الأمور دون منازع، غير أنه ما لبث أن توفي فجأة^(٢).

توفي شيركوه، فكان من لبيدهي أن يختار الخليفة العاضد للوزارة أحد رجالات الدولة الفاطمية، غير أنه أقدم على خطوة جريئة كانت فيها هلاكه، وهلاك دولته؛ حيث عهد بالوزارة إلى ابن أخي شيركوه، وهو صلاح الدين حيث ظن جدلاً أنه يستطيع أن يستعيد نفوذه خلال ذلك الشاب للقيل الشأن دون استبداد الوزراء، ولكن العاضد مرعان ما شعر أنه أخطأ في ذلك التقدير حيث وجد في صلاح الدين شخصية قوية شديدة اللبأس سيطرت على زمام الأمور فأصبح العاضد معه كالمحجور عليه لا يتصرف في أمر من الأمور إلا بمشورته، وإذنه^(٣).

(١) ابن ظاهر : أخبار الدول، ص ١١٦ ابن الأثير : الكامل، ج ١١، ص ١٣٦ أبو شامة : المصدر السابق، ص ١٣٩ ابن واصل : المصدر السابق، ص ١٥٧ النويري : نهاية الأرب، ج ٢٨، ص ٢٣٩ ابن تغري بردي : المصدر السابق، ص ٣٥ - ٣٥٢ محمد ماهر حماده : الوثائق السياسية والإدارية، ص ٤٨ أمينة للشوربجي : روية الرحلة، ص ٥١٣.

(٢) ابن الأثير : المصدر السابق، ص ١٧، أبو شامة : المصدر السابق، ص ٤٠٦ ابن العبري [غريغوريوس أبو الفرج بن هارون قملطي]، تاريخ مختصر الدول،

هكذا وضع الإمام الفاطمي الإسماعيلي نفسه، ودولته تحت وصاية وزير سني أجنبي استطاع أن يقضي على الدولة الفاطمية نهائياً، ويقدم الدعوة للعباسيين السنيين مرة أخرى.

رابعاً : الفساد الإداري في مصر تحت الحكم الفاطمي :

على الرغم من استقلال مصر استقلالاً تاماً عن الخلافة العباسية، وإقامة خلافة فاطمية شيعية جديدة تخالف العقيدة السنية في بغداد، فإن الفاطميين قد عملوا على بقاء النظم الإدارية التي كانت موجودة من قبل، وعملوا بها بعد أن أدخلوا عليها بعض التعديلات لتصبح تلك النظم لوثاً آخر، توارثه الفاطميون عن العباسيين في مصر، والذي امتد بأصوله العريقة إلى تلك النظم الإدارية التي كان معمولاً بها منذ عهد البيزنطيين. (١) ، والتي قسمت مصر على أساسه إلى قسمين رئيسيين هما : مصر السفلى (اللتقا، والوجه البحري)؛ ومصر العليا (الصعيد، والوجه القبلي)؛ وينقسم كل منها بدوره إلى أقاليم مقسمة إلى كور تشمل كل منها على عدة قرى، يتولى إدارة كل منها والى معاونه معاونون موجودون في القرى. (٢)

وقد عمل الفاطميون على زيادة تركيز زمام السلطة الإدارية في أيديهم، وذلك لاستكفاء مصالح حكومتهم، وخلافتهم الواسعة، لذلك فقد حرصوا على أن يكون النظام الإداري في مصر نظاماً شديد المركزية، لذلك أصبح كل ما يمس إدارة البلاد في الخلافة الفاطمية بإشراف السلطة المركزية في عاصمتهم القاهرة، كما كان الإشراف الإداري تدار شؤونه من داخل القصر. (٣)

ج ٢، تصحيح الأب أنطون صالحاني اليسوعي، ط ٢، دار الرافد اللبنياني، بيروت، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م، ص ١٣٧، ابن تغري بردي : المصدر السابق، ص ٣٤٠ جمال الدين الشيبان : مجموعة الوثائق الفاطمية، ص ١٧.

(١) عبد المنعم ماجد : نظم الفاطميين ورسومهم، ج ١، ص ٩٤، ١٩٥، ليمان فؤاد سيد : الدولة الفاطمية في مصر، ص ٣٢٧.

(٢) ليمان فؤاد سيد : المرجع السابق، ص ٣٢٧ - ٣٣٣.

(٣) عبد المنعم ماجد : المرجع السابق، ص ٩٥.

وكانت نظرية الحكم عند الفاطميين تتحصر في أن الإمام هو رئيس الدولة الأعلى، وهو الحاكم المطلق، ومن تحته تندرج بقية السلطات من أعلى إلى أسفل، وكان أول ما يلبسه من أهل السلطان هو الوزير، وبني الوزير العمال، أو حكام الولايات، والتغور الذين كانوا بمثابة للولاة^(١)، والذين كان يوليهم الخليفة في العصر الفاطمي الأول، ثم الوزير في العصر الفاطمي الثاني^(٢)، ولم يكن لترقية حق الاتصال بالخليفة، أو الوزير الذي جمع بين العديد من الأعمال الإدارية، وكذلك الدينية^(٣) إلا بانطاعة، والولاء، وأداء الجباية المطلوبة، أي من الناحية الدستورية نظرية الحكم المطلق^(٤)، بل نعدى ذلك إلى أن رئيس الدولة الأعلى فيها، وهو الإمام يمتاز بصفات العظمة، والقداسة^(٥) غير أن هذا الأمر لم يتجاوز سبعين عاما سيطر بعدها الوزراء الأقوياء على الأمر دون الخلفاء حتى نهاية الدولة الفاطمية.

حرص الفاطميون على إحلال المغاربة الشيعة الذين قامت على أكتافهم الدولة الفاطمية محل المصريين السنيين، وقد نجح جوهر الصقلي لحد كبير في تنفيذ تلك السياسة بشكل تدريجي، حتى لا يؤثر شعور السنيين الذين كانت إليهم أمور الدولة فتتعطل الأعمال الإدارية، ويضطرب النظام الإداري فيها؛ لذلك فقد أشرك المغاربة في جميع الأعمال الإدارية بجانب السنيين^(٦) غير أن جهل المغاربة بدقائق الإدارة

(١) ثقافتندي : صبح الأعشى، ج ٣، ص ٥٧٠.

(٢) نفسه، ص ٥٧٠؛ حمدي المنوي : الوزارة والوزراء في العصر الفاطمي، مكتبة الدراسات التاريخية، مطبعة دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٠، ص ٤٤.

(٣) ابن ميسر : أخبار مصر، ص ٤١٢٣ للنويري : نهاية الأرب، ج ٢٨، ص ١٣٠؛ المقرئزي : تخطيط، ج ١، ص ٤٤.

(٤) محمد عبد الله عنان : الحاكم بأمر الله، ص ٣٢٨ - ٣٢٩.

(٥) القاضي للنعمان : المجالس والمسائر، ج ١، ص ٢٨١؛ عبد المنعم ماجد : السجلات المستنصرية، سجل رقم (٣٥)، ص ١١٠، ١١١؛ نظم الفاطميين، ج ١، ص ٧٧؛ محمد عبد الله عنان : الحاكم بأمر الله، ص ٣٢٩.

(٦) المقرئزي : اتعاظ الخفا، ج ١، ص ١٦٥؛ عبد المنعم ماجد : نظم الفاطميين ورسومهم، ج ١، ص ١٩٧؛ علي إبراهيم حسن : تاريخ جوهر الصقلي، ص ٦٥.

المصرية جعلهم يقتصرون على الإدارة المحلية بالولايات، أما الإدارة المركزية، والتي احتاجت إلى مهارة كبيرة فقد تولاها في أغلب الأحيان أهل الذمة الذين انتشروا في جميع فروع الإدارة، ووصلوا إلى أعلى المناصب الإدارية، حتى وصل بعضهم لمنصب الوزارة، سواء من اعتنق منهم الإسلام، أو بقي على ملته، وقد ظهر هذا الأمر مع ظهور أول خلفاء الدولة الفاطمية في مصر. (١)

وقد بدأت تلك السياسة مع المعز لدين الله الفاطمي، الذي قام بإعفاء القائد جوهر للصقلي من جميع مناصبه، ثم عهد إلى يعقوب بن كلس بإعادة تنظيم إدارات الدولة في مصر، كما عين عضلج بن الحسن لمعاونة ابن كلس في الإشراف على الشؤون المالية^(٢)، وقد نجح ابن كلس في وضع نظام أكثر مركزية، يدير بشكل هرمي، يأتي الإمام، أو الخليفة على رأسه، وثبتت منه كل سلطة، وقد تقاسمت إدارة هذا النظام إلى سلطات ثلاثة: إدارية، يتولى الوزير الإشراف عليها، وقضائية يتولى قاضي القضاة الإشراف عليها، ودعائية يتولى داعي الدعاة الإشراف عليها، وكانت السلطة القضائية، والدعائية تجمعان أحياناً شخص واحد. (٣)

غير أن هذا التنظيم لم يستمر طويلاً حين لحق به ما لحق بالدولة الفاطمية نفسها من أحداث متلاحقة، وضعف متكرر، زاد من قسوة الوزراء، فأصبح الوزير هو قائد الجيش، وقاضي القضاة وداعي الدعاة

(١) عبد المنعم ماجد: لمرجع السابق، ص ٨٧ - ١٩٨ ناريمان عبد الكريم: معاملة غير المسلمين في النحلة الإسلامية، للهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٦م، ص ١١٨.

(٢) ابن ظافر: أخبار الدول، ص ٣٨؛ ابن الأثير: الكامل، ج ٩، ص ١٧٧ ابن ميسر: أخبار مصر، ص ١٦٤؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ١، ص ٢٧ - ٣٥؛ المقرئزي: الخطوط، ج ١، ص ٨٢؛ تلعاظ الحنفاء، ج ١، ص ٤٤، ٤٥.

(٣) ابن الصيرفي: الإشارة، ص ٤٧ - ٥٢؛ للسويري: نهاية الأرب، ج ٢٦، ص ٤٩ - ٥٠؛ المقرئزي: الخطوط، ج ٢، ص ٥.

في الوقت نفسه^(١)، كما أعيد تقسيم مصر إدارياً ٤٧٠هـ / ١٠٧٨م، فأصبحت تشتمل على أربع ولايات رئيسة، وهي قوص، والشرقية، والغربية، والإسكندرية، أما العاصمة المصرية المتمثلة في ولاية القاهرة وولاية الفسطاط فكان لكل منهما وال خاص يتمتع بمكانة عالية عند الخليفة. وقد متحت الحكومة الفاطمية لكل والٍ من هذه الولايات الأربعة الحرية في تعيين العمال على المدن، والنواحي، والقرى الداخلة في ولايته.^(٢)

كانت ولاية قوص هي أعظم تلك الولايات الأربعة، وبعد واليها في رتبة نجلي الوزارة مباشرة، وكما كانت مظاهر الصراع، و الفساد بين هؤلاء الولاة مستمرة فيما بينهم، وبين الوزير، فأصبحت الرشوة وبذل الأموال مقابل تلك الولايات، ولاسيما في العصر الثاني من الدولة الفاطمية، والذي كان جل^(٣) وزرائه من حكام تلك الولايات الذين تصارعوا فيما بينهم، وكثر فسادهم في ظل ضعف سلطنة الخليفة، وسيطرة الوزير على كل سلطات الخليفة.^(٤)

(١) ابن الطوير : نزعة المقلتين، ١٩٩٢، ص٤٩ - ٥٣؛ عبد المنعم ماجد: نظم الفاطميين ورسومهم، ج١، ص١٣٣؛ علي حسني الخريوطي : مصر العربية الإسلامية، ص٢١٣، ٢١٤.

(٢) ابن ميسر : أخبار مصر، ص١٢٣؛ للتويري : نهاية الأرب، ج٢٨، ص١٣٠١؛ التلقشندي : صيغ الأعشى، ج٣، ص٤٩٣ - ٤٩٤؛ المقرئزي : الخطط، ج١، ص٤٤٠؛ اتعاط الحنفاء، ج٣، ص١٣٦؛ عبد المنعم ماجد : المرجع السابق، ص١٣٣.

(٣) من أمثلتهم : نجم الدين أبو الفتح بن مصال، رضوان السولخني، ابن السلا، طلائع بن زياد، بلور من مجير السعدي. راجع : ابن ميسر : المصدر السابق، ص٨٩، ٩٢، ١٣٥؛ المقرئزي : الخطط، ج٢، ص١٣٠؛ اتعاط الحنفاء، ج١، ص١٧٨؛ التلقشندي : صيغ الأعشى، ج١٠، ص٣٨٢ - ٣٨٣؛ أحمد عبد الرازي : اللؤلؤ والبرقعة، ص١٧.

(٤) ابن ميسر : المصدر السابق، ص١٢٢، ١٢٤، ١٤٩؛ عبد المنعم ماجد : المرجع السابق، ص١٣٣؛ السجلات المنكسورية، سجل رقم ٣٤، ٥٩، ص١٠٨ - ١٠٩.

[١٧] الفساد الإداري للوزراء :

انقسمت الوزارة في عصر الفاطميين كبقية العالم الإسلامي إلى وزارة تنفيذ، ووزارة تقييض، ولم يكن الفاطميون في المرحلة الإفريقية يعرفون منصب الوزير، أما في مصر فقد كان الغالب على وزراء العصر الفاطمي الأول وزراء التنفيذ؛ بينما كان كل وزراء العصر الفاطمي الثاني لبتداءً من وزارة بدر الجمالي وزراء تقييض. (١)

أما الوزير في الدولة الفاطمية فقد اختلف اختلافاً كبيراً عنه في مصر الإسلامية - قبل الدولة الفاطمية - لأن الوزير فيما قبل كان يمثل القوة المشتقة من القوة الكبرى المتمثلة في الخليفة ولم يظهر دوره إلا مع ضعف الخليفة نفسه، أما في مصر الفاطمية فكان الوزير يسيطر على الأمور في كثير من الأحيان وكان ذلك منذ بداية الدولة الفاطمية في مصر، ويسيطر على جميع الأمور في النصف الثاني من الدولة الفاطمية، فكان لزاماً أن ندرجه ضمن القوة المشتقة في فسادها الإداري في النصف الأول من عهد الدولة، والقوة المسيطرة سياسياً وإدارياً أيضاً في النصف الثاني من عهد الدولة. وفي الحالتين كان الوزير هو الرئيس الإداري في منظومة الدولة الفاطمية.

وكان الوزير أبو الفضل جعفر بن الفرات يتقلد منصب الوزارة عند دخول جوهر الصقلي مصر وكان ابن الفرات منبياً غالباً تولى هذا المنصب منذ عهد الإخشيديين، وقد أبي جوهر الصقلي في بادئ الأمر أن يلقبه بلقب وزير، فامتنع عن ذلك قائلاً : "ما كان وزير خليفة" إلا أنه قد أقره في منصبه، متمشياً في ذلك مع ميامته للعامة في هذه البلاد، غير أنه قد عين معه خادم يبيت معه في داره ويلبزمه في غدواته وروحاته ويرقبه في حركاته وسكناته، ومن ثم ضعف نفوذ هذا الوزير، فلم يبق له من منصبه سوى الاسم فقط، ويقال إن ابن الفرات هذا قد اعتزل عن بقائه في سمت الوزارة بعد وصول المعز لمصر. (٢)

(١) أبمن فواد سيد : الدولة الفاطمية في مصر، ص ٣٢٠.

(٢) الدقريزي : اتعاظ الحففاء، ج ١، ص ١١٩، الخطط، ج ١، ص ٤٣٩، عبد المنعم

وبالرغم من ذلك فإن ابن كلثوم هو أول من خوطب بالوزارة في عهد الدولة الفاطمية.

وعندما وصل المعز لدين الله إلى مصر، فضل ألا يفوض سلطاته إلى أحد، وأن يباشر التدبير بنفسه ولا يعول فيه أحد غيره، فأبى أن يتخذ وزيراً له، ولكنه أوجه ما أطلق عليه الوساطة لأن صاحبها كان يتوسط بين الخليفة والرعية. ^(١) غير أن المعز ندين الله قد اعتمد كما ذكرنا على يعقوب بن كلثوم في كافة شؤون الدولة الرحيبية والمدنية، كما قلده ٣٦٣هـ الخراج والحسبة ^(٢) والإعشار والجوالي والأجسام والمواريث والشرطتين ويعاونه في ذلك عمرو بن الحسن اليهودي. ^(٣)

ولا شك أن إسناد مثل هذه الأعمال الإدارية الكبرى لهذين الرجلين قد قوى من نفوذهما إلى حد كبير وأثر بشكل آخر على السلطة التي كان يتمتع بها جوهر الصقلي من قبل. ^(٤) على أن هذه الثقة التي

=

ماجد : سجلات المستنصرية، مجلد رقم (٥٩)، ص ١٩٥؛ علي إبراهيم حسن : تاريخ جوهر الصقلي، ص ٦٨؛ ناريمان عبد الكريم : مصر الإسلامية، ص ١٨٩.

(١) ابن الصيرفي : الإشارات، ص ٤٧؛ القلقشندي : صبح الأعشى، ج ٢، ص ٤٨٠؛ أيمن فؤاد سيد : فداولة الفاطمية في مصر، ص ٣٢٠؛ حمدي الملاوي : الوزارة والوزراء، ص ٢٤١.

(٢) الأنطكي : تاريخ الأنطكي، ص ٢١٩؛ ابن خفاقر : أخبار الدول، ص ٣٨، ٣٩؛ ابن ميمر : أخبار مصر، ص ١٦٢، ١٦٤؛ ابن خلكان : وفيات الأعيان، ج ١، ص ٢٧ - ٣٥؛ المقريزي : الخطط، ج ١، ص ٨٢؛ اتعاط الحنفا، ج ١، ص ١٤٥ - ١٤٥؛ أحمد مختار العجادي : في التاريخ العباسي والفاطمي، ص ٢٨٢.

(٣) ابن ميمر : المصدر السابق، ص ١٦٣؛ المقريزي : الخطط، ج ١، ص ١٨٢؛ اتعاط لحنفا، ج ١، ص ١٤٥ - ١٤٥؛ حسن إبراهيم حسن : تاريخ جوهر الصقلي، ص ٦٩ - ٧٠؛ ناريمان عبد الكريم : معاملة غير المسلمين، ص ١١٨.

(٤) ابن الصيرفي : المصدر السابق، ص ٤٧؛ حسن إبراهيم حسن : للمرجع السابق، ص ٧٩ - ٨٠.

أولاًها الخليفة المعز لدين الله لهذين الرجلين جعلتهما يتصرفان كما يحلو لهما وحمصب أهوائهم الشخصية، وعلى الرغم من العداء الذي كان بين ابن الفرات - الوزير السابق - وابن كلس منذ عهد الدولة الإخشيدية والذي جعل ابن كلس يفر هارباً إلى بلاد المغرب، فإن أوصل الصداقة قد توصلت بينهما، وتزوج للفضل بن الفرات من ابنة الوزير بن كلس، فظهرت المحموية والوساطة في ظل تلك الزيجة السياسية - الإدارية - فولى ابن كلس ثقته التامة لابن الفرات وعول إليه في محاسبة الأعمال^(١) كما سعى هذان الرجلان في استخراج الأموال من المصريين، إرضاءً للمعز لدين الله لكي يسترد ما أنفقه جوهراً من أموال في مصر، فاستخرجوا أكثر من مائتي ألف وعشرين ديناراً في يوم واحد من مال تميم، ودمياط، والأشمونيين، هذا الأمر الذي لم يسمع بمثله من قبل والذي أزهق الشعب المصري وأثقل كاهله، وقد استمر يعقوب بن كلس زمن الخليفة الفاطمي العزيز بالله الذي أقره في الوزارة ٣٦٨هـ ولقبه بالوزير^(٢) الأجل وأمر ألا يخاطبه ولا يكاتبه أحد إلا بهذا اللقب^(٣) بالإضافة إلى ما قد تركه هذان الرجلان من أموال ضخمة يخيم عليها الشبهات^(٤).

كذلك الوزير أبا الحسن بن علي عمر العداس، الذي لتخذه العزيز بالله وزيراً له، ثم أمر بالقبض عليه في ٣٨٣هـ / ٩٩٣م، بعد أن اتهمه بتبديد أموال الدولة^(٥). ثم استوزر العزيز بالله عيسى بن نطورس

(١) أحمد مختار العبادي : المرجع السابق، ص ٢٨٢.

(٢) لم يثبت هذا اللقب رسمياً إلا زمن الخليفة الفاطمي الرادع الظاهر لإعزاز دين الله ٤١١ - ٤٢٧هـ بتولي الوزير أبي القاسم الجرجاني الوزارة ٤١٨هـ / ١٠٢٨، حيث أصبحت الوزارة منصباً وتكفيها منذ ذلك الوقت ... راجع: ابن الصيرفي، المصدر السابق، ص ٤٩.

(٣) نفسه، ص ٤٩؛ أحمد مختار العبادي : المرجع السابق، ص ٢٨٢.

(٤) المقرئزي : الخطوط، ج ٢، ص ٥٥؛ أحمد عبد الرازق : البذل والهرطقة، ص ١٨.

(٥) ابن الصيرفي : الإثارة، ص ٥٤؛ ابن ميسرة، أخبار مصر، ص ١٢٧٨؛ المقرئزي : المصدر السابق، ص ٥٥.

النصراني في ٣٨٤هـ / ٩٩٤م، كما اعتمد على أحد اليهود ويدعى منشا بن إبراهيم القزاز في تصريف أمور الدولة الإدارية، وقد عمل هذان الرجلان في تقريب أهل الذمة على حساب للمصريين، وقد ساعدهما على ذلك تلك السياسة التي اتبعها الخليفة العزيز بالله من تقريب أهل الذمة له نظراً لزواجه من نصرانية، وقد ضاق بالشعب المصري من تصرفات هذين الرجلين فبعثوا إلى الخليفة بأمره في حاجة لها تشكو وتقول :

'بالذي أعز النصراني بعيسى واليهود بمنشا، وأذل المسلمين بك لما كشفت عن ظلامتي'. وغضب العزيز بالله وأمر بالقبض على الرجلين وعزلهما بعد أن صادر أملاكهما، كما قام بطرد أهل الذمة من النواوين، ولكن سرعان ما عاد الأمر إلى فساده بعد توسطت الملك ابنة العزيز من زوجته النصرانية، فعاد ابن نظور من مرة أخرى. (١)

وعندما تولى الحاكم بأمر الله كان ابن عمار يقوم بتدبير شؤون الدولة كوزير له^(٢)، غير أن ابن عمار قد تحيز إلى بربر كتامة وأدخلهم في نواوين الدولة وكفل لهم الوظائف الرئيسية حتى يتمكن بواسطتهم من السيطرة على البلاد^(٣)، فأخذ عليهم الأموال والأعطيات دون غيرهم، فاستولوا على وظائف الدولة واقتسموا سلطانها وعاثوا في شؤونها ومرافقها فكثرت فسادهم واعتدوا على الناس، وعلى أموالهم وكان ابن عمار يشجعهم على ذلك. (٤)

(١) ابن الصيرفي : المصدر السابق، ص ٥٤، ٥٥، ابن طسافر : أخبار الخوارج، ص ٤٠، ٤١

ابن تغري بردي : النجوم، ج ٤، ص ١١٥ - ١١٦، السيوطي :

حسن المحاضرة، ج ٢، ص ١٥٠، علي حسني الخربوطلي : مصر العربية

الإسلامية، ص ٤٩٩، نازمان عبد الكريم : معاملة غير المسلمين، ص ١١٩.

(٢) الأنطاكي : تاريخ الأنطاكي، ص ١٨١، ابن الصيرفي : المصدر السابق، ص ٥٦.

(٣) ابن طاهر : المصدر السابق، ص ٤٢، ابن ميمر : المصدر السابق، ص ٧٨،

ابن تغري بردي : المصدر السابق، ج ٤، ص ١٢٢، عبد المنعم ماجد : نظم

الفاطميون ورسومهم، ج ١، ص ٩٩.

(٤) ابن خلكان : وفيات الأعيان، ج ٥، ص ٤٣٥، التويري : نهاية الأرب، ج ٢٦،

ص ٥١، المقريزي : أعيان الحنفية، ج ٢، ص ٤ - ١٠.

أما بن عمار فقد أطلق بابه إلا على الخاصة والأكابر من شيعته، وطغى وتجبّر وألزم جميع الناس بالترجل إليه، وقد ظلت إدارة البلاد تسير على هذا المنوال الفاسد حتى ضاق بالناس، فاجتمع الصقالبة والناقمون عليه وعلى مياسته تحت قيادة الأستاذ برجوان، وهاجموا للكتابين في ظاهر القاهرة ٣٨٧هـ، وكانت فتنة كبيرة، فاضطر ابن عمار ومن معه إلى الهروب بعد أن هوجمت داره ونهب ما فيها. (١)

غير أن الأستاذ برجوان لم يكن أفضل حالاً من ابن عمار، حيث يسيطر هو الآخر على مقاليد الأمور، واستأثر بكل سلطة حقيقية داخل البلاط وخارجه وظن أنه الحاكم الحقيقي للبلاد فانقلب عليه الحاكم وقتله ٣٩٠هـ، ثم ختم على أمواله وصاندر تركته وكانت عظيمة تحوي على الكثير من نفيس المتاع والثياب والخطي والخيل والعلمان والكتب وغيرها. (٢) أما أصدقائه وأعوانه الفاسدون فقد اختفوا من الميدان على حد قول عنان. (٣)

وبالرغم من فساد هؤلاء الوزراء وتحاملهم على الناس وظلمهم فإن مياستهم انماقية قد لغيت قبولاً وهوى بعض الخلفاء الفاطميين، وقد أثنى الحاكم بأمر الله على أحد رجال دولته وهو الوزير ابن عبدون النصراني لأنه جمع له من الأموال ما هو خارج من أموال الدواوين ثمانمائة ألف دينار، دون النظر لحال الرعية. (٤)

(١) ابن الصيرفي : الإنبارة، ص٥٦، ٥٧؛ ابن طاهر : أخبار الدول، ص٤٣، ٤٦٠؛ ابن خلكان : وفيات الأعيان، ج٥، ص٣٥٤؛ الفويري : نهاية الأرب، ج٢١، ص٤٤؛ المقرئ : الخطط، ج٢، ص٣٦، ٣٧؛ ابن تغري بردي : النجوم، ج٤، ص١٢٢؛ محمد عبد الله عنان : الحاكم بأمر الله، ص٤٩٣ - ٥١٠.

(٢) ابن الصيرفي : للمصدر السابق، ص٥٧؛ المقرئ : اتعاظ الحنفاء، ج٥، ص٤٠ - ١٠.

(٣) محمد عبد الله عنان : المرجع السابق، ص٩٢ - ١٠٠.

(٤) المقرئ : للمصدر السابق، ج٢، ص٨٢.

ثم عاد تسلط أهل النذمة على الإدارة مرة أخرى عندما ولي الحاكم بأمر الله الفاطمي، منصور ابن سوردن النصراني بالوزارة، فاستأثر وقومه بوظائف الحكومة، إلى أن سقط بين العامة، مما اضطر الحاكم لاضطهاد أهل النذمة بشكل عام. (١) وبالرغم من جبروت الحاكم بأمر الله واضطهاده لأهل النذمة فإنه لم يستطع إقصاءهم من مناصبهم أو حتى الاستغناء عنهم، وتعلل لنا د/ ناريمان عبد الكريم هذا الأمر بأن القبط في ذلك الوقت كانوا يمثلون ثلث سكان مصر، هذا بالإضافة إلى أن أغلبهم كان على دراية تامة بشؤون الإدارة منذ زمن بعيد. (٢)

إضافة إلى ذلك بُعد الفاطميين عن أهل مصر المنيين والذي أتاح الفرصة لأهل النذمة للسيطرة على تلك الأمور - كافة الأمور الإدارية - بكل ثقة منهم في عدم قدرة الحاكم على الاستغناء عنهم فكانوا يفعلون ما يشاؤون دون خوف. كاقتراع أبي الفتوح موسى بن الحسين الذي تولى الوساطة للخليفة للظاهر لإعزاز دين الله ٤١٣هـ / ١٠٢٢م والذي لم يمكث في الوزارة سوى تسعة أشهر فقط ثم قبض عليه (٣)، مما أدى إلى تكوين ثروة ضخمة جداً، حيث وجد عنده من العين ستمائة وعشرون ألف دينار وهو مبلغ ضخم بالنسبة لتلك الفترة التي تولى فيها للوساطة (٤) وقد أمر الظاهر لإعزاز دين الله بقتله صبيحة اعتقاله. (٥)

وجاء الظاهر لإعزاز دين الله واستوزر نجيب الدولة علي بن الجرجاني في ٤١٨هـ/ ١٠٢٨م، والغريب في هذا الأمر أن يتولى أبو

(١) علي حسني الخربوطلي : مصر الحربية الإسلامية، ص ١٥٥.

(٢) ناريمان عبد الكريم : معاملة غير المسلمين، ص ١٢٠.

(٣) ابن الصيرفي : الإشارة، ص ٢٦٦؛ المقرئ : اتعاظ الخفاء، ج ٧، ص ١١٣٢؛ الفوري : نهاية الأرب، ج ٢٦، ص ١٢٢.

(٤) حمدي المتناوي : الوزارة والوزراء، ص ١٨٧؛ أحمد عبد السرازق : البذل والبطولة، ص ١٧٧.

(٥) ابن الصيرفي : للمصدر السابق، ص ٢٦٦؛ ابن ظافر : أخبار الدول، ص ٢٤٥؛ التويري : للمصدر السابق، ص ٦٢.

القاسم الجرجرائي الوزارة بتكليف رسمي وهو مقطوع اليدين، والأغرب أن الحاكم بأمر الله - الخليفة السابق - قد أمر بقطعهما عندما كان الجرجرائي يتولى بعض الدواوين للحاكم فظهرت عليه للخيانة، لذلك أمر بقطع يديه، وقد ولاء الظاهر الوزارة على الرغم من إثبات خيانتته، إلا أن خبرته في شؤون الإدارة عفت عنه ذنب الخيانة، وقد ظل الجرجرائي في الوزارة حتى توفي ٤٣٦هـ - ١٠٤٥م، في عهد المستنصر.^(١)

وفي عصر المستنصر بالله الفاطمي تولى الوزارة صرفة بن يوسف الفلاحى كان يهودياً وأسلم^(٢)، وفي عهده ظهر رجل يهودي حاز سلطة واسعة وهو أبو سعيد التستري الذي كانت أم الخليفة أمة في بيته قبل زواجها من للظاهر لإعزاز دين الله، فعهدت إليه بنظارة خاصتها، فزادت سلطته حتى انتزع جميع سلطات للوزير الفلاحى. فأصبح التستري رئيس ديوان الخليفة المستنصر الفعلى، فاستكثر من بني جلسه ومكثهم من السيطرة على الإدارة الفاطمية، كما قام بتعيين أخيه أبي نصر رئيساً لديوان الخليفة، وعين ابنه إمرة الديوان، وعظم شأنه حتى صار ناظرًا في جميع أمور الدولة، على الرغم من عدم تلقيه صراحة بلقب الوزير.^(٣)

(١) المسيحي : أخبار مصر، ص٤٥٥ ابن الصيرفي : المصدر السابق، ص٦٨، ٦٩؛ المقرئزي : الخطط، ج١، ص٣٥٥ عيد للمنع ماجد : نظم الفاطميين ورسومهم، ج١، ص٨١٠ حمدي عيد المنعم حسين : محاضرات في تاريخ مصر الإسلامية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٩٩م، ص١٠٢؛ جمال الدين الشيبان : مجموعة الوثائق لفاطمية، ص١٣٨ - ١٣٩.

(٢) ابن الصيرفي : المصدر السابق، ص٧١.

(٣) نفسه، ص٧١، ١٧٢ ابن ميمر : أخبار مصر، ص٥٠٣؛ النويري : المصدر السابق، ص٦٤، ٦٥؛ المقرئزي : المصدر السابق، ص٣٥٥؛ تعالظ الحنفاء، ج٢، ص١٩٩؛ ابن تغري بردي : النجوم، ج٥، ص١٩؛ لسبوطي : حسن المخضرة، ج٢، ص٢٠١؛ علي حسني الخربوطلي : مصر العربية الإسلامية، ص١٦١ - ١٦٢؛ ناريمان عيد الكريم : معاملة غير المسلمين، ص١٢٠، ١٢١.

أدى هذا الأمر إلى حقد الفلاجي على التستري وبني جنسه، فدير له مؤامرة انتهت باغتياله وقد ساعده في ذلك مسخط الناس عليه بعد أن سبض اليهود على وظائف الدولة وعاثوا فيها فساداً، ففضبت أم الخليفة لذلك - قتل التستري - فعملت على إقالة الوزير الفلاجي وسجنه ثم قتله. (١) ثم أخذت تتحكم في أمور الدولة وإدارتها ففسد الأمر. (٢) وكثر عدد الوزراء، حتى وصل الأمر إلى تعيين عدد كبير منهم أشهراً معدودة أو أياماً معلومات وربما إلى يوم واحد. (٣)

وقد عبر أحد الشعراء عن غضب للشعب من تسلط اليهود قائلاً :

يهود هذا الزمان قد غلبوا غايمة آمالكم وقد منكوا
 العز فيهم وأمال عندهم ومنهم المستشار والمك
 يا أهل مصر قد نصحت لكم تهودوا فقد تهود الملك

أما الشعب المصري فكان لا حول له ولا قوة في ظل خليفة ضعيف وسيدة تتحكم في مقاليد الأمور، ودولة إسلامية يتحكم في إدارتها اليهود وأهل الذمة نون رقابة.

تفاقت الأحوال في الدولة الفاطمية خلال تلك الفترة نتيجة لتدخل أم المنتصر وحاشيتها، مما أدى إلى حدوث كوارث أدت إلى دخول مصر في فتن وصراعات ومجاعات كانت تقضي على مصر، وسيطر رجال أقوياء من الجند على المنتصر وأمه، مما جعل للمنتصر يقوم باستدعاء بدر الجمالي والي عكا - الأرمني - لإنقاذ الخلافة، وعلى

(١) ابن ميسر : أخبار مصر، ص ١٤٨؛ النويري : نهاية الأرب، ج ٢٦، ص ١٦٤؛ المقرئبي : أتعاضد الحففاء، ج ٢، ص ١٩٥، ١٩٦، ٢٧٣.

(٢) قال رسول الله (ﷺ) : " لا يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة " صدق رسول الله (ﷺ).
 للقمي [أبي عبد الله محمد بن علي] ت ٦٣٠هـ، تهذيب الرياسة وترتيب السلسلة، ط ١٤، تحقيق: إبراهيم يوسف مصطفى عجو، مكتبة المنار، الأردن، ١٩٨٥، ص ١٣٦.

(٣) ابن الصيرفي : الإشراف، ص ٥٥؛ المقرئبي : إعانة الأمة، ص ٢١ - ٢٣.

لرغم من إسلام بدر الجمالي، فإن مجيئه إلى مصر قد أسعد النصارى على وجه الخصوص، حيث كان على علاقة طيبة بالأقباط فالتحق بخدمته الكثير من القبط وأسند إليهم العديد من الوظائف المهمة في مختلف الدواوين المالية والإدارية. (١)

وهكذا تغير كل شيء إلا تملط أهل للذمة على إدارة البلاد وإهدار حق المصريين فيها.

وكان تولي بدر الوزارة هو افتتاح عصر برز فيه وزراء عظام سلبوا السيادة من الخلفاء، وتدخّلوا في اختيار الخلفاء الضعاف، وحازوا الثراء بجانب السلطة دون أن يقف في طريقهم أحد، وقد ساعدتهم على ذلك ضعف الخلفاء الفاطميين، ومن هؤلاء الوزراء الذين سيطروا على أمور الإدارة حسب أهوائهم وميولهم نذكر : الأفضل بن بدر الجمالي في عهد المستعلي والأمر، والأكمل ابن الأفضل في عهد الأمر والحافظ، وبهرام النصراني الذي أحدث طفرة في الوزارة حيث كان أول من يتولاها من النصارى صراحة (٢)، وكذلك نجد ابن سلاز وابن مصال في عهد الظاهر وطلّاح بن زريك وابنه أبا شجاع العادل في عهد الفائز، وأخيراً شاور وأسند الدين شيركوه وصلاح الدين الأيوبي في عهد العاضد آخر خلفاء الدولة الفاطمية. (٣)

ولم يكن هؤلاء الوزراء بأمّن من للفساد، بل عملوا على استغلال مناصبهم في جمع أكبر قدر من الأموال، فكثرت فسادهم وظلمهم

(١) ابن الصوري : المصدر السابق، ص ٩٨، ٩٩؛ ناريمان عبد الكريم : معاملة غير المسلمين، ص ١٢١.

(٢) ابن ميسر : أخبار مصر، ص ٧٨ - ٧٩ عبد المنعم ماجد : نظم الفاطميين ورسومهم، ج ١، ص ٩٩، ١٠٠.

(٣) ابن طاهر : أخبار الدول، ص ١١١؛ ابن ميسر : المصدر السابق، ص ٣٥، ٨٩، ٩٢؛ القلقشندي : صيغ الأعيان، ج ٣، ص ٣٨٢ - ٣٨٣؛ المقرئزي : للخطوط، ج ٢، ص ٣٠؛ تعاضد الخلفاء، ج ١، ص ١٧٨؛ علي حسني القزويني : مصر العربية الإسلامية، ص ١٦٦ - ١٦٧.

للرعية، ففي عهد الأمر بأحكام الله الفاطمي اعتمد على رجلين من رجال الدواوين وذلك بعد تخلصه من وزيره المأمون البطائحي^(١)، كان أحدهما مسلم وهو أبو جعفر ابن عبد العنعم، والأخر سامري يقال له : أبو يعقوب وقد توليا استخراج ما يجب من زكاة وضرائب، وأقام معهما متصوف يعرف بأبي نجاح الزاهب، الذي تحكّم في الناس وظالمب النصاري بالأموال^(٢) وقد أعجب الأمر بأحكام الله بهذا حيث لقي هوى عنده، فلقبه بالأب القديس الروحاني، النفسى أبي الآباء سيد الرؤساء مقدم أمير النصرانية وسيد البطركية.^(٣)

كما وزر في عصر الحافظ لدين الله، الوزير بهرام الأرمني الذي استغل منصبه وأخذ في توزيع للولايات والوظائف على أهله وبني جنسه ولاسيما فوص النبي ولاها لأخيه الذي لم يقل فسادا عنه، كذلك عمل بهرام على استباحة أموال الناس وبالغ في إبدائهم^(٤)، وقد كثرت الرشوة والفساد في عهده حتى اشتهر ببيع الولايات والمزايدة على الدواوين، ففي عهده استطاع أحد النصاري عرف بالأخزم التوصل إلى نيوان النظر في للمظالم نظير بذل يومي قدره ألف دينار موى المون والغرامات الأخرى.^(٥) كذلك كان بهرام النصراني يصعد المنبر ينظر في مسائل

(١) ابن ميسر : المصدر السابق، ص ١٠٣، ١٠٧ ابن الصيرفي : الإلهام، ص ١٠٣ ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٤، ص ٢٦٥؛ المقريزي : تعاليف الحنفاء، ج ٣، ص ١٢٢.

(٢) ابن ظافر : المصدر السابق، ص ٨٨، ١٨٩ ابن الطوير : نزهة المقلتين، ص ٢٠ - ٢٣ ابن ميسر : المصدر السابق، ص ١٠٧ - ١٠٩ للتويري : نهاية الأرب، ج ٢٨، ص ٢٩٢ المقريزي : تعاليف الحنفاء، ج ٣، ص ١٢٥، ١٢٧ القلقشندي : صبح الأعشى، ج ٣، ص ٣٦٩ - ٣٧٠.

(٣) التويري : نهاية الأرب، ج ٢٨، ص ١٨٧ المقريزي : تعاليف الحنفاء ج ٣، ص ١١٧.

(٤) المقريزي : تعاليف الحنفاء، ج ٣، ص ١١٥ ابن ظافر : المصدر السابق، ص ٨٩ - ٩٠.

(٥) المقريزي : تعاليف الحنفاء، ج ٣، ص ١١٧ ابن ظافر : أخبار الدول، ص ١١١.

المناصب الدينية هذا الأمر الذي أثار حفيظة المسلمين، وتنافى مع شروط الوزارة. (١)

كذلك فعل الوزير طلائع بن رزيق، الذي اشتهر بحبه الشديد للمال، فجمعه من شتى السبل حتى إنه كان يبيع الولايات لمن يزايد عليها، كما جعل مدة للولاية ستة أشهر فقط حتى لا تقوى شوكة الولاة ويتنازعون في منصب الوزارة، وكان لكل ولاية سعرًا محددًا (٢) حسب أهميتها للدولة. هذا الأمر الذي جعل الولاة يتنازعون من أجل الولاية، كذلك عملوا على جمع أكبر قدر من المال مهما كانت طرقه غير المشروعة وذلك لقصر مدة ولايتهم فاتبعوا ما اتبعه رؤسائهم في جمع المال، فزادت الرشوة وكثر الفساد وأرهمق الشعب المصري. (٣)

إذاً فقط انتشرت الوساطة والمحسوبية بين الوزراء وموظفيهم، للذين تنوعوا حسب ميولهم وأهوائهم الشخصية، وتعدى الأمر ذلك بكثير حيث وجدنا أن الوزارة نفسها أصبحت ثورة لأبناء الوزراء، مثلما حدث مع أسرة بدر الجمالي وكذلك أسرة آل رزيق. ويؤكد لنا د/ عبد المنعم ماجد هذا القول عندما نكر أن موظفي الإدارة لم يكونوا يخضعون لما يعرف بالمنعم للوظيفي، بل كان الأمر هنا معصومًا على رضا الخليفة أو الوزير، وكذلك كان يتم اختيار الموظف نفسه حسب أهواء الوزراء وهذا سواء كان في عهد وزراء التنفيذ، أو عهد وزراء التقويض. كما كان في الغالب الابن يتولى شغل وظيفة أبيه. (٤)

(١) للماوردي : الأحكام السلطانية، ص ١٢٦، ابن ظافر : المصدر السابق، ص ٩١، المقرئ : للمقري، تحقيق : محمد السبعلاوي، ج ٢، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ١٩٩١، ص ٥١٤.

(٢) ابن ظافر : المصدر السابق، ص ١١١، المقرئ : للخطيب، ج ١، ص ١١١؛ المقرئ : اتعاط الحنفا، ج ٣، ص ٢٢٢ - ٢٢٤؛ ابن خلكان : وفيات الأعيان، ج ٢، ص ١١٠، النويري : نهاية الأرب، ج ٢٨، ص ١٣٢٥ ابن تغري بردي : النجوم، ج ٥، ص ٣٣٦.

(٣) المقرئ : اتعاط الحنفا، ج ٣، ص ٢٢٢؛ أحمد عبد الرازق : النيل وانيرطنة، ص ١٧، فلانوي : الوزارة، ص ١٥٦.

(٤) عبد المنعم ماجد : نظم القاطميين ورسومهم، ج ١، ص ١٠١ - ١٠٢.

ومن اللافت للنظر أيضًا أن للكثير من وزراء الفاطميين سواء الذي منحوا لقب الوزارة أو لقب الوصاية كانوا من النصارى، مثل عيسى بن بطورس وزير العزيز، وكذلك زُرْعَة بن بطورس النشافي، ومختور بن عبيدون الكافي في أيام الحاكم بأمر الله، وبهرام الأرميني الذي تولى وزارة التفويض للخليفة الحافظ على الرغم من بقاءه على نصرانية، وعلى الرغم من تلقيه بقب سيف الإسلام^(١)، أو كانوا من اليهود الذين حرصوا على أن يتحولوا للإسلام من أجل شغل وظائف الدولة المهمة، مثل ابن كلس وأبي سعد التستري، وصدقة بن يوسف الفلاحى.^(٢)

كذلك نلاحظ أن وزارة التفويض لم تبدأ ببدر الجمالي، ولكننا نرى بعض الوزراء يقومون بهذا الدور قبل بدر الجمالي، مثل ابن عمار الذي استأثر بالحل والعقد في الدولة، وأبي للقاسم الجرجرائي في عهد للأظهار لإعزاز دين الله، وكذلك التستري في عهد المستنصر. وإن لم تكن بشكل مطلق ولكنها تعدت وزارة التفويض.^(٣)

قاضي القضاة :

كانت مصر قبل العصر الفاطمي مركز قضاء إقليمي تابعًا للخلافة المشرقية الأموية أو العباسية، ولكنها غدت منذ قيام الخلافة الفاطمية بها مركزًا مستقلًا بذاته تتبعه أقاليم الدولة الفاطمية.^(٤) وقد عمل الفاطميون على إقامة سلطة قضائية مستقلة لدولتهم الجديدة، ومن ثم فقد

(١) ابن الطوير : نزهة المقلتين، ص ٤٤٤، ابن ميسر : أخبار مصر، ص ١٦٦٢، ابن الصيرفي : الإشارة، ص ٥٩، ٦٤، النويري : نهضة الأرب، ج ٢٨، ص ٣٠١.

(٢) أرين فولد سيد : الدولة الفاطمية في مصر، ص ٣٢٦.

(٣) القاضي النعمان : المجتاهد والمساورات، ص ٤٠، ابن الصيرفي : المعنى تسليق، ص ٥٦، ٦٥، ٦٨.

هكذا كانت سياسة الفاطميين في اختيار الرجال الذين يحققون لهم ما أرادوا من سياسة مالية بغض النظر عما ورد في كتب الدعوة بحم المحاربة وعدم الضرر بالناس. أو ما يتخالف مع عقيدتهم، مما أدى إلى تأثر النظام الإداري ولاسيما أغلب وزراء العصر الفاطمي على الخصوص كانوا أهل نمة.

(٤) محمد عبد الله عنان : الحاكم بأمر الله، ص ٣٣٨.

بدأ عهد جديد في تاريخ القضاء المصري، أصبحت فيه السلطة القضائية مثل غيرها من السلطات ملكاً للشيعة، الذين عملوا على إحلال التشريع الشيعي محل السني الذي كان أساس الحكم منذ الفتح الإسلامي. (١)

وقد كانت وظيفة القاضي من الوظائف الدينية، وهي كالوظائف الإدارية، وتعد ضمن وظائف أرباب الأقاليم، ويتشتمل على نظم القضاء والدعوى، وهما الدعامتان المميزتان للدولة الفاطمية في مصر. (٢) وكان قاضي القضاة هو أعظم زعيم ديني في الدولة، وإليه مرجع الأحكام الشرعية في العبادات والمعاملات والحدود، أي في الشؤون الدينية والمدنية والجنائية، كذلك النظر في شؤون السكة (نور الضرب)، وكان اختصاصه يشمل مصر والشام والحرمين، وكان مركزه في القاهرة المعزية. (٣)

وكانت السلطة القضائية واحدة من السلطات الثلاثة التي تشتمل عليها النظام الفاطمي في مصر، ونظرًا لأن قيام الدولة الفاطمية كان يرتكز على نشر مذهبها الشيعي والدعاية له، فقد عمد الفاطميون على التحول في القضاء المصري من المذهب السني إلى المذهب الشيعي الإسماعيلي الذي ساد في مصر قبل مجيئهم، وقد تم هذا الأمر بطريقة تدريجية، حيث كان أبا الطاهر محمد بن عبد الله بن صالح بن أسامة الدخلي هو قاضي المصريين السنيين قبل دخول الفاطميين مصر، وعنما دخل جوهر الصقلي مصر أقره في منصبه منقلاً لخطب المصريين السنة. (٤)

(١) لميوطي : حسن المحاضرة، ج ٢، ص ١٠١؛ محمد عبد الله عنان : المرجع السابق، ص ١٣٨؛ عبد المنعم ماجد : نظم الفاطميين ورسومهم، ج ١، ص ١٣٤، ١٣٥؛ علي حسني للخربوطلي : مصر العربية الإسلامية، ص ٢١٥.

(٢) عبد المنعم ماجد : نظم الفاطميين ورسومهم، ج ١، ص ١٣٥.

(٣) للفتندي : صبح الأعشى، ج ٣، ص ٤٨٢؛ المقريزي : الخطط، ج ١، ص ٤١٣؛ محمد عبد الله عنان : الحاكم بأمر الله، ص ٣٢٧.

(٤) ابن ميسر : أخبار مصر، ص ٤٢؛ للكندي : الولاة وكتاب القضاة، ص ٥٨٧، ٥٨٨؛ لميوطي : حسن المحاضرة، ج ٢، ص ١٤٧؛ علي إبراهيم حسن : تاريخ جوهر الصقلي، ص ٧٠ - ٧١.

وبوصول المعز لدين الله الفاطمي مصر، بدأت تلك الخطوة، عندما ألزم أبا الطاهر الذهلي بإصدار أحكامه وفقاً للمذهب الشيعي وليس المتسي، وحرصاً منه على تنفيذ ذلك فقد أشرك معه أبا سعيد بن ثوبان الخريبي ٣٦٢هـ / ٩٧٢م وأسند إليه النظر في المظالم^(١) بجانب القضاء، وما لبث أن تطور الأمر وقويت شوكة أبي سعيد حتى أصبح ينظر في القضايا المشتركة بين المصريين والمغاربة (السنين والشيعة)، ثم أصبح ينظر في قضايا المذنبين أيضاً حتى أطلق عليه قاضي مصر والإسكندرية.^(٢)

(١) النظر في المظالم : هي سلطة قضائية أعلى من سلطة القاضي والمحتسب، تشبه إلى حد ما محكمة الاستئناف في وقتنا الحالي، والغرض منها الاستماع إلى خلاصات الناس من للقضاء لرفع الظلم عنهم، ويشترط فيمن يتولاها أن يكون عظيم الهيبة، قليل الطمع، قليل اللورع، جليل القدر، ذا سطوة. وكانت جلسات النظر في القضاء تتم بحضور الخليفة نفسه أو من ينوب عنه من الوزراء والقضاء، وعرف المصري للنظر في المظالم وهي عهد الفاطميين، وكان جوهر الصقلي يقوم بهذا الدور بنفسه، وكذلك للخلفاء في بعض الأحيان، وأحياناً كان يلحق بأعمال القاضي نفسه ثم أصبح من اختصاص الوزير في العصر الفاطمي الثاني. وكان عبد الله بن أبي ثوبان القاضي المغربي أول من نظر في المظالم زمن الفاطميين في مصر، كما تولاها يعقوب بن كلثوم وصلوح بن الحسين.

راجع : ابن ميسر : المصنوع السابق ، ص٤٤٤ للماوردي : الأحكام السلطانية، ص٨٦ الكندي : المصنوع السابق، ص٥٨٧ المقرئزي : اتعاظ الحنفاء، ج١، ص٨٥، الفلقنبلدي : صبح الأعشى، ج٣، ص٢٧٧؛ عبد الرحمن إبراهيم عبد العزيز الحميني : القضاء ونظامه في الكتاب والسنة، المملكة العربية السعودية، جامعة أم القرى، معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي، مكة المكرمة، ص٥٨٨ عبد لعنعم منجد : المرجع السابق، ص١٥٦.

(٢) ابن ميسر : أخبار مصر، ص٤٤٤ الكندي : للولاء وكتاب القضاء، ص٥٨٥، ص٥٨٧ ابن ظفر : أخبار الدول، ص٢٨، ٢٩؛ السيوطي : حمن المحاضرة، ج٢، ص٤٤٧؛ ابن خلكان : وفيات الأعيان، ج١، ص٨٥؛ المقرئزي : اتعاظ الحنفاء، ج١، ص٢٢٣؛ ابن حجر العسقلاني : رفع الإصر عن قضاء مصر، ج١، ص٥٧.

وفي عام ٣٦٣هـ / ٩٧٣م قام المعز لدين الله بتعيين قاضي آخر للشيعنة وهو علي بن النعمان ابن حيون المغربي القيرواني الإسماعيلي، فقام أبا الطاهر في القضاء، فكان ابن النعمان يجلس للقضاء في جامع عمرو بن العاص (الخاص بالمسنين) وأبو الطاهر يجلس في الجامع الأزهر^(١)، وعلى الرغم من أن المعز لدين الله قد أزم أبا الطاهر بالحكم حسب التشريع الفاطمي فإن وجود مجسدين للحكم قد أدى إلى الكثير من مظاهر الفساد والاختلاف بين الخصوم، فأصبح كل منهما يعمل على إنفاذ خصومه أما في القاضي الذي يختاره حيث كان القاضيان في أغلب الأحيان ينطقان بأحكام مختلفة، وعندما يحتكم الأمر كان لزاماً على الخليفة المعز لدين الله أن يتدخل للحسم بين القاضيين، أما العزيز بالله فقد عمل على التخلص نهائياً من الطاهر، وفوض الحكم لعلي بن النعمان الذي انتسبته يده في القضاء وأخذ يحكم على هواه واستخلف أخاه في الحكم، كما عين الحسن بن خليل للشافعي، بعد أن شرط عليه أن يحكم بالمذهب الإسماعيلي وليس الشافعي.^(٢)

وقد عمل القاضي محمد بن النعمان، كما فعل أخوه علي، واستخلف ابنه عبد العزيز في القضاء، وانقطع عبد العزيز عن النزول إلى الجامع للنظر في القضايا، ونظر فيها في داره، ثم اتخذ لنفسه هالة وجلالة حتى كان الناس لا يخاطبونه إلا بسيدنا.^(٣) ثم تولى القضاء بعده الحسين بن النعمان الذي أضيف إليه النظر في المتالم، وكذلك أمر الدعوة وهو أول من كتب في سجله قاضي القضاء^(٤)، وقد اتسم الحسين

(١) الكندي : المصدر السابق، ص ٥٨٥؛ المقرئ : المصدر السابق، ص ٢٢٥

إبراهيم رزق الله أيوب : للتاريخ الفاطمي، ص ٢١٢ - ٢١٥.

(٢) ابن ميسر : المصدر السابق، ص ٤٤٤؛ الكندي : المصدر السابق، ص ٥٨٧،

٥٨٨، ٥٨٩؛ السيوطي، المصدر السابق السابق، ص ٤٦٦؛ عبد المنعم ماجد :

نظم الفاطميين ورسومهم، ج ١، ص ١٥٠.

(٣) الكندي : المصدر السابق، ص ٥٩٤.

(٤) ابن حجر : رفع الإصر، ج ١، ص ٢٠٨؛ الكندي : الولاية، ص ٥٩٧.

بن النعمان بشدة وظلمه، فيذكر الكندي أن الحسن المغربي قد تقدم إليه مرة في خصومه، فزل لسانه بشيء خاطب به القاضي فأغضبه، فأرسل إليه والي الشرطة فضربه ألف درة وثمانمائة درة بحضور صاحب القاضي وطيف به قنات في يومه، فغضب الناس منه وأكثروا الدعاء عليه وندم القاضي على ما فعل وفاته الندم. (١)

كما تسم هذا القاضي بفساد ذمته وقبوله الرشوة، وتعرضه لمال الرعية، حيث امتدت يده لمال اليتامى، فقد تقدم أحد اليتامى برقعة إلى الحاكم بأمر الله يذكر فيها أن أباه قد توفي وترك له عشرين ألف دينار، وأنها مودعة في ديوان القاضي، وقد أخذ منها رزق أوقاف معروفة، غير أن القاضي حسين بن النعمان قد عرفه أن ماله قد نجز، فدعا به وأوقفه الحاكم على الرقعة، فقال كما قال لليتيم من أنه (أي اليتيم) قد استوفى ماله عن آخره، فأمر الحاكم بأمر الله بمرابطة ماله في ديوان القاضي، فتبين أن الرجل اليتيم قد وصله ماله أقل مما نه، فطلب القاضي الحفو والتوية بعد أن اعترف بذنبه، غير أن الحاكم بأمر الله قتله وأحرق جثته نظير قتلته. (٢) ولاسيما بعد أن زاد الحاكم بأمر الله في رزقه وإقطاعه واشترط عليه ألا يأخذ مال الرعية بالباطل. (٣)

ويبدو أن منصب القضاء شابه الفساد والمحسوبية والوساطة مثله كمثل المناصب الأخرى حيث أصبح إرثاً يتوارثه الأبناء عن الآباء ويوصي به كل قاضي لمن بعده، دون النظر لشروط الواجب توافرها في قاضي القضاء، مما أدى إلى فساد القضاء أنفسهم فبعد قتل الحسين بن النعمان تولى القضاء ابن عمه عبد العزيز محبت بن النعمان، الذي اتسم

(١) الكندي : الولاية وكتاب القضاء، ص ٥٩٧.

(٢) الكندي : المصدر السابق، ص ٦٠٠؛ ابن حجر : رفع الإصر، ج ١، ص ١٧٠٩ محمد عبد الله عازق : الحاكم بأمر الله، ص ١٠٩.

(٣) الكندي : المصدر السابق، ص ٥٩٧؛ ابن حجر : المصدر السابق، ص ٣٩؛ ابن طاهر : أخبار الدول، ص ٦٦؛ أحمد عبد الرزاق : البدل والبرطلة، ص ١٧.

بشدته وتصلبه^(١)، ثم أبو محمد القاسم بن عبد العزيز الذي وصفه الكندي بأنه لم يكن محموداً للسيرة.^(٢)

ثم جاءت أسرة الفارقي، لتأخذ نصيبها من القضاء والفساد كأسرة آل النعمان، فقد كان القاضي عبد الحاكم بن سعيد الفارقي، أخو مالك بن سعيد الذي ولي القضاء عوضاً عن قاسم بن عبد العزيز في ٤١٩هـ — / م، وأضيف إليه الأحياس^(٣)، وقد اشتدت يد الحاكم بن سعيد في الأحكام وكثرت الأموال وكثرت الرشوة في عهده، ففساد دخله في السنة زيادة عن عشرين ألف دينار^(٤) وقد عمل هذا القاضي على ظلم الناس وابتزاز أموالهم، ففي قضائه توفي رجل يقال له الزيلعي وترك مالا جزيلا ولم يخلف سوى بنت واحدة ورثت مال أبيها كنه طبقاً للمذهب الإسماعيلي، فطمع فيها الناس للزواج منها وكان الحاكم بن سعيد القاضي من الضامعين، وعندما رفضت الزواج منه، أتى بأربع شهود زور شهدوا بأنها سفينة، واحتوى على مالها، فهربت منه وشكت إلى السوزير أبي القاسم الجرجاني الذي تبين من صدقها وأمر بإحضار القاضي مهاناً كما أمر بحبس الشهود وإرجاع المال لمصاحبه.^(٥)

(١) الكندي : المصدر السابق، ص ٤٦٠-٤٦١ ابن حجر : رفع الإصر، ج ١، ص ٢٠٨، ٢٠٩.

(٢) الكندي : المصدر السابق، ص ٦١٣.

(٣) ابن حجر : المصدر السابق، ص ١٢٠-١٢١ ابن ظافر : المصدر السابق، ص ١٦٦ المقريزي : اتعاظ الحنفا، ج ١، ص ٢٧٥.

(٤) يعتبر بدل المال على طلب القضاء من المحظورات لأنها رشوة محرمة بصير البائل لها وللقابل لها مجروحين، قال رسول الله (ﷺ) : «عن الراشي والمرتشي والرايش - المتوسط بينهما -»، كذلك قال : «إن هدايا الأمراء من غلول». صدق رسول الله (ﷺ). كذلك لو من تقاد القضاء قبول هدية من خصم ولا من أحد من أهل عمله وإن لم يكن له خصم لأنه قد يستدعيه فومساً يلوه. راجع : الماوردي، الأحكام السلطانية، ص ٨٤.

(٥) الكندي : للولاء وكتاب القضاء، ص ٦١٣، ٦١٤؛ المقريزي : اتعاظ الحنفا، ج ٢، ص ٢٧٨، إبراهيم زرق الله : التاريخ الفاطمي، ص ٢٠٤.

ظل القضاء شيعيًا إسماعيليًا حتى عام ٤٠٥هـ / ١٠١٤م، عندما أقدم الخليفة الحاكم بأمر الله على تقليد القضاء إلى أبي العباس محمد بن أبي العوام السعدي، الفقيه الحنبلي، على الرغم من نشوء الحاكم المذهبي وعلى الرغم من أنه ليس على مذهب الفاضليين، وقد رأى الحاكم أنه لم يصلح للقضاء غيره لأنه عارف به ويأمل البلاد، غير أن الحاكم بأمر الله قد اشترط عليه أن يحكم بالمذهب الشيعي، كما جعل معه أربعة من القضاة الشيعيين الذين اختارهم الخليفة، وقد صدرت تلك الشروط في سجل تعيينه، واستمر ابن العوام في القضاء اثنتي عشرة سنة وسبعة أشهر، أضيف إليه النظر في المعيار، ودار الضرب، والمصلاة، والمواريث، والمساجد. (١) ثم أخذت أسرته تتوارث القضاء كغيرها من الأسر الشيعية السابقة.

يتضح مما سبق أن بعض الأسر السنية المذهبية قد أعراها حب الرئاسة إلى التحول للمذهب الشيعي، لتولي بعض المناصب الإدارية الكبرى كالقضاء الذي كان صاحبه يقوم بتأليف كتب في الفقه الشيعي، كذلك يتضح أيضًا إمكانية وجود غير قاضٍ في العصر الفاطمي الأول ولكن مع مراعاة وجودهم في مجلس واحد، ليكونوا نوابًا له.

وقد استمرت سلسلة فساد القضاة ولاسيما عندما دخلت البلاد فيما عرف بالشدّة العظمى زمن الخليفة المستنصر بالله الفاطمي، فكان القضاة يتغيرون كل يوم مما ترتب عليه فساد الذمم وضياح هيبة العدالة، حتى إنه في خلال سبعة عشر يومًا ومنذ وفاة الوزير اليازوري - الذي جمع بين القضاء والوزارة - أبعث أربعة وخمسين وزيرًا واثني وأربعين قاضيًا. (٢)

(١) الكندي : المصدر السابق، ص ٦٦٠ ابن حجر : رفع الإصر، ج ١، ص ١٠٠ - ١٠٣ ابن ظافر : أخبار الدول، ص ٦١ الميوطي : حسن المحاضرة، ج ٢، ص ١٤٨ إبراهيم زرق الله أيوب : المرجع السابق، ص ٢٠٢.

(٢) ابن ميسر : تاريخ مصر، ص ٣١ - ١٣٣ عبد المنعم ماجد : نظم الفاطميين ورموزهم، ج ١، ص ١٥٤ حسن إبراهيم حسن : الفاطميون في مصر وأعمالهم السياسية والدنيوية بوجه خاص، للقاهرة، المطبعة الأميرية، ١٩٣٢، ص ٢٩١ أيمن فؤاد سيد : الدولة الفاطمية، ص ٣٦٤.

إلى أن وصل بدر الجمالي ٤٦٦هـ / ١٠٧٣م، فطراً تغير كبير على منصب قاضي القضاة.

كما كان قاضي القضاة يعين بسجل صدر من الخليفة نفسه بلقب فيه بقاضي القضاة، وما أضيف إلى تلك من أعمال أخرى، غير أن لقب قاضي القضاة في العصر الفاطمي الثاني - عصر الوزراء - وما اتبعه أصبح ضمن ألقاب الوزير الذي سيطر على مصر في ذلك الوقت، وأصبح القاضي نائباً عنه، واقتصر لقبه على "القاضي" فقط، كما أصبح القاضي يعين بسجل يصدر من الوزير على الرغم من أن كتاب التولية كان يخرج من ديوان الإنشاء باسم الخليفة^(١) كما سيطر الوزير على منصب داعي الدعاة فأصبح يجمع بين المناصب الدينية والقضائية في مصر^(٢) وهذا لا يملح أن كثيراً من وزراء العصر الفاطمي الأول قد تولوا منصب قاضي القضاة وداعي الدعاة بالإضافة إلى المناصب الإدارية الأخرى قبل بدر الجمالي ...^(٣) وكان بدر الجمالي بلقب أمير الجيوش بقاضي قضاة المسلمين، هادي دعاة المؤمنين^(٤).

(١) المقرئ الخليل، ج ١، ص ٤٠٣؛ القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٣، ص ٤٨٦، ٤٨٧؛ محمد عبد الله عنان: الحاكم بأمر الله، ص ٣٢٧؛ عبد المنعم ماجد: المرجع السابق، ص ١٤٢.

(٢) جمال الدين الشيال: مجموعة الوثائق الفاطمية، ص ٢٩، ٣٠؛ أحمد مختار العبادي: في التاريخ لعباسي ولفاطمي، ص ٣٠٤؛ عبد المنعم سلطان: المجتمع المصري، ص ٣٨.

(٣) من أمثله: الوزير البازوري في خلافة المستنصر بالله الفاطمي، والوزير عبد الكريم بن عبد الحاكم بن سعيد الفارقي ٤١٩هـ - ٤٢٧هـ، الوزير أبو علي أحمد بن عبد الحاكم بن سعيد الفارقي، ابن أبي كتيبة.

راجع: ابن الصيرفي: الإشارة، ص ٧٣، ١٨٦، ١٨٩؛ ابن حجر: رفع الإصر، ج ١، ص ٧٨ - ٧٩، ٨٤؛ ابن ميسر: للمصدر السابق، ص ٣٠ - ٣١؛ للكندي: الولاة وكتاب القضاة، ص ٦٤.

(٤) ابن الصيرفي: الإشارة، ص ٩٦؛ ابن حجر: رفع الإصر، ج ١، ص ١٣٢؛ التويري: نهاية الأرب، ج ٢٦، ص ٧٠؛ المقرئ: الخليل، ج ١، ص ٤٠٣.

لم يخلُ العصر الفاطمي الثاني من مظاهر الفساد التي انتشرت وسط القضاة، فقد أمر بدر الجمالي بقتل مجلي بن أسد المعروف بأبن أبي كدينة^(١) الذي تردد في القضاء أربع عشرة مرة، وفي الوزارة خمس مرات^(٢)، وكان ابن أبي كدينة قاسي القلب جباراً سيئ الخلق، فقد دخل عليه السياف وضربه بسيف كليل إحدى عشرة ضربة حتى باتت رأسه ضربات بعدد ولايته القضاء والوزارة.^(٣)

وقد ظل القاضي في العصر الفاطمي الأول يحكم بالمشهد الشيعي الإسماعيلي - وذلك حرصاً من الخلفاء الفاطميين في السيطرة على القضاء المصري لأن الخليفة كان مصدر التشريع الأوحد عند الشيعيين - . ولكن في العصر الفاطمي الثاني لم تستطع الدولة الحفاظ على هذا الأمر، فقد تغير مذهب القضاء بتغير وتعدد الوزراء ومذاهبهم وميولهم، حيث كان الوزير هو صاحب الأمر والنهي في تلك المرحلة دون سيطرة من الخليفة الذي أصبح لا يملك من المنصب سوى الاسم فقط، فعندما تولى الوزارة أبو علي الأفضل كتيفات، سجن الخليفة الحافظ لدين الله، ودعا للإمام المنتظر ٥٢٦هـ / ١١٣٢م، وربت في الحكم أربعة قضاة، بأربعة مذاهب مختلفة، فكان قاضي للشافعية، وقاضي للمالكية، وقاضي للإسماعيلية، وآخر للإمامية، ويحكم كل قاضي بمذهبه ويؤثر بمقتضاه، وقد علق ابن ميسر على ذلك بأنه لم يسمع بهذا قط فيما سلف.^(٤)

(١) توجد في ابن ظافر بن أبي كدينة. ابن ظافر : أخبار الدول، ص ٨٠.
 (٢) ابن ميسر : أخبار مصر، ص ٢٧ - ٢٨؛ ابن حجر : رفع الإصر، ج ١، ص ١٩٨، ١٩٩.
 (٣) يذكر ابن ميسر أنه ولي الوزارة سبع مرات وضرب سبع ضربات، ويذكر ابن ظافر أنه ضرب عشر ضربات بعد ولايته للقضاء والوزارة. ابن ميسر : تاريخ مصر، ص ٤٠ - ٤١؛ ابن ظافر : أخبار الدول، ص ٨٠، ونظير أيضاً : المقرئزي : تعاضل الحنفاء، ج ٢، ص ٣١٣؛ ابن حجر : للمصدر السابق، ص ٢٠١.

(٤) ابن ميسر : المصدر السابق، ص ١١٤؛ النويري : نهاية الأرب، ج ٢٦، ص ٨٧ - ٨٨؛ المقرئزي : تعاضل الحنفاء، ج ٣، ص ١٤٢؛ المقرئزي : الخطط، ج ٢،

وكانت مصر من الفساد وسوء الأحوال عندما كان يحكم في قضائها قاضيان بمذهب واحد، فما بال الحكم بين أهلها عن طريق أربعة من القضاة بمذاهب مختلفة. وأموا من هذا وذلك أن يولي الوزارة في عهد الحافظ لدين الله وزير نصراني على الرغم من عدم إجازة ذلك الأمر من قبل فقهاء الإسلام^(١)، إلا أن بهرام الأرمني قد تولى وزارة التفويض وخلعت عليه خلع الوزارة، ونعت بسيف الإسلام ونجاح الخلافة، وقد أنكر اناس ولايته لكونه نصرانياً، ولكن شرط الوزارة أن يرقى الوزير المنير مع الإمام، وعلى الرغم من أن القاضي حل محله في هذا الأمر فإن بهرام قد ساء العميرة في الناس وفضل انصارى الذين تطاولوا على المسلمين فأثار ذلك من سخطهم وعضيهم.^(٢)

وفي عام ٥٤٤هـ / ١١٤٩م، تولى القاضي مجلي بن جميع الشافعي قاضياً للقضاة بالديار المصرية^(٣)، كما تولى عبد الملك بن نرباس الشافعي ٥٦٦هـ / ١١٦٧م، في وزارة صلاح الدين الأيوبي، وكان هذا الأمر بداية لزوال المذهب الإسماعيلي من مصر، مع زوال الدولة الفاطمية^(٤) وعودة المذهب السني مرة أخرى.

ت

ص٣٤٣؛ ابن حجر : رفع الإصر، ج١، ص٢٤٧؛ السيوطي : حسن المحاضرة، ج٢، ص١٦٥ ح عطية مصطفى مشرفة : نظم الحكم بمصر في عصر الفاطميين، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٤٨، ص٢٣٢.

(١) الماوردي : الأحكام للمنطانية، ص٢٧؛ الكندي : السيادة وكتاب اقتضاة، ص١٧٣.

(٢) ابن ميسر : المصدر السابق، ص٢٨ - ٢٩؛ عبد المنعم ماجد : نظم الفاطميين ورسومهم، ج١، ص٩٩.

(٣) الذهبي : إتمس للدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قليماز [ت ٧٤٨هـ / ١٣٤٧م. "المعبر في خير من عبر"، ج٣، تحقيق صلاح الدين المنجد وفؤاد سيده، الكويت، سلسلة التراث العربي، ١٩٦٠ - ١٩٦٥، ص١٣٠؛ ابن حجر : رفع الإصر، ج١، ص٣٦٧ - ٣٧٠؛ السيوطي : حسن المحاضرة، ج٢، ص٥٠.

(٤) ابن واصل : مفرج الكروب، ج١، ص١٩٨.

وعلى الرغم من أهمية قاضي القضاة في الدولة الفاطمية والذي يعد ميزاناً لصلاحها أو فسادها وعلى الرغم من ضرورة تميز القضاة بالنزاهة، هذا الأمر الذي كان يراقبه الخليفة بنفسه في العصر الفاطمي الأول^(١)، فإن كان هناك العديد من مظاهر الفساد والمظلم والرشوة والوساطة والمحسوبية التي التابت بعض القضاة في هذا العصر، وأصبح منصب القضاة كغيره من المناصب التي أصبحت إرثاً وحكراً على بعض الأسر^(٢) دون غيرها. وقد أدى فساد قاضي القضاة إلى فساد جميع الأحوال في مصر، ولاسيما أن القاضي كانت تضم إليه بجانب وظيفته للعديد من الوظائف الأخرى. كصاحب المظالم والمحتسب، وصاحب الشرط، وداعي الدعاة وأحياناً قضاء العسكر، وقد تحول الأمر من القاضي إلى الوزير الذي جمع بين العديد من تلك الأعمال سواء في العصر الفاطمي الأول أو العصر الفاطمي الثاني الذي سيطر فيه للوزير على كل شيء حتى سلطات الخليفة نفسه فزاد فساد الدولة مع فساد وزرائها.

وعلى أيرز مظاهر الفساد الذي ميز الدولة الفاطمية هو إكاثها للعديد من الأعمال الإدارية إلى فرد واحد وأو إلى من تنق به، هذا الأمر الذي جعله لا يستطيع تلبية ما عليه من واجبات تجاه تلك الوظائف، كذلك أتاحت له الفرصة في إظهار ميطرته ونفوذه وفساده طيلة العصر الفاطمي أوله وثانيه.

وعلى ما يبدو أن تلك السياسة كانت سياسة الفاطميين منذ وجودهم في مصر، ويظهر هذا جلياً في نظام للضمان ونظام جمع الضرائب الذي تتبعته الدولة مع المصريين.^(٣)

(١) عبد المنعم ماجد : نظم الفاطميين، ج ١، ص ١٤٢، ١٥٣.

(٢) ملحق رقم (٢).

(٣) راجع : لفصل الاقتصادي ... الضرائب غير الشرعية.

صاحب الشرطة^(١) والمحاسب :

كانت وظيفة "صاحب الشرطة" و"المحاسب" في الدولة الفاطمية في مصر، تدخل ضمن وظائف قاضي القضاة، مثلما ضم إليه من قبل وظيفة "إعني الدعاة" و"صاحب المضام"، بالرغم من أن وظيفة صاحب الشرطة والحسبة من الوظائف غير القضائية في الدولة الفاطمية، وعلى الرغم من الاختلاف الواضح بين عمل كل من صاحب الشرطة والمحاسب، فإنه في الغالب الأعم كان يتم الجمع بين الوظيفتين لشخص واحد. ^(٢) ويؤكد القلقشندي أنه رأى في بعض سجلات الفاطميين إضافة الحسبة بمصر والقاهرة إلى صاحب الشرطة. ^(٣)

كذلك كانت انشورطتين العليا - في القاهرة - والسفلى - في القسطنطينية - بجمعان لشخص واحد في العصر الفاطمي الأول، مضافا إليهما الحسبة، وقد ظهر هذا منذ بداية الدولة الفاطمية، حيث عهد المعز ليعقوب بن كلس أمر الحسبة وانشورطتين ^(٤) في سنة ٣٦٣هـ / ٩٧٤م. فيذكر المسبحي أنه في عام ٤٦٥هـ / ١٠٦٤م ولي بدر الدولة ناقض

(١) ظهر لفظ صاحب الشرطة في العصر الفاطمي الأول بينما اختفى لفظ أوتقوب الوالي، فكان صاحب الشرطة يقوم بأعمال الوالي، ولكن في العصر الفاطمي الثاني اختفى لقب صاحب الشرطة وحل محله الوالي، فظهر ولاية الأقاليم الذين تناهوا فيما بينهم بنوع الوصول إلى منصب الوزير، لذلك فقد كان معظم وزراء العصر الفاطمي الثاني من ولاية الأقاليم. وكان الوالي في هذه الحالة يقوم بعسن صاحب الشرطة ويضاف إليه الحسبة بالإضافة إلى مهامه الإدارية. راجع : ابن ميسر : أخبار مصر، ص١٢٢، ١٢٤، ١٤٩؛ أمين فؤاد سيد : الدولة الفاطمية، ص٣٣٧ - ٣٣٩.

(٢) القلقشندي : صبح الأعشى، ج٣، ص٤٨٧؛ عبد المنعم ماجد : نظم الفاطميين وزمومهم، ج١، ص١٦١.

(٣) القلقشندي : المصدر السابق، ص٤٨٣.

(٤) ابن ميسر : المصدر السابق، ص١٦٣؛ ابن الصيرفي : الإنبارة، ص٤٩؛ المقرئزي : للخط، ج١، ص٨٧؛ ج٢، ص٥٥؛ المقرئزي : اتعاط الحنساء، ج٢، ص١٤٤، ١٤٥.

الخادم الأسود الشرطتين العليا والسفلى، وعندما تولى بقى الخادم الأسود الشرطتين في نفس العام نظراً في أمر الحسبة أيضاً. (١) كذلك كان الخادم عَينَ زمن الحاكم بأمر الله الشرطتين مضافاً إليهما الحسبة. (٢) لذلك كان صاحب الشرطة من كبار الموظفين الذين يتولون أحياناً منصب الوزارة. (٣)

وللحسبة هي وظيفة أصلها ديني تأتي في المرتبة الثانية بعد القضاء أي أنها تتوسط بين القضاء والمظالم. وهي أشبه بالخدمة الاجتماعية لأنها تتفق ومظاهر الحياة الداخلية للمدينة (٤)، وهي في معناها أمر بالمعروف إذا ظهر تركه ونهي عن المنكر إذا ظهر فعله وإصلاح بين الناس. (٥) لذلك كان من شروط اختيار المحتسب للعلم بالشريعة بالإضافة إلى الثقة والأمانة والعدول والصرامة والخشونة في الدين (٦) كان كان يخرج للمحتسب عند تعيينه سجل من ديوان الإتياء مثل القاضي، ويقرأ في جوامع القاهرة والفسطاط على أساس أن مسقطه مستندة من سلطة الخليفة. (٧)

(١) المسيحي : أخبار مصر، ج ٤، ص ٤٤٤ - ٤٧.

(٢) ابن تغري بدي : النجوم، ج ٤، ص ٢٢٣.

(٣) إبراهيم رزق الله أيوب : التاريخ الفاطمي، ص ٢٢٤.

(٤) ابن خلدون : المقدمة، ج ١، ص ٤٠٥؛ عبد المنعم ماجد : نظم الفاطميين ورسومهم، ج ١، ص ١٦٦؛ إبراهيم سلمان الكردي : عبد الثواب شرف السدين، المرجع في الحضارة العربية الإسلامية، دار الملائك، الكويت، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م، ص ٩٧.

(٥) ابن الأحرى : معالم الغربية في أحكام الحسين، مطبعة دار الفنون، كمبرديج، ١٩٢٧، ص ٧٧؛ الماوردي : الأحكام السلطانية، ص ٢٧؛ ابن تيمية : الحسبة في الإسلام، مطبعة المؤيد، ١٣١٨هـ، ص ٩ - ١٢؛ الشيزري : نهاية الرتبة في طب الحسبة، نشر السيد البلز للعارفين، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٣٦٥هـ / ١٩٤٦م، ص ٩.

(٦) ابن الطوير : فزعة العقنطين، ص ١١٦؛ الماوردي : المصدر السابق، ص ٢٧١ - ٢٧١.

(٧) ابن الطوير : المصدر السابق، ص ١١٧؛ عبد المنعم ماجد، المرجع السابق،

وكان المحاسب يملك سلطة تنفيذية كقاضي القضاة وكانت العقوبات التي يصدرها تسمى 'بالتعزير'^(١)، تختلف على حسب قسم الذنب، وتشمل الردع والجلد والتشهير والتوبيخ والنفي والضرب. وفسد كانت أعمال المحاسب تتضمن مراقبة الأسواق وأرباب الحرف والمعيش والطباخين، كما يقوم بمراقبة الأخلاق العامة ويمنع تعرض الشباب للنساء، أو اختلاء رجل بامرأة ليس لها محرم^(٢)، كذلك كان يشرف على نظافة الأسواق والطرفات والماء الذي يحمله السقاؤون، بالإضافة إلى مراقبة المكابيل والموازين وضبط عيارها منعاً للغش، كما كان يشرف على دار العيار، أي أنه كان يختص بكل ما يتعلق بالحياة المدنية.^(٣) أي أن عمله في الأساس هو عمل أخلاقي يشمل في ذاته النهي عن المنكرات^(٤)، لذلك فقد كان من حق المحاسب معاقبة المخطئ سواء كانت هذه العقوبة 'مادية' تشمل الغرامة أو المصادرة، أو الضرب، أو الحبس أحياناً، أو تكون العقوبة معنوية وهي تعني التشهير.^(٥) كما كان للمحاسب أعوان يعاونونه في عمله على رأسهم 'العريف'، الذي اشتهر بالتقوى والصلاح، والنفقة والأمانة يقف على كل صغيرة وكبيرة يختص بأمور الحسبة.^(٦)

ص ١٦٣.

- (١) ابن تيمية : المصدر السابق، ص ١٣٨ الشيزري : المصدر السابق، ص ١٠٨.
(٢) القفطندي : صبح الأضنى، ج ١، ص ٣٢٥.
(٣) المقرئزي : الخطط، ج ١، ص ٤٦٣، ٤٦٤.
(٤) الشيزري : المصدر السابق، ص ٦.
(٥) التشهير : يكون بوضع المخطئ على جمل ويعنى له جرس يده ويضرب في المدينة وهو يدق الجرس وينادي قتلاً : لقد كذبت وها أنا أعاهب، وكل من يقول الكذب فجزأه العقاب. وكان هذا لمن يكذب من التجار على مشتري. راجع : ناصر خسرو : سفرنامه، ص ٦١.
(٦) ابن الأخرى : معالم القرية في أحكام الحسبة، ص ٣٣٨، للشيزري : نهاية الرتبة، ص ١٣٦ المقرئزي : إهانة الأمة، ص ٥٣.

وعلى الرغم من المكانة الرفيعة التي كانت للعرفاء والتي أشارت إليها كتب الحسبة، فإن مظاهر الفساد في العصر الفاطمي قد امتدت بعضهم، فأصبحت من أصحاب الأزم الخربة، مما كان له عظيم الأثر في صرفهم عن للعرفة. ^(١) ويذكر المقرئزي : أن أحد العرفاء قد حنق على خباز كان يبيع الخبز بأسعار أقل مما يبيع به العريف، فأوكل العريف اثنين من المعاونين في الحسبة غرامة بعشرة نراهم ظلماً، فاستغاث الخباز بغاضي القضاة الذي أحضر المحتسب وأذكر عليه ما فعله العريف بالخباز ثم أحضر العريف الذي تسبب في الضرر وصرفه عن الغرامة بعد أن عوض الخباز نفوقاً. ^(٢)

كذلك أمر الحاكم بأمر الله بقتل ابن أبي نجدة متولي الحسبة الذي أساء معاملة الناس وتدخل فيما لا يعنيه من الشؤون فاعتقل وقطعت يده وأسانه وضربت عنقه. ^(٣)

لقد حرص الفاطميون على توجيه المناصب المهمة في الدولة كالقضاء والحسبة إلى الشيعة وحدهم ^(٤) وكانت هذه هي سياستهم المتبعة من قبل في بلاد المغرب ^(٥)، وقد حرصوا على تنفيذها في مصر، وذلك حرصاً منهم على تطبيق مبادئ المذهب الشيعي. لذلك فقد أصبح عمل المحتسب في الدولة الفاطمية ذات طابع خاص اختلف تماماً عن عمل أي محتسب آخر، فكان المحتسب في الدولة الفاطمية لا يحكم إلا وفق المذهب الشيعي حتى ولو كان سنياً، وذلك بحمل المبادئ الشيعية جزءاً من قواعد الحسبة، ويتجلى هذا في تطبيق الأوامر والمراسيم الشيعية في مختلف المجالات التي تقع تحت اختصاصه. ^(٦) والتي اشتملت على منع بعض

(١) المقرئزي : إعلنة الأمة، ص ١٩.

(٢) نفسه، ص ٥٣ - ٥٥.

(٣) محمد عبد الله عنان : للحاكم بأمر الله، ص ١٠٧.

(٤) المقرئزي : المعامل الحنفاء، ج ٢، ص ٢٧٨.

(٥) ابن عذارى : البيان للمغرب، ص ٢٢٠.

(٦) عبد المنعم ماجد : لظم الفاطميين ورسومهم، ج ١، ص ١٦٣ - ١٦٥، سهام

=

المأكولات المحببة لأعداء للدولة من وجهة نظرهم كالملوخيا، التي كان يحبها معاوية - رضي الله عنه - والجرجير المنسوب لإخاله في الطعام لعائشة رضي الله عنها^(١)، وازداد الأمر سوءاً عندما أمر لفاطميون ٣٩٥هـ / ١٠٠٤م بنن للصحابة وهم عائشة زوج الرسول (ﷺ)، وأبو بكر، وعمر، وعثمان، وطلحة، والزبير، والخليفة معاوية، وعمر بن العاص. وقد كان هذا السب يقرأ في الجوامع وعلى المقابر، ويكتب على الحيطان.^(٢) مما أدى إلى إصابة المصريين السنين بالأذى والضرر، كما ضيق على النساء.^(٣)

نرى هذا التحمس البالغ للمذهب قد بلغ أشده في عهد الخليفة الحاكم بأمر الله الفاطمي، الذي اعتنق العقيدة الشيعية المتطرفة - فقد أراد هذا الخليفة أن يخضع أمور الحياة للنص الحرفي للقرآن، والحديث الشيعي، فكانت المراسيم والأوامر التي تصدرت في عهده تتفق جميعها وقاعدة الحسبة، وهي التي حاول المؤرخون المنصريون السخرية منها، وكان لفرط تعصب الحاكم للدين، يقوم بنفسه بتنفيذ أوامر الحسبة ونواهيها لاعتماده بفرضها الواجب على القائميين بأمر المسلمين.^(٤)

وكان للحاكم بأمر الله عقوبات خاصة، خير تلك العقوبات التي يستخدمها المحتسب، فكان الحاكم بأمر الله يطوف في أسواق المدينة بصحبة رجل طويل أسود عريض، يقال له مسعود فإذا وجد أحدًا بخائف أوامر الحسبة ويغش في بضاعته، أمر ذلك العبد "مسعود" يفعل الفاحشة معه أمام العامة - اللواط - والحاكم بأمر الله واقفاً على رأسه، حتى إن

مصطفى أبو زيد : الحسبة في مصر الإسلامية من الفتح العربي حتى نهاية العصر المملوكي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٦، ص٧٣.

(١) المقريري : تعاطي الخلفاء، ص٣٩٧ ابن إياس : بدائع الزهور، ج ١، ص٥٢.

عبد المنعم ماجد : المرجع السلوق، ص٦٥.

(٢) المقريري : للخبط، ج ١، ص٤٣٢.

(٣) نفسه، ص٤٨٧.

(٤) عبد المنعم ماجد : نظم لفاطميون ورسومهم، ج ١، ص١٦٥.

العامّة قد اتخذوا من هذه الفعلة الشنعاء أمزوجة يسخر منها بعضهم على بعض فإذا سخر أحدهم من الآخر، يقول له : احضر يا سمود. (١) هكذا كان الحاكم بأمر الله يطبق أصول الشريعة بمخالفة الشريعة.

وعلى العكس كانت الحسبة تستخدم لتحقيق أغراض الدولة السياسية، فعلى الرغم من مذهبية الدولة وتعصبها لمذهب الشيعي، فإنها غالبًا ما تركت للمصريين حرية شرب الخمر، واللهو دون قيد حتى شاركهم الخلفاء في ذلك، هذا الأمر الذي ترتب عليه المبالغة في مظاهر الفساد والانغماس في المجون، غير أن هذا كان وسيلة من وسائل الخلفاء الفاطميين للتقرب من المصريين. فقد منع الظاهر لدين الله العديد من الحريات التي منعها الحاكم بأمر الله، كما سمح بشرب الخمر. (٢) هكذا كان حمس المحتسب يقوى ويضعف حسب تعصن الخلفاء أو تعصبهم للمذهب الشيعي، ويبدو أن هذا اقتصر على العصر الفاطمي الأول وأن حالة التشدد والتعصب كانت في عصر الحاكم بأمر الله. (٣)

-
- (١) ابن إيلس : بدائع الزهور، ج ١، ص ٥٢ - ٥٣.
(٢) المقرئزي : الخطط، ج ١، ص ٤٩٢، عن المنعم ماجد : المرجع السابق، ص ١٦٧، ١٦٨، سهام أبو زيد : قصبة في مصر، ص ٧٨.
(٣) سهام أبو زيد : المرجع السابق، ص ٨٦.

الفصل الرابع

مظاهر الفساد الاجتماعي في العصر الفاطمي

أولاً : التمايز الطبقي، وأثره في فساد المجتمع المصري في العصر الفاطمي :

- ١- المقالات في مظاهر البذخ والترفع.
 - أ- القصور الفخمة.
 - ب- ثروات الخلفاء.
 - ج- الأميرات، والأمراء.
 - د- للوزراء، وإحداث الخلل الاجتماعي.
 - هـ- الخدم، والجواري.
 - و- الأعياد، والاحتفالات، وما يصلحها من مظاهر البذخ، والترفع.

ثانياً : مظاهر الفساد الاجتماعي بين طوائف الجند، وأثره على المجتمع المصري:

- ١- الصراع بين المغاربة والأتراك.
- ٢- الصراع بين الأتراك والعبيد.
- ٣- صراع الأتراك فيما بينهم.
- ٤- ظهور الأرمن وأثرهم في فساد المجتمع.
- ٥- تجدد الصراع بين العبيد والأتراك.
- ٦- ظهور الأكراد والفرنجة.

ثالثاً : انتشار الأمراض الاجتماعية بين طبقات المجتمع

- ١- انتشار شرب الخمر.
- ٢- ثراء الدولة ونفسي الفاحشة والبيغاء.
- ٣- أعمال السرقة واللصوصية.

رابعاً : سياسة الدولة الدينية وأثرها في فساد العلاقة الاجتماعية بين المسلمين وأهل الذمة.

- ١- فساد العلاقة بين الشيعة والسنة.
- ٢- تمييز أهل الذمة وأثر ذلك في فساد المجتمع.

لقد أتى الإسلام بنظم اجتماعية ليبنى مجتمعاً متحرراً من عبودية
إلا الله وحده، ومن الخوف إلا لذاته سبحانه، وتعالى. ومن ثم تختلف البنية
الاجتماعية للمجتمع الإسلامي عن غيره من المجتمعات من حيث القيم،
والمفاهيم التي يقوم عليها هذا المجتمع.

وتتجلى عبقرية الإسلام في نظريته الاجتماعية التي نجحت في
مواجهة تلك النظم والأعراف والتقاليد المتوارثة، فتعدّل، وتغيّر إلى أن
تزيل نهايتها، ما لم يتوافق مع أنظمة الإسلام، ليرتفع نهائياً ما نزل به
الشرع الحنيف، ولتطهير مجتمع شبه الجزيرة العربية من الفساد الذي
استشرى بنيانه، وترسخ الدعائم الاجتماعية الجديدة جذور الأمة
الإسلامية.^(١)

والنظرية الاجتماعية الإسلامية تقوم على أسس ينظم العلاقة بين
الفرد، والدولة بما يكفل العدالة الاجتماعية، وبما يضمن صالح الفرد
وصالح الجماعة، وهي في تنظيم العلاقة تبدأ بالفرد بوصفه عضواً في
الأمة الإسلامية، فتحترم عقله، وتقدر الجوانب المادية والروحية له، ومن
ثم تضع للضمانات التي يتفق بها للبناء الاجتماعي للأمة الإسلامية.^(٢)
وسيحاول الباحث إلقاء الضوء على النواحي الاجتماعية لمصر
الإسلامية في عصر الدولة الفاطمية، وما طرأ عليها من فساد يخالف
النظرية الاجتماعية الإسلامية.

أولاً: التمايز الطبقي وأثره في فساد المجتمع المصري في العصر الفاطمي:

١- المظالم في مظالم البذخ والترفا:

ينكر ابن خلدون أن الدولة في بدايتها تكون بدوية، فيكون الرفق
بالرعايا، والقتل في النفقات، والتعفف عن الأموال، وللبعد عن
الإسراف، ثم يحصل الاستيلاء، ويعظم، ويستحل للملك، فيعظم الترف،

(١) فتحة عبد الفتاح النبراوي: تاريخ النظم والحضرة الإسلامية، ص ١٦٦.

(٢) ابن تيمية (تقي الدين بن تيمية): السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية،

وراجعه وعلق عليه: محمد عبد الله السمان، الرياض السعدية، للسعدية، ١٩٥٦م،

ص ١٢٢ فتحة النبراوي: المرجع السابق، ص ١٦٢.

ويكثر الإسراف في النفقات، ثم ينتشر ذلك في الرعية؛ لأن الناس على نين ملوكها، وعواندها، ثم يستفحل أمرها، وتقسو على رعاياها، وتستطيع سد حاجتها حتى ينقضي أمرها بسبب ترفها، وبذخها. (١)

وإن كان هذا هو حال الدولة في بدايتها - على حصد قول ابن خلدون - فإن مصر لم تشهد تلك الفترة الأولى من عمر الدولة الفاطمية. فقد ظهرت الدولة الفاطمية منذ بدايتها في مصر بألوان شتى من مظاهر البذخ والترف والمغالاة التي أخذت بعقول الجميع، والتي قل أن نجد لها في عصر من عصور مصر الإسلامية السابقة. (٢) ولعل الدولة الفاطمية قد عاشت تلك الفترة الأولى من حياتها في بلاد المغرب.

غير أن الدولة الفاطمية التي احتلت المنطقة في مصر باسم المعارضة الشعبية والتي تميزت في بدايتها - في بلاد المغرب - بالبساطة، والتقشف، كبديل للأبهة العباسية والتي مثلت الانحطاط حسب دعايتهم، (٣) وقد انغمسوا بسرعة في بذخ لا مثيل له داخل إمبراطوريتهم الواسعة، ولعل الانتقال من التقبض إلى النقبض بتلك الصورة الخائجة أدى إلى ظهور العديد من مظاهر الفساد المخنفة التي أثرت على المجتمع المصري باختلاف طبقاته (٤)؛ مما انعكس بأثره السلبي على السواد الأعظم للمجتمع المصري حيث عانى المجتمع معظمه من الفقر والبؤس وضيق الأحوال المعيشية؛ لسوء توزيع ثروات البلاد على السكان بشكل يضمن للجميع أن يحيا حياة كريمة، فصارت الطبقة العليا تتعم بكل المزايا، بينما حرمت الطبقات الدنيا من شتى النعم، والمزايا.

(١) ابن خلدون : المقدمة، ج ٢، ص ٣١١.

Lane - Poole Stanley : Saladin and the Fall of Kingdom of Jerusalem, London, 1983, pp. 88 - 89.

(٢) ابن ميسر : تاريخ مصر، ص ١٥٨ محمد عبد الله عثمان: الحاكم بأمر الله، ص

٣٤٩؛ محمد جمال الدين سرور: الدولة الفاطمية في مصر، ص ١٦١.

(٣) المقرئزي: الخطوط، ج ١، ص ٣١٤، ٣١٤؛ الخطوط الحفصاء، ج ١، ص ٣٩٩؛

نوريمان عبد الكريم: المرأة في مصر، ص ٣٥.

(٤) رمسيس بهنام: الجريمة والمجرم في الواقع الكوني، ص ٣٣٩.

Lane - Poole Stanley, op. cit., p. 90.

وإن كان هذا الترف، والبدخ في ضاهره مظهرًا من مظاهر القوة،
والفخامة والتقدير، والرهبة التي حرموا للفاطميون على أن يحيطوا
أنفسهم بها،^(١) فإنه قد اقتصر على الخليفة، وحاشيته والمقربين منهم،
دون بقية المجتمع المصري^(٢)، ولعل هذا وحده يُعد مظهرًا من مظاهر
الفساد التي ظهرت في مصر الفاطمية. فسرعان ما تغيرت الدولة
الفاطمية التي قامت في البدء - حسب ادعائها - من أجل إصلاح الأمور
الفاصلة في إدارة البلاد، وإرجاع الخلافة إلى أصحابها، والسير على هدي
الشريعة الإسلامية، والسنة النبوية الكريمة، فأعصت في تيار من البدخ،
والترف، وطلب الشهرة، والسجد بعد أن تكاثرت الأموال بين أيديهم.^(٣)

والأموال في مصر الفاطمية - كما في غيرها من العهود - كانت
تتجمع بين أيدي الحكام من الولاة، والخلفاء، وأهلبيهم، ومساعدتهم من
الوزراء، وسائر رجال الدولة - للطبقة الخاصة - فينفقون منه بسخاء،
في قلوب التي كان يتخبط فيه الشعب المصري - طبقة العامة -
بضائقات مالية، واقتصادية واجتماعية، كانت تصيب البلاد من وقت لآخر
؛ بسبب فساد الإدارة، وسوء توزيع الثروة وعدم درء الخطر قبل حدوثه؛
لذلك كان لابد من معرفة الجهات التي امتلكت الثروة في المجتمع
المصري في العصر الفاطمي، ووجوه إنفاقها.

وقد تعددت، وتباينت مظاهر المبالاة في الترف، والبدخ داخل
الدولة الفاطمية مما أهدت الحياة الاجتماعية بشكل كبير، ومن هذه
المظاهر:

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٢، ص ١٥٣؛ محمد عبد الله عنان: المرجع

السابق، ص ٣٤٩.

(٢) ابن خلكان: المصدر السابق، ص ١٥٣.

(٣) إبراهيم رزق الله أيوب: للتاريخ الفاطمي الاجتماعي، ط ١، المكتبة العالمية

للكتاب، لبنان، ص ١١٧.

أد القصور الفخمة:

لقد أنفق الفاطميون الأموال بسخاء على بناء القصور، والمناظر، والبساتين، فسقناتيات القصور من أثاث، وفرش وتحف كانت تنطق بثروة كبيرة جمعها الفاطميون، وأمر فوا فيها ببذخ...

أفاض المؤرخون، ولاسيما المقرئزي في ذكر قصور هؤلاء الخلفاء، ومنشأتهم في عاصمتهم الجديدة القاهرة التي اتخذوها مدينة ملكية لتكون مقرًا لسكانهم، وبناطهم،^(١) حيث لم يكن مسموحًا للعامّة بالإقامة فيها إقامة دائمة، فكان عليهم أن يغادروها قبل دخول الليل، أي يُصَلِّون العشاء الأخير فيها، ثم يتوجهون إلى منازلهم بمصر.^(٢) وفي القاهرة بُنيت للمباني الضخمة ولاسيما القصور المسمّاة بالقصور الزاهرة.^(٣) وإن أُطلق على مجموعها القصر.^(٤) وقد كثرت تلك القصور حتى عُرِفَت دولتهم بالدولة العلوية القصريّة.^(٥)

كانت هذه القصور اثني عشر قصرًا متصلاً بعضها ببعض، اتخذت شكل الجبل لكثرة ما فيها من الأبنية المرتفعة.^(٦) ومنها انقصر الشرقي الكبير الذي بناه جوهر الصقلي، والذي شغل خمس مساحة

(١) المقرئزي: الخطط، ج ١، ص ٢٦٤، تعاض الحنفا، ج ٢، ص ٢٩٩.

(٢) المقرئزي: الخطط، ج ٢، ص ٢٠.

Heyd, W. : Histoire du Commerce du Levant au Moyen - Age 2, Vols, Tarnel, Leipzig, 1925, p. 391.

(٣) المقرئزي: الخطط، ج ٢، ص ٢١٤؛ ناصر خسرو أبو معين الدين ناصر خسرو علويًا: سفرنامه، ترجمة: يحيى الخشاب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٣م، ص ٤٨.

(٤) المقرئزي: الخطط، ج ١، ص ٣٦٣؛ ناصر خسرو: المصدر السابق، ص ٤٨؛ لاريمان عبد الكريم: المرأة في مصر، ص ٣٤، ٣٥.

(٥) عبد المنعم ماجد: ظهور الخلافة الفاطمية، ص ٢٥٦.

(٦) عبد المنعم ماجد: ظهور الخلافة الفاطمية، ص ١٢٥٦، Heyd, W. op. cit.,

القاهرة - حيث بُني على سبعين فدناً - ^(١) وانقصر الصغير الغربي، أو البحري الذي بناه العزيز بالله، وأتمه المستنصر بالله. وقد اتصل القصر الشرقي بالقصر الغربي عن طريق عدد من الأبواب، والسراديب المقامة تحت الأرض، والذي كان الخلفاء ينقلون فيها للانتقال بين القصرين دون أن يراهم أحد.

بالإضافة إلى الكثير من القصور التي لا نقل أهمية عن هذين القصرين؛ منها القصر النافعي، وقصر الذهب، وقصر الإقبال، وقصر الظفر، وقصر الشجرة، وقصر الشوك - تسميه العامة قصر اشوق - ^(٢) وقصر الزمرده، وقصر النسيم، وقصر الحريم، والبحر. ^(٣)

فضلاً عن المناظر والدور ^(٤) السلطانية الجميلة التي استخدموها لإقامتهم أثناء خروجهم للنزهة أو الاحتفالات، وقد ظل الخلفاء الفاطميون، ووزرائهم، وحاشيتهم ينزلون في تلك للقصور حتى نهاية دولتهم. ^(٥)

بدثورات الخلفاء:

لقد تضخمت ثروات الفاطميين إلى حد جعل مؤرخي تلك الفترة يعدونهم من أغنى أعتياء العالم الإسلامي على الإطلاق، وقد تجلت مظاهر هذا الثراء فيما رواه المؤرخون من حياة الترف، والرفاهية التي كانت من أهم مميزات العصر الفاطمي. ^(٦) حتى إن بلاطهم في القاهرة قد

(١) المقريزي: الخطط، ج ٢، ص ٦٤، ٦٨. وقد سُمي أيضاً بالقصر الغربي.

(٢) نفسه.

(٣) نفسه، ص ٣٦٢، ٣٧٩؛ عيد المنعم ماجد: ظهور الخلافة الفاطمية، ص ٢٥٧.

(٤) مثل دار الضيافة، دار الوزارة، دار الوزارة القديمة، دار الدباج، دار المضرب،

منظره اللؤلؤ، وغيرها. للمزيد راجع: المقريزي: الخطط، ج ١، ص ٣٦٣؛

ناصر خسرو: سفرنامه، ص ١١٢.

(٥) المقريزي: المصدر السابق، ص ٦٣؛ محمد عبد الله عثمان: الحاكم بأمر الله،

ص ٣٤٧.

(٦) أمينة الشوربجي: رؤية لرحلته، ص ١٤٤٩؛ أيمن فؤاد سيد: دولة الفاطمية،

ص ١٤٠.

قد ناسف بلاط بغداد وزود بكل ما يحتاج إليه من قاعات واسعة وخزائن حوت بداخلها الكثير من الكنوز الثمينة^(١) التي جليت من جميع أنحاء الدنيا، ولم يقف هذا الغنى عند الخلفاء وحدهم، بل تعداهم إلى سائر أهلهم من رجال، ونساء على السواء كذلك إلى رجال دولتهم.^(٢)

على الرغم من أن المعز لدين الله لفاطمي لم يكن ميسرلاً لحياة الترف، وكان مثل سلفه يقيم في حجرة واحدة فرشت بالصوف، ويلزم الواحدة من النساء،^(٣) فإنه بعد أول من استن الفخامة، والأبهة في حياة الخلافة،^(٤) فبمجرد قدومه إلى قصره بالقاهرة، جلس على سرير من ذهب خالص، ونثر الدنانير بين الناس قائلاً: " هذا حسبي " بعد أن مل نصف سيفه، وقال: " هذا تسمي " فخشيته الجميع، وقالوا: " سمعنا وأطعنا ". واستقبل الناس، وبعد أن أكرمهم قال لهم: " هل بقي منكم أحد ؟ قالوا: لم يبق معتبر !، فصل [عند ذلك] نصف سيفه قائلاً: " هذا نسبي "، ونثر الدنانير، وقال: " هذا حسبي "، فقال له الجميع: " سمعنا وأطعنا ".^(٥)

لم يكن رد المعز المتوقع في تعريف حسبه ونسبه، ولا سيما بعد رحلة المعاناة، والتشرف التي عاشها هو، ومن سبقوه من الخلفاء لفاطميين لكي يصلوا إلى الخلافة التي أساسها - حسب قولهم - ديني، ولكن عبارات المعز على الرغم من إيجازها فقد حملت بين طياتها تسياسة

Heyd, W. : op. cit., p. 391.

(١) المقرئبي: المصدر السابق، ص ٢٥٣ ؛ عبد المنعم ماجد: قيام الدولة الفاطمية، ص ٢٠٨.

(٢) ابن ميسر : تاريخ مصر، ص ٥٨؛ عبد المنعم ماجد: قيام الدولة الفاطمية، ص ٢٠٨.

(٣) المقرئبي: الخطط، ج ١٢، ص ٢٦٤.

(٤) نفسه، ج ١، ص ٧٧ ؛ لغاظ الحنفا، ج ١، ص ١٣٧ ؛ ابن تغري بردي : لنجوم، ج ٤، ص ٣٣.

(٥) ابن عبد الظاهر: الروضة البهية، ص ١٤ ؛ ابن خلكن: وفيات الأعيان، ج ٣، ص ٨٢ ؛ ابن تغري بردي : المصدر السابق، ج ٤، ص ٧٧.

التي سار عليها الفاطميون منذ ظهورهم في مصر وحتى انتهاء دولتهم، والتي اعتمدت على قوتين: قوة السيف، وقوة المال. لذلك كان البذخ، والمغالاة فيه سمة أساسية أحاطها الفاطميون أنفسهم بها طيلة وجودهم في مصر.

أما ناصر خسرو فقد عجز عن وصف ما رآه من مظاهر البذخ، والترف، والإسراف، عندما زار مصر، وخشى أن يتهمه البعض بكذب ما يرويهِ، حيث يقول، ويصف ما تجلّى من مظاهر احتفال الخليفة المستنصر بمولوده الجديد، حيث قال: " ففي عام ٤٣٩هـ/ ١٠٤٧ م، ولّد للسلطان ولد، فأمر الناس بإقامة الأفراح، فزُيّنت المدينة والأسواق زينة لو وصفتها لما اعتقد بعض الناس صحة ما أقول، ولما صدقوني، فقد كانت دكاكين اليزازير والصرافين وغيرهم مملوءة بالذهب، والجواهر، والتقد، والأمتعة المختلفة، والملابس المذهبة، والمقصبّة، بحيث لا يوجد منها متسع لمن يجلس".^(١)

لم يكن ناصر خسرو وحده هو الذي ذهب عقله لما رآه من مظاهر البذخ، والترف التي ظل الخلفاء الفاطميون يحرصون عليها حتى نهايتهم، فقد وصف لنا غليوم رينوس أساقفة صور عن زيارة رسولي أميرك ملك بيت المقدس للقصر الفاطمي في عهد الخليفة العاضد، وما وجدوه من مظاهر العظمة، والأبهة التي فاقت كل ما رأوه من قبل حتى ظهروا لهم الخليفة العاضد على عرش من ذهب مُرصع بالجواهر، والأحجار الكريمة الثمينة، وعلى وجهه نقاب يظفيه، وهو جالس.^(٢)

ج- الأعراس والأعراس:

يأتي بعد الخليفة أهله الذين يُعدون من أرفع الناس قدرًا، وأعضهم شأنًا، يعيشون عبقًا على الدولة دون أن يتحملوا أوزار الحكم، وأعباءه. تصرف لهم الرواتب من بيت المال، وتوزع عليهم الرسوم،

(١) ناصر خسرو: سفرنامه، ص ١٢١.

(٢) محمد جمال الدين سرور: فتوة الفاطمية في مصر، ص ١٦١، ١٦٢.

O'Leary : A Short History of Fatimid Khalifate, London, 1923, pp. 49 - 50.

والهدايا، والكسوة، والمواد الغذائية، عدا بعض الإقطاعات التي يقطعونها. لذا كان بعضهم ينصرف إلى حياة التلهم، والمجون بمعاقبته للخمر، ومعاشرته للنساء،^(١) أو إنفاق المبالغ الكبيرة على شراء الجوارح والمخنيات من الجنين.^(٢)

وقد تضخمت تلك الثروات^(٣) إلى حد يفوق الوصف، فالأميرة رشيدة ابنة المعز لدين الله قد تركت بعد موتها ما قيمته ألف ألف دينار، وسبعمائة ألف دينار.^(٤) بالإضافة إلى ما وجد في خزائن كسوتها من الملابس، والجواهر، والتحف النادرة. كما خلفت أختها الأميرة عبدة التي توفيت بعدها بثلاثة أيام ما لا يُحصى، يكفي أن نذكر أنه قد استخدم لتختم على صناديقها، وخزائنها لربعمائة رطل من الشمع، كما أن البضائع التي نونت فيها متاعها بلغت ثلاثين رزمة ورق.^(٥) ومن الطريف أن خلفاء الدولة الفاطمية بعد المعز - العزيز، والحاكم، والظاهر - كانوا ينتظرون وفاة هاتين الأميرتين حتى يرثوا تلك الثروة الضخمة التي امتلاكها، إلا أن المنية لم توافيهما إلا في عصر المستنصر بالله ٤٤٢ هـ / ١٠٥٠ م أي بعد وفاة للخلفاء الثلاثة المذكورين.^(٦)

(١) المقريزي: تعاضد للحناء، ج ٢، ص ٢٦٥.

(٢) إبراهيم رزق الله لوب: للتاريخ الفاطمي الاجتماعي، ص ٢٠.

(٣) كانت تلك الثروات تأتي عن طريق الهدايا أو عن طريق الورثة، فمن المعروف أن البنت في المذهب الشيعي ترث كل ما يترك أبوها، إذا لم يكن لها أخ أو أخت، وكانت تلك الأموال تنقل بالكامل للخليفة في حالة وفاة البنت، وقد امتلكن هؤلاء الأميرات تلك الثروات بالرغم من عدم ورثتهن لها. للمزيد راجع: الفاضل النعمان: دعائم الإسلام، ص ٣٧٩ - ٣٨٠ عبد المنعم ماجد: للسجلات للمستنصرية، سجل رقم (٣٥)، ص ١٠٩، ١١١.

(٤) المقريزي: الخطط، ج ١، ص ٤١٥؛ ابن تغري بردي: النجوم، ج ٤، ص ١٩٣؛ ناريمان عبد الكريم: المرأة في مصر، ص ٥٩.

(٥) المقريزي: المصدر السابق، ص ٤١٥؛ ابن تغري بردي: المصدر السابق، ص ١٩٣.

(٦) المقريزي: الخطط، ج ١، ص ٤١٥؛ ابن يونس: بدائع الزهور، ج ١، ص ٤٧؛ أمينة الشوربجي: رؤية الرحالة، ص ٤٥١-٤٥٢.

لما للعزیز بالله فقد كان رجلاً یمیل إلى الأبهة بطبعه؛ حيث ورت
 عن أبیه المعز أموالاً طائلة، وقد تجلت تلك الأموال في كثير من مظاهر
 الترف التي عاشها هذا الخليفة ورجال دولته، وكثير من رجال مجتمعه -
 الفاهري - فقد كان للعزیز خبيراً بالجواهر،^(١) محباً لاقتناء النادر منها،
 وابتدع نوعاً من العمائم المخللة بالذهب، وملاً الخزائن بالتحف النادرة،
 وشغفاً - كخساروية بن أحمد بن طولون - بجوارح الطير الغريبة، فأنفق
 عليها أموالاً كثيرة، وقد كان يستوردها من بلاد إفريقية، حتى إنه قد أفرد
 لها ديواناً خاصاً ينفق على تلك الحيوانات عُرف بديوان: "الكارع"^(٢)
 وجاء الحاكم بأمر الله فورت أموال أبیه، وجمده على الرغم من
 الاضطرابات التي عصت عصر الحاكم فإن عصره لم يخل من المظاهر،
 والمشاهد شديدة البذخ، ولاسيما في بدايتها - قبل مراسيم التحريم التي
 أصدرها - فقد بدأ الحاكم عهده بإقامة الحياة الليلية، فقد كانت القاهرة تبدو
 في تلك الفترة بنليل، وكأنها شعلة مضيئة، وتضسطرم جنباتها بحياة
 المممر، والتهور في كل ضرب. ^(٣) وقد أورد لنا أبو المحاسن وصفاً يوضح
 لنا مدى الترف، والبذخ، والترف الذي كان عصر هذا الخليفة وذلك عند
 الحديث عن الإعداد لمراسم استقبال رسول ملك الروم، فيذكر أنه أمر
 بزينة القصر، وأخرج أعداداً، وفرشاً من انديجا المطرز بالذهب، وفرش
 الإيوان المعد لاستقبال هذا الرسول، كما علق على جدرانه ستائر مذهبة،
 أما عن صدر الإيوان فقد علق فيه الكجدة، وهي ورقة من ذهب مرصعة
 بالجواهر بحيث تظهر للناظر، وكأنها أشعة الشمس تتعكس على الإيوان
 طوال الوقت. ^(٤)

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٥، ص ٣٧٣.

(٢) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام العباسي والديني، ج ٢، ص ١٥٩، أمينة
 للشوربجي: المرجع السابق، ص ٤٥٢-٤٥٣.

(٣) محمد عبد الله عزان: للحاكم بأمر الله، ص ٣٥٠.

(٤) المقرئ: المعاني الخلفاء، ج ١، ص ١١٥، ابن تيمري بردي: النجوم، ج ٤،
 ص ١٩٧، أمينة للشوربجي: المرجع السابق، ص ٤٥٤.

على الرغم من الشدة التي اجتاحت مصر في عهد المستنصر فإن
تصره لم يخل من الذخائر، والكنوز، ويصف المقرئزي نقلاً عن صاحب
الذخائر تلك الكنوز التي خرجت من القصر في غضون الشدة
المستنصرية مما يعد أكبر دليل على الثروة الطائلة التي كان يمتلكها هذا
الخليفة. ^(١) ويوضح ابن ميسر أن تلك الثروة قد دونت في نحو عشرين
كراساً، وأن هذه الكنوز قد اشتملت على أشياء عظيمة، وتحف نادرة. ^(٢)
والمثير للانتباه أيضاً أنه قد وجد ضمن ثروة الأميرة عبدة
أربعمائة سيف منجلي بالذهب. ^(٣) ولكن لم يُعرف على وجه التحديد ماذا
كانت تفعل تلك الأميرات بهذه السيوف، أما الأميرة سبت الملك أخت
الخليفة المعز، والتي توفيت في خلافة أخيها، فوجد لها من الذهب ثلاثمائة
صندوق من الفصوص، والياقوت الملونة، واللؤلؤ، كما وجد لها من
الشفق الحرير الأحمر ثلاثون ألف شقة ^(٤)، وقال بعض المؤرخين: ^(٥) إنها
على الرغم من هذه الثروة كانت أزهق الناس في الدنيا، وكانت لا تأكل إلا
من ثمن غزلها حتى ماتت. ^(٦) على ما يبدو أن سبت الملك كانت لا تزال
متأثرة بحياة الزهد، والتقشف التي تعودت عليها في بلاد المغرب، حتى
إن كثرة الأموال لم تغير فيها طبيعاً، أو عادة.

كذلك كانت سبت مصر ابنة الحاكم بأمر الله التي تركت بعد وفاتها
شيئاً كثيراً يظول الشرح في ذكره، من ذلك ثمانية آلاف جارية، وقال
المقرئزي، وغيره: ونيف وثمانون زيراً صينياً مملوءة جميعها مسك،
ووجد لها جواهر نفيس، من حملته قطعة ياقوت وزنها عشرة مثقال، كما

(١) المقرئزي: الخطط، ج ١، ص ٤١٤.

(٢) ابن ميسر: أخبار مصر، ص ٣٧؛ أمينة الشوربجي: روية الرحالة، ص ٤٥٤.

(٣) نازيمان عبد الكريم: المرأة في مصر، ص ٥٧.

(٤) ابن لياس: بدائع الزهور، ج ١، ص ٤٧.

(٥) نفسه.

(٦) ابن تغري بردي: النجوم، ج ٤، ص ١٩٣؛ ابن لياس: المصدر السابق، ص ٤٧.

O'Leary : op. cit., p. 50

كان لها إقطاع يعزل لها في السنة خمسين ألف دينار - ربما قد ملحه لها الخليفة الحاكم - (١).

ومن مظاهر الثراء في عصر الحاكم أيضًا تلك الثروة الضخمة التي امتلكتها أخته ست الملك، وكانت ست الملك إحدى أجمل الفاطميات، وكانت يداها مزينتين بأثمن الجواهر، وجسمها كان مُعطرًا ومُبهرجًا من قِبَل أسنن من الجواري اللواتي لا همَّ لهن سوى جعلها أكثر جمالاً، كما كانت تلبس الجلابيب التي لا مثيل لها، والمصممة من قِبَل صنّاعة لا تخدم إلا لسلالة الفاطمية. (٢) وكانت ست الملك تعيش - في حياة أبيها العزيز - في قصر خاص بها، وهو القصر الغربي، وقد خصص الخليفة لخدمتها، والسهر على راحتها طائفة خاصة يُلقبون بالقصرية. (٣) وقد بلغ دخل ست الملك من ضياعها، وأملكها في عام واحد مائة ألف دينار. (٤) وولدت عند وفاتها ثمانية آلاف جارية كن يقمن بخدمتها، ما بين بيض، وسود، ومولدات منهن ألف وخمسمائة أبقاراً والثبقية ثييات. (٥) بالإضافة إلى ثروة ضخمة يصعب الحديث عنها.

ويُلاحظ الفارق الكبير بين ما كانت تعيشه ست الملك أخت المعز لدين الله من حياة زهد وتشف، وبين ما كانت عليه ست الملك أخت الحاكم بأمر الله من بذخ، وترف وإسراف، كما يُلاحظ أن تلك الثروات كانت تأتيهن نون مُعانة، ودون تفريق بين الزاهد، والمُحب لها.

(١) الخطط، ج ١، ص ٤١٤ + ابن تغري بردي: المعتمد السابق، ص ١٩٢ +

ناريمان عبد الكريم: المرجع السابق، ص ٥٨.

(٢) ابن الأثير: الكامل، ج ٨، ص ١٣١ + ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٣، ص ٤٦ - ٤٧.

(٣) المقرئزي: الخطط، ج ١، ص ٤٥٧.

(٤) المقرئزي: الخطط، ج ٢، ص ٣٣.

(٥) المقرئزي: الخطط، ج ١، ص ٤٥٨ + ابن هبلس: بدائع الزهور، ج ١، ص ٥٨.

ويذكر لهم أربعة آلاف فقط. ناريمان عبد الكريم: العروة في مصر، ص ٥٧.

كذلك كانت السيدة رصيد أم الخليفة الظاهر لإعزاز دين الله، والتي تضخمتم ثروتها أيضًا، ولم المستنصر بالله التي كان لها ثروات ضخمة، وخزائن تتبته خزائن الخلفاء، كما كان لها عشارى خاص محلى بالذهب عُرفَ بالفضي، وكذلك أربعة آلاف سرج، كذلك الكثير من الآلات الفضية.^(١) مما يدل على تمتعهم بالرقص، والغناء أيضًا.

ويلاحظ أيضًا أنه كان لكل زوجة من زوجات الخليفة موظف خاص يُطلق عليه لقب أستاذ، وكانت الإشارة لزوجة معينة تكون مَقترنة باسم الأستاذ الذي يقوم بخدمتها مثل: جهة مكنون، جهة جوهر، جهة ظن.^(٢) ... وغير ذلك.

إلى جانب عدد من الموظفين الأقل رتبة من الأستاذ توكلهم المرأة الإشراف على بعض أعمالها، وكان يُطلق عليه وكيل،^(٣) بالإضافة إلى عند من المستخدمات اللاتي يقمن بالأعمال العادية عند كل جهة، ومن المؤكد أن عدد هؤلاء الموظفين كان يختلف من أميرة إلى أخرى حسب المكانة التي تشغلها في القصر.^(٤) ولكن لم تذكر المصادر طريقة التعامل بين سيدات القصر، وهؤلاء من معاونين لها بسواء كان الأستاذ أو الوكيل، وهل كان ذلك في وجود الخليفة أم من وراء ستار.

كما كان بعض الأمراء أيضًا يتمتعون بثروات هائلة، كانوا يُنفقون منها بغير حساب على ملذاتهم، وليس أدل على ذلك مما حدث للأمير تميم بن المعز لدين الله الذي اشترى له جارية من بغداد بمبلغ جزيل، وعندما غدت، وطرب هو، وأصحابه، فتمتت عليه أن تخفي ما غنته في مجلس

(١) ناريمان عبد الكريم: المرجع السابق، ص ٥٨، ٥٩.

(٢) نفسه، ص ٣٧، ٣٨.

Mann (J) : The Jews in Egypt and Palestine Under the Fatimid Caliphs "2vols" Oxford, v.1, 1920, p. 8.

(٣) المقرئزي: المصدر السابق، ص ٤١١ حين إبراهيم حسن : الفاطميون في

مصر وأعمالهم السياسية والدبلوماسية بوجه خاص، القاهرة، ١٩٣٢م، ص ٢١٠.

(٤) المقرئزي : للخط، ج ٢، ص ٤٤٨.

بغداد، فاضطر إلى إرسالها إلى بغداد لتعني برفقة جازيتين، غافلتها قبل الوصول بقليل، وهربت فقدم تميم عليها كثيراً. (١)

وكان الأمير حسن بن الخليفة الحافظ لدين الله يمتع بثروات هائلة فاقت الحد، وكذلك إقطاعات هائلة واسعة، وكان من كثرة الأموال، والحاشية بحيث كان له ديوان خاص أفرد لإدارة أملاكه، والإسراف على شؤون أتباعه. (٢)

يلاحظ هنا أن تلك الثروات التي نكرها المؤرخون عن انفاطميين، وأهلبيهم لا يصدقها عقل ولا ميمناً أنهم امتكروها دون ورائة؛ وربما دون وجه حق، ولعل كثرة الأموال في حد ذاتها ليست بالشيء السيئ، ولكن المبالغة في إنفاقها في مظاهر التبذخ، والترف هو الذي جعل منها مظهراً من مظاهر الفساد، ولا ميمناً في ظل حاجة الشعب المصري إلى تلك الأموال، وهذا لا يمنع أن بعض أفراد البيت الحاكم لم يتأثروا بهذا انقراض، ذلك التأثير السلبي الذي أصاب البعض الآخر، مثل السيدة عتيدة كما نكمره، وكذلك السيدة رصيد أم انظار التي وجهت ثروتها للأعمال الخيرية، والمنشآت الدينية. (٣)

تبين مما سبق أن المجتمع المصري غابت عنه العدالة الاجتماعية في ظل الحكم الفاطمي؛ حيث نال الخلفاء انفاطميون، وأتباعهم كل انثروا؛ وأنمازياً، وبدلاً من الإتفاق على الشعب، وتلبية متطلباته، وانحرص على الخدمات العامة، انشغلوا في البهجة والإسراف على انقصور، والاحتفالات، والولائم، دون النظر لصالح انفراد وصالح الجماعة، وهذا بمثابة البداية لتفاسد الاجتماعي لغياب تنظيم العلاقة بين الفرد، والنولة.

(١) ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١١، ص ٢٩٢-٢٩٤.

(٢) المقرئزي: اتعاط الحنفاء، ج ٢، ص ١٢٣؛ عيد المنعم سلطان: المجتمع المصري،

ص ٣١، ٢٢؛ Mann (J) : op. cit., p. 13.

(٣) المقرئزي: الخطط، ج ١، ص ٤٥٧.

د الوزراء واحداث الغل الاجتماعي:

كان الوزراء في عصر الدولة الفاطمية بوجه عام يعيشون حياة تقسم بالبذخ، وانثراء، وهي ممة للحياة في المجتمع الفاطمي، وكان الوزير يتقاضى أكبر المرتبات بين موظفي الدولة الفاطمية، فكان راتبه الشهري خمسة آلاف دينار، بالإضافة إلى ما يُمنح لأولاده، وإخوته، وحاشيته من مُرتبات تتراوح قيمتها بين خمسمائة، ومائتي دينار. (١)

على الرغم من هذا المُرْتب فإن الوزير كانت تصرف له من مطابخ القصر وخزائنه جاريًا من الطعام في كل شهر تكفي مؤناته، وحاشيته والقائمين على خدمته من الضعاف، وأشرباب، ومن أمثلة ذلك ما كان يُصرف للوزير ابن عمار، الذي وزر للخليفة الحاكم بأمر الله، فكان يُصرف له ما قيمته خمسمائة دينار كل شهر عن اللحم، والحيوان، والتوابل، والفاكهة، بالإضافة إلى سلة من الفاكهة، وعشر أرواح شمع كل يوم، وحمى شح كل يومين، وانظر كيف أن هذا الجاري ظل يحتفظ به ابن عمار حتى بعد عزله من الوزارة. (٢)

بالإضافة إلى توفير الملابس والعلاج، وتوفير الأدوية التي يستخدمونها في تنقلاتهم، وكذلك تصرف لهم حاجتها من العلف والطعام، كذلك أكلان من يموتون منهم، بالإضافة إلى ما يحصلون عليه في المواسم والأعياد من المنح والكساء له ونزوجه وأولاده. (٣)

وكان الخلفاء يقدفون على وزرائهم الهبات السخية، والإقطاعات التي تُدر عليهم دخلًا كبيرًا، جعلهم يعيشون في ثراء شديد، مما جعلهم يُنفقون ببذخ مُند، ومن أمثلة ذلك: يعقوب بن كنس وزير الخليفة العزيز بالله، كان يعقوب يعيش حياة تقسم بالبذخ، والإسراف، وقد ظهر هذا جليًا

(١) للفتنندي: صبح الأعشى، ج ٣، ص ٥٢٠؛ المقرئزي: الخطط، ج ١، ص ٤٠١

١ عبد المنعم سلطان: المجتمع المصري، ص ٣٠.

(٢) ابن الصوري: الإشارة، ص ٢٠، ٢٧؛ المقرئزي: المصدر السابق، ج ٢، ص

٣٣؛ Heyd, W.: op. cit., p. 45.

(٣) المقرئزي: المصدر السابق، ج ١، ص ٣٩٩، ٤٠٠.

فيما أنفق في إعداد جهاز ابنته، فقد بلغت النفقة في إعداد هذا الجهاز مائتي ألف دينار، وقد بلغ ثراء ابن كلس ما جعل البعض يحدت عليه، ويحاول الإيقاع بينه وبين الخليفة، واتهامه بأنه يحوز من كل شيء أعلاه، ويترك للخليفة ما دون ذلك، فقد كتبوا إلى العزيز أنه اختار من كل صنف أعلاه، ولم يبق منه إلا ألبان حتى الحمام، وعندما بلغ الوزير ابن كلس هذه الوشاية كتب إلى الخليفة:

قل لأمر المؤمنين الذي
له الكلال والنسب الثاقب
طائر ك الصابغ لكننه
جاء في خدمته الحاجب

فأعجب الخليفة بتلك الأبيات، وأيقن ما يقصده البعض لمحاولة الوقيعة بينهما. (١)

وكان إقطاعه في مصر، والشام يغل له مائتي ألف دينار في السنة، وقد أهدى إليه العزيز بالله سنة ٣٧٣ هـ / ٩٨٤ م ألف وخمسمائة غلام، وهم الطائفة المعروفة بـ"الوزيرية". وقد ترك ابن كلس عند وفاته ثروة تقدر بخمسمائة ألف دينار ذهباً، ومن الجواهر، والتحف ما تقدر قيمته بأربعمائة ألف دينار، غير الملبوس والمركوب، كما وجد له من العبيد، والمماليك أربعة آلاف غلام (٢)، وثمانمائة محظية، غير الجواري الخاصة بالخدمة. (٣) وعلى الرغم من هذه الثروة الضخمة كان ابن الصيرفي يذكر أن بن كلسي قد مات، وعليه للتجار سنة عشر ألف دينار، فتحملها العزيز عنه من بيت المال (٤)، مما يوحي بأن ثروته لم تكن في معظمها من مصادر شريفة.

وقد تمتع الوزير ابن عمّار وزير الخليفة الحاكم - الذي سبق ذكره - بالسيطرة على أمور الدولة دون الحاكم، لصخر سنة، فسيطر على أموال البلاد، وبسط يده في الإطلاق، والعطاء، والصلوات، والأموال، وقد

(١) أمينة الشوريجي: رؤية الرحلة، ص ٤٥٦، ٤٥٧.

(٢) ابن الصيرفي: الإشارة، ص ٥٢.

(٣) النولاري: كثر للزر، ج ٦، ص ٢٦٦.

(٤) ابن الصيرفي: للمصدر السابق، ص ٥٢.

جمع ابن عمّار هذا لنفسه ثروة طائلة، قام بنهبها في وقت الاضطراب الذي حدثت بين المغاربة، والأترك كما سبق ذكره. (١)

أما للوزير برجوان الخادم وزير الحاكم أيضاً، فقد ترك بعد قتله سنة ٣٩٠ هـ / ٩٩٩ م ثروة ضخمة تُقدر بثلاثين ألف دينار، وعسداً لا يُحصى من السراويل، والآلات، والطيب، والقرش، والكتيب، والطرائف. (٢) وكان برجوان مثلاً للهو مُحباً للغناء يجمع حوله المُغنين، والمُغنيات، وقد ساعدته ثروته على ذلك.

وقد بلغ الإثراء ببعض الوزراء أن يقرضوا الخليفة الأموال للإئفاق على الجند وقت الأزمات الاقتصادية، فعندما توفي الخليفة الظاهر لإعزاز دين الله ١٥ شعبان ٤٢١ هـ / ١٠٣٥ م كانت الخزانة في حالة انقيار نتيجة لإسراف هذا الخليفة، وبذخه، فعجز ابنه الخليفة المُستعصر عن الوفاء بأرزاق الجند؛ مما دفع أبا القاسم الجرجرائي الوزير إلى إحضار الأموال من قصره؛ لتوزيعها على الجند حتى يقضي على شرهم، وهذا في حد ذاته دليل على ما كان لهذا الوزير من ثروة ضخمة بحيث استطاع أن يُنفق على الجند، وعندما توفي هذا الوزير وجد له سبعمائة جنية ذهب، وفضة، ومائة منقال من العنبر، وغير ذلك الكثير. (٣)

وعلى الرغم من هذا الثراء البالغ فإن الخزانة كانت فارغة، والجند لا يتقاضون أجورهم وأصبح هناك فوضى وفساد بدأ سياسياً متمثلاً في عدم قدرة الخليفة على التوازن في إسرافه، وبذخه، وتحول إلى فساد اجتماعي عمّ للشعب، والرعية.

وإذا كانت هذه هي الحال بالنسبة لوزراء العصر الفاطمي الأول، فلنا أن نتصور مقدار الثراء الذي تمتع به الوزراء في العصر الثاني، ولاسيما بعد أن استقرت الأمور على يد بدر الجمالي، وأخذت مظاهر

(١) نفسه؛ أمينة للشوربجي : المرجع السابق، ص ٤٥٧.

(٢) ابن الصيرفي : المصدر السابق، ص ٢٨، ابن خلكان : وفيات الأعيان، ج ١، ص ٨٨.

(٣) أمينة للشوربجي، رؤية للحالة، ص ٥٩.

الازدهار تُطل من جديد على الأجواء المصرية، فيذكر المؤرخون أن بدران جمع ثروة طائلة خلال سنوات حكمه لا يستطيع أحد تقديرها، ولكن البعض يحاول أن يتكهن بعظمة هذه الثروة خلال مظاهر الترف، والبذخ التي عاشها بدران، وحاشيته خلال تلك الفترة، فيذكر البعض أن أحد كتّابه اشترى سمكة من عنبر بألف دينار، حرقها في النار في جلسة واحدة، كما أن أحد الشعراء مدح بدران، وأجازته بدران من ماله بعشرة آلاف دينار.^(١)

مما سبق يتضح لنا مدى الثراء، والبذخ، والإسراف الذي غمّ الوزير، وكذلك حاشيته لدرجة أنهم أصبحوا لا يُسألون بالأموال، ويحرقونها دون أدنى مسؤولية، كذلك أصبحت الأموال وسينة للإنفاق، والرياء من الرعية للوزير، ولا عجب في ذلك طالما المقابل المادي موجود.

ومن مظاهر ثروته أيضا الإنفاق على مطابخ قصره، وقد شغف بدران باقتناء الجواهر الثمينة، وقد خلف بعد وفاته من الجواهر، والياقوت أربعة صناديق، ومن القصب، والفضة، والذهب، والمراكب، والسروج الفحلالة ما يُعجز عن وصفه، فقد خلف ألف قصبية زمردية لأنه كان مغرماً بالاحتفاظ بها، فكان يجمعها من جميع بقاع العالم.^(٢)

أما عن ثروة الأفضل بن بدران الجمالي فقد أطنب مؤرخو مصر الفاطمية في وصفها، حتى إن الخليفة الأمر بأحكام الله استمر أربعين يوماً بدار الأفضل، أو دار الوزارة بالقاهرة، وفي غيرها من قصور الأفضل يُشرف بنفسه على تدوين ما تم نقله من الخزائن، والتحف النفيسة إلى القصر الشرقي،^(٣) هذا بجانب ثمانمائة جارية منها خمسون جارية نكح واحدة منهن حجرة، وخزائن مملوءة بالكسوات، والآلات. كما عثر لديه على سبعمائة طبق من الفضة، والذهب، ومن الآلات كالأسطال والصحان، والمرابيات، والأباريق، والقذور، والنزاري، والقطع من الذهب، والفضة لمختلفة الأجناس، ما لا يستطيع أحد أن يحصيه.^(٤)

(١) القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٣، ص ٥٢٣ - ٥٢٤.

(٢) حسن إبراهيم حسن: الفاطميون في مصر، ص ٢٢٣.

(٣) النويري: نهاية الأرب، ج ٢٦، ص ٨٢؛ المقرئ: اتعاط الحنفاء، ج ٣، ص ٧٠.

(٤) النويري: المصدر السابق، ص ٨٤.

تضخمت ثروة الأفضل، فزاد بذخه، وإسرافه، وكذلك فساده، فقد كان للأفضل مجلس شراب به ثمانية تماثيل جوامد متقابلات، أربعة منهن بيض من كافور، وأربع سود من عنبر، وضع عليهن أقصر الثياب، وزينهن بأعلى المجوهرات، فإذا دخل من باب مجلس الشراب اتحت تلك الصور إجلالاً له، فإذا جلس استوت قائمات.^(١) ومن الطريف أنه كان يملك تماثلاً من العنبر على قدر جسده، إذا نزع الثياب وضعت على التمثال فنكتسب رائحة طيبة.^(٢)

يند حجم التركة التي خلفها الأفضل، والتي أمضى الخليفة الأمر في حصرها، ونقلها مدة شهرين، وأياماً على مدى التراء الذي كان يتمتع به هذا للوزير القوي الذي كان في واقع الأمر هو الحاكم الحقيقي للبلاد، وقد وصف لنا ابن ميسر، وابن خلكان تفصيل ما وجد في دار الأفضل من ذخائر، وتحف، وأمتعة. فيروي ابن ميسر عن مسؤولي الخزانة بالقصر أنه وجد بها ستة آلاف، وأربعمائة ألف دينار، وورقاً قيمته مائتان ألفاً وعشرون ألف دينار، وسبعمائة طبق فضة، وذهب، ما لا يُحصى من الأسطال، والصحاف، والمضارب، والأباريق، والقخور، والزيادي، والقطع من الذهب، والفضة المختلفة الأجناس، وكذلك شيء كثير من براني الصيني الكبار المملوءة بالجواهر التي بعضها منظوم كالسبح، وبعضها منشور.^(٣)

ووجد من أصناف الديباج، وما يجري مجراه من قنابي وغيره تسعون ألف ثوب، وثلاث خزانين كبار مملوءة صناديق كلها نبيقي، وشرب عميل تينيم، ودمياط على كل صندوق شرح ما فيه، وجنسه، وخزانة للطيب مملوءة بالأمفاط من العود، وغيره مكتوب عليها أوزانها، وأجناسها بالإضافة إلى براني المسك، وبراني الكافور، وما لا يُحصى من العنبر. ووجد له من المقاطع، والثور، والفرش، والمطارج، والمسائد،

(١) أمينة لشورجى: رؤية للرحالة، ص ٤٦١؛ ابن ميسر: تاريخ مصر، ص ٥٨؛

محمد جمال الدين مرور: الدولة للفاطمية في مصر، ص ١٦٣.

(٢) ابن ظفر: أخبار الدول، ص ٢٧٩؛ لتويري: المصدر السابق، ص ٨٣.

(٣) ابن فؤاد سيد: الدولة للفاطمية، ص ٢٣٠.

والديباج، والديبقي الحريري، والمذهب على اختلاف أجناسها أربع حجرة، كل حجرة مملوءة من هذا الجنس، وكذلك خزانة بها عدة صنابير تحوي أحفاف ذهب عراقي يرسم الاستعمال. (١)

وكان له مجلس يجلس فيه للشراب فيه صور ثماني جوارٍ متقابلات، أربع منهن بيض من كافور، وأربع من عنبر قيام في المجلس عليهن أفخر الثياب، وأتمن الحلي، ويأيديهن أحسن الجواهر، فإذا دخل من باب المجلس وطئ العتبة نكس برؤوسهن خدمة له، فإذا جلس في صدر المجلس استوين قائمات، بالإضافة إلى خزائن من كتب كانت تشتمل على نحو خمسمائة ألف مجلد. وتدلنا هذه الخزائن على أن خزائن للقصور الفاطمية عاد إليها قسط وافر من عمارها لذي كان قبل الشدة العظمى. (٢)

هكذا وعلى الرغم مما تعرضت له الدولة الفاطمية من شدائد، ونكبات في العصر الفاطمي الثاني، فإن هذا الثراء، والترق ظل حتى نهاية الدولة الفاطمية، فقد وجد بالقصر الفاطمي عند اعتلاء صلاح الدين مجلسه ٥٦٧هـ/١١٧١ م من التحف، والنفائس النادرة ما تخطو انديا من مثله، ومن الجواهر التي لم توجد عند غيرهم، ويروي ابن الأثير أنه رأى الجمل الباقوت الذي كان من تحف الفاطميين، ووزنه بنفسه، ولو لا ذلك لما صدق ما قيل له عن جماله وضخامة حجمه. (٣)

ويتعجب المقرئ من كميات التحف، والنفائس، والأموال التي أخرجت من القصر على يد صلاح الدين " ما بين دينار، ودرهم، ومصاغ، وجوهر، ونحاس، ولبون، وأثاث، وقماش، وسلاح، ما لا يفي به ملك الأكاسر، ولا تتصوره الخواطر الحاضرة... ولا يقدر على حسابه إلا من يقدر على حساب الخلف في الآخرة. (٤)

(١) أمين فواد سيد : للدولة الفاطمية، ص ٢٣١.

(٢) القلقشندي : صبح الأعشى، ج ٣، ص ٥١١، حسن إبراهيم حسن : الفاطميون في مصر، ص ٤٦٢.

(٣) ابن الأثير: التكملة، ج ١١، ص ١٣٨.

(٤) المقرئ: الخطوط، ج ١، ص ٤٩٦؛ عبد المنعم سلطان: المجتمع المصري، ص ٣٥.

لم يُحرم الإسلام الغنى، ولكنه دعا إلى التكافل الاجتماعي؛ أما الخلل الاجتماعي الذي أحدثه الوزراء فلأنهم انشغلوا بتجميع الثروات، والتحف، والنفائس، وتركوا الرعية التي هم مسؤولون عنهم؛ لتعاني الفقر، وللمجاعات، ولم يخططوا لإنقاذ الشعب من الفقر، أو يُحدثوا نوعًا من التكافل الاجتماعي، فصار الوزراء هم الآخرون ضمن عوامل فساد المجتمع بتخليهم عن الدور المنوط بهم القيام به، وتقديم مصالحهم على غيرها.

هو الخدم والجواري:

كان القصر الفاطمي يكتظ بمند كبير من الجواري، والعبيد للقيام بالوظائف المختلفة، وقد بلغ عدد هؤلاء حدًا عجز للمؤرخون عن تحديده، حيث كان لكل فرد من أفراد الأسرة الحاكمة، وكبار رجال الدولة ممن الوزراء، والكتاب وأرباب الرتب عدد من الجواري، والخدم^(١)، وقد تمتع بنصيب والفر من الامتيازات التي لم تمنح لغيرهن حتى أصيبن بالثراء الفاحش، فعاشوا عيشة ترف، وبذخ، وتركبن العديد من الثروات التي أسهب للمؤرخون في ذكرها.^(٢)

وعلى الرغم من أن العبيد لا يحق لهم الميراث، ولا يجوز لهم الوصية شرعًا؛ لأن أموالهم لمولاهم لا يرثهم أحد، فإن الدولة الفاطمية كانت تعد العبيد للمناصرين للدعوة الإسماعيلية، حتى وإن لم يحصلوا على حريتهم، من حقهم الإرث، كذلك كانت تقبل شهادتهم، كما كانت تسمح لهم بالبيع، والشراء، والتصرف في ممتلكاتهم.^(٣)

لذلك فقد كان الجواري في الدولة الفاطمية يحفظن بأملئك خاصة، وثروات كبيرة، نتيجة لما يُمنح لهن من عطايا، وهبات، فيسروي المقريري في حوادث سنة ٤١٥ هـ/١٠٢٤ م، توفيت عائشة جارية

(١) عبد المنعم سلطان: المجتمع المصري، ص ٨٦.

(٢) ابن قفري بردي: النجوم، ج ٥، ص ٤١٢ القفشلدي: صبح الأعشى، ج ٣، ص ٥١١.

(٣) القاضي النعمان: المجالس والمسلوات، ص ٣٩٢، ٣٩٤.

الأمير عبد الله بن المعز، وكانت من وجوه عجائز القصر، وخلفت أربعمائة ألف دينار. ^(١) كما كان بعضهم يملكون العقارات، والدور والإقطاعات، وكانت هذه الأملاك تُؤجر لحسابهن، ويحصلن على ريعها. ^(٢) كما يذكر المقرئزي أنه من كثرة ثروات العبيد والجواري أصبح لهم شرفاء يُشرفون على مصالحهم مثلهم في ذلك مثل كبار رجال الدولة، وفُرَادِ الأُسرة الحاكمة. ^(٣)

كما كان يُسند للعبيد بعض الوظائف المهمة في الدولة الفاطمية، وكان ذلك يتوقف على ما يظهره العبد من نشاط، ونجابة، ومن أمثلة ذلك زيدان 'صاحب المظلة' الذي أعتقه الخليفة الحاكم سنة ٣٩١ هـ / ١٠٠٤ م، ومن المعروف أن حامل المظلة كان من كبار موظفي الدولة بحمله ما يعلو رأس الخليفة، وهذا شرف ما يناله إلا من كان يتمتع بثقة الخليفة، وتقديره. ^(٤)

زادت مكانة الخدم حتى أصبح لهم خطط تحمل أسماءهم داخل القاهرة، حيث كان هناك حارة العطوفية نسبة إلى الخادم 'عطوف' أحد خدام القصر الفاطمي، الذي كان مُختصاً بخدمة السيدة 'ست الملك' أخت الخليفة الحاكم بأمر الله، ويذكر المقرئزي أن العطوفية كانت من أجل مساكن القاهرة، وفيها من للدور العظيمة، والحمامات، والأسواق، والمساجد ما لا يدخل تحت حصر. ^(٥) وكذلك حارة ملوخيا التي كانت

(١) المقرئزي : الخطط، ج ١، ص ١٧٣ حسن إبراهيم حسن : الفاطميون في مصر، ص ٤٦٦.

(٢) المقرئزي : انعاظ الحنفا، ج ٢، ص ٤٤٣٢ ناريمان عبد الكريم: المرأة في مصر، ص ١٠٧ عبد المنعم سلطان: المرجع السابق، ص ١١٩.

(٣) المقرئزي: الخطط، ج ١، ص ١٦٩.

(٤) المقرئزي : الخطط، ج ٣، ص ٨٩.

(٥) المقرئزي : المصدر السابق، ج ٢، ص ١٤.

Atiya (A.S) : The Crusade in the Latter Middle Ages, London, 1938, p. 4 - 5.

تُعرف في بدايتها بحارة قائد القواد نسبة إلى حسين بن جوهر في عهد من عهد الخليفة الحاكم بأمر الله. (١) كذلك كان للخليفة العزيز بالله خادم يُدعى ريدان الصقلي، عمّر بُستاناً سُمي باسمه 'بستان ريدان' ثم تحول إلى حي الريدانية، وهو مشهور في التاريخ بأنه أول محطة للعمل الشريف. (٢) لم يقتصر الأمر عند هذا الحد من وصول الخدم والجواري إلى أعلى المناصب في الدولة، وامتلاك الثروات الضخمة بما كان يُنزل إليهم من هدايا، وعطاءات مُبالغ فيها من قبل للخلفاء، وكبار رجال الدولة. فقد كانت من الأمور المعتادة في الدولة الفاطمية، أن يتزوج للخليفة الفاطمي من إحدى الجواري، فتصل الجواري بذلك إلى مرتبة الصفاة، حيث تصبح زوجة خليفة أو أم الخليفة، وبالتالي تتدخل في شؤون الدولة ذاتها. فالمعروف أن زوجة الخليفة العزيز، وأم الحاكم بأمر الله كانت جارية رومية مسيحية. (٣)

كما تزوج الحاكم من إحدى جواري أخته ست الملك. (٤) وتزوج الظاهر من جارية سودانية ولدت له ابنه المستنصر بالله، (٥) وقد تدخلن هؤلاء في شؤون الحكم مما تسبب في ظهور الفساد ووقوع الفتنة بين طوائف الجند، حيث كانت كل منهن تميل إلى بني جنسها. ومن الملاحظ أيضاً أننا لم نسمع بأن خليفة من الخلفاء الفاطميين قد تزوج من مصرية، على الرغم من الفترة الطويلة التي قضاها في مصر.

كما كان الخلفاء يقومون بعنق العبيد في المناسبات المختلفة، وقد أكثر الحاكم من ذلك حتى أنه اعتق سنة ٤١٤ هـ/ ١٠٢٣ م جميع من

(١) المقرئبي : المصدر السابق، ج٢، ص ١١٣ + ٩٠. Lane - Poole : op. cit., p. 90 + 113.

(٢) عبد المنعم سلطان: المجتمع المصري، ص ١١٦ + ٥٤. Atiya (A.S) : op. cit., p. 54 + 116.

(٣) ميلويس بن المقفع: سير الأبيدة المقدسة، ج٣، ص ٢، ص ٥؛ الأنطاسكي : تاريخ

الأنطاسكي، ص ١٦٤؛ عبد المنعم سلطان: المرجع السابق، ص ٨٧.

(٤) النواداري : كنز الدرر، ج٦، ص ٢٦٥.

(٥) الدويري: نهاية الأرب، ج٢٦، ص ٦٤.

كان يمتلكه من العبيد، والإماء، وملكهم ما تحت يدهم في حالة الرق مسن
الأموال. (١)

لزدادت ثروات العبيد، وازداد جشعهم، وطمعهم، وازداد فسادهم،
فأصبحوا يمثلون مصدر قلق في للدولة، ولاسيما في أوقات المجاعات،
فكان للعبيد لا يتورعون في تلك الظروف عن مهاجمة الدور والحواديت
لنهب ما فيها، ويشتمكون مع العامة من أجل سلب أموالهم، وممتلكاتهم،
حتى إن الخلفاء لم يجدوا أمامهم سوى إصدار الأمر بقتلهم إذا أصروا
على فعلهم. (٢)

وعلى الرغم من ثراء الدولة الفاحش، وبذخها، وترفيها الذي وصل
إلى خدماها، فقد كان ذلك قاصراً فقط على رجالها، وحاشيتها، أما عامة
الشعب، والأذنين سكنوا القسطنطينية، فكانوا يعيشون عيشة الكفاف، ولا
يستطيعون سد حاجاتهم الضرورية، اللهم إلا النذر القليل الذي كان الخلفاء
يغدقونه عليهم أثناء المواسم، والأعياد، أو عند ركوبهم للترهة بسومي
السبت، والثلاثاء، غير أن سياسة العطف هذه لم تكن حلاً لمشكلاتهم
اليومية، مما اضطر بعضهم للحصول على الأموال بطريق غير مشروع.

فيروي المسيحي: أنه سرق قنديلاً من الفضة من جامع عمرو بن
العاص، فرفع القاضي الأمر إلى الخليفة الحاكم بأمر الله، فقال الحاكم
للرجل: "ويلك، سرقت فضة الجامع، فقال: إنما سرقت مال ربي، وإنني
فقير ولي بنات جياح، والإنفاق عليهن أفضل من تعليق هذا في الجامع.
فدمعت عيناه .. وأمر بإحضار بناته فحضرته، فأمر القاضي أن يُجهز
بثلاث آلاف دينار، ويزوجن، وأعاد للقنديل إلى الجامع". (٣)

(١) الأندلسي: تاريخ الأندلس، ص ٢٠٦، الحواديري: كسر الدرر، ج ٦،
ص ٢٨٨.

(٢) المقرئ: المعتمد، ج ٢، ص ٣٦٦-٣٦٧، Hcyd, W. op. cit., p. 391.

(٣) الكندي: الولاة وكتب القضاء، ص ٢٧، عبد المعلم سلطان: المجتمع المصري،
ص ٧٩، ٨٠.

إن كاتب هذه الرواية توضح لنا حالة العامة البائسة على الرغم من ثراء الدولة واهتمامها بالمظاهر، تظهر لنا أيضاً أن ثلاثة آلاف دينار قد قمن بحل مشكلة ثلاث فتيات، وأمت زواجهن، في حين أن الراتب الشهري للوزير الفاطمي وحده يصل إلى خمسة آلاف دينار كما ذكرناه هنا غير ما كان يحصل عليه من طعام، وشراب، وكموة، وهدايا، وغير ذلك الكثير.

والأعياد والاحتفالات وما يُصاحبها من مظاهر البذخ والإسراف:

تميز البلاط الفاطمي في مصر بحفلاته الباذخة التي انتشرت بشكل لم يُعرف في أي بلاط إسلامي سابق، أو لاحق، وكانت تلك الاحتفالات تتألف من رسوم معينة تتبع بدقة في الأعياد الرسمية للدولة، وكان الخليفة يشترك في تلك الاحتفالات، ويشهد هذه الرسوم هو ورجال دولته وجيشه، وذلك في أيام مشهودة من العام. ^(١) وقد صاحب هذه الاحتفالات العديد من مظاهر البذخ، والترف، والإسراف التي فاقت للحد. ^(٢)

لم يُعرف على وجه التحديد أصل هذه الاحتفالات، حيث إنها لم توجد في بلاط الفاطميين في إفريقية، وكانوا يعيشون حياة تتسم بالزهد، والتكسب. ^(٣) ولكن بمجرد وصولهم إلى مصر تبدلت الأحوال، وتحوّلوا من التقية إلى التقيض، فمالوا إلى الإسراف، والحياة المرنة، وكان ذلك منذ اللحظة الأولى من وجودهم في مصر، فالمعروف أن أول من استن تلك الرسوم، وأكد على العمل بها هو المعز لدين الله الفاطمي، أول الخلفاء الفاطميين في مصر. ^(٤) والذي كُذ المقريزي أنه كان في بلاد المغرب يمت حياة الترف، والبذخ، ويمتس عيشة متواضعة، ويدعو رجاله إلى ذلك. ^(٥)

(١) عبد المنعم ماجد: نظم الفاطميين ورسومهم، ج٢، ص١٢٧، قيام للدولة الفاطمية، ص٢٥٨.

(٢) المقريزي: الخطط، ج٢، ص٤٤٥، ابن خلدون: المقدمة، ج٢، ص٤٢-٦٢.

(٣) المقريزي: المصدر السابق، ج٢، ص١٦٤.

(٤) ابن تعري بردي: للنجوم، ج٤، ص٧٩.

(٥) المقريزي: الخطط، ص١٦٤، تماظ الحنفاء، ج١، ص٥٢.

وفي مصر بالغ الفاطميون في مظاهر الاحتفالات، وفي الاتفاق عليها، وقد شملت تلك الاحتفالات الأعياد الخاصة بالمسلمين، وكذلك الخاصة بأهل الذمة، فجمعت بين الأعياد المصرية القومية^(١) والأعياد القبطية^(٢) وكذلك المذهبية^(٣) فقد كانت تلك الأعياد

(١) الأعياد المصرية القومية: كان المسلمون يحتفلون بعيد الفطر والأضحى، وهما العتان اللذان يحتفل بهما المسلمون في كل مكان، وإلى جانب هذين العدين كانت العادة في مصر الفاطمية أن يُحتفل كذلك بعيد رأس السنة الهجرية (أول محرم) وشمول النوبوي (١٢ ربيع الأول)، وقافلة الحج، وكذلك بيالي التوقود الأربع، وهي أول رجب ونصفه وأول شعبان ونصفه، وكذلك صوم رمضان، وما يُصاحبه من مظاهر احتفال كان يقوم بها الفاطميون وقت الإقطار والسحور... راجع: المقرئزي: الخطط، ج ١، ص ٤٦٥، ٤٦٦، ٤٩١، ٤٩٢؛ ج ٢، ص ٣٤٥-٣٤٨؛ عبد الملحم ماجد: نظم الفاطميين ورسومهم، ج ٢، ص ١٢٩-١٤٥؛ قيام الدولة الفاطمية، ص ٢٦٤.

(٢) الأعياد للقبطية: كان للقط أربعة عشر عيداً في كل سنة قبطية، سبعة كبار وسبعة صغرى، أما الأعياد الكبار فكانت: عيد البشارة، وعيد الزيتونة، وعيد القصب، وعيد خميس الأربعين، وعيد الخميس، وعيد الميلاد، وعيد الفطاس. أما الأعياد الصغرى فهي: عيد الختان، وعيد الأربعين، وعيد خميس العهد، وعيد سبت النور، وعيد أحد الحدود، وعيد التجلي، وعيد الصليب. كذلك كان للقبط أعياد غير شرعية، ولكنها ورثت عن أجدادهم، مثل: يوم الفيروز الذي يتوافق قومه مع أقصى ارتفاع للفيضان، وكان للخلفاء الفاطميون يبرزون بحضورهم بعض تلك الأعياد كقيمة ليا، مثل (القصع، والقطاس، والميلاد، وخميس العهد)، وكانت توزع فيها قع ذهبية صغيرة تعرف بالخراريب... راجع: ابن المأمون: أخبار مصر، ص ٩٥؛ أيمن فؤاد سيد: الدولة لفاطمية، ص ٥٦٠، ٥٦١؛ عيد المنعم ماجد: نظم الفاطميين ورسومهم، ج ٢، ص ١٣١-١٣٦؛ عيد المنعم سلطان: المجتمع لمصري، ص ١٦٧، ١٧٧.

(٣) الاحتفالات المذهبية الشعبية: وهي أعياد خاصة بالمذهب الشيعي، لم يتم الاحتفال بها في المغرب، وإنما ظهرت في مصر، وهي لإحياء ذكرى أحداث هامة -

بمطابقة الدعاية، والإعلان عن عظمة الدولة الفاطمية، وغناها، كذلك كانت فرصة لنشر المذهب الشيعي في مصر. (١)

أنت كثرة هذه الاحتفالات، والتي بلغت سبعة وأربعين احتفالاً تقريباً، إلى إرهاق ميزانية الدولة، وذلك لما كان يتم في تلك الاحتفالات من إعدادات للهوى، واللعب، والزينة، وكذلك إعداد المُغنين، والمغنيات، وكافة أنواع الأطعمة وما يلزمها من أنواع الشراب المختلفة. (٢) بالإضافة إلى ما كان يوزع من هبات، وعطايا، وكسوات، وأموال يمنحها الخليفة لرعاياه المقربين. (٣) بالإضافة إلى الخيم التي كانت تصيب لتلك الاحتفالات والتي بذلوا فيها بمخاء كبير، حتى إن أحدها، ويُعرف

= جرت في تاريخ الحركة الشيعية وتطورها، نذكر منها، الاحتفال بيوم عاشوراء (١٠ محرم) مقتل الحسين في كربلاء ٦١ هـ / ومولد الحسين (٥ ربيع الأول) ومولد السيدة فاطمة (٢٠ جمادى الآخرة) ومولد الإمام علي (١٣ رجب)، ومولد الحسن (١٤ رمضان) ومولد الإمام الجاضر ويُطلق على هذه المولدات الموالد الخمسة، بالإضافة إلى "المولد النبوي"، كذلك الاحتفال بعيد الغدير (١٨ ذي الحجة) وهو لعيد الذي يؤكد أحقية علي رضي الله عنه في الخلافة، وبالتالي الفاطميين؛ لذلك كان من أهم أعيادهم، بالإضافة إلى عيد النصر، وعيد تصليب ولي المهدي. راجع: ابن المأمون: أخبار مصر، ص ٨٢، ٨٣؛ القلقشندي: صبح الأعشى، ج ١٣، ص ٢٤١؛ المقرئزي: الخطط، ج ١، ص ٤٢٠، ٤٢٣؛ عبد المنعم سلطان: المجتمع للمصري، ص ١٥٣-١٦٢؛ أمين فيؤاد سيد: الدولة الفاطمية، ص ٥٦٠.

(١) القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٣، ص ٥١٢ - ٥١٣؛ د. عبد المنعم ماجد: المرجع السابق، ص ١٠٦ - ١٠٧.

(٢) المقرئزي: الخطط، ج ٢، ص ٣٦٣؛ ابن المأمون: أخبار مصر، ص ٩٥؛ أمينة الشوربجي: رؤية لرحالة، ص ٤٦٢؛ عبد المنعم سلطان: المرجع السابق، ص ١٥٣.

(٣) المقرئزي: المصدر السابق، ص ٣٦٣.

بالقائول^(١) كان يتكلف صنعه أكثر من ثلاثين ألف دينار (٣٠٠.٠٠٠)؛ لأن وزن صفرنية الفضة قنطاران.^(٢)

بالإضافة إلى ما عُرِف في الدولة الفاطمية بسماط الخليفة، والذي كان مُتَازِماً لتلك الاحتفالات، والذي كان يضم العديد من أصواع الطعّام المختلفة التي يعجز العقل عن وصفها، أو التحدث عنها، ولعل خير شاهد على ذلك هو الرحالة ناصر خسرو الذي اشتاق لرؤية هذا السماط - ولو عن بُعد - وقد تمكن من ذلك بمساعدة أحد الخدم، وكان ناصر خسرو من اندهشة، وللعجب لما رآه على تلك السماط، وعندما أراّه وصفه، حتى أن لا يُصدقه أحد، أو أن يتهمه البعض بالمبالغة أو الجنون.^(٣)

أما ابن المأمون فيوضح في تاريخه مدى إسراف الدولة الفاطمية، ويذّهب على مثل تلك الاحتفالات، فيذكر أن قيمة المنصرف عيناً من بيت المال في مدة خمسة عشر شهراً ثلث توليته للوزارة - أول محرم ٥١٧ هـ/ أول مارس ١١٢٣ م - هي أربع مائة وسبعة وستين ألفاً ومائة وأربعين ديناراً ونصف^(٤) (٤٦٧.١٤٠.٥)، وما تم توفيره هو ٩٨.٣٩٧ دينار حملت إلى الصناديق الخاصة برسم المهمات العسكرية الاستثنائية.^(٥) أي ما يقرب من ثلاثة أرباع ميزانية الدولة صُرفَت على تلك المظاهر. أما الربع الباقي من مجموع نفقات الدولة فقد خصص لمرتبات الوزير، وإخوته، وأولاده، وما يحمل مشاهرة إلى موظفي الدولة.^(٦)

(١) عرف بالقائول لأنه ما نصب قط إلا وقتل رجلاً أو رجلين ممن تولى إنفاقه من الثرائس وغيره. (المقريزي: للخطوط، ج ٢، ص ٣٦٣).

(٢) للمقريزي: المصدر السابق، ج ١، ص ٤١٩.

(٣) ناصر خسرو: سفرنامه، ص ١١٧.

(٤) ابن ميسر: أخبار مصر، ص ٩٥.

(٥) ابن المأمون: أخبار مصر، ص ٧٠، ٧١؛ المقريزي: المصدر السابق، ج ١، ص

لم يقتصر الإسراف، والبخخ، والمغالة فيه إلى حد تلك الاحتفالات التي كانت تقترن بالعديد من مظاهر الفسق والفجور والفساد. (١) فحسب، بل تخطت ذلك في عهد الفاطميين في منافسة أعدائهم العباسيين في جميع أمور حياتهم، بل عمدوا إلى التفوق عليهم، وكان من ضمن هذه الأمور المغالاة، والبخخ في الموائد التي كانت تقدم إليهم.

لذلك فقد تفنن الفاطميون في إعداد أنواع الأطعمة، والأشربة، وحرصوا على إحضارها من مصانرها حتى ولو كانت بعيدة، فتميزت موائدهم بالتنوع، وللكثرة، حتى إن المطبوخ من كل طعام لهم كانوا يجعلونه أضعاف ما يحتاجون إليه؛ لذلك كانت الأطعمة تزيد بكميات كبيرة عن الحاجة المطلوبة، فكان الخدم يحملونها ويبيعونها في الأسواق، وينفقون بأثمانها. (٢)

لم يقتصر هذا الأمر على الخلفاء فحسب، بل اشتمل وزراءهم المقربين منهم، فقد كان لوزير العزيز بالله الفاطمي - يعقوب بن كلس - في قصره مطابخ خاصة له، ولضيوفه، وأخرى لحاشيته، وعلمائه، تمت يوماً لخاصته يأكل هو، وخواصه من أهل العلم ووجود الكتاب والعلمان ومن يستدعى إليهم، وتمتد موائد أخرى لبقية حجابيه، وحاشيته. (٣) ويذكر المقرئ أن الدولة كانت تنفق على خزائنة التوابل فقط سنوياً ما يصل إلى خمسين ألف دينار. (٤)

انعكس شدة إسراف الدولة الفاطمية وبخخها في هذا المجال على من حولها من الخدم والعلمان، فعلى الرغم مما قدمته الدولة الفاطمية لموظفيها ورعاياها من كافة أصناف الطعام والشراب إلى رعاياها فمن الواحد منهم كان يصرف العشرة والعشرين ديناراً على طعامه، وذلك كما يقول المقرئ لسعة أحوالهم وشدة بخخهم. (٥)

(١) ابن لياس: بدائع الزهور، ج ١، ص ٤٦.

(٢) إبراهيم زروق بالله أوب: التاريخ الفاطمي الاجتماعي، ص ١١٨، ١١٩.

(٣) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٧، ص ٢٩٩ للمقرئ: للخط، ج ٢، ص ٦.

(٤) ابن ميسر: تاريخ مصر، ص ٥٨؛ المقرئ: المصدر السابق، ج ١، ص ٤٢٠.

(٥) المقرئ: المعاهد الخفا، ج ٣، ص ٣٤٣.

تجلت مظاهر الترف والبذخ في الشراب أيضاً، فأعد له الفاطميون خزانه خصصت لحفظ العديد منه ووضعه، حتى إن بعض الخلفاء منهم من قد تناول المشروبات المسكرة، وأدمنوا على تعاطيها في مجالسهم، وكذلك فعل وزراءهم، وقد ارتفعت قيمة التنفقة على تلك الخزانه - خزانه الشراب - حتى بلغت ستة آلاف وخمسمائة دينار في السنة. (١)

ثم يكن للفاطميون يُبالغون فقط في أنواع الأطعمة والأشربة، بل بالغوا أيضاً في الأواني المعدة لحمل تلك الأطعمة، فوصلوا من الإسراف إلى حد الذرورة، واستخدموا الأواني الذهبية لهذا الغرض - على الرغم من تحريم الإسلام لذلك (٢) - فكانت الجواهر تحيط بأنوات المطبخ، التي تحمل على صواني ذهبية، عليها صور آدمية (٣)، وصور لبعض الحيوانات، فكانت بعض الصواني تحمل صور الفيلة التي استعاض عن عينيها بجوهرتين كبيرتين، وكالت أنيابها بالفضة، كذلك اتخذوا أزياراً من البلور المرصع بالجواهر، وكللوا العزيرين بحب اللؤلؤ النفيس. (٤)

أدى هذا الإسراف المبالغ فيه في الطعام والشراب إلى زيادة مظاهر الفساد التي استطاعت أن تتسرب لتصل إلى جسد الخلفاء، فقد اشتهر الفاطميون بملازمة الأطباء لهم أثناء تناول الطعام الذي كثروا من أكله، وانغمسوا فيه، حتى أدى بهم إلى الكثير من علل الجهاز الهضمي، حتى أصيب أكثرهم بمرض القولنج (القولون)، وهلك بعضهم بهذا الداء. فما كان من الخليفة الحافظ لدين الله إلا أن أمر بصنع المشهور الذي بقي حتى الدولة لفاطمية، حيث كسره أحد الأمراء الأكراد. (٥)

(١) المقرئزي: الخطط، ج ١، ص ٤٢٠.

(2) Stanley - Lane Poole : op. cit., p. 86.

(٣) المقرئزي: الخطط، ج ١، ص ٤٧٧؛ ابن خلكان : المصدر السابق، ج ٢، ص ٤١٤.

(٤) إبراهيم رزق الله أيوب: التاريخ الفاطمي الاجتماعي، ص ١٢١.

(٥) المقرئزي: تلعلل الخلفاء، ج ٣، ص ٣٣٠، ٣٣١.

كذلك عنى الفاطميون بملابسهم، وبذلوا بسخاء في سبيلها، ومن أجل ذلك بلى للمعز لدين الله داراً للكسوة، كان يقصل فيها جميع أنواع الثياب من كموات الصيف والشتاء، وقد درج الفاطميون على توزيع تلك الكموات على جميع خدمهم وحواشيهم، وقد بلغ مقدارها في العام ستمائة ألف دينار (٦٠٠.٠٠٠) بالإضافة إلى ما كان يرتديه الخلفاء من ملابس كانت غالباً موشاه بالذهب، أو الفضة، والديباج للموشى بالقصب، والعمائم التي تتلأأ بالجواهر، والياقوت. (١) وقد حذا الوزراء، وكبار رجال الدولة حذو الخلفاء، حتى إن الوزير الأفضل بن بدر الجمالي قد ترك تسهين ألف ثوب عطابي من الديباج، وثلاث خزائن كبيرة منأى بالثياب الرقيقة من صنع ديباط، يصل ثمن القميص الدبقي منها إلى عشرة آلاف دينار. (٢)

بلغ البذخ بالفاطميين إلى حد كسوا فيه دوابهم بالمنسوجات الحريرية للموشاة، وألبسوا الفيلة الحلبي، والسروج المذهبة، أو المُصلاه بالفضة، وكذلك كانت لجامهم. (٣)

هذه كانت لمحات من حياة أهل الحكم، التي اقتصت بأموال البلاد، لتنفقها على بناء القصور، وتأثيثها، وإقامة المآدب، والملاهي، والانعمامن في مظاهر البذخ، والترفا، والإسراف، الذي لم ينل منه إلا المقربون منهم، أما بقية الشعب فكان يتخبط في ضيق على الرغم يسر للدولة، لتبقى الفوارق الاجتماعية الكبيرة مستمرة بين أهل الحكم، والعامّة يفصل بينها سور عظيم أحاط به الفاطميون أنفسهم، فحجب عنهم معاناة الشعب الذي ظل مغلوباً على أمره، يحمل في قلبه الخوف، والرهبة من الخلفاء، والجوع، والثورة عندما يشند الحرمان.

يذكر للمبجى: أنه في عام ٤١٥ هـ / ١٠٢٥ م هجم العامّة على القصر، وكان ذلك يوم عيد النحر، صائحين بأعلى أصواتهم: "الجوع

(١) المقرئزي: القحطط، ج ١، ص ٤١٠.

(٢) ناصر خسرو: سفرنامه، ص ٩٩.

(٣) المقرئزي: القحطط، ج ١، ص ٤١٨.

الجوع، نحن أحق بسماء مولانا، وذلك بعد أن رأوا السماط يزحف في الشارع الأعظم ذهابًا إلى قصر الخليفة، ولم يبالي الناس بضرب الصقالبة لهم، وتهافتوا على الطعام، وضرب بعضهم بعضًا، ونهبوا جميع ما أصلح من الأخباز، والأشوية، والحلوى. (١)

ثانيًا: مظاهر الفساد الاجتماعي بين طوائف الجنين وأثره على المجتمع المصري.

لقد عرف المجتمع المصري أوضاعًا سياسية متغيرة، يتقلب الخلفاء والوزراء، ويسيطرون على الأحكام في البلاد من مركز قوة أو ضعف، ورافق هذه التقلبات السياسية اختلاط عناصر بشرية متعددة الأصول، لا تربط بينها أية روابط يمكن أن تشدها إلى بعض فتتألف، بل نجدها تتناحر، وتتقابل فيما بينها محدثة الفتن، والاضطرابات داخل المجتمع المصري.

فقد شهد المجتمع المصري على مر تاريخه أوضاعًا سياسية متغيرة ساد فيها من ساد، وحكم فيها من حكم، وظهرت فترات قوة، وازدهار، أعقبتها حالات من الضعف، والاضمحلال، والظلم والفساد. كل هذا أفرز هجرات، وتوطن، واستيطان بشري أدى إلى الاختلاط، وتعدد الأصول والأجناس، والقوميات، مما أحدث كثيرًا من الفتن، والشورث والاضطرابات داخل المجتمع المصري ولاسيما في مراحل الضعف مما كان له أثره السلبي على مظاهر الحياة الاجتماعية.

فلما اتخذ الفاطميون مصر مقرًا لخلافتهم، ساروا على طريقة العباسيين في الاعتماد على غير أبناء جنسهم، فصار جيشهم في عهد المعز لدين الله الفاطمي يتألف من قبائل كتامة، وزويلة، وبعض طوائف البربر، ومن الصقالبة. (٢) ثم جاء العزيز بالله الفاطمي، واستخدم السديلم، والأتراك، (٣) وظل الحال على ذلك إلى أن ولي الحاكم بأمر الله الخلافة

(١) للمسبحي: أخبار مصر، ص ٨٢، ٣٩٠. Heyd : op. cit., p. 390.

(٢) ابن ميسر : تاريخ مصر، ص ٥٩ - ٦٠، حين تفرق بردي: النجوم، ج ٤، ص ٩٠.

(٣) للمقريري: الخطط، ج ٢، ص ١٢ : على باشا مبارك: الخطط التوفيقية، ص ٤٣ : أيمن فولاد سيد: الدولة الفاطمية، ص ٦٦٤.

فاعتمد في جيشه على الجنود المرتزقة من الأتراك والسودانيين الذين علا شأنهم في عهد المستنصر بالله، حيث استكثرت أمة ملهم حتى بلغ عددهم خمسين ألفاً. ^(١) وقد ظل للتناقض بين الأتراك والسودانيين مما كان له أسوأ الأثر في حانة مصر الداخلية. ^(٢) هذه الأمور الذي أدى إلى استعانة المستنصر بالله بقوى خارجية تمثلت في بدر الجمالي وجنده الأرمن. ^(٣) وعج المجتمع بعديد من العناصر المكانية، والطوائف مختلفة الانتماءات، والثقافات، والتطلعات.

ولقد كان يعقب ظهور فرقة عسكرية من طائفة بعينها حالة من الصراع؛ حيث كانت الفرقة تقوى على حساب الفرق الأخرى، ويحدث التباعد، والتضام، والبحث عن المصلحة؛ وفي ظل هذه الأوضاع كانت مصر تتعرض للكثير من الاضطرابات، والفتن، ويتعرض أهلها لنفسد

(١) المقريري: المصدر السابق، ص ٢-٢٣.

(٢) نفسه، محمد جمال الدين سرور: الدولة الفاطمية في مصر، ص ٩٣.

(٣) الأرمن: يذهب بعض المؤرخين إلى أن وجود الأرمن في مصر يعود إلى عصر الأمرات المصرية القديمة، ثم تزايد عددهم خلال الحكم البيزنطي (٥٢٧ - ٦٤٠هـ)، وكذلك مع الفتح الإسلامي لمصر، وقد اشترك بعضهم في فتح مصر، مثل القائد (ثارتان) (وردان) مولى "عمرو بن العاص" الذي كُتِبَ بأبي عبيدة وهو من روم أرمينية، كانت له دار بالقسطنطينية تعرف بدار "التحاس"، جعلت ديواناً في إمارة مسلمة بن مخلد أمير مصر، وقد شيد 'وردان' سوقاً في القسطنطينية عرفت بسوق 'وردان'، وبنى في هذا السوق دارين وحمام عرف بحمام 'الزجاجين'، كذلك تولى بعض الأرمن للمسلمين في أثناء الحكم العباسي إمارة مصر، مثل الأمير علي بن يحيى الأرمني في عام (٢٢٦هـ / ٨٤٠م) وقد تزايد عند الأرمن بدخول بدر الجمالي مصر.

للمزيد راجع: لين ديمق: الاتصال لواسطة عقد الأمصار، ص ٦، ١٣٢.

- Mahe, Jean- Pierre : Les Armeniens et l'Egypte, Le Monde Copt, No. 9, 1980, Paris, pp. 25 - 26.
- Armenians in Egypt, Contribution of Armenions to Medieval and Modern Egypt, 2006, p. 36.

بشئى أنواعه، هذا الأمر الذي عده بعض المؤرخين^(١) سبباً من أسباب سقوط الدولة الفاطمية في مصر، ومن أجل ذلك كان ولا بد من التعرف على تلك الفئات، وطبيعة التنافس بينها حتى يتسنى معرفة الآثار الاجتماعية الناتجة عن ذلك التنافس، والتي بدورها أفسدت شئى النواحي الاجتماعية داخل المجتمع.

١- الصراع بين المغاربة والأتراك^(٢) وأثره في فساد المجتمع:

قامت فئة المغاربة من تكتل القبائل المغربية التي رافقت القائد جوهر الصقلي عند دخوله مصر، ومن قبله أثناء الحملات التي وجهت

(١) محمد جمال الدين سرور: الدولة الفاطمية في مصر، ص ١٠١-١١٠؛ أمينة الشوريجي: رؤية الرحالة، ص ٤٨٢.

(٢) تواجد الأتراك في منطقة التركستان Turkestan وهو اسم جامع لجميع بلاد الترك وهي موطن الأتراك في آسيا الوسطى وتمتد من بحر الخزر (بحر قزوين) غرباً إلى حدود التبت ومنغوليا شرقاً وتشتمل على أقاليم ما وراء النهر وفرشانة والسند وخوارزم من خراسان، وانتشر الإسلام بينهم من خلال فتوحات قتيبة بن مسلم في ظل الدولة الأموية (٤١ - ١٣٢ هـ / ٦٦١ - ٧٤٩ م) ومن أسباب انتشار الإسلام بينهم أيضاً: السجام هذا الدين مع التعرف التركماني والقواعد الأخلاقية المتعارف عليها في المجتمع التركماني هذا بجانب السماحة واحترام الآخر وقبوله ومبدأ المساواة والدفاع عن الحقوق فكل هذه الأسباب مجتمعة دعت الأتراك إلى إشهار إسلامهم وبصير لهم شأن في ظل الدولة الفاطمية.

راجع: النرخشي (أبي بكر محمد بن جعفر): تاريخ بخاري (٢٨٦ - ٣٤٨ هـ / ٨٩٩ - ٩٥٩ م)، الطبعة الثالثة، ترجمة د/ أمين عبد المجيد بدوي، نصر الله ميشر العزازي، دار المعارف، القاهرة، ١٩٩٣ م، ص ١٩؛ كويولي زاده فؤاد: توركيا تاريخي، استنبول، ١٩٦٣ م، ص ١٤٦ - ١٤٧ د. سعد زحلون عبد الحميد: "الإسلام وللتورك في العصر الإسلامي والوسيط"، بحث منشور في عالم الفكر (١) دراسات إسلامية، تصدر من مجلة عالم الفكر، وزارة الإعلام، الكويت، ١٩٨٤، ص ١٨١ زكي وليدي طوغان: عمومي تورك تاريخية كورشي: المدخل إلى التاريخ التركي العام، ج ١، مطبعة أمسكون، استنبول، ١٩٤٩ م، ص ١٨٦ - ١٨٧.

إلى مصر في عهد الإخشيديين، وتلك التي جاءت مع الخليفة المعز لدين الله الفاطمي، كانت هذه الفئة عصب الدولة الفاطمية، والدماء التي تجري في عروقها. (١) إذ قامت على أكتافهم الدولة الفاطمية في بلاد المغرب، ثم في مصر، وكانوا يدينون بعقائد المذهب الفاطمي. (٢)

ونظرًا لتلك المكانة فقد تعالت هذه الفئة على أهل البلاد، فحاولوا في أول عهدهم نهب المواضع في مصر اعتمادًا على قوتهم العسكرية، فثار للمصريين في وجوههم دفاعًا عن مواضعهم، مما اضطر جرير الصقلي إلى كف يد المغاربة عنهم، وتعويضهم عما نهب منهم. (٣) وفي عهد المعز لدين الله ثاروا مرة أخرى في صحراء المقابر، وأخذوا في نهب للناس، غير أن المعز قد أنكر ذلك، وقبض على جماعة منهم. (٤) وبالطبع أثر ذلك على المجتمع سلبيًا، وساعد على بدأ تفشي الفساد الاجتماعي.

وعلى الرغم من ذلك فقد اعتمد الفاطميون عليهم اعتمادًا كليًا، ولولهم أعلى المناصب في الدولة، فاندفعوا إلى طلب المزيد من التنازلات التي أجبر الخلفاء على تقديمها بفضل الضغوط التي مارسوها عليهم. (٥) فلما تسلم العزيز بالله الخلافة خشي على نفسه من نفوذ المغاربة، فاصطنع الأتراك، والديلم، وجعل منهم القواد تشبهاً بالعباسيين، فحرك هذا الشعور للمغاربة، ولأسيما الكتابيين منهم، وبدأ التحاسد يحصل

(١) علي باشا مبارك: الخطط التوقفية، ص ٤٢؛ محمد جمال الدين سرور: للدولة الفاطمية في مصر، ص ٩٣؛ إبراهيم رزق الله أيوب: التاريخ الفاطمي الاجتماعي، ص ١٧.

(٢) المقرئ: فتاوى الحنفية، ج ١، ص ٩٣ - ٩٥.

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١٢، ص ٩٩؛ ابن ياسين: دائع الزهور، ج ١، ص ٥٢، ٥٣.

(٤) المقرئ: فتاوى الحنفية، ج ١، ص ١٤٨.

(٥) إبراهيم رزق الله أيوب: المرجع السابق، ص ١٧.

فعله بينهم. ^(١) ولأميما أن العزيز بالله قد اختار عند منحه لمناصب القيادة والنقطة، فولى بنجوتكين التركي القيادة، وولاية نمشوق، ووفيا الصقلي حكم عكا، وبشارة الإخشيدى حكم طبرية، ورباخا حكم غزة، وولى برجوان إمارة القصر. ^(٢)

وعندما توفي العزيز بالله وخلفه ابنه الحاكم بأمر الله ثار المغاربة محتجين، ومطالبين بإبعاد الأتراك، وتمليهم الوساطة - الوزارة - فلبى للخليفة الجديد وعبتهم، ونزل عند إرادتهم، فقلد الوساطة إلى أبي محمد الحسن بن عمار الكنتامي، فاستبد بأمر الدولة، وقدم المغاربة على سائر الناس، ووزع عليهم العطاء، وخط من قدر الأتراك، والديلم، وجرهم من العطاء. ^(٣) وازداد فساد المغاربة وزعيمهم ابن عمار الذي بلغ من نفوذه أن ألزم سائر الناس بالترجل له. ^(٤) واستغل سلطته في تحقيق أطماع الكتابيين فخصهم ببعض الوظائف العامة في الدولة. ^(٥)

كانت نتيجة تلك السياسة ازدياد جراءة للمغاربة، فعاثوا فسادا في القاهرة، ونهبوا المتاجر، واشتبكوا مع الأتراك في بعض المعارك. ^(٦) التي أدت إلى حدوث فتنة كبيرة عمت مصر كلها، وذلك بعد أن كثر عبث المغاربة بامتداد أيديهم إلى خطف للنساء من الطرقات، وتعرية الرجال من ثيابهم، وتطور الأمر بينهم، وبين الأتراك حتى دخل الفريقان في قتال شديد، انتهى بهزيمة المغاربة، وهروب ابن عمار من القاهرة إلى القسطنطينية تاركاً داره، واصطبلاته عرضة لأعمال السلب والنهب. ^(٧)

(١) علي باشا مبارك: المرجع السابق، ص ٤٢، ٤٣، ٤٤٣. Heyd : op. cit., p. 395.

(٢) المقريزي : الخطط، ج ٣، ص ١١٧؛ ابن تغري بردي: النجوم، ج ٤، ص ١١٧.

(٣) ابن ميسر: أخبار مصر، ص ٥٥.

(٤) ابن الصيرفي: الإشارة، ص ٥٦؛ المقريزي: الخطط، ج ٢، ص ٢٢.

(٥) ابن ميسر: المصدر السابق، ص ٥٥.

(٦) المقريزي: الخطط، ص ٣٦، ٣٧ + محمد جمال الدين سرور: الدولة الفاطمية في

في مصر، ص ٩٢.

(٧) ابن سعيد [علي بن سعيد المغربي]: النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة، -

تغيرت أحوال المغاربة بعد فضل بن عمّار، وتولية برجوان الصقلبي زعيم الأتراك الواسطة، حيث عمل برجوان على إقناع الحاكم بأمر الله على التخلص من المغاربة، والاعتماد على الأتراك، فكان لبرجوان ما أراد، فتم القبض على ابن عمّار، وقتله، وقتل كثيراً من المغاربة، فأنحط قدرهم إلى زمن الظاهر لإعزاز دين الله، وقويت شوكة الأتراك.^(١)

لخرج مما سبق بقيء مهم، وهو أن الضعف السيامي، وعدم إحكام قبضة الحاكم على زمام الأمور يؤدي إلى تداعيات خطيرة على شتى المستويات ولاسيما الحياة الاجتماعية؛ حيث تحدث حالة من الفوضى، والفساد؛ لغياب الرقابة وللتمييز لفئة على حساب الأخرى فتظهر الأحقاد، والأمراض الاجتماعية، وتتسع الهوة بين الطبقات، ويكون ذلك بمثابة بداية النهاية لمعظم الدول؛ لأن الأقوياء يبحثون عن العدالة الاجتماعية، وصهر عناصر المجتمع بأكمله في بوتقة واحدة، ولكن إذا غاب الروية ضاع الهدف.

وعلى الرغم من الآثار المنبئة لتلك الفترة التي دارت بين الأتراك، والمغاربة والتي عانى منها شعب مصر فإن هناك عاملاً إيجابياً قد نتج عن تلك الفترة، حيث اجتمع كل من المسلمين وأهل الذمة - على الرغم من الاختلاف الديني - لمواجهة المغاربة، وإبعادهم عن الإدارة. هذا الأمر الذي أدى إلى ازدياد دور المصريين في الدونسة الفاضمية ولاسيما بعد أن حلوا محل المغاربة في الإدارة.

- لقسم الخاص بالقاهرة من كتاب المغرب في جنى المغرب، تحقيق: حسين نصار، مركز تحقيق التراث، القاهرة، ١٩٧٢، ج٢، ص ٥٨، ٥٩.

(١) ابن الصيرفي: نفسه، ص ٥٧؛ ابن الأثير: الكامل، مصدر سابق، ج٩، ص ١٨٨؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج١، ص ٢٧١؛ المقرئ: انعطاف لنفسه، ج٢، ص ١٣، ١٤؛ المقرئ: انعطاف، ج٢، ص ٣، ٤؛ ابن نخري بردي: النجوم، ج٤، ص ٤٨.

٢. الصراع بين الأتراك والعبيد :

أما العبيد السودانيون فقد ظهوروا في مصر منذ أيام كسافور الإخشيدى الذي استكثر من أبناء جلدته، وكانوا يُجلبون من الجنوب كجنود مرتزقة، استعان بهم الحاكم بأمر الله؛ للتخلص من سيطرة الأتراك والتخفيف من وطأتهم، فبدأوا يتكاثرون، وشكلوا نواة نكث نساند الخليفة الحاكم بأمر الله.^(١)

وقد علا شأن العبيد عندما غضب الحاكم بأمر الله على أهل مصر الذين صنعوا له تمثالاً على هيئة لمرأة، وفي يدها رقعة، وأسمعوه فيها كلاماً مكروهاً، فحرض العبيد، والأتراك على إحراق مصر - الفسطاط - ودار قتال شديد في بداية الأمر بين أهل مصر من جهة، والعبيد، والأتراك من جهة أخرى، ثم لحاز الأتراك، والمغاربة إلى أهل مصر ضد العبيد عندما تحققوا من مساعدة الحاكم للعبيد في إشعال الحريق.^(٢) فثار الأتراك على انحاكم، وهددوا بإحراق القاهرة إن لم يكف عن ذلك.^(٣) وعلى الرغم من تصدي المصريين، والأتراك، والمغاربة للعبيد فإن أهل مصر قد عانوا الكثير من جراء تلك الفعلة، وذهب منهم الكثير، كما ذهب حوانجوم، وبيوتهم طعمًا لألسنة الليران التي أحرقت الفسطاط.^(٤)

ازداد نفوذ العبيد في عهد المستنصر بالله الذي كانت أمه سودانية، فاستكثر من العبيد - أبناء جلدتها - في جنود ابنهسا، وبسطت لهم الرزق، وأشرقتهم بالنعيم، حتى صار العبيد يعمر يحكم للولاة، فتفاقم خطرهم ولاسيما بعدما بلغ عندهم خمسين ألفاً، في الوقت نفسه استكثر الخليفة من الأتراك، فأصبح الجند الفاطمي طائفين كيبيريين، تتنافس

(١) إبراهيم رزق الله يوب: التاريخ الفاطمي الاجتماعي، ص ١٨.

(٢) ابن تغري بردي: النجوم، ج ٥، ص ١٢٠؛ حسن إبراهيم حسن: تاريخ الدولة الفاطمية، ص ٢٥.

(٣) ابن تغري بردي: المصدر السابق، ج ٤، ص ١٨١، ١٨٢.

(٤) نفسه، ص ١٨٣، ١٨٤.

وتتسابقان في الاستئثار بالنفوذ، فوقع الخلاف بينهما، وكثرت مفاسد هما. (١)

لقد تأججت نيران التنازع بين الأتراك، والعبيد مرة أخرى على إثر مقتل أحد الأتراك على أيدي العبيد، بعدما جرد سيفه على بعض عبيد الشراء أثناء نزهة للخليفة المستنصر بالله، فاجتمع عليه العبيد، وقتلوه، فغضب جماعة الأتراك، ودارت الحرب بينهم، وانتصر الأتراك، وقتل نذر كبير من السودانيين. (٢) فتويت شوكة الأتراك مرة أخرى حتى نجروا على الخليفة نفسه بعدما تنامي إلى أسماعهم أن أم الخليفة كانت تساند العبيد في حربهم ضد الأتراك، فاستعظموا ذلك عليها، واجتمعوا في مواجهة المستنصر بالله، وأسمعوه كلاماً قاسياً. (٣) ولم يجد المستنصر بالله بداً إلا أن يستكر تلك الفعلة، فعادت للحرب مرة أخرى، ووقف المغاربة بجانب الأتراك حتى انهزم العبيد، وتشتتوا في صعيد مصر. وقد بلغ عندهم خمسة عشر ألفاً، عاثوا في الصعيد فساداً، وأخذوا يشنون هجمات متتالية عن طريق البر والنهر على القاهرة؛ رغبة في الاستيلاء عليها، وطرد الأتراك منها. (٤)

زاد نفوذ الأتراك بعد طرد السودانيين إلى الصعيد، واستنحل أمرهم، وعظم أمر زعيمهم ناصر الدولة بن حمدان الذي استبد بالأمور، وطالب الخليفة بالأموال، ثم أنقى القبيض على أم المستنصر بالله، وصانر لموالها في الوقت الذي ترك فيه الخليفة جميع أهله، وسائر أقاربه، وأولاده، وحوادثه متفرقين في المغرب، والعراق، وبقى وحيداً يترفب الأمور. (٥)

(١) ناصر خسرو: سفرنامه، ص ١١٠؛ المقرئزي: فتاوى الخلفاء، ج ٢، ص ٢٦٧؛ إبراهيم رزق الله: للتاريخ الفاطمي الاجتماعي، ص ٤٨.

(٢) ابن ميسر: أخبار مصر، ص ٢٤، ١٢٥؛ المقرئزي: المصدر السابق، ص ٢٦٥، ٢٦٦، ٢٧٣؛ ابن تغري بردي: للنجوم، ج ١، ص ١٧ - ١٩.

(٣) ابن ميسر: للمصدر السابق، ص ٥٥؛ المقرئزي: للخطبة، ج ١، ص ١٨١.

(٤) Stanley Lane - Poole: op. cit., pp. 132 - 133.

(٥) المقرئزي: فتاوى الخلفاء، ج ٢، ص ٣٠٦، ٣٠٧.

هكذا صارت فذات المجتمع تحت مبدأ الحكم لمن غلب، وبالتالي عم الفساد، والاضطراب، وحتى العوام نيران هذه الصراعات، وغابت الهيكلية الطبيعية المنطقية لطبقات المجتمع، مما أثر هذا بالسلب على الهوية الواحدة للمجتمع، وصارت كل فئة تعزف منفردة بعيدة عن الأخرى.

٢- صراع الأتراك فيما بينهم :

أخذ ناصر النولة ابن حمدان زعيم الأتراك يمتدد بالأمور دون الأتراك، وسرعان ما كشف عن غرضه الأصلي، فاستأثر بأموالهم؛ هذا الأمر الذي جعلهم يسعون للخلاص منه. فتوجهوا للمستنصر بالله، وأظهروا استياءهم من ناصر الدولة، كما طلبوا منه أن يخرجهم من الديار المصرية، وبالفعل أرمِل إليه المستنصر بأمره بالرحيل عن مصر، ويهدده بلحاق الأذى به إن امتنع عن الخروج منها، فاستعان ناصر الدولة بالغاند تاج الملوك شاذي بالقاهرة، وقدم له فروض الطاعة، وطلب منه أن يعاونه على التخلص من الوزير خطير الملك، والذكر أحد أمراء الأتراك لا اعتقاده أنهم كانوا السبب في حمل الأتراك على متاهضته، واقطعها المستنصر له. (١) -

استجاب تاج الملوك شاذي لرغبة ابن حمدان، وما لبث أن تمكن من قتل الوزير خطير الملك، أما الزكز فقد التجأ إلى قصر الخليفة، واستجار به، وأخذ يحرضه على قتال ناصر الدولة، فلقى ذلك قبولاً عند الخليفة، وخرج على رأس فريق كبير من جنده، ونحى بناصر الدولة، وهزمه هزيمة ساحقة، فمضى منهزماً في نفر قليل من أصحابه إلى البحيرة حيث انضم إليه فريق من الأعراب. (٢) وكان لهذا التحالف أثره في قيام هذه القبائل بهجمات على الريف المصري، وسائر الحواف، وبدأت فيما قاموا من تخريب البلاد التي استولوا عليها، وملكوا بلاد الريف كلها الشرقية والغربية، ودهبوا، وخربوا، وقتلوا أهلها، ونهبوا الأرواح في

(١) ابن ميمر: أخبار مصر، ص ١٩.

(٢) نفسه، ص ١٩٩ محمد جمال الدين مرور: النولة الفاطمية في مصر، ص ٩٦.

بطون أمهاتهم^(١) وحطموا الجسور، وللقنوت؛ مما ترتب عليه انقطاع
المؤن، والإمدادات عن القاهرة، والفسطاط.^(٢) وكذلك حتى لا يقطع الماء
على أرض أحد، فلا يزرع منهم أحد، ويبيعون غلالهم التي حصلوها بما
يريدون، ويهلكون من بقي من الناس؛ وذلك بعد أن ملكوا الأرض بل
مساحة وبلا خراج.^(٣)

في الوقت نفسه لزداد فساد الأتراك في القاهرة، واستفحل أمرهم،
وأخذوا يطالبون الخليفة بزيادة مرتباتهم ٤٦٠ هـ، فزاد في أعطياتهم
حتى بلغت أربع مائة ألف دينار في كل شهر بعد أن كانت ثمانية وعشرين
ألف دينار.^(٤) ولم يفتح الأتراك بالمعربات التي قرر لها لهم للمستنصر، بل
ألحوا في زيادة مخصصاتهم، ولما أظهر المستنصر عجزه عن تلبية
طلباتهم لقله إيرادات الدولة ألزموه ببيع ذخائره، فأخرجها إليهم، وقسموها
على أنفسهم بأخص الأثمان.^(٥)

فرجعوا إلى الوزراء بالمطالبة، وكانوا كل يوم يقتلون وزيراً، أو
يعزلونه، وقد انتهت قيم طائفة تُعرف بالملحية، فتغلبوا على طائفة
للمستنصر، وتغلبوا على بيوت الأموال، واستأصلوها، وملكوا القاهرة،
ومصر، وأمنتت أعينهم إلى ما في القصور فنهبوها حتى لم يبق للخليفة
المستنصر إلا بساط يجلس عليه، فدخلوا إليه، وجذبوه من تحته.^(٦)

(١) ساويرس بن المقفع : سير النيمة العقبية، م، ج ٣، ص ٢١٤ : Stanley Lane

— Poole : op. cit., p. 133

(٢) تاريخ ابن عديم : مصر الإسلامية، ص ٤٩، ٥٠.

(٣) ابن تغري بردي : النجوم، ج ٥، ص ١٥ - ١٧.

(٤) اللقيري : نهاية الأرب، ج ٢٨، ص ٢٢٧؛ محمد جمال الدين مسرور : الدولة

الفاطمية في مصر، ص ٩٤؛ إبراهيم رزق الله : التاريخ الفاطمي الاجتماعي، ص

١٨.

(٥) ابن مسير : أخبار مصر، ص ١١٧؛ اللقيري : المصدر السابق، ص ٢٢٧.

(٦) ابن ظافر : أخبار الدول، ص ٧٤.

رأى الجند الأتراك بعدما حل بهم، وباتخليفة المستنصر من الشدائد أن يصلحوا ابن حمدان علي أن يظل مقيمًا في البحيرة، ويحمل إليه مبلغًا من المال، ويكون تاج الملوك شاذي نائبًا عنه، فرضي بذلك، وأرسل للجلال إلى القاهرة ومصر؛ مما أدى إلى توافر القوات الضرورية للأهالي. (١) على أن تاج الملوك شاذي مرعان ما نقض هذا الصلح، واستبد بالأمور في القاهرة، وصار لا يرسل لابن حمدان إلا القليل من الأموال، فاستاء حمدان من ذلك، ومدار في جموع العربان إلى انجيزة حيث تمكن من انقبض على ثلثي، وأطلق لجنده للعنان لمسي الفسطاط، فتهبوا، وأشعلوا النيران فيها، فأرسل لهم الخليفة جيشًا استطاع هزيمتهم، فغروا إلى البحيرة مرة أخرى. (٢)

لم يقف الأمر عند هذا الحد من الفساد والاضطراب الذي عم البلاد، بل وصل الأمر إلى أن بعث ناصر الدولة إلى سلطان السلاجقة بالعراق رسولاً من قبله - فقد استعان ناصر الدولة ببني جنمه ممن الأتراك على الرغم من مخالفتهم للمذهب الشيعي الذي ظل مخلصًا له فيما سبق - يسأله أن يرسل إليه عسكريًا ليقم الدعوة العباسية على أن تزول إليه السيادة على مصر، فرحب البارسلان بذلك، غير أنه ما لبث أن شغل بمحاربة الروم عن المسير إلى دمشق ثم مصر. (٣) وعندما علم المنتصر بذلك جهز جيشه لمحاربته بالبحيرة، غير أن ناصر الدولة قد أوقع بهم الهزيمة، وغنم مغنم كثيرة، وأقام الخطية للخليفة القائم بأمر الله العباسي في الإسكندرية ودمياط، وجميع أنحاء الوجه البحري، وحال دون وصول الأكواف إلى القاهرة، ومصر. (٤)

(١) ابن ميسر: المصدر السابق، ص ٤٢١ للمقريزي: فتعاط الحنفاء، ج ٣، ص ٣٠٦.

(٢) ابن ميسر: المصدر السابق، ص ٤٣٨، التويري: المصدر السابق، ص ٢٣١،

Stanley Lane - Poole: A History of Egypt in the Middle Ages, pp. 146 - 147.

(٣) ابن ميسر: المصدر السابق، ص ٤١٩ - ٤٢٠، ابن تغري بردي: النجوم، ج ٥،

(٤) ابن ميسر: أخبار مصر، ص ٤٢٠ للمقريزي: للخط، ج ١، ص ٣٣٦.

ظل ناصر الدولة ابن حمدان يعمل على إضعافه للخليفة الفاطمي، والاستئثار بالحكم، فبعث إلى الخليفة القائم العباسي ببغداد يلتمس الخلع، ثم قدم إلى السلطان على رأس جيش كبير، وتولى الحكم فيها. (١) خشى الأتراك على أنفسهم من جراء استيلاء ناصر الدولة بالأمور، فاتفقوا على تكبير مؤامرة لقتله، فركب إلى داره فريق من الملحية، والأتراك، (٢) وانقضوا عليه بسيوفهم، ولم يكتفوا بذلك، بل تتبعوا كل أفراد أسرته، وتخلصوا منهم. (٣) فعاثوا في القاهرة قساداً، ولامبئياً أن الخليفة كان إذ ذلك قد امتنع بقصره. (٤)

هكذا تقلص نفوذ الخليفة، وانحصر داخل قصره، بينما تناسمت فرق الجند لقاليم الدولة، فاستولى اللواتيون على البحيرة، والإسكندرية، وملكوا معظم الأراضي، واستقر للصعيد في أيدي المغاربة والسودانيين، بينما تحكم الأتراك في القاهرة، والفسطاطة وعانى شعب مصر بشدة من جراء تلك الحروب، والصراعات، والفتن، والثورات.

٤. ظهور الأرمن، وأثرهم في فساد المجتمع:

مما لا شك فيه أن للجيش الفاطمي بتعدد عناصره، وفئاته، وطوائفه صار ضعيفاً جداً، وانتابته حالة من التوهن، وانصرف معظم الخلفاء عن الاهتمام به وبإعادته، ومما زاد الطين بلة الحالة التي عانتها مصر في تلك الأونة من صراعات، وثورات، وحروب أهلية، مما اضطر الخليفة الفاطمي المستنصر بالله إلى الاستعانة بوالي عكا الأرمني بدر الجمالي؛ حتى يُحقق استتباب الأمن، والأمان بداخل البلاد.

لم يكن من المعروف على وجه الدقة عند القوات المُصاحبة لبدر الجمالي الذي لم تذكره المصادر، كما أن نسبة الأرمن بين هذه القوات

(١) المقرئزي: المصدر السابق، ص ٣٣٧.

(٢) ساويرس بن المقفع: سير للبيمة المقتنسة، ج ٣، م ٧، ص ٢٠٤.

(٣) ابن ميسر: المصدر السابق، ص ٢٢، Stanley Lane - Poole : A History, op, cit., p. 147

(٤) المقرئزي: المصدر السابق، ص ٣٣٧.

غير مُحدد، غير أن ما ذكره للمقريري يؤكد أن غالبية القوات المُصاحبة ليدر كانت من الأرمن، حيث يذكر أن مُعظم الجيش صار من الأرمن، وذلك بعد أن هبت كتامة - المغارية - وثارت من جملة للرعية بعد أن كانوا من وجوه الدولة، وأكابر أهلها. (١) وأقيمت دولة الأرمن بديار مصر. (٢)

عُرفَ الأرمن بالمشاركة تمييزاً لهم عن الأتراك، والبربر، والسودان. (٣) والواضح أن الأرمن كانوا نصاري، فبعد وصولهم بقبيل، وصل بطريكمهم، واسمه أغريغوريوس الذي أحسن أمير الجيوش استقباله، وأنزله في كنيسة مار مريم للنصاري الملكانيين بأرض الزهري - المدينة زينب الآن - (٤)

لم يكن خطر الأرمن يكمن في صراعهم مع غيرهم مسن الجند كباقي العناصر سابقة الذكر؛ حيث قام الأرمن بالقضاء على للبقية الباقية من الجند الذين أفسدوا في مصر، وذلك بمجرد مجيئهم إليها، ولكن الخطر قد تمثل في كونهم نصاري سيطروا سيطرة كاملة على الأمور في مصر الإسلامية، فزاد نفوذهم وقويت شوكتهم، ووصلوا إلى أعلى مناصب الدولة، فزاد قسادهم، وظلمهم للمسلمين، وكادت مصر في عهدهم تحول إلى دولة نصرانية.

فعندما فرغ بدر الجمالي وجنوده من إعادة الأمور إلى نصابها في العاصمة والفسطاط، واستعاد ما قد نهب من كنوز للخليفة، توجه إلى الأقاليم، فاتجه إلى الوجه البحري، وقضى على جماعة للمفسدين فيه، ثم توجه إلى الصعيد، وقضى على ما فيه من ثورة، وأقنى كثيراً من جند السودان، وعظم منهم كثيراً من المخالم، (٥) وأعاد نفوذ الخليفة على جميع

(١) المقريري : الخطط، ج٢، ص ١٢.

(٢) المقريري: المقى الكبير، ص ٤٠٢.

(٣) ابن ميسر : أخبار مصر، ص (١٢) للمقريري : للخطط، ج ١، ص ٣٣٧.

(٤) سلويص بن المقفع: سير الديمة للمقدسة، ج ٣، م ٢، ص ٢١٩.

(٥) للمقريري: للخطط، ج ١، ص ٣٨٢؛ حسن إبراهيم حسن : الفاطميون في مصر،

ص ٤٦٢.

بلاد الوجه القبلي حتى أسوان، ومن ثم علا شأن الأرمن، وزاد نفوذهم. (١)

زاد عدد الأرمن في مصر ولاسيما بعد أن تولى بهرام الأرمني الوزارة، وذلك في عهد الحافظ لدين الله، حيث سأل للخليفة أن يأذن له بإحضار إخوته وأقاربه وأهله من الأرمن من أرمينية، فسمح له. بدأ الأرمن يتوافدون إلى مصر حتى بلغوا ثلاثين ألفاً في زمن قصير، وعمل جزء كبير منهم في الفلاحة، وآخر في التجارة، فجمعوا ثروة كبيرة، وتولوا المناصب المهمة في الدولة؛ مما أدى إلى تضرر المسلمين منهم، ولاسيما بعد أن عاثوا فساداً في أرض مصر. (٢)

كان بهرام قد ولي أخاه الياسك الأرمني ولاية قوس، فظلم الناس، واستباح أموالهم، وأهانهم، وثار عليهم هو، وقوته من الأرمن، فلما ضاق بهم استجار بالخليفة، وطلبوا إبعاد بهرام وقواته، ولكن الخليفة لم يستجب لهم، مما جعلهم يستجدون برضوان البولخس والي الغربية؛ ليخلصهم من ظلم الأرمن، وإهانتهم. (٣) فجاء رضوان على رأس جيش كبير، ودارت بينه وبين الأرمن المعارك التي انتهت بتولي رضوان للوزارة، وحرب بهرام، وقتل ياسك أخوه، وقتل الكثير من أعوان بهرام، وصودرت أملكهم. (٤)

هكذا وكما يُلاحظ أن الخلفاء كانوا يستعينون بقوة جديدة للتخلص من نفوذ وسيطرة قوة عسكرية أخرى، إلى أن وصل الحال إلى استتجاد

(١) إبراهيم رزق الله أيوب؛ التاريخ الفاطمي الاجتماعي، ص ٤٤.

Stanley Lene – Poole : A History, op. cit., p. 147.

(٢) إبراهيم رزق الله؛ التاريخ الفاطمي الاجتماعي، ص ٤٤، ٤٥ : Heyd : op. cit., p. 391.

(٣) ابن ميسر؛ أخبار مصر، ص ٨٠؛ ساويرس بن المقفع؛ سير البيعة المتقدمة، ج ١، م ٣، ص ٣١؛ O'Leary : op. cit., p. 50.

(٤) ابن الأثير؛ للكمال، ج ٨، ص ٣٥٦؛ إبراهيم رزق الله؛ المرجع السابق، ص ٤٥، ٤٦.

الشعب بوالٍ آخر يُخلصهم من ظلم، وفساد قوة عسكرية لم يكن في مقدور الخليفة حماية شعبه منها، بل لم يكن في مقدوره حماية نفسه منها، وبعد أن كان الجيش هو وسيلة الحماية للدولة أصبح هو وسيلة للتفويض، والفساد في ظل ضعف الخليفة وفشله سياسيًا؛ مما كان له أعظم الأثر على المجتمع المصري بأكمله.

فقد دفعت الشعوب الفاتورة في حالات الفساد والصراعات بين الطوائف، وانشغل الحكام بأنفسهم، وصار أقصى أمني عامة المجتمع المصري في تلك الفترة أن يشعر بالأمن، والأمان، ولكن كان هذا حلمًا بعيد المثال في كثير من الأحيان.

• تجدد الصراع بين العبيد والأتراك :

عاد للأتراك قوتهم، ونفوذهم مرة أخرى، وذلك بانتصار الولاخي الذي كان قوام جيشه من الأتراك، وعندما أدرك الخليفة الحافظ لـدين الله الفاطمي رغبة رضوان الولاخس في الاستقلال بالبلاد عزم على التخلص منه ؛ لذلك استعان بالعبيد الذين كانوا دائمًا يُسارعون إلى تنفيذ أوامر الخليفة؛ لذلك عاد الصراع مرة أخرى بين العبيد، والأتراك، ودخول في حرب كانت النتيجة فيها للعبيد وهزيمة الولاخسي، وتفرق جيشه. (١)

(١) المقرئزي: تعاطف الحنفا، ج٣، ص ١٨٢، ١٨٤؛ Mann (J) : op. cit., p. 10

٦- ظهور الأكراد^(١) وانفجرت:

ضعفت سلطة الخلافة الفاطمية، وأصبح حكم مصر في أيدي الوزراء؛ لذلك كان النزاع مستمراً بين الولاة من أجل الوصول إلى ذلك المنصب، وفي أواخر الدولة الفاطمية، وأثناء النزاع بين شاوره وضرغام على منصب الوزارة لم يتردد شاوره في الاستعانة بقوة خارجية حتى إن كانت مخالفة لمذهب الدولة الفاطمية التي دام ولاؤه لها من قبل، من أجل الوصول للمنتصب، فاستعان بنور الدين محمود حاكم دمشق المنفي الذي أرسل معه جيشاً كبيراً من الأتراك، والكرد، وكان على رأسهم أسد الدين شيركوه^(٢) وابن أخيه يوسف بن أيوب المعروف بصلاح الدين.

(١) الأكراد: قيل أن كلمة كرد تعني للذهب وهي تدل على طبيعة بلاد الأكراد الجبلية والتي كانت مأوى للذئاب وبداية ظهور الأكراد كان في إقليم الجبال واستوطنوا في الأجزاء الجبلية منه وفي بداية أمرهم كانوا قومًا لا يبدأ لهم عشوا على السلب والنهب من القوافل التجارية وسكن الأكراد فارس وأرمينية وأذربيجان والعراق القديم والأهواز ويران القديمة واعتمد الأكراد على الرعي بشكل أساسي ورئيسي. ويذكر ماويزس أن الأكراد في مصر أثناء الحرب التي دارت بين الأتراك وناصر الدول بن حمدان وكان عددهم خمسة آلاف كردي. لمزيد من التفاصيل راجع:

- ماركو بولو: رحلات ماركو بولو، ط١، ترجمه إلى الإنجليزية وتيم مارسين، ترجمها إلى العربية عبد العزيز جاويد، ط٢، القاهرة، ١٩٩٠، ص٥٦ - ٥٧.
- الاصطخري (أبو إسحق إبراهيم بن محمد الفارسي): المعالك والممالك تحقيق: محمد جابر عبد العال، مراجعة محمد شفيق غريبي، وزارة الثقافة، الجمهورية العربية المتحدة، ١٩٦١م، ص١١٥.
- إبراهيم محمد مرجونة: تاريخ الأكراد دراسة تاريخية حضارية في ظل الخلافة العباسية، تقديم سحر السيد سالم، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ٢٠١٠م، ص٤٠ - ٤٢.

(٢) أبو شامة: الروضتين، ص٣٣٦، ٣٣٧؛ ساويرس بن المقفع: مسير قبيلة المقنسة، ج ١، م ٣، ص ٥١؛ ابن حماد: أخبار بني عبيد، ص ١٠٨.

التقت جيوش أسد الدين شيركوه بجيوش ضمرغام، واستمرت الحرب دائرة إلى أن قُتل ضمرغام، وتم النصر، غير أن شاور قد غدر بأسد الدين شيركوه، وخالف ما قد عاهده عليه، وأغلق أبواب القاهرة في وجهه، فتقدم إليه شيركوه، وجنده، وقائمه، وحاصر القاهرة، مما كان له أسوأ الأثر على مصر، وأهلها، حيث امتدت أيدي المعز إلى سكان مصر من النصراري، ومن بقى من الأرمن، والأتركة، والمصريين، وكانوا يقتلون منهم، ويبيعوهم، فإن وجدوا من يشتري منهم، وإلا قتلوا ذلك الشخص، ونهبوا أموالهم، وأخذوا نساءهم، وكانوا ينادون على النصراني من يشتري كافرًا، وعلى التركي المصري من يشتري تركيًا خليعًا في الصنيع، وعلى الأسود من يشتري سودان، وكانوا يبيعونهم بشن بخس: عشرين درهماً للنصراني، وعشرة دراهم للتركي، وخمسة دراهم للأشود.^(١)

كما قاموا بهدم الكثير من الكنائس بعد أن نهبوا ما فيها، فهدموا العديد من الكنائس في ضواحي القاهرة، وهدموا كنيسة الحمراء بحارة الروم البراتية، وكنيسة الزهري، ظل هذا الحصار حتى لجأ شاور إلى الاستعانة بالصلبيين (الإفرنج) بعد أن أغرامهم بمال عظيم، فجاءوا بجيش عظيم^(٢)، ودارت بينهم، وبين أسد الدين شيركوه معارك كثيرة كانت مصر مسرحاً لها، وكان شعب مصر، وأهلها تُمنا لها.

إلى أن استقر الأمر لأسد الدين شيركوه، ولابن أخيه صلاح الدين الأيوبي الذي تولى أمر الوزارة في مصر - على الرغم من كونه سني للمذهب - وسارت له السلطة مما جعل للخليفة العاضد يتوجس منه خيفة، فاستعان بالعبيد - الذين برهتوا على مؤازرتهم للخلفاء - للتخلص منه، فقام مقدم للسودان مؤتمن الخلافة بقتال الترك، وانغز، وقد التفت حول

(١) ساويرس بن المقفع : سير للبيعة المقدسة، ج ١، م ٣، ص ٥٢؛

.Heyd : op. cit., p. 388

(٢) ساويرس بن المقفع : للمصدر السابق، ص ٥٢، ٥٣؛

.O'Leary, op, cit., p. 60

مؤتمن للخلافة بقية فئات العسكر المصري، ثائرين على صلاح الدين، وجماعته، وتمكنوا منهم في البداية، وقتلوا جماعة كبيرة منهم، ولكن صلاح الدين شدد من عزيمته الأتراك، والغز، وقاتل إلى جانبهم، فدارت الدائرة على القبيد، وقتل مؤتمن الخلافة الخادم وجماعة كثيرة منهم^(١)، وخلت الساحة للأتراك، وانغز.^(٢)

هكذا كان الناس في مصر يعيشون حياة قلقة مليئة بالخوف والرهبة من المجهول، ولاسيما عندما تضطرب الأمور، وتزداد القلاقل بين طوائف الجند.^(٣) ولم يجد الشعب المصري من يستعين به لحمايته، مما اضطره لحماية نفسه بنفسه، فأكثروا من إخفاء السيوف، والسكاكين، بخاصة العوام منهم، وللصناع دفاضا عن أنفسهم، وأملاتهم.^(٤)

كان لتلك الاضطرابات أثر خطير على حياة الناس، ومعاشهم اليومي، فإن الاضطرابات والقلاقل التي تصاحب المعارك غالبًا ما كانت تؤثر على حركة التجارة الداخلية، والخارجية؛ مما أثر بالتالي على أسعار الضروريات، بخاصة الخبز، بالإضافة إلى الخوف من بطش العسكر المعادي، ولاسيما إذا كانت تلك الحرب على أسواب المدن المكتظة بالسكان، فلم يخل هذا من موت عزيز أو قريب.^(٥) ولقد ظل الحال في مصر يسير من سيئ لأسوء، وظل الناس فيها يعانون من الظلم، والفساد، حتى سقطت الخلافة الفاطمية، وأقيمت الخلافة السنية على يد صلاح الدين الأيوبي.^(٦)

(١) القلقشندي : صبح الأخصى، ج ٣، ص ٥١١ - ٥١٢؛ ابن تغري بردي : النجوم، ج ٥، ص ٤٥٤.

(٢) إبراهيم رزق الله أيوب؛ لتاريخ الفاطمي الاجتماعي، ص ٤٨.

(٣) Mann (J) : op, cit., p. ١5.

(٤) المقرئزي : تعاظ الحنفاء، ج ٢، ص ٩٧.

(٥) نفسه، ص ١٩٣ حسن إبراهيم حسن : الفاطميون في مصر، ص ٤٦٢ - ٤٦٣.

(٥) عبد الملمع سلطان : المجتمع المصري، ص ٧٩، ٨٠.

(٦) ابن حماد : أخبار بني عبدة، ص ١٠٩.

ثالثاً : انتشار الأمراض الاجتماعية بين طبقات المجتمع :

١- انتشار شرب الخمر:

ورد في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّا لَنَنزِّلُكَ وَالنَّبِيَّ وَالْأَنْصَابَ وَالَّذِينَ يَحْسَبُونَ أَنَّ الشَّيْطَانَ عَلَيْهِمْ لَمَلَكٌ مُّبِينٌ ﴿١٠١﴾ وَإِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَصَدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الْعَلَقَةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ (١).

كان شرب الخمر من ضمن الأمراض الاجتماعية التي أصابت المجتمع المصري في العصر الفاطمي؛ حيث انتشرت فيه صناعة الخمر بشكل كبير، وكان الأقباط يختصون بصناعتها. (٢) في الوقت نفسه لم يكن هناك رقابة كافية، أو عقوبة محددة تفرض من جانب الخلفاء الفاطميين للحد من تعاطيها، فكان ذلك تصريحاً غير مباشر من الدولة بشربها؛ لذلك فلم يقتصر الأمر على مجالس الشراب التي شارك فيها بعض الخلفاء، وأكابر الدولة، بل وصل إلى عامة الشعب أيضاً. فبدأ الناس بجاهرون يشرب الخمر حتى في الأشهر التي كانت تحرم فيها شربه إجلالاً لتلك الشهور. (٣) وللتي لها قدامتها، وروحانياتها في نفوس المسلمين، ولاسيما شهر رجب، وشهر شعبان، وشهر رمضان، فترك معظم الناس الإكثار من العبادات في هذه الأشهر، وانصرفوا إلى شرب الخمر، والاستمتاع بالمذات. فبلغ للفساد من الدولة مبلغاً استحال معه العلاج.

صاحب احتفالات الدولة الفاطمية أنجاهرة بشرب الخمر، وانتشار العديد من مظاهر الفسق، والنجور. فيذكر المقرئ: أن أقباط مصر كانوا يحتفلون بعيد الشهيد (٤) من كل عام، وفي هذا اليوم كانت

(١) سورة المائدة: الآيات (٩٠-٩١).

(٢) التفتندي: صحيح الأعيان، ج ٣، ص ٥١١؛ المقرئ: الخطط، ج ١، ص ٢٧٧.

(٣) المقرئ: المصدر السابق، ص ٤٩١؛ عيد المنعم ماجد: نظم الفاطميين ورسومهم، ص ١٠٦ - ١٠٧.

(٤) عيد الشهيد: من الأعياد القبطية، يحتفل به الأقباط في الثامن من شهر 'بشنس'، ويرتبط الاحتفال به بنهر النيل، مصدر النماء، ويعتقد انصارى أن النيل لا يبلغ زيادة في كل عام إلا إذا لقوا تباروتاً خشب فيه يصعب من أصابع أسلافهم الموتى، كعزيرد راجع: عيد المنعم سلطان: المجتمع المصري، ص ١٧٦ - ١٧٧.

تحشد على ضفتي النيل أعداد كثيرة من أهل مصر، وكان النصارى يرحلون من جميع القرى، ويركبون الخيل، ويلعبون عبيها، ويخرج عامة أهل القاهرة، والفسطاط على اختلاف طبقاتهم، وينصبون الخيام على شاطئ النيل، وفي الجزائر وسط مجراه، حيث يجتمع المغنون، والمغنيات، وأرباب الملاهي، والألعاب المختلفة، وكان يندس بين هذه الجموع أهل الخلاعة، والنسق، مما يتسبب في إثارة الفتن، وإزهاق الأرواح؛ لأن معظم الناس في هذا اليوم يكونون سكارى. (١)

وكان يُباع في هذا العيد من الخمر ما يزيد على مائة ألف درهم فضة، ويذكر أن نصرانياً قد باع في يوم واحد ما قيمته اثنا عشر ألف درهم من الخمر، حيث كان الناس يُقبلون على شراء للخمر في ذلك اليوم، حيث يجتمعون في ضاحية شبرا التي اشتهرت في ذلك الوقت بصناعة النبيذ، وبزراعة الكروم، حتى أهل شبرا كانوا يعتمدون في وفاء خراجهم على ما يُباع من الخمر في هذا العيد. (٢)

لم يكن للحولة الفاضمية موقف واضح من هذا العيد، وما يحدث فيه من مظاهر النسق، والتهتك، وإقبال الناس على الخمر، وربما يعود ذلك إلى أن عيد الشهيد كان في مظهره يوماً شعبياً يخرج فيه الناس على اختلاف دياناتهم، وطبقاتهم، أي أنه لم يكن يخص ديناً، أو عقيدة بعينها. (٣)

(١) المقريزي: الخطط، ج ١، ص ٦٩؛ عبد المنعم سلطان: المرجع السابق، ص ١٧٧.

(٢) المقريزي: المصدر السابق، ص ١٦٩؛ حسن إبراهيم حسن: الفاطميون في مصر، ص ٤٦٢، ١١ - ١٠، op. cit., (J) Mann.

(٣) عبد المنعم سلطان: المرجع السابق، ص ١٧٧.

أما في عيد الصليب^(١) فكان النصارى يحتفلون به احتفالاً كبيراً، ويخرجون فيه عن الحد في الإقبال على شرب الخمر، وأنواع المحرمات، والفسق^(٢) مما دفع الخليفة العزيز بالله إلى إصدار أوامره بمنع الاحتفال بهذا العيد ٣٨١ هـ / ٩٩١ م، وحرّم على النصارى الخروج من ضواحي القسطنطينية^(٣) غير أن ما عُرِفَ عن الخليفة العزيز من تسنح مع أهل الفضة قد أدى إلى عدوله عن هذا الأمر في العام التالي له، فجرى الناس في الاجتماع فيه للبهو، والفسق على ما كانوا عليه من قبل.^(٤)

كذلك كان عيد الغطاس، وهو من أعياد النصارى أيضاً، وقد كان تميم بن المعز لدين الله الفاطمي يشاركهم فيه، وقد ظهر هذا جلياً فيما قاله من أبيات شعرية في هذا العيد، حيث كان يمضي إلى ملذاته، ومسهواته، ويستبدل الغطاس في الماء بالغطاس في الشراب، وهو يقول :

خَلَّ من يَأْتُم بِالصَّئِيَانِ يَغْدُو اخْتِلاط
وَإِغْدُو لِلصَّهْبَاءِ تَسْقَاهَا وَنَمَقِي وَنَعَاطِي
غَطَّسُوا فِي الْمَاءِ جَهْلًا وَغَطَّسْنَا فِي اللَّيْوَاطِي
وَشَرَبْنَاهَا عَقْلًا خَنْدَرِيْسًا يَنْطَاطُ.^(٥)

(١) عيد الصليب: يحتفل فيه النصارى في السابع عشر من ثوت^١ الموافق الرابع عشر من يوليو، ويعتقدون أن في هذا اليوم سنة ٣٢٨ هـ عثرت الملكة جيلانه أم الإمبراطور قسطنطين على الصليب الذي صلب عليه السيد المسيح عليه السلام، فصنعت الملكة له غلافاً من ذهب وأمرت ببناء كنيسة للقيامة في بيت المقدس وأردعت فيها الصليب. للمزيد راجع: المقرئزي: الخطط، ج ١، ص ٢٦٧؛ عبد الملحم سلطان: المجتمع المصري، ص ١٧٥ - ١٧٦.

(٢) المقرئزي: المصدر السابق، ص ٢٦٧.

(٣) Wellhausen, J.: Arabkingdom and its fell, Beirut, 1963, p. 31.

(٤) المقرئزي: المصدر السابق، ج ١، ص ٣٦٢.

(٥) المقرئزي: فتاوى الحنفا، ج ١، ص ٢٧٥-٢٧٦؛ الخطط، ج ١، ص ٢٦٧.

(٥) زياد محمد الجبالي: أماكن التزهر ومظاهر النهو والتسلية في العصر الفاطمي خلال شعر شعرائهم، المجلة العلمية لكلية الآداب بسوهاج، دورية أكاديمية محكمة، ج ١، العدد (٢٦)، ٢٠٠٣ م، ص ١٤٦.

فقد كان تميم بن المعز يرى أنه لا قيمة للحياة بدون لهو، وغناء،
وشرب خمر، حيث يقول: خليني : لا عيش سوى اللهو والصبا
ولا لهو إلا في سماع وخمر. (١)

وكان يوم النيروز من الأيام التي تكثر فيها الإباحية، والفجر،
والفسوق، فكانت المنكرات ظاهرة، والفواحش صريحة، حيث يجتمع
الفاسقون، والفاسقات تحت قصر اللؤلؤ بحيث يشاهدن للخليفة، وبأسيبهم
الملاهي وترفع أصواتهم، ويقومون بشرب الخمر ويكرشسون بالماء،
والخمر، وكذلك الماء النجس الممزوج بالأقذار، فإذا خرج أحد الناس من
بنته مستورا، لقي من يرشه، ويفسد ثيابه، ويستخف بحرمته، فإذا تزي
نفسه، ولما افتضح. (٢)

لم يستمر هذا الأمر في زمن الحاكم بأمر الله بما عُرِفَ عنه من
قرارات متتدة لقمع الفساد، فأصدر ضمن ما أصدر عدة مجلات، وأوامر
منظمة لمنع شرب الخمر، والمسكرات بأنواعها، وكذلك المواد التي تصنع
منها، ففي عام ٣٩٩ هـ أصدر مجلاً بالمنع من عمل النبيذ والمزور (٣)،
وحذر من التظاهر بشيء منها. (٤)

وفي العام التالي ٤٠١ هـ أصدر مجلاً آخر بالتحديد في حظر
الخمور، وبيعها، وإزالة النبيذ، وجميع أنواع السكر، كما منع شربه سرا،

(١) تميم بن المعز لدين الله الفاطمي : ديوان تميم بن المعز لدين الله الفاطمي، دار
الكتب المصرية، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٣٧٧هـ/١٩٥٧م،
ص. ٢٠٥.

(٢) المقرئزي : الخطط، ج ١، ص ٢٢٥.

(٣) المزور : بكسر فسكون، وهو ضرب من الأشرطة، قال ابن عمر رضي الله عنهما،
هو من الشرة، وهو في قلوب من للمعالي النبيذ، إذا شرب قليلاً قليلاً، للمزيد راجع :
مختصر الصعاج باب : (م ز ر)، ص ٦١١.

(٤) الأقطاكي : تاريخ الأقطاكي، ص ٢٦٨.

غير أن الأقطاكي يذكر أن ذلك كان في ٣٩٧ هـ. (محمد عبد الله عنان: الحاكم
بأمر الله، ص ١٣٠).

كذلك أمر بكسر أواني الخمر، فأريقته في كل مكان، كما شدد على الخمارين فبذت كل ما في دورهم، ومجالتهم، وقد استمرت هذه الشدة، وتناهدت في العام التالي ٤٠١ هـ، وفي سنة ٤٠٢ هـ حيث صدرت الأوامر لصاحب الشرطة بتحريم بيع الذبيب إطلاقاً، ومصادرته، فألقيت في أنزل مقادير كبيرة منه، وأحرقت مقادير أخرى،^(١) وتوالى هذا الإحراق أياماً أمام المشهود.^(٢)

ولما كانت الخمر تُصنع من الكروم المضاف إليه العسل^(٣) لذلك فقد صدرت الأوامر بتحديد ما يُباع من العسل بما لا يزيد على ثلاثة أرتال، ولا يتجاوز ما يباع من العنب عن أربعة أرتال كما حذر من اعتصامه.^(٤) كما أقام مع البائعين لهما أعتاء لمراعاة تنفيذ تلك الأوامر، فانتهى إليه أنهما يبتاعان ويعمل منهما المسكر المنهي عنه، فزات فسي التحذير عليهما، ومنع بيعهما جملة.^(٥) ثم أمر بحرق الزبيب، فأحرق منه بمصر زهاء خمسة آلاف قنطرة، كما عطل، وأغرق العسل أيضاً، ومنع من جلبهما، وعندما علم بأن الناس يقومون باعتصام العنب سرّاً، أمر بتخريقه في النيل، ومنع بيعه، وأكله.^(٦) فامتنع الناس حتى عن تجفيف العنب في بيوتهم.^(٧)

(١) الأطناعي: المصدر السابق، ص ٢٨٩؛ محمد عبد الله عثان: المرجع السابق، ص ١٣٠.

(٢) محمد عبد الله عثان: للمرجع السابق، ص ١٣٠ Mann (J) : op. cit., p. 45.

(٣) المقريري: المخطوط، ج ١، ص ٤٤.

(٤) المقريري: اتعاط الحنفاء، ج ٢، ص ٩١.

(٥) الأطناعي: المصدر السابق، ص ٢٩٣.

(٦) الأطناعي: تاريخ الأطناعي، ص ٢٩٣؛ المقريري: اتعاط الحنفاء، ج ٢، ص ٩١؛

O'Leary : op. cit., p. 50.

(٧) ناصر خسرو: سفرنامه، ص ١٠٥.

كذلك أصدر مجلاً بمنع شرب الفقاع، وكان شراب الفقاع^(١) من المشروبات المنتشرة في العصر الفاطمي، ويبدو أن بعض أنواعه كانت مسكرة، لذلك حُرِّم شربه. ^(٢) هكذا خصعت للخمر ومصانرها طوال عهد الحاكم بأمر الله لأقصى المطاردات وأعنفها. ^(٣)

وعلى الرغم من قرارات الحاكم بأمر الله الشديدة للحزم، والجرأة، والقسوة، فإن الشعب المصري كان يتحايل عليها في بعض الأحيان بنوع من الذعابة، أو المغزبية التي كان يقابلها اتحاكم نفسه في بعض الأحيان بنوع من المرونة، ومن أمثلة ذلك: أن الحاكم بأمر الله قد أصدر في ٤٠٠ هـ / ١٠٠٩ م قراراً بأن الشيء المغطى لا يكشف، فسكر رجل على الرغم من أوامر الحاكم بأمر الله المشددة بمنع المسكرات، وتعاظيها، وأثناء توجهه إلى داره صادف أحد رجال الشرطة، فلجع عمالته، وغطى بها نفسه، ونام وسط للطريق، وسار الناس يمرون به، ولا يجرؤ أحد أن يكشف عنه، فمر الخليفة للحاكم بأمر الله، وهو على هذه الحالة، فوقف، وماله من أنت ؟ فقال: أنا مغطى، وقد أمر أمير المؤمنين ألا يكشف مغطى، فضحك الحاكم، وألقى إليه بعض أموال، وانصرف. ^(٤)

(١) شراب الفقاع: هو شراب من الشعير سمي بذلك إما بعلوه من اللزيم، ولقد تعددت أنواعه التي منها: "الكوكاب" الذي كان منتشراً في العن الساحلية، وهو يصنع من دقيق ومواد أخرى، وشراب "الاقسام" وكان يصنع من السكر الأبيض المخفف إليه الماء وماء الورد ويغلي بالمسك، ويبرد بالثلج، كما كان يطلق عليه "للخرجي"، وكان يصنع من شجر بلل حتى يبدأ في الإنبات، ثم يجفف، ويسحق، ويضاف إليه دقيق الحنطة، ثم يسكب عليه ماء مغلي، ويترك الشراب حتى يخمر، ثم يؤخذ ما يبقى منه، ويحلى بالسكر. للمزيد راجع: الأنطليكي : تاريخ الأنطليكي، ص ٢٦٨، ابن الأخوة : معالم التربة، ص ١٩٧، عبد المنعم سلطان: المجتمع المصري، ص ٢٥٧، ٢٥٨.

(٢) ناصر خسرو: المصدر السابق، ص ٤٩، المقرئ: المصدر السابق، ص ٧٧.

(٣) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٧، ص ١٦٦، المقرئ: الخطوط، ج ٤، ص ٧٢.

(٤) المقرئ: تماثيل الحفنة، ج ٢، ص ١٩٩، عبد المنعم سلطان: المرجع السابق،

ص ٣٩٢-٣٩١، Heyd, W. : op. cit., pp. 391 - 392.

وعندما أصغر سجدًا بمنع النبيذ، وإتلافه، وأمر رجاله يتبع من يبيع، أو يقتني شيئاً منه، فاتفق أن رجلاً جعل خمراً له على حماره، وهرب به، فتصادف أن قابله الحاكم بأمر الله، أثناء مروره على جسر ضيق، فسأله الحاكم من أين أتيت؟ فقال الرجل: من أرض الله الضيقة. فقال له الحاكم بأمر الله: يا شيخ أرض الله الضيقة؟ فقال الرجل: لو لم تكن ضيقة ما جمعنتي، وإياك على هذا الجسر. فضحك الحاكم منه، وتركه. (١)

ووسط هذا، وذلك، ووسط هذا التشدد استطاع أبو يعقوب إبراهيم بن نسطاس النصراني، طبيب الحاكم بأمر الله الذي كان محباً للخمر أن يجعل الحاكم يعدل عن قراراته انقاسية ضد الخمر والخمارين، ليس هذا فحسب، بل استطاع أن يجعل الحاكم شارباً له، حيث أقنعه بأهمية شرب النبيذ، وعدّد له ما فيه من المنافع، فاستدعى الحاكم بأمر الله جماعة من الصغين، وأصحاب الملاهي إلى مجلسه، وشرب على غنائهم، وأحسن إليهم، وعند الحال باناس في مصر-للقاهرة، إلى ما كانوا عليه في السالف من بيع الخمر، والفقاع. (٢)

ظلت الحال على هذا للمنوال حتى توفي أبو يعقوب بن نسطاس، وهو مكران في بركة ماء. (٣) فعاد الحاكم بأمر الله إلى سيرته الأولى، ومنع للناس من شرب النبيذ أشد منع، وتمدد فيه وقتاً بعد وقت، وحذر على الضمور، والمسكرات حذراً تاماً. (٤) حتى قال ناصر خسرو في ذلك: إنه لم يجرق أحد على شرب الخمر، أو للفقاع أيام الحاكم بأمر الله. (٥) ولم يحدث هذا إلا في عصر الحاكم بأمر الله. (٦)

(١) المقرئزي: التعلّط الحفّاء ج٢، ص ٩١.

(٢) الأنطاكى: تاريخ الأنطاكى، ص ٢٦٩.

(٣) المقرئزي: المصدر السابق، ص ٧٠. يذكر أن اسمه يعقوب وليس أبا يعقوب.

(٤) المقرئزي: الخطط ج٦، ص ٤٩١.

(٥) ناصر خسرو: سفرنامه، ص ١٠٥.

(٦) المقرئزي: المصدر السابق، ص ٤٩١.

وإذا كان الحاكم يأمر الله قد اتجه إلى شرب الخمر بإيعاز من طبيبه النصراني ضارباً بكل قراراته لسابقة عرض الحائض فإن هناك من الخلفاء الفاطميين، ووزرائهم من اشتهر بالانغماس فيها، ولاسيما منعم الظاهر لإعزاز دين الله، والمستنصر بالله والأمر بالله.^(١)

فقد جاء الظاهر لإعزاز دين الله مُحِبّاً للخمر منعماً في اللهو، والترف.^(٢) فترجع عن قرارات والده الحاكم بأمر الله، فعادت الأمور كما كانت عليهما من قبل، وعاد الناس إلى شرب الخمر مسرةً أُخرى، فيذكر المقرئ أنه في عهده قد خرج الناس بمناسبة عيد الفصح إلى قنطرة المقص؛ حيث أمضوا نهارهم في اللهو، وشرب الخمر، رجلاً، ونساءً وهم يُعاقرون الخمر، حتى حملت النساء في قفاف الحمالين من شدة السكر.^(٣)

أما المستنصر بالله فكان يركب في كل سنة، وعصر النساء، والحشم إلى جب عميرة - ركن الحجاج - الذي كان يتجمع فيه الحجاج قبل سفرهم إلى الحج، وعند عودتهم.^(٤) وهو مقرئ بزى الحج، ومعه الخمر محولاً في الروايا بدلاً من الماء، ينور به سقائه عليه، وعلى من معه في مجلسه، حتى شبهه المقرئ بقوله: 'كأنه ماء زمزم'.^(٥)

وقد تخلى المستنصر بالله ذلك، وبغى، وتمرد على خالفه عندما نصب خركاه بالقصور التي بعين شمع، وبنى فسقية عظيمة، وحمل إليها

(١) الهندلدي (أبو منصور عبد القاهر بن طاهر) ت ٤٢٩هـ / ١٣٠٧م : تفرق بين

تفرق، مطبعة المعارف، القاهرة، ١٣٢٨هـ - ١٩١٠م، ص ٣٠؛ حسن إبراهيم

حسن : الفاطميون في مصر، ص ٣١ - ٣٦.

(٢) ابن تغري بردي : النجوم، ج ٤، ص ١٨١ - ١٨٢.

(٣) المقرئ: تلغظ الحنفاء، ج ٢، ص ١٣٧.

(٤) المقرئ: للخط، ج ١، ص ١٦٣ Stanley Lane - Poole : A History

of Egypt in the Middle Ages, p. 133

(٥) المقرئ: تلغظ الحنفاء، ج ٢، ص ٢٦٥ إبراهيم رزق الله لؤب: التاريخ

الإجتماعي للفاطمي، ص ٢٦٥.

روايا الخمر حتى مئيت، وأخرج بجميع ما في قصره من العلافى، والأغاني إلى الخركاه التي هو بها، وهم ينهون بأصوات الفيان، والأوتار، ويستقون من فسقية الخمر، يضاهي بذلك للبيت المعظم، وزمزم ... ويقول: 'هذا أطيب من زيارة حجارة، وسماع صوت كربه، وشرب ماء آمن بغيا، وعلوا'.^(١)

كذلك كان الوزير يرجوان عاتقًا للخمر، فقد كان يكثر من حضور مجالس الشراب، والملاذات التي كانت تطول حتى صباح اليوم التالي.^(٢) كما كان للأفضل بن بدر الجمالي مجلس للشرب، زينه بثمانية تماثيل لثماني جوار متقابلات، كانت منهن أربع بيض من الكافور، وأربع سود من العنبر، وكن مرتديات لفخر الثياب، ومترينات بأئمن الحلي، ويُعسكن بأيديهن الأحجار الكريمة.^(٣) فراجت على أيامه الخمر، وكثر شربها. فكان الأفضل يقتصر في غلق الحانات، ومنع بيع المُسكرات في آخر جمادى الآخرة فقط، لذلك عندما توفي الأفضل، أصدر الوزير المأمون البطانحي أمرًا بغلاق جميع قاعات الخمازين في سائر الأعمال، وأن يُنادى بأنه لا يتعرض لبيع شيء من المُسكرات، أو لشراؤها مرًا أو جهرا في آخر جمادى الآخرة من كل عام.^(٤)

وإن كان ما فعله للمأمون البطانحي، وما فعله الخليفة الحاكم بأمر الله من قبل يدل على أن المنع، أو التشديد في شرب الخمر كان يتم بصورة استثنائية يُراعى فيها مزاج الخليفة، أو الوزير.

كذلك كان الأمير المظفر بن أمير الجيوش بدر الجمالي، وأخوه الأفضل شاهنشاه الذي كان يمضي في كل ليلة إلى الخليفة الأمر بأحكام

(١) ابن ظافر : أخبار الدول، ص ٧٣، ٧٤.

(٢) المقرئزي: اتعاظ الحنفا، ج ٢، ص ٢٥، ٢٦.

(٣) ابن ميسر: أخبار مصر، ج ٢، ص ٥٨.

.Stanley Lane – Poole : op. cit., p. 134

(٤) المقرئزي: الخططه، ج ١، ص ٤٩١، إبراهيم رزق الله أيوب: المرجع السابق،

ص ٢٦٦.

الله، ويشرب عنده، ويخرج في السحر، ومعه غلامان، أو ثلاثة، حتى إن
بواب حارة برجوان كان عند عودة المظفر سحرًا يثبت عليه، ويشتم
الظمان، ويذكر عليهم، ويرجمونه، ويضربهم، حتى وقعت ضربة في
جنب المظفر أهلها، ولم يذكرها على استحياء، فألت به إلى الموت،
فتوفي، وعمره دون الثلاثين.^(١)

٧. ثراء الدولة ونفسي الفاحشة والبقاء:

أدت مظاهر الحياة المترفة التي عمّت المجتمع المصري في
العصر الفاطمي إلى ظهور العديد من الأمراض الاجتماعية التي أصابت
للرجال، والنساء على السواء، فقد كثرت الاحتفالات الإسلامية،
والمسيحية التي شاركت فيها الدولة بشكل مُبالغ فيه، وأصبحت التباهية
تحيا ليلاً، ونهارًا، فكثر حفلات الغناء، والسمر، والخمر، وأميسر سراء،
وعلائية.

ومع كثرة الغناء، والمُغنين، والمغنيات انتشرت الملاهي،
والحانات على الخليج ما بين مصر (الفسطاط)، والقاهرة، حتى أصبحت
تلك المنطقة بؤرة للفساد، والرذيلة بما يُرتكب فيها من مخالقات على أثر
شرب المُسكرات، وتعاطي المخدرات (الحشيشة)، والإفراط في الاستماع
إلى المغنيات، وحضور حفلات المجون، والخلاعة التي كانت تحيا هناك
وسط الأنوار المتلألئة ليلاً، على جانبي الشارع الضيق، حتى أصبح
مقصداً لأهل السر والتعرج.^(٢) ولم يقتصر الغناء على أماكن الفرح،
والمتكزهاة، والملاهي، والحانات، بل عرف الغناء طريقه إلى الدور
خلال الجولاري، والجاريات المُغنيات.^(٣)

(١) المقرئبي: الخطط، ج ١، ص ١٣٤، ١٣٥.

(٢) نفسه، ص ٢٨٧؛ إبراهيم رزق الله أيوب: التاريخ الفاطمي الاجتماعي، ص
٢٦٧.

(٣) إبراهيم رزق الله أيوب: المرجع السابق، ص ٥٢؛ Sanie Lane – Poole :

op. cit., pp. 87 – 89

بالإضافة إلى المُغنين، والمغنيات فقد كثر عند الجوّاري في القصور الفاطمية حتى عجز المؤرخون عن حصرهن، وقد شاعت ظاهرة التسري. فأصبح الناس على دين ملوكهم، فأصبح الرجل في الدولة الفاطمية يمتلك العنيد من النساء دون عناء، أما المرأة المصرية فنشرت بالحسرة والقهر بعد أن شعرت بأن عواطف زوجها قد قلت بعدما توزعت بين عدة نساء، وأصبحت شبه مدسية في المجتمع، ونظيراً إليها نظيرة متدنية، وأتهمت بكل موبقة، وعانت الكثير من الظلم، والجور، ولاسيما في عهد الحاكم بأمر الله.

ووجدت بعض النساء اللاتي خلطن بين الرفاهية، وانحدار الأخلاق، فخرجن عن المألوف، فأسرفن في اللهو، وخرجن إلى الشوارع سافرات بدون حجاب، ومبترجات، كما أقبلن على شرب الخمر، وأكثرن من الخروج، واختلطن بالرجال، فظهرت مظاهر الفسق، والافتحاح. (١) إن كانت للرفاهية سبباً من أسباب ظهور الفسق، والفتور، فقد كان الفقر، والجوع، والحاجة سبباً آخر من أسبابه، حيث ضعف عامة الشعب الذين ضاق بهم الحال، وعجزوا عن تكبير قوت يومهم أمام إغراء بعض القوادين لهم بطيب العيش بتعاطي الغناء واحتساء المسكرات، والافتحاح في الفحش والرذيلة، فتاجروا بأجساد الفقيرات اللاتي سقطن من حيث لا يدريين في الإثم. (٢) فكثرت البغاء، وكثرت الدعارة، وأصبح لذلك الرذائل سماسرة يتفنن في ترويح بضائعهن. (٣) وما كان من الدولة الفاطمية التي قامت على أساس ديني إلا أن تستفيد من ذلك، وتتعامل مع البغاء كحرفة، وتقترض عليها ضريبة محددة كمئات التجارات. (٤)

(١) المقرئبي: اتعاظ للحفنا، ج ١، ص ١٣٧، داربمان عبد الكريم: المرأة في مصر، ص ٨٤.

(٢) آدم منتر: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، أو عصر النهضة في الإسلام، نقله إلى العربية: محمد عبد الهادي أبو ريده، ج ٢، تونس، ١٩٨٦م، ص ٣٥١، O'Leary: op. cit., p. 55.

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١١، ص ٢٩٣، ٢٩٤.

(٤) المقرئبي: الخطط، ج ١، ص ٨٩..

خشى الحاكم بأمر الله الفاطمي الذي اتسم بعلمه للزهد، والتشرف
 أن يصبح هذا السلوك ظاهرة عامة بين جميع الناس، فحاول في أول
 الأمر أن يُنظم المظهر العام لسلوك المرأة الاجتماعي، فلما كان تجمع
 النساء يأتي في الذهاب إلى الحمامات بطريقة منظمة، والاجتماع في
 المقابر أيام الزيارات، والخروج إلى الأسواق، هذا فضلاً عن تجمعهن
 على شاطئ النيل في الأعياد والميل إلى اللهو^(١)؛ فقد أصدر عدة مراسيم
 للحد من ذلك، وقد صدرت أول طائفة من تلك المراسيم في المحرم سنة
 ٣٩٥ هـ^(٢) فصدر سجل يُحرم على النساء أن يكشفن وجوههن في
 الطريق، أو خلف الجنائز، وحرم عليهن التبرج، كما حرم عليهن العويل،
 والصياح وراء الموتى.^(٣) كما أصدر أوامره بتتظيم دخول الحمامات.^(٤)
 كما أصدر الحاكم عدة قرارات بمنع خروج النساء مع الرجال
 على شاطئ النيل للتبرج، ومن ركوب الخيل، ومواضع المرح.^(٥) كما
 منع الناس من الغناء، أو الاستماع إليه، وأمر بكسر سائر ما يُحظر عليه
 من آلات موسيقية، وإحراقها، كما نهى عن بيع المغنيات، ثم أصدر
 أوامره بنفي سائر المغنيات، وأصحاب الملاهي.^(٦)
 على الرغم من أن تلك الأوامر التي كان يصدرها الحاكم بأمر الله
 لم تكن تصدر كقفة واحدة، ولكن الحاكم بأمر الله قد تترج في إصدارها
 - ولعل ذلك كان رغبة منه في إصلاح المظاهر العامة لسلوك النساء،
 والارتفاع بهن إلى مستوى للفضيلة - فإن هؤلاء النساء لم يمتثلن لمثل

(١) ناريمان عبد الكريم: المرجع السابق، ص ١٨٤؛ Heyd : op. cit., p. 395.

(٢) محمد عبد الله علان: للحاكم بأمر الله، ص ١٢٩.

(٣) المقرئزي: الخطط، ج ٢، ص ٢٨٩؛ محمد عبد الله علان: الحاكم بأمر الله،
 ص ١٢٩.

(٤) المقرئزي: فتاوى الحنفاء، ج ٢، ص ٥٣.

(٥) المقرئزي: الخطط، ج ١، ص ١٢٨٧؛ Mann (J) : op. cit., p. 12.

(٦) الأنطاكي: تاريخ الأنطاكي، ص ٢٠٠، ٢٠٢.

هذه الأوامر. ^(١) وظلت مظاهر الفساد موجودة لم يقص عليها بعد ؛ مما اضطر الحاكم بأمر الله لاتباع القسوة، والشدة مع هؤلاء النساء.

فقد قيل إنه سمع يوماً أثناء سيره ضجيج النساء، وصياحهن وأصوات غنائهن بحمام الذهب، فأمر بأن يُسد الحمام بانحجر على من بداخله حتى متن جميعاً. ^(٢) كذلك أمر بهدم بعض الحمامات على من فيها من النساء، ثم أمر بمنع دخول الحمامات العامة حتى المُخصصة للنساء ^(٣)، كذلك أمر بإغلاق جميع الحمامات، ويذكر المقرئزي أنه كان بمصر الفسطاط ألف ومائة وسبعون حماماً. ^(٤)

وعلى الرغم من ذلك فقد كثرت المفاصد؛ وانتشرت بيوت ائبغاء، واستطاع النساء أن يخرجن من بيوتهن دون رغبة أزواجهن، أو من يعولهن، هذا الأمر الذي جعل بعض الرجال يشكون في زوجاتهم، ومن ثم في نسب أولادهم، فنعرف من بعض القضايا التي تقدم بها بعض الأزواج إلى القاضي؛ لأنه يشك في أن زوجته قد حادت عن الصواب، وبالتالي فإنه يتكرر أولاده منها؛ ونظراً لصعوبة تلك القضايا، فقد كان القاضي يتحرى الحق في مثل تلك الأمور، وفي حالة ثبوت براءة الزوجة، كان يُشهر بالرجل في أسواق المدينة، ويُنادى ببراءة للزوجة. ^(٥)

وصل للشك إلى قصر الحاكم بأمر الله نفسه، وذلك عندما خرج من قصره جماعة من حظاياها، وأمهات أولاده، ووضعهن في صناديق متقلة بالحجارة أغلقت عليهن، وأمر باللقائهن في الذليل بعد أن تأكّد من

(١) النويري : نهاية الأرب، ج ٢٦، ص ٥٢.

(٢) فنوادلري: كنز الدرر، ج ٦، ص ٢٥٨.

(٣) ابن حنّاد : أخبار بني عبّيد، ص ١٠ السيوطي: حسن للمعاذرة، ج ٢، ص

١٠٣، آدم متر : للحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ج ٢، ص ٢٣٣.

(٤) المقرئزي: المخطوط، ج ٣، ص ٢٠٤، ٢٠٥.

(٥) للكندي: للولاة وكتاب القضاة، ص ٥٨٦-٥٩٣ ناريمان عبد الكريم: المرأة في

مصر، ص ١٠٦.

فسقهن. (١) كما سد على بعض الجواري والمحظيات حجرة في القصر، وتركهن حتى متن. (٢)

يبدو أن الحاكم بأمر الله كان مدفوعاً إلى ذلك بشدة الغيرة على نسائه، أو عدم ثقته بالمرأة بوجه عام، وتوقعه الخيانة منها؛ ولهذا كان يتجسس على النساء لكشف أسرارهن، ومن أجل ذلك جهز نساء عجائز كثيرة يستعلمن أحوال النساء لمن يعشق أو يعشقهن وأسماء من يتعرض لهن. فمن وجدت منهن كذلك قتلها، وأخفاها، ولم يكتف الحاكم بأمر الله بذلك، بل شك حتى في جاسوساته العجائز، فلجأ للتأكد بنفسه من عدم مخالفتين، فأكثر من التجول ليلاً، ونهاراً في المدينة. (٣)

ورغبة منه في القضاء على الفسوق، والفساد نهائياً، فقد أمر الحاكم بأمر الله بمهاجمة أماكن البغاء، فأزيلت دورها، وأركارها، وطهرت منها أحياء للمدينة، وكانوا ينشون في معظم جنباتها. (٤) ثم أمر بمنع النساء من الخروج نهائياً ليلاً، أو نهاراً، وتأكيداً لذلك فقد منع الأساكنة من عمل أخفاف لهن، كما أمر بمنع التنطع من الطرقات أو الأسطح، فاحتيم النساء في ظلام دورهن، ولم تُر امرأة واحدة في الطريق، وقد شدد الحاكم بأمر الله في تنفيذ تلك الأوامر، فعوقب كثير من المخالفين بالجلد والتشهير، والإعدام. (٥)

(١) ابن خلكان: وفیات الأعيان، ج ٢، ص ١٦٦؛ Stanley: A History of Egypt, p. 126.

(٢) ابن سعيد: المغرب في طى المغرب، تحقيق: حسين نصار، مطبعة دار الكتب، القاهرة، ١٩٧٢م، ص ٦٣.

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١١، ص ٢٥٢.

(٤) الأتطاكي: تاريخ الأتطاكي، ص ١٨٦؛ محمد عبد الله حنان: الحاكم بأمر الله، ١٣١.

(٥) الأتطاكي: المصدر السابق، ص ٢٠٨؛ ابن الأثير: الكامل، ج ٩، ص ١٠٩؛ المقرئ: الخطط، ج ٢، ص ٧٢؛ محمد عبد الله حنان: المرجع السابق، ص ٧٩.

شملت قرارات الحاكم بأمر الله جميع النساء سواء في مصر أو القاهرة، ولم يستثن من تلك القرارات سوى النساء المنتظلمات للشروع، والخارجات للحج، أو المسافرين لظروف طارئة أو قهرية، بالإضافة إلى غاسلات الموتى، والأرامل اللاتي يبعن الغزل، على أن يكون خروج هؤلاء لمزاولة شؤونهن برقاع خاصة ترفع إلى القصر، وتصدر بهما تقارير يقوم بتنفيذها متولي الشرطة.^(١)

لم تكن تلك الأوامر حائلاً دون ممارسة الفسق، والبغاء، فقد نجأت بعض الفاسقات إلى الحيلة والاحتتيال لممارسة فسقهن؛ حيث ادعت إحداهن بأن أخوها الوحيد ينازع سكرات الموت، ووقفت بطريق القاضي مالك بن سعيد الفارابي، تتأشده بالله أن يوصلها إليه، فرق قلبه، وأمر برجلين أوصلها إليه، فوصلت دار الرجل الذي يهرأها، ونهواه؛ ولما طالب للزوج المخدوع بامرأته، وقد عرف قصتها مع القاضي من جارها، قال: إنها ليس لها إخوة، وألقى القبض على امرأته، وارتجلها، وهما نائمان في إزار واحد، وقد ثملاً من المسكر، وصدرت بحقهما العقوبة، فأحرقت المرأة، وقتل الرجل.^(٢)

ومن اللافت للنظر أن المبالغة في الشدة، وتضييق الخناق على المرأة لم يكن ليمنعها من ارتكاب الإثم، أو الخروج من البيت، كذلك نوع العقوبة التي كانت تستخدمها الدولة الفاطمية في جريمة الزنا، والمعروف بالجلد في الشريعة الإسلامية، فنرى أن الخليفة الحاكم أمر بقتل الرجل وحرق المرأة.

كذلك وصل التهتك في العصر الفاطمي إلى حد اقتنائهن الجوارح في التصور، فتفنن في أساليب اللغشاء، فاختخت الجارية خصياً لها

(١) التفتنندي: صبح الأعشى، ج ٢٦، ص ٥٧، المقرئ: الخطوط ج ٢، ص ١٠٨.

محمد جمال الدين سرور: الدولة الفاطمية في مصر، ص ٩٢.

(٢) عطية مصطفى مشرفة: نظم الحكم بمصر في عصر الفاطميين، ط ٢، دار الفكر

العربي، ١٩٤٨م، ص ٢٤؛ إبراهيم رزق الله أيوب: لتاريخ الفاطمي

الاجتماعي، ص ٥٥.

كالزواج، كما فعلت جوارى خماروية صاحب مصر. (١) كما جرت عادة لغتاء الجوارى من قبل النساء، وأدى هذا الأمر إلى بقاء العديد منهن بدون زواج، مما أدى إلى ارتكابهن الفحشاء أو اتهامن به، فاتهم الحاكم بأمر الله أخته 'مت الملك' - والتي كانت تملك أربعة آلاف جارية، منها ألف وخمسمائة عنراء - بارتكاب الفاحشة، كما اتهمها بأنها تدخل الرجال إلى مخدعها، وتمكنين من نفسها. ويُعتقد أنها قد زالت عثريتها، مما جعلها تتعجل بتبدير مؤامرة المتخلص منه. (٢) وقيل إنه أرسل القوابل - جمع قابلة - للتأكد من براءتها. (٣)

ومن الغريب أن للحاكم بأمر الله بما أصدره من أوامر ومراسيم تحد من ظاهرة الفسق، والفجور، والذي يميز بها دون غيره من الخلفاء الفاطميين، كان يستخدم الفاحشة في عقاب من يخالف أوامرهم، أو على سبيل المزاح، والسخرية لاتي تتنافى مع ما نظاها به من زهد، فكان للحاكم يتجول بالأسواق بخادم ضخم الجثة يقال له 'مسعود' يأمره بارتكاب للفاحشة مع صاحب المخالفة أمام الجميع. (٤)

ويروي الأقطاكي أن الحاكم بأمر الله قد قصد أحد أسواق مصر ليلاً، وتقدم إلى شيخ خليع يُعرف بالرجاع، فيقول له الحاكم: اكتشف/أرني قمرك، فيكشف الرجل عن فحشته، والحاكم لبعض ركابينه من العودين أن يبرز إبطيه، ويأتيه بمشهد منه، ومن الجمع الحاضر، ويتفوت إليه ذات المجرى من الأكم الذي يزعم أنه يناله، ويتوسل إليه الرجل أن يسامر الأسود العنالي عليه، بالترفق، وترك العسف له، فيضحك الحاكم من ضحجه، ويضطرب له. (٥)

(١) ابن الأثير: الكامل، ج٧، ص ١٨٨.

(٢) المقرئ: تماطل الحنفاء، ج٢، ص ١١٠ ابن تغري بردي: النجوم، ج٤، ص

١٨٥؛ السيوطي: حسن المحاضرة، ج١، ص ٦٠٣.

(٣) ابن ظافر: أخبار الدول، ص ٦٤؛ ابن الأثير: الكامل، ج٢٧، ص ١٣٠٥

المقرئ: تماطل الحنفاء، ج٢، ص ١٠٧؛ ابن تغري بردي: النجوم، ج٤،

ص ١٨٥.

(٤) ابن الأثير: بدائع الزهور، ج١، ص ٢٠١.

(٥) الأقطاكي: تاريخ الأقطاكي، ص ٣٢٩.

كذلك عندما غضب من شعب مصر الذين سخروا منه، ومن أوامره، وصنعوا له تمثالاً على هيئة امرأة تمسك بيدها رقعة تحمل في طياتها مكروه القول، فأمر جنوده العبيد بحرق مصر وعقاب أهلها، وكان نتيجة ذلك أن فعل العبيد الفاحشة بنساء مصر. (١) مما اضطر بعضهم لقتل أنفسهم خشية العار. (٢)

وفعل تلك الفعلة مرة أخرى عندما تكبد أن أهل مصر هم السبب في حمل جنده الأتراك على مواجهته، ومطالبة بتسليم الدرزي الذي نشر دعوة ألوهية الحاكم، والتي لاقت قبولاً لديه، فسلط عليهم طوائف الرجالة من السودان (العبيد)، وقرر معهم ما يفعلونه بهم، فكانوا ينزلون إلى مصر مجتمعين على هيئة المناس، فيكبسون على الحمامات، ويأخذون بنات أهل مصر نهزاً جهازاً. فأصبحت الفحشاء على عين، وسراى من الجميع دون تدخل الشرطة لمنع هؤلاء الرجال. وعندما اجتمع الناس، وتضرعوا له بمنع هؤلاء الجنود، وأمر أصحاب الشرطة بحمايتهم، فلم يرد عليهم جواباً. (٣)

ظلت المرأة تعاني من مراسيم الحاكم بأمر الله، ويتحائل بعضهم عليها زهاء سبع سنوات. (٤) حتى توفي الحاكم بأمر الله ٤١١ هـ / ١٠٢٠ م، فتحول للمجتمع المصري مرة أخرى من التقيد للتقيض فجأة، حيث أباح الخليفة الظاهر لإعزاز دين الله كل ما منعه وأده الحاكم بأمر الله، فأقبل الناس على انحية أمره، وظهر الفساد بصورة أكثر وضوحاً، وأشد وطأة، ولاسيما بعد أن سمح الظاهر لإعزاز دين الله بالإفراج عن النساء، (٥) فأقبل للناس على شرب الخمر، واللهو، وسماع الأغاني، والاستغراق في ملذاتهم. (٦)

(١) ابن ميسر: أخبار مصر، ص ٢٠ - ٢٦، التبعوني: حسن المحاضرة، ج ١، ص ٦٠٣.

(٢) ابن ميسر: المصدر السابق، ص ٢٠ - ٢٢.

(٣) ابن ظاهر: أخبار الدول، ص ٥٤، ٥٥.

(٤) ابن حماد: أخبار بني عبيد، ص ١٠٠.

(٥) المقرئزي: اتعاط للحق، ج ٢، ص ١٣٥؛ تاريخ عبد الكريم: للمرأة في مصر، ص ٩٢.

(٦) المقرئزي: المصدر السابق، ص ١٢٩؛ الأقطاكي: تاريخ الأقطاكي، ص ٢٣٨.

وللواقع أن الخليفة الظاهر لإعزاز دين الله نفسه قد قضى مدة حكمه مشغولاً بملذاته، مقبلاً على مجالس الغناء والطرب، وقد فسد للناس في أيامه بصر، واتخذوا المغنيات، والراقصات، وبلغوا من ذلك مبلغاً عظيماً. (١) ولم يتورع البعض عن إظهار تلك الأمور حتى في الشهور التي اعتادت الدولة العاطمية أن تزورها عن مظاهر الخلاعة، والإثم - رجب، وشعبان، ورمضان - فساءت أمور الدولة، وكثر الذعاز للذين كانوا ينكبون على الحارات؛ مما دفع الظاهر لإعزاز دين الله إلى المحافظة على مظهر الدولة الرسمي، فأصدر مجلاً برفع المنابر، وترك النظار بشيء منها، كما أمر بعدم خروج النساء بعد العصر للمقابر، كذلك منع الغناء. (٢)

ولما كانت هذه الأوامر قد صدرت في بداية حكم الظاهر لإعزاز دين الله ٤١٣ هـ / ١٠٢٢ م، فهذا يجعلنا نعتقد أن است الملك هي التي أصدرت تلك الأوامر، ولا سيما الأمر الخاص بالإفراج عن النساء، وكذلك الأمر الخاص بعدم خروجهن، وذلك لكونها المسيطرة على شؤون الخليفة الذي تولى الخلافة صغيراً. (٣) كنوع من أنواع المحافظة على سياسة الحاكم السابقة تجاه النساء، وحتى لا تعود الحالة الاجتماعية مرة أخرى كما كانت عليه.

مما يؤكد لنا استقرار الأمور بعض الشيء في عصر الحاكم بأمر الله على الرغم من قسوته، وشدته المبالغ فيها، وعلى الرغم من اتهام البعض له بالثبوت، والجنون، فإذا كان القرار الأول الخاص بالإفراج عن النساء كان تعويضاً لست الملك لما قد أصابها هي شخصياً من إيذاء أيام الحاكم بأمر الله، واتهامها بالفحشاء، فهي أيضاً صانحة القرار الثاني بمنعهم عن الخروج، ولعل هذا أكبر دليل على انتشار الفساد بأنواعه في تلك الفترة.

(١) للمقريزي: للخطط، ج ١، ص ٣٥٥.

(٢) للمقريزي: اتعاط للحنفاء، ج ٢، ص ١١٣٥ للخطط، ج ١، ص ٣٥٥ + ناريمان عهد

للكريم؛ المرجع السابق، ص ٩٢.

(٣) ابن حنّاد: المصدر السابق، ص ١٠٣.

استمرت مظاهر الفساد، والفسوق في عهد المستنصر بالله، ولاسيما فترة المجاعات - للشدة العظمى - حيث انتشرت البيوت قصيرة المعقوف التي سكنها أهل الفساد، فتعرضت أيديهم للنساء دون تمييز بين الصالحة، والفاسقة، فكانوا يأخذون إلى تلك البيوت، ويفعلون بهن الفاحشة، وقد تمكنت إحدى النساء من الهروب من إحدى هذه الدور، وأبلغت الوالي بما حدث، فكبس على تلك الدار، وأمر بقتل من فيها. (١)

ولم يخل العصر الفاطمي الثاني من المبالغة في مظاهر البذخ، والترف، والإمراف، وكذلك الأعياد، والاحتفالات، ومن ثم فقد ظهرت مظاهر الفساد، والفجور التي عمت النساء، والمرجال على السواء، ويعبر المقرئ عن أسفه لما كان يحدث في تلك الفترة قائلاً: إن أكبح ما ظهر في مصر-الفاخرة حب الغلمان، وتغزل الشعراء بهم، حتى غارت النساء من ذلك، وتعمدت إلى انتشبه بالعلمان في اللباس، والقباعة ليستمن قلب للرجال. (٢)

وانتشرت ظاهرة الشذوذ الجنسي بين الرجال أيضا مقما كانت من قبل بين النساء، هذا الأمر الذي وصل إلى حد اتهام الخليفة الظافر بممارسة للفحشاء مع نصر بن عباس ابن وزيره. (٣) والذي كان حسن المنظر يبيع الجمال. (٤) فكثرت الشائعات والغمز واللمز، فعمد عباس بمطالبة ابنه إلى الذهاب من قصر الخليفة، والابتعاد عنه، بل قتله لمحو ما تناقلته ألسن الناس. (٥)

(١) ابن تغري بردي: للنجوم، ج ٥، ص ٤٧؛ تاريخ ابن عبد الكريم: المرأة في مصر، ص ٩٣.

(٢) المقرئ: تماطل الحفلا، ج ٢، ص ١١٠.

(٣) ساويرس بن المقفع: سير البيعة المقدسة، ج ١، م ٣، ص ٤٥؛ ابن حماد: أخبار بني عبيد، ص ١٠٦؛ ابن يونس: بدائع الزهور، ج ١، ص ٥٢.

(٤) ابن حماد: المصدر السابق، ص ١٠٦.

.Stanley: History of Egypt, p. 126

(٥) ساويرس بن المقفع: المصدر السابق، ص ٤٥؛ ابن يونس: المصدر السابق،

ص ١٥٢؛ إبراهيم رزق الله أيوب: لتاريخ الفاطمي الاجتماعي، ص ١٢٨.

لما ساويرس بن المقفع فيخبرنا بأن المنتخب نصر الملك أبي علي الذي تولى ولاية الإسكندرية بعد عزل ابن ميروان، قد فعل فعلة كانت سبباً في موته، وهي أنه بات في بيعة للقديس ماري جرجس الشهيد داخل المنبح الذي قبره تحته مع غلام أمرد، فكان عقابه شديداً، ظهر له الشهيد ماري جرجس في صورة مرد، وأخذ يضربه حتى مات، لم يستطع علمانه إتقاده. (١)

وأما ما كان مدى صديق هذه الرواية من عنده، فإن الدولة الفاطمية التي قامت على أسس ديني، وصلت إلى درجة كبيرة من الفساده، جعل بعض حفاائها بمارسون الفحشاء، والبعض الآخر يعاقبون به على عين، ومزأى من الجميع، هذا الأمر الذي كان نذيراً بانهايارها مثلما كان الأمر مع سابقتها، فقد كان من الأسباب الثانوية التي حفزت الفاطميين على فتح مصر علمين بأن إحدى أميرات البيت الإخشيدى قد خرجت بنفسها لتشتري جارية تتمتع بها، فعند الخليفة المعز لدين الله أن ذلك دليل على مدى الترف، والضعف الذي حل بالدولة الإخشيدية، وأمرهم بالذهاب لمصر، وبشرهم بالنصر. (٢)

٢. أعمال العرقه والمصوبية:

كانت مصر - القاهرة طوال العصر الفاطمي تقريباً - كما سبق ذكره - مسرحاً للأحداث العنصرية أو المذهبية، ومشاراً لتلك الاضطرابات التي وقعت بين المتسلطين على منصب الوزارة ومن ينادونهم، ولاسيما في المرحلة الثانية من العصر الفاطمي. (٣) بالإضافة إلى الكوارث الطبيعية التي كانت تصيب البلاد، وتصل بها أحياناً إلى هذه المعاجاة، وقد انعكست هذه الأحداث، وتلك الفتن على الحالة الاقتصادية

(١) ساويرس بن المقفع: المصدر السابق، ص ١٨١.

(٢) للمقريزي: تعاليف الحنفا: ج ١، ص ١٠٠ للخط، ج ١، ص ٣٥٢؛ تاريخ ابن عبد الكريم: المرأة في مصر، ص ٨٥.

(٣) البغدادي: الفرق بين الفرق، ص ٣٠؛ حسن إبراهيم حسن: الفاطميون في مصر، ص ٣١ - ٣٦.

في البلاد، وبالتالي على المجتمع المصري، فازدادت حالة الفقراء فقراً، وكثرت الاضطرابات، واضطر بعض الناس إلى أعمال السرقة والنهب، للحصول على قوت يومهم.

هذا بالإضافة إلى تلك السياسة الخاطئة التي كانت تتبعها الدولة الفاطمية مع من يقومون بخدمتها من الوزراء، والقواد، والخدم من كثرة إغراقهم بالمال، والهدايا، والهدايا، وهذا الأمر الذي أدى إلى تفشي روح الطمع، والجشع لديهم، ودعا إلى طئب المزيد عن طريق الاختلاس، أو طلب الرشوة، وعلى التفتيش كانت سياستها في معاقبة المخطف منهم، أو من لا يرضى منهم، فكان الفاطميون يقومون بمصادرة جميع أملاكهم دون أن يتركوا لهم شيئاً، حيث إن الفاطميين كانوا يعدون هذا المال ملكاً لهم. (١) مما يجعلهم فريسة للجوع، والمرض، فيضطرب بعضهم مكرها إلى سلب الناس جهاراً، والتجرو عليهم. هكذا كان كل من كثرة المال والخاجة له مديناً من أسباب أعمال السرقة، والنهب، والصوصية في مصر الفاطمية.

ومع غياب الرقابة كثر فساد للذمم، ولجأ بعض الناس، سواء من الخاصة، أو العامة، إلى خيانة الأمانة، أو اختلاس الأموال طمعاً في المزيد، فيذكر ابن كثير أن زوجة الإخشيد كانت قد أودعت قباء من اللؤلؤ المسوج بالذهب عند رجل من اليهود الصباغة، ففقدت نفسه، وأساء للأمانة، وعندما طالبت به، أنكره، فتمكت أمرها إلى الخليفة المعز لدين الله الفاطمي الذي طلب إحضار الرجل لسماعه، غير أن الصانع قد أصر على إنكاره، فأمر المعز لدين الله بتفتيش داره، فاستخرج كل ما فيها، فوجدوا القباء، قد وضعه الصانع في جره، وخبأها في موضع من مواضع داره، فرده للخليفة إلى زوجة الإخشيد، التي حاولت تقويمه للمعز لدين الله، غير أنه أبى ذلك. (٢)

(١) ابن الصيرفي : الإشارة، ص ٣٧ - ٣٨، ابن ميسر : أخبار مصر، ص ٣٥ -

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية: ج ١١، ص ٢٧٤، السيوطي: حسن المحاضرة، ج ١،

وفي أيام الحاكم بأمر الله أودع رجل مغربي - من سلجقاسة - ماله عند رجل في مصر، قد قابله في السوق، وتوسم فيه خيراً، وكان هذا المال على سبيل الأمانة إلى حين عودته من الحج، فلما عاد الرجل من الحج، طلب ماله من التاجر؛ ليعود به إلى بلده، غير أن هذا التاجر قد أنكره عليه، فتأثرت نائرة المغربي، وشكا أمره إلى الحاكم بأمر الله، وقد استطاع الحاكم بأمر الله إجبار التاجر رد المال بالحيلة، حيث اتفق مع المغربي أن ينتظره في السوق عند مكان أمام دكان التاجر الذي أخذ ماله، وإذا مر الحاكم بأمر الله يقف معه، ويُطيل وقفته، حتى يراه التاجر، وقد تم ذلك، فلما اتصرف الحاكم بأمر الله جاء الرجل بالمال للمغربي طائفاً الصفيح. (١)

وعلى الرغم من أن القاضي في الدولة الفاطمية كان يتقاضى مرتباً ضخماً، يصل إلى ما يقرب من ألفي دينار تقريباً في العام، (٢) فإن مظاهر الفساد قد تسربت إلى نفوس بعض هؤلاء القضاة، فامتدت أيديهم إلى مال اليتامى، فقد تقدم أحد اليتامى برقعة إلى الحاكم بأمر الله، يذكر فيها أن أياه قد توفي، وترك له عشرين ألف دينار، وأنها مودعة في ديوان القاضي حسين بن النعمان، غير أن القاضي قد أخبره أن ماله قد نفذ، فاستدعاه الحاكم بأمر الله، وأقفه على الرقعة، فقال القاضي للحاكم بأمر الله كما قال لليتيم؛ من أن اليتيم قد استوفى ماله عن آخره، فأمر الحاكم بإحضار كشف الحساب من ديوان القاضي، فتبين أن الذي وصل للرجل اليتيم أقل مما له، فطلب القاضي العفو، والتوبة، غير أن الحاكم بأمر الله أمر بضرب عنقه، وحرق جثته. (٣)

كذلك كانت أعمال المارقة والوصوية تظهر بشكل واضح في المجتمع المصري عندما تقوم الدولة بمحاياة ثمة من فئات المجتمع نون

(١) ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب، للجزء الخاص بمصر، ج ٢، ص ٧٥.

(٢) ناصر خسرو: سفرنامه، ص ١٢٥.

(٣) ابن ميسر: أخيار مصر، ج ٢، ص ٥١؛ ابن سعيد: للمغرب في حلى المغرب،

(الجزء الخاص بمصر)، ص ٧١.

الفئة الأخرى، وتترك لها العنان دون حساب أو مراقبة، فتتجبر تلك الفئة، وتتجرأ على إعمال الفساد بين الناس، وربما يصل فسادها هذا إلى حد الخليفة نفسه الذي عجز عن الحد من هذا الفساد، أو حتى حماية نفسه.

لقد نال المغاربة مكانة عالية، فقد اعتمد الفاطميون عليهم في دخولهم مصر، لذلك فقد تعالت الفئة، وتجبرت، ولاسيما بعد أن حازت كل المميزات، لذلك فقد حاولت في بداية عهدها نهب المواضع الخاصة بالمصريين أصحاب البلاد، محتمين في ذلك على قوتهم العسكرية، ومكانتهم في الدولة، غير أن المصريين قد ثاروا، ووقفوا في وجوههم دفاعاً عن مواضعهم. (١) وتكرر هذا الأمر في عهد المعز لدين الله، حيث قاموا بنهب قناس، والاعتداء عليهم، هذا الأمر الذي أنكره المعز لسدين الله. (٢)

وفي بداية عهد الحاكم بأمر الله طغى المغاربة مرة أخرى، حيث ظنوا أنهم قد امتلكوا زمام الأمور، وسارت لهم البلاد بما فيها، فخرجوا إلى الشوارع، وتعرضوا للعامة بالسلب، والنهب، وامتدت أيديهم إلى خطف النساء من الطرقات، وتعرية الرجال من ثيابهم، فضاق الناس من أعمالهم، وكثرت الشكايات في حقهم، فدخلوا في حرب مع الجند الأتراك الذين انتصروا عليهم، وعينوا هرب زعيمهم بن عمارة من القاهرة إلى القمطاط سارع العامة الذين عانوا من فساد جنده، ونهبوا داره، واسطبلاته. (٣)

وعندما اعتمد الحاكم بأمر الله على العبيد، طمعوا في الحكم، وعاثوا في مصر ضائبا، حيث قاموا بالسطور على الحوائيت، ولقياسر. وقصدوا ساحل مصر، ونهبوا الدور، وأشعلوا فيها للنيران، بعدما أخذوا ما في الحوائيت من قمح، وشعير وغلل، ففجع الناس من ذلك، وأغلقوا دورهم، وحفروا حولها الخنادق لعرقلة وصول العبيد إليها، وهب الجميع

(١) المقرئبي: اتعاط للحنفا، ج ١، ص ١٤٨.

(٢) نفسه، ص ١٤٨.

(٣) ابن سعيد: المصدر السابق، ص ٥٨، ٥٩.

لحمل السلاح لمقاتلتهم، وردهم عن المدينة، حتى إن النسوة قد شاركن في الدفاع عن الدور، بضربين العبيد بالحجارة، والطوب من أعلى الدور. (١)

وفي عهد المستنصر بالله، تميز الأتراك، وقويت شوكتهم، فطمعوا في المزيد، حتى تجرؤوا على الخليفة نفسه، فدخلوا قصره، ونهبوا كل ما به من ثروات، ثم طالبوا بالمزيد، ولم يكن من الخليفة المستنصر بالله، إلا أن يعرض ممتلكاته للبيع بأبخس الأثمان؛ ليأبى مطاليبيهم، حتى أن مصيره بعد ذلك إلى أن يجلس على حصيره بانية لابسا ثيابا. (٢) ظل هذا الأمر حتى جاء بنو الجمالي ٤٤٦ هـ/ ١٠٧٤ م، وأعاد ما نهب من الخليفة، وصانر ممتلكات الأتراك الذين ملبوها نون وجه حق. (٣)

أدت هذه الفوضى التي عمت البلاد مع استمرار الفقر، والجوع، إلى اضطراب الأمن، وخوف وذعر الناس، فكثر العيارون، والفسطاط، وأصحاب الحيل في المدن، وتزايد عدد اللصوص في انقصرى، وانتشر الزعر في الطرقات، فامتدت أيديهم إلى مهاجمة الحارات، ونهب البيوت، ولجأ البعض الآخر إلى مهاجمة قوافل للحجاج لسلب أموالهم، كذلك قاموا بالسطو على قوافل التجار، وأخذوا أموالهم، بوصفها حقا لهم؛ لأن أصحابها لم يودوا زكاتها لبيت المال، وقد منعوها، وتجردوا فتركت عليهم، فصارت أموالهم بذلك مستهكة وهم في حاجة إليها بسبب فقرهم. (٤)

وعندما تأزمت الأمور، وبلغت الروح الحلقوم، بدخول البلاد في مجاعة، ظهرت مرقعة من نوع آخر، لجأ إليها بعض الناس ليسدوا جوعهم، ولكنها كانت مظهرا قويا من مظاهر الفساد التي عمت مصر في

(١) المقريزي: اتعاظ الحنفاء، ج ٢، ص ١٧٠، ٤٩ - ٥٢، O'Leery : op. cit., p. 49 - 52

(٢) المقريزي: المصدر السابق، ص ٢٠١، Stanley : Saladin and the Fall, p. 89

(٣) المقريزي: الضلع، ج ١، ص ٤١٦، Heyd : op. cit., p. 391

(٤) إبراهيم رزق الله أيوب: التاريخ الفاطمي الاجتماعي، ص ٢٠٣، ج ١، جرجي زيدان: للمتمدن الإسلامي، ج ٤، ص ١٩١، ١٩٢.

ذلك الوقت، حيث انتشرت سرقة للبشر، وأكل الناس بعضهم بعضاً، فيذكر المقريري أن الناس كانوا يجلسون بأعلى بيوتهم، ومعهم مسلب، وحبال فيها كلاب، فإذا مر بهم أحد ألقوا عليه، ونشلوه في أسرع وقت، وشرحو لحمه، وأكلوه.^(١)

ويذكر المؤرخون أن الأمر قد وصل إلى حد اختلاف النساء من الطرقات، وأكل لحومهن، وهن أحياء، فعندما كانت امرأة مميّنة تجتاز زقاق القناديل بمصر، علقها أحد العبيد السود بالكلاب، ثم سحبها إلى داره، وبطحها أرضاً على وجهها، وأوثق رباطها بأيديها، وأرجلها إلى أوتاد حديدية، ثم عراها من ثيابها، وأخذ يقطع من جزعها شرائح، وهي تستغيث وتصرخ، ولا من يجيب، ثم جلس يأكل متوهمًا أنها لا تستطيع الإفلات من وثاقها، ولكنها أخذت تشد في نفسها حتى استطاعت الخروج من داره زحفاً، وعندما وصلت إلى الخارج صرخت طالبة النجدة. وعندما جاء الوالي ففتش الدار، أخرج منها أكوف القتلى، فأمر بضرب عنقه.^(٢)

رابعاً : سياسة الدولة الدينية، وأثرها في قساد العلاقة الاجتماعية بين المسلمين وأهل

الذمة :

١- قساد العلاقة بين الشيعة والسنة :

لم تكن الخلافة الفاطمية خلافة ثيوقراطية أساسها الدين فقط، ولكنها كانت أيضاً خلافة مذهبية لها عقائدها الخاصة التي تغلغت في كل مظاهر حياتها، حيث كانت العقائد في ذلك الوقت هي التي تسيّر السياسة، والنظم، وليست الآراء الاقتصادية، أو غيرها، لذلك فقد كان من أهداف ظهور هذه الخلافة نشر عقائدها الشيعية - بحكم أن الدين الإسلامي الصحيح قائم على هذا المذهب - لا في البلاد التي تسيطر عليها فحسب، إنما أيضاً في بلاد أعدائها السنين، أو غيرهم، غير أن اهتمام الخلافة الفاطمية بتحويل أهل مصر إلى المذهب الشيعي كان أكبر، وذلك لأن مصر هي مقر خلافتهم الشيعية.^(٣)

(١) المقريري : إغاثة الأمة، ص ٦٠، ١٤٧، Stanley : History of Egypt, p. 147.

(٢) المقريري: للخطوط، ج ١، ص ٣٣٧ ابن تغري بردي: النجوم، ج ٥، ص ١٢٥.

(٣) عبد المنعم ماجد: ظهور الخلافة الفاطمية، ص ٢٦٦.

وكان لدى الشعب المصري السني مخاوف قوية من أن يفرض عليهم الفاطميون مذهبهم الشيعي بالقوة ؛ لذلك فقد كان ضمن بنود عهد الأمان الذي طلبوه من جوهر الصقلي عند دخوله مصر هو أن يظل المصريون على مذهبهم للسني، ولا يُلزموا بالدخول في المذهب الرسمي للدولة الفاطمية (المذهب الشيعي)، وقد أمتنهم جوهر على ذلك فيما عُرف بكتاب الأمان.

إلا أن الفاطميين أوقفوا العمل بكتاب الأمان بعد أن انتقل الخليفة المعز لدين الله الفاطمي إلى القاهرة سنة ٣٦٦ هـ، وقد كان هذا الكتاب ينص على إطلاق الحرية للمصريين في المعتقدات الدينية، وهذا لم يحدث، بل تركز اهتمامهم على تحويل المصريين إلى المذهب الشيعي^(١) وعلى الرغم من عدم وجود محاولات صريحة - في أغلب الأحيان - من جانب الفاطميين لحث الشعب المصري على اعتناق مذهبهم الشيعي الإسماعيلي، فإنهم قد لجأوا إلى بعض الوسائل الأخرى لإجبار الشعب المصري على اعتناق مذهبهم، هذا الأمر الذي كان سبباً من أسباب استياء المسلمين السنة، ووقوع الفساد بينهم، وبين المغاربة الشيعة.

وكذلك عمل الفاطميون على إسناد للمناصب العليا في الدولة إلى الشيعة منهم، أو ممن يعتنق مذهبهم^(٢) فتحول جهاز الدولة الرسمي إلى المذهب الشيعي، ولاسيما بعد أن عملوا على إحلال التشريع الشيعي محل التشريع السني في القضاء، والفتوى، وأنكروا ما يخالف ذلك^(٣) كذلك

(١) محمد جمال الدين سرور: الدولة الفاطمية في مصر، ص ١٧٦، أيمن فؤاد سيد: الدولة الفاطمية، ص ١٥٤.

Rabie (H) : The Financial System of Egypt Oxford University, Press 1972, p. 127.

(٢) المقريزي: تعاضد القضاء، ج١، ص ١١٤٥ محمد جمال الدين سرور: المرجع السابق، ص ٧٦.

(٣) المقريزي: الخطط، ج٢، ص ١٤٦.

غزروا من نظام المواريث، وجعلوه أساس رأي أهل البيت. (١) فلما شن فقهاء السنة ضد هذا للتغيير في التشريع وقعت العقوبات ضدهم. (٢) كما عملوا على اتخاذ المساجد الكبيرة مراكز للدعاية الفاطمية، وهي وقت ذلك مسجد عمرو بن العاص، ومسجد أحمد بن طولون، والجامع الأزهر. كما قاموا بتعيين أحد كبار المتفقيين في مذهب الشيعة للقيام بنشر دعوتهم، وكان يُعرف بداعي الدعاة (٣) يعاونه اثنا عشر نقيباً ونواب من مائت البلاد، فشرطوا فيه أن يكون عالماً بجميع مذاهب أهل البيت. (٤) ثم عملوا على إدخال خصائص المذهب الفاطمي في تلك المساجد، فجعلوا الأذان فيها بـ "حي على خير العمل؛ بدلاً من "حي على الفلاح" (٥) وجهرروا بالبسلة بصوت عالٍ في صلاة الجمعة، وزلدوا صيغة الفوت في الركعة الثانية، والتي موداها: " اللهم نحن إليك قانتون"، وعلى الفقيض أزلوا ما زاده السنون في هذه الصلاة من قراءة " سبح اسم ربك " والتكبير بعد الصلاة. (٦)

(١) نفسه، ص ١٥٦.

(٢) عبد المنعم ماجد؛ ظهور الخلافة الفاطمية، ص ٢٦٩.

(٣) داعي للدعاة؛ هو لقب لم يكن موجود في مصر قبل مجيء الفاطميين، كذلك لم يظهر مع ظهورها في مصر، ولكنه ظهر في عهد الخليفة الفاطمي الثالث الحاكم بأمر الله الفاطمي في عام ٣٩٣ هـ/ ١٠٠٢ م، وأول من لُقِبَ بهذا اللقب هو القاضي الحسين بن النعمان. راجع: للكندي: الولاية وكتاب القضاء، ص ٥٨٧؛ عبد المنعم ماجد؛ نظم الفاطميين ورسومهم، ج ١، ص ١٨٢.

(٤) محمد جمال الدين سرور؛ الدولة الفاطمية في مصر، ص ٧٦.

(٥) وثقله لأنهم يرون أن عمر بن الخطاب قد غير في الصيغة التي نُقلت عن النبي، فقد كان عمر يرى أن الناس إذا سمعوا أن الصلاة خير من العمل تهاونوا لكي لجهد وهو أهم عمل في وقته. (عبد المنعم ماجد؛ المرجع السابق، ص ١٨٢).

(٦) المقرئزي؛ فتاوى الحنفاء، ج ٢، ص ١٦٨.

Bosworth (C.E) : "Christian and Jewish Religious Dignitaries in Mamluk Egypt and Syria" Reprinted from "Journal of Middle East Studies", vol.3, January, 1972, p. 66.

وقد أصابت هذه الأفعال، والتصرفات المذهب السني في مقتل،
وقيدت حريته، وأدى ذلك إلى فساد العلاقة بين المذهب العملي، والشيعي
بدخل مصر، وصار الشيعة هم أصحاب الظهور البارز، والمميز، وكذلك
السطوة، والسيطرة.

كما عمل الفاطميون على الاحتفال بأعياد تتعلق بالمذهب الشيعي
لنشر مذهبهم، والدعاية له، غير أن بعض هذه الأعياد، وطريقة الاحتفال
بها، أدى إلى استياء المصريين السنة، وذلك لما كان يفترون بها من
اعتداءات الشيعة، والمغاربة عليهم. فقد حدث عن الاحتفال بعيد غدیر قم
(^١) سنة ٣٦٢ هـ/٩٧٢م أن قام المغاربة بزيارة الشغب، والاضطرابات،
فخرج جوهر للصقلي ليعول دون ثمانينهم في الاعتداء على أموال
الأهالي. (^٢) كذلك أصاب المصريين السنة كثير من الضرر، والأذى
بسبب إرغام الشيعة لهم على مشاركتهم في إظهار شعائرهم. (^٣)

كذلك كانت الحال في الاحتفال بيوم عاشوراء - ذكرى مقتل
الحسين بن علي بكربلاء ٦١ هـ - ففي العاشر من محرم سنة ٣٦٣
هـ/٩٧٣م سار جماعة من المصريين (الشيعة، والمغاربة في موكبهم
يتوحون، ويكون على الحسين، وصاروا يعتقدون على كل من لم يشاركهم
مظاهر الأسمى والحزن، فتعطلت الأسواق، وازدادت القلاقل،
والاضطرابات، ولاسيما بعد أن قامت جماعة من المغاربة، ورجالهم
بكسر أواني القائمين في الأسواق، وشق الروايا، وسب كل من ينفق (^٤) في

(١) المقرئزي: الخطط، ج ٣، ٢٣٢، عيد للمنع ماجد: نظم الفاطميين ورسومهم، ج

٢، ص ١٢٦-١٢٨.

(٢) المقرئزي: تعاطف الحنفاء، ج ١، ص ١٩٥.

(٣) نفسه، ص ١١٩٨، p. 67، Bosworth: op. cit.

(٤) كان الشيعة يزهدون في هذا اليوم، فيقومون بعمل للمعاطف يسمى سباط الحزن،
يقدم عليه عدس أسود، وخبز مغبر لونه، وجبن ومخللات وألبان، وكان الحزن
يظهر على وجود كل للماضرين، وكان الخليفة يحضره، وهو ملتصقاً مرتدياً ثيابها
قائمة. (الفتنندي: صبح الأعشى، ج ٣، ص ٥٢٠، المقرئزي: الخطط، ج ١،
ص ٤٣١).

في هذا اليوم. (١) وقد ظل الفاطميون يحتفلون بهذا العيد حتى وقت
انقراض دولتهم. (٢)

لم يقتصر أعمال الفاطميين في نشر دعوتهم على الإنشاد بمحامد
آل البيت في كل مناسبة من مناسباتهم، بل عملوا على الحط من شأن
للخلفاء الراشدين الثلاثة، وهم أبو بكر، وعمر، وعثمان. كذلك حطوا من
شأن خلفاء بني أمية، وبني العباس، والصحابية الذين لم ينصروا علياً. ولم
يقولوا بأحقيتهم في الخلافة بعد الرسول - عليه الصلاة والسلام - بل
عدوهم خارجين عن الدين والدولة، لذلك كان الخطباء يلغون الصحابة
على المنابر. (٣)

لم يكن فساد العلاقة بين المصريين، والمغاربة الشيعة يقف عند
هذا الحد من الإساءة للمصريين، بل كانت للسياسة التي اتبعتها الفاطميون
من انحيازهم للمغاربة، واعتمادهم عليهم في إدارة شؤون دولتهم سبباً في
تسلط المغاربة، واستغلال نفوذهم في إلحاق الأذى بالمصريين السنة،
والاعتداء عليهم، فقاموا بنهب أملاكهم، واغتصبوا دورهم بعد أن
أخرجوهم منها. فما كان من المصريين إلا أن استغاثوا بالخليفة الفاطمي
المعز لدين الله الذي أمرهم بإخلاء الدور، والانتقال إلى موضع آخر. (٤)
إلى أن أنشئت لهم أحياء خاصة بهم في القاهرة. (٥)

وعندما آلت للخلافة للعزیز بالله ٣٦٥ هـ عنى كآبیه بنشر
المذهب الشيعي، فحتم على القضاة أن يصدرُوا أحكامهم وفق هذا
المذهب، كما قصر المناصب المهمة على الشيعة، وألزم الموظفين

(١) المقرئزي: المصدر السابق، ص ١٤٦، ١٤٧؛ اتعاظ للحنفاء، ج ١، ص ٤٣١.

(٢) ابن تغري بردي: النجوم، ج ٥، ص ١٦٠؛ حسن إبراهيم حسن: تاريخ الدولة
الفاطمية، ص ٢٢٥.

(٣) القلقشندي: المصدر السابق، ص ٤٨٣.

(٤) القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٢، ص ٤٨٢ - ٤٨٣؛ المقرئزي: اتعاظ للحنفاء،
ج ١، ص ١٤٥.

(٥) المقرئزي: المصدر السابق، ص ٢٠٣.

الصغار الذين تقلدوا بعض المناصب الصغيرة أن يسروا طبقاً لأحكام المذهب الإسماعيلي، وإذا ما ثبت على أحدهم التقصير في مراعاتها عُرِل من وظيفته، مما دفع لكثيرين من الموظفين المئنة إلى اعتناق مبادئ المذهب الفاطمي. ^(١) حتى استطاعوا انعش، كما أمر بسب الصحابة. ^(٢) وهذا الحاكم يأمر الله حدو أبيه العزيز وجده للمعز، فعمت إلى إصدار كثير من الأوامر، والقوانين المبنية على التعصب الشديد للمذهب الشيعي، فأمر في سنة ٣٩٥هـ بسب الصحابة، وكتب ذلك على أبواب، وجران المساجد، وفي الأسواق، والشوارع، والدروب. ^(٣) وعلى أبواب الحوانيت، والمقابر، وأرغم الثامن على المجاهرة به، ونقشه في سائر الأماكن. ^(٤) وصدرت الأوامر إلى العمال في البلاد المصرية بضرورة تنفيذ ذلك. ^(٥)

غير أن السنين استاءوا مما فعنه الحاكم بأمر الله، وضجوا بالشكوى، مما اضطر الحاكم بأمر الله للحد من هذا التعصب، فأمر سنة ٣٩٧هـ بإلغاء المرسوم، وأمر بمحو كل ما كُتب على المساجد، والدور، وغيرها، وكانت الشرطة بمختلف الأحياء، والأماكن تنفذ الأمر الجديد. ^(٦) كما منع المؤذنين من إضافة عبارة "حي على خير العمل" إلى

(١) المقرئزي: المخطوط، ج ١، ص ١٢٨٦ محمد جمال الدين سرور: الدولة الفاطمية

في مصر، ص ٧٨.

(٢) علي حسني فخريوطي: مصر العربية الإسلامية، ص ٨٧، حسن نيزام حسن:

الفاطيون في مصر، ص ١٨٧.

(٣) المقرئزي: المصدر السابق، ج ٤، ص ١٥٩، ١٦٠: القرماني: أخبار الملوك

وأثار الأول، ص ٣٣٧.

(٤) محمد عبد الله عنان: الحاكم بأمر الله، ص ١٤٦.

(٥) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٢، ص ٢٨٦: المقرئزي: المصدر السابق،

ص ١٦٠.

(٦) المقرئزي: المخطوط، ج ١، ص ٣٤٢: القرماني: المصدر السابق، ص ٢٣٧:

محمد عبد الله عنان: المرجع السابق، ص ١٤٦ + محمد جمال الدين سرور:

المرجع السابق، ص ٧٨.

الأذان، وأجاز لهم أن يقولوا في أذان الفجر ' الصلاة خير من النوم'، كما سمح لهم بإقامة صلاة الضحى، وصلاة التراويح بعد أن لبطلت بأمره بضه سنين. (١)

ظلت مياسة اللين التي سار عليها الحاكم بأمر الله رهساء ثلاث سنوات، ثم ما لبثت أن تبدلت على حين غفلة، ففي ٤٠١ هـ أمر الحاكم بأمر الله بإقامة الأذان بـ 'حي على خير العمل'، كما أبطل صلاة الضحى، والتراويح. ثم عاد، وأمر بسب للصحابة مما أثار السفين، ففي سنة ٤٠٣ هـ، ثارت بين الناس فتنة عظيمة من جراء سب السلف، وهرع جماعة منهم إلى القصر، وهم يستغيثون، ويصيحون: لا طاقة لنا ولا صبر على ما يجري، فصرفهم قائد القواد "غب"، فساروا في الطرقات يستغيثون مما أصابهم من أذى. وعلى إثر ذلك أصدر الحاكم سجلاً جديداً بالترحم على السلف من الصحابة، والنهي عن الخوض في ذلك، وتشدد في محو السب أينما وجد. (٢)

عانى المصريون السنة كثيراً من تعصب الحاكم بأمر الله المذهبي، والذي بلغ إلى حد تدخله في تناولهم طعاماً معيناً من عنده، فقد قام الحاكم بأمر الله بإصدار سجل يمنع فيه الناس من تناول الملوخية، والقرع^(٣)، والجرجير،^(٤) وقد عكس الحاكم بأمر الله تحريم الملوخية بأن أبي بكر الصديق كان يميل إليها، كما عكس تحريم القرع بأن عائشة بنت أبي بكر كان تميل له.^(٥) كذلك الجرجير لانتسابه لعائشة.^(٦) وقيل إنه

(١) محمد جمال الدين سرور: النولة للفاطمية في مصر، ص ١٧٨، op. Bosworth : cit., p. 70.

(٢) المقريزي: الخطط ج ٤، ص ١٥٨-١٦٠، محمد عبد الله عفان: الحاكم بأمر الله، ص ١٤٦.

(٣) ابن أبي عمير: بذائع الزهور، ج ١، ص ٤٤١، Rabie (H) : op. cit., p. 128.

(٤) القرماني: أخبار الدول وآثار الأول، ص ٢٣٨.

(٥) ابن أبي عمير: المصدر السابق، ص ٤١، القرماني: المصدر السابق، ص ٢٣٨.

(٦) Stanley : A History, p. 147. غير أن القرماني يذكر أنه حرم الملوخية

لميل معاوية إليها وليس أبي بكر.

تطلع يوماً على جماعة يأكلون ملوخية - وكانت طعام العامة - فضربهم بالسياط، وطلب بهم في القاهرة، ثم أمر بضرب أعناقهم عند باب زويلة.^(١) فخابت الحرية المزعومة التي أتى بها كتاب الأمان، وعاشت السنة حالة من الاضطهاد وعدم القدرة على ممارسة شعائرهم بحرية.

وفي زمن الخلفين الظاهر، والمستنصر اتجهت السياسة الفاطمية إلى عدم إثارة السنين، فتمتعوا بالحرية في أداء شعائرهم، كما أهملت بعض المظاهر الشيعية - ربما يعود ذلك إلى الشدة التي عانى منها المصريون، ولاسيما في عهد للمستنصر - غير أن الأمور قد عادت مرة أخرى، بتولي بندر الجمالي الوزارة في أواخر عهد المستنصر، وكان بندر مغالياً في مذهب للشيعة، فأظهر روح العدا، والكرهية إزاء أهل السنة، ففي عام ٤٧٨ هـ أمر بإضافة "حي على خير العمل" إلى الأذان، كذلك أمر بنقش عبارات تتضمن لعن الصحابة على الجدران، كما أصدر أوامره بأن يكون التكبير على الميت خمسيناً طبقاً للمذهب الشيعي.^(٢)

ظلت سياسة التعصب للمذهب الشيعي من جانب الخلفاء الفاطميين تشتد أحياناً كثيرة، وتلين أمام ثورات المصريين السنين، غير أنها استمرت حتى نهاية الدولة الفاطمية. فيذكر القزويني أن الخليفة الفاطمي للعاضد لدين الله كان شديد التعصب، مبالغاً في سب الصحابة، وكان إذا رأى شيئاً يستحل دمه.^(٣) وعلى الرغم من ذلك فإن الخلافة الفاطمية قد عجزت عن نشر مذهبها الشيعي بين المصريين، وظل المذهب السني محتفظاً بقوته على الرغم من تحول بعض المصريين إلى المذهب الفاطمي خوفاً من تطبيق القوانين الجائرة التي فرضها الفاطميون على

(١) القرماني: المصدر السابق، ص ٢٣٨.

(٢) ابن ياسين: المصدر السابق، ص ٤١.

(٣) ابن تغري بردي: النجوم، ج ٥، ص ١٢٠؛ محمد جمال الدين سرور: النولة

لفاطمية في مصر، ص ١٧٩ - ٦٨ - ٦٦. Bosworth : op. cit., pp. 66 - 68

(٤) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٣، ص ١١٠؛ القرماني: أخبار الملوك وآثار الأول،

ص ٢٤٩.

مُخالفاتهم في المذهب فيما يتعلق بالأعمال التي كانوا يقومون بها، لذلك فإنه بعد أكثر من مائتي عام من الحكم الفاطمي في مصر لم يكن بها إسماعيلي واحد سوى من ارتبط بالمسلطة.^(١)

وربما يعود ذلك إلى أنهم انعزلوا بأنفسهم عن إجماع المسلمين، فاتخذوا حاضرة جديدة بعيدة عن القسطنطينية - حاضرة السنين - وأنشأوا لهم مسجدًا خاصًا بهم، وتركوا المذاهب السنية - مالك، والشافعي، وابن حنبل - تُدرس في دولتهم؛ ولذلك ألحقوا الهزيمة بأنفسهم قبل أن يلحقهم بها أحد. كذلك فلم تكن مصر بما فيها من زعميين ومسلمين مخالفين لهم في المذهب بتلك الأرض الخصبة الصالحة للتشييد.

٤- تمييز أهل الذمة وأثر ذلك في فساد المجتمع:

كان موقف المصريين السنين من الخلفاء الفاطميين سببًا لاعتماد كثير منهم على أهل الذمة، فقد شعر الخلفاء الفاطميون منذ دخولهم مصر، أنهم بحاجة إلى من يعاونهم في تثبيت سلطنتهم فيها، غير أنهم أيقنوا أنه من المنعذر عليهم الاعتماد على السنين - أنصار الدعوة العباسية - فقبروا إليهم أهل الذمة.^(٢) لأنهم يعيدون عن التعصب لمذهبهم، أو غيره، فأظهروا لهم كثيرًا من التسامح، واستخدموهم في أهم شؤون الدولة، فارتفع شأنهم، وتمكنوا من البلاد، وسار لهم - في معظم الأحيان - السيادة على المسلمين، وكذلك الإساءة إليهم، مما كان سببًا في تذمر المسلمين، وإثارة مشاعرهم،^(٣) وفساد للعلاقة بينهم وبين أهل الذمة.

(١) أيمن فؤاد سيد؛ الدولة الفاطمية، ص ١٥٤.

(٢) السخاوي إشمس الدين محمود بن عبد الرحمن بن أبي بكر عثمان؛ ت ٩٠٣ : لفتن قلمبيوك في ذيل الملوك، بولاق، القاهرة، ١٣٥٤ هـ، ص ٣٦ - ١٣٨ محمد جمال الدين سرور؛ الدولة الفاطمية في مصر، ص ٧٩ - ٨٠؛ قاسم عبده قاسم؛ اليهود في مصر من ففتح العربي حتى الغزو العثماني، ط ١، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٨٧ م، ص ٩٠.

(٣) فاطمة مصطفى عامر؛ تاريخ أهل الذمة في مصر من الفتح العربي حتى نهاية العصر الفاطمي، ج ١، الهيئة المصرية العلمية للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٠ - =

وجد المسلمون أنفسهم في موقف لا يُحسبون عليه، فمعظم الإدارة العليا في الدولة كالوزارة، والوساطة، ورئاسة الدواوين، وولاية الأقاليم، وأطباء الخاصة، في يد أهل الذمة، الذين تعصبوا لبني ملتهم من اليهود، والنصارى، وعيّنوهم في كثير من فروع الإدارة، ومنعوا المسلمين أصحاب الأغلبية العظمى في البلاد من تولي تلك المناصب. وقد ترتب على ازدياد نفوذ الموظفين الذميين، وإغراق الدواوين بهم ظهور الكراهية بينهم وبين الموظفين المسلمين. ^(١) كما أتاح الفرصة لإظهار ما في نفوس أهل الذمة تجاه المسلمين. ^(٢)

بدأت سياسة التسامح التي اتبعتها الفاطميون منذ وصول الخليفة المعز إلى مصر، فقد طلب إليه أفرهام السرياني، البطريرك الثاني، والستين، أن يكتنه من بناء كنيسة أبي مرقورة بالقسطاط، وكذلك الكنيسة المغلقة بقصر الشمع، فكتب له سجلاً يمكنه من ذلك، وأطلق له من بيت المال ما يصرفه على هذه العمارة، فتصدى الناس للأقباط، ومنعواهم من البدء في عملية البناء، فجاء المعز، وأشرف بنفسه على بناء الكنيستين، ثم أمر ببناء كل الكنائس التي تحتاج إلى عمارة دون أن يعترضه أحد في ذلك. ^(٣) ولم ينل المسلمون هذه الحرية أو التسامح من قبل الفاطميين.

بدأت سياسة التسامح التي اتبعتها الفاطميون تجاه أهل الذمة واضحة منذ وصول الخليفة المعز لدين الله الفاطمي إلى مصر، حيث أسند

- ص ١٧٤ : حسن إبراهيم حسن: تاريخ الدولة لفاطمية، ص ٢٠٢ : Mann
The Jews in Egypt and Palestine under the Fatimid Caliphs,
.2vols, Oxford, 1920, vol. 1, p. 242

(١) سلام شافعي محمود: أهل الذمة في مصر في العصر الفاطمي الأول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٥، ص ٨٧.

(٢) عبد المنعم سلطان: المجتمع المصري، ص ٩٦.

(٣) ساويرس بن المقفع: سير النبيمة المقدسة، ج ٢، ص ٢٠٢، ص ٩٦، ١٩٧ أو صلاح الأرميني: كنان وأديرة مصر، ص ٤٥ : المقرئزي: تعاليف الخلفاء، ج ١، ص ٢٢٥.

إيهم بعض المناصب المهمة في للدولة. ^(١) ولعل أبا الفرج يعقوب بن داود بن كلس ^(٢) الذي عهد إليه المعز لدين الله سنة ٣٦٣ هـ بولاية الخراج، وجميع وجوه الأعمال، والحسبة، والسواحل، والأعشار، والجواني، والأحباش، والمواريث، والشرطية، ^(٣) وجميع ما يزيد على ذلك في مصر من منائر الأعمال بالاشتراك مع علوج بن الحسن ^(٤) لخبر دليل على تسامح لفاطميين مع أهل الذمة.

وجاء العزيز بالله مُعَالِيًا في هذا التسامح، حيث وصل أهل الذمة في عهده إلى قمة النفوذ، والسلطة فقد أطلق يد النصارى في تجديد كنائسهم، وإعادة بناء ما تهدم منها، غير مُبالٍ بمشاعر المسلمين، وخصيبتهم، فكانت إحدى الكنائس في أنسطاط، وهي كنيسة أبي مرقورة قد تهدمت، واندثرت، وأصبحت مخزنًا للقصب يملكه أحد تجار المسلمين، وقد طلب ألفرهام السرياني - البطريرك الثاني، والستين - من الخليفة العزيز بالله أن يمكنه من بنائها، فكتب له سجلًا يمكنه من نزع منكية هذا المخزن من صاحبه المسلم، وإعادة بناء الكنيسة من بيت مال الدولة، وعندما اعترض المسلمون على هذا العمل، وتصدوا للاقباط أصدر العزيز أوامره إلى جماعة من جنده، ومماليكه أن يخرجوا ويقضوا على من يعارض عمارة الكنيسة، وعقاب من يتدخل من المسلمين، فلمس رأي العوام ذلك كفوا عن التدخل. ^(٥)

(١) ساويرس بن المتق: سير فيبنة المقدسة، ج ٢، م ١، ص ٤٦.

(٢) بن كلس: هو أبا الفرج يعقوب بن يوسف بن طرون بن داود بن كلس، اليهودي، أسلم في آخر عهد الإخشيين، ثم هرب إلى إفريقية، ودعا للمعز لغزو مصر، وعندما م لفاطميين ذلك جازاه المعز، واعتمد عليه في تسيير أمور الدولة. راجع: ساويرس بن المتق: المصدر السابق، ص ١٥٧.

(٣) نفسه، ص ١٥٦؛ المقرئ: اتعاظ الخلفاء، ج ٢، ص ١٩٦، ١٩٧.

(٤) المقرئ: المصدر السابق، ص ١٩٧؛ فاطمة مصطفى عامر: تاريخ أهل الذمة، ج ١، ص ١٧٥؛ فاسم عهده قاسم: أهل الذمة في مصر في الحصور الواسطي (دراسة وثائقية)، ط ٢، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٩م، ص ٥٢؛ اليهود في مصر، ص ٩٦.

(٥) أبو صالح الأرمني: كنائس وأديرة مصر، ص ٤٣، ٤٥، ٤٦؛ المقرئ: -

مما سبق يتضح أن دلالات الفساد بدلت تظهر من خلال مُحابسة أهل النعمة، وتفضيلهم عن سواهم، وفي ذلك خال في بنية للمجتمع، ولا يؤدي إلى انصهار المجتمع؛ لأن تفضيل فئة على أخرى، وإعطاءها المزايا عن غيرها يثير الحقد، والصفائين، والكراهية؛ لأن العنل أساس الملكة.

ازداد نفوذ أهل النعمة، وقويت شوكتهم بزواج الخليفة العزيز من جارية مسيحية رومية الأصل ملكانية المذهب. (١) وقد تمتعت هذه الجارية بنفوذ كبير على الخليفة، واستطاعت أن تولي أخويها مناصب كنسية مهمة، فتولى الأول، وهو أرمستي Aureste بطريركا على بيت المقدس، سنة ٣٧٥ هـ/٩٨٦م، وتولى الثاني وهو أرسينوس Arsenius بطريركا للملكية بمصر القاهرة. (٢) وكانت له مكانة عظيمة لدى العزيز، فتمتع للقبض في عهده بكامل حرياتهم على حساب المسلمين. (٣)

بالإضافة إلى تسلط اليهود الذين زاد نفوذهم، وسيطروا على أمور الدولة، بغض تمييز أبين كل من لهم في كل شيء، ولا سيما بعد أن أصبح وزيراً (٤) للعزيز ياش، وقد أدت هذه المحاباة المُغرقة التي حظي بها أهل النعمة في عهد العزيز إلى استياء المسلمين، وشعورهم بالظلم، وقد لاحظ

٣ المصدر السابق، ج ١، ص ٢٢٥، عبد المنعم سلطان: المجتمع المصري، ص ٩٧.

(١) الأندلسي: تاريخ الأندلس، ص ١٦٤، ١٦٥، فاطمة مصطفى عامر: تاريخ أهل النعمة، ج ١، ص ١٨٢.

(٢) الأندلسي: المصدر السابق، ص ١٦٥، ملبورس بن المقفع: سير البيعة العنسة، ج ٢، ص ١١٢، ابن القلانسي: نيل تاريخ دمشق، ص ٣٣، فاطمة مصطفى عامر: المرجع السابق، ص ١٨٢.

(٣) الأندلسي: المصدر السابق، ص ١٦٤، ١٦٥.

(٤) بالرغم من اعتناقه الإسلام، إلا أنه كان يخدم لليهود؛ لأنه كان يهودياً، ولم يكن وحده هو الذي تحول إلى الإسلام من أجل منصب الوزارة، فهناك أيضاً الوزير صدقة الفلاحي زمن المستنصر، وكذلك أبو سعيد التمسري زمن المستنصر أيضاً... (فاطمة مصطفى عامر: المرجع السابق، ص ١٧٩).

العزیز بالله هذا الأمر، فأراد امتصاص غضب المسلمين، فأصدر أوامره في شوال ٢٧٣ هـ/٩٨٤م بالقبض علي وزيره ابن كلس، ومصاحبة أمواله. (١) ولكن ابن كلس لم يلبث طويلاً في الاعتقال حيث أفرج عنه الخليفة، ورد إليه أمواله، كما رد إليه ما كان بيده من مهام، وثبوت الدولة. (٢) وكتب له سجلاً بذلك، إلى جانب منحه ألفاً وخمسمائة غلام يكونون في خدمته. (٣) وليس هناك من شك من أن العزیز بالله كان متأثراً متأثراً بعدوله عن قرار اعتقال ابن كلس بنفوذ زوجته المسيحية وابنته منها - ست الملك - التي كانت أثيرة لدى والدها، ولا يرد لها أمراً. (٤)

ظل ابن كلس وزيراً حتى توفي عام ٣٨٠ هـ/٩٩٠م، فأُسفد العزیز بالله الوزارة إلى عيسى بن نسطور من النصراني، الذي مال إلى النصارى، فقلدهم الوظائف المهمة في الدواوين، وطرد الكتاب المسلمين من وظائفهم. (٥) كما استناب العزیز بالله بالشام يهودياً يُسمى مفتاحاً بن الفرار، فسلك مع اليهود مسلك عيسى بن نسطور مع النصارى في مصر. (٦) فأصبح أهل هاتين المملكتين يحمان الدولة. (٧) وقد لحق بالرعية بالرعية من جراء تنصير الدواوين في مصر، وتهويدها في الشام للضرر البالغ، مما دفع المسلمين للتتمر، والاحتجاج إزاء هذين السرجين اللذان أساءا للرعية، وجأها بروح العداء للمسلمين. (٨)

(١) المقرئ: اتعاط الخفاء، ج ١، ص ٢٦٢.

(٢) فاطمة مصطفى عامر: المرجع السابق، ص ١٧٦.

(٣) فنوري: نهاية الأرب، ج ٢٦، ص ٤٨.

(٤) ساويرس بن المقفع: المصدر السابق، ص ٥١ ابن القلامي: المصدر السابق، السابق، ص ٦٧.

(٥) ساويرس بن المقفع: المصدر السابق، ص ١٢١.

(٦) فاطمة مصطفى عامر: تاريخ أهل الذمة، ج ١، ص ١٨٣.

(٧) ابن طاهر: أخبار الدول، ص ١١١.

(٨) ساويرس بن المقفع: سير البيعة المقيمة، ج ٢، ص ٢، ص ١١٢ ابن يونس: يدائع لزهور، ج ١، ص ٤٨، سلام شاغبي محمود: أهل الذمة في مصر، ص ٨٨

فاطمة مصطفى عامر: المرجع السابق، ج ١، ص ١٨٣.

ويروي لنا النويري رواية خطيرة تكشف عن مشاعر أهل الذمة تجاه المسلمين في ذلك الوقت، وتؤكد مدى ما وصلوا إليه من سيطرة، ونفوذ، وعداء للمسلمين، فقد بعث أحد رؤساء المصريين إلى ابن سطور من يُعاقبه على سوء معاملته للمعلمين، فأجابه عيسى قائلاً: ' إن شريعتنا متقدمة، والدولة كانت لنا ثم صارت إليكم، فجرّم علينا بالجزية، والنلة، فمتى كان منكم إلينا إحسان، حتى تطالبونا بمثله، إن مانعناكم فتلصنوا، وإن سألناكم أهنتونا، فإذا وجدنا لكم فرصة، فما تتوقعون أن نصنع بكم؟ ثم تمثّل في آخر كتابه بيئتين قال:

بنت حرم غصبوها أمها ثم داسوها هوأنا بالقدم
ثم عادوا واحكموها قبيهم وأناهيك بخصم قد حكم^(١)

ولعل هذه الرواية لخير شاهد على ما كان يُضمره أهل الذمة، ولاسيما النصارى - في تلك الأونة - تجاه المسلمين، مما جعلهم ينتهزون الفرصة للانتقام منهم، والتكيل بهم.

ولقد زاد هذا بالطبع من الاحتقان، وأدى بدوره إلى فساد العلاقة بين المسلمين، وأهل الذمة؛ لاحتياز الفاضلين الواضح تجاه أهل الذمة، وتجاهل المسلمين السنة تجاهلاً تاماً، أفقد المجتمع التوازن السياسي المطلوب. فلم يطق المسلمون الصبر على تلك الأوضاع، وارتفعت أصواتهم بالشكوى للخليفة العزيز، غير أن شكواهم لم تلق صدًى يُنكر، فلجأوا إلى استخدام الحيل لإيصال مشاعرهم وغضبهم للخليفة، فدفعوا في طريق موكب العزيز سراة، تحمل في يدها ضلّامة، تتضمن شكواهم من تسلط الذميين، ونفاذ أمرهم في شؤونهم^(٢)، وقد استغاث المسلمون بالخليفة بالخليفة في ظلامتهم قائلين:

(١) للنويري: نهاية الأرب، ج ٢٦، ص ٤١؛ سلام شافعي محمود؛ المرجع السابق، ص ٨٩.
(٢) ابن ظافر: أخبار السحول، ص ٥٥؛ أتم مشز: الحضارة الإسلامية، ج ١، ص ٨٦.

يا أمير المؤمنين: بالذي أعز النصارى بعيسى بن نسطورس، واليهود بنشا بن إبراهيم، وأنزل المسلمين بك ألا نظرت في أمري^(١).

على الرغم من قسوة تلك العبارات فإن العزيز بالله قد أدرك بعد قراءتها ما وصلت إليه حال المسلمين من غضب لتحكم أهل الذمة في شؤونهم، وما في هذا الأمر من إضعاف لهيبة الخلافة، فأصدر العزيز بالله أوامره على الفور، بالقبض على عيسى بن نسطورس، ومنشأ اليهودي، وسائر الموظفين، والكتاب من اليهود، والنصارى في مصر، والشام، على أن تزد وظائف الدواوين، وسائر المناصب التي كان يشغلها أهل الذمة إلى الكتاب المسلمين.^(٢)

غير أن ابن نسطورس قد استغل النفوذ القوي لسنت الملك ابنسة العزيز بالله، فتوسل إليها أن تتدخل بالشفاعة لدى الخليفة للصفح عنه، فقبلت سنت الملك، وعرضت عليه التماساً يتقدم به للخليفة، ويعتذر فيه عما بدر منه، فقبل الخليفة تدخل ابنته، وأعادته للوزيرة مرة أخرى بعد أن دفع غرامة قدرها ثلاثمائة ألف دينار إلى خزانة الدولة، وبعد أن شرط عليه العزيز بالله استخدام الموظفين المسلمين في دواوين الدولة، وأعمالها، وأن لا يعين نصرانياً، ولا يهودياً بهذه الدواوين.^(٣) غير أن قرار عودة ابن نسطورس كان تحدياً مافراً لمشاعر المسلمين.

(١) ابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ج٧، دائرة المعارف العثمانية،

١٣٥٩هـ، ص ١٩٠؛ الفويري: نهاية الأرب، ج٢٦، ص ٤٩؛ ابن تغري بردي:

النجوم، ج٤، ص ١١٥، ١١٦؛ ابن ايلس: بدائع الزهور، ج١، ص ١٩٦؛ سلام

شافعي: أهل الذمة في مصر، ص ٨٩.

(٢) سويرس بن المقفع: مبرج البيعة المقسمة، ج٢، م٢، ص ٨٧؛ ابن ظافر: أخبار

الدول، ص ٥٥؛ الفويري: المصدر السابق، ص ٤٩.

(٣) الفويري: المصدر السابق، ص ٤٩؛ أبو صالح الأرمني: كتابان والحيرة مصر،

ص ٤٢؛ ابن تغري بردي: المصدر السابق، ص ١٧٥؛ قائم عبده قائم: أهل

الذمة في مصر، ص ١٥٢؛ اليهود في مصر، ص ٩١؛ سلام شافعي: أهل الذمة

في مصر، ص ٩٠.

يبدو من سير الأحداث أن الخليفة العزيز بالله، لم يكن راضيًا عما آل إليه المسلمين في مصر من سيطرة أهل الذمة وتمسكهم على شؤونهم، غير أنه كان ولفعًا تحت سيطرة، ونفوذ المُحيطين به الذين ونعاطفوا مع أهل الذمة، وعملوا لحسابهم وعلى رأسهم زوجته، وابنته.

ويبدو أيضًا أن قيمة الثلاثة آلاف دينار كانت غرامة ثابتة، أو فدية يقبل بها الخلفاء الفاطميون في حالة رغبتهم في العفو عن أحد رعاياهم، فيذكر المقرئ في خطبته أن سهل بن كلثوم أخا السوزير يعقوب بن كلثوم، الذي قتله الحاكم بأمر الله لشراسته، وطعمه قد حاول أن يقتدي نفسه بثلاثة آلاف دينار فلم يستجاب له. (١) فطالما كان هذا المبلغ سيندفع للاقتداء من القبل، فهو مبلغ كبير في تلك الأونة، وهو مناسب جدًا لإعادة الوظيفة المسلوقة من قبل الخليفة.

كان القرار الذي اتخذه العزيز بالله في عودة ابن نسطورس تحديًا سافرًا لمشاعر المسلمين، ومظهرًا جديدًا من مظاهر الفساد التي بدأت، ولم تنته بينهم، وبين أهل الذمة، وقد استمر هذا الأمر حتى وفاة العزيز ٣٨٦ هـ / ٩٧٥ م. ولقد ظن أهل الذمة أن هذا الأمر سيستمر لهم زمن الحاكم بأمر الله فجزوا على رسمهم. (٢) غير أن القرارات التي اتخذها الحاكم بأمر الله، والتي كانت انعكاسًا لما ساد في عصر أبيه العزيز بالله من تسلط، وسيطرة أهل الذمة، وقعت كالصاعقة التي لم يحسب أهل الذمة حسابها.

نجح الحاكم بأمر الله في التخلص من سيطرة والدته المسيحية، وأخته بنت الملك، التي كانت تظهر عطفًا، وتأييدًا للنصارى، وبدأ قراراته للتح من نفوذ أهل الذمة، ولاسيما بعد أن اختلط بالناس في الأسواق، وتأثر بما وصل إليه حال المسلمين زمن والده العزيز، (٣) وكانت أولى هذه

(١) المقرئ: للخطب، ج ١، ص ١٠٩ : L'Egypt au Dopp (P.H)

.Commencement du quanzieme, Lecaire, 1950, p. 51

(٢) للمقرئ: تعاليف الخلفاء، ج ٢، ص ١٢٢.

(٣) نفسه، ص ١٠٤، ٩٦.

القرارات في سنة ٣٩٠ هـ/١٠٠٠ م، وهي نفس السنة التي تخلص فيها من نفوذ وصيه، ومزيبه برجوان، وسيطر بنفسه على مقاليد الدولة، فأصدر قراراً بالقبض على كتاب الدواوين من أهل الذمة واعتقالهم^(١)، ولكنه أعادهم إلى مناصبهم بعد أيام قليلة.

كلف الحاكم معاونيه بعمل إحصاء بجميع الكتاب المسلمين السنين لا يشغلون مناصب في الدولة، ويصلحون للخدمة في الدواوين، والأعمال؛ ليتخذ منهم من يصلح بدلاً من النصاري. ^(٢) ثم أصدر عدة قرارات متتابعة ضد أهل الذمة، تميزهم في لباسهم،^(٣) ومنعهم من دخول حمامات المسلمين بعد أن أفرد لهم حمامات خاصة بهم، ثم أصدر عدة قرارات هدفها الحط من شأنهم. ففي ٣٩٥ هـ/١٠٠٤ م أجبر النصاري، واليهود بشد الزنانيير، وليس الخياري، ومنع ثرياتهم من امتلاك العبيد، واستخدام المسلمين في أعمالهم، ونورهم، كما حرم عليهم ركوب الخيل، ومنعهم من شراء العبيد، والإمام. ^(٤) كما سمح للعمامة تتبع من يخالفه منهم هذه التعليمات، والإرشاد عنه، فانكش معظمهم وقت ظهورهم في الأسواق، والطرفات. ^(٥) كما ألزمه نساء القبط لبس نعال ذات نسوئين، أي تلبس المرأة نعالاً أحمر اللون في قدمها ليمتني، ونعالاً أسود اللون لسي قمتها اليمري. ^(٦)

(١) الأتطاكي: تاريخ الأتطاكي، ص ١٨٥.

(٢) نفسه، ص ٢٠٣.

(٣) ساويرس بن المقفع: سير البيعة المقدسة، ج ٢، م ٢، ص ٥٤؛ ابن حماد: أخبار بني عبيد، ص ٩٩؛ Heyd: op. cit., p. 395.

(٤) ساويرس بن المقفع: سير البيعة المقدسة، ج ٢، م ٢، ص ٥٤؛ ابن حماد: أخبار بني عبيد، ص ٥٤؛ المقرئ: اتعاظ الختفا، ج ٢، ص ٩٣، ٩٤؛ ابن ياسر: بدائع الزهور، ج ١، ص ٤١.

(٥) ابن حماد: المصدر السابق، ص ٥٤.

(٦) فاطمة مصطفى عامر: تاريخ أهل الذمة، ج ١، ص ٤٣٠.

Dopp: op. cit., p. 55

وفي عام ٤٠٢ هـ/ ١٠١١ م والعام التالي له بالغ الحاكم بأمر الله في قراراته، فأمر بإلغاء أعياد أهل للنمة، ولاسيما الشعبية منها - مثل لغطاس، والصليب -، والتي كانت تقترن بكثير من مظاهر الفساد، كما أمر بمصادرة أوقاف الكنائس، والأديرة لصاب بيت المال، ثم أمر بهدم عدد من الكنائس، والأديرة في أنحاء دولته، ومنح ما فيها إلى بعض رجال دولته. (١) ثم اشتد عليهم، وخيرهم بين الإسلام، أو القتل، فهاجر البعض إلى خارج الديار المصرية، وأسلم البعض كارهين. (٢)

ويروي ابن المقفع أن عامة الناس من المسلمين الذين عانوا كثيرا من ظلم أهل النمة، قد نهجوا نهج الخليفة في إيذاء التميميين، فيقول: "إن النصارى عاشوا في هذه التسع سنين في ضيق عظيم، وطرد، وسب، ولعن من المسلمين، ويصقون في وجوههم، وإذا جاء نصراني عليهم يشتمون، ويقولون له: اكسر هذا الصليب، وادخل الدين الواسع، وإن نسي نصراني صليبه، ومشى بلا صليب لقي هوانا كثيرا". (٣)

وأمام قرارات الحاكم بأمر الله، وردا على ما وصل إليه أهل النمة من المهانة بعد السيادة، فقد لجأ بعضهم إلى الرد غير المباشر على ذلك، فقاموا بأعمال للتخريب تحت جناح الظلام، وأشعلوا الثيران في الأسواق، والحوانيت التي يمتلكها المسلمون، مما دفع الحاكم لاتخاذ بعض القرارات للحد من تلك الأعمال، فيذكر المقرئزي: أنه في عام ٤٠٥ هـ/ ١٠١٤ م، وبعد تزايد وقوع النار، وكثرة الحرق، أمر الناس باتخاذ القناديل على الحوانيت، وأمر بأن تكون أزيار الماء مملوءة بالماء،

(١) المقرئزي: المصدر السابق، ج ٢، ص ٧١؛ ابن حنبل: المصدر السابق، ص ٩٩

؛ سيدة إسماعيل كاشف: مصر الإسلامية وأهل النمة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٣، ص ١٥٠.

(٢) ساويرس بن مقلح: المصدر السابق، ص ١٢٥، ١٢٦؛ المسيحي: أخبار مصر، ص ٩٧؛ الأنطاكي: تاريخ الأنطاكي، ص ١٩٤-٢٠٧؛ القرملي: أخبار جدول وتل الأزل، ص ٢٩٩؛ ناصر خسرو: سفرنامه، ص ٩٥.

(٣) ساويرس: المصدر السابق، ص ٧٧.

كما أمر بأن يدخل الناس دورهم من بعد صلاة العشاء، كما منع التجول بعد العشاء. (١)

كما اضطُرَّ البعض الآخر منهم إلى كتابة الرقاع التي تحمل في طياتها السب للخليفة وأسلافه، فوضعوا في طريقه تمثالاً لامرأة من ورق، وألبسوها خفًا، وإزارًا، ووضعوها في الطريق، ووضعوا في يدها رقعة فيها شتم قبيح للحاكم بأمر الله، فلما قرأها ثار وغضب، وأمر بحرق مصر، وقتل من فيها لونه تمييز بين مسلمين أو أهل نمة. (٢)

على الرغم من موقف الحاكم بأمر الله العدائي تجاه أهل النمة، والذي كان مدفوعًا بضغط الرأي العام الإسلامي للذي أثاره مُحَاباة الفاطميين أسلاف للحاكم لأهل النمة، واستخدامهم في شؤون الإدارة، والحكم، حتى اشتد بأسهم، وتزايد ضررهم، ومكابلتهم للمسلمين، (٣) غير أنه كان من الصعب عليه، بل من المستحيل الاستغناء نهائيًا عن أهل النمة في دولته، وذلك لتميزهم ببعض الأعمال الهامة التي لا يجيدها غيرهم، وبخاصة وظائف اللواوين، والمالية، والطب؛ لذلك فإننا نجد وصول البعض منهم إلى مناصب كبيرة في الدولة في عهده كسنان شينًا بديهيًا. (٤)

(١) المقرئزي: اتعاظ الحنفا: ج ٢، ص ١١٥ المخطوط، ج ٢، ص ١٠٨.

(٢) أبو صالح الأرميني: كنائس وكبيرة مصر، ص ٣٠.

(٣) المقرئزي: المخطوط، ج ٢، ص ٤٩٥؛ فاطمة مصطفى عامر: تاريخ أهل النمة، ج ١، ص ٢٠٣.

(٤) فقد أسند منصب الواسطة بعد برجوان إلى إلهد ن إبراهيم النصراني، كما أسند منصب للوزيرة إلى الكاتب النصراني أبي نصر بن عيون، ثم استخدم في الواسطة ٤٠١ هـ/ ١٠١٠ م الكاتب النصراني أبا الخوير زرعة بن عيسى بن نسطورين، كما تولى صاعد بن نسطورس الوزارة ٤٠٩ هـ/ ١٠١٨ م، كما كان هو أبو القتح منصور بن معشر، ثم يعقوب بن نسطورس النصراني. صقر اليهودي. (الأطلسي: تاريخ الأندلس، ص ١٨٤؛ للمقرئزي: اتعاظ الحنفا، ج ٢، ص ٧٣، ٨٢).

لذلك فقد تراجع الحاكم بأمر الله عن تلك القرارات العنيفة التي اتبعتها مع أهل الذمة، والتي أدت إلى فساد العلاقة بين مصر، واندواسة البيزنطية أيضاً، فقد قام البيزنطيون بغلق جامع القسطنطينية كرد فعل على تدمير كنيسة القيامة التي أمر الحاكم بهدمها، كذلك قام بازيل الثاني بقطع جميع العلاقات التجارية مع الدولة الفاطمية، هذا الأمر الذي أثر بشكل، أو بآخر على الحياة الاجتماعية في مصر. (١)

لذلك فقد أصدر الحاكم بأمر الله سجلاً في سنة ٤١١هـ/١٠٢٠م سمح فيه لأهل الذمة بحمارة كدناهم، كما أعفاهم من لبس الغيار، كذلك أمر الذين أُجبروا على اعتناق الإسلام بالعودة إلى دينهم، فعاد أكثر من سبعة آلاف يهودي إلى دينهم، كما ارتد قبط كانوا قد تظاهروا بالإسلام منذ سنين، كذلك عاد إلى مصر عدد كبير ممن كانوا قد هاجروا منها. (٢)

كما أصدر سجلاً آخر منحهم فيه الأمان. (٣)

على الرغم من أن قرارات الحاكم بأمر الله قد شملت كلاً من المسلمين، والذميين، فإن المسلمين قد وجدوا في تلك الأوامر فرصة للتعبير عن سخطهم، ورضيتهم من تسلط أهل الذمة عليهم، وقد ساعدتهم على ذلك كراهية الحاكم بأمر الله لأهل الذمة، وانقلابه عليهم، كما يتضح جلياً أن هذا السخط لم يكن بدافع ديني، وإنما هو رد فعل لما فعله أهل الذمة.

(١) الأنطاكي: المصدر السابق، ص ١٩٥، ١٩٦؛ ناصر خسرو: سفرنامه، ص ١٧٥؛

المقريزي: الخطط، ج ٢، ص ٧٠٤، ٧٠٥.

(٢) ساويرس بن المقفع: سير البيعة المقدمة، ج ١، م ٢، ص ١٣٥، ١٣٧؛ الأنطاكي:

تاريخ الأنطاكي، ص ١٣١، ١٣٢؛ عبد المنعم ماجد: ظهور الخلافة الفاطمية في مصر، ص ٢٩٧.

(٣) فاطمة مصطفى عامر: تاريخ أهل الذمة، ج ٧، ص ٣٣٧؛ سلام شلبي: أهل

الذمة في مصر، ص ٢٩٧؛ محمد عبد المنعم ماجد: الحاكم بأمر الله، ص ١٠٣،

وعلى أية حال فقد انتهت تلك الفترة بوفاة الحاكم بأمر الله ٤١١ هـ/ ١٠٢٠ م - في نفس العام الذي أصدر فيه العفو عنهم - وسرعان ما عاد إليهم نفوذهم، وسيطرتهم مرة أخرى، بعد أن ألغيت ست الملك جميع قرارات الحاكم بأمر الله ضد أهل الذمة، فعادوا إلى عمارة كنائسهم، وممارسة أعيادهم التي شاركهم فيها الخليفة الظاهر نفسه. (١)

عاد تسلط أهل الذمة مرة أخرى في عهد المستنصر بالله، حيث برز في عهده أبو سعيد للتستري اليهودي الذي كان يتولى شؤون أم المستنصر منذ أن كانت جارية عنده وباعها إلى الخليفة الظاهر بسائه، فأنجبت منه المستنصر، فلما تولى ابنها الخلافة، فوضعت أبا سعيد هذا، أمر ديوانها، فارتفع شأنه حتى أصبح يتحكم في أمور الدولة، وفاق سلطانه الوزير والخليفة نفسه، (٢) واستغل نفوذه، ولحق بمناصب الدولة الكثير من اليهود، وولاهم الوظائف الكبرى، فقال المسلمون منه الكثير من الأذى، بحيث إنهم كانوا يحلفون بحق للتحمة على بني إسرائيل، مما دفع أحد الشعراء المعاصرين ويدعى الرضوي بن الجواب بالتعبير عن المرارة التي شعر بها المصريون قائلاً:

يهود هذا الزمان قد بلغوا غاية آمالهم، وقد منكوا
 تعز فيهم، وإنما عندهم ومنهم الممبتشار، والملك
 يا أهل مصر إني قد نصحت لكم تهودوا قد تهود الفلك. (٣)

في نظرة تأملية لهذه الآيات يتضح ما آلت إليه الأوضاع من سوء معاملة، وحظ عتير للمسلمين المننة، ومدى ما حققه اليهود من مكاسب، وإنجازات، وسيطرة، وسلطة.

(١) الأنطاكي: المصدر السابق، ص ٢٣٧؛ النوري: نهاية الأرب، ج ٢٦، ص ٦٤.

(٢) ابن ميسر: أخبار مصر، ص ٢٠.

(٣) ابن ميسر: أخبار مصر، ص ٢٠؛ المقرئ: تحفا الخلفاء، ج ٢، ص ١٩٧؛

للسيوطي: حمن للمحاضرة، ج ٢، ص ١١٦؛ سلام الشافعي: أهل الذمة في

مصر، ص ٩١.

وتؤكد إحدى وثائق الجند التي تعود إلى القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي، بأن اليهود الذين كانوا يلحقون بخدمة الدولة، كانوا يستعملون نفوذهم، ومناصبهم لخدمة إخوانهم من اليهود، فتذكر تلك الوثيقة أن أحد اليهود كان مسجوناً بمصر، وكان يحاول إثبات براءته قسراً؛ لأن ما فعلته من أجل اليهود جميعاً معلوم جيداً، وإني قد التحقت بخدمة للحكومة؛ لكي أكسب عيشاً، وأفعل خيراً لإخواني في العتيدة. (1)

لم يتردد المستنصر بالله في أن يفعل مثلما فعل لحاكم بأمر الله من قبل، في التضييق على أهل الذمة، وذلك عندما تأكد من تسلطهم، وتعاليمهم على المسلمين، ففي سنة ٤٨٤ هـ / ١٠٩٦ م، وصلت إلى المستنصر بعض الشكاوى التي يستخف فيها المسلمون من تسلط أهل الذمة، وتطاولهم عليهم، فأصدر للمستنصر تعليماته بالزامهم لبس الخبار، والزنانير، وأمرهم بتحليق الدراهم للرصاص في أعناقهم مكتوب عليها "تمي"، كذلك جعل تلك الدراهم في أعناق نسائهم في الحمامات؛ ليُعرفن بها، وأن يلبسن الخفاف: فرداً أسود، وفرداً أحمر، وجنجالاً قسي أرجهين. (2)

بدو أن فترات للتضييق التي كانت تمر على أهل الذمة كانت فترات قصيرة، تأتي في نهاية حكم كل خليفة، كرد فعل على مُبالغتهم في النفوذ، والسيطرة، ولكنها سرعان ما تنتهي، وتبدأ فترة أخرى من المحاباة، والتسامح الذي يأتي بنتائج السلبية على المسلمين البنيين.

ففي عهد الأمر بأحكام الله ٤٩٥ هـ - ٥٢٤ هـ / ١١٠١ - ١١٣٠ تمتع أهل الذمة بالعديد من المميزات، ووصلوا إلى أعلى مناصب الدولة، فزاد نفوذهم، وكذلك طغيانهم، وقد برز من بينهم الراهب أبو نجاح بن ميناء الذي ولاه الخليفة الأمر بأحكام الله رئاسة السواوين ٥١٩ هـ / ١١٢٥ م، وقد أساء هذا الرجل للسيرة، وأخذ في مصادرة أموال

(1) Mann, The Jews in Egypt and Palestine, I, p.219.

(2) ابن تقي بردي: النجوم، ج ٥، ص ١٣١.

للناس، والاستيلاء على أموالهم^(١)، وألحق بهم كثيراً من ألوان الأذى. ^(٢)
ولم يسلم منه زعماء مصر، وأعدائهم. ^(٣)

استطاع هذا الراهب أن يحوز ثروة ضخمة، وأن يُنفق ببذخ، وإسراف، فقد كانت تصنع له ملابس خاصة بتتيسر ودمياط من الصوف الأبيض المحلي بالذهب، وكان يركب السروج المُحلاة بالذهب، وانفضة، ويجلس في مسجد عمرو بن العاص، ويمتدعي الناس للمصاهرة. ^(٤) ومن الغريب أن هذا الراهب قد لقب بالأب المقدس والروحاني النقيس، رب الأباء وميد الرؤساء، مقدم دير النصرانية، وسيد البيطركية، صفى الرب، ومختاره، وثالث عشر الحواريين. ^(٥)

ثمادى هذا الراهب في استبداده، وظلمه، حتى نصحه أحد الشيوخ الكتاب بالعدول عن تلك السياسة التي يتكون من أسباب هلاكه. ^(٦) غير أن الراهب قد أجابهم بكلمات لم تختلف كثيراً عن تلك التي نكرها ابن نسطورس عندما كان في نفس موقفه، والتي تدل على مدى تحيز أهل الذمة لبني ملتهم، وكذلك مدى كراهيتهم للمسلمين الذين عدوهم متعصبين لمملكتهم، فقال الراهب: نحن ملأك هذه الديار حرثاً وخراجاً، ملكها المسلمون منا، وتغلبوا عليها، وغصبوا، واستمكروها من أيدينا، فسنحن مهما فعلنا بالمسلمين فهو قبالة ما فعلوه بنا، ولا يكون له نسبة إلى مَنْ

(١) أبو صالح الأرمي: كنس وأبيرة مصر، ص ٥٤؛ عبد المنعم سلطان: المجتمع المصري، ص ١٠٦.

(٢) أيمن فولاد سود: الدولة الفاطمية، ص ٢٤٠؛ فاطمة مصطفى عامر: تاريخ أهل الذمة، ج ١، ص ١٩٤.

(٣) للفتشندي: صبح الأعشى، ج ١٧، ص ٣٦٩، ٣٧٠.

(٤) ابن طاهر: أخبار الدول، ص ٧٧، ٧٨؛ المقرئ: فتاوى الحنفا، ج ٣، ص ١٢٧؛ عبد المنعم سلطان: المرجع السابق، ص ١٠٦.

(٥) أبو صالح الأرمي: المصدر السابق، ص ٥٤؛ فاطمة مصطفى عامر: المرجع السابق، ج ١، ص ١٩٤؛ أيمن فولاد سيد: المرجع السابق، ص ٢٤٠.

(٦) للكندي: لولاة وكتائب القضاء، ص ٤٢٤.

قِيلَ من رؤسائنا، وملوكنا في أيام الفتح، فجميع ما نأخذ من أموال المسلمين وأموال ملوكهم وخلائفهم حل لنا، وهو بعض ما نستحقه عليهم، فإذا حملنا منهم مالا كانت المنة منا عليهم* (١) ثم استشهد الراهب بنفسه البيتين اللذين قد أُنشدهما ابن نسطورس من قبل مع بعض التعديل. (٢)

وعندما سمع الخليفة الأمر بما قاله الراهب، غضب أشد الغضب، وقرر الانتقام منه، ومن غيره من الظميين، وأمر بعدم استخدامهم في شؤون الدولة والتشديد عليهم، أما الراهب أبو نجاح فقد قبض عليه، وضرب بالنعال حتى مات. (٣)

على أن سياسة عدم استخدام الظميين في شؤون الحكم، والإدارة لم تدم طويلاً، بل وصلت إلى قمتها في عهد الخليفة الحافظ لدين الله الذي استوزر لأول مرة في تاريخ مصر الإسلامية وزيراً نميّاً أرمينياً، وذلك بعد أن كان بعض الظميين يلجأون إلى اعتناق الإسلام؛ للوصول لهذا المنصب، ولم يرض المسلمون عن تلك الوزارة، وأنكروا ذلك على الخليفة، (٤) ولكن دون جدوى، فقد تسلم بهرام الأرمسي الوزارة ٥٢٩ هـ/ ١١٦٣ م، وقبض على مقاليد الأمور، واستقطب حوله أبناء جنسه من النصارى الأرمن. (٥)

(١) ساويرس بن المقفع: سير للبيعة المقدسة، ج ١، ص ٢٠٤، من ٥٠٤ قاطمة مصطفى

عامر: تاريخ أهل النمة، ج ١، ص ١٩٧، O'Leary: op. cit., p. 49.

(٢) للمقريزي: تعاضد الخلفاء، ج ١، ص ١٣٢. قال:

بنتا كرم بتوها أمها	وأهاتوها لديمت بتلكم
ثم عادوا حكموها بيتهم	ويلهم من فعل مظلوم حكم

(٣) ساويرس بن المقفع: سير للبيعة المقدسة، ج ٣، ص ٢٠٤، ص ٢١٨.

(٤) للمقريزي: تعاضد الخلفاء، ج ٣، ص ١٥٦.

(٥) محمد ماهر حمادة: الوثائق السياسية والإدارية، ص ١٤٤.

Mann: op. cit., pp. 8-9

يذكر أبو صالح الأرمني أن الأرمن قد تجاوزوا مكانة عالية زمن الحافظ، حتى إن ديوان التحقيق قد تولاه الشيخ أبو زكريا يحيى بن بولس الكاتب النصراني الذي كان له موضع خاص أفردته الخليفة له داخل القصر، وقد استخدم معه اثني عشر نقيبًا يعازونه في عمله، فأصبح لهم النفوذ، والسيادة على المسلمين.^(١)

سيطر الأرمن على مقاليد الأمور في مصر، وقاموا ببناء العديد من الكنائس، والأديرة،^(٢) وبسطوا أيديهم في جميع شؤون الدولة، ولاسيما بعد أن ولاهم بهرام، وعزل المسلمين، فأصبح منهم النظار، والمشرفين، وحكام الأقاليم.^(٣) فأهانوا للمسلمين، وأساءوا السيرة فيهم، وظلموهم. فيذكر المقرئ أن أحد النصاري الأرمن الذي كان يتولى تقدير الضرائب زمن الخليفة الحافظ تشاجر مع صاحب معدية أثناء مروره لمسح أرض بعض النواحي؛ لرفضه دفع أجر المعنية، فأرغمه صاحب المعدية على الدفع، فحنق عليه النصراني، وادعى أنه يملك أرضًا من الناحية، مساحتها عشرون فدانًا تعرف بـ"أرض اللجام"،^(٤) وأرغمه على دفع الضرائب المقررة عليها بعد أن ضربته، وأهين، ورغم شهادة أهل الناحية بعدم ملكيته لأي شبر فيها، مما اضطر للرجل لبيع معديته لسداد قيمة الضرائب.^(٥)

استطاع الرجل أن يصل إلى القاهرة، ويتظلم للخليفة الذي تحقق من صدقه، فقبض على الكاتب النصراني، وشهر به، وعوقب على

(١) أبو صالح الأرمني: كنائس وأديرة مصر، ص ٣٩.

(٢) ابن ميسر: أخبار مصر، ج ٢، ص ١٧٩، Heyd, W. : op. cit., p. 45

(٣) ابن ميسر: المصدر السابق، ص ٧٨، ٧٩؛ ساويرس بن المقفع: المصدر السابق، ج ١، م ٣، ص ٧٨، ٣٠.

(٤) ساويرس بن المقفع: المصدر السابق، ص ٤٦.

(٥) المقرئ: لفظ ج ١، ص ٨٨، قاسم عبده قاسم: تاريخ أهل الفقه، ص ٥٣.

فعلته،^(١) حيث سُزِر في موكب، وطيف به في سائر الأقاليم. وإن كان هذا الرجل قد نجح في إيصال صوته، ومظلمته لخليفة، فمن المؤكد أن هناك الكثيرين من الذين لم يتمكنوا من ذلك.

ففي ولاية قوص كان يتولى أخو بهرام هذا، وقد عم ظلمه الناس فيها، وقام بمصادرة أملاكهم، وأساء السيرة فيهم، مما أوقع الغضب، والفرح في قلوبهم، هذا الأمر الذي جعلهم يستجدون بسوالي الغربية رضوان الوليخش، حتى ينقذهم من إهانة الأرمن لهم، ويستحثونه على إنقاذهم،^(٢) فاستجاب رضوان، وحشد جيشاً كبيراً، واتجه إلى القاهرة، رافعاً للمصاحف على أنة الرماح.^(٣)

وعندما علم بهرام قرُ هارباً من القاهرة، وعندما وصل الخبر إلى قوص، تجرأ أهلها، وهاجموا أخا بهرام، وقتلوه.^(٤) كذلك كان الحال في القاهرة التي انطلق أهلها مهاجمين دار الوزارة ناهبين لكل ما فيها، كما قاموا بتهيب الكنائس، وإحراق دور الأرمن، وكنائسهم.^(٥)

وعندما شعر الحافظ بخطورة الموقف، وشعور الغضب، والثورة التي انتاب للمسلمين أمر بطرد النصارى من الوظائف في جميع أنحاء الدولة، غير أن النصارى قد احتالوا على هذا الأمر، مستغلين تعلق الخليفة بطلم النجوم، فقد دسوا إليه أحد العرافين الذي أقنع الخليفة أن

(١) المقريزي: المصدر السابق، ص ٨٨؛ قاسم عبده قاسم: المرجع السابق،

ص ١٥٣، *op. cit.*, p. 5.

(٢) المقريزي: تحافظ للحلفاء، ج ٣، ص ١٥٩؛ محمد ماهر حماد: الوثائق السياسية، السياسية، ص ٤٤.

(٣) ساويرس بن المقفع: سير البيعة المقدسة، ج ٢، م ١٠١، ص ١٢٢، ١٢٤؛ فاطمة فاطمة مصطفى عامر: تزيخ أهل لنمة، ج ١، ص ١٩٧.

(٤) ابن الأثير: الكامل، ج ١٩، ص ١٩٨، ١٩٩؛ المقريزي: المصدر السابق، ص ١٦٠، ١٦١.

(٥) ساويرس بن المقفع: المصدر السابق، ج ١، م ٢، ص ٤٧-٤٨؛ المقريزي: المصدر السابق، ص ١٦١.

صلاح البلاد لن يتأتى إلا بتولي الدواوين لرجل حدد له أوصافه، التي كانت تنطبق بالفعل على أحد النصاري، ويدعى الأخرم بن زكريا، وقد نجحت تلك الحيلة، وتولى هذا الرجل رئاسة الدواوين، فأعاد كتاب النصاري إلى الوظائف المهمة في الدولة، وقويت شوكتهم مرة أخرى، فأخذوا في التضييق على المسلمين، فاستولوا على الأقباس، والأوقاف الشرعية، واتخذوا العبيد، والمماليك، والجواري من المسلمين، والمسلمات، وصودر بعض كتاب المسلمين فألجأته الضرورة إلى بيع أولاده/ وبناته فاشتراهم أحد النصاري. (1)

ويورد المقرئزي أبياتاً تدل على استياء المسلمين من لوضاع أهل الذمة، وسلطهم، وانزعاجهم في ظل سياسة الأخرم النصرائي - وكان أعور - تقول تلك الأبيات:

وخالوا باليفال ويلسـروج	إذا حكم النصاري الغروج
وصار الأمر في أيدي الغسوج	وذلت دولة الإسلام طـرا
زمانك إن عزمت على الخروج (2)	فقل للأعور الجال هذا

وعلى الرغم من الحد من استخدام أهل الذمة منذ عهد الخليفة الفاطمي الأمر بإحكام الله فإنه لم يتم الاستغناء عنهم في الدولة الفاطمية، وظلت رغبتهم في التسلط، والإساءة للمصريين يقابلها أحكام وتشريعات من جانب الخلفاء الفاطميين. ففي عهد الخليفة الظاهر شدد أوامره بضرورة لبس الزنار لأهل الذمة، وعدم لبس الطيالة. (3) وفي عهد انفاز أمر للوزير طلائع بن رزيق بالألا تكون لعنائهم ذوائب. (4) أما العاضد آخر خلفاء الدولة الفاطمية في مصر فقد أمر وزيره أسد الدين شيركوه ٥٦٤ هـ بأن يرفع القبط عنب- طرف - عمائهم، وأن يمشد الزنار في

(1) المقرئزي: الخطط ج ١، ص ٤٠٦؛ عبد الغنم سلطان: المجتمع المصري،

ص ١٠٨؛ قاسم عبده قاسم: تاريخ أهل الذمة، ص ٥٢.

(2) المقرئزي: المصدر السابق، ص ٤٥.

(3) ساريرس بن المقفع: سير قبيمة المتقدمة، ج ٣، م ٢، ص ٤٤.

(4) نفسه، ص ٤٦.

أوساطهم.^(١) وعندما ولي صلاح الدين الأيوبي الوزارة جند هذه الأوامر، وقد استمرت هذه السياسة حتى سقوط الدولة الفاطمية ٥٦٧ هـ، وكذلك في الدولة الأيوبية.

لم تكن تلك التشريعات التي تصدرها للدولة الفاطمية ضد أهل الذمة، تشريعات إسلامية، ولكنها كانت تشريعات مدنية مؤقتة، تنتهي بانتهاء الموقف، كانت الدولة تصدر تلك التشريعات - أحياناً - للحد من ثورة الشعب المصري المنفي الذي امتد من سيطرة، وتسلط أهل الذمة عليه، والذي تمتع في ظل الدولة الفاطمية بما لم يتمتع به الشعب للمصري نفسه، حتى قيل إن العصر الفاطمي يعد العصر الذهبي لأهل الذمة - باستثناء عصر الحاكم بأمر الله الذي عمت تشريعاته السني، والمسلم على السواء^(٢) - هذا الأمر الذي كان سبباً من أسباب التورق، والفساد الذي ساد بين السنيين، وأهل الذمة.

هكذا هيأت السياسة التي اتبعتها الخلافة الفاطمية الظروف لظهور الفساد بين كل من المسلمين، والشيعة من جهة - وذلك عندما أخلت بعهد الأمان الذي قد قطعته على نفسها منذ دخولها مصر -، وبين للمسنين، وأهل الذمة - من جهة أخرى - عندما اعتمدت على أهل الذمة، وأطلقت يدهم في كل شيء، فأساءوا للمصريين السنيين، ففسدت العلاقة بينهم.

لم تقتصر السياسة الفاطمية على الاعتماد على أهل الذمة دون المعلمين السنيين في أعمال الحكومة فحسب، بل وصل تسلط أهل الذمة إلى الجنود الفاطمية نفسها، فتدخل في جيباتها الوراثية، فتزوج بعض الخلفاء الفاطميين من الذميات، مثل العزيز بالله، والظاهر، والمستنصر بالله، وولد بعضهم لذميات، كالحاكم بأمر الله وأخته بنت الملك، مما كان له عظيم الأثر في أهواء الخلفاء، وتحيزهم لأهل الذمة دون المسلمين.

(١) فاطمة مصطفى علم: تاريخ أهل الذمة، ج ١، ص ٢٢٠؛

.Bosworth : op. cit., pp. 66 - 70

(٢) فاسم عبده فاسم: تاريخ أهل الذمة، ص ٥٨؛

.Atiya : op. cit., p. 6; Mann : op. cit., p. 9

ومن الملاحظ هنا أن السيدات، الذميات قد وصنن إلى مكانة عالية في ذلك العصر (العصر الفاطمي الأول) عصر الخلفاء، بسزواجهن من خليفة، أو بأخذهن لقب أم الخليفة، ولكن لا نعرف حتى الآن لماذا فضل الخلفاء الذميات على المسلمات ؟ ربما يكون ذلك لشهرتهن بجمال، ونكاه فاقا الحد، وربما يكون لمسيب آخر، ولكن على أية حال فقد اختلطت الدماء الفاطمية الشيعية بدماء نمية، ولكن دون أن يتتصر، أو يتهود أحد خلفائها، ولكن تتصرت، وتهودت قراراتهم لصالح أهل النعمة ضد المسلمين السنيين، فأصبح العصر الفاطمي هو العصر الذهبي لأهل النعمة، كما نعتة د.قاسم عبده قاسم. (١)

(١) قاسم عبد قاسم : المرجع السابق، ص ٣٩٥

.Dopp : op. cit., p.54 ؛Heyd : op. cit., p. 395

الفصل الخامس

الفساد الاقتصادي ومدى تأثيره بالنواحي السياسية والإدارية والاجتماعية

أولاً : أسباب الانهيار الاقتصادي :

١- الأسباب الإدارية والسياسية.

٢- الأسباب الدينية والاجتماعية.

ثانياً : مظاهر الانهيار الاقتصادي في مصر الفاطمية :

١- فرض الضرائب غير الشرعية (المكوس).

٢- المصادرات.

٣- القرض والاستدانة.

٤- السلف.

٥- ارتفاع الأسعار، واحتكار السلع.

٦- انخفاض قيمة العملة.

ثالثاً : النتائج التي تترتب على الفساد والانهيار الاقتصادي :

١- خراب مدينة الفسطاط، وتدميرها.

٢- ضياع ممتلكات الدولة الفاطمية، وأثر ذلك على

الاقتصاد.

٣- الانهيار الاقتصادي التام، وزوال الدولة الفاطمية.

إن للدولس لأحوال مصر المائتة، والاقتصادية في العصر الفاطمي، لا يستطيع أن يضع حدوداً فاصلة بين سنوات الازدهار الاقتصادي، وسنوات انهيار هذا الاقتصاد، فقد يصل الازدهار الاقتصادي إلى أعلى درجاته، حتى يظن البعض أن هذه البلاد تعيش حياة من الترف، والرخاء الذي لا يماثله ترف، ورخاء في أي مكان آخر، ثم يعقبه مباشرة انهيار يشعر الدارس خلاله أن البلاد لم تحظ بشيء من الازدهار قط إلا أن الأمور لا تثبت أن تعود إلى نصابها من جديد في وقت قصير، لذلك يمكن القول إن الحياة المالية، والاقتصادية في مصر خلال انعصر الفاطمي كانت تتأرجح بين الازدهار تارة، وبين الانهيار، أو التأخر، والاحتياط تارة أخرى. (١)

فعلى الرغم مما كانت تتمتع به مصر طوال العصر الفاطمي عامة من ازدهار للحياة الاقتصادية، وظهور للترف، والبذخ، والرفاهية، فإن عوامل الانهيار، والاضمحلال كانت تطل برأسها من وقت لآخر، معلنة عن وجودها وسط هذا الرخاء، والازدهار، وإن كانت العوامل الطبيعية قد لعبت دوراً مهماً في ظهور هذا الانهيار، وذلك مثلما كان يحدث عند نقص فيضان النيل، أو زيادته. (٢) إلا أن العامل البشري المتمثل في فساد المساسة، والعسكريين، والإداريين كان أكثر فاعلية في حدوث تلك الانهيار الاقتصادي. (٣)

وعندما وصل الفاطميون إلى السلطة في مصر، عملوا على استغلال مواردها إلى أقصى درجة ممكنة؛ للحصول على أقصى عائد مالي يستطيعون خلاله تلبية احتياجاتهم الخاصة، ومواجهة النفقات الباهظة لبلاطهم للفخم، واحتفالاتهم الباذخة. (٤) هذا الأمر الذي أدى إلى فراغ

(١) لمينة الشوربجي : رؤية الرحالة، ص ٣٩٧.

(٢) للمقريزي : إغلة الأمة، ص ٨.

(٣) ماويرم بن المقفع : سيرة النبيعة للمقسمة، ج ٢، ص ٢٠٣ - ٢٠٤
النويري : نهاية الأرب، ج ٢٨، ص ٢٣٤، المقريزي : اتعاط للحنفا، ج ٢، ص ٢٦٢ - ٢٦٣ للمقريزي : المصدر السابق، ص ٢٢، ٢٣.

(٤) ليمن فؤاد سيد : الدولة الفاطمية في مصر، ص ١٥١٢، لمينة الشوربجي : رؤية للرحالة، ص ٣٩٧، راشد البراوي : حالة مصر الاقتصادية في عهد الفاطميين، ط ١، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٤٨م، ص ٣٦٧.

الخزينة المصرية من الأموال، ومن ثم كان لابد من تعويض هذا الفراغ بشكل أو بآخر، فجات الدولة إلى العديد من الإجراءات المشروعة وغير المشروعة، التي شاركت في ظهور العديد من المظاهر المسلبية على المجتمع المصري في شتى جوانبه، هذا الأمر الذي أدى بدوره إلى سقوط الدولة الفاطمية نفسها. وعلى هذا الأساس سيتم تناول هذا الموضوع خلال ثلاثة محاور، وهي : أسباب الانهيار الاقتصادي في مصر الفاطمية، مظاهر هذا الانهيار وكذلك نتائجه.

أولاً : أسباب الانهيار الاقتصادي في مصر الفاطمية :

[١] الأسباب السياسية، والإدارية :

- ١- تولي الخلفاء في سن مبكرة.
- ٢- كثرة الصراعات بين الجنود.
- ٣- إهمال شؤون الدولة في ظل التغيير المستمر للوزراء، وتصارعهم من أجل الوزارة.
- ٤- انقسام الدعوة الفاطمية على نفسها.
- ٥- عجز الخلفاء عن التصدي للمجاعات، والأزمات التي واجهت البلاد. (١)

[٢] الأسباب الدينية والاجتماعية :

- ١- كثرة الإنفاق على الأعياد، والاحتفالات. (٢)
 - ٢- التمايز الطبقي بين المسلمين، وأهل الذمة.
 - ٣- لختفاء الطبقة الوسطى.
- كما كان هناك بعض الأسباب العامة التي ساهمت في الانهيار الاقتصادي، مثل : نقص فيضان النيل، أو زيادته. (٣)

(١) ملحق رقم (٤).

(٢) ملحق رقم (٤).

(٣) ملحق رقم (٤).

ثانياً : مظاهر الانهيار الاقتصادي في مصر الفاطمية :

[١] فرض الضرائب غير الشرعية :

(أ) (المكوس)^(١) :

يرتكز الاقتصاد في أي دولة على نظامها المالي، الذي يتمثل في إيرادات الحكومة ومصروفاتها، وطرق الموازنة بينهما، وكان المورد الرئيس لإيرادات مصر بشكل عام يتمثل في الجزية، والخراج (ضريبة الأرض الزراعية)، ثم الضرائب الشرعية^(٢) التي أقرها فقهاء المسلمين. غير أن ولاة مصر قد استحدثوا مصادر أخرى للدخل غير تلك الضرائب، وكانت هذه الضرائب ترتبط عادة بأوساط التجار، وأخذت هذه

(١) المكوس : كلمة تعني ضريبة الأسواق، وكانت معروفة من قبل في العصر الجاهلي، ولعل اسم قرية "مكس" الموجودة على النيل في شمال القاهرة، والتي كانت تعرف باسم قرية أم دنين، هي تحريف لكلمة "مكس" لأن الماكس كان يقعد بها ليستخرج المكس.

ومكس : كلمة قديمة مشتقة من اللفظ العبراني "ماكسو" وكانت تعرف عند العرب قديماً، وكانت تطلق على الضرائب التي تجبى على التجارة والصناعة والضرائب التي تجبى من ملئعي الملعق في الأسواق، كذلك كانت تطلق على النجبة التي تجبى فيها الضرائب. الفلقشندي، ج ٣، ص ١٤٧ المعريزي : الخطط، ج ٧، ص ١١٢١ ج ٢، ص ١٦٩؛ سيدة إسماعيل كاشف : مصر في فجر الإسلام، ص ٤٠؛ عبد المنعم ماجد : ظهور للخلافة الفاطمية، ص ٢٤٧.

(٢) للضرائب الشرعية : هي الضرائب التي تستقي منها الدولة مواردها وهي فسي نظر الفقهاء : الفيء، وهو ما يؤخذ من المشركين دون قتال، ويشتمل على الخراج والجزية والضرائب المفروضة على تجار أهل الذمة وعلى التجار المشركين للقادمين من خارج دار الإسلام. والخمس على ما يستخرج من المعادن والركاز والمغلقم. وخمس سيب البحر مما يقتف به البحر ويستخرج منه. والزكاة أو الصدقة ونجبي على المواشي والزرورق والثمار والذهب وعلى بضاعة التجار المسلمين، فيما عدا ذلك وعد ضرائب غير شرعية.

راجع : ابن سعد (محمد بن سعد بن مطيع البصري الزهري) ت ٢٣٠هـ / ٨٤١م : للطبقات الكبرى، تحقيق إحسان عيسى، ج ٢، بيروت، ص ٣٥٥، أم مقر : الحضارة الإسلامية، ج ٣، ص ١٩٤، ٢١٠؛ عبد العزيز النوري، تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري، بيروت، دار المشرق، ١٩٧٤، ص ١٨٧ - ١٩٢.

الضرائب تزداد حيناً، وتقل حيناً آخر، أو تلغى كليةً في بعض العهود؛
لأغراض سياسية، أو اقتصادية. (١)

وكان فقهاء المسلمين لا ينظرون إلى هذه الضرائب بعين الرضاء
لأنها في نظرهم ضرائب غير قانونية تتنافى مع الشرع، ولا سيما عندما
كانت تحصيل بطرق غير عادلة. (٢) وقد عرفت هذه الضرائب أولاً باسم
المرافق والمعادن، ثم عرفت بالمال الهلالي - الذي يؤدي شهرياً (٣) -، ثم
عرفت بالأموال الإسلامية. (٤)

وكان أول من أحدث مالاً سوى مال الخراج بمصر أحمد بن
محمد بن منبج لما ولي الخراج بمصر سنة ٢٥٠هـ / ٨٦٤م فحجر على
الظنون بعد أن كان مباحاً لجميع الناس، وقرر على الكلا الذي ثرعه
البيهائم مالاً أسماه (لمراعي) كما قرر على ما يخرج من البحر مالاً أسماه
"المصائد" (٥)، وعلى الرغم من أن هذه أتت فريضة على نطاق ضيق،
فإنها أثقلت كاهل الرعية؛ لذلك عمل أحمد بن طولون عندما ولي إمرة
مصر على إسقاطها. (٦) وكانت تبلغ مائة ألف دينار في كل سنة. (٧) وكان
ذلك رغبة منه في التقرب إلى المصريين. (٨)

-
- (١) أيمن فؤاد سيد : فدولة الفاطمية في مصر، ص ٥١٠، ٥١١ حمدي عبد المنعم
: تاريخ مصر الإسلامية، ص ٢٤٣.
- (٢) راشد البراوي : حالة مصر الاقتصادية، ص ٣٤٠؛ أحمد الصاوي : مجاعات
مصر الفاطمية، ص ١٤٢.
- (٣) المقرئ : الخطط، ج ٢، ص ١٢١؛ القلقشندي : صيغ الأعشى، ج ٣،
ص ٤٠٧؛ عبد المنعم ماجد : ظهور الخلافة الفاطمية، ص ٢٤٧.
- (٤) ناريمان عبد الكريم : مصر الإسلامية، ص ١١٤؛ أيمن فؤاد سيد : الدولة
الفاطمية، ص ٥١٢؛ حمدي عبد المنعم : تاريخ مصر الإسلامية، ص ٢٤٣.
- (٥) المقرئ : الخطط، ج ١، ص ١٠٣ - ١٠٤.
- (٦) البلوي : سيرة أحمد بن طولون، ص ٧٤ - ٧٦؛ مدينة إسماعيل كاشف : مصر
في فجر الإسلام، ص ٤٠، ناريمان عبد الكريم، للمرجع السابق، ص ١٤٢.
- (٧) المقرئ : الخطط، ج ١، ص ١٠٤؛ ج ٢، ص ٢٦٧.
- (٨) ناريمان عبد الكريم : المرجع السابق، ص ١٤٢؛ راشد البراوي : حالة مصر
الاقتصادية، ص ٣٤١.

كذلك كانت تلك الرسوم الجائرة سبباً من أسباب سقوط الدولة الإخشيدية بمصر، لذلك عندما دخل جوهر الصقلي مصر، أشار إلى بعض هذه التجاوزات المالية التي اتبعتها الدولة الإخشيدية، والتي عانى منها المصريون، كما وعد أهل مصر في أمانة بإسقاط تلك الرسوم عن كلهم. (١) غير أن الفاطميين لم يفوا بهذا الوعد، ولم يلتزموا بهذا الأمان، وأصبحوا كغيرهم ممن سيطر على موارد مصر، بل تعدوا ذلك بكثير. ولما وصل الفاطميون إلى السلطة أوردوا أن يستغلوا إمكانات مصر الزراعية والصناعية إلى أقصى درجة، وأن يأخذوا منها أقصى ما يمكن من عائدات مالية تلي احتياجاتهم الخاصة، مثلما كانوا يقومون بالجباية في شمال إفريقية. (٢) فأعادوا 'الأموال للهلاية' وصارت تعرف بـ 'المكوس'. وقد اتبع الفاطميون نظاماً دقيقاً في جمع تلك الضرائب بدأ هذا النظام مع بداية دولتهم في مصر. (٣) وأوردوا لها ديواناً خاصاً عرف بديوان الهلاية. (٤)

كما كانت هذه المكوس - وهي في الأصل ضريبة - تؤخذ على التورد، والصادر من البضائع في الموالي (٥)، ثم أصبحت تفرض على التجارة الداخلية، وبعض الأنشطة الاقتصادية غير المتعلقة بالزراعة، فكانت أيضاً تفرض على المراعي، والمصائد، والبضائع، وتجارة الترانزيت، ولذبابح، وسوق الرقيق، وأنواع الصناعات كالفخار، والمزر، والذبيذ. (٦) ثم أصبحت تلك الضريبة تفرض على كل شيء فلم تترك شاردة، ولا واردة إلا وكانت الدولة تتقاضى عنها ضريبة (٧)، مما أقتل كاهل الرعية وأفسد الحياة الاقتصادية، ولا سيما أن عائد هذه

(١) ناريمان عبد الكريم : المرجع السابق، ص ١٤٣.

Oman : History of the Art of War in Middle Aget, p. 15.

(٢) للقاضي النعمان : المجالس والمعارف، ص ٣٣٧ - ٣٣٨.

(٣) ناريمان عبد الكريم : مصر الإسلامية، ص ١٤٣.

(٤) القفندي : صبح الأعشى، ج ٣، ص ٤٩٦.

(٥) المقرئزي : الخطط، ج ١، ص ١٨٩ أحمد الصاوي : مجاعات مصر، ص ١٤٢.

(٦) ناريمان عبد الكريم : المرجع السابق، ص ١٤٤، Oman, op. cit., p. 16.

(٧) ناريمان عبد الكريم : المرجع السابق، ص ١٤٤.

الضريبة لم ينعكس بالإيجاب على الرعية بل استفادت منه الطبقة الحاكمة دون غيرها.

وكان "الخمس" من ضمن هذه المعكوس غير الشرعية، وكانت الحكومة الفاطمية تأخذ تلك للضريبة من التجار غير المسلمين والأجانب^(١)، وبخاصة الروم، الواردون إلى الثغور، وكانت هذه الضريبة تعني الخمس أحياناً والعشر أحياناً أخرى، وكانت نسبتها تتراوح بين ١٠% و ٢٠% وترفع حتى تصل إلى ٣٥% من قيمة البضائع الواردة، والصادرة، كما كانت تلك الضريبة تجبي عينا في بعض الأحيان.^(٢) ومن هنا جاءت كلمة الخمس والعشر كمرادف لكلمة مكوس.^(٣)

على الرغم من أن المقرئزي ذكر في خطبه أن تلك الضرائب غير الشرعية، قد أعيدت في أواخر أيام للدولة الفاطمية، وذلك بسبب نقص الخراج، وكثرة المنازعات بين كبار الموظفين والوزراء.^(٤) فإن جميع الشواهد تؤكد أن تلك الضرائب قد بدلت مع بداية الدولة الفاطمية. ربما كان المقرئزي يقصد أنها قد زيدت أو كثر تنوعها في تلك الفترة. فقد عمد الفاطميون إلى توجيه اهتمامهم بتلك الضرائب غير المباشرة، ولاسيما في حالة قلة الخراج. وقد أخذت هذه الضرائب تتزايد بسرور الوقت حتى وصلت إلى حد لا يطاق في نهاية العصر الفاطمي، ونلاحظ ذلك من الضرائب التي أسقطها صلاح الدين.

(١) ابن ممتي [أبو المكارم الأسعد بن مهنذ الخطير بن سعيد بن مينا]، تواتين ثنواوين، تحقيق: عزيز سوريان عطية، الملكية الزراعية، للقاهرة، ١٩٤٣م، ص١٢٢٩ التفتشندي: صبح الأضنى، ج٣، ص٤٦٣؛ المقرئزي: المصدر السابق، ص١٠٩.

(٢) المخزومي [لقاضي السيد ثقة الثعالب ذو الرياستين الحسين علي بن أبي عمرو عثمان بن يوسف] المنهاج في علم خراج مصر، المعهد العلمي الفرنسي للآثار، للقاهرة، ١٩٨٦م، ص٤٥.

(٣) ناريمان عبد الكريم: المرجع السابق، ص١٤٩.

وكان هناك ما عرف بالخمسة أيضاً ولكنه فرض على عامة الشعب، فكان الرجل يدفع خمس ما يزرع وما يملك، والمرأة تسفع خمس ثمرها. أحمد الصولي: مجامع مصر، ص١٤٥.

(٤) المقرئزي: للخطط، ج٥، ص٤١١؛ راشد البرلوي: حالة مصر الاقتصادية، ص٣٤.

فقد ذكر ابن سعيد أن عيسى بن نمطورس رسم أيام نضارتكـه
ضرائب، ورسموا جائرة، وأخذت مكوس زائدة على ما جرى الرسم
بأخذه، فحذف ابن عمار جميع ذلك ورد الأموال إلى ما كانت عليه. (١)
هذا بالإضافة إلى أن المقرئي نفسه قال : أن الحاكم بأمر الله الفاطمي قد
أسقط رسوماً بالساحل على أثر توليه الخلافة، وبعبارة أدق بعد أن تخلص
من سيطرة برجوان، وجعل مقاليد الأمور في يده، كما أمر الحاكم بأمر
الله بإبطال عدد آخر من المكوس في سنوات ٣٩٨هـ / ١٠٠٧م،
٤١٠هـ / ١٠٠٩م، ٤٠٣هـ / ١٠١٢م، ٤٠٤هـ / ١٠١٣م (٢)، وهذا
بالطبع خلاف المكوس التي سبقت لعيسى بن نمطورس، والذي ألغاه ابن
عمار. (٣) وفي ذلك دلالة على عدم استقرار الأحوال الاقتصادية وعدم
وجود خطة واضحة للارتقاء بالحالة الاقتصادية.

لكن سرعان ما عادت تلك الضرائب الفاسية إلى سابق عهدها،
بعد مقتل الحاكم بأمر الله فحينما قبضت بنت الملك على مقاليد الأمور،
وأعادت المكوس إلى ما كانت عليه من قبل. (٤) وهذه كلها شواهد ناطقة
بوجود هذه الضرائب قبل خلافة الحاكم بأمر الله، ودليل على أن
الفاطميين بعد استيلائهم على مصر قد أبقوا على ما وجدوه فيها، ولم
يحاولوا إلغائها؛ لأنها كانت بمثابة مورداً مهماً من موارد خزينة للدولة،
ولم يكتفوا بذلك بل عمدوا إلى زيادتها. (٥)

-
- (١) يحيى بن سعيد : التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق، بيروت، ١٩٠٨م،
ص٢٣٧؛ ناريمان عبد الكريم : مصر الإسلامية، ص١٤٣.
- (٢) المقرئي : المصدر السابق، ج٢، ص٢٨٦، ٢٨٨؛ محمد عبد الله عيسن :
الحاكم بأمر الله، ص١٥٧؛ راشد البراري: حالة مصر الاقتصادية، ص١٣٤؛
عبد المنعم ماجد : الحاكم بأمر الله، ص٦٣.
- (٣) المقرئي : اتعاظ التحفا، ج٢، ص١٧٩؛ الخطط، ج٢، ص٢٨٦؛ راشد البراري
: المرجع السابق، ص٣٤١.
- (٤) محمد عبد الله عيسن : المرجع السابق، ص١٥٧؛ راشد البراري : المرجع
السابق، ص٣٤١.
- (٥) أيمن فؤاد سيد : لدولة الفاطمية، ص٥١١.

وقد فرض الفاطميون هذه المكوس على كل شيء من المصنوع،
والمبيع، حتى قيل إنها بلغت ثمانين نوعاً من أنواع تلك المكوس التي
كانت موجودة في زمنهم والتي أمقطها الوزير صلاح الدين الأيوبي عن
مصر والقاهرة، والتي كانت تفرض على كل شيء فيما عدا الهواء الذي
أطلق سراحه، وترك حرّاً. (١) وقد بلغ عائد هذه المكوس مائة ألف
دينار (٢) سنوياً، وكان أشهر هذه المكوس مكس البهار. (٣)

ويفهم مما سبق أنه لم يسلم أي إنتاج لو أية حرفة أو مهنة زمن
الدولة الفاطمية من فرض المكوس عليها، ولكن هناك ثمة تعجب وهي أن
المقريزي قد أقر أن تلك الرسوم قد بلغت - على الرغم من قسوتها -
مائة ألف دينار سنوياً، وهو نفس المبلغ الذي كان يجمع زمن ابن المديبر
(في الدولة الطولونية).

وكانت هذه المكوس من الكثرة، والقسوة التي أرهقت الناس،
وأثقلت عليهم، وقد أبدى لنا بعض الرحالة استيائهم من كثرة تلك
المكوس. فيذكر المقدسي الذي زار مصر نحو ٣٧٥هـ / ٩٨٥م
استعراجه من ثقل الضرائب التي كانت تفرضها الدولة الفاطمية فكانت
ثقيلة، وبخاصة تلك الضرائب التي كانت تجبي من قنيس، ودمياط على
ساحل النيل، فيذكر أن الثياب الشطوبية - التي كانت تصنع بمدينة شطا -
لا يمكن للقبطي أن ينتج شيئاً منها إلا بعد أن يختم عليه بختم السلطان،
ولا تباع إلا على يد ممسزة قد عقدت عليهم، وصاحب السلطان يثبت ما
يباع في جريسته، ثم تحمل إلى من يطويها، ثم إلى من يشدها بالقش، ثم
إلى من يشدها في السنفط وإلى من يحزمها، وكل واحد ملهم له رسم
يأخذه، وتستمر الضرائب هكذا حتى نقلها، وبيعها. (٤)

(١) المقريزي: الخطط، ج ٣، ص ١٩٦؛ عبد المنعم ماجد: ظهور الخلافة الفاطمية،
ص ٢٤٨.

(٢) ساويرس بن المقفع: سير البيعة المقدسة، ج ٣، ص ٢٠٠، ص ١٦٩؛ أبو ثمانية:
الروضين، ج ١، ص ١٥٢٢؛ المقريزي: المصدر السابق، ج ١، ص ١٠٤، ص ١٠٥.

(٣) المقريزي: المصدر السابق، ص ١٠٥.

(٤) المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص ٢١٣؛ ناصر خسرو: سفرنامه،
ص ٢٧٧؛ أمين هوازيد، الدولة الفاطمية، ص ٥١٤، ص ٥١٤؛ أمينة الشوربجي: رؤية
الرحالة، ص ٤١٥؛ عبد المنعم ماجد: نظم الفاطميين ورسومهم، ج ١،
ص ١١٨.

وحصلت هذه المكوس من الصعينة، وساحل الإسكندرية، وعلى
مراكب الشام. (١) وكانت تحصل بواسطة ديوان الهلالي (٢)، وكانت قيمة
المكس تتراوح ما بين ٦٠% و ٢٥% من ثمن البضاعة. (٣)

خلاصة القول : أن الحكومة الفاطمية كانت تقوم بتحصيل
ضرائب باهظة من كل الثغور المصرية على جميع المنتجات التي تنتج،
ولا يتم تصدير هذه المنتجات إلا بمعرفة مندوبي الخليفة. (٤) وكانت تتم
مراقبتها من قبل الدولة التي تشددت في ذلك. (٥)

ويتفق الرحالة الفارسي ناصر خسرو الذي زار مصر نحو
(٤٤٠هـ / ١٠٤٨م) مع المقديسي في رؤيته لضخامة هذه الضرائب إذ
يقول : "وسمعت من النقات أنه يصل منها (يقصد تيس) لخزانة سلطان
مصر يومياً ألف دينار مغربي، ويصل ذلك المقدول مرة واحدة يحصله
شخص واحد يسلمه أهل المدينة إليه في وقت معين، وهو يسلم للخزانة
فلا يتأخر منه شيء". (٦)

ولعل ما قاله ناصر خسرو يوضح أن قيمة الضرائب التي كانت
تحصل عليها الدولة الفاطمية سنوياً تزيد عما قد قاله المقرئ في ذلك
بكثير، فإذا كانت تيس وحدها ومثلها باقي المواحل المصرية تمد الخزانة
المصرية بألف دينار مغربي يومياً. فما بال باقي الضرائب الأخرى.

وهذه الضرائب التي كانت تتم زمن الوزير ابن كلس كانت في
غاية للسوء وأطلق عليها "الضرائب الضرمسة" وكانت تفرض على الكثير
من منتجات البلاد الصادرة، وعلى كل ما يدخل مصر من بضائع واردة،
مما جعل عهد هذا الوزير يوصف بعهد "النوائب والمصن"، حيث إن
الوزير ابن كلس "جعل المكوس على جميع الداخلين والخارجين إلى
تيس". (٧)

(١) أمينة الشوريجي : رؤية للرحالة، ص ٤١٥.

(٢) القلقشندي : صبح الأعشى، ج ٣، ص ٤٩٦.

(٣) عبد الملحم حامد : نظم الفاطميين ورسومهم، ج ١، ص ١١٨.

(٤) ناصر خسرو : سفرنامه، ص ١٧٩، أمينة الشوريجي : لمرجع السابق، ص ٤١٥.

(٥) ناريمان عبد الكريم : مصر الإسلامية، ص ١٤٨.

(٦) أمينة الشوريجي : لمرجع السابق، ص ٤١٦.

(٧) نفسه.

أما الرحالة الأندلسي ابن جبير الذي زار مصر بعد سقوط الدولة الفاطمية بقليل فقد ذكر بشيء من المرارة، والاستياء شناعة تلك الرسوم؛ كما عبر عن مدى فرحته بما فعله صلاح الدين من إلغائها، وإعزل ابن جبير قد أوضح أن هذه الضرائب لم تكن ثقيلة فحسب، بل كانت أيضاً تجبي بطرق في غاية العذة، والقبوة.^(١)

وكانت الدولة الفاطمية تحرص على أن تصلها هذه الرسوم كاملة دون معاناة، ولما كانت هذه المكوس ضرائب غير شرعية، فلم يكن لدى الحكومة الفاطمية مانع من أن يكون تحصيلها يتم أيضاً بطريق غير شرعية، فعزل الفاطميون على تحصيل تلك الضرائب بما يسمى بنظام "الضمان"^(٢)، وهو أشبه بنظام الائتزام، حيث ضمنوا أموال الدولة كلها نون عشاء لهم. بغض النظر عما يعانيه المجتمع المصري، وقد ضيق هذا النظام على جميع الضرائب التي كانت تفرضها الدولة.^(٣)

(١) ابن جبير [أبو الحسين محمد بن أحمد الكلابي الأندلسي اللينسي]: رحلة ابن جبير، المسماة تنكرة الأخبار من اتفاقات الأسفار، تحقيق: حسين نصر، دار صادر، بيروت، ٩٦٤م ص١٨٣؛ ابن خلدون: المقدمة، ج٢، ص٨٣؛ القلقشندي: صيغ الأعشى، ج٤، ص٣٩١؛ تاريخ ابن عبد الكريم: مصر الإسلامية، ص١٥٠.

(٢) نظام الضمان: هو نظام مالي غير شرعي أشبه بنظام الائتزام، يتعهد بموجبه الضامن أن يدفع للدولة مبلغاً منوياً مبلغاً مطلقاً عليه عن قيمة الضرائب أو المكوس على جهة معينة تم الاتفاق عليها مقدماً في الغالب كان مبلغ الضمان يأتي أقل من الضرائب المحصلة، فيكون الزيادة فيه لحساب الضامن للشهني، لذلك كان الضمان يستخدمون كل الوسائل لزيادة هذا المبلغ، وتارة ما يأتي هذا المبلغ أقل من قيمة الضمان ولكن في هذه الحالة على الضامن دفع كل المبلغ إلا إذا سامحه ولي الأمر في ذلك. للمزيد راجع: المؤردي: الأحكام السلطانية والولايات الدينية، ص١١٦؛ القلقشندي: صيغ الأعشى، ج٢، ص١٤٦٦؛ راشد البرلوي: حالة مصر الاقتصادية، ص٢٢٤.

(٣) للتويري: نهاية الأرب، ج٢٦، ص١٤٩؛ أمين هواد سيد: الدولة الفاطمية، ص٣٢٢.

ففي عام ٣٦٣هـ / ٩٧٤م، ضمن محمد القاضي أبو الطاهر
الدُّهلي الأحماس بمبلغ ألف وخمسمائة درهم^(١)، وبعد موت الوزير بن
بن كلس، ضمن الخليفة للعزیز بالله أموال الدولة بجماعة من المستخدمين،
حيث ضمن علي بن عمر القداس مآل الدولة، والنفقات سنة ٣٨١هـ /
٩٩١م ثم حوسب بعد انقضاء السنة على دخلها، وخراجها^(٢).

وكان معظم ضامني الضرائب من الأثرياء أصحاب المشروعات
الذين جمعوا ثروتهم من النشاط الاقتصادي، أي أنها قد انحصرت في
أيدي نفر من أعيان البلاد، والأمراء، والأجناد ممن لديهم القدرة على
الوفاء بمثل هذه الالتزامات الكبيرة، وفي الغالب كانت تستند إدارة المنطقة
إلى الشخص الذي ضمن خراجها^(٣)، وكان المبلغ الذي يدفعه هؤلاء
الضامنة كان أقل بكثير من تلك الضرائب التي يحسونها^(٤).

ولو أن الحكومة الفاطمية قد اتبعت نظامًا يقوم على أساس يجعل
العلاقة مباشرة بينها وبين دافعي الضرائب لزادت إيراداتها، ولأراحت
هؤلاء للقوم من عنيت، وتعسف الضمان، غير أن الحكومة الفاطمية قد
فضلت تقصر الطرق وأيسرها لجمع الأموال.

ونظرًا للآرباح الطائلة التي كان يحققها ضامنوا الضرائب، فكان
الشخص الذي يريد الحصول على عقد ضمان لا يتردد في تقديم آلاف
الدينارات زيادة مما دفعه سلفه؛ لذلك فقد كثرت الأموال المدفوعة لهذا
الغرض (لارشوة)^(٥).

وكانت الحكومة الفاطمية تسعد على انتشار هذا الفساد، خاصة
في الأوقات التي تصاب الإيرادات فيها بعجز، فكانت الحكومة لا تحسرم

(١) المقرئزي : الخطط، ج ٢، ص ٣٩٥؛ راشد البراوي : المرجع السابق،
ص ٣٢٢.

(٢) ابن الصيرفي : الإشراف، ص ٥٤؛ أيمن فؤاد سيد : المرجع السابق، ص ٥١٥؛
راشد البراوي : المرجع السابق، ص ٢٢٢ - ٢٢٣.

(٣) أيمن فؤاد سيد : الدولة الفاطمية، ص ٥١٦؛ راشد البراوي : حالة مصر
الاقتصادية، ص ٣٢٤.

(٤) راشد البراوي : المرجع السابق، ص ٣٢٤.

(٥) المقرئزي : الخطط، ج ١، ص ٨٤؛ أيمن فؤاد سيد : المرجع السابق، ص ٥١٦.

عقود الضمان، وكثيراً ما تعرض للضامن لأن يلغى ضمانه إذا تقدم غيره بدفع مبلغ أكبر، ويظهر أن رجال الحكومة كانوا يستفيدون من هذا العمل بما يقدم إليهم من الهدايا، والرشاوى، وهذا يعني أن الفساد الازم قد استولى على أولي الأمر فيها. (١)

قلما علم المأمون البطائحي الوزير في خلافة الأمر بالله ما يعتمد في اللوائح من قبول تلك الزيادات، والرشاوى، وفسخ عقود الضمان، وأخذها من الضمضاء، ونقلها إلى من يتعهد ببذل زيادة في قيمتها دون جهد مبدول، أمر بوضع حد لهذه السياسة الفاسدة وجرم انتزاع الضمان من يد صاحبه مادام مراعيًا لشروطه ولما تنه للمدة المبينة في عقده بعد، وأصدر مرسومًا سنة ٥١٦هـ / ١٢٢٢م قرأ بالجامع الأزهر بالقاهرة، وجامع عمرو بن العاص بالفسطاط ليذكر هذا للعمل ويمنعه. (٢)

وإذا كان المأمون البطائحي قد عمل جاهداً على تطهير الإدارة للمالية من المساوي، إلا أن الأمور سرعان ما عادت إلى ما كانت عليه إن لم تكن قد ساءت بعد موت المأمون، فلم يمض وقت طويل حتى فرض الوزير الصالح طلائع بن رزيق الأموال على من يعينهم من الأسراء، والموظفين، وجعل ولاية الأعمال سلعة ذات سعر محدد، وهؤلاء السلوة كانوا يتبعون للسياسة نفعية مع مرؤوسيه حتى يحصلوا على ما دفعوه على الأكل، وبذلك سرى الفساد إلى جسد الإدارة الحكومية بأكملها، كما أصبح الاختلاس، والفوضى في جباية الأموال، وإنفاقها حلقة مفرغة لا رابط لها. (٣)

لم يقتصر الأمر على هذا فحسب، بل استغل الضمضاء غياب الرقابة الفاطمية، وحصلوا على عقود ضمان بتقديرات قديمة لا تتوافق مع المبالغ الفعلية، فابتزوا بذلك مبالغ أكبر من المواطنين ونسك بفرض

(١) المقرئزي : للمصدر السابق، ص ٨٤، رشيد البرلوي : للمرجع السابق، ص ٣٢٥.

(٢) ابن المأمون : أخبار مصر، ص ٢٨ - ٣١ المقرئزي : المصدر السابق، ص ٨٣، ٨٤، اتعاط الحنفاء، ج ٣، ص ٨١٢ رشيد البرلوي : للمرجع السابق، ص ٣٢٥.

(٣) رشيد البرلوي : حالة مصر الاقتصادية، ص ٣٢٦.

ضرائب أكبر عليهم، فزادت مطالبهم، وكذلك ثرواتهم، ولأسمسوا أنهم كانوا في الغالب يفتنون عن دفع المبالغ المستخدمة للحكومة.^(١)

وقد كانت هذه الثروات التي حققها هؤلاء الضمماء سبباً من أسباب كشف الستار عن الغنى الفاحش الذي تمتع به الوزراء والأمرء في الدولة الفاطمية. فقد قدر المؤرخون ثروة الوزير يعقوب ابن كلس من أملاكه، وضياح، وقينسر، ورياح، وورق، وأوان ذهبية، وفضية، وثياب، وفرش، وجوهر، وعنبر بأربعة ملايين دينار.^(٢)

كذلك عندما قبض الخليفة العزيز بالله على الوزير عيين بن نسطورس، فقد تشفعت له ست الملك فأعاده إلى عمله بعد أن حمل إلى خزانة الدولة ٢٠٠.٠٠٠ دينار.^(٣) هكذا كان الوزراء وكذلك الضمماء يستغلون إشرافهم على المسائل المالية فيقتنوا الأموال، والأملاك؛^(٤) لذلك كانت مصادرة الخلفاء لهؤلاء الوزراء، والأمناء مصدرًا آخر من مصادر الدولة تلجأ إليه في بعض الأحيان الأخرى.

(ب) ضريبة الموارث :

فلم يترك الفاطميون مصدرًا من مصادر المال إلا وقد تعرضوا له، حتى أنهم فرضوا ضريبة الموارث، التي قد اعترض عليها جوهر الصقلي منذ دخوله مصر، ووعده المصريين بإسقاطها؛ لأنها تؤخذ دون استحقاق لخزانة الدولة، حيث كانت الدولة الإخشيدية تقوم بفرض هذه الضريبة على أموال من يموت ولم يترك له وريثاً من عصبه، أو على ما يتبقى بعد إعطاء كل ذي سهم من الورثة سهمه.^(٥) وقد أطلق على هذه الضريبة 'ضريبة الإرث' وهي ضريبة غير شرعية أيضاً.^(٦)

(١) ابن مغازي : قوانين الدوليين، ص ٢٩٨ - ٣٠٠.

(٢) ابن طاهر : أخبار النول، ص ١١٠٩ المقريزي : الخطط، ج ٢، ص ١٧٠ ابن تغري بردي : النجوم، ج ٤، ص ١١٦.

(٣) النويري : نهاية الأرب، ج ٢٦، ص ٤٦، ٤٩.

(٤) راشد البراوي : المرجع السابق، ص ١٢٤.

(٥) ابن مغازي : قوانين الدوليين ص ٣١٩، ٣٢٥؛ للنويري : نهاية الأرب، ج ٢٨، ص ٣٢٥؛ القلقشندي : صبح الأمتى، ج ٣، ص ٤٦٤ المقريزي : الخطط

الحنفاء، ج ٢، ص ٢٤٤؛ راشد البراوي : حالة مصر الاقتصادية، ص ٣٥٠.

(٦) ابن حماد : أخبار بني عبود، ص ١٥١؛ ابن الطوير : نزهة العقليين، ص ٩٢؛ آدم مقر : الحضارة الإسلامية، ج ١، ص ١٩٥.

غير أن الدولة الفاطمية لم تلتزم بما قد وعدت به، وأعدت
تحصيل تلك الضريبة، وكان جوهر الصقلي نفسه ممن اعترض على هذه
الضريبة، وكان ذلك في وقت مبكر من عمر الدولة الفاطمية، ففي خلافة
الظاهر لدين الله الفاطمي، حصنت الدولة على ثلاث تركة إحدى التريبات
للإتني تمت بصنة قرابة لجوهر، وكان ذلك بحجة أن جوهر كان عبداً
للملطان. (١)

كذلك فقد تضمن أمن جوهر بأن تكون للمواريث على كتاب الله
ومنة نبيه (ﷺ)، ولكن جوهر ومن جاء بعده من الخلفاء قد أخلوا بذلك
أيضاً، ولأزموا المصريين على اتباع المذهب الشيعي الفاطمي في
الميراث. (٢) على الرغم من الاختلاف الواضح في تنفيذ الميراث بين أهل
السنة، وأهل الشيعة. إلا أن القضاة وكذلك الشهود قد أُجبروا على ذلك في
الفصل في للقضايا الخاصة بالمواريث مع الفاطميين تبعاً لمذهبهم، حتى
ولو كان القاضي سنياً في بعض الأحيان. (٣)

وعلى الرغم من ذلك فلم يستطع الفاطميون الحفاظ على ذلك
طوال عهدهم، فقد تراجعت الدولة في ظل حاجتها إلى الأموال عن هذا
المبدأ، وأقر الوزير بدر الجمالي - رغم تشييعه الشديد - نظاماً جديداً،
يقوم على أن كل من مات يعمل في ميراثه على حكم مذهبه، وليس مذهب
أهل الشيعة (٤)، وقد أدى ذلك إلى أن تكون الكثير من الأموال الخاصة
بالمواريث إلى الدولة، وذلك من أموال اليتامى، وربع العشر أو ضريبة
للتركات (٥)، مما أدى إلى حاجة الدولة إلى ديوان ليجمع تلك الأموال
ولامبها في أيام الحاجات التي توفي على غرارها الكثير من أهل
مصر (٦)، فكان ديوان المواريث الحضري. (٧)

(١) الشبجي : أخبار مصر، ص٥٤ - ٥٥.

(٢) المقرئزي : للمصدر السابق، ج٣، ص٨٩.

(٣) نفسه: أمين نواد سيد : الدولة الفاطمية، ص٥٤٠ - ٥٤١.

(٤) المقرئزي : للمصدر السابق، ج٣، ص٨٩.

(٥) نفسه، ص٨٩، ٩١، ناريمان عبد الكريم : مصر الإسلامية، ص١٥٨.

(٦) رشيد البرلوي : حالة مصر الاقتصادية، ص٣٥٠.

(٧) ابن ميسر : أخبار مصر، ص٨٣، ٨٤؛ لفلتشتدي : صبح الأضنى، ج٣،

وإن كان الأفضل شاهنشاه بن بدر الجمالي قد اتبع سياسة مغايرة لسياسة أبيه، وأقر مال للمواريث، ولأمر يمنع أخذ شيء من التركات. (١) فإن بعض الناس قد تحابلوا على مثل هذه الضرائب، وتهربوا من أدائها، فععدوا إلى التنازل مما يمكن من عقار ثابت أو أموال متقولة، بمختلف الطرق الشرعية التي تضمن لهم بقاءها دون فرض ضرائب عليها؛ وذلك نظراً لأن ديوان المواريث الحشرية، كان يهمل أموال الحشرين التي لهم لدى أفراد متفرقين في أقاليم الديار المصرية بحجة استحالة تحصيلها، وبذلك لا تؤول هذه الأموال إلى الديوان. (٢)

كذلك كان الحال بالنسبة لأموال الأحياس (٣) - الأوقاف - التي كانت تخصص على المصالح الخيرية وطوائف المستضعفين، وكان لا دخل للدولة بها، حيث كان يتولاها ناظر الوقف حسب شروط الوقف (٤)، غير أن الدولة الفاطمية قد أقرت لها ديواناً خاصاً عرف بـ "ديوان الأحياس" (٥) وأمر المعز لدين الله من أصحاب تلك الأوقاف إحضار المواثيق لإثبات أحقيتهم في ريعها، وكان ذلك في سنة ٣٦٣هـ / ٩٧٤م، كما أمر بحمل مال الأحياس من مودع الحكم إلى بيت المال، فأصبح لبيت المال منذ ذلك الوقت نصيب من مال الأحياس، هذا الأمر الذي لم يكن موجوداً من قبل، وأصبحت أموال الأحياس تمثل مصدراً من مصادر الدولة المالية. (٦)

ص ٤٩٢.

(١) زين ميسر : المصدر السابق، ص ٥٩، راشد البراوي : المرجع السابق،

ص ١٣٥١، ناريمان عبد الكريم : مصر الإسلامية، ص ١٥٨ - ١٥٩.

(٢) أيمن فؤاد سيد : الدولة الفاطمية، ص ٥٤٣.

(٣) أيمن فؤاد سيد : المرجع السابق، ص ٥٤٣، راشد البراوي : المرجع السابق،

ص ٣٥١.

(٤) راشد البراوي : المرجع السابق، ص ٣٥١.

(٥) المقرئزي : الخطط، ج ١، ص ٢٩٥، أيمن فؤاد سيد : المرجع السابق،

ص ٥٤٣.

(٦) أيمن فؤاد سيد : المرجع السابق، ص ٥٤٣، ناريمان عبد الكريم : المرجع

السابق، ص ١٦٦.

كانت الدولة تقوم بصرف هذه الأموال على مساجد مصر؛ لذلك فقد أمر الحنكمر بأمر الله بحصر "المساجد" سواء التي ليس لها وقفاء، أو التي يكفونها ربع ما يخرج مما هو مقرر لها^(١)، وقد بلغت هذه المساجد ثمانمائة وثلاثين مسجداً، قدر لها نفقة شهرية قيمتها ٩٢٢٠ درهماً، بواقع اثني عشر درهماً لكل مسجد، وبذلك ضمنّت الدولة مصدراً ثابتاً للصرف على المساجد.^(٢)

ولما كانت الدولة لا تستطيع التدخل فسي يطسأل أو حلّ تلك الأوقاف، فقد شاعت ظاهرة الأحباس (الأهلية)^(٣)، كنوع من أنواع "الشهرب الضريبي" من الدولة، فتحولت الأحباس الخيرية التي توفى على فقراء الناس ومحتاجيهم، إلى أوقاف أهلية، يوقفها بعض كبار رجال الدولة على ذويهم وأقاربهم.

فقد أوقف أمير الجيوش بدر الجمالي حبساً على عقبه رقبت وزارته، ضمن عند من النواحي عرفت بسـ"الحبس الجيوش" بعضها في الير الشرقي، وبعضها في الير الغربي جهة الجزيرة، وقد ظلت جميع البساتين المختصة بهذا الحبس بأيدي ورثة أمير الجيوش، حتى انفرد عقبه ولم يبق منه سوى امرأة، فأفتى الفقهاء ببطلان هذا الحبس، فصار ماله إلى بيت المال لينفق في مصالح المسلمين.^(٤)

أما الوزير طلائع بن رزيق فقد وصل من تسلطه وسيطرته على الخليفة أن أجبره على منحه أرضاً من أراضي مصر؛ ليجعلها وقفاً (برصد ريعه) بحجة أنه لأهل الخير، وقد اضطر الخليفة للفائز لطاعته ابن رزيق، فأعطاه الأرض التي أصبحت وقفاً لابن رزيق، وكتب له حجة تثبت حقه فيها.^(٥)

(١) المقريزي : تعاضد للحنفا، ج ١، ص ١٤٨.

(٢) المقريزي : تعاضد للحنفا، ج ٢، ص ٩٦؛ أيمن فؤاد سيد : للدولة الفاطمية، ص ٥٤٥.

(٣) ناريمان عبد الكريم : مصر الإسلامية ص ١٦٦.

(٤) ابن مماتي : قوانين لنواوين، ص ٣٣٦ - ٣٣٩؛ المقريزي : الخطط، ج ١، ص ١١٠؛ رشيد البراوي : حالة مصر، ص ٣٥١؛ أيمن فؤاد سيد : للمرجع السابق، ص ٥٤٦.

(٥) وهي أقدم وثيقة تمتلكها دار الوثائق القومية، تحمل رقم (١) في مجموعة حجج

هكذا فقد فرض الفاطميون الضرائب على اختلافها على كل شيء، واستحدثوا ضرائب لم تكن موجودة من قبل حتى صار كل شيء يخضع للضريبة.^(١) وقد بدأت هذه الضرائب مع بداية الدولة الفاطمية، ثم أخذت في الزيادة يوماً بعد يوم مع زيادة الحاجة إلى أموال، ولاسيما في أوقات الأزمات، وقلة الخراج^(٢)، ويعلل ابن خلدون ذلك، ويرجعه إلى ترف الدولة، وبذخها، ورغبتها في الإنفاق على الحفلات، والمواكب؛ مما جعلها في حاجة دائمة إلى الأموال ففرضت العديد من الضرائب، وجعلت لها قدرًا معلومًا.^(٣)

كما جعلت لها نظامًا خاصًا وهو نظام الضمان، على الرغم مما كان يسببه هذا النظام من ظلم للمصريين الذين ذاقوا مرار تلك الضرائب، وظلم الضمنا.

ولم تكن تلك الضرائب غير المباشرة في صالح الاقتصاد القومي، ولاسيما المستهلكين حيث أدت إلى ارتفاع تكاليف الإنتاج، وأسعار السلع تبعًا لذلك، كما كانت عبءية في طريق نشاط التجارة الداخلية.^(٤) وكذلك أزهقت الشعب المصري المغنوب على أمره، ومساهمت في الفساد السياسي والاجتماعي، والإداري.^(٥)

(ج) ضرائب متفرقة :

كما كان هناك العديد من الضرائب التي فرضت على التجارة الداخلية أيضًا، فكانت الدولة تفرض ضرائب على عبور السلع على القناطر، والمعديات.^(٦) كما كانت تفرض الضرائب على السلع ذاتها، مثلما كان يفرض على حقول المساحل أو الغلّة، وهي ضريبة متفرقة على

الأمرء والسلاطين، وهي عبارة عن وصف للعين المعبأة والمتصرف فيها وعليها أختام وتوقيعات القاضي الذي أجرى تسجيلها، ملحق رقم (٣).

(١) المقرئزي : الخطط، ج ١، ص ٨٩.

(٢) أحمد لصاوي : مجاعات مصر، ص ١٤٣.

(٣) ابن خلدون : المقامة، ج ٢، ص ٢٨٠ للمقرئزي : الخطط، ج ١، ص ٤٧٠.

(٤) راشد البراوي : حلة مصر الاقتصادية، ص ٣٤٦.

(٥) المقرئزي : المصدر السابق، ج ١، ص ٥-١.

(٦) نفسه، ص ١٠٤.

للقمح المطلوب إلى ماحل القاهرة، والفسطاط^(١)، كذلك فرضت الضرائب على كل ما يباع، وما يشتري. كما كانت الدولة تفرض ضرائب على الأسواق المتخصصة، مثل سوق السكر، والذيق، والجمال، والذواب، والسفك، والذبايح، وغيرها.^(٢) بالإضافة إلى اللواتي كانت توجرها الدولة في تلك الأسواق، التي كانت ملكاً للدولة.^(٣)

وقد تجاوزت المكوس التجارة الداخلية، والخارجية، ففرضتها الدولة الفاطمية على الحجيج في البحر الأحمر إلى مكة عن طريق عيذاب، وكانت تقدر بمسبعة دنانير، ونصف لكل حاج.^(٤) وكان يمنع من الحج من لم يؤد هذه الضريبة.^(٥) إنى جانب ما يدفعون عن كل حمل طعام من ضريبة معلومة.

كذلك فرضت هذه الضرائب على مياه شرب مياه النيل^(٦)، وكذلك وكذلك على من يغرق في النيل، يدفع أهله مقابل إخراجهم من النيل، حتى ولو لقاها النيل على شاطئه، كان متولي الصناعة يرفض تسليم الجثمان لأهله إلا يدفع واجب الصناعة الذي قدر بدينارين وقيراطين حق غرقه في النيل.^(٧)

لم يترك الفاطميون فرصة لزيادة مواردهم إلا ولتتهزوها: حتى أن المأمون البطاحي بنى داراً واسعة؛ لينفجج الناس منها عند كرا السد^(٨) بخليج القاهرة، وذلك بالكراء وكان ذلك برسم معلوم.^(٩)

(١) ابن جبير : رحلة بن جبير ، ج ١ ، ص ١٢٤ .

(٢) المقرئزي : المصدر السابق ، ص ١٠٤ .

(٣) ابن جبير : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٢٤ .

(٤) ابن خلدون : المصدر السابق ، ص ٨٣ ؛ للقلشندي : صبح الأعشى ، ج ٣ ، ص ٣٩١ ؛ تاريمان عبد الكريم : مصر الإسلامية ، ص ١٥٠ .

(٥) ابن جبير : رحلة بن جبير ، ص ٧٤ ؛ للقلشندي : صبح الأعشى ، ج ٣ ، ص ٣٩١ .

(٦) ابن جبير : المصدر السابق ، ص ٥٥ .

(٧) المسجى : أخبار مصر ، ص ٦٠ .

(٨) نفسه .

(٩) ابن ميسر : أخبار مصر ، ص ٦٤ .

إلى جانب ذلك فقد كان هناك عدة ضرائب فاضية لم تكن معروفة في الدولة الإسلامية التي سبقتها، فرضتها الدولة على الرعية، نذكر منها، ضريبة النجوى، وهي ضريبة فدعوة التي يدفعها أتباع المذهب الإسماعيلي، ومقدارها ثلاث دراهم، ونصف، تجمع من المؤمنين بالقاهرة، ومصر، وأعمالها، ولاسيما الصعيد^(١)، وكان أغنياء الشيعة يدفعونها ثلاثة وثلاثين درهماً.^(٢) كذلك فرضت عليهم الفطرة، وكانت تدفع في عيد الفطر^(٣)، كما كانت هذه الضرائب فرضاً واجباً على كل شيعي الالتزام بها، وكانت الدولة تحصل منهما على الكثير من الأموال، وعلى الرغم من سوء الأحوال الاقتصادية، فإن الحاكم بأمر الله دعا إلى إبطال هاتين الضريبتين في عام ٤١٠هـ / ١٠١٠م؛ إلا أنه سرعان ما أعادها في العام نفسه.^(٤)

وكنك ضريبة للهجرة، ومقدارها دينار عن أدرك من النساء، والرجال، و'البلغة' وهي اختيارية يدفعها القانرون، ومقدارها سبعة دنانير، و'الألفة' وتجمع أموالها في موضع واحد ويكونون فيه أسرة واحدة، أي يدفع كل منهم مبلغاً محدداً من المال.^(٥)

وعلى الرغم من أن الزكاة كانت من الضرائب المرعية التي فرضت على المسلمين (السنة والشيعة معاً) التي تركت الناس ليدفعوها إلى مستحقيها دون تدخل الدولة^(٦)، وكانت مدة معلومة ومقدرة فإنها لم تأت بمال كثير، وعلى الرغم من ذلك فقد تحايل الفاطميون على هذا

-
- (١) المقرئزي : الخطط، ج ١، ص ٣٩١؛ عبد المنعم ماجد : السجلات المستنصرية، المستنصرية، سجل رقم (٢)، (٢٣)؛ ص ٣٢ - ٣٤، ٨٣ - ٨٥؛ ناريمان عبد الكريم : مصر الإسلامية، ص ١٥٦.
- (٢) المقرئزي : الخطط، ج ١، ص ٣٩١.
- (٣) لقاضي النعمان : للهمة في آداب اتباع الأئمة، تحقيق كامل حسين، ج ١، ص ٧، ص ٧، عبد المنعم ماجد : نظم الفاطميين ورسومهم، ج ١، ص ١٢٠؛ ناريمان عبد الكريم : المرجع السابق، ص ١٥٦.
- (٤) المقرئزي : المعتمد السابق، ص ٢٨٧.
- (٥) أحمد الصلوي : مجامع مصر، ص ١٤٥.
- (٦) الماوردي : الأحكام السلطانية، ص ١١٣.

الأمر، وعمدوا إلى جبايتها من ألتجار على أنها رسوم جمركية، يفرضونها على للمسلمين من ألتجار، ومن هنا نشأت فكرة أن ألتاجر يستطيع أن يطوف عامًا كاملًا أينما شاء في حدود البلاد معفي من المكس مرة واحدة، وهو العشر. (١)

لم تكف الدولة الفاطمية بفرض الضرائب الشرعية، وغير الشرعية، لسد حاجاتها من الأموال، والإنفاق على ملذاتها، فقد لجأ الخلفاء الفاطميين إلى وسيلة أخرى ضمنت لهم وجود الأموال من حين لأخر، كما ضمنت لهم أيضًا ولاء عمالهم، وكذلك كبح جماحهم، فلجأت إلى ما عرف بالمصاراة. (٢)

[٢] المصاراة :

جرت عادة بعض الخلفاء الفاطميين على مصادرة ثرواتهم يسخطون عليهم من الأمراء والوزراء، وكبار رجال الدولة، بل كثيرًا ما كانوا يستولون على أملاكهم بعد موتهم أو قتلهم، حتى أصبح ذلك مصدرًا مهمًا من مصادر الدولة تلجأ إليه في بعض الأمور، ولاسيما وقت تناقص

(١) آدم متر : الحضارة الإسلامية، ج ١، ص ٢٠٥؛ هشام عبد القادر عبده عطية : إقليم الحوض الغربي (البحيرة حاليًا) في العصر الفاطمي، دراسة حضارية في الفترة من ٣٥٨ - ٥٦٧هـ / ٩٦٩ - ١١٧١م، رسالة ماجستير غير منشورة، إشراف د/ أحمد إسماعيل الجمال، أ.د / علي أحمد السيد، جامعة الإسكندرية، فرع دمهور، كلية الأدب، ص ٢١٤.

(٢) المصاراة : تعد مصادرة أموال وممتلكات كبار رجال الدولة في أعقاب عزولهم أو التخلص منهم موردًا من موارد الدولة غير المنتظمة، وقد عرفت المصاراة في مصر قبل العصر الفاطمي، فقد اتبعه الأخشيدون من قبل، وربما هذا ما أشار إليه جوهر الصقلي في أمته الذي أعطاه للمصريين، كذلك عرفه قهاسيون في بغداد وأنشأوا له ديوانًا مخصصًا عرف "بديوان المصاراة" كان مسئولًا عن إدارة الأملاك التي يتم مصادرتها. راجع : ابن سعيد [علي بن سعيد المغربي] : المغرب في حلى المغرب، القسم الخاص بالفسطاط، تحقيق : ذكي محمد حسن، بيعة إسماعيل كاشف، توقي ضيف، جامعة فؤاد الأول، ١٩٥٣م، ص ١٦٥، ١٨٧؛ لؤي فؤاد سيد : للدولة الفاطمية في مصر، ص ٥٣٧؛ عبد العزيز النوري : تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع للهجري، دار المشرق، بيروت، ١٩٧٤م، ص ٢٥٨ - ٢٥٩؛ آدم متر : المرجع السابق، ص ١٣٦؛ ناريمان عبد فكريم : مصر الإسلامية، ص ١٩٤.

الإيرادات والحاجة إلى الأموال^(١)، ولكن ما لبث حتى شغل العامسة،
والخاصة على السواء نون التفرقة بين غني، وفقير.

وكان الوزير يعقوب بن كلث، أوز من تمت مصادرته مع
الفاطميين، فعندما عزله الخليفة العزيز بالله من منصبه في ثامن شوال
سنة ٣٧٣هـ/ ١٨ مارس سنة ٩٨٤م، واعتقله، حمل من ماله خمسمائة
ألف دينار، ولكنه لم يلبث أن أفرج عنه وعاد إلى منصبه في العام التالي.
(٢) كما صودرت أملاك عمر بن العباس، عندما اتهمه الخليفة العزيز بالله
بتبديد أموال الدولة^(٣)، كذلك عندما قبض على عيسى بن نسطورس، لم
يعد إلى عمله إلا بعد أن حمل إلى الخزانة ثلاثمائة ألف دينار.^(٤)

وعلى الرغم من أن الأتطاكي قد شهد ببراءة يد الحاكم بأمر الله
من مد يده إلى مصادرة الأموال.^(٥) فإن ذلك على ما يبدو كان في الفترة
الأولى من حياة الحاكم بأمر الله أي قبل تخلصه من أوصيائه، فقد انقلب
الحاكم بأمر الله على معاونيه، وتخلص من أغلبهم بالقتل، وأخذ في
مصادرة أموال الناس، فصادر الحسين بن جوهر، والقاضي عبد العزيز
بن النعماني، عام ٤٠٠هـ/ ١٠١٠م.^(٦) كما صدر الكتاب من مسلمين،
ونصارى، وطالبهم بحسب ما كانوا يتولونه من مصادر أموالهم.^(٧)

-
- (١) راشد البراوي : حالة مصر الاقتصادية، ص ٣٥٦، ٣٥٢ ناريمان عبد الكريم :
مصر الإسلامية، ص ١٩٣، ١٩٤.
 - (٢) فنويري : نهاية الأرب، ج ٢٨، ص ١٥٩ ناريمان عبد الكريم : المرجع السابق،
ص ١٩٣.
 - (٣) ابن الصيرفي : الإشارة، ص ٢٤٤ ناريمان عبد الكريم، المرجع السابق،
ص ١٩٤.
 - (٤) ابن ظاهر : أخبار الدول، ص ٤٦١ ناريمان عبد فكريم، المرجع السابق،
ص ١٩٤ راشد النزاري : المرجع السابق، ص ٣٥٢ - ٣٥٧.
 - (٥) الأتطاكي : تاريخ الأتطاكي، ص ٢٠٦.
 - (٦) لقلقشندي : صبح الأعشى، ج ٣، ص ٤٥٣ المقرئزي : تعاضد الحنفاء، ج ٢،
ص ٨١ ناريمان عبد الكريم : دراسات في تاريخ مصر، ص ١٩٤ أيمن فؤاد
سند : الدولة الفاطمية، ص ٥٣٨.
 - (٧) ساويرس بن المتقي : سير البيعة الميمنية، ج ٣، ص ٢٠٤ ناريمان عبد
الكريم : المرجع السابق، ص ١٩٤ راشد البراوي : المرجع السابق، ص ٣٥٢.

وقد أكثر الحاكم بأمر الله من مصاررة رجال الدولة، وكذلك فقد امتدت يده إلى أملاك بعض أفراد الأسرة الحاكمة، فقبض على مائت عفار والدته، وأخته، وحرمه، وعماته، وخولصه من النساء، وأملاكهم، وسائر أقطاعهم من الأراضي والحمامات بمصر، والقاهرة.^(١) ولما بدت سياسة الاضطهاد تحو أهل الذمة، فقد امتدت يده إلى أملاكهم وأموالهم فاستولى على أوقاف الكتائب في الديار الحديثة، والضيقة.^(٢) وقد اضطر الحاكم بأمر الله أمام كثرة المصادرات إلى إحداث ديوان جديد سماه "الديوان المفرد" برسم من يفيض ماله من المقتولين، وغيرهم.^(٣)

والثابت أن معظم هذه المصادرات كانت بدون وجه حق، فلو كانت هذه المصادرات على الأموال المسلوقة من قبل الطغاة ويطش الولاة لعلا شأن الفاطمية بسبب تحصيلها، ولكنها أصابت للجميع دون تفرقة طالما أنه لم يعد على وفاق مع الخلفاء الفاطميين. وهذا الأمر بدوره أفسد الحياة الاقتصادية، وكان له أثره المنبني سياسياً، واجتماعياً، وإدارياً.

كذلك نجد أن السياسة الفاسدة التي اتبعتها الحاكم بأمر الله في الانتقام من أهل مصر أدت إلى فساد الجند من السودان، الذين قاموا بنهب أموال الرعية، وفتح دورهم، ومخازنهم، وأخذ أمتعتهم، كما قاموا بفتح الدكاكين، ونهبوا ما فيها، وتخللوا إلى الأسواق، وأخذوا ما أورد منها، وأفسدوا بقية ما فيها.^(٤)

وعلى الرغم من اختلاف موقف المؤرخين من هذه المصادرات، فإن استمرارها بعده يوضح رغبة الفاضمين في السيطرة على الأغنياء،

(١) الأندلسي، تاريخ الأندلس، ص ١٩٤، ١٩٥.

(٢) نفسه، ص ١٩٣؛ المقريزي، الخطط، ج ٢، ص ١٤٩٥؛ ناريمان عبد الكريم : مصر الإسلامية، ص ١٩٤؛ رشيد البرلوي : حالة مصر الاقتصادية، ص ٣٥٢.

(٣) الفلقندي : صبح الأعشى، ج ١، ص ٤٥٣؛ المقريزي : فتاوى الحنفيا، ج ٢، ص ١٨١؛ أمين فؤاد سيد : الدولة الفاطمية، ص ٥٣٨؛ ناريمان عبد الكريم : المرجع السابق، ص ١٩٤.

(٤) النويري : نهاية الأرب، ج ٢٨، ص ١٩٣؛ المقريزي : الخطط، ج ٢، ص ١٠٢؛ ص ٤١٠٢؛ ابن تغري بردي : النجوم، ج ٤، ص ١٨١.

والسيطرة على أموال مصر سواء من كبار رجال الدولة أو من رعيّتها بشكل مستمر.

ففي خلافة الظاهر لدين الله الفاطمي، وعندما وقع الغلاء عام ٤١٥هـ/١٠٢٣م^(١)، تعرضت البلاد للسلب، والنهب، والمصادرات، وعانت أجنحة فساداً في الأرض، يصعدون ما يجدونه أمامهم حتى انتقل طائفة من التجار، واليزانيين، وجماعة أخرى ممن تسكن بساحل الصعيد، والوجه البحري إلى وسط البلد خوفاً من النهب، والسلب، كما اضطر الناس لنقل رعايلهم، وأموالهم من القياسر، والحوائيت بمصر إلى منازلهم، وأخلوا بكاكيلهم من أمتعتهم خوفاً من وقوع فتنة، أو نهب.^(٢) هذا الأمر الذي أدى إلى انهيار اقتصاد مصر في ذلك الوقت.

كذلك تعرض المصريون للسلب، والنهب، والمصادرة خلال فتن الجند أيام للمستنصر بالله الفاطمي.^(٣)

وقد قام الوزراء أيضاً بالمصادرات، فيذكر كل من : ابن الصيرفي وابن ميسر أن الوزير أبا البركات الحسين بن محمد الجرجاني ٤٣٩ - ٤٤١هـ / ١٠٤٧ - ١٠٤٩م كثر في أيامه التلبس، والمصادرات، واصطفاء الأموال، والنفي.^(٤) ومنذ العصر الفاطمي لثاني، شكلت المصادرات جزءاً مهماً من مصادر الدولة المالية، ففي أعقاب الشدة الممستصرية قام الوزير بدر الجمالي بمصادرة أموال القادة، والأثراك وإيداعها في "ديوان المفرد".^(٥) ولعل هذا كان سبباً من أسباب إنقاذ الخلافة من كوارثها الاقتصادية للمتلاحقة في ذلك الوقت.^(٦)

(١) المقرئزي : المصدر السابق، ج ١، ص ٣٥٥.

(٢) للمسيحي : أخبار مصر، ص ٢٠٠؛ المقرئزي : الخطط، ج ٢، ص ٣٥٤، ٣٥٥.

(٣) للمقرئزي : الخطط، ج ١، ص ٣٣٧؛ لعلاظ الحنفا، ج ٢، ص ٢٧٨ - ٢٧٩.

ومدت الأجنحة إلى للنهب فخرج الأمر عن الجدد، واشتت خوف الناس بمصر.

(٤) ابن ميسر : أخبار مصر، ص ٨٣.

(٥) ابن الصيرفي : الإثارة، ص ٧٢؛ ابن ميسر : أخبار مصر، ص ١٠٠؛ المقرئزي

: لعلاظ الحنفا، ج ٢، ص ٢٠٨.

(٦) للمقرئزي : الخطط، ج ٢، ص ٢٨٧؛ أحمد الصاوي : مجامع مصر،

ص ١٤٤.

وعلى ما يبدو أن الوزير بدر الجمالي كان قد عقد سياسته على المصادرات، فعندما وقع الفساد بينه، وبين واده الأوجد الذي عُمر إلى الإسكندرية، استطاع بدر الجمالي محاصرتَه في أوائل عام ٤٧٧هـ/١٠٨٤م، وقد عمل بدر الجمالي في هذه الأثناء على إعادة بناء جامع العطارين بالإسكندرية من مال، وأملاك المصادرات، التي أخذها من الإسكندريين. (١) وعلى الرغم من ذلك فقد أقر المؤرخون أن الأفضل شاهنشاه بن بدر الجمالي، وخلقته لم يصادر أحد في زمانه، سواء من رجال الثولة أو من الرعية. (٢)

وقد عمل الأمر بأحكام الله الفاطمي - الذي عرف بسوء السيرة، وكثرة التظاهر، واللغو، واللعب - على قتل الأفضل شاهنشاه، الذي حجر عليه، ومنعه من بلوغ شهورته في الظلم، والعصيان (٣)؛ لذلك شهدت خلافة الأمر بأحكام الله العديد من المصادرات، بدأها بوزيره المأمون البيطاحي، وأخيه المومتن حيدر بن فائق، وهما بالقصد، فصادر نورهما بعد أن قبض عليهما. (٤)

وبعد أن تخلص الخليفة الأمر بأحكام الله من المأمون البيطاحي، تفرغ للهو، واستعان بالراهب المعروف بأبي نجاح بن قنا، فكثرت المصادرات على يده، فصادر قوماً من النصارى، وأخذ منهم مائة ألف دينار (٥)، كما تجاوز إلى العمال، والقضاة، والكتّاب، والشهود، وكذلك

(١) ابن ظفر : أخبار الدول، ص٧٧، ابن ميسر : أخبار مصر، ص٤٦، المقرئزي : اتعاظ الحنفا، ج٢، ص٢٠٨؛ ناريمان عبد الكريم : مصر الإسلامية، ص١٩٦.

(٢) ابن ميسر : المصدر السابق، ص٨٣؛ ناريمان عبد الكريم : المرجع السابق، ص١٩٦، أمين فؤاد السيد : الدولة الفاطمية في مصر، ص٥٢٨.

(٣) ابن ظفر : أخبار الدول، ص٨٨؛ ابن ميسر : أخبار مصر، ص٧٣؛ المقرئزي : الخطط، ج٢، ص٢٩١؛ أحمد مختار العيادي : في التاريخ العباسي والفاطمي، ص٣٠٨؛ ناريمان عبد الكريم : مصر الإسلامية، ص١٩٦.

(٤) ابن ظفر : المصدر السابق، ص٨٨؛ ناريمان عبد الكريم : المرجع السابق، ص١٩٦.

(٥) المقرئزي : الخطط، ج٢، ص٢٩١؛ ناريمان عبد الكريم : المرجع السابق، ص١٩٦.

عامّة الناس، والسوقة^(١)، حتى إنه لم يبق أحد في زمانه إلا وناله منه مكروه من ضرب، ونهب، ومصابرة أموال^(٢)، وقيل إن الذي حصن عليه من أملاك المسلمين ٢٧٢.٠٠٠ دار، وحنانوت، وأرض بأعمال الدولة.^(٣) كانت السياسة التي اتبعها الزاهد أبو نجاح سبباً في دفع الأمر بأحكام الله إلى قتله سنة ٥٢٣هـ / ١١٢٩م، وكان ذلك إرضاءً لثورة المصريين الذين نالهم ظلمه، وتقصفه، وفساده^(٤)، كما كانت السياسة نفسها هي السبب الأساسي لمقتل للخليفة الأمر نفسه عام ٥٢٤هـ - ٥٢٥هـ / ١١٣٠م^(٥)، وبعد قتله لمستأج أبو علي أحمد بن الأفضل بعد توثيقه الوزارة أن يرد إلى المصايرين ما أخذ منهم، فأعاد أملاكاً كثيرة إلى أربابها.^(٦)

ولعل ما فعله الوزير المأمون البطائحي من حسن سيره في الرعية، وما فعله الوزير أبو علي أحمد بن الأفضل، لخير دليل على أن سوء الأحوال الاقتصادية لم يكن وحده هو النافع وراء مصابرة الخلفاء، والوزراء لأموال الناس، بل كانت السياسة الفاسدة، وكذلك الأمراض الاجتماعية، ونهم الشهوة إلى المال سبباً آخر في ذلك الأمر.

ومع عصر الوزراء العظام، كان طبيعياً أن نسمع عن جور وعسف هؤلاء، فابن السلاط، الذي وزر للخليفة أنظافر لأمر الله (٤٤٠هـ / ١١٥٠م) ذكرت عنه بعض المصنر^(٧)؛ أنه كان ذا سيرة جائرة، وسطوة فاطمة دون أن تشير صراحة إلى قيامه بالمصنرات، وإن كان يفهم ضمناً ممارسته لتلك السياسة.^(٨)

(١) ابن ظافر : المصدر السابق، ص٨٨؛ ابن ميسر : المصدر السابق، ص١٠٩-١٠٨؛ النويري : نهاية الأرب، ج٢٨، ص٢٩٢ - ٢٩٣؛ المقرئزي : تعاضد للحنفاء، ج١، ص١٢٥؛ ناريمان عبد الكريم : المرجع السابق، ص١٩٦.

(٢) ابن ظافر : المصدر السابق، ص١٨٩؛ أيمن فؤاد سيد : الدولة الفاطمية، ص٥٣٨؛ ناريمان عبد الكريم : المرجع السابق، ص١٩٦.

(٣) المقرئزي : الخطط ج٢، ص٢٩١؛ راشد البراوي : حالة مصر الاقتصادية، ص٣٥٢، ٣٦٨.

(٤) ابن ميسر : المصدر السابق، ص١١٧.

(٥) ابن ظافر : المصدر السابق، ص٨٩.

(٦) المقرئزي : المصدر السابق، ص٢٩١؛ Oman : op. cit., p. 20.

(٧) ابن ظافر : أخبار الدول، ص١٠٣.

(٨) نفسه، ص١١١.

وقد عانى الشعب المصري من تلك الأفعال حتى عمل الخليفة الحافظ على استرضائهم فعمل على إرجاع ما أخذ من أموال بعضهم.^(١) كما كان الوزير طلائع بن رزيق أئد الناس تطلعا إلى ما في أيدي الناس من أموال، فقام بمصادرة الكثيرين من رجاء الدولة، وكذلك رعاياها، حتى إنه أفنى ذوي الأراء والعزم، وتعرض إلى أقوام لم يكن بينهم وبينه معاملة ولا سبب يوجب التعرض.^(٢) كذلك فمرض الأموال على للمستخدمين بالدولة والأمراء، وباع ولايات الأعمال بأسعار مفررة، وجعل كل متول سنة أشهر؛ مما أدى إلى انتشار الرشوة، والإتاوات التي عرفت بـ "البرطلة".^(٣)

ظلت سياسة المصادرة طيلة عصر الدولة الفاطمية، حتى إن صلاح الدين الأيوبي الذي وزر للخليفة العاضد عام ٥٦٦هـ / ١٦٩م، قام بمصادرة جزء من الأرض المزروعة حوالي ثلاثين فدانا كانت ملكا لنير ناهيا بالجيزة، والتي قد منحت للرهبان من قبل الخليفة الأمر بأحكام بشكل دائم.^(٤) هكذا استمرت سياسة للمصادرات بشكل مافر حتى أواخر الدولة الفاطمية في مصر.

ولم يكن الفاطميون يجدون في تلك السياسة عضاضة مادامت تحقق لهم ما أرادوا من أموال، بغض النظر عما يعانیه الشعب من قسوة، وظلم، كذلك لم تكن تلك السياسة جديدة عليهم في مصر، فقد أتبعوها في بلاد المغرب من قبل، ووجدوا ما يبررها حيث قال القاضي النعمان إن للأئمة الحق في امتحان الناس في أموالهم بأخذها منهم بدون سبب.^(٥)

(١) ابن ميسر : أخبار مصر، ص١١٧؛ أمين نواد ميت : اتونة الفاطمية في مصر، ص٥٣٨.

(٢) ابن طاهر : المصدر السابق، ص١١١؛ المقريزي : لتعاط الخلفاء، ج٢، ص٢٤٤.

(٣) المقريزي : للخطبة، ج١، ص١١١، ج٢، ص٢٩٤؛ ناريمان عبد الكريم : مصر الإسلامية، ص١٩٧.

(٤) ناريمان عبد الكريم، المرجع السابق، ص١٩٧.

(٥) القاضي النعمان : المجالس والمساربات، ج١، ص٢٣٠ - ٢٣٤؛ ناريمان عبد الكريم : للمرجع السابق، ص١٩٣.

وثمة خلل آخر قد حدث نتيجة لتلك السياسة الفاسدة حيث أدت تلك السياسة بالإضافة إلى سوء الأحوال الاقتصادية، وكثرة الفتن، والنزاعات، إلى اضطراب الناس، وكثرة السلب، والتهب، وإسهما من الجند، وكذلك ظهور قطاع الطرق، والساقيين، مما اضطر الدولة إلى صرف المزيد من الأموال لاستقرار الأمن داخل الدولة؛ مما يوضح سوء تصرف القادة في الأزمات المختلفة.

ولئن كان هذا هو مبرر الدولة الفاطمية في أخذ أموال الناس بحق، أو بدون حق؛ لاختبارهم في أموالهم، فلماذا لم يشتمل هذا الاختيار كبار التجار منهم، على الرغم مما حققه هؤلاء التجار من أموال، وثروات تحوق الحد، ولماذا علت مكانتهم وشعروا بالأمن، والأمان دون غيرهم، حتى إنهم كانوا يتركون نكاحينهم دون أن يغلقوها، ويكتفون بإسدال الستائر عليها ولم يكن أحد يجروا أن يمد يده إلى شيء منها. (١)

وحتى في أوقات الأزمات الشديدة، والمجاعات، فلم يكن عين السهل على للدولة مصانرة هؤلاء التجار، فعندما حدثت مجاعة شديدة سنة (٤١٥هـ / ١٠٢٤م)، وندرت الأقوات، واضطربت أحوال الناس تحدث زعماء الدولة في مصادر التجارة، فاختلف بعضهم على بعض (٢)، ولم تتم هذه المصانرة على الرغم من هذه الظروف الاقتصادية السيئة.

كذلك يروي صاحب البيعة للمقدسة رواية في غاية الأهمية، توضح مدى ما كان يتمتع به التجار من أمن في عصر الدولة الفاطمية، فعندما أصدر الحاكم بأمر الله أوامره التي تتعلق بمنع صنع الخمور، وإتلاف العنب، وكسر جرار العسل، حتى لا تستخدم في صناعة الخمور، فخر أحد التجار جملة من ماله ثمن عسل، وزبيب قد أُلغف، فطلب هذا التاجر محاكمة الحاكم بأمر الله عند قاضي القضاة بن النعمان، الذي استدعى الحاكم بأمر الله، وسأوه بالجلوس مع التاجر، الذي طلب ألف دينار تعويضاً عن بضاعته، ومن الطريف أن الحاكم قد رد للتاجر ثمن بضاعته بعد أن أقسم على صدق قوله. (٣)

(١) ناصر خسرو : سفرنامه، ص ٦٤.

(٢) للمقريزي : الخطط، ج ١، ص ٣٥٤.

(٣) ساويرس بن المقفع : سير البيعة لمقمة، ج ٢، ص ٥٤، ٥٥ Stevenson

: W.B., the crusades in the east. Cambridge, 1968, p. 55.

أما المُسجَى : فيذكر قصة لا تقل أهمية عما ذكرها صاحب البيعة المقدسة، حيث قال : إنه إبان عصر الظاهر لدين الله، وفي أثناء قعر الخزانة عن تلبية احتياجات الدولة، طلب من صاحب بيت المال أن يقترض من التجار، ويصادر من يجب مصادرتة. (١) ويفهم من ذلك أن التجار لم يكن ليصادروا، بل كانت الدولة تقترض منهم ...

هكذا يتضح أن سياسة المصادرة التي كانت تتبعها الدولة الفاطمية ترجع إلى عدة أسباب مختلفة، منها السياسية وهي إضعاف شوكة كبار الأمراء والوزراء وغيرهم، كما كان يفعل الحاكم بأمر الله، أو دينية للانتقام من أهل الذمة الذين أثاروا الشعور للعام للمسلمين بما فعلوه من مخالفات. (٢) أو اقتصادية وذلك للحصول على الأموال، ولاسيما أوفات تناقص الأموال وتدهور الاقتصاد المصري، أو بدافع الأمراض الاجتماعية التي ظهرت داخل المجتمع المصري في ذلك الوقت، وعلى رأسها الجشع ولطمع وطلب للرشوة.

[٢] القرض والاستدانة :

وأمام سوء الحالة الاقتصادية اضطرت الدولة إلى الاستدانة؛ لتلبية متطلباتها، ففي الخامس والعشرين من ذي الحجة عام ٤١٥هـ - ١٠٢٣م حمل الأمير بهاء الدولة مظفر مبلغ عشرة آلاف دينار على سبيل القرض للدولة الفاطمية، كذلك طلب من أبي طالب الحسني يتولي الصناعة قرضاً بنفس القيمة، فماوم أبو طالب حتى وصل للقرض إلى خمسة آلاف دينار، وذلك بعد أن ضمن أبو القاسم الجرجرائي أن يعاد هذا المبلغ. (٣)

[٤] السلف :

ويحدثنا ناصر خسرو عن تاجر قبظي من أثرياء مصر، التجأ إليه أخليفة عند انخفاض الفيضان؛ ليعطيه ما يستطيع من الغلة، إما نقداً، وإما قرضاً، فقال له التاجر إن لديه من الغلة ما يكفي لإعطاء أهل مدينة مصر ست سنوات. (٤)

(١) للمسيحي : أخبار مصر، ص ٢٣؛ نريمان عبد الكريم : مصر الإسلامية، ص ١٩٥.

(٢) المسيحي : المصدر السابق، ص ٢٣.

(٣) المقرئزي : التخط، ج ١، ص ٢٥٤.

(٤) ناصر خسرو : سفرنامه، ص ٦٢، ٦٤.

وقد لجأ الخليفة المستنصر بالله إلى الإمبراطور (Constantine) إمبراطور للدولة البيزنطية واتفق معه أن تصدر الدولة البيزنطية إلى مصر كميات كبيرة من القمح لمواجهة الجوع، وغير أن الإمبراطور قد مات ٤٤٧هـ فخلفته الإمبراطورة ثيودورا التي اشترطت لشترائك مصر، وبيزنطة في معاهدة دفاعية هجومية، فرفض الوزير البارزوي مثل هذا. حيث إن هذا يعرض مصر إلى عديد من الأمتباكات، وإزاء هذا الرفض، أصدرت الإمبراطورة أمراً بعدم إرسال القمح إلى مصر. (١)

[٥] ارتفاع الأسعار واحتكار السلع :

لقد ارتبط اقتصاد مصر إلى حد كبير بقصور مياه النيل، أو زيادته عن الحد المطلوب، وما ينجم عنه من الغلاء، وهذا الحد يتراوح بين ستة عشر، وثمانية عشر ذراعاً تكون معه الزراعة مستقرة، وفي بعض من الغلال ما يكفي لسنتين، فلما قصر النيل أو زاد، اضطرب اقتصاد البلاد. (٢) فإن كان الحاكم يتصف بالحكمة، والحكمة السياسية، وحسن إدارة الأزمات، استطاع للبور من تلك الأزمة بأمان، وإن كان عكس ذلك، أدى إلى تفاقم الأزمة، وصار بشعبه إلى المجاعة، والهلاك.

لم يكن النيل وحده هو المسؤول عن ارتفاع الأسعار، وندرة الأوقات، أو اندامها من الأسواق، بل كان ضعف الحكام، وسوء تدبيرهم، وعدم استقرار البلاد، وسيطرة الوزراء على مقاليد الأمور، وكذلك كثرة الحروب، ووقوع الفتن، والصراعات بين العسكريين، من أهم العوامل التي شجعت للتجار، وغيرهم من طالبي المال، والكمبب المربح بالجشع، والطمع، فزادت الأمعار، واختفى الغذاء من الأسواق، وتعرضت البلاد إلى المجاعة، ومات الشعب جوعاً، ولاسيما إذا صادفت هذه العوامل نقص النيل. (٣)

(١) راشد البرلوي، حالة مصر الاقتصادية، ص ١٠١.

(٢) قبحادي [عبد اللطيف موفق الدين عبد اللطيف] : الإلادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعينة بأرض مصر، ط ٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٨م، ص ١٤٤، المقرزي : للخط، ج ١، ص ٥٩، القلقشندي : صبح الأعشى، ج ٣، ص ٢٩.

(٣) المقرزي : إغاة الأمة، ص ٢٤٤.

كانت هذه العوامل هي السبب الرئيس لسقوط الدولة الإخشيدية، حيث إنه من الواضح أن انخفاض الثيل لم يكن مبرراً لحالة الضعف التي سادت البلاد في العام الذي دخل فيه الفاطميون مصر، حيث إن الفيضان في تلك العام قد وصل في أقل التقديرات إلى ١٦ نراعاً و ١٢٠ إصبغاً، وهو حد لا يعني القحط، ولكن كانت للمجاعة، والغلاء نتيجة لاضطراب الأحوال، ومنازعات فرق الجند، وضعف الإدارة المركزية؛ مما أدى إلى ارتفاع الأسعار حتى وصل سعر القمح - وهو المحصول الرئيس لغذاء شعب مصر - إلى تسعة أقداح بدينار.^(١) ويتضح هذا من خطاب الأمان الذي أعطاه جوهر الصقلي للمصريين عند دخوله مصر، والذي وعد فيه باستقرار الأسعار.^(٢)

وعلى الرغم من نجاح جوهر الصقلي في إصلاح الأمور في مصر،^(٣) وإقرار الأمن بها، فإن الشعب المصري قد تعرض لجشع التجار مرة أخرى في عهد المعز لدين الله الفاطمي، فارتفعت الأسعار، وعز للطمع، حيث استغل هؤلاء التجار انشغال الخليفة المعز لدين الله بتهديت القرامطة بغزو الشام، فخلوا معهم في حرب، كانت نتيجتها هزيمة الجيش الفاطمي بنمشق عام ٣٦٠هـ - ٧٠ - ٩٧١م، وقد اسنطاع القرامطة الوصول إلى القاهرة، وحاصروها، ولكنهم هزموا عام ٣٦١هـ - ٩٧١ - ٩٧٢م وسرعان ما عادت الأمور إلى نصابها بفضل جهود المعز لدين الله الذي نجح في التصدي لهذا الخطر، فاستقرت الأمور، وانخفضت الأسعار.^(٤)

(١) للمقريزي: إغالة الأمة، ص ١٣ - ١٤، تعاط الحفاه، ص ١٦٨؛ أحمد تصاري : مجاعة مصر، ص ٣٠؛ سيده إسماعيل كاشف : مصر في عهد الإخشيديين، ص ٣٩٢.

(٢) للمقريزي: تعاط الحفاه، ج ١، ص ١١٠؛ سيده إسماعيل كاشف : المرجع السابق، ص ١٧٢ - ١٧٣؛ تاريمان عبد الكريم : مصر الإسلامية، ص ٦٤٢؛ سيده كاشف : المرجع السابق، ص ١٧٢؛ أحمد الصلوي : المرجع السابق، ص ٣٠؛ عطية مصطفى مترفه : نظم الحكم، ص ٣٩٥.

(٣) عبد المنعم ماجد : ظهور الخلافة الفاطمية، ص ١١٥؛ تاريمان عبد الكريم : المرجع السابق، ص ١٦٩، ١٧٠.

(٤) المقريزي : إغالة الأمة، ص ١٣.

شهدت خلافة انحناكم بأمر الله سلسلة من الكوارث التي جعلت
 لزاماً عليه أن يحارب في غير جهة، وقد استمرت هذه الكوارث نحو
 نصف سني حكمه التي قاربت ربع القرن، فقد اعتلى الحاكم بأمر الله
 الحكم وهو طفل في الحادية عشرة وخمسة أشهر وست أيام^(١)، فأحاطت
 به عديد من القوى التي تحاول السيطرة عليه وعلى مقاليد الأمور في
 البلاد، ففي عهده نشبت الحرب بين البربر، والأتراك^(٢)، كذلك كان عليه
 أن يولج غزواً خارجياً من الغرب بقيادة القائد أبو ركوة^(٣)، كذلك
 أحاطت به المنازعات، التي دارت داخل البيت الحاكم، والتي كانت تهدف
 للحد من نفوذه المطلق^(٤)، تلك المنازعات والمؤامرات التي أودت في
 النهاية بحياته بتدبير أخته ست الملكة^(٥).

(١) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ص ١١٧؛ الميوطي : حسن المحاضرة، ج ٢، ص ١٥٣.

(٢) عبد المنعم ماجد : المرجع السابق، ص ٣٧١ - ٣٧٢؛ أحمد الصاوي : المرجع السابق، ص ٣٢.

(٣) أبو ركوة : ينسب إلى بني أمية، اسمه الوليد وهو من ولد هشام بن عبد الملك بن مروان بن عبد الرحمن الداخل هرب من الأندلس زمن الوزير المعروف المنصور بن أبي عامر، وزير وحاجب هشام المؤيد الأموي بالأندلس، الذي حجبه المنصور من أبي عامر عن اللس وأخذ في تتبع أهله ومن يصلح للحكم منهم فقتل من قتل منهم وهرب من هرب، وكان الوليد (أبو ركوة) ممن استنابوا للهرب، كان عمره ٢٠ عاماً، جاء إلى مصر لسماع الحديث، ثم انتقل إلى مكة ثم اليمن ثم عاد إلى مصر ثم القيروان ومنها لبرقة، عرف بأبي ركوة لأنه كان يظهر التمسك ويحتفظ بركوة مصر وهو وعاء من لجلج للوضوء على عادة للصوفية، ويرجع البعض هذه التسمية إلى أهل مصر كنوع من أسواع السخرية.

فظفر : الأندلسي : تاريخ الأندلس، ج ١، ص ١٢٢٢، ابن الأثير : الكامل، ج ٨، ص ٤٤٢؛ ابن خلدون : تاريخ بن خلدون، ج ٤، ص ١٥٢، ١٥٣؛ ابن الجوزي : المنتظم : ج ١٥، ص ٥٣؛ ابن حنبل : أخبار بني عبيد، ص ٤٩؛ ابن تغري بردي : النجوم، ج ٤، ص ٢١٥؛ أحمد مختار العبادي : في تاريخ المغرب والأندلس، ص ٢٢٦ - ٢٢١؛ أمينة القشورجي : رؤية الرحالة، ص ٢١٥. يذكر التويري في نهاية الأرب، ج ٢٨، أنه ليس من أصل أموي، ص ١٨٠. ويتفق معه محمد عبد الله عتبان : الحاكم بأمر الله، ص ١٨٧.

(٤) أحمد الصاوي : مجاعات مصر، مرجع سابق، ص ٣٢.

(٥) للمقريزي : لتماثل الخلفاء، ج ٢، ص ١١٥؛ عبد المنعم ماجد : المرجع السابق، ص ١١٥؛ عبد المنعم سلطان : المجتمع المصري، ص ١٠٣؛ أحمد الصاوي : المرجع السابق، ص ٣٢.

كانت أولى هذه المجاعات، في العام التالي لتوليته الخلافة، وكانت أمين التولية أبي الحسن محمد بن عمار، هو الذي يتولى تحدير شؤون الدولة في هذه السنة (٣٨٧هـ / ٩٩٧م)، ويذكر المقرئزي أن سبب هذه المجاعة هي قصور النيل، حيث بلغت زيادته (١٦ ذراعاً و٧ أصابع)، فارتفعت الأسعار، واختفى القمح، واضطرب حبل الأمن، وخطفت النساء من الطرق، ووصل سعر القمح أربعة أرطال بدرهم^(١) وعلى الرغم من أن هذا للحد من الزيادة لا يعني القحط كما سبق ذكره، فإن المجاعة قد حدثت، وربما يكون ذلك ناتجاً عن تأخر تلك الزيادة، مما أدى إلى ارتفاع الأسعار واحتكار التجار للسلع، ولاسيما أن الفوضى، والاضطرابات كانت تعم البلاد، وذلك لتصارع المشاركة، والمغاربة على السلطة^(٢).

أدرك الحاكم بأمر الله أن تجار الغلال وسماسرتها هم من تطبقه المسؤولية إلى حد كبير عن ارتفاع الأسعار وحوادث المجاعات؛ لذا فلم يتوان بأخذهم بما كانوا يستحقون من العقاب الصارم^(٣)، فاستخدم وسائله الخاصة في منع تخزين الأقوات، وضرب جماعة بالميوط وشهر بهم^(٤)، وأمر ألا يباح القمح إلا للطحانيين، وذلك للقضاء على الوسطاء، كذلك كان الحاكم بأمر الله يفاجئ مخازن الغلال، والبيوت ليلتفت عن القمح، ويفرقه على للطحانيين بالسعر الرسمي^(٥).

-
- (١) المقرئزي : (غلاة الأمة، ص١٤٣؛ أحمد الصاري : المرجع السابق، ص٣٥.
(٢) أحمد الصاري : المرجع السابق، ص٣٥.
(٣) وصل هذا للعقاب إلى حد ارتكاب الفاحشة العظمى بالمخالف، أمام عين ومرأى الناس.
(٤) عملية التشهير : بأن يوضع الشخص المشهر به على جمل ويعطى جرماً وينادي قاتلاً : فقد كتبت وما أنا أعاقب". راجع : ناصر خسرو : سفرنامه، ص١٢٠.
(٥) المقرئزي : (غلاة الأمة، ص١٦٠؛ عبد المنعم ماجد : الحاكم بأمر الله، ص٤٦٤؛ ص١٠٤؛ راشد البراوي : حالة مصر الاقتصادية، ص١٠٠.

كما عمد الحاكم بأمر الله إلى تحديد سعر لكل شيء، ولاسيما الحبوب، والمبيعات^(١)، على الرغم من أن مياسة التسعير^(٢) كانت من الأمور التي تتعارض مع ما عرضه الفاطميون في كتب الفقه الخاصة بهم، والتي تبين رفضهم لتلك السياسة^(٣)، هذا الأمر الذي رفض تنفيذه جوهر الصقلي من قبل؛ خشية من معارضة الفقهاء الشيعة^(٤)، وعلى الرغم من اتفاق هذا الإجراء مع شالية أهل السنة^(٥) وعلى الرغم من أنه أنه عمل على الحد من الغلاء ومحاربة احتكار التجار، فإنه يختلف مع ما ذكره الفاطميون عن التسعير.^(٦)

وفي عام ٣٩٥هـ/١٠٠٥م تعرضت مصر لثورة أبي ركة التي بدأت في بركة باستيلاء على بعض أماكنها، فدخلت مصر في حالة من الفوضى، وعدم الاستقرار، بخاصة بعد أن تحرك أبو ركة إلى مصر، وهدد الإسكندرية، فأعمل للسلب، والنهب مستحيماً في تلك بالأعراب الذين دأبوا على الإغارة على سكان الدلتا، وكان هؤلاء الأعراب قد تمردوا على السلطة المركزية ورفضوا الانضمام تحت لوائها، كذلك اضطريت الأحوال في ريف مصر بسبب هؤلاء الأعراب؛ مما أدى إلى ارتفاع الأسعار، وندرة الأموال.^(٧)

(١) المقرئزي : إغارة الأمة، ص ١٦٥.

(٢) التسعير : هناك فرق بين كلاً من التسعير والتسعيرة، فلم يكن السعر الذي يحدده أبناء الطائفة الواحدة فيما بينهم وبين المحتسب بواسطة عريفهم من أنواع التسعير، بل هو أقرب إلى ما يسمى بالتسعيرة الودية التي تحاول الاقتراب من السعر للعادل، ويذكر ناصر خسرو أن التجار كانوا يبيعون بأسعار محددة، وفي ذلك مصلحة للجمهور. راجع : ابن تيمية : قسبة في الإسلام، ص ١١٠؛ ناصر خسرو : سفرنامه، ص ١٥٣؛ راشد البسراوي : المرجع السابق، ص ١٧٣.

(٣) ناصر خسرو : المصدر السابق، ص ١٥٣.

(٤) المقرئزي : اتعاظ الحفناء، ج ١، ص ٧١، ١١٦٩؛ ابن تيمية : المصدر السابق، ص ١١٠.

(٥) ابن تيمية : الحسبة ومسئولية الحكام، تحقيق : صلاح عزام، القاهرة، ١٩٧٣، ص ٢٩.

(٦) ناريمان عبد الكريم : مصر الإسلامية، ص ١٧١.

(٧) نفسه.

نخوف للحاكم بأمر الله من حدوث مجاعة تقضي على شعب مصر، فأشاع الرهبة بين الناس، حتى لا تسول لأحد نفسه في استغلال تلك الملابسات، فأمر بعمل شوتة ملئت باليوص، والمنطه والحلفاء، حتى فويت الشائعات بأن الحاكم بأمر الله قد أعدها للكاتب وأصحاب اتواوين، فاجتمعوا منفردين أمام الحاكم بأمر الله، فأعطاهم أماناً، وتلا ذلك أماناً لطوائف الجند والعييد، فخافه التجار أن تكون تلك الشوتة قد أعدت لهم فاجتمعوا على طيقاتهم، والتمسوا الأمان، فكتب لهم، واستقرت الأمور. (١)

وفي العام التالي ٣٩٧هـ/١٠٠٦/١٠٠٧م، انخفض النيل إلى ١٤ ذراعاً و١٦ إصبغاً، فذخنت البلاد في مجاعة كبيرة أدت بدورها إلى ارتفاع الأسعار، واضطراب الأمور (٢)، ولاسيما وجود مثل هذه الضائقة في العام السابق لها، غير أن الحاكم بأمر الله استطاع أن يتغلب عليها، فأصدر إلى مسعود الصقلي متولي المستر، بالنظر في أمر الأسعار، فجمع خزافة الغلال، والطحانيين، والخبازين، وقبض على ما بالمساحل من غلال، وأمر ألا تباع إلا للطحانيين، ثم سعر سائر المبيعات، وهاجم عدداً من المخازن، وفرق ما بها على الطحانيين، كما ضرب، وشهر بجماعة منهم، وعاقب كل من يخالف أوامرهم بالجلد، فتواقرت الحبوب، وهدأت الناس. (٣)

وفي عام ٣٩٨هـ/١٠٠٨م، خير أرباب الغلال في أن يبيعوا بالسعر المحدد الذي يقرره بما فيه الفائدة المحتملة لهم، وبين أن يبيعوا فيختم على غلاتهم، ولا يمكنهم من بيع شيء منها إلى دخول الغلة الجديدة، فاضطروا للاستجابة إلى ما حدد من سعره. (٤)

(١) لمقريري : الخطط، ج ٢، ص ٤٠٩؛ محمد عبد الله عزان : الحاكم بأمر الله، ص ٦٤؛ أحمد الصاوي : مجاعات مصر، ص ٢٦؛ أمين فؤاد سيد : الدولة لفاظمية في مصر، ص ٥٣٨.

(٢) لمقريري : إغاثة الأمة، ص ١٦٥؛ راشد البروي : حالة مصر الاقتصادية، ص ١٠١؛ ناريمان عبد الكريم : مصر الإسلامية، ص ١٧٠.

(٣) لمقريري : اتحاط الحنفا، ج ٢، ص ٦٩؛ راشد البروي : المرجع السابق، ص ١٠٠.

(٤) لمقريري : إغاثة الأمة، ص ١٨.

كان الغلاء أقلّ وطأة في الريف المصري، وأكثر مما يحتمل في القاهرة، والفسطاط، وذلك بسبب اعتمادها على غلات الأقاليم بخاصة الوجه القبلي، على أن الفسطاط ظلت أرخص في السعر بسبب قرب النيل منها، فالمرائب التي تصل بالمحاصيل ترسو هناك ويباع ما يصل فيها بالقرب منها، وليس يتفق ذلك مع ساحل القاهرة؛ لأنه بعيد عن المدينة، أما الريف المصري فلم يكن يشعر بهذا الغلاء، إلا عند تضافر عوامل نقص الفيضان واختلال الأمن^(١)؛ لذلك كان الحاكم بأمر الله يضرب بيد من حديد كل من يخالف، ولاسيما في القاهرة، والفسطاط.

ولما كان المحتسب هو ميزان الدولة ومعيار اقتصادها، فقد كان الحاكم بأمر الله يتشدد مع المحتسب إذا أهمل واجبه؛ لذلك نجده عندما ولي حميه القاهرة، والفسطاط، والجيزة لقائد القواد، ومتولي المشرطيين (القاهرة، ومصر) المعروف بعين، عام ٤٠٢ هـ / ١٠١٢ م، فقد تشدد في سجل تعيينه على ضرورة مراعاة واجبات وظيفته^(٢)؛ لذلك فلما ارتفعت الأسعار، وتكالب الناصر على الخبز، عد الحاكم بأمر الله غيباً مشرولاً عما حدث، طالما كان ذلك الأمر يدخل ضمن واجبات المحتسب، فعزله عن منصبه في العام نفسه^(٣)، وأمر بقطع يده، وأعقته بالأخرى ثم بلسانه حتى توفي.^(٤)

(١) المقرئزي : الخطط، ج ١، ص ٣٦٧؛ راشد البراوي : المرجع السابق، ص ٨١

أحمد الصاوي : المرجع السابق، ص ١٥٧.

(٢) حسن الباشا وآخرون : القاهرة تاريخها، ضوئها، آثارها، مؤسسة الأكرام، القاهرة، ١٩٧٠، ص ٥٢١.

(٣) للمقرئزي : الخطط، ج ٢، ص ٨٧؛ اتعاط الحنفاء، ج ٢، ص ٩٣.

(٤) المقرئزي : الخطط، ج ٢، ص ٦٧؛ ابن تغري بردي : النجوم، ج ٤، ص ٢٢٣

محمد عبد الله عثمان : الحاكم بأمر الله، ص ١١٤، ١١٥.

عد الحاكم بأمر الله الحسبة من عموم واجبات الإمام^(١)، فقام بنفسه بنفسه بواجبات المحاسب فدل في الأسواق ممتطيًا حماره، يصاحبه عبده الأسود مسعود، يعاقب من يخالف، أو يغش في عيشه، عن طريق ارتكاب الفاحشة العظمى به.^(٢)

وتلا ذلك عدة مجاعات، كان توقف الزيادة في فيضان النيل، أو زيادتها عن الحد المطلوب سببًا فيها، وقد أدت هذه المجاعات، ولا ريب إلى ارتفاع الأسعار، ونزرة الأوقات، غير أن الحاكم بأمر الله كان يضرب بيد من حديد على من تسول إليه نفسه بذلك فكانت سياسته على الرغم من قسوتها، وعدم شرعيتها في بعض الأوقات فإنها تأتي بشاؤها.

إذا كان الحاكم بأمر الله قد استطاع بثوئه، وحذكته أن يتصدى لتلك الأمور، ويعالج ما أصاب البلاد من كوارث طبيعية، وبشرية تمثلت في جشع، وطمع التجار، فإن الظاهر لإعزاز دين الله، أنهمك في ملذاته، وترفيه، ولهوه، وعشقه للغناء، والراقصات^(٣)، وقد حاكاه في ذلك رجال الدولة، وأغنياء القوم، فأصبح الترف سمة لعصره.^(٤)

لذلك نخلت مصر في خلافته - على الرغم من قصرها - في مجاعة عام (٤١٤ - ٤١٥ هـ/ ١٠٢٣ - ١٠٢٥ م)^(٥)؛ بسبب نقص فيضان النيل، وارتفعت الأسعار، وعذم الناس الطعام، وأهمل الظاهر لدين الله

(١) تعتبر الحسبة عند الشيعة من عموم واجبات الإمام بسبب كونها خدمة دينية، وكان الإمام يستألف فيها من يراه أهلاً لها؛ وذلك بناءً على ما نقل عن علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - عن الرسول (ﷺ) : 'يا علي مر بالمعروف واته عن المنكر' وكان للمحاسب منزلة عظيمة في العصر الفاطمي، له الحق في تعييب نوابًا له بالقاهرة وجميع الأقاليم، وكانت أوامره مطاعة لا يحول بينه وبين مصالحه أحد.

الفتقشندي : صبح الأعيى، ج ٣، ص ٤٨٦؛ عبد المنعم ماجد : نظم الفاطميين ورسومهم، ج ١، ص ١٦٢، ١٦٣؛ عبد المنعم ماجد : الحاكم بأمر الله ص ٨٩، ٩٠.

(٢) للسيوطي : حسن المحاضرة، ج ٢، ص ٢١٣.

(٣) المقرئزي : المغلط، ج ١، ص ٢٥٤.

(٤) نفسه، ص ٣٥٥.

(٥) أحمد الصاوي : مجاعات مصر، ص ٤١.

واجباته كمثل السلطة المركزية، ولم يهتم بردع التجار، أو توفير الغذاء للناس، بل إنه في أوج الأزمة قام بالاستيلاء على ما ورد إلى ساحل مصر من مراكب مملوءة قمحاً، ورسم بتسليمها لقصر الخلافة، فأدى ذلك إلى زيادة جشع التجار فارتفعت الأسعار^(١)، وكثر ضجيج الناس واستغاثتهم، وخرج للرجال، والأطفال، ومعهم المصاحف المنتشرة، إلى جبل للمقطم يستغيثون، ولكنهم لم يقاتوا.^(٢)

وتحت ضغط أمين الشعب، وحاجتهم إلى الطعام، قام الظاهر لدين الله في محاولة شكلية للقضاء على ارتفاع الأسعار. فعزل ابن غرة متولي الحسبة، وقام بتعيين دواس بن يعقوب الكتامي بدلاً منه، فنزل دواس بن يعقوب إلى القاهرة في موكب عظيم حتى انتهى إلى مجلس الحسبة، فأحضر هناك الخبازين، وتجار النقيق، وضرب بعضهم، وشهرهم، فارتعد الناس، وانخفضت الأسعار، وظهرت الغلال في الأسواق.^(٣)

لم تفض أيام قلائل حتى عادت الأمور كما كانت عليه، وذلك لأن إجراءات ابن يعقوب لم تفسح احتكارات، وغلال رجال الدولة، الذين استغلوا ذلك، وقاسوا برقع الأسعار، فافتقد الخبز، وكثر الازدحام على دكاكين الخبز، وعاد الناس إلى ما كانوا عليه، وغاية ما يفعله المحتسب أن أمر بيل الخبز في الماء على أن يباع بسعر ثلاثة أرطال بدرهم، بعد أن كان يباع جافاً أربعة أرطال بدرهم، وثمن، غير أن بيل الخبز يعني زيادة وزنه، وما فعله ابن يعقوب ما هو إلا نوع من أنواع الغش التجاري المستتر، والمنتقن، وكذلك ضمن للتجار بيع الخبز بأسعار مرتفعة تضمن لهم الربح الوفير في ظل حماية المحتسب نفسه.^(٤)

(١) التميمي: أخبار مصر، ج ٤٠، ص ٣٩؛ أحمد الصاوي: المرجع السابق، ص ٤١.

(٢) التميمي: المصدر السابق، ص ١١٢؛ المقرئ: اتعاظ الخفا، ج ٢، ص ١٣٤، ١٣٥.

(٣) التميمي: المصدر السابق، ص ١٣، ١٤؛ المقرئ: المصدر السابق، ص ١٣٥؛ أحمد الصاوي: المرجع السابق، ص ٤٣.

(٤) أحمد الصاوي: المرجع السابق، ص ٤٣.

وفي العام التالي ٤١٥هـ/١٠٢٣م، ظلت الأزمة قائمة، وذلك على الرغم من وصول ماء النيل إلى ١٦ نراعسا و١٨ إصبعا. (١) وازدادت الأمور سوءا، ووصلت الأسعار ارتفاعها، وكان السبب في ذلك امتيلاء الدولة على ما ورد إلى المقص من غلال لصالح مخازن القصر القاطمي. (٢)

وكانت هذه السياسة في صالح الضحانيين، والخبازين الذين استغلوا للموقف، وباعوا دقيق الناس بسعر مرتفع بدلا من بيعه للمخابز، التي تشتري وتبيع الخبز بأسعار محددة، وعندما تشكك الظاهر لدين الله في أمانة للمحتسب قرر عزله، في رجب ٤١٥هـ/١٠٢٣م، وحل محله بقى الخاتم الأسود غلام بدر الدولة نفاذ، إضافة إلى توليه الشرطتين (القاهرة، والفسطاط). (٣)

حاول المحتسب الجديد من أول يوم لتوليه الحسبة أن يضع حدا لتدهور الأحوال، فنزل إلى الفسطاط، ونظر في الحسبة، وأمر بتخفيض الأسعار، على أن التجار، وأصحاب الطواحين، والخبازين الذين استأغوا تساهل ابن يعقوب لم يرضوا بهذه الأسعار، فامتنعوا عن فتح الطواحين، والحوانيت طيلة اليوم التالي، فلم يجد للناس خبزا، ولا دقيقا، ومن ثم اضطر الخليفة إلى عزل بقى من الحسبة، وأعاد دواس بن يعقوب إليها مرة أخرى. فقرر ابن يعقوب للسعر نفسه الذي قد قرره بقى المعزول، فظهر الخبز في الأسواق مرة أخرى. (٤) غير أن هذا لم يبق إلا أياما معدودات ثم عادت الأسعار مرة أخرى في الارتفاع. (٥) مما يدل على أن يعقوب كان متواطئا مع تجار الغلال من رجال الدولة، الذين تعاونوا مع بقية تجار الغلال، والطحانيين، والخبازين على إحباط إجراءات المحتسب الجديد (بقى الأسود)، وإظهاره بموقف للعاجز؛ ليعود ابن يعقوب بإعزاز

(١) المقرئبي : اتعاظ الحنفا، ج ٢، ص ١٤٢؛ الخطط، ج ١، ص ٣٥٤.

(٢) المسيحي : لخيار مصر، ص ٣٩؛ المقرئبي : اتعاظ الحنفا، ج ٢، ص ٤٤٤.

(٣) أحمد الصاوي : مجاعات مصر، ص ٤٤.

(٤) المسيحي : المصنر لسابق، ص ٤٨.

(٥) نفسه، ص ٥٢؛ أحمد الصاوي : للمرجع السابق، ص ٤٥.

من كبار رجال الدولة المسيطرين على الخليفة، وكان لهم ما أرادوا؛ لأن هذا الإجراء كان في صالحهم. (١)

وفي تلك الأثناء ظهر وباء شديد أصاب الحيوانات مما أدى إلى ارتفاع سعرها هي الأخرى فوصل ثمن رأس البقر إلى خمسين ديناراً (٢)، لذلك فقد أصدر الظاهر لدين الله أوامره بعدم ذبح الأبقار السليمة، وهدد من يفعل ذلك بالقتل، وذلك بغرض الحفاظ على الحيوانات التي تساعد في أعمال الزراعة من حرث، وري، وغير ذلك. (٣) وأدى نقص أعداد الحيوانات إلى ارتفاع أسعار مياه الشرب التي كانت للحيوانات تقوم بنقلها، فبلغت رابوية الماء البغل درهمين، والرابوية الجملة ثلاثة دراهم. (٤) وتلا ذلك وباء انتشر وسط الناموس، فارتفعت أسعار ما يحتاج إليه المرضى، حيث بلغ سعر الرمانة الواحدة ثلاثة دراهم، والبطيخة البرلس ثلاثين درهماً، والأوقية الشراب بدرهم. (٥)

واشتد الغلاء فازدادت مسغبة الناس الذين كثر الموت بينهم؛ لتعشي البوابة، خاصة بين الفقراء، والمساكين 'وبلغ الأمر بالناس، أن جزاءً طرح عظمة كلب فراه رجل شاب مستور متعفف، فطرد الكلب وأخذ العظمة منه، ولم يزل إلى أن نال من مصه ما بلغه فرماه من يده، وذهب، ولم يجد الفقراء ما يأكلون فأطعموا أولادهم قضبان القنبيط (أغظ أنواع الكرنب) التي كان البقالون يفتزعونها من رؤوس الكرنب، ويرمونها، فيجمعها الفقراء ليقتاتوا بها، وباليسير من كسب اللوز والسهم، وارتفعت أيضاً أسعار البقول. (٦)

(١) أحمد الصلوي : المرجع السابق، ص ٤٥.

(٢) المقرئزي : المخطوط، ج ١، ص ٣٥٤.

(٣) المقرئزي : تعاضل الحنفا، ج ٢، ص ١٤٩؛ أحمد الصلوي : المرجع السابق، ص ٤٥.

(٤) المقرئزي : المخطوط، ج ١، ص ١٥٤.

(٥) المسبحي : أخبار مصر، ج ٤٠، ص ٦٩.

(٦) المسبحي : المصدر السابق ص ٧٢ - ٧٣ أحمد الصلوي : مجاعات مصر، ص ٤٧.

ولم يجد للظاهر لدين الله أي حرج في أن يحتفل مع الناس بعيد الغطاس في وسط كل هذه المآسي التي يعانيها للشعب المصري، وكل ما قام بفعله هو إصدار أوامره بعدم اختلاط النصارى بالمسلمين في هذا اليوم. (١) غير أن القدر أرك أن يشعره بما يعانيه الشعب من عذاب، فينكر المسيحي أنه في اليوم نفسه توفيت للظاهر لدين الله ابنة صغيرة تبلغ من العمر ثلاث سنوات وشهوراً، وعند دفنها لاحظ للظاهر كثرة الموتى من شعبه، كما لاحظ دفنهم بدون أكفان، لعل هذا ما جعله يذهب إلى قصره في آخر الليل دون أن يكمل احتفالاته.

أراد داوس بن يعقوب أن يظهر بمظهر المعالج للأزمة، فأحضر حمالي القمح، وضربهم حتى أقروا بمخازن التجار، وسامسة الغلال، التي يحملون إليها الغلال، فكتبوا له ١٥٠ مخزناً للقمح موضع الطوابع عليها وهدد بقطع يد من تسول له نفسه لأخذ حبة قمح منها. (٢) وعسى الرغم من ذلك فلم يبادر المحتسب بن يعقوب على التبيع من هذه المخازن عند حصوله عليها مباشرة أو حتى في اليوم التالي لها، ولعل ذلك كان رغبة منه في إعطاء الفرصة الكاملة لكبار رجال الدولة كي يبيعوا مخزونهم بأعلى سعر ممكن. (٣) وهذا ما حدث بالفعل إذ قام مسعود غلام الشيخ نجيب الدولة أبي القاسم للجرجرائي، بفتح مخزن قمح له، وباع منه بسعر ثلاثة ثنانير، فتراحم الناس عليه، على الرغم من معرفه الذي أصاب الناس بمسغبة على حد قول المسيحي. (٤)

وإزداد الأمر سوءاً عندما نزل الظاهر لدين الله القاهرة في نصف ذي القعدة ٤١٥هـ / ١٠٢٣م، وسط هذا الخضم من المآسي، فشق البلد بدلالين خلفه المقودون والمصطنعة، وبين يديه الراقصون (٥)، فأعرض الشعب الجائع معيرة للخليفة في مظاهرة ضخمة، وهم يصيحون : الجوع

(١) المقرئزي : الخطط، ج ١، ص ٢٢٦؛ المسيحي : المصدر السابق، ج ٤، ص ١٩٠.

(٢) المسيحي : المصدر السابق، ج ٤، ص ٧٤.

(٣) أحمد الصلوي : المرجع السابق، ص ٤٧.

(٤) للمسيحي : أخبار مصر، ص ١٧٤.

(٥) نفسه، ص ٧٣.

يا أمير المؤمنين الجوع، لم يصنع بنا هكذا أبسوك، ولا جحك فإله الله أمرنا".^(١)

فسارع الظاهر لدين الله، وأمر بإحضار المحتسب نواس ابن يعقوب، واتهمه بأنه قد فتن البلاد على الخليفة، وأمره بأن يعيد الأمور إلى نصيبها، وإلا ميقوم بعزله، فكان لدى بن يعقوب من الحيل الشيطانية التي تثبت توطئه مع تجار الفلال من كبار رجال الدولة؛ حيث نزل إلى القاهرة، ومعه سجل بإلغاء جميع المكوس على الغلات الواردة على السواحل، وهذا يعني تخفيض أسعارها، غير أنه قد ألغى للتسعير الذي قد قرره قبل ساعات من هذا السجل، فارتفعت الأسعار على الرغم من إلغاء المكوس.^(٢) أدى ذلك إلى قيام العبيد بمهاجمة سواحل الغلة، ونهبوا وأحرقوا، فاختلفت الأخباز، والدقيق على الرغم من ارتفاع أسعارها، حتى وصل الخبز إلى رطل واحد بدرهم.^(٣)

وفي عهد المستنصر بالله الفاطمي، ازدادت أحوال مصر سوءاً على سوء، حيث كان عهده مليئاً بالأحداث الجسام، فقد اجتمعت له جميع العوامل التي ساعدت على انهيار الاقتصاد المصري، وتعرضت مصر في عهده إلى أزمة شديدة، استمرت هذه الأزمة سبع سنوات، بدأت من عام ٤٤٧هـ/١٠٥٥م، عانى فيها الشعب المصري أشد العناء، فلم تترك مصر مثل هذه الأزمة من قبل منذ أيام يرمف - عليه السلام - ونظرنا لقسوتها للبالغة التي كادت تقضي على الشعب المصري بأكمله، فقد أطلق عليها ما عرف باسم "الشدة العظمى".^(٤)

-
- (١) للمقريزي : الخطط، ج ١، ص ٣٥٤.
(٢) أحمد لصاري : مجاعات مصر، ص ٤٧.
(٣) المسبحي : المصدر السابق، ج ٤٠، ص ١٨٨ المقريزي : اتعاط الحنفيا، ج ٢، ص ١٧٠.
(٤) ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب، ج ٣، ص ٣٨٢؛ المقريزي : الخطط، ج ١، ص ١٣٦٥؛ إغاثة الأمة، ص ٢٣؛ رائد البرنوي : حالة مصر الاقتصادية، ص ٨٨.

بدأت هذه الأزمة بقصور النيل، وكان في الإمكان أن تمر كغيرها دون أن يصبحها هذا البلاء العظيم، إلا أن فساد الأحوال السياسية، والانقسامات، والفتن الداخلية كان العامل الأكبر في تفاقم الأزمة، واتساع نطاق خطرهما وطول مدتها. (١)

يرجع سبب هذه للمجاعة قبل أي شيء إلى ضعف شخصية المستنصر بالله الذي ولي الخلافة وهو في السابعة من عمره. (٢) وكان قصره مليئاً بالنساء التي يحبكها الأمراء، والقواد، ورجال البلاط، والخصيان، وأهل الخليفة من الرجال والنساء، ولم يكن لهذا الخليفة من الحزم، وقوة للشخصية ما يجعله قادراً على كبح جماح أصحاب الأطماع، ومدبري الفتن، فقد كانت خلافة المستنصر امتداداً لخلافة أبيه الظاهر لدين الله، وإن كان الظاهر لدين الله قد استطاع بعض الشيء أن يحافظ على سلطانه الزمنية على الرغم من تفرد رجال دولته بإدارة معظم شؤون البلاد فإن المستنصر كان من الضعف الذي يحول بينه وبين تحقيق ذلك. (٣)

حال ضعف الخليفة نون سيطرته على طموح قواده، ورجال بلاطه، الذين أخذوا يحكون النساء على اختلافها، وقد ساعدهم على ذلك أن للمستنصر بالله كان يندمق إلى ما يسمعه في شكائات، فأشبهت عليه الأمور وانتقضت الأحوال (٤)، هذا الأمر الذي قاده إلى تغيير الوزراء بشكل مستمر، مما أضعف من قوتهم وعجزهم عن تدبير الأمور، بالإضافة إلى أن هذا الأمر قد أوقع الخلاف بين فئات للجند؛ نتيجة لاختلاف سياسات هؤلاء الوزراء (٥)، مما أدى إلى انتشار الفوضى داخل البلاد، وخير دليل على ذلك أن الوزارة قد وليها أربعون وزيراً في تسع

(١) راشد البراوي : حالة مصر الاقتصادية، ص ٨٨.

(٢) المقرئزي : إيضاح الأمة، ص ٤٢٣ راشد البراوي : المرجع السابق، ص ٨٨.

(٣) المقرئزي : المصدر السابق، ص ٤٢٣ أحمد الصاري : مجامع مصر، ص ٥٠.

(٤) المقرئزي : المصدر السابق، ص ٢١ - ٤٢٣ راشد البراوي : المرجع السابق،

ص ٨٨ أحمد الصاري : المرجع السابق، ص ٥٠.

(٥) المقرئزي : المصدر السابق، ص ٢١ تعاقب لحناء، ج ٢، ص ٢٦٢، ٢٦٣.

سنوات^(١)، كان بعضهم يقضي في منصبه أيامًا قلائل، وبعضه يصرف بعد يوم واحد من تقلده هذا المنصب.^(٢)

وقد نشأ عن ضعف الخليفة، وتدهور حال الوزراء فراغ ميايبي لم يملكه إلا للمسكر، الذين أصبحوا يحكم تنظيمهم، وقوتهم العسكرية، القوة المؤثرة في تقرير أمور البلاد.^(٣) فقد أحاط المستنصر بسايش نفسه بحرس أسود كبير العدد، وزاد عدد هؤلاء العبيد، وتوافرت أسباب النزاع بينهم وبين الجند الأتراك، وتطور النزاع إلى حروب عنيفة بين الفريقين دامت سنوات، فأصبحت البلاد من أقصاها إلى أدناها مسرحًا لتفتن مما كان وبالاً على البلاد. وقد عجز الخليفة أن يحصل دون امتدلاع لهيب الفتنة، بل أدت سوء ميايسته إلى استفحال نارها، فتارة يميل إلى جانب أمه، وعندها السوداني، وأخرى يهادن الأتراك ثم ينقلب عليهم.^(٤)

وقد برز وسط هذا الجو الفاسد شخصيتان كان لهما أثر كبير في إحداث الفتنة وتطورها، وهما، أم المستنصر التي كانت في الأصل جازية من عبيد الشراء، والتي تحيزت للعبيد، ومماعتهم، وابن حمدان الذي نزع الأتراك.^(٥) نشأ الحقد بين الفريقين، وتوافرت عوامل للشقاق، وأصبحت البلاد أشبه بمخزن بارود تكفي شراره صغيرة لانفجاره.^(٦) وكانت هذه الشرارة عام ٤٥٤هـ/١٠٦١م عندما احتدى أحد الجند الأتراك، وهو سكران على أحد العبيد، فحدثت معركة بين الطائفتين لم تنته إلا بهلاك الكثير، والكثير من أهل مصر، الذين دفعوا ضريبة هذا النزاع.^(٧)

(١) حسن إبراهيم حسن : الفاطميون في مصر، ص٢٩١؛ راشد البراوي : المرجع

السابق، ص٨٨؛ أحمد الصاوي : المرجع السابق، ص٥٠.

(٢) من هؤلاء الوزراء : أبو عبد الله محمد بن أبي حامد، واستقرت له الوزارة يومًا واحدًا وصرف بعده؛ راشد البراوي : المرجع السابق، ص٨٨.

(٣) أحمد الصلوي : مجامعت مصر، ص٥١.

(٤) راشد البراوي : حلة مصر الاقتصادية، ص٨٩.

(٥) نفسه، ص٨٩.

(٦) أحمد الصاوي : المرجع السابق، ص٥٢؛ راشد البراوي : المرجع السابق، ص٨٩.

(٧) ابن ميسر : أخبار مصر، ص١٣؛ ابن تغري بردي : النجوم، ج٥، ص١٧ -

١٨ -

وفي أثناء الحرب بين الخليفة المستنصر، وعبيده، وبين ابن حمدان، اضطربت أحوال مصر، وارتفعت الأسعار، وعم الغلاء، وانتشر الوباء، ولاسيما بعد أن أخفقت محاولات المستنصر باثد في الحصول على الغلال من الدولة البيزنطية؛ حيث رفضت الإمبراطورة ثيودورا Theodora إرسال القمح لعصر إلا بشرط دخول مصر مع بيزنطة في معاهدة دفاعية هجومية، فرفض الوزير البيزوري ذلك؛ لأن حاجة مصر للغلال كانت مسألة مؤقتة ستزول بانقضاء الأزمة^(١)، مما كان سبباً في توتر العلاقة بين التولتين، واستمرار حالة الجوع للشعب المصري؛ لأن ثيودورا رفضت إرسال القمح لمصر. ^(٢)

ودخلت مصر في مجاعة، وأصيب للناس بمسغبة^(٣)، وصحب هذه هذه المجاعة وباء انتشر بين السكان، ولم يكن في المخازن السلطانية إلا جرايات من في القصور، ومطبخ السلطان، وحواشيه فقط.^(٤) مما أدى إلى زيادة جشع التجار الذين احتكروا السلع، ورفعوا الأسعار، ويعود ذلك إلى تخلي الثقة عن دورها في شراء الغلال، هذا الأمر الذي زينسه الوزير البيزوري إلى الخليفة بغية زيادة الربح السلطاني.^(٥)

وأراد المستنصر أن يؤدب ثيودورا لمنعها الغلال، فجهز جيشاً بقيادة مكين الدولة الحصن بن علي بن ملهم، وتبعهم بعسكر ثان، وثالث، ولودي في سائر بلاد الشام بالغزو إلى بلاد الروم. ونزل بن ملهم قريباً من خامية فحاصرها، وحال في أعمال أنطاكية، وسبي، ونهب، فأخرج البيزنطيون ثمانين قطعة بحرية حاربت ابن ملهم، وهزمته هو، وجماعة

(١) راشد البراوي: المرجع السابق، ص ١٠١؛ أحمد الصاوي، المرجع السابق، ص ٦٣.

(٢) راشد البراوي، المرجع السابق، ص ١٠١؛ أحمد الصاوي: المرجع السابق، ص ٦٣.

(٣) المقرئزي: تاملط الحنفا، ج ٢، ص ١٢٤، للخط، ج ١، ص ٣٠٩.

(٤) المقرئزي: الخطط، ج ٢، ص ٢٢٦ (في حوادث ٤٤٦هـ)؛ إهاتبة الأمة، ص ١٩ - ٢٠.

(٥) المقرئزي، للخطط، ج ١، ص ١٠٩.

كثيراً^(١)، ولا شك أن مثل هذا الإجراء في مثل هذه الظروف لم يكن بالرأي الصائب، ولا سيما في ظل حاجة البلاد إلى الأذونات، بالإضافة إلى فراغ خزانة القصر نتيجة للإنفاق لأجل تجهيز المؤيد في الدين الذي أرسل لدعم ثورة البساسيري^(٢) الذي أقام الدعوة للفاطميين في بغداد.^(٣)

صحب هذه المجاعات وباء شديد أودى بحياة الكثيرين بخاصة في عام ٤٤٧ هـ / ٤٤٨ هـ / ١٠٥٥ م - ١٠٥٦ م، حتى أن عطاراً باع في يوم واحد ألف قارورة شراب.^(٤) وأخذت الناس يتساقط الواحد تلو الآخر، حتى إنه قيل: إن عند الموتى في اليوم الواحد بلغ الألف إنسان.^(٥) ويذكر ويذكر أن ثلاثة من اللصوص قبضوا بعض اللدور فوجدوا عند الصمغاح موتى أحدهم على باب القبّة، والثاني على رأس الدرجة، والثالث على الثياب التي كورها.^(٦)

(١) المقريزي: المصدر السابق، ص ٣٣٥؛ أحمد الصلوي: مجاعات مصر، ص ٦٣.

(٢) لبساسيري: هو أبو العارث أرسلان أحد قادة الأتراك في الدولة العباسية وكان على عداوة مع للخليفة العباسي القلم يأمر الله ويميل إلى الدعوة الفاطمية، وأعلن عن رغبته في إقامة الدعوة للفاطميين في بغداد، وقد تمكن بفضل جهود الداعي هبة الله الشيرازي وما قدمه له المستنصر من مساعدات بالإضافة إلى فساده أحوال الخلافة العباسية بغداد وكثرة الفتن والثورات بين الجند، ولا سيما الأتراك منهم، الذي أصبح للبساسيري قلداً عليهم، فزادت قوته ونفوذه، في الوقت الذي ضعف فيه الخليفة العباسي القائم بأمر الله، فدخل في حرب مع العباسيين، وانتصر عليهم، ودخل بغداد عام ٥٤٠ هـ / ١٠٥٩ م وأقام الدعوة للخليفة المستنصر بالله الفاطمي على منابرهما.

لمزيد راجع: ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ١٥، ص ٦٣، ٦٨؛ المقريزي: اتعاظ الحنفاء، ج ٢، ص ٢٥٢، ٢٥٣؛ عبد المنعم سلطان: المجتمع المصري، ص ٢٣١؛ محمد جمال الدين سرور: لنفوذ الفاطمي في بلاد الشام، ص ٩٥ - ٩٨.

(٣) ابن مؤيد: أخبار مصر، ص ٨؛ أحمد الصلوي: المرجع السابق، ص ٦٤.

(٤) ابن تغري بردي: النجوم، ج ٥، ص ٥٩.

(٥) أحمد الصلوي: مجاعات مصر، ص ٦٤.

(٦) ابن تغري بردي: المصدر السابق، ج ٥، ص ٥٩.

وازدادت الأمور سوءاً، في ظل استمرار نزاعات الجند التي شلت يد الحكومة، وأخلت بالأمن، فانتشر السلب، والنهب^(١)، وكذلك غلبت الأسعار، واشتد الجوع بالناس^(٢)، ولاسيما في ظل الحصار الاقتصادي الذي فرضه ابن حمدان على القاهرة، والفسطاط^(٣) حتى يرغم الخليفة على الخضوع له، وسرعان ما أتى هذا الحصار بثماره فارتفعت الأسعار، وتآثر الشعب.

اشتد الأمر بالناس، ولاسيما أمام عجز الخليفة لتوفير الغذاء، أو السيطرة على غلاء التجار، وانعدام الأوقات، حيث أدت كثرة الحروب إلى صعوبة إرسال الخلال بسبب الفوضى، وأخطار الطريق، وإهمال الحكومة أمر الترع، والجمور، بالإضافة إلى موت العديد من تفلحين الذين كانوا يقومون بزراعة الأراضي^(٤). نتيجة للوباء الذي اجتاح البلاد، والبلاد، وأهلك نحو ثلثي أهل مصر^(٥) ولحق بالوباء، والطاعون، مرض الجذري الذي انتشر في مصر، وأصاب أطفالها حتى أفنى في شهر واحد ٢١.٠٠٠ طفل^(٦).

اضطر الناس إلى أكل تحاثة الخيل، وقاموا بطبخ جلود البقر وباعوها رطلا بدرهمين^(٧)، ثم لكل الناس الحيوانات الأليفة، وبيع كلب ليؤكل بخمسة دنانير^(٨)، والقط بثلاثة دنانير^(٩)، ولم تسلم نواب الخليفة،

(١) ابن ميسر : أخبار مصر، ج ٢، ص ٢٠٠، ابن تغري بردي : المصدر السابق، ص ٨٤.

(٢) المقريزي : تعاضد الحنفاء، ج ٢، ص ٢٩٧.

(٣) ابن تغري بردي : المصدر السابق، ص ٨٤ - ٨٥.

(٤) المقريزي : إغاثة الأمة، ص ٢٣.

(٥) ابن يونس : بدائع فرهور، ج ٢، ص ٩١؛ أحمد الصاوي : المرجع السابق، ص ٦٨.

(٦) راشد البروي : حالة مصر الاقتصادية، ص ٩٥؛ أحمد الصاوي : المرجع السابق، ص ٦٨.

(٧) المقريزي : تعاضد الحنفاء، ج ٢، ص ٢٩٧ - ٣٠٧.

(٨) المقريزي : نفسه، ص ٢٩٧؛ إغاثة الأمة، ص ٢٣ - ٢٤.

(٩) ابن تغري بردي : المصدر السابق، ص ١١٦؛ أحمد الصاوي : المرجع السابق، ص ٦٩.

حتى لم يبق له إلا ثلاثة أفراس بعد أن كانت عشرة آلاف ما بين فرس وجمل ودابة، ويذكر المقرئ أن وزير المستنصر ترك على باب القصر بغلته، وليس معها إلا غلام واحد، فجاء ثلاثة أشخاص، وأخذوا البغلة منه، ولم يترك على دفعهم لضعفه من الجوع، فنبحوها وأكلوها. ولجأ بعض الناس إلى أكل جثث بعض الذين نفذ فيهم حكم الموت. (١) فكثر أكل أكل لحوم البشر (٢)، كذلك كثر أكل الجيف، والميتة، وربما كان هذا سبباً في انتشار الوباء، وكثرة الضحايا حتى عجز للناس عن تكفين موتاهم، فألقوهم في الحفر دون أكفان، أو ألقوهم في النيل. (٣)

أخذ الأمن إلى حد كبير واستداروا على الخليفة نفسه، وأنجسوه إلى بيع محتويات خزائنه لهم لأجل تسديد رواتبهم، وأخذوها بأبخص الأثمان، ثم تصادى بهم الحال وخرجت الأجناد بدافع الجوع، ومنبت أيديها إلى الذهب، والسلب بعد مقتل ابن حمدان على يد خصومه، وتهدأت الفرصة أمام الأشرار، وقطاع الطرق، وفقراء البنو، ولم يتورع أحد في الاعتداء على غيره طلباً للغذاء. (٤) وإزاء هذه الكوارث، اضطر الأثرياء إلى الهرب إلى الشام، والعراق، هرباً من الجوع، والفتن، والموت المحقق جوعاً، وعلى رأسهم التجار. (٥) أما الفقراء فكان مصيرهم الهلاك، ولم يستقم الأمر إلا باستعانة الخليفة المستنصر بالله بيد الجمالي من فلسطين، الذي قضى على عناصر الفساد، والفتنة، فعاد الأمن، والرخاء من جديد إلى مصر. (٦)

(١) ابن تغري بردي : فنجوم، ص ١٥، ١٦ المقرئ : إعانة الأمة، ص ٢٤

أحمد الصاوي : مجاعات مصر، ص ٦٧.

(٢) راجع : الفصل الاجتماعي من نفس الرسالة.

(٣) المقرئ : لمعاظ للحق، ج ٢، ص ٣٠٣ - ٣٠٧.

(٤) راشد البرلوي : حالة مصر الاقتصادية، ص ٩٥.

(٥) ابن ميسر : أخبار مصر، ص ٢٠. المقرئ : المصدر السابق، ص ٣٠٣

الخطوط، ج ١، ص ٢٢٧.

(٦) راشد البرلوي : المرجع السابق، ص ٩٦؛ أحمد الصاوي : المرجع السابق،

ص ٦٨.

مما سبق يتضح أن الأزمة التي اجتاحت مصر في عهد المستنصر بالله، دامت من سنة ٤٥٧هـ/١٠٦٤م إلى ٤٦٤هـ/١٠٧١م، وكانت هذه السنوات السبع، يزيد فيها فيضان النيل، وينقص، ولم يصل النيل خلال هذه المجاعة إلى حد القحط كما أنه لم يقل عن ١٦ ذراعاً إلا مرتين (٤٤٦هـ/١٠٥٤م، ٤٦٠هـ/١٠٦٧م) وبلغ خلالها حوالي ١٥ ذراعاً، إلا أن انعدام الأمن والحروب الناجمة بين طوائف الجند، وضعف شخصية الخليفة، أدت بدورها إلى هلاك الفلاحين، وكان النيل إذا بلغ حد الزراعة لا يجد من يزرع من الفلاحين^(١)، فبارت الأرض ولم تزرع، وارتفعت الأسعار، وعز الطعام، على الرغم من وفاء النيل بالزيادة؛ لذلك فقد كانت العوامل السياسية، وضعف الإدارة المركزية، وكثرة الأمراض الاجتماعية التي أصابت للتجار، هي السبب الرئيس لدخول مصر في مثل هذه الحالة من الفساد، والسوء، والانهيار الاقتصادي.

وقد وصف المقرئ في كل ما آلت إليه الدولة في تلك الفترة من فساد، وانهيار في قوله: "لم تر الدولة صلاحاً، ولا استقام لها أمر، وتناقضت عليها أمورها، ولم يستقر لها وزير تحمد طريقته، ولا يرضى تدبيره وكثرت السعاية فيها فما هو إلا أن يستخدم الوزير حتى يجعلوه سوقهم ويقعوا به الظن حتى يتصرف، ولم تطل مدته، وخالط السلطان الناس، ودخلوه بكثرة المكاتب فكان لا ينكر على أحد مكاتبته. فتقدم منهم كل سفاه، وحظي عنده عدة أوغاد، وكثروا حتى كانت رقاعهم أرفع من رقاع الرؤساء، والجللة، وتقلوا في المكاتب إلى كل فن حتى إنه كان يصل إلى السلطان كل يوم ثمانمائة رقعة ممتشبهت عليه الأمور، وانتقضت الأحوال... ووقع الاختلاف بين عبيد الله، وضعفت قوى الوزراء عن تكبيرهم لقصر مدتهم، وأن الوزير منذ يُخلع عليه إلى أن ينصرف لا يضيق من التحرز ممن يسعى إليه عند السلطان وتقف عليه الرجال، فما يكون فيه فضل عن النفاق عن نفسه فخربت أعمال الدولة وقل ارتفاعها، وتغلب الرجال على معظمتها، وتجرأوا على الوزراء، واستخفوا بهم، وجعلوهم خوفاً لسامعهم... فتلاشت الأمور، واضمحل الملك."^(٢)

(١) ابن يمان: بدائع الزهور، ج ١، ص ٦١؛ راشد البترولوي: المرجع السابق، ص ٩٣.

(٢) المقرئ في: إشاعة الأمة، ص ٢١ - ٢٣.

وإن كان المقرئ قد ابتعد زمنياً عن تلك الفترة، ولم يعاصرها فقد خرج من رحم الدولة الفاطمية نفسها، واستطاع أن يصف بكلمات بسيطة ما وصلت إليه الدولة من فساد.

وقد أوجز ابن منجب الصيرفي، وهو من موظفي الدولة الفاطمية ما آلت إليه الدولة من فساد واضمحلال، في عبارة وجيزة واضحة حيث قال: "أما العزائم فقد وهنت، وأسباب الفساد قد بلغت الغاية، وانتهت، والمراقبة قد نذرت وقلت، والمهابة قد تلاشت واضمحلت"^(١) ولا ريب أن الرجل قد صدق في وصفه دون استطراد، أو مبالغة.

ظل ارتفاع الأسعار، واحتكار السلع الغذائية سمة من سمات للعصر الفاطمي الثاني (عصر الوزراء)، مثلما كان الحال في العصر الفاطمي الأول (عصر للخلفاء)، سواء كانت هذه الزيادة بسبب نقص فيضان النيل مثلما حدث في عهد المستعلي بالله^(٢)، والأمر بأحكام الله^(٣)، أو بسبب النزاعات والخلافات التي دارت بين الوزراء.

ففي عهد الحافظ لدين الله، بلغت زيادة النيل إلى (١٧) ذراعاً و(٣) أصابع حسب تقدير ابن أبيك، و(١٨) ذراعاً و(١٢) إصباعاً حسب تقدير أبي المحاسن، وعلى الرغم من ذلك فقد ارتفعت الأسعار، واحتكر التجار السلع، ولعل ذلك كان بسبب للخلاف بين الخليفة، ووزيره رضوان بن ولخش الذي حاول للنيل من مركز الخلافة^(٤)؛ مما شجع التجار على ذلك، وقد أراد رضوان علاج هذه المجاعة عن طريق تأديب محتكري

(١) ابن الصيرفي: الإشارة، ص ٥٠.

(٢) في عهد المستعلي بالله حدثت مجاعتين خطيرتين، كانت الأولى عام ٤٩٠هـ/١٠٩٦م - ١٠٩٧م وانتشر معها الوباء، لم تكن المصادر مسجلاً لهذه المجاعة، ربما كان ذلك بسبب نقص فيضان النيل، وكانت الثانية سنة ٤٩٣هـ/١٠٩٩م - ١١٠٠م، وانتشر معها الوباء أيضاً ومات خلق كثيرون، وكان السبب أيضاً هو نقص فيضان للنيل. راجع: ابن ميسر: أخبار مصر، ص ٣٧؛ المقرئ: تعاط الخلفاء، ج ٣، ص ١٩، ٢٥، ١٦٥.

(٣) ابن تغري بردي: الفجر، ج ٥، ص ٢٣٠؛ أحمد الصاوي: مجاعات مصر، ص ٧.

(٤) المقرئ: المصدر السابق، ج ٣، ص ١٦٦، أحمد الصاوي: المرجع السابق، ص ٧.

الغلال الذين يرفضون الأسعار، فأمرهم بتوريد ما يحتاج إليه كل يوم من الغلال، وأشرف على نفاذ ذلك بنفسه حتى انخفضت الأسعار. (١) غير أن الصراع ظل مستمراً بين ابن ولخش، والخليفة الحافظ لدين الله، فعادت الأسعار في الارتفاع مرة أخرى، ودخلت مصر في المجاعة، مما دعاه إلى السعي في قتله. (٢)

وفي عام ٥٣٨هـ/٤٣ - ١١٤٤م، عادت الأسعار في الارتفاع، وكان السبب في ذلك هو خروج محمد بن رافع اللواتي بالبحيرة على سلطة الخلافة؛ مما أدى إلى قتله بعد عدة مواقع دارت بينه، وبين والسي البحيرة طلائع بن رزيك، إلا أن الأسعار قد ارتفعت في ذلك الوقت. (٣) وفي خلافة الفائز بنصر الله، ووزارة الصالح طلائع بن رزيك عام ٥٥١هـ/١٠٥٦ - ١٠٥٧م حدثت مجاعة أخرى، وانهار على إثرها اقتصاد مصر، وارتفعت الأسعار، ولم يكن النيل سبباً في ذلك، إذا بلغت الزيادة (١٧) ذراعاً و(٨) أصابع، ولكن سياسة الاحتكار التي لجأ إليها للتجار في ظل الحكومة المنهارة، أدت إلى ذلك. (٤)

فقد كان التجار يقومون بشراء الحبوب، وهي بعد لا تزال محصولاً في الأرض عن طريق تمديد ثمنها أو جزء منها مقدماً للفلاح حتى يتملى له شراء البذور، ودفع الضرائب المقررة عليه، ويقوم هؤلاء التجار بتخزين الغلال حتى إذا ما ارتفعت الأسعار قاموا ببيعها. (٥) ولاسيما أن إنتاج مصر من الحبوب في حالة وفاء النيل كان يكفيها لمدة عامين. (٦) وكان التجار يقومون بتخزين تلك الغلال بمجرد سماعهم بخبر بخير توقف النيل عن الزيادة توهما بحدوث المجاعة، وطلباً في مزيد من

(١) أحمد الصاوي : المرجع السابق، ص. ٧٠.

(٢) المقرئزي : الخطط، ج ١، ص. ٣٥٧.

(٣) ابن ميسر : أخبار مصر، ج ٢، ص. ٨٦.

(٤) المقرئزي : إغاثة الأمة، ص. ٢٧ - ٢٨.

(٥) المقرئزي : إغاثة الأمة، ص. ١٩ - ٢٠ لعمد الصاوي : مجاعات مصر، ص. ١٥٤.

(٦) البغدادي : الإفادة والاعتبار، ص. ٤٤؛ المقرئزي : الخطط، ج ١، ص. ٥٩.

الكسب^(١)؛ لذلك كان الفاطميون يواجهون ذلك، إما بمحاولة إخفاء أسرار انقيضان عن طريق المناداة بزيادته كما فعل المعز لدين الله، أو عن طريق التهديد بعقاب من يقوم بتخزين الغلال كما فعل الحاكم بأمر الله، وعلى الرغم من هذه الإجراءات فإن ذلك لم يحل دون قيام الناس بخزن الحبوب؛ مما أدى إلى ارتفاع أسعارها وقت الحاجة.^(٢)

وإن كانت هذه السياسة قد وضعت حدًا - ولو مؤقتًا - لاحتكار التجار، فإن الدولة نفسها قد نجأت إلى تلك السياسة، على الرغم من أن الرسول (ﷺ) قد نبه عن ذلك حيث قل: "لا يحتكر إلا مضطئ"^(٣)، فقد كان الخلفاء يماهمون بأموالهم في التجارة، ولا شك أن تلك التجارة كانت من أكثر الأشياء المريحة.^(٤) فقد أقاموا المتجر الذي أصبح منذ وزارة اليازوري، وحتى نهاية الدولة الفاطمية، وسيلة مباشرة من وسائل الاحتكار، هذا الأمر الذي أضر ولا شك بأحوال الناس، وأثر على وجود السلع، وكذلك سعرها.^(٥)

لم يقتصر الأمر على الخلفاء فحسب، بل وصل إلى الوزراء الذين سيطروا على مقاليد الأمور، وساروا على نهج الخلفاء، فعلموا التجار من الاحتكار، وقاموا هم به، فمع وزارة الأفضل بن بدر الجمالي ٤٩٨هـ - ٥١٥هـ / ١٠٩٤ - ١١٢٦م وجد في مخازنه بعد وفاته، وتحسبت يد عماله، والجبابة، وضممان النواحي أصنافاً من الغلال، والحبوب.^(٦) ويرجع أن يكون ذلك سبباً من أسباب المجاعة في مصر في ذلك الوقت، ولا سيما أن المقرئ لم يذكر أن تلك المجاعة كانت بسبب قصور النيل.^(٧)

(١) راشد البرلوي: حالة مصر الاقتصادية، ص ٨١.

(٢) راشد البرلوي: المرجع السابق؛ أحمد الصلوي: المرجع السابق، ص ١٥٥.

(٣) ابن تيمية: القصة ومستقرية الحكم، ص ٥٢.

(٤) نازيمان عبد الكريم: مصر الإسلامية، ص ١٧٣.

(٥) المقرئ: الخطط، ج ١، ص ١٠٩؛ إشاعة الأمة، ص ٤٢٠. تعالط الحنفا، ج ٢، ص ٢٢٥.

(٦) ابن ميسر: أخبار مصر، ص ٨٢؛ نازيمان عبد الكريم: للمرجع السابق، ص ١٧٣.

(٧) المقرئ: الخطط، ج ١، ص ١٠٩؛ تعالط الحنفا، ج ٣، ص ٢٢٥.

وكنك احتكر الصالح طلائع بن رزيك أثناء وزارته ٥٤٩ - ٥٥٦ هـ / ١١٥٤ - ١١٦١ م الغلال مما كان سبباً مباشراً في ارتفاع الأسعار في زمن الخليفة الفاتح ٥٤٩ - ٥٥٥ هـ / ١١٥٤ - ١١٦١ م، ومع قصور مياه النيل، أخرج هذا الوزير ما بالأهراء من غلال، وكانت لا تحصى وفرقها على الطحانيين. ^(١) وربما كانت تلك السياسة التي اتبعتها طلائع بن رزيك هي التي أدت إلى ارتفاع الأسعار في عام ٥٥٥ هـ / ١١٦٠ م في خلافة العاضد لدين الله آخر للخلفاء الفاطميين إبان فترات الاحتكار، وقلة تداول المحصول. ^(٢)

كان طبيعياً أن تتضح سيادة الدولة الاحتكارية في مجالات أخرى بشكل أوسع. فقد مارمت الدولة الفاطمية سياسة احتكارية خالصة لبعض الصناعات، والسلع، والموارد التي تمثل أهمية اقتصادية، سواء للتي تميزت بها مصر بإنتاجها، أو التي افتقرت إليها، وكانت عليها أحصر، فقد احتكرت بعض المواد مثل الشب والنظرون ^(٣)، وبعض السلع مثل الخشب، والحديد، والرصاص، وزيت الزيتون، وغيرها، فضلاً عن الصناعات السيادة المرتبطة بقوة الدولة، مثل صناعة السفن، والسلاح، والعملة. ^(٤)

كذلك كان هناك بعض الصناعات التي مارمت عليها سياسة شبه احتكارية، وذلك لخدمة مصالحهم العامة، وتلبية متطلباتهم المشمة باليدخ، فاحتكروا صناعة النسيج، وكذلك تجارته، ربما كان ذلك من أجل الدعاية لولدتهم حيث حملت تلك المصنوعات هويتهم الإسماعيلية، وكذلك كانت تلبى حاجة الذي اتسم بالمبالغة، والرفاهية. ^(٥) فكانت الدولة تحرم على

(١) المقريزي: إغاثة الأمة، ص ٢٧ - ٢٨.

(٢) المقريزي: اتماظ للظفا، ج ٢، ص ٢٤٤.

(٣) ابن المأمون: أخبار مصر، ص ٢٩٩؛ المقريزي: الخطط، ج ١، ص ٨٣.

(٤) ناريمان عبد الكريم: مصر الإسلامية، ص ١٧٤؛ راشد البراوي: حالة مصر الاقتصادية، ص ٣٤٩.

(٥) ناصر خسرو: سفرنامه، ص ٩٢؛ ناريمان عبد الكريم: المرجع السابق، ص ١٧٩.

النساجين أن ينتجوا شيئاً إلا بإشراف الدولة. (١) عن طريق ختم ما يتم نسجه بختم السلطان، والذي عرف بخاتم الشرب، والدييني. (٢)

كذلك أشرفت الدولة على صناعة السكر، لسد حاجات البلاط الفاطمي عن الأسمط المختلفة التي تستخدم فيها مقادير كبيرة من السكر، وكذلك الاحتقالات الجديدة التي ميزت البلاط الفاطمي.

ثمة نوع آخر من أنواع الاحتكار الذي فرضته الدولة الفاطمية، ألا وهو احتكار الصناعات الماهرة حيث كانت الدولة تجبر العمال المهرة على العمل في مصانع النسيج الحكومية خلال انمساكهم عن انجدهم، بانتهاء انحرافهم المهرة، وكانوا بذلك لا يستطيعون الخروج مطلقاً من القاهرة لسنوات عديدة، إلا من خلال أمر يصدره الخليفة يؤمنهم به، أو خلال انتماس (٣) برفع الخليفة يؤكد هذه الحقيقة، وهي التزام هؤلاء العمال للخدمة في المصالح الحكومية ضد رعيتهن، حتى إن أحدهم كتب يشكو بمرارة أنه غير قادر على المشاركة في الحياة الاجتماعية، والدينية مع إخوته. (٤)

هكذا اتبعت الدولة سياسة التسعير، وهي سياسة مخالفة للفقه الشيعي للحد من جشع التجار وارتفاع الأسعار، غير أن تلك السياسة لم تكن لتؤتي ثمارها المرجوة في جميع الأحوال، فإن كانت تلك السياسة قد نجحت في عهد الحاكم بأمر الله لشدة ورعب الناس منه، وسطوته. (٥) فإنها قد فشلت في عهد الظاهر لدين الله أثناء مجاعة ٤١٤ - ٤١٥ هـ / ١٠٢٣ - ١٠٢٤م، بسبب التواطئ بين رجال الدولة، والتجار، كذلك لم تنجح عام ٥٣٢ هـ / ١١٣٧م بسبب سعي رضوان بن ولخشي في تأليب ائريعية على الحاكم. (٦)

(١) المقدسي: أحسن التقسيم، ص ٢١٣.

(٢) المقرئزي: الخطط، ج ١، ص ١٤٤؛ ناريمان عبد الكريم، المرجع السابق، ص ١٢٦.

(٣) ناصر خسرو: سفرنامه، ص ١٢٣؛ المقرئزي: الخطط، ج ١، ص ٣٨٨.

(٤) ناريمان عبد الكريم: مصر الإسلامية، ص ١٧٥.

(٥) ابن إياس: بدائع الزهور، ج ١، ص ٥٥.

(٦) أحمد الصاري، مجاعات مصر، ص ١٥٦.

كذلك حاربت الدولة الاحتكار؛ لما في ذلك من مخالفة لتعاليم الدين، وظلم للرعية، وضربت بيد من حديد على التجار المحتكرين، إلا أن الدولة نفسها قد مارست تلك السياسة، كما فعل المستنصر بالله، والأفضل بن بدر الجمالي، وطلائع بن زريك، وغيرهم من الخلفاء، وكبار رجال الدولة. فلم تنفع تلك السياسة مع المحتكرين، ولا سيما في ظل انزاعات، والثورات، ومظاهر الفساد، والتي اجتاحت الدول الفاطمية، وكانت أن تقضي عليها بعد أن قضت على الكثير من شعبيها.

[٦] انخفاض قيمة العملة :

إن العالم يدرك أهمية العملة، وأصالتها، وصلاحتها؛ لأنها تظهر القوة الاقتصادية، والاجتماعية، والسياسية لأي دولة من الدول، وقد كان للسكة أو ضرب النقود أهمية خاصة كوسيلة لإظهار نفوذ الحاكم، ولذلك عدت السكة من أهم شارات الخلافة، والحكم في الدولة الإسلامية، فإذا ضربت النقود في الأقاليم الإسلامية بنام الحاكم المحلي كان اسمه يوضع مع اسم الخليفة؛ لبيان نفوذ ذلك الحاكم، وسيطرته مع بقاء ولائه للخليفة. وإذا ضرب أحد الحكام المسلمين نقوداً باسمه دون اسم الخليفة كان ذلك دلالة على استقلاله في الحكم وعدم اعترافه بسيادة الخليفة. (١)

استعمل المسلمون في عهد الرسول (ﷺ)، والخلفاء الراشدين، وأوائل للعصر الأموي النقود البيزنطية والساسانية التي كانت سائدة قبيل الإسلام، وهي الدينار البيزنطي، وهي عملة ذهبية (وكلمة دينار مشتقة من اللغة اليونانية)، والدرهم الساساني، وهو عملة فضوية. وفي خلافة عبد الملك بن مروان عندما بدأ تعريب الدواوين بدأ كذلك تعريب العملة. وقد بدأ يضرب هذا النمط من الدنانير ابتداءً من عام ٧٤هـ/٦٩٣م وبعد ذلك بسنوات ضربت النقود دون أن يظهر عليها صورة الخليفة، بل نقشت عليها عبارات مثل للشهادتين، وآية قرآنية. (٢)

(١) د. إبراهيم سليمان الكردي، د. عبد للتواب شرف الدين : الحضارة العربية الإسلامية، منشورات ذات الملام، الكويت، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م، ص ١٣٤.
(٢) نفسه، ص ١٣١ - ١٣٢.

Stephen, F. Mason, A History of the Sciences, New York, 1973, p. 15 - 17.

وفي العصر العباسي أوجد هارون الرشيد (١٧٠ - ١٩٣هـ) منصبًا جديدًا للإشراف على سك النقود، وهو ناظر السكة، وعندما ضعف نفوذ الخلفاء العباسيين، وقامت عدة دويلات إسلامية في الأقاليم، أُقيمت مراكز جديدة لسك النقود، وزادت دور الضرب.^(١)

وقد عرف المسلمون ثلاثة أنواع من العملة : العملة الذهبية، ووحدها الدينار، والعملة الفضية، ووحدها الدرهم، والعملة النحاسية، ووحدها الفلس، وكان شكل الدينار الإسلامي، وحجمه لا يختلف كثيرًا من فترة لأخرى في سائر أنحاء العالم الإسلامي سواء في دولة العباسيين، أو في الأندلس. أو في الدولة الفاطمية، وكان النقش عندة يحمل عبارة "لا إله إلا الله محمد رسول الله" وآية قرآنية تتكون عادة من سورة "الإخلاص" ويحوي النقش مكان وتاريخ الضرب، واسم الخليفة.^(٢)

وظلت السكة^(٣) المستخدمة في مصر طوال عصر الولاة هي نفسها المتداولة في أرجاء العالم الإسلامي^(٤)، باستثناء الفترة القصيرة التي كانت فيها مصر ولاية شبه مستقلة في عهد الطولونيين والإخشيديين، حيث ظهرت دنائير تحمل اسم ولاتها، فظهر الدينار الأحمدي نسبة إلى أحمد بن طولون، والذي عرف بالجودة، والنقاء.^(٥)

(١) محمد الصديق عفيفي : تطور الفكر العلمي عند المسلمين، مكتبة الخانجي،

القاهرة، ١٩٧٧، ص ٥٤. Stephen : op. cit., p. 25.

(٢) الدوميني : العلم عند العرب وفكره في تطور العلم العالمي، ترجمة : عبد الحليم النجار، ومحمد يوسف موسى، دار القلم، القاهرة، ١٩٦٢، ص ١١٤.

(٣) السكة : كلمة تدل على خاتم الحديد الذي تطبع عليه العملة، أو ضرب عليه بالمطرقة، ولذلك كان يطلق عليها العملة للمضروبة، كذلك سمي المكان الذي تصنع فيه "دائر السكة" أو "دار الضرب"، وكل مسمار عند العرب سكة، كان الدينار يسك من الذهب، أما الدرهم فكان يسك من الفضة، أما النحاس فقط أطلق عليه لفظة قلوب.

رابع : الماوردي : الأحكام السلطانية، ص ٤٩٩ البلاخري : فتوح البلدان، ص ٥٢٥، ابن خلدون : المقدمة، ج ٢، ص ٤٨٤؛ المقرئزي : (غاية الأمانة، ص ٦٠، ٦١؛ الخطيب، ج ١، ص ٤٠٤؛ عبد المنعم ماجد : نظم القباطيين ورسومهم، ج ١، ص ١٢٧.

(٤) سيدة إسماعيل كاشف : مصر في فجر الإسلام، ص ٤٨.

(٥) ناصر خسرو : سفرنامه، ص ٨٢؛ المقرئزي : الخطيب، ج ١، ص ٤٢؛ استمان

ماري الكرملني [الأب لستمان ماري] : النقود العربية وعلم النميات، =

وكان الذهب هو قاعدة النقد Etalon Monetaire في مصر، قبل
الفتح العربي، وكانت مصر تسير على نظام انمعدن الفردي
(^١). Monometallisme

فقد ذكر المقرئزي أن نقد مصر كان دوماً الذهب (^٢)، وكان دخول
الفاطميين إلى مصر تأكيداً لمسيادة النقد الذهبي فيها. (^٣)

فقد أفاد الفاطميون من سيطرتهم على طرق الذهب التي من بلاد
السودان الغربي، أثناء سيطرتهم على بلاد المغرب (^٤)، كذلك سيطروا على
كل الطرق التجارية المؤدية إلى غانا التي كانوا يجلبون منها للذهب، بعد
قضائهم على إمارة تاهرت (^٥)، واحتلالهم سلجمانية. (^٦) فحصلوا على
رصيد ذهبي ضخم أعانهم على أعمال الدعوة في مصر، ثم غزوها. (^٧)
وإن كان الفاطميون قد فقدوا هذا المصدر المهم للذهب بعد انتقالهم
إلى مصر، فإنهم قد استعاضوا عنه بما كانوا يحصلون عليه من منجم

- المطبعة المصرية، القاهرة، ١٩٣٩م، ص٥٤؛ عبد المنعم ماجد : المرجع
السابق، ص١٢٥.

(١) أحمد الصاوي : مجاعات مصر، ص١٨٢.

(٢) المقرئزي : إغاثة الأمة، ص٦٤.

(٣) أحمد الصاوي : المرجع السابق، ص١٨٢.

(٤) ناصر خسرو : المصدر السابق، ص٦٩؛ عبد المنعم ماجد : ظهور الخلافة
الفاطمية، ص٢٤٨؛ أحمد الصاوي : المرجع السابق، ص١٩٣.

(٥) تاهرت : بفتح الهاء وسكون الراء، وتاء فوقها نقطتان، اسم لمدينتين متقابلتين
بأقصى المغرب، يقال لأحدهما تاهرت القديمة، وللأخرى تاهرت المحدثه، وهي
على بعد خمسة أميال من تاهرت القديمة وهي في الإقليم الرابع، عرضها ثمان
وثلاثون درجة، وهي بين تلمسان وقلعة بني حماد، وتعرف تاهرت القديمة
بتاهرت 'عبد الخلق' كما كانت تسمى عراق المغرب، لم تكن في طاعة صندب
إفريقية، ولا دخلت في سلطان بني الأغلب، وهي مئينة مصورة لها أربعة أبواب
(باب الصفا، وباب المنازن، وباب الأكندس، وباب العطاحن).

للمزيد راجع : ياقوت الحموي : معجم البلدان، ج ١، ص٣٩٧؛ القزويني
لذكر بن حمد بن جمود : آثار لبلاد وأخبار العباد، طبعة مصر، ١٨٤٨م،
ص٦٦ - ٦٧.

(٦) أيمن فولد سيد : لدونة الفاطمية، ص٥١٥.

(٧) أحمد الصاوي : مجاعات مصر، ص١٨٢.

وادي العلابي في جنوب مصر^(١)، وكذلك ما كانوا يستخرجونه من مقابر
 نفرعنة؛ حيث كان رجال الخليفة يشرفون بأنفسهم على عملية استخراج
 الذهب من هناك. ^(٢) كذلك تمكنوا من مناجم الشام بعد فتحهم لها، فضلاً
 عن المكوس التي قاموا بتحصينها، والتي أقلت كاهل الناس، سواء أهل
 البلاد، أو من أتوادين عليها في طريق الحج، وأتجاره، إضافة إلى ما
 جمه الفاطميون معهم من بلاد المغرب، فتروي المصادر التاريخية أن
 المعز لدين الله لما خرج من المغرب قاصداً مصر كان معه خمسمائة
 جمل محملة بالذهب، الذي جمعه الفاطميون طوال الستين عاماً التي
 أمضوها هناك، فقد أمر المعز بسبكه على هيئة أرحية الطواحين^(٣)، فسبك
 من الذهب ثمانمائة رجا، فكل ذلك قد وفر لهم حصيلة من الذهب وقاعدة
 نقدية لا يستهان بها. ^(٤)

عندما دخل الفاطميون مصر وعدوا فيما وعدوا بتجويد السكة،
 وصرها على المعيار المعمول به في خلافتهم بالمغرب، ومنع الغش
 فيها، هذا الأمر الذي يدل على سوء الأحوال الاقتصادية في مصر في
 نهاية العصر الإخشيدي^(٥)، وكانت العملة السارية عند مجيئهم، هي الدينار
 الراضي نسبة إلى الخليفة الراضي العباسي، والسدرهم الرباعي^(٦)،
 المضروب في عهد العأمون العباسي، والدينار الأبيض، أي النقي الذي

(١) الإدريسي [أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن إدريس الشيرازي] : نزعة المشتاق في
 اختراق الأفاق، ج ١، مكتبة الثقافة الدينية، بدون تاريخ، ص ٣٢.

(٢) المقرئزي : الخطط، ج ١، ص ١٩٧.

(٣) نفسه، ص ٤٣٢؛ أيمن فؤاد سيد : للمرجع السابق، ص ٥٠٥؛ أحمد الصاوي :
 المرجع السابق، ص ١٨٢.

(٤) ناريمان عبد الكريم : مصر الإسلامية، ص ١٦٦؛ رشيد الراوي : حالة مصر
 الاقتصادية، ص ٢٧.

(٥) عطية مصطفى مشرفة : نظم الحكم، ص ٣٩٥؛ سيد إسماعيل كشف : مصر
 في عهد الإخشيديين، ص ٥٥؛ ناريمان عبد الكريم : المرجع السابق، ص ١٦٦.

(٦) المغنسي : أحسن التعليل، ص ٢٤٠؛ المقرئزي : التعليل، ص ٢٤٠، ج ٢،
 ص ١٠٠.

سك في عهد الأمريين، وبقي حتى مجيء الفاطميين^(١)، ولم يلجأ الفاطميون في أول الأمر إلى منع العملة السنية، حتى لا يحدثوا اضطراباً في التعامل أو خسائر فاحشة لمن يملكونها. وتكهن منعوا العملة ذات الفئة الصغيرة مثل المنقال، والقطع^(٢)، التي لم تعد لها قيمة بسبب ارتفاع الأسعار.^(٣)

وقد كانت كل الأسباب والسبل متوفرة لدى الفاطميين لإيجاد اقتصاد قوي، ولتحسين العملة المتداولة آنذاك، ولاسيما معدن الذهب كان قد عرف طريقه إلى الفواطم وسبل الحصول عليه كانت متاحة لديهم. إذن نخرج مما سبق بأن الإصلاح النقدي كان على بُعد خطوة من الفواطم نرى أحسنوا استغلال ما لديهم، وابتعدوا عن مظاهر الفساد، ووفوا بعهودهم التي قطعوها على أنفسهم عند مجيئهم إلى مصر.

ولما كان إصدار عملة جديدة يدل على سيادة الدولة، فحين الفاطميين عملوا على إصدار عملة خاصة بهم، تحمل بالضرورة عقيدتهم الشيعية، وأسماء خلفائهم، وألقابهم^(٤)، وأراد جواهر أن يفتح هذا العهد فقام بضرب الدينار المعزي عام ٣٥٨هـ/١٩٦٩م^(٥)، كما عمل عدة إجراءات من شأنها محاربة العملة العباسية، فقام بتثبيت قيمة الدينار المعزي إلى خمسة وعشرين درهماً، بينما ثبتت قيمة الدينار الراضي عند خمسة عشر درهماً، والدينار الأبيض إلى ستة دراهم، كما رفع المعاملة بالدينار المتقية التي ترجع إلى عصر المتقي العباسي^(٦)، وهذا التحديد لقيمة كل عملة تسبب في ضرر للتصيرفة، لما كان لديهم من هذه الدينارين، فقاموا

(١) انستاس ماري : النقود العربية، ص ٤٢ - ٤٣.

(٢) المقدسي : أصن للتقسيم، ص ٢٠٤؛ عبد المنعم ماجد : نظم الفاطميين ورسومهم، ج ١، ص ٦٢٧.

(٣) عبد المنعم ماجد : ظهور الخلافة الفاطمية، ص ٢٤٩؛ نظم الفاطميين ورسومهم، ج ١، ص ٢٢٧.

(٤) عبد المنعم ماجد : ظهور الخلافة الفاطمية، ص ٢٤٩.

(٥) المقرئزي : لتعاط الحنفاء، ج ٩، ص ١١٥ - ١١٦.

(٦) انستاس ماري : النقود العربية، ص ٥٨؛ ناريمان عبد الكريم : المرجع السابق، ص ١٦٢.

بثورة، إلا أن جوهز قد حدد بهم مكانهم فخلصوا للأمر الواقع^(١)، وكان أغلبهم من اليهود.^(٢)

ولما قدم المعز من بلاد المغرب ٣٦٢ هـ عهد إلى ابن كلثوم، وعلوج بن الحسن بالإشراف على الخراج، فامتنع الوزيران عن أخذ الخراج إلا بالدينار المعزي، مما كان له أثر في انحطاط قيمة أسدينار الراضي بمقدار الربع^(٣)، وإن كان الدينار الراضي أكثر وزناً، وأشد ثقلًا^(٤)، كذلك تشدد بيت المال في ضرورة التعامل، ودفع الضرائب بالدينار المصري، فاتبع الناس الدينار الراضي بأقل من قيمته فربحت الحكومة، وسادت العملة الفاطمية^(٥) في جميع أنحاء مصر، والإمبراطورية. وكانت تلك في جميع دور السكة على طول البلاد، وعرضها.^(٦)

وكانت دار الضرب بفتح الإسكندرية يرد إليها الذهب الرومي مع اختلاف أصنافه من الدنانير، وغيرها، والسباك، والدنانير الطرابلسية، والرباعية، والمهديوية، والصقلية القديمة، والدنانير المرابطية، والمكسرة، والمصاغ، فيعقد عليها في الأتون، وتصير ذهبًا نقيًا، أو فضة ماء واحد، وتصبك سبيكة واحدة، أو تقلب قضبانًا، ويكون المعيار بالميزان، ثم تختتم بسكك السكة.^(٧)

(١) المقرئبي : تعاقب الحفنا، ج ١، ص ١٣٢٧ حسن إبراهيم حسن : الفاطميون في مصر، ص ١٨٦.

(٢) ناريمان عبد الكريم : معاملة غير المسلمين في الدولة الإسلامية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٦ م، ص ١٤٦؛ عبد المنعم ماجد : نظم الفاطميون ورسومهم، ج ١، ص ١٣٠ حسن إبراهيم حسن : المرجع السابق، ص ١٨٦.

(٣) المقرئبي : الخطوط، ج ٢، ص ٦٧؛ فستلس ماري : للنقود العربية، ص ٥٨.

(٤) فستلس ماري : المرجع السابق، ص ٨٥؛ راشد البراوي : حالة مصر الاقتصادية، ص ٣٠٣.

(٥) راشد البراوي : المرجع السابق، ص ٣٠؛ عبد المنعم ماجد : ظهور الخلافة الفاطمية، ص ٢٥.

(٦) المخزومي : للمناهج في علم خراج مصر، ص ٣١؛ عبد المنعم ماجد : المرجع السابق، ص ٢٥٠؛ أحمد الصاوي : مجاهدات مصر، ص ١٩٦، ١٩٧.

(٧) المخزومي : المصدر السابق، ص ٣٠ - ٣١.

كانت كمية الذهب التي أتى بها الفاطميون من بلاد المغرب، بالإضافة إلى ما قد حصلوا عليه من مصاندة في مصر كفيلاً بأن يعطي إحياءً قوياً بأن التعامل النقدي في مصر سيظل يعتمد على قاعدة النقد الواحد، التي كان الذهب ركنها الركين قبل الفتح كما تم ذكره، إلا أن رياح الأحداث في مصر قد جاءت بما لا تشتهي السفن، إذ سرعان ما تخلت البلاد عن قاعدة المعدن الواحد، وأصبح التعامل يتم على أساس معدني الذهب، والفضة معاً نظام المعدنين "Bimetallic System"^(١).

وأخذت الأمور تسير من سيئ إلى أسوأ، وأخذ معدن الذهب في التراجع أمام معدن الفضة الذي أصبح مصرحاً به من قبل الدولة للتعامل النقدي، ثم أصبحت الدراهم الفضية هي نقد مصر والقاهرة والإسكندرية، حتى إن أهلها كانوا لا يتعاملون إلا بها^(٢)، وفي أواخر عهد الدولة الفاطمية انخفضت قيمة العملة، وقلت جودتها، وظهرت عملة جديدة عرفت بالدراهم للسود التي احتوت على قليل من الفضة ومعظمها من النحاس، ولصبحت تلك الدراهم هي السائدة في التعامل النقدي. أما الذهب فقد انتهى ذكره تقريباً مع انتهاء الدولة الفاطمية.^(٣)

وتعد لجأ الحكام إلى تخفيض قيمة العملة، وقد فعل بعض الخلفاء الفاطميين ذلك أحياناً، بإصدار عملة يقل وزن المعدن فيها عن العيار العادي^(٤)، حيث كانت مقايير العملة يتم حسب رأي الإمام، وتصرف بالضرورة على عيار الدينار، والدراهم الرسمي، وكانت العملة توزن ولا تعد، فكانت قيمة الدينار إلى درهم تتراوح بين ١ : ١٥.٥ و ١ : ٣٦، غير أن كثرة العملة في المعاملة، أو تأكلها، أو تداخل انغش فيها، قد أحدث تنديباً في قيمتها؛ مما أضرب بالناس، ولا سيما في ظل صعوبة

(١) أحمد الصاوي : المصدر السابق، ص ١٨٩؛ راشد البراوي : المرجع السابق، ص ٣٠٤.

(٢) المقرئبي : (غاية الأمة، ص ٦٥ - ٦٦؛ راشد البراوي : المرجع السابق، ص ٣٠٨.

(٣) استمان ماري : النقود العربية، ص ٥٩؛ راشد البراوي : حالة مصر الاقتصادية، ص ٣٠٧.

(٤) راشد البراوي : المرجع السابق، ص ٣٠٦.

التعيز - أحياناً - بين العملة الخالصة والعملة المغشوشة، وكانت الدولة تلجأ في بعض الأوقات إلى منع لعملة الرديئة في المعاملة. (١)

وقد ظهرت الدراهم الفضية مع سلسلة المجاعات التي تخلت عهد الحاكم بأمر الله الفاطمي، عندما اضطربت أمور الناس، وارتفعت أسعار السلع الغذائية، وانخفضت القيمة الشرائية للنقود، فلجأ التجار إلى اختزان كمية كبيرة من النقود الذهبية (الدينانير)؛ خوفاً من خسارته، وطمعاً في الاستفادة من ارتفاع قيمتها بعد انتهاء للمجاعات، وكذلك ما قد جناه هؤلاء التجار من النقد الذهبي الذي كان أصحابه يضطرون للتخلي عنه من أجل شراء الطعام الذي احتكره هؤلاء التجار. (٢)

لقد أدرك الحاكم بأمر الله ظاهرة اكتناز الذهب الذي لُقب عليه التجار، وغيرهم من المحتكرين، فأمر بسك معدن جديد لمواجهة هذه الأزمة، فظهرت الدراهم الفضية بجانب الدينانير الذهبية (٣)، وبظهور العملة الفضية الجديدة، ظهرت أزمة نقدية كانت الأولى من نوعها في تاريخ مصر، حيث ارتفع سعر الدينار بالنسبة لسعر الدراهم الجديدة، فبلغ ستة وعشرين درهماً بدينار، هذا الأمر الذي أدى إلى تزايد الإقبال على الذهب، ومع امتداد المجاعة، وارتفاع الأسعار انخفضت قيمة تلك الدراهم حتى وصلت إلى أربعة وثلاثين درهماً بدينار، هذا الأمر الذي يؤكد وجود شيء قد حدث في تلك الدراهم سواء في الوزن أو العيار، فاضطربت أمور الناس، وزاد الأمر سوءاً. (٤)

(١) عبد المنعم ملحد : نظم الفاطميين ورسومهم، ج ١، ص ١١٢٩ أحمد الصاوي :

مجاعات مصر، ص ١٨٣.

(٢) أحمد الصاوي : المرجع السابق، ص ١٨٤، ١٨٥، رashed البيراوي : المرجع السابق، ص ٣٠٥.

(٣) راشد البرلوي : المرجع السابق، ص ٣٠٥.

(٤) للذهبي لكامل [منصور] : كشف الأسرار العلمية بدار الضرب المصيرية، مخطوط محفوظ بدار المخطوطات، جامعة لملك سعود، تحت رقم ٣٢٢.٤، ١٢، ٢٥، ص ٤، ٥، المقرئزي : فتاوى الحنفاء، ج ٢، ص ٥٨، السناس ماري : النقود العربية، ص ١٥٩ أحمد الصاوي : مجاعات مصر، ص ١٨٢، راشد البرلوي : حالة مصر الاقتصادية، ص ٣٠٥.

فاضطرت الحكومة للتدخل لحماية نقدها، ولاجتياز تلك الأزمة، وأمر الحاكم بأمر الله ضرورة تحسين وضع الدراهم الرديئة حتى لا تطرد الدنانير من التعامل النهائي، فأمر بسحب الدراهم القديمة من التعامل، وأزل عشرين صندوقاً من بيت المال تحتوي على دراهم جديد فغرقت على الصيارف. كما قرئ سجل يمنع التعامل بالدراهم الأولى، وترك من يده شيء منها مهلة ثلاثة أيام ليورده إلى دار الضرب، فاضطر من في يده شيء إلى التخلص منها، وقد أدى هذا الإجراء إلى انخفاض سعر الدراهم القديمة بالنسبة للجديدة، فبلغت أربعة دراهم قديمة بدرهم جديد. كما قرر الحاكم بأمر الله أمر تلك الدراهم الجديدة ١٨ درهماً بدينار. (١)

لم يستمر الأمر طويلاً، ففي عهد المستنصر بالله، وتحديداً في عام ٤٤١هـ/١٠٤٦م، انخفضت قيمة تلك الدراهم جنّاء فتسببت في خسارة كبيرة للناس، فقد بلغ ٣٥ درهماً بدينار واحد ولم يفسر المؤرخون سبب الانخفاض المفاجئ في قيمة تلك الدراهم، وأغلب الظن أن سوء الأحوال السياسية وكثرة الحروب التي كانت في عهد المستنصر قد أدت إلى ظهور دراهم معشوشة - ذات عيار سيئ - مما أدى إلى انخفاض قيمتها، وعلى الرغم من ذلك، فقد لاقت هذه الدراهم قبولاً في ظل استمرار المجاعة، وزيادة نهم التجار في اكتناز الذهب، فارتفع سعر الدراهم المستنصرية الضعيفة ليصل إلى ١٦ درهماً بدينار. (٢)

أما في عصر الخليفة الأمر بأحكام الله، فقد ضربت عملة جديدة عرفت بالفضة للسوداء، المشهورة بالعملة الأمرية، وكانت تلك العملة ضعيفة للعيار، حيث كان معظمها من النحاس، ولا يحتوي إلا على النيسر اليسير من الفضة، وقد ظلت هذه العملة هي للعملة المتعامل بها حتى استولت دولة بني أيوب على مملكتي مصر، والشام. (٣)

(١) المقرئوي: شذور العقود في نكر النقود، دراسة وتحقيق: محمد عبد المستنار عثمانوي، للقاهرة، ١٩٩٠م، ص ٢٧ - ٢٨، راشد البرهوي: للمرجع السابق، ص ٣٠٥؛ أحمد الصاوي: للمرجع السابق، ص ١٨٧.

(٢) الذهبي للكامل: كشف الأسرار العظيمة بدار الضرب المصرية، ص ٤٤؛ أحمد الصاوي: للمرجع السابق، ص ١٨٩.

(٣) أحمد الصاوي: للمرجع السابق، ص ١٩٠.

لم يكن إقبال التجار على الذهب، واكتنازه فقط هو الأمر الذي أدى إلى اختفاء الذهب وظهور معدن جديد أقل قيمة، ولكن هناك العديد من الأسباب السياسية والاجتماعية التي اتبعتها الدولة الفاطمية فكان لها من الأثر الذي أدى إلى عجز الدولة على الحفاظ على الذهب كعملة للتعامل النقدي للواحد، واختفاء معدن الذهب، وظهور المعادن الأخرى، التي نالها هي الأخرى للتدهور، والانخفاض.

وقد أدت مظاهر الترف، والبيخ التي كانت سمة من سمات المجتمع الفاطمي إلى إقبال الكثير من الناس على اختلاف طبقاتهم، على امتلاك الحلي، ومئات المصنوعات الذهبية، كما لمستخدم هذا المعدن النفيس في الأغراض المختلفة، فتدخل في صناعة النسيج،^(١) حيث زاد إقبال إيفاق الدولة على الملابس، والكموات، وخيوط الذهب التي كانت تطلّى بها هذه المنسوجات، حتى وصلت إلى ٤٣ ألف دينار في خلافة الأمر بأحكام الله.^(٢) كذلك ما أنفقته الدولة على الأسلحة المذهبة والمروج، وغير ذلك الكثير.^(٣)

كذلك كان ظهور الوزراء العظام، والعسكريين كقوة حاكمة في البلاد، واتساع عددهم، وحواشبهم عند الخليفة، وآل بيته، واتجاه هؤلاء إلى زيادة ثرواتهم بطرق شتى، سعياً وراء توطيد نفوذهم، أدى إلى قلة وجود الذهب، حيث كان هؤلاء للوزراء يقومون باكتنازه، هذا ما تكشف عن ثروات وتركبات هؤلاء للوزراء، وأملاكهم من الذهب، والفضة بعد موتهم.^(٤)

(١) ابن مأمون : أخبار مصر، ص ٣٨؛ راشد البرلوي : حلة مصر الاقتصادية، ص ٣٠٧.

(٢) عبد المنعم ماجد : ظهور الخلافة الفاطمية، ص ٤٠.

(٣) راشد البرلوي : المرجع السابق، ص ٣٠٧.

(٤) أحمد الصاوي : مجامع مصر، ص ١٨٥.

فقد خلف الأفضل بن بدر الجمالي ستة ملايين دينار - ذهب - عينا، وخمسين ومائتين أربعمائة دراهم من نقد مصر، واستغرق نقل تركته أربعين يوماً، ووجد بها أيضاً ثلاثين راحة ذهباً ومائة مسمار ذهب، كل مسمار مائة مثقال، وقناديل مذهبة، هذا فضلاً عما تركه من أواسي للذهب، والفضة التي كان من بينها سبعمائة طبق ما بين ذهب وفضة، وصندوقان كبيران فيهما إبر ذهب يرسم النساء ودواة ذهب فيها جواهر باثني عشر ألف دينار. (١) كما وجد للمأمون البطائحي وزير الأمر بأحكام الله عندما قبض عليه عام ٥١٩ هـ / مبعون مرسجاً ذهب مرصع، كما وجد لأخيه المؤمن سرج محلي بالذهب. (٢)

كذلك ما ابتدعه الدولة الفاطمية من سك نقود ذهبية ذات أحجام مختلفة يرسم بعض الأعياد، عرفت بالنقود التذكارية، فضلاً عما عرف بالخرايب (٣)، فكان من جملة رسوم الدولة الفاطمية في خميس العدى، ضرب خمسمائة دينار ذهباً وعشرة آلاف خروبة. زيدت في عهد المأمون البطائحي إلى ألف دينار ذهب و٢٠.٠٠٠ خروبة، وكانت هذه النقود تخرج من دائرة التعامل النقدي، لتضاف إلى ما قد تم اكتنازه من الذهب. (٤)

فيذكر أن الأفضل بن بدر الجمالي كان يحمل من جملة ٥٠٠ دينار من تلك النقود إلى الخليفة مائتي دينار ويحتفظ هو بالباقي. (٥) كذلك ما عرف بنداير الخرة، وهي نداير ذهبية مدور (٦)، كانت تضرب في العشرة الأخيرة من ذي الحجة، بتاريخ السنة التي ركب بها الخليفة، كان يذهب جزء منها للوزير، وأولاده، وإخوانه، وكانت تلك

(١) نفسه.

(2) Stephen : op. cit., p. 25.

(٣) الخرايب : وهي دراهم خلف مدورة، تساوي ثلث العلة العادية. راجع : عبد المنعم ماجد : نظم الفاطميين ورسومهم، ج ١، ص ١٢٨، ١٢٩.

(٤) أحمد الصاوي : مجامع مصر، ص ١٩٥.

(٥) للمقريزي : الخطط، ج ١، ص ٤٥٠، أحمد الصاوي : المرجع السابق، ص ١٩٥.

(٦) عبد المنعم ماجد : المرجع السابق، ص ١٢٩.

الدنانير التي يتم الإنعام بها تصل في أول العام إلى ثلاثة آلاف دينار^(١)، كان الوزير يحصل من نقود العزّة على ستين وثلاثمائة دينار وستين وثلاثمائة فيراط وإلى أولاده وإخوته من كل نوع خمسين. وقد أدى سوء الأحوال الاقتصادية إلى تخلي الدولة عن ضرب تلك الدنانير في بداية حكم الحافظ لدين الله؛ حيث لم تضرب إلا سنة واحدة، ثم نسي ذكرهما حتى نهاية الدولة.^(٢)

وقد أدى ضعف الدولة في نهاية عهدها، وتصارع الوزراء فيما بينهم، واستعانتهم بقوى خارجية، إلى ضعف مركز الدولة للمالي، فقد لجأ كل من المتصارعين إلى عرض أموال الدولة وذهبها على من يضمن له البقاء، فكان ما دفعه الوزير شاور للملك عموري، ملك بيت المقدس مقابل مساعدته ضد نور الدين محمود، ساعد على إخراج بعض الذهب من البلاد.^(٣)

وعندما بدأت الدولة في الحجز عن حماية ممتلكاتها، التي أخذت في السقوط تباعاً، سواء في أيدي الصليبيين، أو للسلاجقة، كانت تنقد مع تلك الأجزاء، الكثير من ذهبها، المتداول في تلك الممتلكات، سواء ما استولى عليه الأعداء، أو ما قام السكان بالاحتفاظ به.^(٤)

وإزداد الأمر سوءاً عندما بدأ الصليبيون الذين استولوا على المدن الشامية، بتقليد النقود الفاطمية، وذلك لتسهيل المعاملات التجارية بينهم وبين العرب، ولتنشيط أقدامهم في الأراضي المقدسة، وكذلك لدفع فدية الأسرى، حيث كان الإفراج عن الأسرى الصليبيين، لا يتم إلا بدفع مبالغ ضخمة من تلك النقود الذهبية، فكانت هذه النقود هي أساس التعامل بين الصليبيين والعرب في مجالات الحياة اليومية.^(٥)

(١) المقرئزي : الخطط، ج١، ص٤٥٠.

(٢) أحمد لصاري : المرجع السابق، ص١٩٥.

(٣) راشد البرلوي : حالة مصر الاقتصادية، ص٣٠٨.

(٤) ابن المأمون : أخبار مصر، ص١٣٨ ابن ميسر : تاريخ مصر، ص١٩٢ المقرئزي : تماثيل الحنفا، ج٣، ص٩٣ أحمد للصاري : مجاعات مصر، ص١٩٩.

(٥) رافقت محمد البراوي : النقود للصليبية في مصر والشام، ط١، دار نهضة الشرق، القاهرة، ١٩٩٦م، ص٢٥، ٢٦.

وقد عرفت هذه النقود المقلدة 'بالدينار الصوري' للذي بلغ وزنه حوالي ثلثي وزن الدينار الفاطمي الأصلي، وقد أدى ظهور هذه الديناريين إلى عدم ثقة الناس بالدينار المصرية. (١) وظهور ظاهرة الاكتناز للجيد منها بشكل أكبر مما كانت عليه.

هكذا كانت مظاهر الفساد المختلفة التي عصت الدولة الفاطمية، سبباً من أسباب عجز الدولة عن الاحتفاظ بالذهب كعملة نقد واحدة كما كانت من قبل، كما ساعدت على اختفائه تدريجياً، ولكن على الرغم من اختفاء الدينار الذهبية فإنها أيضاً عجزت على البقاء على قيمتها فانخفضت في القيمة، والعيار من حين إلى آخر، مما أفسح الطريق للدرهم الفضية التي لم تحافظ هي الأخرى على قيمتها، بظهور العملة السوداء التي احتوت على قليل من الفضة، وكثير من النحاس.

ويتبين هذا خلال الجدول الآتي :

تخفيض العملة (٢)

وزن الدينار بالجرام	المنة الهجرية
١.٠٠٠	— ٣٦٥هـ
٣.٧٦٠	— ٣٦٦هـ
٣.٦٥٠	— ٣٨٢هـ
٣.٧٨٠	— ٤٠٦هـ
٠.٩٠٠	— ٤٢٧هـ
١.٠٠٠	— ٤٢٧هـ
٢.٩٥٠	— ٤٨٢هـ
٣.٩٩٠ - ٣.٤٨٠ بين	— ٥١٦ - ٥٣٠هـ

(١) نفسه، ص ٢٥.

(٢) راشد قبلوي : حالة مصر الاقتصادية، ص ٣٠٦.

دنانير الأمر بأحكام الله الفاطمي^(١)

التاريخ	مكان الضرب	نسبة العيار
٥٠٨هـ	مصر	٨١%٠
٥١٠هـ	مصر	٨٠%٠
٥١٠هـ	مصر	٨٢%٠
٥١٤هـ	الإسكندرية	٥٠%٠
٥١٨هـ	القاهرة	٧٧%٠

ثالثاً : النتائج التي تترتب على الفساد الاقتصادي :

[١] خراب مدينة الفسطاط وتدبيرها :

وقد بينت آراء وروايات بعض المؤرخين هذه الحقائق :

"إن خراب مصر في انقطاع النيل واختلاف الجيوش فيها"^(٢).
 "وهلاكها يأتي غرباً أو شرقاً وذلك عن طريق وفاء نيلها عن الحد
 المطلوب للزراعة، أو عجزه عن الوفاء بما يستوجب الزراعة، أو يأتي
 هلاكها حرقاً"^(٣). وذلك عندما يطغى حكامها، ويعجزون عن تدبير
 أمورها، فيتدخل الأمراء، والقادة في شؤونها، فيتصارعون على الحكم
 فيها، ويكثر ظلمهم وفسادهم، وتنفرق جيوشهم، ويختلفون فيما بينهم،
 ويتهاونون في شؤون البلاد، ويؤدي تنازعهم إلى إرهاب العباد، ثم يكون
 الحرق، والدمار حماية الفساد"^(٤).

تعرضت مصر للعديد من الأزمات الاقتصادية التي كان النيل، أو
 غيره سبباً فيها، وكان الخلفاء للفاطميين الأوائل يسيطرون على ذلك
 باتخاذ العديد من الإجراءات التي تقلل من خطر تلك الأزمات، ومن

(١) أحمد الصاوي : مجاعات مصر، ص ١٩١.

(٢) المقرئزي : القسط، ج ٢، ص ٣٣٤.

(٣) المقرئزي : إضاءة الأمة، ص ٧١ - ٧٢.

(٤) راشد البراوي : حالة مصر الاقتصادية، ص ٩٣؛ أيمن فؤاد سيد : الدولة
 الفاطمية، ص ٥٠.

هؤلاء الخلفاء، الحاكم بأمر الله الفاطمي، الذي نزل إلى الشوارع بنفسه،
ويأثر أمور الحمبة فيها^(١)، وأجبر التجار، والمحتكرين على إخراج ما
لديهم من مخزون حتى يعبر بمصر من تلك الأزمة.^(٢)

وعلى الرغم من نجاح الحاكم بأمر الله في ذلك الأمر فإن تقلباته
المستمرة، وأحكامه للمعتقة المتناقضة، قد لوهقت الشعب المصري،
فضاق بها، وسخر منها، هذا الأمر الذي أثار حفيظة الحساکم بأمر الله،
فقرر فجأة، ودون تفكير في شعبه المغلوب على أمره في معاقبة
المصريين، ولكن عقابه كان شديداً أدى بمصر إلى الفساد، والخراب^(٣)،
حيث عمل الحاكم بأمر الله على إثارة الفتنة بين عناصر الجيش المختلفة
- المغاربة، والأمازيغ - فضرب كل منهم بالأخر حتى يقتل له إحراق
مدينة القسطنطينية بما فيها من بشر، فكانت مصر أن تهلك كلها لولا تعاطف
للجيش مع الشعب.^(٤)

وبذلك نخرج بنتيجة مهمة، وهي أن الفاسدين يتبعون منهجية
واحدة في التعامل مع الأمور ومنها سياسة "فرق تسد" بجانب القهر،
والإذلال، والإجبار، والحرق، والتكمير حتى يضمثوا لأنفسهم السطوة،
والسيطرة؛ لكن سرعان ما ينقشع الظلم، ويحل العدل، والأمان.

(١) ابن ظافر : أخبار الدول، ص ٥٠، ابن كثير : البداية والنهاية، ج ٢، ص ٩٠، ابن
تغري بردي : النجوم، ج ٤، ص ١٨٤ الميوطي : حسن المحاضرة، ج ٢،
ص ٢١٢ ابن ياسين : بذائع الزهور، ج ١، ص ٥٢ - ٥٣، مهام مصطفى أبو
زيد : لأصبة في مصر، ص ٥٠.

(٢) للمقريزي : إغاثة الأمة، ص ٩٥ - ١٧، أحمد الصولي : مجاعات مصر،
ص ٣٩.

(٣) ابن ظافر : المصدر السابق، ص ٥١، النويري : نهاية الأرب، ج ٢٨،
ص ١٩٣ للمقريزي : الخطط، ج ٢، ص ١٠٢، ابن تغري بردي : المصدر
السابق، ج ٤، ص ١٨١.

(٤) ساويرس بن المقفع : حير البيعة للمقتمة، ج ٢، ص ٢٦٦ - ١٢٧، ابن
ظافر : أخبار الدول، ص ٥٤ - ١٥٥، النويري : نهاية الأرب، ج ٣٨،
ص ١٩٣ - ١٩٤ ابن تغري بردي : النجوم، ج ٤، ص ١٨١.

أدت قرارات الحاكم بأمر الله بما لها من عنف، واضطراب، إلى معاناة الناس في مصر، فخرجوا عن صمتهم، وسخروا من تلك القرارات، فوضعوا في طريقه تمثالاً من ورق على هيئة امرأة، وألبسوها ملابس النساء، ونصبوها في طريقه، وبيدها رقعة كأنها شكوى، فنقدم الحاكم بأمر الله أثناء مواعبه، وأخذ الرقعة من يدها، فلما اطلع عليها وجد بها سباً قبيحاً فأمر رجاله بالقبض عليها، فاكتشفوا أنها تمثال من ورق، وعلم الحاكم بأمر الله أن الناس قد سخروا منه. (١)

عاد الحاكم بأمر الله مسرعاً إلى القاهرة، ونزل فسي قصره، واستدعى القواد، والعرفاء، وأمرهم بالمسير إلى مصر - الفسطاط - مقر العامة، ونهبها، واغتصاب أهلها، وقتل من يجدونه أمامهم، وأمرهم بإحراقها، فتوجه إليها العبيد، والأثراك، والمغاربة، وعندما علم أهل مصر بذلك الهجوم، اجتمعوا، وقاتلوا عن أنفسهم، وأوقعوا النار فسي أطراف الفسطاط، وظلوا يقاومون، وينفخون النار عن مدينتهم ضد الفساد ثلاثة أيام متوالية. (٢) أما الحاكم بأمر الله فكان يطلع إلى الجبل فسي كل يوم، ويشاهد النيران، ويسمع صياح العامة، ويسأل في براءة اللذئاب من فعل ذلك؟ فيقولون له العبيد يحرقون مصر، وينهبونها، فيظهر التوجع، ويقول: لعنهم الله. من أمرهم بهذا؟ (٣)

وفي اليوم الرابع اجتمع الأشراف، والشيوخ إلى الجوامع، ورفعوا المصاحف، وأجهشوا بالدعاء، وابتهلوا إلى الله بالدعاء. (٤) فرقت إليهم قلوب المغاربة، والأثراك، فالتحزوا إليهم، وخرجوا من صفوف الجيش،

(١) النويري : المصدر السابق، ص ١٩٣ للمقريزي : الخطط، ج ٢، ص ١١٠٢ ابن تغري بردي : المصدر السابق، ج ٤، ص ١٨١ عبد المنعم سلطان : المجتمع المصري، ص ٨٢.

(٢) ساويرس بن المقفع : المصدر السابق، ج ٢، م ٢٠٧ ص ١٢٦ - ١٢٧ ابن تغري بردي : المصدر السابق، ص ١٨١.

(٣) ابن ظافر : المصدر السابق، ص ١٥٦ ابن تغري بردي : المصدر السابق، ص ١٨١.

(٤) ابن ظافر : المصدر السابق، ص ١٥٦ ابن تغري بردي : المصدر السابق، ص ١٨١.

وحاربوا معهم ضد العبيد، فقد كان أكثرهم مخالطاً لهم، ومصاهراً لهم، واستسمحوا الحاكم بأمر الله في الكف عن عمليات السلب، والنهب، والحرق؛ لأن أموالهم، وأولادهم وعقاراتهم موجودة في القسطنطينية، وتظاهر الحاكم بأمر الله بالقبول، والتعاطف، ولكنه أمر العبيد سرّاً باستمرار حرق، وتخریب القسطنطينية. (١)

وأراد الحاكم بأمر الله أن يشعل نيران الفتنة بين العبيد، وسائر طوائف للجند، فمرض طرح بعضهم على بعض لينتقم من فريق بفريق، بالإضافة إلى النيران التي أشعلها بظلمه في أرجاء القسطنطينية، استمر هذا الحال من الفساد، والدمار، ولم ينته إلا بعد أن هدده الأتراك بافتحام القاهرة وإحراقها. (٢)

فأمر الحاكم بأمر الله جنوده للعبيد بالتوقف عن أعمال الخراب، والفساد، وأخذ يعتز للأثرياء، وزعماء الأتراك، والمغاربة عما حدث، وأقسم كذباً ببراءته من تلك الفعلة، ثم أصدر لماناً لأهل مصر يؤمنهم فيه على أنفسهم، ولكن هذا لم يحدث إلا بعد أن احترق من مصر نحو ثلثها ونهب نحو نصفها، وسبى حريمها، وفعلت بين الفحشاء، فعاد شعب مصر المغلوب على أمره بالعار والخزي على ما قد حدث، وأخذوا يتبعون أراملهم، وبناتهم، وأخوانهم، ويتأعوهم من العبيد بعد أن فضحوه، وقد قتل بعضهن نفوسهن خوفاً من العار. (٣) فكان فساداً، ودماراً، وخزي لمصر كلها.

وفي خلافة المنتصر بالله الفاطمي (٤٢٧هـ - ٤٨٧هـ م / ١٠٣٦ - ١٠٩٤م) مرّت مصر بأزمة شديدة أدت إلى خرابها وموت

(١) ساويرس بن العتق : سير اليمامة المقدسة، ج٢، ص٢٦٦ - ١٢٧٧، ابن الأثير : الكامل، ج٢، ص٣١٥، التويري : نهاية الأرب، ج٢٨، ص١٩٣ - ١٩٤، ابن تغري بردي : النجوم، ج٤، ص١٨١ - ١٨٢.

(٢) ابن خلفر : أخبار الدول، ص١٥٦، ابن تغري بردي : المنتصر السابق، ص١٨٢.

(٣) السيوطي : حسن المحاضرة، ج٢، ص١٥١، محمد ماهر حمادة : مجموعة الوثائق السياسية، ص٣٨.

السواد الأعظم من أهلها، حيث اجتمعت عليها الأزمات الاقتصادية التي تضاخت إلى حد وصل بالشعب المصري إلى المجاعة، ولاسيما في ظل عجز المستنصر بالله، ووزيره اليازوري في التصدي لها، بل، ومشاركتهم في تضخمها^(١)، مما أدى إلى إصابة البلاد بانوواء شديد الذي أفنى ما يقرب من ثلثي أهل مصر^(٢)، ولم يكن هذا النمار الشديد راجعاً في معظمه إلى قصور ماء النيل، وإنما كان السبب الأساس هو اختلاف الكلمة، وانعدام الأمن، والحروب الناشئة بين طوائف الجند^(٣)، فقد تضخم الفساد إلى حد جعل أم المستنصر بالله يتدخل في شؤون الدولة، وتسيطر عليها، فأفسدت بتحيزها ما بين العبيد بني جنسها، والأتراك، حتى وقعت الفتنة التي قادت البلاد إلى الخراب، والحصار^(٤).

كان مبدأ تلك الأزمة في عام ٤٤٤هـ/٥٢ - ١٠٥٣م، حيث ارتفعت الأسعار، وقتت الأكوام، ولم يكن لقصور نيل سبب في ذلك، حيث كانت الزيادة في هذا العام، ١٧ نراعاً، و٥ أصابع^(٥). وعلى الرغم من ذلك، فقد نذرت البلاد في مجاعة أودت بها إلى مسغبة كادت تقضي عليها^(٦)، ولاسيما في ظل فراغ المخازن السلطانية من الغلال، والتي كانت تؤدي بدورها إلى إعادة ميزان الدولة، وتخفف عن كاهل الشعب وقت الأزمات^(٧) حيث طمع للوزير اليازوري في المزيد من الأموال،

(١) المقرئزي : الخطوط، ج٢، ص٢٢٥ راشد البراوي : حالة مصر الاقتصادية، ص٢٧٤ - ٢٧٥.

(٢) راشد البراوي : المرجع السابق، ص١٩٥ أحمد الصاوي : مجاعات مصر، ص٦٨.

(٣) المقرئزي : إغاثة الأمة، ص٢١ - ٢٣ راشد البراوي : حالة مصر الاقتصادية، ص٨٩.

(٤) المقرئزي : المصدر السابق، ص٢٢، ابن تغري بردي : النجوم، ج٥، ص١٧ - ١٨.

(٥) ابن تغري بردي : المصدر السابق، ص٢٥٤ المقرئزي : الخطوط، ج١، ص٣٥٦.

(٦) المقرئزي : لمناظ الحنفا، ج٢، ص١٢٤ الخطوط، ج١، ص١٠٩.

(٧) المقرئزي : لمناظ الحنفا، ج٢، ص١٢٤.

والأرباح، فأشار على المستنصر بالله الفاطمي بتحويلها من مخازن غلال إلى مخازن للخشب، والحصابون، والحديد، والرصاص، وما إلى ذلك من البضائع. (١) واستجاب له المستنصر بالله دون النظر إلى حاجة الشعب.

وفي عام ٤٦٦هـ / ١٠٥٤ - ١٠٥٥م، انخفض فيضان النيل فوصل إلى ١٥ ذراعًا و ١٤ إصبعا. (٢) فازداد الأمر سوءًا، فارتفعت الأسعار، وانعدمت الأقولف، ووقع بمصر وباء شديد كاد يقضي على أهلها. (٣) حاول المستنصر بالله حل تلك الأزمة بالاستعانة بالإمبراطور الدولة البيزنطية قسطنطين التاسع Constantine IX Nonamochos وقد أطلق قسطنطين أربعمئة ألف أرنب من القمح، وعزم على حملها إلى مصر، غير أنه قد توفي قبل إرسال هذه الكمية. (٤)

وعندما خلفته ابنته الإمبراطورة ثيودورا (Theodora)، اشترطت على المستنصر بالله اشتراك مصر معها في معاهدة على أن يمدها المستنصر بالله بجنود مصرية في حالة إذا ثار عليها أحد، غير أن المستنصر بالله قد رفض بإيعاز من اليازوري بحجة أن حاجة مصر للقمح مسألة مؤقتة ستزول بزوال هذا الأمر؛ مما أثار حفيظة المستنصر بالله للحصول على القمح، بعد رفض ثيودورا إرساله. (٥)

هذا الأمر الذي أثار حفيظة المستنصر بالله، وشل تفكيره، وأفسده، فقرر تأديب ثيودورا على فعلتها دون النظر إلى حالمة السبلد السيئة، وأرسل إليها جيشًا، بقيادة مكين الدولة الحسن بن علي بن ملهم الذي هزم،

(١) للمقريزي : الضبط، ص ١٠٩، إغاثة الأمة، ص ١٧ - ١٩، اتعاظ لحنفا، ج ٢، ص ٢٢٥.

(٢) للمقريزي : إغاثة الأمة، ص ١٩. غير أن ابن تغري بردي ينكر أن النيل وصل في هذا العلم إلى ١٦ ذراعًا و ٣ أصابع، راجع : ابن تغري بردي : المصدر السابق، ج ٥، ص ٩٧.

(٣) ابن ميسر : أخبار مصر، ص ١٣ للمقريزي : اتعاظ لحنفا، ج ٢، ص ٢٢٦؛ إغاثة الأمة، ص ١٩ - ٢٠.

(٤) ابن ميسر : للمصدر السابق؛ راشد البرلوي : حالة مصر الاقتصادية، ص ١٠١؛ أحمد الصلوي : مجاعات مصر، ص ٦٢.

(٥) ابن ميسر : أخبار مصر، ص ١٣؛ أحمد الصلوي : مجاعات مصر، ص ٦٣.

وأسر هو، وأصحابه، كما فسدت العلاقة ما بين السروم، والمصريين،
وفشلت مساعي المستنصر بالله في إصلاحها. (١)

واستمرت تلك الأزمة عامي ٤٤٧ - ٤٤٨ هـ / ١٠٥٦ -
١٠٥٧ م، واستمر الفساد السياسي الذي جعل المستنصر بالله عاجزاً عن
تسيير أمور الدولة، والعبور بها من تلك الأزمة، بل تخطى ذلك بكثير
عندما أنفق المستنصر بالله أموال القصر من أجل تجهيز حملة المؤيد في
الدين الذي أرسل لدعم ثورة الباسيري. الذي أقام الدعوة الفاطمية في
بغداد، فكان الوزير البازوري يمدّه بالأموال، والذخائر من القاهرة (٢)، كما
وعده بإرسال ستين ألف دينار سنوياً له، ولخواصه. (٣) ولم يبق في بيوت
الأموال بالدولة شيء. (٤)

أضحت أحوال مصر تسوء يوماً بعد يوم، فإلى جانب فشل
الفاطميين في تحقيق هدفهم، واستعادة الثقة بين الدولة البيزنطية، تعرضت
القاهرة المدينة للملكية حيث قصر للخليفة لصراعات دامية بين طوائف
الجند المختلفة، بخاصة الأتراك والسودان. (٥) الذي استكثرت منهم أم
للمستنصر، وجعلت من أبي سعد أتستري اليهودي - الذي باعها للظاهر
بأمر الله - متولي ديوانها، فمال بدوره للمغاربة، وزاد في واجباتهم على
حساب الأتراك، مما أدى إلى نشوب القتال بينهم. (٦) كذلك انحاز لليهود
وقربهم منه، وميزهم في وظائف الدولة، فوقعست الفتنة كذلك بين
المسلمين، واليهود. (٧)

(١) المقرئزي : الخطط ج ١، ص ٣٣٥؛ أحمد الصاوي : المرجع السابق، ص ٦٥،
٦٦.

(٢) ابن ظافر : أخبار لدول، ص ٦٧ - ٦٩؛ ابن ميسر : المصدر السابق،
ص ٤١؛ التويري : نهاية الأرب، ج ٢٣، ص ٢٢٣ - ٣٣٢؛ أحمد الصاوي :
المرجع السابق، ص ٦٤.

(٣) أمين فؤاد سيد : الدولة الفاطمية في مصر، ص ١٩٥.

(٤) نفسه، ص ١٥٥.

(٥) نفسه، ص ١٩٦ - ١٩٧.

(٦) ابن ميسر : المصدر السابق، ص ٢٥٥؛ المقرئزي : الخطط، ج ١، ص ٣٣٥؛
اتعاط الحنفاء، ج ٢، ص ١٩٥.

(٧) المقرئزي : اتعاط الحنفاء، ج ٢، ص ١٩٥؛ ابن الأثير : لتكامل، ج ١، ص ٨٧ -
٨٨.

وفي عام ٤٥٤ هـ / ١٠٦٢ م، اشتدت نيران الفتنة، ووصلت إلى نورتها حتى أتت إلى دمار مصر، وخرابها، وذلك عندما خرج للمستنصر بالله كعادته كل عام مع النساء، والحشم إلى أرض الجب خارج القاهرة؛ للزهوة، والترفيه، وشرب الخمر، فقام أحد الجنود الأتراك، وهو سكران، وقتل أحد الجنود للسودان، فاجتمع عليه العبيد، وقتلوه، فوفعت مصر في فتنة عظيمة، تبرأ فيها المستنصر بالله من المسؤولية، وساعدت أم المستنصر بالله على إنكائها لصالح العبيد.^(١)

لما الأتراك فقد تجرؤوا على المستنصر بالله هم، وزعيمهم بن حمدان، وزاد طمعهم فيه، وطلبوا منه الزيادة فسي واجباتهم، وخرسوا ناموسه، وامتهانوا بقدره، وأجبروه على بيع ذخائر القصر بعد أن فرغت خزائنه. ولم يبق له من الأمر شيء، بعد أن نهبوا ما تبقى في القصر من كنوز، وكتب، ووزعها على أنفسهم بأبخس الأثمان.^(٢)

في الوقت نفسه خرج عرب البحيرة في بني قرة، والطلحين عن طاعة الخليفة فاختلت أحوال مصر^(٣)، كما كان العبيد في الصعيد يسعون فساداً لضيق حالهم، فأصبحت مصر من أقصاها إلى أقصاها في فتنة، وفساد^(٤)، وكثر قطاع الطرق، وخاف الناس على أنفسهم فلزموا بيوتهم، وبارت الأرض، واشتدت الأزمة.^(٥) ولانسيما بعد أن وقع الفساد بين الأتراك أنفسهم، وابن حمدان زعيمهم، فهرب إلى البحيرة مع مجموعة من العربان الذي تزوج منهم فقويت شوكته مرة أخرى.^(٦)

(١) المقريزي : اتعاظ الحنفاء، ج٢، ص٢٦٧؛ الخطط، ج١، ص٣٣٥؛ ابن نخري بردي : النجوم، ج٥، ص١٧ - ١٨؛ راشد البرلوي : حالة مصر الانتصافية، ص٨٩، ٩٠.

(٢) ابن ظاهر : أخبار الدول، ص١٧٥؛ المقريزي : اتعاظ الحنفاء، ج٢، ص٢٧٥ - ٢٧٦؛ المقريزي : الخطط، ج١، ص٣٣٦؛ ابن نخري بردي : المصدر السابق، ص١٦ - ١٧؛ سلاويين بن المقفع : سير البيعة المقدسة، ج٢، م٢، ص٣٠٢؛ أحمد الصاوي : مجامع مصر، ص٤٥؛ راشد البرلوي : المرجع السابق، ص٩١.

(٣) ناصر خسرو : سفرنامه، ص٩٤ - ٩٥.

(٤) ابن ميسر : أخبار مصر، ص١١٧؛ المقريزي : اتعاظ الحنفاء، ج٢، ص٢٧٣.

(٥) المقريزي : الخطط، ج١، ص٣٣٧؛ إغاثة الأمة، ص٢٤؛ اتعاظ الحنفاء، ج٢، ص٣٠٣.

(٦) ابن ميسر : المصدر السابق، ص١٢٤؛ المقريزي : اتعاظ الحنفاء، ج٢،

واللائق للنظر أن معظم هذه الصراعات، والفتن، صاحبها الخراب، والتمير، والحريق لبعض المدن، والقرى التي شهدت مراحل الصراع، والفتن، مما أثر بشكل كبير على الحالة الاقتصادية للبلاد. وفي عام ٤٦٢هـ - ١٠٧٠م، قام ابن حمدان بفرض حصار اقتصادي على القاهرة والفسطاط، فاشتد الجوع بالنام وفسدت الأعمال بكثرة السلب، والنهب، وقطعت الطرقات، حتى أجل الناس للجيف، والميتة، ووقف أرباب الفساد في الطرقات، وساروا يقتلون كل من ظفروا به في أزقة مصر، وكادت مصر أن تهلك، حتى اضطر الأتراك إلى مصالحة ابن حمدان بشرط أن يبقى في مكان، وينوب عنه تاج الملوك شاذي القائد التركي، ويرسل له الأموال، فسير ابن حمدان الفلّال وانفجرت الأزمة بعض الشيء. (١)

ولم تنعم مصر بهذا الاستقرار سوى شهر واحد تحرك بعده ابن حمدان إلى مصر، وحاصرها هو وجنده، وقام بإحراق العديد من الدور على من بداخلها، ثم وقع الخلاف بينه وبين تاج الملوك شاذي، الذي طمع في أموال الدولة، فجمع ابن حمدان الجنود، وذهب للقاهرة ليلاً، وقيض على شاذي، وبعث بجنده إلى مصر فعمثوا فيها فساداً، وأطلقوا فيها الليران، فهلك من هلك من شعبها، وخربت ديارها، وسارت خاوية على عروشها، واستبد بن حمدان بالحكم، وقطع الخطبة للممتصر الفاطمي، وأقامها للخليفة العباسي القائم بأمر الله. (٢)

ص ١٢٧٩ راشد البراوي : للمرجع السابق، ص ١٩١ هشام عبد القادر عبده : إقليم الحوف قهربي، ص ٧٥.

(١) ابن ميسر : أخبار مصر، ص ٢٠ للمقرئبي : الخطوط، ج ١، ص ١٣٣٧ المقفي الكبير، ج ٢، ص ٥٠٢ ابن تغري بردي : النجوم، ج ٥، ص ١٨٤ راشد البراوي : حالة مصر الاقتصادية، ص ٩٥ - ٩٦.

(٢) ساويرس بن المقفع : سير النبوة المقدمة، ج ٣، م ٢، ص ٤٢٠ ابن ميسر : للمصدر السابق، ص ٢١ - ٢٢ المقرئبي : الخطوط، ج ١، ص ١٣٣٧ ابن تغري بردي : المصدر السابق، ج ٥، ص ٢١ - ٢٢.

لم تنفجر تلك الشدة إلا بقتل ابن حمدان في منازل العز بالفسطاط سنة ٤٦٥هـ / ١٠٧٣م^(١) غير أن مصر ظلت في دمار، وخراب حتى قدوم بدر الجمالي أمير عكا سنة ٤٦٦هـ / ١٠٧٤م، فكانت كما ذكر المقرئزي، خاوية على عروشها خالية من سكانها ... فأباح للناس من العسكرية والمحلية، والأرمن وكل من وصلت قدرته إلى عمارة، أن يعمر ما ثاب في القاهرة، مما خلا من دور للفسطاط بموت أهلها، فأخذ الناس في حرم المنازل ونحوها بمصر، وعمر ما بها في القاهرة، وكان هذا أول وقت اختلط فيه الناس بالقاهرة، وبذلك فقدت القاهرة - مؤقتاً قيمتها كمدينة خاصة.^(٢)

كانت السنوات الأخيرة للخلافة الفاطمية في مصر سلسلة من الصراعات، والحروب بين ولاة الأقاليم للمتنافسين على منصب الوزارة، والقوى للخارجية التي استعانوا بها لتثبيت مكانتهم.^(٣) ففي خلافة العاضد لدين الله الفاطمي، حدث نزاع على منصب الوزارة بين كل من شاور بن مجبر السعدي^(٤)، الذي تولى منصب الوزارة بالقوة، وتلقب بسامير الجيوش، واستولى على أموال بني رزيق وزراء مصر، وملوكها من قبله، وبين ضرغام بن عامر بن سوار المنذري مقدم الأمراء البرقية وصاحب الباب - وهي رتبة تلي الوزارة مباشرة - الذي حسده على ما قد وصل إليه من مكانة واستبداد، فجمع ضرغام جموعاً كثيرة، وغلب شاور على الوزارة، فهرب شاور إلى بلاد الشام.^(٥)

تفري بردي : المصدر السابق، ج ٥، ص ٢١ - ٢٢.

(١) ساويرس بن المقفع : المصدر السابق، ص ٢٠٤.

(٢) ساويرس بن المقفع : المصدر السابق، ص ٢٠٤. ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون، ج ٤، ص ١٦٤. ابن تفرج بردي : المصدر السابق، ص ٢٢٣، راشد البراري : المصدر السابق، ص ١٩٧. أحمد عصاوي : مجاعات مصر، ص ٦٨.

(٣) المقرئزي : الخطط، ج ١، ص ٣٣٧. أيمن فؤاد سيد : الدولة الفاطمية، ص ٢٠٧.

(٤) أيمن فؤاد سيد : الدولة الفاطمية، ص ٢٨٧.

(٥) ساويرس بن المقفع : ميز البيعة المقننة، ج ١، م ٣، ص ١٥٠. أبو شامة :

وقد أدى سوء الأحوال السياسية، وضادها إلى مزيد من النتائج السلبية، حيث عمت الفوضى والفتن، وكثر السلب، والنهب، وانتشرت الثورات، وتصارح الجميع لتحقيق أهدافه الخاصة، دون مراعاة الأهداف العامة للبلاد، وظهر الخارجون على الحكام، وضاعت الحقوق، وغابت العدالة الاجتماعية.

انتهج ضرغام سياسة فاسدة، وسيئة حيث قتل أمراء الدولة، فضعف شأن مصر لذهاب رجالها، أما شاور فقد استتجد بنور الدين محمود صاحب الشام السني، مقابل ثلث خراج مصر بعد إقطاعات الساكز، ويكون مع شاور أمراء من الشام يقيمون معه في مصر، على أن يتصرف هو بأوامر نور الدين محمود.^(١) وبالفعل أرسل نور الدين محمود جيشاً بقيادة أسد الدين شيركوه؛ لإعادة شاور إلى الوزارة في مصر، وقد تم ذلك بعد عدة معارك دارت بين جنود نور الدين محمود وجنود ضرغام الذي قتل في نهاية المعركة، كذلك تم إحراق الكثير من الدور بُنغت من باب سعادة إلى باب القنطرة بالقاهرة، كما امتد الحريق إلى خارج القاهرة. كما قتل العديد من الناس في تلك المعركة.^(٢)

لم تنته الحرب عند هذا الحد، ولم يكتف شاور بما حققه من دمار، وخراب لمصر، فبمجرد قتل ضرغام، وعودة شاور للوزارة، أُخل بما وعد به نور الدين محمود، وأمر شيركوه قائده بالخروج من مصر فدارت الحرب من جديد بين شيركوه وشاور، حتى احترق وجه الخليج خارج القاهرة بأسرها وكذلك جزء من حارة زويلة، واستولى شيركوه على بلبيس، وحكم البلاد الشرقية.^(٣) لم يجد شاور غضاضة في أن يستعين

الروضتين، ج ١، القسم ٢، ص ٤١٦؛ للمقريزي : الخطط، ج ١، ص ٣٢٨
اتعلظ الحلقا، ج ٣، ص ٢٦.

(١) ابن واصل : مغزج الكروب، ج ١، ص ١٢٨.

(٢) ابن ظافر : أخبار الدول، ص ١١١؛ ابن واصل : للمصدر السابق، ج ١، ص ١٣٧ - ١٣٨؛ النويري : لهية الأرب، ج ٢٨، ص ٣٣٧؛ ابن تغري بردي : النجوم، ج ٥، ص ٣٣٨، ٣٣٩؛ المقريزي : الخطط، ج ١، ص ٣٢٨.

(٣) أبو شامة : الروضتين، ج ١، ص ٣٣٢ - ٣٣٣؛ ابن واصل : مغزج الكروب، ص ١٣٩؛ ابن خنكلان : وفيات الأعيان، ج ٢، ص ٤٤٧؛ المقريزي : الخطط،

بالصليبيين أعداء الدولة الإسلامية، الذين استولوا من قبل على السواحل الشامية حتى صار ما بين مالطة إلى بلبس تحت يدهم إلا مدينة دمشق^(١)؛ لذلك فقد أدت خيانة شاور إلى ترحيب الصليبيين الذين طمعوا في مصر، وهبوا لنصرة شاور - ظاهرياً - مقابل ألف دينار يومًا. ^(٢) يدفعها شاور لهم نظير مساعدتهم له، هذا الأمر الذي أدى إلى رحيل شيركوه إلى الشام. ^(٣) بعد عقد صلح بينهم. ^(٤)

وفي عام ٥٦٢هـ جهز نور الدين محمود جيشاً كبيراً اتجه إلى مصر، فعاد شاور، واستعان بعموري Amoury I ملك بيت المقدس، والتقى الجيشان؛ وبعد حصار شديد عانى منه أهل مصر، انتهى الأمر على عقد صلح بين الطرفين؛ ورحل شيركوه على إثره إلى الشام^(٥)؛ أما الصليبيون فقد طمعوا في مصر وتركوا بها حامية لهم، ارتكبت تلك الحامية أعمال الفساد في أهل مصر، وحكموا حكماً جائراً وألحقوا الأذى بالمسلمين^(٦)، وعظم الأمر، وانكشفت عورات مصر أمام الصليبيين فطمعوا فيها، ولاسيما أمام ضعف العاضد، الذي أرسل إلى نور الدين محمود يستغيث به لإتقاد مسلمي مصر من الغزو الصليبي. ^(٧)

قرر الصليبيون غزو مصر قبل أن تصل إليها جيوش نور الدين محمود، فسارت قواتهم في ٥٦٤هـ / ١٦٨م، ووصلوا إلى بلبس؛

(١) أبو شامة : المصدر السابق، ص ٤٣٥ ابن واصل : المصدر السابق،

ص ١٣٩ المقريزي : المصدر السابق، ص ٣٢٨.

(٢) المقريزي : المصدر السابق، ص ٣٣٥.

(٣) ابن الأثير : الكامل، ج ١١، ص ٣٠٠ - ٣٠٤.

(٤) ابن واصل : المصدر السابق، ص ١٣٩ - ١٤٠ المقريزي : المصدر السابق،

ص ٣٣٧ - ٣٣٨.

(٥) المقريزي : المصدر السابق، ص ٣٣٨ أبو صالح الأرمي : كنائس وأبيرة

مصر، ص ٣٣، ٣٥.

Stanly lone - Poole : Saladin, p. 92.

(٦) أبو صالح الأرمي : المصدر السابق، ص ٣٥.

(٧) أبو شامة : المصدر السابق، ص ٣٩١ - ٣٩٢ ابن واصل : المصدر السابق،

ج ١، ص ١٥٧؛ المقريزي : المصدر السابق، ص ٣٣٩ اعطاء الحنفاء، ج ٢،

ص ٢٩٨.

محمود، فسارت قواتهم في ٥٦٤هـ / ١١٦٨م، ووصلوا إلى بلبيس، وتمكنوا من حصارها، وقاموا بأعمال الملب، والنهب فيها كما سيوا أهلها، وبعد أن أقاموا بها خمسة عشر يوماً توجهوا إلى القاهرة، وأقاموا حصاراً عليها، فخاف أهل القاهرة أن يفعلوا بهم مثلما فعلوا بأهل بلبيس،^(١) في الوقت نفسه أمر شاور الناس بترك القسطنطينية، كما أمر جنوده بنهبها، فنزح الناس للقاهرة خوفاً، وهلعاً، ونزلوا بالحمامات، والأزقة، والمساجد بعد أن تركوا أموالهم، وأتقألهم، ونجوا بأنفسهم، وأبنائهم.^(٢)

عزم شاور على خراب القسطنطينية وتدميرها، فبعث إليها ألف قارورة نفض، وعشرة آلاف مشعل نار، وقام بإشعال النيران فيها: فارتفع لهب النار ودخان الحريق إلى السماء، فارتعد الناس خوفاً ولاسيما أن هذا الحريق قد استمر أربعة وخمسين يوماً دون توقف^(٣)، وعندما وجد عموري هذا الحريق الهائل، اتجه للقاهرة وهاجم أهلها، وكاد يأخذها عنوة، لولا أن طلب شاور الصلح مقابل ألف دينار يحمل له منها ألفاً، فأجابته عموري شريطة أن يكون العاضد شاهداً على ذلك، ويوافق عليه، لأن ثقتهم بشاور قد انعدمت، في الوقت نفسه كان الصليبيون قد سمعوا بقدوم جيش نور الدين محمود، فأقروا الصلح.^(٤)

ورحل عموري عن مصر مصطحباً معه اثني عشر ألف أسير مصري، ما بين رجل وامرأة.^(٥) ودخل شيركوه مصر مصطحباً معه ابن أخيه صلاح الدين الأيوبي، وفي هذه المرة قتل شاور، وأصبح شيركوه وزيراً للعاضد - على الرغم من كونه منى المذهب - وعمل

(١) أيمن غواد سيد : الدولة الفاطمية، ص ٢٩٦.

(٢) ابن تغري بردي : فتوح، ج ٥، ص ١٣٥٠ المقرئزي : الخطط، ج ١، ص ٣٣٨.

(٣) ابن طلكر : أخبار الدول، ص ١١٦، أبو شامة : للروضتين، ج ١، ص ٣٩١، المقرئزي : المصدر السابق، ص ٣٣٨.

(٤) أبو شامة : المصدر السابق، ج ١، ص ٣٩١، ابن واصل : مفرج القروب، ج ١، ج ١، ص ١٥٧، المقرئزي : تاملت للحنفاء، ج ٣، ص ٢٩٨.

(٥) المقرئزي : للخطط، ج ١، ص ٢٩٩.

على إصلاح ما قد فسد، فأمر الناس بالعودة من القاهرة إلى مصر وتعميرها، غير أن هذا لم يكن بالأمر اليسير ولا سيما أنها أصبحت بعد الحريق مدينة خاوية خربة، ومن ثم فقدت أهميتها كعاصمة شمال والتجارة، وللصناعة، ولم يبق منها سوى مسجد عمرو بن العاص، الذي أنقذ من الحريق بأعجوبة^(١)، فأصبحت كما وصفها المقرئزي "كيان"^(٢). وقد ظلت مصر في أمان من أي تخريب إلى أن خرب في حكم الملك العادل بن أيوب بفعل الوباء والغلاء سنتي وخمس ستمائة، ومست وستمائة (٦٠٥، ٦٠٦ هـ)^(٣)، ثم في سلطنة الملك العادل كتبها سنة ٦٩٦ هـ، ثم سنة ٧٤٩ هـ بفعل الوباء أيضاً، كذلك سنة ٧٧٦ هـ، ٧٩٠ هـ فعمم الخراب، وشرح الناس في هدم دور مصر، وبيع أنقاضها.^(٤)

[٢] ضياع ممتلكات الدولة الفاطمية وأثر ذلك على الاقتصاد :

أ- تقلص النفوذ الفاطمي في المشرق الإسلامي :

تأثرت الولايات التابعة للفاطميين في المشرق الإسلامي، بمظاهر الفساد للمختلفة التي أدت إلى ضعفها، مثلما تأثرت الولايات المغربية، فأخذت أملاكها في التقلص كما أخذ نفوذها يتلاشى شيئاً فشيئاً، وإن كانت الدولة الفاطمية قد استطاعت ترك بلاد المغرب بما فيه من صراعات، تؤثر من حين لآخر على سلطتها في القاهرة، فإنها قد عجزت عن ذلك الأمر في الولايات التابعة لها في المشرق الإسلامي، التي استطاعت أن تقضي على القاهرة، وتقضي على أملاكها، وسلطتها ودعوتها، حيث وهنت الدولة وعجزت عن حماية نفسها، بعد أن دب الفساد في أعماقها.

(١) ساويرس بن المقفع : سير للبيعة المقنعة، ج ٢، ص ٣، ص ٦٣؛ أبو شامة :

للمصدر السابق، ص ٣٩٦ - ٣٩٧.

(٢) للمقرئزي : الخطط، ج ١، ص ٣٣٩.

(٣) كتب (خمس وست وخمسمائة) (٥٠٥، ٥٠٦) خطأ في المقرئزي، والأصح

(خمس وست وستمائة) (٦٠٥، ٦٠٦)، لأن فترة حكم الملك العادل كانت من

٥٩٦ - ٦١٥ هـ / ١١٩٩ - ١٢١٨ م. راجع : أحمد مختار الجاهلي : للتاريخ

الأيوبي والمملوكي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ص ٧٧.

(٤) للمقرئزي : الخطط، ج ١، ص ٣٣٩.

ففي عهد الحاكم بأمر الله الفاطمي، وأثناء النزاع الذي دار بين
برجوان الوصي عليه، وابن عمار مقسم المغاربة^(١) إلى اضطراب
الأحوال في بلاد المشرق الإسلامي التابعة للدولة الفاطمية مثلما حدث في
بلاد المغرب، ففي عام ٣٨٨هـ / ٩٩٨م، امتدعت الثورة قسي "صور"
بزعامة بحار مغامر يدعى "العلاقة" استغل فساد العلاقة بين الحاكم بأمر
الله ولوصيائه، وكذلك الصراع المستمر بين هؤلاء الوسطاء، وقبض على
زام الأمور في مدينة "صور" وضرب السكة باسمه، ونقش عليها عبارة
"عزاً بعد فاقة للأمير العلاقة"، وقد استعان العلاقة بالإميراطور البيزنطي
باسيل الثاني^(٢)، ووعده بتسليم صور، غير أن تلك الثورة لم تكتمل وقبض
على العلاقة، وأعدم صلباً.

وقد تزامن مع ثورة العلاقة ثورة أخرى قام بها زعيم الدولة
"المفرج بن دغفل بن الجراح"^(٣)، الذي طلب الأمان من الدولة الفاطمية

(١) باسيل الثاني : هو الإمبراطور البيزنطي الذي حكم بيزنطة في الفترة ٩٧٦هـ -
١٠٢٥م، عمل جاهداً على الحفاظ على مجد أجداده وبقاء الأسرة النيقونية،
بالرغم من الطامعين في السلطة والثورات والثكن التي واجهته في بداية عهده،
استطاع أن يحكم مفرداً مع وجود أخيه قسطنطين الثامن الذي اختلف عنه تماماً
حيث توجه قسطنطين للهو والدعة، واتجه باسيل إلى الحرب، وكان عهده سلسلة
من الحروب الخارجية في أوروبا وآسيا، أدت إلى اتساع رقعة دولته، اتمم
بالقبوة والحدوة حتى تحت أثناء حربه مع البلغار بسفاح البلغار "أو ناباح
فلبنغار"، كما دخل في صدامات مع الخلافة الفاطمية وأملكها في الشام، والتي
انتهت بعد بهننة سنة ١٠٠١ استمرت عشر سنوك.

للمزيد راجع : جوزيف نسيم، تاريخ للدولة البيزنطية ٢٨٤ - ١٤٥٣، دار
المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٨٨م، ١٧٦ - ١٨٣؛ محمد مرسي الشيبخ :
تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، ٢، الإسكندرية، ١٩٩٧م، ص ٢٦٩ - ٢٨٧.

(٢) ابن الأثير : الكامل، ج ٩، ص ٤١؛ ابن خلدون : تاريخ بن خلدون، ج ٤،
ص ٥٧؛ محمد عبد الله عزال : الحاكم بأمر الله، ص ١٧٧.

(٣) المفرج بن دغفل : هو مفرج بن دغفل بن الجراح، يعود بأصوله إلى بني طيء
بفلسطين وقد حاول بنو طيء في أواخر القرن الرابع الهجري تكوين دولة لهم
والاستقلال عن الخلافة الفاطمية فنزلوا بالرحلة عام ٣٨٨هـ تحت زعامة مفرج
بن دغفل. لمزيد من التفاصيل راجع : د. محمد جمال الدين سرور : النفوذ
الفاطمي، ص ٤٤ - ٤٦.

عندما هاجمته جيوشها، وعندما وصل إلى القاهرة أسيراً، أطلق سراحه. (١) على الرغم من أن ابن كلث نصح بقتله (٢)، وقد هدأت الأمور بعض الشيء في البلاد الشامية، حتى ضعفت الخلافة الفاطمية؛ فعاد العرب إلى الثورة مرة أخرى، ففي عام ٤٠٠هـ / ١٠٠٩م سار حسان بن مفرج بن دغفل بن الجراح إلى الرملة، واستولى عليها وقتل واتبها، وعاث فيها فساداً. (٣)

ففي عام ٤٠٢هـ / ١٠١١م، قام عرب الشام بثورة امتدت عامين، ونصف، ٤٠٢هـ / ١٠١١م إلى ٤٠٤هـ / ١٠١٣م (٤)، احتلوا فيها معظم جنوب الشام، وهاجموا حصون السواحل الخاصة بالدولة الفاطمية، وفي هذه المرة عجز الخليفة الحاكم بأمر الله عن إرسال جيش لقمع تلك الثورة، وذلك لكثرة نزاعات الجنده، وانشغالهم عن الدفاع عن ممتلكات الدولة. (٥) بالإضافة إلى المجاعات التي أنهكت قوى الدولة، والشعب. (٦) وقد أغرى هذا الوضع السيئ للدولة زعماء تلك الثورة من بني الجراح، إلى إقامة الدعوة لخليفة آخر هو أبو الفتح الحسن بن جعفر والي مكة. (٧)

(١) ابن الأثير: الكامل، ج ٩، ص ٤٤١؛ المقرئ: الخطط، ج ٢، ص ٦٨؛ عبد المنعم ماجد: ظهور الخلافة الفاطمية، ص ١٤٣؛ محمد جمال الدين سرور: سياسة الفاطميين، ص ١٣٩؛ أحمد الصاوي: مجاعات مصر، ص ١٠٨.

(٢) عبد المنعم ماجد: المرجع السابق، ص ١٢٧.

(٣) محمد جمال الدين سرور: المرجع السابق، ص ١٣٩؛ عبد المنعم ماجد: المرجع السابق، ص ١٢٨.

(٤) ابن الأثير: الكامل، ج ٩، ص ٤٤١؛ عبد المنعم ماجد: ظهور الخلافة الفاطمية، ص ١٢٨؛ أحمد الصاوي: المرجع السابق، ص ١٠٨. ويذكر محمد جمال الدين سرور أنه في ٤٠١هـ وليس ٤٠٢هـ، محمد جمال الدين سرور: سياسة الفاطميين، ص ١٣٩.

(٥) ابن الأثير: الكامل، ج ٩، ص ٤٤١؛ عبد المنعم ماجد: ظهور الخلافة الفاطمية، ص ١٢٨؛ محمد جمال الدين سرور: سياسة الفاطميين، ص ١٣٩؛ أحمد الصاوي: مجاعات مصر، ص ١٠٨.

(٦) أحمد الصاوي: المرجع السابق، ص ١٠٨.

(٧) ابن خلدون: تاريخ بن خلدون، ج ٤، ص ١٥٧؛ المقرئ: الخطط، ج ٢، ص ١٥٧؛ الذهبي: إسماعيل بن عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان -

لقد لاقى هذا الأمر قبولاً لدى أبي الفتح، فأعلن نفسه خليفة باسم الراشد بالله، وأقيمت له الخطبة في بلاد الشام، كما نقشت السكة باسمه^(١)، كما قام بنزع ما كان بالكعبة من ذهب، وفضة، لم يجد الخليفة للحاكم من ملاح أمامه سوى استرضاء بني الجراح بالأموال، فأنحازوا إليه، وتخلوا عن أبي الفتح الحسن بن جعفر، الذي فضل العودة إلى مكة، وإعادة الخطبة، والسكة للحاكم بأمر الله منذ ٤٠٣هـ/١٠١٢م.^(٢)

وإن كانت هذه الثورة قد أخممت فإنها أسفرت عن شيء مختلف، وهو أن عرب الشام في تلك الأوقات لم يتجاوزوا والي الدولة العباسية، ولم يقيموا الدعوة باسمهم، فكانت الدعوة لخليفة جديد غير الخليفة العباسي وكذلك الفاطمي.

لم تستمر تلك الهدنة كثيراً، فقد استغل حسان بن مفرج بن دغفل بن الجراح، سوء الأحوال، واضطرابها في مصر في عهد الظاهر لدين الله، فاستولى على البلاد الشامية، وصار يستخرج خراجها لنفسه^(٣)، وأعاد سيطرته مرة أخرى على الرملة، وقد عجز الخليفة الظاهر لدين الله

= قايماز] : تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق : عمر عبد السلام تدمري، ط٣، دار الكتاب العربي، ١٤١٨هـ / ١٩٩٨م، ص١٢١ - ١٢٢، ١٢٢٢هـ المتعم ماجد : للمرجع السابق، ص١٨٦، محمد جمال الدين سرور : المرجع السابق، ص١٣٩ - ١٤٠.

(١) ابن خلنون : للمصدر السابق، ص٥٧ - ٥٨؛ المقرئزي : المصدر السابق، ص١٥٧؛ للذهبي : المصدر السابق، ص١٢٢؛ عبد المتعم ماجد : المرجع السابق، ص١٨٦؛ محمد جمال الدين سرور : المرجع السابق، ص١٤٠.

(٢) المقرئزي : المصدر السابق، ص٢٢٨؛ ابن خلكان : وفيات الأعيان، ج١، ص٤٣٠ - ٤٣١؛ محمد جمال الدين سرور : للمرجع السابق، ص١٤٠؛ عبد المتعم ماجد : ظهور الخلافة، ص١٨٦.

(٣) ابن تغري بري : التنجيم، ج٤، ص٣٥٢، ٣٥٣؛ المقرئزي : لتعاظ الحنفا، ج٢، ص١٦٥؛ عثمان علي محمد عطا : الأزمات الاقتصادية، ص٢٨، أحمد الصاوي : مجاهد مصر، ص١٠٨.

عن التصدي له، فاستعان بالقائد التركي أوشتيكين الرزيربي للتصدي له، غير أن حسان قد هزمه، واستولى على الرملة، وقام بنهب طبرية. (١) وقد أدى هذا الانتصار الذي أحرزه حسان بن مفرح على الدولة الفاطمية، وقائدها، إلى تمرد بقية عرب الشام الذين توجهوا إليه للتحالف معه ضد الفاطميين واقتسام أملاكهم في بلاد الشام. (٢)

فتحالف معه كل من سنان بن عليان البناء، وصالح بن مرادس، هذا الأمر الذي أدى إلى استتجاد القائد أوشتيكين البزيربي بالخليفة الظاهر لدين الله؛ لإرسال جنود من قبيلة لنجدة الشام، غير أن حالة الفوضى التي تعرضت لها مصر منعت الظاهر لدين الله من إنقاذ أملاكه بالشام، حتى أنه عجز عن تجريد المسافر للشام. (٣) لذلك، دخل حسان الرملة وقام بإحراقها، واستولى صالح بن مرادس على حلب سنة ٤١٧ هـ / ١٠٢٦ م، وبعثك، وقام بحصار دمشق، وجلس هؤلاء لتقسيم الدولة الفاطمية فيما بينهم. فصار لحسان الرملة إلى باب مصر، ولأخيه محمود طبرية، وما يتصل بها من الساحل، ولسنان دمشق، ولسوارها، ولصالح ما بقي من بلاد الشام. (٤)

لم يكن أمام الظاهر لدين الله إلا إقرار هذا الوضع في الاعتراف بشرعية حسان على الرملة، بل، وأعطى له إقطاع نابلس (٥) بناء على

(١) ابن الأثير : الكامل، ج ٩، ص ١٢٨ للمقريزي : المصدر السابق، ص ١٥١ -

١٥٢؛ محمد جمال الدين سرور: سياسة الفاطميين، ص ١٤٢.

(٢) المقريزي : للمصدر السابق، ص ١٥٢؛ ابن خلكان : وفیات الأعيان، ج ٢،

ص ١٢٨؛ أحمد الصاوي : المرجع السابق، ص ١٠٨.

(٣) الممبجي : أخبار مصر، ج ٤٠، ص ١٨٦ المقريزي : المصدر السابق، ص ١٥٢.

(٤) الأنطاكى : تاريخ الأنطاكى، ص ٢٨٩ للمقريزي : المصدر السابق، ص ١٥٧؛

ابن الصيرفي : الإشارة، ص ٧٠؛ أحمد الصاوي : المرجع السابق، ص ١٠٩؛

محمد جمال الدين سرور : المرجع السابق، ص ١٤١.

(٥) نابلس : وهي مدينة مشهورة بأرض فلسطين بين جهات، مستطيلة لا عرض لها وبها اجتماع السامرة، وهم طائفة من اليهود، يوجد بظاهرة المدينة مسجد يقرنون أن آدم عليه السلام سجد لربه هناك، وبها جبل يقول اليهود أن الخليل =

طلبه. (١) وكان ما فعله الظاهر لدين الله الفاطمي مع حسان بن مفرج هو إقرار رسمي بمدى عجز النوبة عن دفع متمرديها، ورعاية أملاكها، هذا الأمر الذي أعرض حسان بن مفرج إلى التطلع إلى مصر نفسها وامتلاكها، فأرسل سرية من ألف فارس إلى الفرما، ففر أهلها إلى تيسيس ثم إلى القاهرة هرباً منها. (٢)

لم يتردد حسان بن مفرج في الاستعانة بأعداء الدولة الفاطمية في البحيرة، وكذلك في برقة، من أجل الوصول للقاهرة، فأرسل إلى بني قره بالبحيرة يدعوهم لنصرتهم، ومؤازرته، ويعدهم ويعينهم، فقبلوا كتابه، وأرسلوا له بالموفقة، للأسباب نفسها التي جعلتهم يؤازرون أبا ركونة من قبل. ولكن رمول حسان قد قبض عليهم، وأخذت منه للكتب قبل أن يصل إلى حسان، وتم حبسه في خزانة البنود بالقاهرة حتى ٤١٦ هـ / ١٠٢٥ م. (٣) وظل بنو قره يتومون بأعمال المقلب، ولتهب ضد الدولة الفاطمية. (٤)

أما بنو قره ببرقة فقد استهانوا بالخلافة الفاطمية إلى أقصى حد، فأقاموا إنساناً يدعوهم بأمير للمؤمنين وحملوا رأسه على المظلة. (٥) إشارة إلى خلافته، وهو ما يسعى إليه عرب الشام، الذين أرادوا الاستيلاء على

- عليه السلام أمر بنوح ولده عليه، لأن في اعتقادهم أن نذبيح كان إسحق عليه السلام، وبها عين تحت كهف تعظمه السامرة، وبها بيت عبادة السامرة يسمى كزيرم. للمزيد راجع: القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، ص ١١٠.

(١) المقرئزي: المصدر السابق، ص ١٥٧؛ أحمد الصلوي: المرجع السابق، ص ١٠٩.

(٢) المقرئزي: لتعاطف الحلفاء، ج ٢، ص ١٦٢؛ أحمد الصلوي: مجامع مصر، ص ١٠٩.

(٣) المسيحي: أخبار مصر، ج ٤٠، ص ٨٨؛ ابن تغري بردي: النجوم، ج ٤، ص ٢٦٢؛ المقرئزي: المصدر السابق، ص ١٦٢؛ أحمد الصلوي: المرجع السابق، ص ١٠٩.

(٤) للمسيحي: المصدر السابق، ص ٦٠-٦٢، ٧-٧٧؛ المقرئزي: المصدر السابق، ص ١٦٩؛ هشام عبد القادر: إقليم الحوف الغربي، ص ٦٨.

(٥) النويري: نهاية الأرب، ج ٢٨، ص ٢٠٥؛ المقرئزي: المصدر السابق، ج ٢، ص ١٥٧.

مصر، وخراجها، وإنفاقه على رجالهم، مع الاحتفاظ بالسيطرة الاسمية للخليفة الفاطمي، وحقوقه في الخطبة، والمسكة^(١)، وظلت الأمور تسير من سيئ إلى أسوأ في بلاد الشام حتى قتل صالح بن مرادس، وهزم حسان بن مفرج.

كذلك كان الأمر في الحجاز التي عجزت الدولة عن الوفاء بما عليها من التزامات تجاهها، فهدد أهلها بنقل الدعوة للعباسيين، بخاصة بعد أن قُدم وفد منهم للقاهرة يطلب للميرة المتأخرة، ولم يجد مسؤولاً يجيبه عن طلبه^(٢)، وتحولت نحو الدولة العباسية.

لقد تعاضم فساد الدولة الفاطمية، وتعاضم عجزها عن حماية ممتلكاتها، ففي ٤٦٢هـ / ١٠٧٠م، في خلافة المستنصر بالله الفاطمي انططعت الخطبة للفاطميين بمكة، والمدينة، وخطب للخليفة العباسي^(٣)، وفي سنة ٤٦٣هـ / ١٠٧١م تقدم الأتراك السلاجقة في بلاد الشام، واستولوا على حلب، وبيت المقدس، والرملة، ثم دمشق في عام ٤٦٨هـ / ١٠٧٥م^(٤)، كما استقل قاضي صور بمدينته، واستقل قاضي طرابلس الحسن بن عمار بإمارته، وتتابع ضياع المدن، والقلاع من أيدي الفاطميين، وأقام السلاجقة الخطبة للخليفة العباسي، وقطعت للخليفة الفاطمي^(٥).

(١) المقرئزي : المصدر السابق، ج ٢، ص ١٦٠.

(٢) المقرئزي : المصدر السابق، ج ٢، ص ١٦٣ - ١٦٤ ابن تغري بردي : النجوم، ج ٥، ص ١٢٨ - ١٢٠ عبد المنعم ساجد : ظهور الخلافة الفاطمية، ص ١٨٤ أحمد الصاوي : المرجع السابق، ص ١١٠.

(٣) ابن الأثير : الكامل، ج ١٠، ص ٩٧، ٩٨، النويري : نهاية الأرب، ج ٢٦، ص ٢٠؛ ابن ميمر : أخبار مصر، ص ٤٢، ٤٣؛ ابن تغري بردي : النجوم، ج ٥، ص ٨٤.

(٤) النويري : المصدر السابق، ج ٢٨، ص ٢٤٧، ٢٧٣.

(٥) ابن خلكان : وفيات الأعيان، ج ١، ص ١٦١؛ المقرئزي : فتاوى العنفا، ج ٢، ص ٣١٠؛ أحمد الصاوي : مجاعات مصر، ص ١١٣؛ محمد مرسي أنشيخ : تاريخ مصر الإسلامية من الفتح العربي حتى نهاية عهد الدولة الفاطمية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ص ١٩٩٣.

أدى صناد اندولة الفاطمية إلى إهمال الجيش، والأسطول، مما سهل مهمة الصليبيين في الاستيلاء على بعض مدن الشام فيما عرف بالحملة الصليبية الأولى. (١) ٤٩٦ هـ / ١٠٩٩ م، السذي استولى فيها أنصليبيون على أغلب المدن الساحلية في بلاد الشام، كما استولوا على بيت المقدس. (٢) ولم يخطر ببال الأفضل بن بدر الجمالي وزير مصر في ذلك الوقت الأخطار المحدقة بمصر، وبالعالم الإسلامي، لدرجة أنه فكر في التحالف مع البيزنطيين ضد السلاجقة المسلمين. (٣)

وقد أدت هذه الهزائم المتوالية للدولة الفاطمية، وتقلص أملاكها شرقاً، وغرباً، إلى سخط الناس في مصر، ولاسيما بعد أن ساءت العلاقة التجارية بين مصر، والشام، ومصر، وأوروبا، (٤) فازدادت الاضطرابات الداخلية، ودخل الصليبيون مصر، أثناء النزاع بين كل من ثاور، وضرغام. وقد تراجعوا عندما علموا بأن جنود نور الدين ستهاجم ممتلكاتهم في الشام، فعادوا خائبين فحق عليهم التمل: "ذهب النعامه تطلب كرنين فعدت بلا أنفين". لولا تدخل جيوش نور الدين محمود التي حسمت الأمر، وأقرت صلاح الدين الأيوبي وزيراً للدولة الفاطمية، وقد استطاع صلاح الدين القضاء على الدولة الفاطمية، ومذهبها، فعاد المذهب السني، وعانت الخطبة للعباسيين. (٥)

(١) المقرئزي: المصدر السابق، ص١٣١ محمد مرسي الشيخ: المرجع السابق، ص١٧٣.

(٢) ابن ميسر: المصدر السابق، ص٦٥؛ ابن تغري بردي: المصدر السابق، ص١٤٤، ١٤٤؛ محمد مرسي الشيخ: المرجع السابق، ص١٧٣، ١٧٤؛ محمد جمال الدين سرور: النفوذ الفاطمي، ص١٢٩ - ١٣٦.

(٣) ابن ميسر: المصدر السابق، ص٦٩؛ النويري: المصدر السابق، ج٢٨، ص٢٤٧، ٢٧٣؛ المقرئزي: الخطط، ج١، ص١٥٦ - ١٥٧؛ ابن تغري بردي: المصدر السابق، ص١٥٣، ابن خلكن: المصدر السابق، ص١٧٩؛ محمد مرسي الشيخ: المرجع السابق، ص١٦٩؛ مصود سعيد عمران: تاريخ الحروب الصليبية (١٠٩٥ - ١٢٩١م)، دار المعرفة للجامعة، الإسكندرية، ٢٠٠١، ص٢٩ - ٤٠.

(٤) راشد البراوي: حالة مصر الاقتصادية، ص٢٤١.

(٥) أبو شامة: للروضتين، ج١، قسم ٢، ص٤٥٧، ٤٩٢؛ ابن ولصل: -

وقد تم هذا الأمر في هدوء تام فلم تتطرح فيه عنزان^(١)، واستقبل
المصريون هذا التحول بنفس السلبية، واللامبالاة التي استقبلوا بها المذهب
الإسماعيلي من قبل.

أدت مظاهر الفساد المختلفة داخل للدولة لفاطمية، وضعف
السلطة المركزية، وزيادة سطوة الوسطاء، والوزراء، وكثرة التنازع بين
فئات الجند المختلفة، إلى انتشار الفوضى، واضطراب الأمن، وغياب
الأمان، والاستقرار^(٢)، هذا الأمر الذي أدى بدوره إلى إهمال شؤون
البلاد، وعدم زراعة الأرض على الرغم من ارتفاع مسموب النيل، فدخلت
مصر في العديد من المجاعات التي أودت بالكثير من أهلها، بعد انهيار
اقتصادها. (٣)

وقد أدى هذا الوضع من الانهيار، والضعف إلى ظهور العديد من
حالات التمرد، فكثرت الثورات التي أرادت الاستقلال عن الدولة
الفاطمية، وإسقاط دعوتها. سواء كان ذلك في المناطق التابعة للدولة
الفاطمية في بركة، وطرابلس، وأفريقية، وللشام. (٤) أو في مصر متمر
الخلافة الفاطمية نفسها، هذا الأمر الذي أدى إلى تزلزل أركان أندولة،
وهز عرشها، فأخذت الدولة تتفك بسخاء للقضاء على تلك الثورات فسي
وقت كانت فيه في أمن الحاجة إلى تلك الأموال، ففرغت خزائنها وانهار
اقتصادها. (٥)

= مرجع للكروب، ج ١، ص ٢٠٢-٢٠٢، ابن خلكان : وفيات الأعيان، ج ١،
ص ١٥٧؛ الفوري : نهاية الأرب، ج ٢١، ص ٣٠٢، ٣٤٤، ٣٦٤؛ المقرزي؛
تعاظ الحنفاء، ج ٣، ص ٣٢٥، ٣٢٦؛ ابن تخرى بردي : للنجوم، ج ٥، ص ٣٥٥ -
٣٦٣؛ للسيوطي: تاريخ الخلفاء، ص ٤٤٥ - ٤٤٧؛ محمد مرسي الشيخ :
تاريخ مصر، ص ١٧٤؛ محمد جمال الدين مسرور : سياسة لفاطميين،
ص ٣٤٨.

(١) أبو شامة : المعصن السليق؛ ج ١، ص ٤٩٣؛ ابن الأثير : الكامل؛ ج ١١،
ص ١٦٩.

(٢) الفوري : المعصن السليق، ج ٢٨، ص ٢٣٤؛ المقرزي : إغاثة الأمة، ص ٢١ -
٢٣؛ تماظ الحنفاء، ج ٢، ص ٢٦٢ - ٢٦٣.

(٣) أحمد الصلوي : مجاعات مصر، ص ١٠٧.

(٤) محمد عبد الله علان : الحاكم بأمر الله، ص ١٧٥؛ عبد المنعم ساجد : ظهور
الخلافة الفاطمية، ص ١٣٣ - ١٤٠.

(٥) أمينة الشوربجي : رؤية الرحالة، ص ١٥٥.

استطاعت الدولة الفاطمية أن تتصدى، ولو مؤقتًا لتلك الحركات
الاستقلالية، إلا أنها عجزت عن الاستمرار في حماية ممتلكاتها، وكذلك
دعوتها الشيعية، وسيطرتها الروحية على بعض الأماكن مثل صقلية،
والحرمين، واليمن. (١) مما أدى إلى ضعفها، ووهنها، فأصبحت كالرجل
المريض الذي وانته المنية، ولم يصبح له أثر، بعد أن قامت الدولة
الأيوبية بدعوتها السنية، ففضت على الدولة الفاطمية، ودعوتها الشيعية
نهائيًا في مصر، والقاهرة، وبلاد المغرب، وبلاد الشام.

بد ضياع ممتلكات الخلافة الفاطمية في المغرب الإسلامي :

أدى صغر سن الحاكم بأمر الله إلى طمع الطامعين في الحكم،
وكان على رأسهم أوصياؤه، وطوائف جيشه؛ حيث نطلعت طائفة المغاربة
التي أصابها الضعف في عهد العزيز بالله بسبب الاستعانة بطوائف
المشاركة، إلى توطيد نفوذها، وقد ساعدها على ذلك تولي زعيمهم ابن
عمار الذي كان مقدمًا للمغاربة^(٢)، تولي الوساطة في عام ٣٨٦هـ /
٩٩٦م، مما أثار غضب المشاركة، وزعيمهم برجوان. (٣) قنشت الحرب
المسلحة بينهم سنة ٣٨٧هـ / ٩٩٧م، والذي انتهت بعزل ابن عمار. (٤)
ففرض برجوان زعيم المشاركة سيطرته على الحاكم بأمر الله، كما أخذ
المشاركة في ميطرتهم، وفسدهم مستغلين اضطراب الأمن في البلاد،
وضعف حالتها الاقتصادية التي تأثرت سلبًا بكثرة المجاعات المتصلة التي
استغرقت معظم خلافة الحاكم بأمر الله. (٥)

(١) محمد عبد الله عنان : للحاكم بأمر الله، ص ١٧٥ عبد المنعم ماجد : ظهور
الخلافة الفاطمية، ص ١١٤.

(٢) ابن القلتاسي : نيل تاريخ دمشق، ص ٤٤، ٤٥ المقريزي : الخطط، ج ٢،
ص ٥٧، ٥٨ أحمد الصوري : مجاعات مصر، ص ٧٨.

(٣) المقريزي : المصدر السابق، ص ٥٠، ابن الأثير : للكامل، ج ٧، ص ١٧٧،
عبد المنعم ماجد : الحاكم بأمر الله، ص ٣٠، ٣١ أحمد الصاوي : المرجع
السابق، ص ٧٨.

(٤) ابن الصيرفي : الإشارة، ص ٢٦ - ٢٧ عبد المنعم ماجد : المرجع السابق،
ص ٣٥ ظهور الخلافة الفاطمية، ص ٣٠٩.

(٥) ابن القلتاسي : المصدر السابق، ص ٥٥ ابن خلكان : وفيات الأعيان، ج ١، ص -

ولعل هذه الأسباب هي التي أدت إلى اتجاه الحاكم بأمر الله إلى اتباع سياسة السفك، والقتل التي عمت الجميع من فئات للدولة دون استثناء، فشغلت الزعماء، والكتاب، والقضاة، والشعراء، والمعنيين، والخدم، كما أنها لم تفرق بين لليهودي، والانساني، والمسلم. (١) مما أدى إلى سخط الخاصة، وانعامة عليه، وفي تلك الظروف المضطربة، ظهرت أولى الحركات الانفصالية التي استغلت ضعف الدولة، وانشغال جيشها، وكثرة الفساد بها، وانبعث أول خطر حقيقي هز أركان الخلافة الفاطمية في مصر، وجاء هذا الخطر من بلاد المغرب، الذي قامت الخلافة الفاطمية على أكتاف رجاله، وقد تمثل هذا الخطر في الثورة التي قام بها أبو ركة في برقة بالمغرب.

استطاع أبو ركة أن يجمع حوله العديد من العناصر للغاضبة على سياسة الفاطميين ودعوتهم، فاجتمع حوله قبيلة لواته (٢) وجموعها من

= ص ٢٤٤ - ٢٤٥ عبد المنعم ماجد : المرجع السابق، ص ١٣٥ ظهور الخلافة الفاطمية، ص ٣٠٩.

- (١) ابن سعيد : النجوم الزاهرة في حلى مصر، لقسم الخاص بالقاهرة، ص ٥٨.
- (٢) قبيلة لواته : وهي قبائل بربرية الأصل، على الريف، أي أنها من البربر البتر، كانت تقطن ليبيا ليبيا خلال الفتح الإسلامي، في سنة ٢٤ هـ / ٦٤٣ م، وهناك قول بأن اسم ليبيا ولده للكبرى يرجع إلى تسمية هذه القبيلة، كانت تقيم في برقة وسرت وأطراف طرابلس، وهي أول قبيلة أسلمت، ثم أصبحت من أكثر العناصرين للإسلام إيجابية، ملكوا أسفل الأرض (الوجه البحري) وأصبحوا يزرون كما يربون بلا خراج، وانفردوا بالزراعة واستقروا عن بيع الغلات، وأصبحوا يسيبون قلائد للدولة الفاطمية وقد ساعدتهم على ذلك كثرة المزارعات والاضطرابات فيها، فكانوا سبباً في زيلنة حدة الأزمان والمجاعات.
- للمزيد راجع : ساويرس بن المقفع : مبرق لبيعة المقدسة، ج ٣، ص ٢٠٢، ص ١٨٢، ٤١٨٣ الأنطاكي : تاريخ الأنطاكي، ص ١٣٥٧ للميد عبد العزيز سالم : تاريخ المسلمين وأثارهم في الأندلس من لفتح العربي حتى سقوط الخلافة بقرطبة، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨١ م، ص ٢٠.

البربر السلية، وكذلك قبائل زنانة من البربر^(١)، وعددًا من القبائل العربية المقيمة ببرقة، مثل قبيلة بنو قره^(٢)، وبنو سليم^(٣)، وكانوا جميعًا على عداء مع الدولة الفاطمية الشيعية.^(٤) وعلى الرغم مما كان بين هذه القبائل من حروب ودماء، فإنهم قد وضعوها، وبايعوا أبا ركوته للقضاء على الدولة الفاطمية.^(٥)

(١) التبر : هم قسم من أقسام البربر، سكنوا البداية، انقسموا إلى أربع قبائل وهم : ضريسة، ونفوسة، وأداسة، وبنو لؤاي أو لواته، وتنقسم ضريسة إلى مكناسة وزناته، ويعتبر بنو خلون أن قبيلة زناته فرعا من فروع البربر فلتما بذاته، ومن زنلته جرسه ومغراهه، وبنو قرقن، وبنو زيلن، وبنو مزين، ولكل قبيلة بطون وأخاذ لا يمكن حصرها. لمزيد من التفاصيل راجع : السيد عبد العزيز سالم : المرجع السابق، ص ٢٠، أحمد إسماعيل الجمال : في تاريخ المغرب والأندلس، جامعة بنههور، ص ٦٥٥.

(٢) بنو قره : وهم من القبائل العربية التي استقرت بمنطقة البحيرة منذ الفتح العربي، دخلوا في خلاف مع الدولة الفاطمية، وقد استحكم هذا الخلاف زمن الحاكم بأمر الله، حيث إن زعيمهم مختار بن القاسم، قد سار ومن معه مع يحيى بن علي بن حمدون الذي أرسله للحاكم بأمر الله ليخرج قول بن سعيد من طرابلس، وعندما جرت عليهم الهزيمة فعادوا إلى برقة فتلكر لهم الحاكم بأمر الله فامتصوا عنقه، فبعث لهم بالأمان، وعندما قدم وفدهم إلى الإسكندرية فتشهم العاكم بأمر الله رحلوا من مصر إلى برقة ٣٩٦هـ / ١٠٠٦م ماخطين على الحكومة القاهرة، وكانوا يمثلون دائما مصدرا للمعارضة والإزعاج للخلافة الفاطمية، ذلك عندما دعاهم أبو ركوته استجابوا له. راجع : القنفذني : صبح الأعشى، ج ١، ص ٤١٧ ابن خلدون : تاريخ بن خلدون، ج ٤، ص ٦١١؛ المقرئني : اتعاف الحنفاء، ج ٧، ص ٦٠، ٦٨، عبد المنعم ماجد : ظهور الخلافة الفاطمية، ص ٢١١ محمد عبد الله عنان : للحاكم بأمر الله ص ١٨٧ أمينة الشوربجي : رؤية الرحالة، ص ٥١٧.

(٣) بنو سليم : من القبائل التي أتت مصر مع الغرامطة، وكانت كثيرة للشغب مما أدى إلى أن الخليفة العزيز بالله نقلهم إلى قاصد فاستقروا هناك وأصبحت لهم قوة تخشاهم الدولة الفاطمية، حيث كونوا جبهة معارضة لها. راجع : أمينة الشوربجي : رؤية الرحالة، ص ٥١٧ ابن خلدون : المصدر السابق، ج ٦، ص ١٣.

(٤) ابن ظفر : أخبار الدول، ص ٤٤؛ أمينة الشوربجي : رؤية الرحالة، ص ١٦.
(٥) ابن خلدون : تاريخ بن خلدون، ج ٤، ص ٦٢٢ محمد جمال الدين سرور : سياسة الدولة الفاطمية، ص ٢٢٣.

استغل أبو ركة المياسة الدلية التي كان يتبعها بعض الخنفاء الفاطميين في التعصب للمذهب الشيعي وسب ولعن الصحابة، في إشارة الصراع المذهبي في نفوس هؤلاء البربر، الذين كانوا يعتقدون أن مذهب السنة من مذاهب المسلمين، فأظهر لهم أنه ليس راغباً في حيازة ملك لنفسه، وأن عرضه هو تصرة نين الإسلام، والامتصاص من السبب، واللعن لأصحاب صاحب الشريعة وأزواجه؛ حيث إنهم الأنفة وعماد الدين. (١) فخطب فيهم خطبة بليغة سب فيها الحاكم بسأمر الله وأسلافه، وذكر معاصيهم. (٢) ويذكر جمال الدين أنه قد دعا إلى عمه هشام المزهد الخليفة الأموي. (٣)

كذلك استغل سوء الأحوال الاقتصادية في البلاد وعجز الدولة عن الوفاء بما عليها من التزامات نحو شعبيها، فجمع حوله العديد من التباثل التي تعيش تحت خط الفقر بسبب للمجاعات، والقحط، والأمراض، وانعدام الكوات، والتي وجدت في مصر فرصة للحصول على الخنساء التي وعدهم بها أبو ركة، حيث اعتبر أن مصر دار حرب للكفار وأعطى جيشه حق ملب ونهب، كل ما يتأمله، كما وعد تلك القبائل، والتي منها بنو قره، وزنانية بأن يكون لها ثلثا الخنساء، ويكون لها الثلث (٤)، وقد أقر لهم نصره، وملكه لمصر. (٥) فوجد العرب في هذه الحركة فرصة سواتية للقضاء على أعدائهم الفاطميين، والحصول على مسميهم من ممتلكاتهم في حالة انتصار أبي ركة، وتقسيمه مصر بينهم (٦)، ولاسيما

(١) الأنطاكى : تاريخ الأنطاكى، ج ١، ص ٣٥٩؛ أمينة الشوريجي : المرجع السابق، ص ٥١٦.

(٢) ابن ظافر : المصدر السابق، ص ٤٥؛ ابن تغري بردي : النجوم، ج ٤، ص ٢١٥؛ عبد المنعم ماجد : ظهور الخلافة، ص ٢٠٩؛ هشام عبد القادر : إقليم الحوف الغربي، ص ٥٨.

(٣) محمد جمال الدين سرور : المرجع السابق، ص ٢٢٣.

(٤) ابن الأثير : الكامل، ج ٨، ص ٤٣؛ ابن ظافر : أخبار اللوي، ص ٤٤؛ ابن خلدون : المصدر السابق، ص ١٦٢؛ أمينة الشوريجي : المرجع السابق، ص ٥١٧.

(٥) ابن ظافر : المصدر السابق، ص ٤٥؛ الأنطاكى : المرجع السابق، ص ٣٥٩؛ أمينة الشوريجي : المرجع السابق، ص ٥١٧.

(٦) ابن الأثير : الكامل، ج ٨، ص ٤٢؛ ابن خلدون : تاريخ بن خلدون، ج ٤، ص ١٦١؛ المقريزي : اتعاط الحنفاء، ج ٢، ص ٦٠؛ محمد جمال الدين سرور : مدينة الفاطميين، ص ١٢٢.

بعد ما تعرضوا له من ظلم، وتهجير، وقتل لزعمائهم زمن الحاكم بأمر الله^(١).

في عام ٣٩٥هـ/١٠٠٤م، تحرك أبو ركة انقائز من الغرب؛ حيث بدأ حركته من برقة، واستطاع أن يستولي على مدن كثيرة بعد قتال عنيف مع أهل تلك المدن، فقتل أعداداً غفيرة من أهل المناطق، مما أزعج الخليفة الحاكم بأمر الله، ودفعه إلى تجهيز جيش من المشارقة، والمغاربة بقيادة نبال الطويل أحد القواد للترك^(٢)، لقتال أبي ركة، غير أن هذا الجيش قد هزم، وأسر نبال، وقطع لرياً لرياً، حيث أخطأ الحاكم بأمر الله في اختيار هذا القائد التركي الذي كان جاهلاً بطبيعة البلاد، كما أنه كان من الأتراك الذين كسروهم المغاربة - أغلب جيشه - حيث قام بقتل العديد من زعمائهم فكرهه جيش المغاربة^(٣)، كذلك كره المغاربة الوقوف أمام بني جنسهم فأصابهم الفتور في القتال، فاننصر أبو ركة انتصاراً عظيماً، واستولى على برقة، وأعلن المذهب السني بعد أن قضى على المذهب الشيعي، ولقب بأمر المؤمنين للناصر لدين الله، وسكت للعملة باسمه^(٤).

أعد الحاكم بأمر الله حملة ثانية اعتمد فيها على المشارقة فقط؛ حتى يتقاضي ما حدث في الحملة الأولى^(٥)، التي قادها الأمير فاتك الذي اشتبك مع أبي ركة في منطقة الحمام - من أعمال الإسكندرية. هزم فيها

(١) أحمد الصاوي : مجاعات مصر، ص١٠٧؛ عيد المنعم ماجد : ظهور الخلافة الفاطمية، ص٢١٠؛ الأنطاكي : تاريخ الأنطاكي، ص٣٦٢.

(٢) ابن تغري بردي : النجوم، ج٤، ص٢١٦؛ عيد المنعم ماجد : الحاكم بأمر الله، ص٣١؛ ظهور الخلافة الفاطمية، ص٩١٠؛ أحمد الصاوي : المرجع السابق، ص١٠٧؛ أمينة الثوريجي : رؤية للرحالة، ص٥٦.

(٣) ابن تغري بردي : المصدر السابق، ص٢١٦؛ عيد المنعم ماجد : المرجع السابق، ص٢١.

(٤) الأنطاكي : تاريخ الأنطاكي، ج١، ص٢٦٢؛ ابن الأثير : المصدر السابق، ج١١، ص٣٥٥؛ ابن الجوزي : المنتظم، ج١٥، ص١٥٤؛ ابن تغري بردي : المصدر السابق، ص٢١٦؛ عيد المنعم ماجد : المرجع السابق، ص٢١٠؛ أمينة الثوريجي : المرجع السابق، ص٥٦.

(٥) المقرئزي : الفسطح، ج٤، ص١٦٩؛ عيد المنعم ماجد : المرجع السابق، ص٣١٠.

فانتك وقتل هو وكثير من أصحابه^(١)، ساعد هذا النصر الذي أحرزه أبو ركوته على جيش الحاكم بأمر الله، على التوغل داخل مصر وكان ذلك في سنة ٣٩٦هـ / ١٠٠٥م، مما أقلق للحاكم بأمر الله، ولاسيما في ظل فرحة أهل مصر بذلك. فأظهر الحاكم قلقه، وندمه كما اعتذر عما فعله من سب، ولعن الصحابة^(٢) حتى إن بعض المؤرخين يذكرون أن أهل مصر قد كاتبوا أبا ركوته يستدعونه، ومنهم الحسين بن بوهر^(٣) ويذكر البعض الآخر أن ذلك كان بتدبير الحاكم نفسه لكي يسترجعه^(٤).

جهز الحاكم بأمر الله جيشاً عظيماً أنفق عليه أموال الدولة التي بلغت ألف ألف دينار ذهباً من البربر، والأتركة، والديلم، والسودان، وانضم إليهم بعض المصريين الذين ذهبوا ليدافعوا عن بلادهم وذلك بعد أن أخذ أتباع أبي ركوته ينهبون خيرات البلاد، ويخربون في طريقهم كل ما يمرون عليه، فأكثروا الفساد في قرى مصر، وانتهكوا حرمتهم^(٥). فخربت البلاد وفرغت خزائن للدولة، وحل البلاء، والقحط بعد أن توقفت الحياة في قرى مصر وصعيدها^(٦). إلى أن هزم أبو ركوته في الفيوم بمنطقة رأس البركة^(٧) وقتل كثير من جنده، قتلوا بثلاثين ألفاً^(٨) أما أبو

(١) الأنطاكي : للمصدر السابق، ص ٢٦٤؛ عبد المنعم ماجد : المرجع السابق، ص ٢١٠، ٢١١.

(٢) ابن الأثير : للتامل، ج ٨، ص ٤٤٣؛ ابن خلدون : تاريخ بن خلدون، ج ٤، ص ١٦٢؛ يذكر الدكتور / ماجد أن ذلك علم ٣٦٩هـ. وهذا على سبيل الخطأ الطبيعي. عبد المنعم ماجد : ظهور الخلافة الفاطمية، ص ١٢١ تحت جمال الدين سرور : سيطرة الفاطميين، ص ٢٢٣.

(٣) ابن حنبل : أخبار بني عبيد، ص ٩٧؛ المقرئ : التخلط، ج ٢، ص ٢٨٦.

(٤) ابن الأثير : للمصدر السابق، ص ٤٣؛ ابن خلدون : المصدر السابق، ص ٦٢.
(٥) للمقرئ : اتعاظ الحنفا، ج ٢، ص ٦٢؛ عبد المنعم ماجد : المرجع السابق، ص ٢١٠.

(٦) الأنطاكي، تاريخ الأنطاكي، ص ٢٦٤؛ أمينة للشوربجي : رؤية فرحاتية، ص ٥١٨.

(٧) الأنطاكي : للمصدر السابق، ص ٢٦٦؛ ابن تغري بريد : الفرج، ج ٤، ص ٢١٦؛ عبد المنعم ماجد : المرجع السابق، ص ٢١١.

ركوة فقد ذهب للحاكم بأمر الله مكرماً. (١) فأمر الحاكم أن يشهر به على جمل، وألبسه طرطوراً طويلاً، وخلفه قرده، وبيده ذرة بضربه بها، كذلك زيتت القاهرة لهذا الحدث العظيم (٢)، أما أبو ركوة فلم ييأس، وأرسل للحاكم بأمر الله يستحفظه للعفو عنه في قصيدة نذكر منها :

يا مولانا : الذنوب عظيمة، وأعظم منها عفوك، والتماء حرام ما
لم يظلمها سخطك، وقد أحسنت وأساءت، وما ظلمت إلا نفسي، وموء عملي
أدبني، وأقول :

فررت لم يعن الفرار ومن يكن مع الله لم يعجزه في الأرض هارب
والله ما كان الفرار لحاجة سوى فزع الموت الذي أما شارب
وقد فادني جرمي إليك برمتي كما خر ميت في رجا الموت سارب
وأجمع كل الناس أنك قساتي فيا رب طن ربه فيمك كاذب
وما هو إلا الانتقام وينتهي وأخذك منه ولجبا لك واجب (٣)

لم يحن الحاكم بأمر الله لكلمات أبي ركوة، وأمر بقتله في سنة ٣٩٧هـ / ١٠٠٦، ١٠٠٧، إلا أنه مات على جملته، وفي رواية أخرى ضرب عنقه ثم أمر الحاكم بأمر الله بصلب جسده؛ ليكون عبرة لمن يخرج على الدولة. (٤)

على الرغم من مقتل أبي ركوة فإن القبائل للعربية في صعيد مصر، والبربرية المعادية للدولة للفاطمية ظلت تشارك في كل معارضة ضد الدولة سواء كان ذلك بمساعدة أهل الشام، أو بالثورات التي تحدث في مصر بين وزرائها، وجنودها، أو بالثورات التي كانت تحدث في بلاد

- (١) يذكر ابن تغري بردي أن قلند للمعركة للفضل بن صالح لراد أن يهمل به للحاكم بأمر الله حيناً، فبالغ في إكرامه حتى لا يقتل نفسه، النجوم، ج٤، ص٢١٦.
(٢) ابن تغري بردي : المصدر السابق، ص٢١٦ - ٢١٧؛ عبد الملحم ماجد : المرجع السابق، ص٢١٣؛ أمينة الشوريجي : المرجع السابق، ص٥١٨.
(٣) ابن الأثير : الكامل، ج٩، ص٢٠٢.
(٤) ابن تغري بردي : النجوم، ج٤، ص٢١٧؛ عبد الملحم ماجد : ظهور الخلافة الفاطمية، ص٢١٢؛ أمينة الشوريجي : رؤية الرحالة، ص٥١٨.

المغرب، وظلت شوكة في ظهر الدولة الفاطمية تتحكم في اقتصادها، واستقرارها حتى تقلصت لملاكها وتلاشت معالمها للأبد.

عندما ذهب المعز لدين الله الفاطمي إلى مصر، فضل ترك بلاد المغرب في يد أحد أبنائه من المغاربة علي أن يكون تابعاً له في مصر، وقد قصد المعز لدين الله ذلك حتى يستقيم له الأمر في بلاد المغرب، ولاسيما في ظل الجلاء المستمر بين قبائله المختلفة، وكذلك لرد الجمين للمغاربة الذين ساندوه في إقامة نولته في المغرب وكذلك في مصر، لذلك ترك حكم المغرب لقبيلة صنهاجة^(١)، بينما كانت قبيلة كتامة، وهي فرع من فروع صنهاجة معه في مصر، وكانت صنهاجة معظمها من الحضرة، أو ما يعرف باسم "البرانس"، الذين كانوا علي عداوة مستمر مع "البترة" - البدو - من قبيلة زناتة أنصار الأمويين بالأندلس، وأعداء الفاطميين.^(٢)

وقع اختيار المعز لدين الله علي يوسف بن زيري بن مناد لصنهاجي الذي اشتهر باسم بلكين، أو بلقين، ووضع له شروطاً تكفل بقاءه، وخلفه من بعده خاضعين للخلافة الفاطمية، فجعل للقضاء والمخارج تابعين للخلافة الفاطمية في القاهرة، فكانت سجلات القضاء في مصر

(١) قبيلة صنهاجة : تحكي أكبر قبائل البربر البرانس حتى أنهم زعموا أنها منسلقة للثلاث منهم، استقرت قبائل صنهاجة في بداياتها في شمالي الصحراء الكبرى. وبعد وصول الإسلام أصبحوا منتشرون أيضا في بلاد السودان (أي على ضفاف نهري السنغال والديجر). بدأت قبائل صنهاجة تستقر تلقائياً في الأطلس المتوسط منذ القرن التاسع للميلاد، كما في جبال الريف وعلى الساحل الأطلسي للمغرب جزء من الصنهاجيين استقروا في شرق الجزائر (كتامة)، وتبعوا دوراً هاماً في وصول الفاطميين للسلطة، سلاطات صنهاجية مثل الزيرويون والحماديون حكموا في إفريقية حتى القرن الثاني عشر، وكان منهم بنو زيري بن زيري بن مناد لصحاب أفريقية وكذلك المعتضون (المرابطون). للمزيد راجع : ابن الأثير : الكامل، ج٧، ص١٢١ - ١٢٤؛ ابن خلدون : تاريخ بن خلدون، ج٦، ص١٣٠٦؛ السيد عبد العزيز مالم : تاريخ المعلمين وأشرفهم في الأندلس، ص٢٠٠؛ أحمد إسماعيل الجمال : في تاريخ المغرب والأندلس، ص٥٥.

(٢) ابن خلدون : المصدر السابق، ص١٥٢ - ١٥٣؛ عبد المليم ماجد : ظهور الخلافة الفاطمية، ص٢٠٧، ٢٠٤؛ محمد جمال الدين سرور : سوانسة الفاطميين، ص٢٢٥.

تشمل بلاد المغرب. (١) وغير ذلك من الأمور التي تكفل تبعية بلاد المغرب لخلافة القاهرة، وقد عمد المعز لدين الله أن يخرج ولاية 'طرابلس'، و'برقة' عن نفوذ الزيريين، فعين عليهما واليًا من قبله (٢)، وقد سكنها قبائل بربرية معظمها من السنة مثل قبيلة مزانة، وزناتة، ولواتة. (٣)

استمر النفوذ الفاطمي سائدًا في إفريقية حتى ولى إمارة بنى زيري أبو مناد باديس الصنهاجي الذي طمع في ولاية 'طرابلس'، فعمد إلى محاربة واليها من قبل الحاكم بأمر الله الفاطمي، هذا الأمر الذي أدى إلى استعانة الحاكم بأمر الله بالبتر من زناتة - أعداء صنهاجة - فحاربوا باديس، وهزموه، فمضى باديس جاهداً في الانتقام من الدولة الفاطمية؛ لذلك فقد عمل على تشجيع ثورة أبي ركة التي قامت في 'برقة' ضد الخلافة الفاطمية، ومن ثم فلم يتحرك الزيريين لنصرة الخلافة، بل عملوا على هلاكها. (٤)

لم يستسلم باديس الصنهاجي حتى استطاع الاستيلاء على 'طرابلس' عام ٤١١هـ / ١٠١٩م مستغلاً الصراعات التي انتابت قبيلة زناتة بعد وفاة زعيمهم، وكذلك لشغال الحاكم بأمر الله بفساد الأحوال في مصر والشام (٥)، ولذلك لم يجد الحاكم بأمر الله أمامه سوى اتباع المهادنة، وللذين مع باديس، لذلك فقد طلب ودد مثلما فعل أسلافه من قبل مع الزيريين، ولم يقتصر الأمر على ذلك بل ضم إليه ولاية 'برقة'، وأعمالها أيضًا ٤٠٣هـ / ١٠١٢م، حتى تستقر الأمور، ويأمن جانبه. (٦)

(١) عبد المنعم ماجد : للمرجع السابق، ص ٢٠٥.

(٢) نفسه، ص ٢٠٧.

(٣) نفسه، ص ٢٠٨.

(٤) ابن خلدون : البيان للمغرب، ج ١، ص ٣٥٦؛ ابن خلدون : المصدر السابق، ج ٩، ص ١٥٨؛ عبد المنعم ماجد: للحاكم بأمر الله، ص ١٥٦؛ ظهور الخلافة الفاطمية، ص ٢٠٦، ٢٠٨.

(٥) ابن الأثير : الكامل، ج ٧، ص ٣٧٢؛ عبد المنعم ماجد : للمرجع السابق، ص ٢٢٤؛ محمد جمال الدين سرور: المرجع السابق، ص ٢٢٦.

(٦) ابن خلدون : البيان للمغرب، ج ١، ص ٤٧٣ - ٤٧٥؛ المبدع عبد العزيز سالم : تاريخ المغرب في العصر الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، -

أراد المستنصر بالله أن يتبع نفس سياسة جده الحاكم بأمر الله في ضرب للقبائل ببعضها، فاستجاب لرأي الوزير اليازوري الذي أراد الانتقام من المغربي بانيس الذي أساء معاملته ومخاطبته في إرسال قبائل بني هلال الذين استقروا في صعيد مصر، وتسببوا كثيراً في المضايقات للخلافة في القاهرة، وقد أُرلد اليازوري ضرب عصفورين بحجر واحد، فإن هُزم بنو بني هلال فقد تخلصت الخلافة منهم، وإن نجحوا فقد تخلصوا من الزيرين.^(١) وبالفعل كان النصر لبني هلال الذين عاثوا فسي بلادهم المغرب فساداً، وساروا وراء المعز الذي شرکه أنصاره، ففر إلى القيروان ومنها إلى المهديّة.^(٢) وقد أتبع قيم بن المعز نفس سياسة والده في الخروج على الدولة الفاطمية، فقطع الخطبة لهم، وخضع للمرابطين^(٣) الذين ظهرت دولتهم في جنوب بلاد المغرب.^(٤)

- ٢٠ بدون تاريخ، ص ٥٦٨، ٥٦٩؛ عبد المنعم ماجد : ظهور اتخلفة لفاطمية، ص ٢١٤؛ محمد جمال الدين سرور : سياسة الفاطميين، ص ٢٢٧.
- (١) ابن خلدون : تاريخ بن خلدون، ج ٦، ص ١٢ - ١٤؛ ابن ظافر : أخبار الدول، ص ٦٨؛ ابن سعد : النجوم، الجزء الخاص بالقاهرة، ص ٤٣؛ محمد جمال الدين سرور : المرجع السابق، ص ٢٢٨.
- (٢) ابن الأثير : الكامل، ج ٩، ص ١٩٦ - ١٩٧؛ ابن خلدون : المصدر السابق، ص ١٥؛ محمد جمال الدين سرور : المرجع السابق، ص ٢٢٩؛ السيد عبد العزيز سالم : تاريخ المغرب، ص ١٥٢٤؛ عبد المنعم ماجد : المرجع السابق، ص ٢٢٥.
- (٣) دولة المرابطين : تعني القيام بتخلفاً خيماً على شعور المسلمين لحمايتهم والنخاع عنها، ومن هنا أطلق عليهم اسم المرابطين، ويُنسب المرابطون إلى قبيلة جدالة بموريتانيا، وأصلهم يعود إلى صنهجة.
- وكانت أوضاع جدالة في منتهى الضاء والاكتئاب، ففكر قائدهم يحيى بن إبراهيم، منذ يقبل يُبصّلح أحوال قبيلته ؟ فاستدعى رجلاً يدعى عبد الله بن ياسين لكي يعظ هؤلاء الناس، وتنشأ دولة المرابطين من هذه الدعوة، وبعد وفاة عبد الله بن ياسين في سنة ٤٥١هـ / ١٠٥٩م، يتولى أبو بكر بن عمر الفلمتوني زعامة المرابطين بعد أن كان قد انضم هو وقبيلته إلى المرابطين، ويزداد أعداد المرابطين في عهده، وتتوسع الدولة.
- لمزيد من التفاصيل راجع : ابن خلدون : المصدر السابق، ص ٣٧٤؛ السيد عبد العزيز سالم : المرجع السابق، ص ٦٠٤ - ٦٠٥.
- (٤) عبد المنعم ماجد : المرجع السابق، ص ٢٢٤ - ٢٢٥؛ أحمد الصاوي : مجاعات مصر، ص ١١٧؛ محمد جمال الدين سرور، المرجع السابق، ص ٢١٥.

زاد ضعف الدولة الفاطمية، وازداد فسادها ولاسيما في ظل تدخل أم المستنصر في أمور الدولة، وصراع الجند، وكذلك تزايد الأخطار التي واجهت الدولة من الشرق الإسلامي، فعجزت عن حماية نفسها، وحماية ممتلكاتها، فتركت المغرب، وشأنه، حتى خرج من حوزتها ولاسيما في ظل المصادمات العنيفة التي حدثت بين العرب، فأخذت كل قبيلة تعمل لحسابها، وتتقاتل مع غيرها لبقائها. (١) ولعن النزاع بين قبيلة بني هلال العربية، وزناته البربرية، التي أخرجت لنا القصة الشهيرة التي وصفت لنا البطل أبا زيد الهلالي، وعدوه خليفة الزناتي - التي مزجت بالخيال - من أشهر تلك المصادمات في بلاد المغرب. (٢)

ويحل بعض المؤرخين هذا إلى مبالغة الفاطميين في الاستخفاف بالدين، وبسب الصحابة، وادعاء الألوهية، ودعوة الناس لعبادة بعضهم، وكثرة الصراعات التي صمت تولتهم؛ مما أدى إلى خروج المغرب من حوزتهم، ومن ثم فقد حذى أهل برقة، وطرابلس، حذى ملوك المغرب، وتخلصوا من حكم الفاطميين لهم، ودعوا للخلفاء العباسيين. (٣)

[٤] الانهيار الاقتصادي القائم وزوال الدولة الفاطمية :

لا شك أن كثرة الحروب، والصراعات الداخلية، وضياع ممتلكات الدولة الفاطمية في الشرق والغرب جعل خزائن الدولة خاوية على عروشها، واقتصادها قد انهار تماماً، ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد، بل صارت للخلافة الفاطمية الشعبية تحت حماية قوة كبرى تدعى بالمشرك السني، وتتبع الخلافة العباسية، وهي قوة نور الدين محمود ممثلة في صلاح الدين الأيوبي القابض على زمام الأمور في مصر آنذاك. (٤)

(١) ابن عذاري : البيان المغرب، ج ١، ص ٤٢٣، عبد المنعم ماجد : ظهور الخلافة الفاطمية، ص ٢٢٨.

(٢) السيد عبد العزيز سالم : تاريخ المغرب، ص ٥٨٥ - ٥٨٧، عبد المنعم ماجد : المرجع السابق، ص ٢٢٨.

(٣) ابن عذاري : المصدر السابق، ص ٤١٦، السيد عبد العزيز سالم : المرجع السابق، ص ٥٧٩.

(٤) ابن واصل : مغرب العرب، ج ١، ص ٢٠٠.

وبعد إلحاح من نور الدين محمود لإسقاط الخلافة الفاطمية لتتخذ صلاح الدين الأيوبي الخطوة الأخيرة، والخطيرة فتم الاعفاء في أول جمعة من عام ٥٦٧هـ / ١١٧١م، وهذا يدل على أن الفساد قد أنهك قوى الفاطميين، ولم يعد لديهم قدرة على المقاومة. وبعد ذلك اتخذ صلاح الدين عدة إجراءات حاسمة للقضاء على آثار الخلافة الفاطمية في مصر، ونزع المناطق الغضة التي كانت بمحاريب جوامع القاهرة، والتي كانت تحمل أسماء الخلفاء، والفاطميين. (١)

ولا ريب أن سقوط الخلافة الفاطمية لم يكن مجرد انقلاب عادي، وإنما كان حدثاً خطيراً في تاريخ العالم الإسلامي بوجه عام، وفي تاريخ مصر بوجه خاص. فهي دولة الفاطميين تتناهر مع قرنين من الزمان تقريباً لتعود للعالم الإسلامي وحدثه المذهبية. (٢)

والحقيقة التاريخية للمؤكدة أن الفساد مهما طال أمده، واستوحش في الأرض، وتقوى لابد أن يكون مصيره الحتمي إلى الزوال فتد أذى فساد الدولة الفاطمية في عديد من النواحي إلى انفرط عقدتها، وضياح ممتلكاتها، ونهاية نفوذها.

وكيفما كان الأمر، فالدولة تقوى بقوة اقتصادها، وتضعف، وتناهار بانهياره فقد أدى عدم الاهتمام بالاقتصاد، وعمليات الخراب، والتدمير، وضياح الممتلكات إلى تحميل خزانة الدولة أكثر مما تطيق وصار المال للمنفق كثير جداً والوارد إلى الخزنة ضئيلاً جداً بل انعدم في فترات الضعف، والوهن فصاعت الدولة بضياح الاقتصاد، وفساد القائمين عليه.

(١) المقرئزي : السلوك، ج ١، ص ٢٣ - ٤٥.

(٢) المقرئزي : السلوك، ج ١، ص ٤٦.

ومن الواضح أن غياب الرؤية، والهدف وعدم وجود خطة ثابتة للتنمية في شتى المجالات بجانب إيكال الأمر لغير أهله وتغليب المصلحة الشخصية على المصلحة العامة كل هذه الأسباب مجتمعة كانت وراء انتشار مظاهر الفساد في مصر أثناء الحكم الفاطمي، ونتج عنها فساد سياسي، وإداري، واجتماعي، واقتصادي انتهى بزوال الدولة الفاطمية.

الخاتمة

الختام

بعد أن استعرضنا في الفصول السابقة كل ما يتصل بمظاهر الفساد في مصر في العصر الفاطمي، نشير إلى أهم النتائج التي تم التوصل إليها خلال هذا البحث، فقد خلص الباحث إلى عدة نتائج من أبرزها :

- ظاهرة الفساد من الظواهر القديمة التي عرفت منذ بدء الكون واستخلاف البشر في الأرض، وقعت أول جريمة قتل على سطح الأرض، عندما فسد الأخ وحقد على أخيه، واستنكر قبول قربانه من الله عز وجل، فأقدم الأخ القاتل وهو قابيل وقتل أخاه هابيل.
- توجد ملامح ثابتة للفساد في كل زمان، ومكان، وفي شتى بقاع العالم، ولكن توجد بعض الإشكاليات لهذا الفساد ومظاهره مختلف عليها إلى حد ما، حيث إن ما يمكن وصفه فسادًا في دولة ما، أو عصر سابق أو لاحق لا يعد فسادًا عند دولة أخرى، وذلك متوقف على الثقافة والهوية والحضارة والتعاليم الدينية والسلوكيات التي تميز مجتمعًا عن آخر، كما تتفاوت درجات هذا الفساد من مجتمع لآخر حسب ثقافات هذا المجتمع وكذلك مراحل قوة الدولة أو ضعفها، ومدى تمسكها بمقومات الصلاح والإصلاح.
- يبدأ الفساد دائمًا صغيرًا، كالكائن الحي، ثم يتدرج في النمو، حتى يستغل أمره ويسري في جسد الأمة، حتى تسقط وتنتهى ويتلاشى أمرها، وتترك المجال لخيرها للقيام على أنقاضها، ويظهر هذا جليًا خلال الدراسات السابقة على مر العصور، ففي مصر الإسلامية - على سبيل المثال - جاءت الدولة العباسية على إثر فساد الدولة الأموية، وجاءت الدولة الإخشيدية بعد استئصال الفساد في الدولة الطولونية وقامت الخلافة الفاطمية لاستئصال الفساد في الدولة الإخشيدية، وكذلك قامت الأيوبية والملوكية والعثمانية، فيكون الفساد دائمًا بداية النهاية لأي دولة.

- أورد ابن خلدون : أن مظاهر فساد الدولة تبدأ كمرحلة ثانية، حيث تقوم الدولة في بدايتها على البساط وتتشغل بالبحث عن العصبية، ثم تتشغل بما وصلت إليه من قوة وازدهار، فتتغمس في البذخ والترف، فتبدأ مظاهر الفساد في الظهور، بعد أن ينشغل الحكام عن شؤون دولتهم وتضع القوى المحيطة في الوصول إلى السلطة، ويختل ميزان الدولة، ويتصرف عن مسارها الطبيعي، وتكثر الصراعات والفتن حتى ينتهي أمر الدولة بدولة أخرى تبدأ من جديد.

- تبين خلال الدراسة والبحث أن الدولة الفاطمية في مصر قد خالفت تلك القاعدة؛ حيث إنها لم تشهد الفترة الأولى من حياتها البسيطة في عصر دون المرور بالمراحل البدائية التي تمر بها باقي الدول، حيث إن الدولة الفاطمية قد مرت بهذه المرحلة في بلاد المغرب، فكانت في حالة من التثقف والازدهار والبحث عن العصبية، لذلك فقد جاءت مصر قوية غنية مزدهرة، فانتقلت من ازدهار والتثقف إلى الرفاهة والترف والبذخ المتبالغ فيه. أي أنها انتقلت بشكل مفاجئ من التقيض إلى التقيص، فانغمست في برام الفساد، حيث ثبت عظمياً أن الانتقال السريع من الشيء إلى نقيضه يؤدي إلى الفساد الحتمي.

- أثبتت الدراسة أن تلاعب الفاطميين بعقيدتهم لتحقيق أغراضهم وأهدافهم أدى إلى الفساد الديني فقد غير الفاطميون في قواعد الميراث الشرعي لجعل الميراث للإناث بالكامل حال عدم وجود ذكور عند موت الأب؛ وذلك ليثبتوا أحقية السيدة فاطمة - رضوان الله عليها - في ميراث الرسول - ﷺ -، وبالتالي هم ورثة السيدة فاطمة وكذلك الأحق بميراث الخلافة والحكم بالعالم الإسلامي.

- كانت الدولة الفاطمية دولة دينية تعتمد على الحكم الديني الوراثي غير أنها قد أفرزت العديد من المذاهب للدينونة السياسية والتي منها تقديس الحاكم وعصمة الإمام من الخطأ وإعطاؤه الحق

المعترف في التأويل وخطأ الذين بالسياسة وعدم الخروج على الحاكم مهما عظم فساده وتأثرت بعض المجتمعات ذات الحكم الديكتاتوري ببعض هذه المذاهب فقمع شعوبهم وإضفاء صيغة دينية على أنفسهم لضمان عدم الخروج عليهم.

- تحددت وتباينت الطوائف العسكرية داخل الدولة الفاطمية، فهما بين السود والأتراك والمغاربة والأرمن الذين تمارعوا فيما بينهم منذ أول وجود لهم في مصر، وظهر فسادهم على أهل البلاد الذين عانوا من فسادهم وظلمهم وتجربهم على أملاكهم وأعراضهم، هذا الأمر الذي ازداد في العصر الفاطمي الثاني، حيث عاش الجند فساداً في البلاد، وتجربوا على الخليفة نفسه كما تحكّموا في توليه الخليفة أو عزله.

- لعبت الدبلوماسية دوراً كبيراً في الدولة الفاطمية فقد بلغت الدولة أقصى اتساع لها بفضل الدعاة الذين حملوا الدعوة الشيعية الفاطمية وانتشروا بها في شتى البقاع حتى أن الجيش الفاطمي لم يخض أية معارك توسعية إلا فيما ندر ولم يدخل في اختبار حربي حقيقي، وحتى في المراحل الأخيرة للدولة عندما تقلصت ممتلكاتها في الشرق والغرب، لم يستطع الجيش تقديم الحماية المطلوبة حتى سقطت الدولة؛ لأنه لتصرف منذ البداية عن عمله الملغوب به.

- اتضح للباحث أن قوة الدولة مرهونة بقوة حكامها وثبات أنظمتها وحسن هيكلتها الإدارية وتحديد الاختصاصات بها، ولكن عندما تغيب هذه المعايير ويلعب الوزير دور الحاكم ويدخل الجيش في أمور الحكم وينغمس في المملذات ويبعد عن ميادين الحرب والقتال وتختفي هوية الدولة، كل هذه الأمور مجتمعة تؤدي إلى فساد الدولة وزوالها وهذا ما حدث بداخل الدولة الفاطمية بمصر.

- مرت الدولة الفاطمية في مصر بفترتين متميزتين؛ بدأت الأولى منها بوصول جوهر الصقلي إلى مصر (٣٥٨هـ/٩٦٩م) وفتحت باندلاع الحرب الأهلية التي اجتاحت مصر زمن المستنصر بالله

لفاطمي، والفترة الثانية هي فترة الحكم المطلق للوزراء العسكريين التي تبدأ بوزارة أمير الجيوش بدر الجمالي وتنتهي بوصول صلاح الدين بن أيوب إلى قمة السلطة في مصر سنة (٥٦٤هـ / ١١٦٨م) وسقوط الخلافة (٥٦٧هـ / ١١٧١م).

- وفي خلال هذه للفترة الأولى التي قضها الفاطميون في مصر، لم يحاولوا اتخاذ إجراءات حاسمة لتحقيق حلمهم في حكم العالم الإسلامي وتكوين إمبراطوريتهم التي حلموا بها، بل نجحوا بتشغولوا بمشاكل عقائدية وطموحات شخصية وبخاصة في عهد الحاكم بأمر الله، وعلى الرغم من الازدهار الواضح للدولة في بداية حكم المستنصر بالله، ووصول الدولة إلى أقصى اتساع لها، فإن مظاهر الفساد للمختلفة التي عمت مصر، ونقشي الحروب الأهلية وتدخل أم للمستنصر في أمور الدولة، وفساد الهيكل الإداري فيها، بالإضافة إلى المعاجات التي حلت بمصر، كل ذلك أدى إلى انهيار الدولة وفشل الخليفة في التصدي لهذا الفساد، فاستعان بالقائد العسكري بدر الجمالي.

- أقام بدر في مصر حكمًا عسكريًا مطلقًا، استمر أولاً في أسرته حيث نقل سلطته إلى ابنه الأفضل شاهنشاه (٤٦٦ - ٥١٥هـ / ١٠٧٢ - ١١٢١م) ثم إلى حفيده علي بن الأفضل كتيفات، الذي تولى أثناء الاضطراب الذي عقب وفاة الخليفة الأمر بأحكام الله سنة ٥٢٤هـ / ١١٣٠م، وتعد فترة الحكم المطلق لأسرة بدر الجمالي هي نقطة التحول مع للسياسة الفاطمية بالصفة العسكرية، حيث وصل عدد كبير من الوزراء إلى الحكم بعد ذلك بفضل مؤازرة الفرق العسكرية لهم، وإن كان هذا سببًا في خلق العديد من المواجهات العسكرية التي انتشرت في العصر الفاطمي الثاني. وفي ظل هذا النظام أصبح الأئمة لفاطميون رموزًا لسلسلة متتابعة من الطغاة العسكريين.

- كانت الوزارة تؤخذ بعد السيف لمن يقدر عليها، أيًا كان مذهبه، فقد وصل للوزارة العديد من الوزراء الذين تهاضوا العناء

للمذهب الإسماعيلي، من أمثال علي بن الأفضل بن بدر الجمالي، وكذلك الوزير ابن مصلح، وابن السلار، وصلاح الدين بن يوسف، كذلك وصل إليها بهرام الأرميني المسيحي الذي وزر ندوة دينية وشيعية، واستند بأمر الدولة، وأساء السيرة في أهل مصر.

- اهتم الفاطميون طيلة وجودهم في مصر بيمس نفوذهم وسيطرتهم على الأراضي المقدسة في مكة والمدينة، رغبة منها في إثبات شرعيتها وكذلك بسط سيادتها على كل الأراضي الإسلامية، وعلى الرغم من ذلك لم يوجد أحد من الفاطميين قد أدى فريضة الحج على الرغم من حرصهم الشديد على إقامة الدعوة لهم على منابر مكة والمدينة، اللهم إلا المعز لدين الله الفاطمي الذي عزم على ذلك؛ ولكنه لم يتم به، ووجه الفاطميين جُل اهتمامهم إلى إحياء بعض المظاهر الإسلامية بقائمة وبذخ داخل عاصمة ملكهم.

- لم يستطع الفاطميون الحفاظ على عقيدتهم طيلة الوقت، بل أدى فساد الأمور في الدولة إلى انقسام الدعوة، ولاسيما بعد أن أبعد الوزير بدر الجمالي الابن الأكبر للخليفة المستنصر بالله نزاراً عن الخلافة، فانقسم الإسماعيليون إلى قسمين نزارية يؤيدون نزاراً وانتشروا في بلاد فارس، و"عسقية" أتباع الإمام الجديد، وانتشروا في مصر والشام واليمن، وبعد موت الخليفة الأمر بين الخليفة المستعلي سنة ٥٢٤هـ / ١١٣٠م، دون وريث وإعلان ابن عمه عبد المجيد نفسه خليفة باسم الحافظ لدين الله سنة (٥٢٦هـ / ١١٣٢م) ظهر انشقاق جديد بين الفرق المستعنية، التي انقسمت إلى "حافظية" استمرت في مصر، و"طبية" استقرت في اليمن والهند.

- وعلى الجانب الاجتماعي أوضحت الدراسة أن الطبقة الوسطى اختفت لفترات طويلة إبان الدولة الفاطمية لمصر حيث تحول المجتمع إلى طبقة قوية مهيمنة مسيطرة غنية ذات ثراء كبير

وفاخرن أحياناً وأخرى فقيرة معدمة تعيش بالكاد وهذا بدوره أدى إلى خلل في البناء الاجتماعي للدولة.

- كان العامة يمثلون أغلبية السكان في المجتمع المصري ويعدون العنصر المنتج بين طبقاته الذين بهم كان قوام العيش، إلا أنهم كانوا في أغلب الأحيان مغلوبين على أمرهم خاضعين لسلطة مهيمنة تملك بيدها كل أمور السياسة والاقتصاد، وتتحكم فيها وفق مصالحها الخاصة، وكانت الفسطاط مقر الحديد من العامة، ففي الوقت الذي كانت تتمتع فيه للقاهرة بالقصور الفخمة والمباني العظيمة والمرافق الصحية، وارتداع المنسوب الاقتصادي، كانت الفسطاط تحتفظ بسكانها، تُشقى بأمراضها، وتنتشر قوت يومها، كما كانت الإسكندرية بمثابة المنقذ الذي يثور فيه السنيون من جراء ظلم لفاطميين انشعبة حتى عرقها المؤرخون بأنها (مركز المقاومة السنية).

- عانى الشعب المصري أشد ويلات العذاب خلال تسلط أهل النعمة على أمور الدولة، وإساءتهم للمسنمين، كذلك القرارات التي اتخذت لإجبار السنة على اعتناق المذهب الإسماعيلي ومحاولة الفاطميين إيداء مشاعر المسلمين السنة عن طريق سب الصحابة ولعنهم على المنابر أثناء الصلاة، بالإضافة إلى الأحكام الجائرة التي اتخذها الحاكم بأمر الله والتي شملت المسلمين، وأهل النعمة، وكذلك النساء اللاتي ورد بشأنهن أول قانون يقضي على حرياتهن داخل المجتمع.

- عاش لفاطميون ما يقرب من قرنين في مصر، لم تتحدث المصادر عن زواج أحد الخلفاء الفاطميين من مصرية، بل كان أغلب زيجاتهم من السيدات للنصارى، فجاء العديد منهم من أب مسلم وأم نصرانية، مثل الحاكم بأمر الله، والمستعلي، والأمر بأحكام الله. ولعل هذا كان سبباً في عدم بقائهم في مصر، وربما كان الأمر قد تغير كلية إذا كان هناك خليفة فاطمي من أم مصرية.

- وعلى الجانب الاقتصادي كان النيل ولا يزال هبة مصر للمصريين وقد تأثر كثيرًا بفساد الحكام والوزراء والعسكر، فقد رفع الدول إلى قمة الازدهار في فترات القوة والعدانة والمساواة والنسب اللافت للنظر أنه جف وقل فيضانه في فترات الفساد كما لو أنه يشعر ويعيش كأحد أفراد المجتمع المصري. فشهدت مراحل القوة اهتمامًا بالنيل ومقاييسه أعقبتها إهمال شديد في مراحل الضعف وتصادف ندرة فيضان النيل مما انعكس على الدولة الفاطمية وأدى إلى انهيارها.

- عاشت مصر في كنف الدولة الفاطمية أزهى أيامها، وكذلك أشقاها، فقد حظيت الدولة بمجموعة من الأزمات الاقتصادية صحبتها للعديد من المجاعات التي أدت إلى موت وهلاك الكثير من أهل مصر ولاسيما العامة، فعلى الرغم من أن مصر عانت قبل الفاطميين من ويلات المجاعات، فإن العصر الفاطمي قد نال الحظ الأكبر منها، ولم تكن تلك المجاعات بفعل نقص مياه النيل أو زيادته، بل إن ضعف الخلفاء وانشغالهم عن أمور الدولة، والصراعات التي عمت عصري مصر الفاطمية، جعلت أرض مصر مسرحًا للحروب والنزاعات والفتن فانعدم الأمن، ومنعت الناس من الزراعة على الرغم من وجود المنسوب اللازم للزراعة، كما جعلت التجار يتلاعبون بالأسعار ويمارسون الاحتكار، هذا الأمر الذي أدى إلى انعدام الأوقات، وهلاك العديد من الناس.

- لم تكن المجاعات من الأمور التي تؤثر على الخلفاء لكثرة أموالهم وتحكمهم في أمور الدولة، بل كان الشعب هو دائمًا من يدفع الثمن، ففي الوقت الذي ينغمس فيه الحكام في مظاهر الترف والبدخ والاحتفال، كان الشعب يأكل القنطريون والكلاب من الشوارع، كذلك يأكل الميتى، حتى بلغ به الأمر إلى أن أكل الناس بعضهم بعضًا، ومات منهم للكثير.

- لم تعبأ الدولة الفاطمية بمعاناة الشعب أو حتى فقده، بل كان بعض الخلفاء وكذلك الوزراء في غياب الجمعيات يقومون بالدور نفسه، حيث أمر الحاكم بأمر الله بإحراق القسطنطينية من فيها من أناس، فهلك نحو ثلثيها ودمرت ديارها، وفعل القسطنطينية بأهلها كذلك فعل شاور دون وعي أو تفكير في صراعه مع ضرغام من أجل الوصول للوزلوة، وعلى الرغم من ذلك فقد وجدت الدولة الفاطمية في تلك المصائب التي حلت بالشعب المصري فائدة عظيمة أطلق عليها المؤرخون إيجابيات الأزمة.
- كانت نتيجة هلاك الغالبية العظمى من الشعب زيادة للملكيات الخاصة التي لم يوجد لها وارث شرعي، بالإضافة إلى سطر كبار رجال الدولة والصامعين ممن اعتادوا على انفراد الدولة إلى الاعتناء على الناس، واغتصاب أملاكهم، وقد أقرت الدولة ذلك، ففي وزارة الأفضل بن بدر الجمالي، وعلى الرغم من ثبوت الاعتداء فإن الأفضل قد أقر الوضع القائم مع إلزام المغتصبين بأداء الخراج من هذه الأراضي.
- أثناء الشدة المستصرية، زاد عدد الإقطاعيات في البلاد، وذلك نتيجة تسلط العداصر العسكرية ابتداء من ٤٦٧هـ / ١٠٧٤م، والتي أجبرت الدولة على إقطاعها تلك الأراضي نظير حمايتها، وكذلك بدلاً من مرتباتها التي عجزت الدولة عن سدادها.
- شهدت الدولة الفاطمية بمصر الفساد بأنواعه الذي تعددت أشكاله، وأنماطه فقد قام المعز لدين الله الفاطمي بالقتل والتعذيب والسلب لمن خالفه، أو اعترض عليه فقد أهدر أدمية البشر، وكذلك سكن القصور الفخمة وأنفق الذهب والجواهر ببذخ، وبعض شعبه جائع، وكثرت الوساطة والمحسوبية والبذل والبرطلة على عهد العزيز بالله وميز أهل انظمة عمن سواهم، وقام الحاكم بأمر الله بعدد من التناقضات والجرائم غير الأنمية وأبند مدينة القسطنطينية، وانغمس معظم الخلفاء الفاطميين في البذخ، والترف، والشهو، والتعيب، فأهملوا شؤون الدولة.

- أدى فساد الدولة الفاطمية إلى ضياع ممتلكاتها في برقة وطرابلس وأفريقية وكذلك ضياع ممتلكاتها في المشرق الإسلامي ولستولى السلاجقة على بعض أجزائها واستولى الصليبيون على البعض الآخر، وهناك السواد الأعظم من المصريين أثناء تلك الأحداث، بالإضافة لهلاكه أثناء المجاعات والأوبئة التي كثرت في العصر الفاطمي بجانب غياب العدالة الاجتماعية والمساواة وزيادة الفقر أثناء فترة تحكم الوزراء في مقاليد الأمور ككل هذه الأسباب مجتمعة أفسدت الحياة السياسية والإدارية، والاجتماعية، والاقتصادية، والدينية حيث أصبحت مصر مسرحاً لهذه الصراعات، كما أصبح أهل مصر وقوداً لها.

- على الرغم من فشل الفاطميين في تحويل أهل مصر إلى المذهب الشيعي، وعلى الرغم من سقوط الدولة الفاطمية وزوالها، فإن تأثيرها مازال مستمراً حتى الآن سواء في مصر أو غيرها، حيث استمرت الدعوة المستعنية - الطيبة في الهند، وكذلك الدعوة النزارية التي أطلق عليها الأوروبيون لفظ *Assassins* "الحشاشين" الموجود أتباعها في سوريا، وإيران، وباكستان.

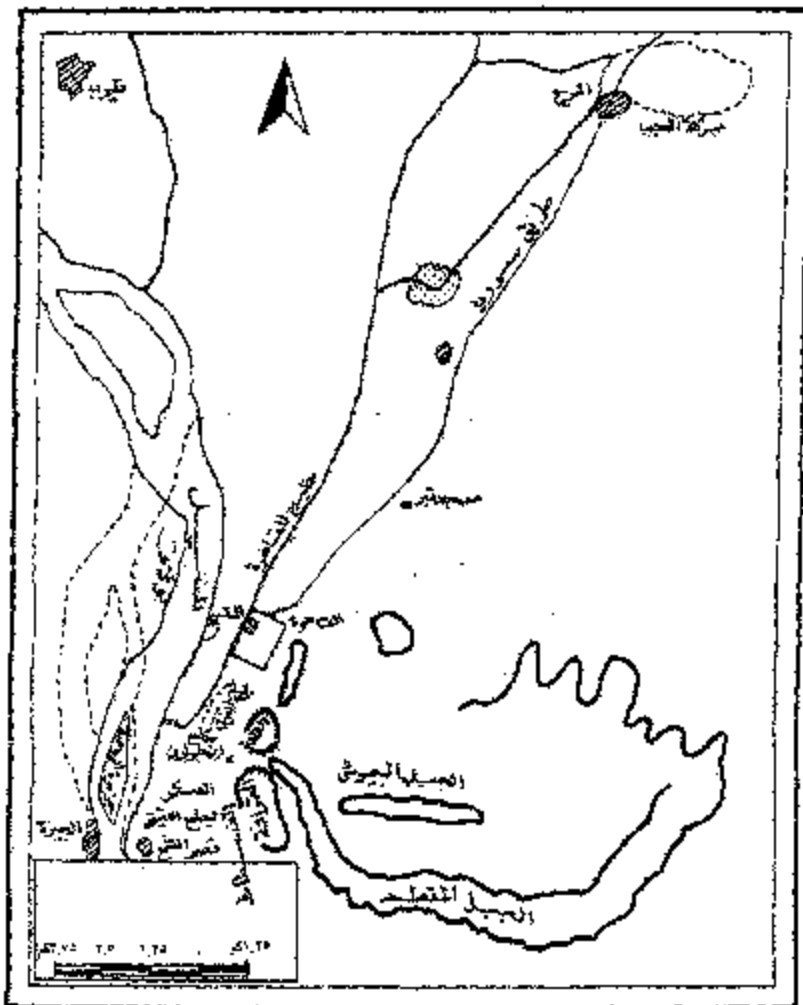
- أما المصريون في مصر فقد عاشوا على المذهب السني، غير أن التأثير الشيعي قد غلب على احتفالاتهم وأعيادهم، الذي تفاعل معها المصريون، فعاش المصريون على المذهب السني ولكن بتأثير شيعي، ويظهر هذا في احتفالات الفاطميين التي تفاعل معها المصريون وأحبوها لما كانت تمثل لهم من أهمية معنوية وترفيهية، بالإضافة إلى أهميتها الاقتصادية، حيث كانت توزع فيها العطايا من أموال وكسوة وطعام، وقد بقي من هذه الاحتفالات للكثير، ومازال المصريون يحتفلون بها وتذكر منها المولد النبوي الذي بدأ بدخول الفاطميين مصر ومع الخليفة المعز، فأفرطوا في صنع الحلوى بأشكالها المختلفة كالطيور والقطط والخيول والعرائس (عروسة المولد) التي توجد حتى الآن.

- كذلك بقي الاحتفال بليلة النصف من شعبان وأول رمضان ورأس السنة الهجرية وعيد النطر وعيد الأضحى، وكذلك عاشوراء، غير أن المصريين قد غيروا الاحتفال به من الحزن الذي يعم الفاطميين إلى السرور والفرحة.
- كذلك ظنت فواتيس رمضان، ودار الفطرة، مواعيد الرحمن، والتبرك بآل البيت، الحسن والحسين والسيدة زينب، وأسيدة أم هانم، والسيدة نفيسة - رضوان الله عليهم -، وغير تلك الكثير من التأثيرات الفاطمية الباقية على الرغم من زوال الدولة.
- كانت الدولة الفاطمية أول دولة شيعية وكذلك آخر دولة شيعية حكمت مصر حتى الوقت الحاضر، فجاءت الدولة الفاطمية ودخلت مصر دون مقاومة، ثم خرجت أيضًا دون مقاومة، استمرت ونمت وتزعرعت، ووصلت إلى أقصى اتساع لها ثم ما لبثت أن سقطت وتهاوت بفعل فسادها، وفساد أهلها، هذا الأمر الذي مهد لها الطريق من قبل؛ وأتاح لها دخول مصر، وذلك عندما استغل الفساد في الدولة الإخشيديّة مابقتها في مصر.
- على الرغم من تعدد مظاهر الفساد في الدولة الفاطمية والتي امتلأت صفحات البحث بها، فإن الدولة الفاطمية كانت تتمتع بالعديد من المزايا التي ميزتها عن غيرها في ذلك الوقت والتي حافظت على كيانها مدة القرنين التي قضتها في مصر، فكان لها من التقدم والازدهار ما شهد به الجميع، غير أن موضوع البحث قد ركز بشكل مباشر على سبببات هذه الدولة، التي أودت بها إلى السقوط والانحيار.

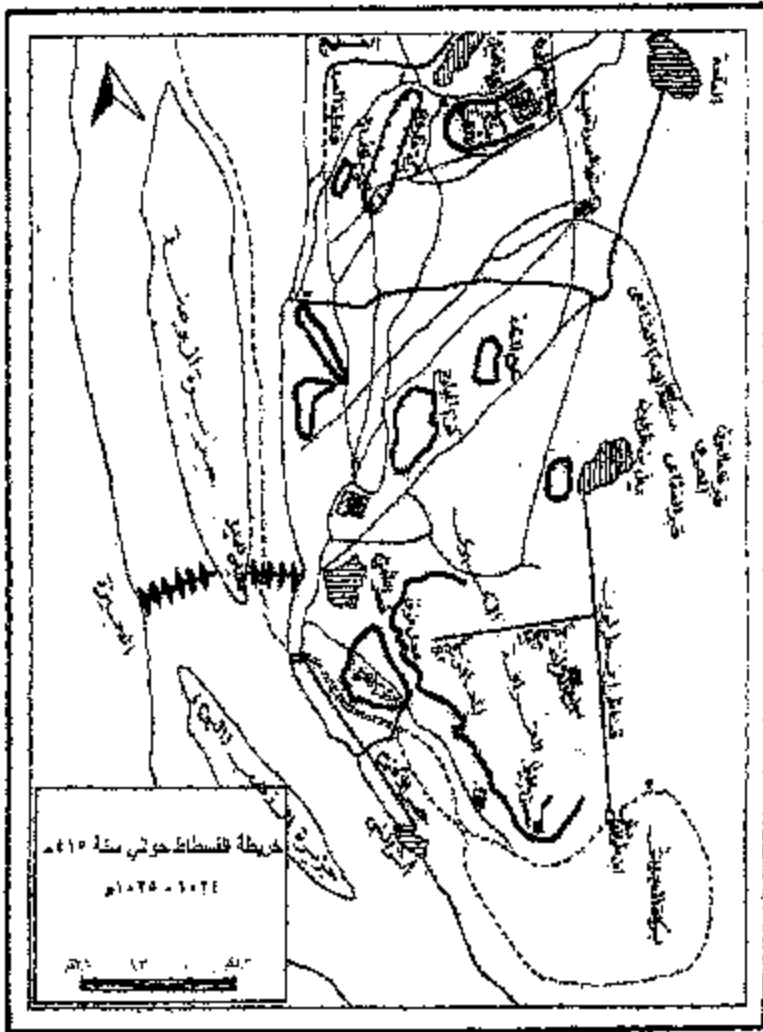


المصدر : حسين مؤنس : أطلال للتاريخ الإسلامي.

خريطة تخطيط نيل العاصفة - مصر
في نهاية القرن الرابع الهجري / العاشر



المصدر : للمسبحي : أخبار مصر في سنتين (٤١٤ - ٤١٥هـ) نقلًا عن : كتاب كرزويل
والغيز.



المصدر : المنسيحي : أخبار مصر في سنتين (٤١٤ - ٤١٥ هـ).

قائمة المصادر والمراجع

قائمة المصادر والمراجع

أولاً : القرآن الكريم.

ثانياً : الوثائق والمخطوطات :

١. دار الوثائق القومية : وثيقة رقم (١) سن مجموع حجج الأمراء والسلاطين.
٢. السجلات المستنصرية : مجلات وتوقيعات وكتب لمولانا الإمام للمستنصر بالله أمير المؤمنين صلوات الله عليه إلى دعاة اليمن وغيرهم قدم الله أرواح جميع المؤمنين، تحقيق: عبد المنعم ماجد، دار الفكر العربي، القاهرة، بدون تاريخ.
٣. مجموعة الوثائق الفلظمية : وثائق الخلافة وولاية العهد والوزارة، تعليق : د/ جمال الدين الشيباني، م ١، ط ٢، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٥.
٤. قانون العقوبات المصرية لسنة ١٩٣٧م، الوقائع المصرية، العدد (٧١)، الصادر في ١٩٢٣/٨/٥م.
٥. الذهبي الكامل (منصور) ت (١١٣٦هـ - / ١٧٢٣م) : كشف الأسرار العلمية بدار الضرب المصرية، مخطوط، محفوظ بدار المخطوطات، جامعة الملك سعود، تحت رقم (٢١٥٨)، ٣٣٢/٤، ١٢ق - ٢٥س، السعودية، ١١٣٥هـ.

ثالثاً : المصادر العربية المخطوطة :

٦. ابن الأثير [عز الدين أبو الحسن علي بن محمد]، ت (٦٣٠هـ / ١٢٢٣م) : الكامل في التاريخ، ١ - ١٢، دار صادر، بيروت، ١٩٦٥م - ١٩٦٧م.
٧. ابن الأثير [محمد بن محمد بن أحمد القرشي]، ت (٧٢٩هـ / ٣٢٩م) : معان القرية في أحكام الحسبة، تحقيق : محمد محمود شعبان، صديق أحمد عيسى المطيعي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٦م.

٨. الإدريسي [أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن إدريس
الشريف] ت (٥٦٠هـ / ١١٦٥م) : نزهة المشتاق في
اختراق الآفاق، ج ١، مكتبة الثقافة الدينية، بدون تاريخ.

٩. أسامة بن منقذ [مؤيد الدولة المظفر أسامة بن مرشد
الشيزري]، ت (٥٨٤هـ / ١١٨٨م) : "الاعتبار"، تحقيق :
فليب حتى، مطبعة جامع بونستون، الولايات المتحدة،
١٩٣٠م.

١٠. الاصطخري [أبو إسحاق بن إبراهيم بن محمد الفارسي]، ت
(٣٤٥هـ / ٩٥٢م) : مسالك شماليك، تحقيق : محمد جابر
عبد العال، مراجعة : شفيق غريبان، وزارة الثقافة، الجمهورية
العربية المتحدة، ١٩٦١م، طبعة ليدن، مطبعة بريل،
١٩٣٧م.

١١. الأصفهاني [أبو الفرج علي بن الحسين بن محمد القرشي]
ت ٣٥٦هـ : الأغاني، للمجلد السادس عشر، ط ١، شرحه
وكتب هوامشه : عبد أ. علي مهنا، دار الكتب العلمية،
بيروت، لبنان، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٦م.

١٢. الأتطاكي [يحيى بن سعيد بن يحيى الأتطاكي]، ت (٤٥٨هـ
/ ١٠٦٧م) : تاريخ الأتطاكي : للمعروف بصلة تاريخ
أوتيجا، تحقيق : عمر عبد السلام ترمزي، جروس برس،
طرابلس، لبنان، ١٩٩٠م.

١٣. ابن إلياس [أبو البركات محمد بن أحمد بن إلياس الحنفي]، ت
(٩٣٠هـ / ١٥٢٣م) : بدائع الزهور في وقائع الدهور،
ج ١، القسم الأول، تحقيق : محمد مصطفى، القاهرة،
١٩٧٥م.

١٤. بدر الدين العيني : السيف المهند في سيرة الملك للمؤيد
الشيخ المحمودي، ترجمة : فهد محمد شلتوت، مراجعة :
محمد مصطفى زيادة، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر،
القاهرة، ١٩٦٧م.

١٥. البغدادي [عبد القادر بن طاهر بن محمد البغدادي]، ت (٤٢٩ هـ / ١١٣٧ م) : الفرق بين الفرق، تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد، المكتب المصرية، بيروت، ١٩٩٥ م.
١٦. البغدادي : [عبد اللطيف موفق الدين عبد اللطيف] : (ت ٦٢٩ هـ / ١٢٣١ م) : الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعينة بأسرطن مصر أو رحلة عبد اللطيف البغدادي، ط٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٨ م.
١٧. البكري [أبو عبيد الله بن عبد العزيز]، ت (٤٨٧ هـ / ١٠٩٤ م) : جغرافية مصر في كتاب المسالك والممالك، تحقيق : عبد الله يوسف الخنيم، الكويت، ١٩٨٠ م.
١٨. البلاذري [أبو الحسن أحمد بن يحيى بن جابر السيلاني]، ت (٢٧٩ هـ / ٨٩٢ م) : فتوح البلدان، مراجعة وتحقيق رضوان محمد رضوان، دار الكتب العلمية: بيروت، لبنان، ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م.
١٩. البلوي [أبو محمد عبد الله بن محمد بن عنبر بن محفوظ العديني]، من علماء القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي : سيرة أحمد بن طولون، تحقيق : محمد كرد علي، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ٢٠٠٣ م.
٢٠. ابن تغري بردي [جمال الدين أبو المحاسن يوسف]، ت (٨٧٤ هـ / ١٤٧٠ م) : النجوم الزاهرة في أخبار ملوك مصر القاهرة، ١ - ١٦، نسخة مصورة من مطبعة دار الكتب مع استراكات وفهارس جامعة القاهرة، بدون تاريخ.
٢١. تميم بن المعز لدين الله الفاطمي : ديوان تميم بن المعز لدين الله الفاطمي، دار للكتب المصرية، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٣٧٧ هـ / ١٩٥٧ م.

٢٢. ابن نيمية [تقي الدين أحمد بن عبد الحلیم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم]، ت (٧٢٨هـ / ١٣٢٧م) : السيرة للشرعية في إصلاح الراعي والرعية، مراجعة وتعليق : محمد عبد الله السمان، الرياض، السعودية، ١٩٥١م.
٢٣. ابن جُبَيْر [أبو الحسين محمد بن أحمد الكتاني الأندلسي البلتسي]، ت (٦١٤هـ / ١٢١٧م) : رحلة بن جبیر، المصنفة تذكرة الأخبار من اتفاقات الأسفار، تحقيق : حسين نصار، دار صادر، بيروت، ١٩٦٤م.
٢٤. ابن الجوزي [أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد القرشي البغدادي]، ت (٥٩٧هـ / ١٢٠١م) : المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ٥ - ١٠، دائرة المعارف العثمانية، الهند، ١٣٥٧هـ - ١٣٥٩هـ.
٢٥. الجهيشياري [أبو عبد الله محمد بن عبدومن] : الوزراء والكتاب، ط١، تحقيق : مصطفى السقا وآخرون، ط٢، م، القاهرة.
٢٦. الجوزي [أبو علي منصور العزيمي] ت (بعد سنة ٣٨٦هـ / ٩٩٦م) : سيرة الأستاذ جَوْنَر، وبه توقيعات الأئمة الفاطميين، تحقيق وتقديم : محمد كامل حسين، ومحمد عبدالله شعيبره، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٥٤م.
٢٧. حاجي خليفة [مصطفى بن عبد الله المسمى بكتاب شلبي]، ت (١٠٦٧هـ / ١٦٥٧م) : كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، م١، دار الفكر للطباعة والنشر، بون تاريخ.
٢٨. ابن حجر العسقلاني [شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي]، ت (٨٥٢هـ / ١٤٤٨م) : رفع الإصر عن قضاة مصر، جزءان، تحقيق : حامد عبد المجيد وآخرون، قسم نشر التراث القديم، القاهرة، ١٣٧٦هـ / ١٩٥٦م.

٢٩. الحسن بن موسى : فرق الشيعة، تحقيق : عبد المنعم الحفني، دار الرضاء، القاهرة، ١٩٩٢م.
٣٠. ابن حماد [أبو عبد الله محمد بن علي بن حماد بن عيسى] ت (٦٢٦هـ / ١٢٣٠م) : أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم، تحقيق ودراسة : الهمامي نفرة، عبد الحلیم عويس، دار للصحة، القاهرة، بدون تاريخ.
٣١. ابن خلدون [ولي الدين أبو زيد عبد الرحمن بن محمد الحضرمي الأشبلي]، (ت ٨٠٨هـ / ١٤٠٦م) : العبر وديوان للمبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من نوي السلطان الأكبر، ١ - (٧) بولاق، ١٢٨٤هـ. "المقدمة" ١-٣، تحقيق علي عبدالواحد وافي، دار نهضة مصر، القاهرة، ١٩٧٩م.
٣٢. ابن خلكان [شمس الدين أبو العباس أحمد بن محمد]، ت (٦٨١هـ / ١٢٨٢م) : وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، الأجزاء ١ - ٨، تحقيق : إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٩هـ - ١٩٧٢م.
٣٣. ابن دقماق [إبراهيم بن محمد بن أيمن العلافي] : الانتصار لولسطة عقد الأمصار (في تاريخ مصر وجغرافيتها). القسم الأول، تحقيق : لجنة إحياء التراث العربي، دار الأفاق الجديدة، بيروت، بدون تاريخ.
٣٤. اللؤاداري [أبو بكر عبد الله بن أبيك] ت (٧٣٦هـ / ١٣٣٥م) : الدررة المضيئة في أخبار الدولة الفاطمية، ج ١، من كتاب كنز الدرر وجامع الفرر، تحقيق: صلاح الدين المنجد، مطبعة لجنة التأليف والترجمة، القاهرة، ١٣٨٠هـ / ١٩٦١م.
٣٥. الذهبي [شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز]، ت (٧٤٨هـ / ١٣٤٧م) : تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق : عمر عبد السلام

تكمري: الطبعة الثالثة، دار الكتاب العربي، ١٤١٨هـ — /
١٩٩٨م.

٣٦. _____ : العبر في خير من عبر،

ج٣، تحقيق : أبو هاجر السعيد بن بسبوني، ط١، دار الكتب
العلمية، بيروت، لبنان، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م.

٣٧. _____ : سير أعلام النبلاء، ج١٦،

تحقيق : شعيب الأرنؤوطي، ط١١، مؤسسة الرسالة، بيروت،
١٤١٩هـ / ١٩٩٨م.

٣٨. الرازي [محمد بن أبي بكر عبد القادر] : مختار الصَّحَاح،

ترتيب : محمود خاطر، دار الكتب المصرية، للقاهرة، بدون
تاريخ.

٣٩. ابن زولاق [أبو الحسن حمد بن زولاق المصري] ت

(٣٨٧هـ / ٩٩٧م) : فضائل مصر وأخبارها وخواصها،
تحقيق على محمد عمر، الهيئة المصرية العامة للكتاب،
القاهرة، ١٩٩٩م.

٤٠. ساويرس بن المقفع أسقف الأشمونيين [توفي أولخر القرن

أثرايخ الهجري / العاشر الميلادي] : تاريخ بطاركة الكنيسة
المصرية، للمعروف باسم 'مير البيعة المتنسة'، م١، ج١،
طبعة باريس، مطبوعات جمعية الآثار القبطية، قسم
النصوص والوثائق، بدون تاريخ، م٢، ج٢، نشر :
عيسى عبد المسيح وآخرون، القاهرة، ١٩٥٩م، م٣، ج١،
م٢، ج٢، نشر أنطوان خاطر وآخرون، القاهرة، ١٩٦٨،
١٩٧٢م.

٤١. سبط بن الجوزي [شمس الدين أبو المظفر يوسف بن

قراوغلي]، ت (٦٥٤هـ / ١٢٥٦م) : مائة الزمان في تاريخ
الأعيان، م٨، حيدر آباد الركن، الهند، ١٣٣٧ - ١٣٣٩هـ.

٤٢. السخاوي [شمس الدين محمد بن عبد الرحمن بن محمد]، ت (٩٠٢هـ / ١٤٩٧م) : الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، ١-٢، مكتبة القنسي، القاهرة، ١٣٥٣-١٣٥٥.
٤٣. ابن سعد [محمد بن سعد بن منيع الزهري]، ت (٢٢٠هـ / ٨٤١م) : الطبقات الكبرى، تحقيق : إحسان عباس، ج ٢، بيروت، بدون تاريخ.
٤٤. ابن سعيد [علي بن سعيد المغربي]، ت (٦٨٥هـ / ١٢٨٦م) : "المغرب في حلى المغرب"، انقسم الخاص بالفسطاط، تحقيق : ذكي محمد حسن، سيدة إسماعيل كاشف، شوقي ضيف، جامعة فؤاد، القاهرة، ١٩٥٣م.
٤٥. _____ : "النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة"، الجزء الخاص بالقاهرة من كتاب المغرب في حلى المغرب، تحقيق : حسين نصار، مركز تحقيق التراث، القاهرة، ١٩٧٢م.
٤٦. السبوطي [جلال الدين أبو الفضل عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد]، ت (٩١١هـ / ١٥٠٥م) : حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، جزءان، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم، ط١، دار إحياء الكتب العربية، ١٣٨٧هـ / ١٩٦٧م.
٤٧. أبو شامة [شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي] ت (٦٦٥هـ / ١٢٦٧م) : للروضتين في أخبار الدولتين الدورية والصلاحية، ج ١، من قسمين، تحقيق : محمد حلمي محمد أحمد، مراجعة : مصطفى زيادة، وزارة الثقافة للإرشاد القومي، المؤسسة المصرية العامة، القاهرة، ١٩٥٦ - ١٩٦٢م.
٤٨. أبو صالح الأرمني [المؤمن أبو الحكام سعد الله بن جرجس بن مسعود] (ت ٦٠٥هـ / ١٢٠٩م) : تاريخ الشيخ أبو صالح الأرمني، تذكر فيه أخبار من نواحي مصر وأقطاعاتها،

- تحقيق : زرق الله منقريوس الصدقي، المطبعة المدرسية، أكسفورد، ١٨٩٣م.
٤٩. _____ : تاريخ أبو المكارم، المعسروف بكثانس وادير، مصر، طبعة أكسفورد، ١٨٩٥م.
٥٠. للصفي [صلاح الدين خليل بن أبيك]، ت (٧٥٤هـ / ١٣٦٣م) : الوافي بالوقفيات، ١-١٨، ٢٢، تحقيق : مجموعة من العلماء (النشرات الإسلامية ٦)، استامبول، بيروت، ١٩٤٩ - ١٩٨٨م.
٥١. ابن الصيرفي [تاج الرئاسة أمين الدين أبو القاسم علي بن منجب بن سنيان الكافي]، ت (٥٤٢هـ / ١١٤٧م) : الإشارة (إلى من نال الوزارة، تحقيق : أيمن فؤاد سعيد، ط١، الدار المصرية اللبنانية، ١٤١٠هـ / ١٩٩٠م.
٥٢. ابن طباطبا [محمد بن علي] : للفخري في الأداب السلطانية والدون الإسلامية، تحقيق: عبد القادر مايو، دار النظم العربي: ١٩٩٧م.
٥٣. الطبري [محمد بن جرير بن يزيد بن كثير من غلب الأمل]، (ت ٣١٠هـ / ٩٢٢م) : جامع البيان في تفسير القرآن، (الأجزاء ٢٤، تحقيق أحمد محمد شنكر، مؤسسة الرسالة، المملكة السعودية، ١٤٢٠هـ / ٢٠٠٠م.
٥٤. _____ : تاريخ الطبري أو تاريخ الأمم والملوك، عشر أجزاء، مؤسسة الأعلى للمطبوعات، بيروت، لبنان، بدون تاريخ.
٥٥. _____ : تاريخ الرسل والملوك، ج ٨، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة.
٥٦. ابن الطوير [أبو محمد المرتضى عبد السلام بن الحسن الفهرري القيسراني]، ت (٦١٧هـ / ١٢٢٠م) : نزعة

- المقلتين في أخبار الدولتين، تفتيم : أومن فؤاد سيده، المنشورات الإسلامية، ٣٩، شتوتجارت، ١٩٩٢م.
٥٧. ابن ظافر [جمال الدين أبو الحسن علي بن أبي منصور ظافر الأزدى] ت (٦١٢هـ / ١٢١٥م) : أخبار الدول المنقطعة، دراسة تحليلية للنسب الخاص بالفاطميين، مع مقدمة وتعليق إندرية فريه، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة، ١٩٧٢م.
٥٨. ابن ظهيرة [محمد بن محمد]، ت (٨٨٨هـ / ١٤٨٣م) : الفضائل الباهرة في محاسن مصر والقاهرة، تحقيق : مصطفى السقا وآخرون، مطبعة دار الكتب، القاهرة، ١٩٦٩م.
٥٩. ابن عذاري [أبو عبد الله محمد بن محمد المراكشي]، ت (٦٩٥هـ / ١٢٩٥م) : البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ج ١، تحقيق : ج. من كولان، وليفى بروفسال، ليدن، ١٩٤٨م.
٦٠. القاضي النعمان [ابن محمد بن حيون]، ت (٣٦٣هـ / ٩٧٣م) : دعائم الإسلام في ذكر الحلال والحرام والقضايا والأحكام عن أهل بيت رسول الله عليه وعليهم أفضل السلام، ١ - ٢، تحقيق : أصف بن علي بن أصغر فيضى، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٥م.
٦١. القلقشندي [شهاب الدين أبو العباس أحمد بن علي بن عبد الله بن جمال]، ت (٨٢١هـ / ١٤١٨م) : صئح الأعشى في صناعة الإنشا، ١ - ١٤، طبعة دار الكتب، القاهرة، ١٩٣٨ - ١٩١٢م.
٦٢. المخزومي [القاضي السعيد ثقة النقيب ذو الرياستين] (أو الحسن علي بن أبي عمرو عثمان بن يوسف)، ت (٥٨٥هـ) : المنهاج في علم خراج مصر، المعهد العلمي الفرنسي للآثار، القاهرة، ١٩٨٦م.

٦٣. _____ : تعاضد الحنفيا بأخبار الأئمة
للفاطمية الخلفاء ١ - ٣، الأول، تحقيق : جمال الدين الشيبان،
الثاني والثالث، تحقيق : محمد حلمي محمد أحمد، المجلس
الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ١٩٦٧ - ١٩٧٣م.
٦٤. _____ : إشاعة الأمة بكشف الغمّة، تحقيق
: محمد مصطفى زيادة، وجمال الدين الشيبان، القاهرة،
١٩٥٧م.
٦٥. _____ : السلوك لمعرفة دول الملوك،
ج ١، دار الكتب، القاهرة، ١٩٩٦م.
٦٦. _____ : المقفى الكبير، ١ - ٨، تحقيق :
محمد النعلوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩١م.
٦٧. _____ : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط
والآثار، ١ - ٢، بولاق، ١٢٧٠هـ.
٦٨. _____ : شذوذ العقود في ذكر النقود،
دراسة وتحقيق : محمد عبد الستار عثمانوي، القاهرة،
١٩٩٠م.
٦٩. ابن مماتي [أبو المكارم الأسعد بن مهذب الحظير أبو سعيد
بن مينا]، ت (٦٠٦هـ / ١٢٠٩م)؛ قوانين الدواوين، تحقيق
: عزيز سوريال عطية، القاهرة، الجمعية الملكية الزراعية،
١٩٤٣م.
٧٠. ابن منظور [جمال الدين محمد بن مكرم] : لسان العرب،
ط ١، م ٣، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، دار صادر،
بيروت، ١٩٩٠.
٧١. _____ : لسان للعرب، تحقيق : عبد
الله علي الكبير وآخرون، دار المعارف، القاهرة، بدون
تاريخ.

٧٢. ابن ميسر [إناج الدين محمد بن علي بن يوسف بن حلب راغب]: ت (٦٧٧هـ / ١٢٧٨م): "أخبار مصر - المنقوي من"، حققه وكتب مقدمته وحواشيه: أيمن فؤاد سيد، المعهد العلمي الفرنسي للأثار الشرقية، القاهرة، ١٩٨١م.
٧٣. المؤيد في الدين هبة الله بن موسى الشيرازي]: ت (٤٧٠هـ / ١٠٧٧م): "سيرة المؤيد في الدين واعى الدعاء، ترجمة حياته بقلمه"، تقديم وتحقيق: محمد كامل حسين، دار الكتاب المصري، القاهرة، ١٩٤٩م.
٧٤. ناصر خسرو [أبو معين الدين ناصر خسرو غلوي]: ت (٤٨١هـ / ١٠٨٨م): "سفرنامه، ترجمة: يحيى الخشاب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٢م.
٧٥. الترشيحي [أبي بكر محمد بن جعفر]: ت (٢٨٦ - ٣٤٨هـ / ٨٩٩ - ٩٥٩م): "تاريخ بخاري، ط٣، ترجمة: د. أمين عبد المجيد يردي، نصر الله مبشر العزازي، دار المعارف، القاهرة، ١٩٩٣م.
٧٦. النويري [شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب]: ت (٧٣٣هـ / ١٣٣٣م): "نهاية الإرب في فنون الأدب، ج ٢٨، تحقيق: محمد محمد أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٢م.
٧٧. ابن النديم [محمد بن إسحاق]: ت (٤١٢هـ / ١٠٢١م): "الفهرست، نشره: رضا تجدد، طهران، ١٩٧١م.
٧٨. ابن هشام: "السيرة النبوية، ٤ أجزاء، ط١، تحقيق: محمد كامل عويضة، دار العنان، القاهرة، ٢٠٠٢م.
٧٩. ابن واصل [جمال الدين محمد بن مسلم الحموي]: ت (٦٩٧هـ / ١٢١٧م): "مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، ١ - ٣، تحقيق: جمال الدين الشعال، مطبعة جامعة فؤاد

الأول، القاهرة، ١٩٥٣ - ١٩٦٠م، ٤ - ٥، تحقيق : حسين
محمد ربيع، القاهرة، ١٩٧٢م - ١٩٧٧م.

٨٠. ياقوت الحموي [شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت الرومي
البغدادي]، ت (٦٢٦هـ / ١٢٢٨م) : معجم البلدان، خمسة
أجزاء، تحقيق : فريد عبد العزيز الجندي، دار الكتب العلمية،
بيروت، بدون تاريخ.

رابعاً : المراجع :

٨١. إبراهيم العدوي (دكتور) : تاريخ العالم الإسلامي، مطبعة
جامعة القاهرة، القاهرة، ١٩٨٦م.
٨٢. إبراهيم أنيس وآخرون : للمعجم الوسيط، ج ٢، ط ٢، بدون
تاريخ.
٨٣. إبراهيم رزق الله أيوب (دكتور) : التاريخ الفاطمي
الاجتماعي، ط ١، المكتبة العالمية للكتاب، لبنان، بدون تاريخ.
٨٤. إبراهيم سنان الكردي، وعبد التواب شرف الدين :
الحضارة العربية الإسلامية، منشورات ذات السلاسل،
الكويت، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م.
٨٥. إبراهيم عبد الله رفيدة وآخرون : معاني القرآن الكريم،
تفسير لغوي موجز، جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، ط ١،
طرابلس، ليبيا، بدون تاريخ.
٨٦. إبراهيم محمد علي مرجونة (دكتور) : تاريخ الأكراد (دراسة
تاريخية حضارية في ظل الخلافة العباسية)، تقديم : سحر
السيد عبد العزيز سالم، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية،
٢٠٠٩م.
٨٧. أحمد السيد الصاوي (دكتور) : مجاعات مصر الفاطمية
(أسباب ونتائج)، ط ١، دار التضامن للطباعة والنشر
والتوزيع، بيروت، ١٩٨٨م.

٨٨. أحمد عبد الرزاق : البذل والبرطلة زمن سلاطين للمماليك،
الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٩م.
٨٩. أحمد مختار العبادي (دكتور) : في التاريخ العباسي
والفاطمي، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت،
١٩٧١م.
٩٠. _____ : صور من حياة الحرب
والجهاد في الأندلس، منشأة دار المعارف، الإسكندرية،
٢٠٠١م.
٩١. _____ : في التاريخ الأيوبي
والمملوكي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، بدون تاريخ.
٩٢. _____ : في تاريخ المغرب والأندلس،
دار النهضة العربية، بيروت، بدون تاريخ.
٩٣. أحمد محمد إسماعيل الجمال (دكتور) : في تاريخ المغرب
والأندلس، جامعة الإسكندرية، فرع منهور، ٢٠٠٣م.
٩٤. أمينة الشورجي (دكتور) : رؤية الرحالة المسلمين للأحوال
المالية والاقتصادية لمصر في العصر الفاطمي، سلسلة تاريخ
المصريين، عدد (٧٢)، الهيئة المصرية العامة للكتاب،
القاهرة، ١٩٩٤م.
٩٥. إبراهيم حبيب المصري : قصة الكنيسة القبطية، الكتاب الرابع،
مكتبة كنيسة مارجرجس، أسبورتج، الإسكندرية.
٩٦. أيمن فؤاد سيد (دكتور) : النولة الفاطمية في مصر تفسير
جديد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٧م.
٩٧. جرجي زيدان (دكتور) : تاريخ التمدن الإسلامي، ٥ أجزاء،
ج ٤، مراجعة وتعليق : حسين مؤنس، القاهرة، ١٩٧٢م.
٩٨. جمال الدين الشبال (دكتور) : تاريخ الدولة العباسية، دار
الفكر العربي، القاهرة، ١٩٩٣م.

٩٩. _____ : تاريخ مدينة الإسكندرية في العصر الإسلامي مدار المعارف، القاهرة، ١٩٦٧م.
١٠٠. جوزيف تسييم يوسف (دكتور) : تاريخ الدولة البيزنطية، دار لمعرفة الجامعة، الإسكندرية، ١٩٨٨م.
١٠١. حسن إبراهيم حسن (دكتور) : الفاطميون في مصر وأعمالهم للسياسة والدينية، الطبعة الأميرية، القاهرة، ١٩٣٢م.
١٠٢. _____ : عبد الله المهدي إمام الشيعة الإسماعيلية ومؤسس الدولة الفاطمية في بلاد المغرب، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٣٦٦هـ / ١٩٤٧م.
١٠٣. _____ : تاريخ الدولة الفاطمية في المغرب ومصر وسورية وبلاد العرب، ط٢، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٨م.
١٠٤. _____ : تاريخ الإسلام السياسي والديني والاجتماعي، ج٣، العصر العباسي فسي الشرق ومصر والمغرب والأندلس، (٢٣٢ - ٤٤٧هـ / ٨٤٧ - ١٠٥٥م)، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٤١٦هـ / ١٩٩٦م.
١٠٥. _____ : تاريخ الدولة الفاطمية فسي المغرب ومصر وسورية وبلاد العرب، ط٢، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٨م.
١٠٦. حسن الباشا وآخرون : القاهرة (تاريخها، صورها، آثارها)، مؤسسة الأهرام، القاهرة، ١٩٧٠م.
١٠٧. حسن حبشي (دكتور) : تاريخ العالم الإسلامي، ج١، سلسلة تاريخ المصريين، العدد (٢٢٨)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٢م.

١٠٨. _____ : ج٢، سلسلة تاريخ المصريين
العدد (٢٥٩)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة
٢٠٠٦م.
١٠٩. حسن عبد الوهاب (دكتور): تاريخ المساجد الأثرية، ١ - ٢،
القاهرة، دار الكتب المصرية، ١٩٤٦م.
١١٠. _____ : تاريخ المساجد الأثرية، ط٢،
الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٤م.
١١١. حسين مؤنس (دكتور): معالم تاريخ المغرب والأندلس،
مكتبة الأسرة، القاهرة، ٢٠٠٤م.
١١٢. حمدي المناوي (دكتور) : للوزارة والوزراء في العصر
الفاطمي، مكتبة الدراسات التاريخية، مطبعة دار المعارف،
القاهرة، ١٩٧٠م.
١١٣. حمدي عبد المنعم حسن (دكتور) : محاضرات في تاريخ
مصر الإسلامية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية،
١٩٩٩م.
١١٤. راشد البراوي (دكتور) : حالة مصر الاقتصادية في عهد
الفاطميين، ط١، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٣٦٨هـ
/ ١٩٤٨م.
١١٥. رأفت محمد البراوي (دكتور) : النقود الصليبية في مصر
والشام، ط١، دار نهضة الشرق، القاهرة، ١٩٩٦م.
١١٦. رمسيس بهنام (دكتور) : "لقاقون" الجريمة والمجرم في
الواقع الكوفي، منشأة المعارف، الإسكندرية، ٢٠٠١م.
١١٧. سامي أحمد عبد الحلیم إمام (دكتور) : المنوجات الأثرية
للقبطية والإسلامية (المحفوظة في متحف جاير أندرسون
بالقاهرة)، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية.

١١٨. سعاد ماهر محمد (دكتورة): التسيج الإسلامي، الجهاز المركزي للكتب الجامعية والمدرسية والوسائل التعليمية، القاهرة، ١٩٧٧م.
١١٩. سعيد عبد الفتاح عاشور وآخرون: دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٩٩م.
١٢٠. سلام شافعي (دكتور): أهل الذمة في مصر في العصر الفاطمي الأول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة تاريخ المصريين، عدد [٧٥]، ١٩٩٥م.
١٢١. _____: أهل الذمة في مصر في العصر الفاطمي الثاني والأيوبي، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٢م.
١٢٢. سليمان عبد المنعم سنيمان (دكتور): أصول علم الإجرام القانوني في إشكالات تأصيل علم الإجرام، التحليل الوصفي لظاهرة الجريمة، التحليل التفسيري لظاهرة الإجرام، دار الجامعة الجديدة، الإسكندرية، ٢٠٠١م.
١٢٣. سهام مصطفى أبو زيد (دكتور): الحسبة في مصر الإسلامية من الفتح العربي إلى نهاية العصر المملوكي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٦م.
١٢٤. السيد عبد العزيز سالم (دكتور): التاريخ والمؤرخون العرب، دار الكتاب العربي لطباعة والنشر، الإسكندرية، ١٩٦٧م.
١٢٥. _____: تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس (من الفتح العربي حتى سقوط الخلافة بقرطبة، مكتبة الأبحاث التاريخية والأثرية، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨١م.
١٢٦. _____: تاريخ المغرب في العصر الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، بدون تاريخ.

١٢٧. _____ : تاريخ الدولة العربية، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ١٩٩٧م.
١٢٨. _____ : دراسات في تاريخ العرب (العصر العباسي الأول)، ج ٣، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية.
١٢٩. _____ : دراسات في تاريخ العرب (تاريخ الدولة العربية)، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ١٩٩٧م.
١٣٠. السيد عوض (دكتور): "قانون" الجريمة في مجتمع متغير، المكتبة المصرية، الإسكندرية، ٢٠٠١م.
١٣١. سيد إسماعيل كاشف (دكتور) : مصر الإسلامية وأهل الذمة، سلسلة تاريخ المصريين، عدد (٥٧)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، عدد (٨٢)، ١٩٩٢م.
١٣٢. _____ : أحمد بن طوئون، المؤسسة العامة للتأليف والنشر، القاهرة، بدون تاريخ.
١٣٣. _____ : مصر في عهد الإخشيديين، مطبعة جامعة فؤاد، للقاهرة، ١٩٥٠م.
١٣٤. _____ : مصر في فجر الإسلام من انفتح العربي إلى قيام الدولة الطولونية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة تاريخ المصريين، العدد (٨٢)، القاهرة، ١٩٩٤م.
١٣٥. شوقي ضيف (دكتور) : في الشعر والفكاهة في مصر، دار المعارف، القاهرة، بدون تاريخ.
١٣٦. صلاح أحمد هريدي (دكتور) : دراسات في تاريخ مصر الحديث والمعاصر، ط١، ج ٢، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية.

١٣٧. ضيف الله محمد يحيى الزهراني (دكتور): زيف النقود الإسلامية من صدر الإسلام حتى نهاية العصر المملوكي، ط١، مكتبة مكة المكرمة، ١٩٩٣م.
١٣٨. عبد الرحمن بدوي (دكتور): اندروز، ملحق بكتاب مذاهب الإسلاميين، ج٢، ط١، بيروت، ١٩٧٣م.
١٣٩. عبد العزيز الدوري (دكتور): تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري، دار المشرق، بيروت، ١٩٧٤م.
١٤٠. عبد القادر خريسات (دكتور): المرأة والمشاركة السياسية في ظل الدولة السيامية، (دراسة تطبيقية منذ العصر اناجلي حتى سقوط الخلافة انجاسية في بغداد)، ٦٥٦هـ / ٢٥٨م، ط١، الأردن، ١٩٩٨م.
١٤١. عبد المتعال محمد للجبري: أصالة الدواوين والنقود العربية، ط١، مكتبة وهبة، القاهرة، ١٩٨٩م.
١٤٢. عبد المنعم سلطان (دكتور): المجتمع المصري في العصر الفاطمي (دراسة تاريخية وثائقية)، دار المعارف، القاهرة، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م.
١٤٣. عبد المنعم ماجد (دكتور): نظم الفاطميون ورسومهم في مصر، جزءان، ج٢، ط٣، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٧٨م.
١٤٤. _____: نظم الفاطميون ورسومهم في مصر، جزءان، ج١، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٨٥م.
١٤٥. _____: الحاكم بأمر الله الخليفة المفترى عليه، القاهرة، ١٩٥٩م.
١٤٦. _____: ظهور الخلافة وسقوطها في مصر (للتاريخ السياسي)، ط٢، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م.

١٤٧. عبود سراج (دكتور) : قانون العقوبات، القسم العام، جامعة دمشق، بدون تاريخ.
١٤٨. عثمان علي محمد عطا (دكتور) : الأزمات الاقتصادية في مصر في العصر المملوكي وأثرها السياسي والاقتصادي (٦٤٨ - ٩٢٣هـ / ١٢٥٠ - ١٥١٧م)، سلسلة تاريخ المصريين، عدد (٢١٣)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٦م.
١٤٩. عطية مصطفى مشرفة (دكتور) : نظم الحكم بمصر في عهد الفاطميين، ط١، دار الفكر العربي، ١٣٦٧هـ / ١٩٤٨م.
١٥٠. علي إبراهيم حسن (دكتور) : مصر في العصور الوسطى من الفتح العربي إلى الفتح العثماني، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٤٧م.
١٥١. _____ : تاريخ جوهر الصقلي، قائد المعز لدين الله الفاطمي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ٢٠٠٠م.
١٥٢. علي باشا مبارك : الخطط التوفيقية الجديدة، ١ - ٨، دار الكتب المصرية، ١٩٦٩ - ١٩٩٠م.
١٥٣. علي حسني الخريوطي (دكتور) : مصر العربية الإسلامية (السياحة والحضارة في مصر في العصر العربي الإسلامي منذ الفتح العربي إلى الفتح العثماني، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٦٣م.
١٥٤. _____ : أبو عبد الله الشيعي مؤسس الدولة الفاطمية، المطبعة الفنية الحديثة، القاهرة، ١٩٧٢م.
١٥٥. علي عبد القادر القهوجي وآخرون : علم الإجرام وعلم العقاب، دار المطبوعات الجامعية، الإسكندرية، ١٩٩٩م.
١٥٦. فاطمة أحمد عامر (دكتور) : تاريخ أهل الذمة في مصر الإسلامية (من الفتح العربي إلى نهاية العصر الفاطمي)، ١ -

- ٢، سلسلة تاريخ المصريين، الحدين (١٧٢)، (١٧٣)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٠م.
١٥٧. فتحية عبد الفتاح النبراوي (دكتور) : تاريخ النظم والحضارة الإسلامية، ط٥، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٩١م.
١٥٨. فوزي عطوي (دكتور) : في الاقتصاد السياسي والنقود والنظم النقدية، ط١، دار الفكر العربي، بيروت، ١٩٧٩م.
١٥٩. قاسم عيد قاسم (دكتور) : أهل انذمة في مصر في العصور الوسطى (دراسة وثائقية)، ط٢، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٩م.
١٦٠. _____ : اليهود في مصر من الفتح العربي حتى الغزو العثماني، ط١، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٨٢م.
١٦١. محمد الأمين الشبلي (لواء) : الفساد والجريمة للمنظمة، جامعة نايف للعلوم الأمنية، الرياض، ٢٠٠٢م.
١٦٢. محمد الصادق عفيفي (دكتور) : تطور الفكر العلمي عند المسلمين، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٧٧م.
١٦٣. محمد جمال الدين سرور (دكتور) : النولة الفاطمية في مصر، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٦٥م.
١٦٤. _____ : النفوذ الفاطمي في بلاد الشام والعراق في القرنين الرابع والخامس بعد الهجرة، دار الفكر العربي، القاهرة، ٣٧٦هـ / ١٩٥٧م.
١٦٥. _____ : سياسة الفاطميين الخارجية، ط٤، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٣٩٣هـ / ١٩٧٣م.
١٦٦. محمد خلف (دكتور) : مبادئ علم الإجماع، للدار الجماهيرية للنشر والتوزيع، الجماهيرية العربية الليبية، ١٩٩٦م.

١٦٧. محمد عاطف غيث (دكتور) 'فانون' : المشاكل الاجتماعية والسلوك الانحرافي، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٨٢م.
١٦٨. محمد عيد الله عنان : الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية، ط٣، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٨٣م.
١٦٩. _____ : تراجم إسلامية، دار المعارف، مصر، ١٩٤٧.
١٧٠. محمد ماهر حمادة (دكتور) : الوثائق السياسية والإدارية العائدة للعصور العيسمية المتتابعة (٢٤٧-٦٥٦هـ - ٨٦١-١٢٥٨م)، دراسة ونصوص، ط٣، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ١٩٨٥-٥١٤٠٦م.
١٧١. محمد مرسي الشيخ (دكتور) : تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، ط٢، الإسكندرية، ١٩٩٧م.
١٧٢. محمود سعيد عمران (دكتور) : تاريخ الحروب الصليبية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ٢٠٠١م.
١٧٣. مصطفى عبد المجيد كارة (دكتور) : مقدمة في الانحراف الاجتماعي، معهد الإنماء العربي، بنون تاريخ.
١٧٤. ناريمان عبد الكريم أحمد (دكتورة) : المرأة في مصر في العصر الفاطمي، سلسلة تاريخ المصريين، عدد (٢٦٦)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٣م.
١٧٥. _____ : معاملة غير المسلمين في الدولة الإسلامية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٦م.
١٧٦. _____ : دراسات في تاريخ مصر الإسلامية، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٢.
١٧٧. نعمت إسماعيل علام : فنون الشرق الأوسط في العصور الإسلامية، ط٣، دار المعارف، القاهرة.

١٧٨- هويدا عبد العظيم (دكتور) : المجتمع في مصر الإسلامية من
الفتح العربي إلى العصر الفاطمي، الهيئة المصرية العامة
للكتاب، القاهرة، ٢٠٠١م.

خامساً : الكتب الأجنبية المترجمة :

١٧٩- آدم متز : الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، أو
عصر النهضة في الإسلام، نقله إلى العربية : محمد عبد
الهادي أبو ريده، ١ - ٢، تونس، الدار التونسية للنشر،
١٩٨٦م.

١٨٠- ألفريد ج. بتلر : فتح العرب لمصر، تعريب : محمد فريد أبو
حديد بك، مكتبة مندبولي، القاهرة، ١٩٩٠م.

١٨١- بول ديكرولف : قصة المكروب، ترجمة : أحمد نكي، مطبعة
لجنة التأليف والترجمة، ١٩٦٩م.

١٨٢- جاك تاجر : أقباط ومسلمون منذ الفتح العربي إلى عام
١٩٢٢م، تقديم : سمير مرقص ومحمد عفيفي، الهيئة
المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠١٠م.

١٨٣- اندوميتي : اعلم عند العرب وأثره في تطور العلم العالمي،
ترجمة : عبد الحليم النجار، ومحمد يوسف موسى، دار انقلم،
القاهرة، ١٩٦٢م.

١٨٤- زامباور : معجم الأتساب والأمراء الحاكمة في التساريخ
الإسلامي، ط١، القاهرة، ١٩٥١م.

١٨٥- فرانسيس هيدسون : المرأة والجريمة، ترجمة ريهام حسين
إبراهيم، المجلس الأعلى للثقافة، ١٩٩١م.

١٨٦- ف. ويمستفاند : جدول السنين الهجرية بلياليها وشهورها بما
يوافقها من السنين الميلادية بلياليها وشهورها، تحقيق : عبد
للمنعم ماجد، عبد المحسن رمضان، مكتبة الأنجلو المصرية،
القاهرة، بدون تاريخ.

١٨٧. لاجوم : انفساد، ترجمة : سوزان خليل، ط١، عين للدراسات والبحوث الإسلامية، القاهرة، ٢٠٠٣م.

سادساً : الثوريات :

١٨٨. زياد محمد الجبالي : أمكن الكنزه ومظاهر الله والتسمية في العصر الفاطمي خلال شعر شعرائهم، المجلة العلمية لكلية الآداب بسوهاج، ثورية أكاديمية علمية محكمة، ج١، العدد (٢٦)، ٢٠٠٣م.

١٨٩. سحر السيد عبد العزيز السيد : اثنا عشر وأثرها في المجتمع والدولة في مصر منذ الفتح الإسلامي وحتى نهاية عصر الدولة الفاطمية (٢١ - ٥٦٧ هـ / ٦٤١ - ١١٧١ م)، بحث منشور في ندوة الدكتور / سعد زغلول عبد الحميد، كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، ٢٠٠٦م.

١٩٠. سعد زغلول عبد الحميد : الإسلام والتürk في العصر الإسلامي والوسيط، بحث منشور في عالم الفكر (١)، دراسات إسلامية تصدر من مجلة عالم الفكر، وزارة الإعلام، الكويت، ١٩٨٤م.

١٩١. سهير لطفي : ندوة الجرائم الاقتصادية المستحدثة من ٢٠ - ٢١ أبريل، ١٩٩٣م، ج١، القاهرة، ١٩٩٤م.

١٩٢. عمر صابر عبد الجليل : مخطوط يوحنا النيقوس تاريخ للعالم، وثيقة شاهد عيان على الفتح الإسلامي لمصر من كتاب أثر الإسلام في مصر وأثر مصر في الحضارة العربية الإسلامية، دراسات لجنة من الأساتذة، إشراف قاسم عبده قاسم، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ٢٠٠٣م.

سابعاً : الرسائل العلمية :

١٩٣. حسين إبراهيم زويل : الفساد الإداري وعلاقته بالتغير الاجتماعي، دراسة سوسيولوجية في المجتمع المصري، فترة ما بعد ١٩٧٠م، رسالة دكتوراه، غير منشورة، ٢٠٠٦م.

١٩٤. دعاء محمد أبو نور : التحولات الاجتماعية وظاهرة الفساد في المجتمع المصري (دراسة اجتماعية على أبعاد الظاهرة وتناولها الإعلامي)، رسالة دكتوراه، طنطا، ٢٠٠٣م.

١٩٥. عصام أنور جمعة : الآثار الاجتماعية لجريمة البغاء ودور الرعاية اللاحقة في مواجهتها من منظور الممارسة العامة للخدمة الاجتماعية، رسالة دكتوراه، غير منشورة، جامعة حلوان، ٢٠٠٥م.

١٩٦. هشام عبد القادر : إقليم الحوف الغربي "البحيرة حاليًا" في العصر الفاطمي، دراسة سياسية وحضارية من الفترة (٣٥٨ - ٥٦٧هـ / ٩٦٩ - ١١٧١م)، رسالة ماجستير، جامعة الإسكندرية، فرع منهور، ٢٠٠٨م.

ثامنًا : الأطلس :

١٩٧. أطلس تاريخ الإسلام : حسين مؤنس، ط١، انزهراء للإعلام العربي، القاهرة، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

١٩٨. زكي محمد حصن (دكتور): أطلس الفنون الزخرفية والتصاوير الإسلامية، القاهرة، ١٩٥٦م.

١٩٩. محمد رمزي : القاموس للجغرافي في البلاد الحالية، بدون تاريخ.

تاسعًا : المراجع الأجنبية :

200. Stanley Lane-Pool. A: History of Egypt in the Middle Ages.
201. ----- : Saladin and the Fall of the Kingdom of Jerusalem.
202. O'Leary : A Short History of the Fatimid Khalifate, London.
203. Mann (J) : The Jewsin Egypt and Palestine Under the Fatimid Chaliphs, Oxford.

204. Margoliouth, P.D, s : Cairo, Jerusalem and Damascus U.S.A.
205. Mah'e, Jean – Pierre : Les Armenians et L'Egypte, Le Monde Copt, No. 9, 1980, Paris.
206. Armenians in Egypt, Contribution of Armenians to Medieval and Modern Egypt.
207. Merriam Webster Dictionary- Definition Corruption.

٢٠٨. ذكي وليدي طوغان : عمومي تورك تاريخية كيرشي،
المدخل إلى التاريخ التركي العام، ج ١، مطبعة أمسون،
استانبول، ١٩٤٩م.

٢٠٩. كوبونلي زاده فؤاد : توركيا تاريخي، استانبول، ١٩٢٣م.

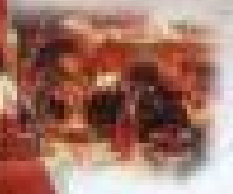
رقم الإيداع	٢٠١٣/٢٢٠٨٩ :
التقييم الدولي	L.S.B.N :
	978-977-212-238-7

الغذاء في الدولة القطرية

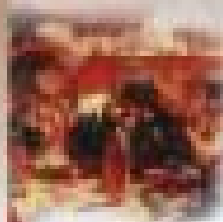
موسى - طارق - اجتماعيا - اقتصاديا

الغذاء في الدولة القطرية

موسى - طارق - اجتماعيا - اقتصاديا



موسى - طارق - اجتماعيا - اقتصاديا

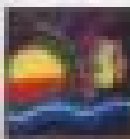


موسى - طارق - اجتماعيا - اقتصاديا

Al-Balad Publishing & Distribution



1802772



مؤسسة شباب الجامعة
٤٥ شارع فلسطين - القاهرة
الطبعة الأولى: ٢٠٠٤ - ٢٠٠٤
www.al-balad.com

ISBN: 978-9953-0-10-209-5



9 789772 122295